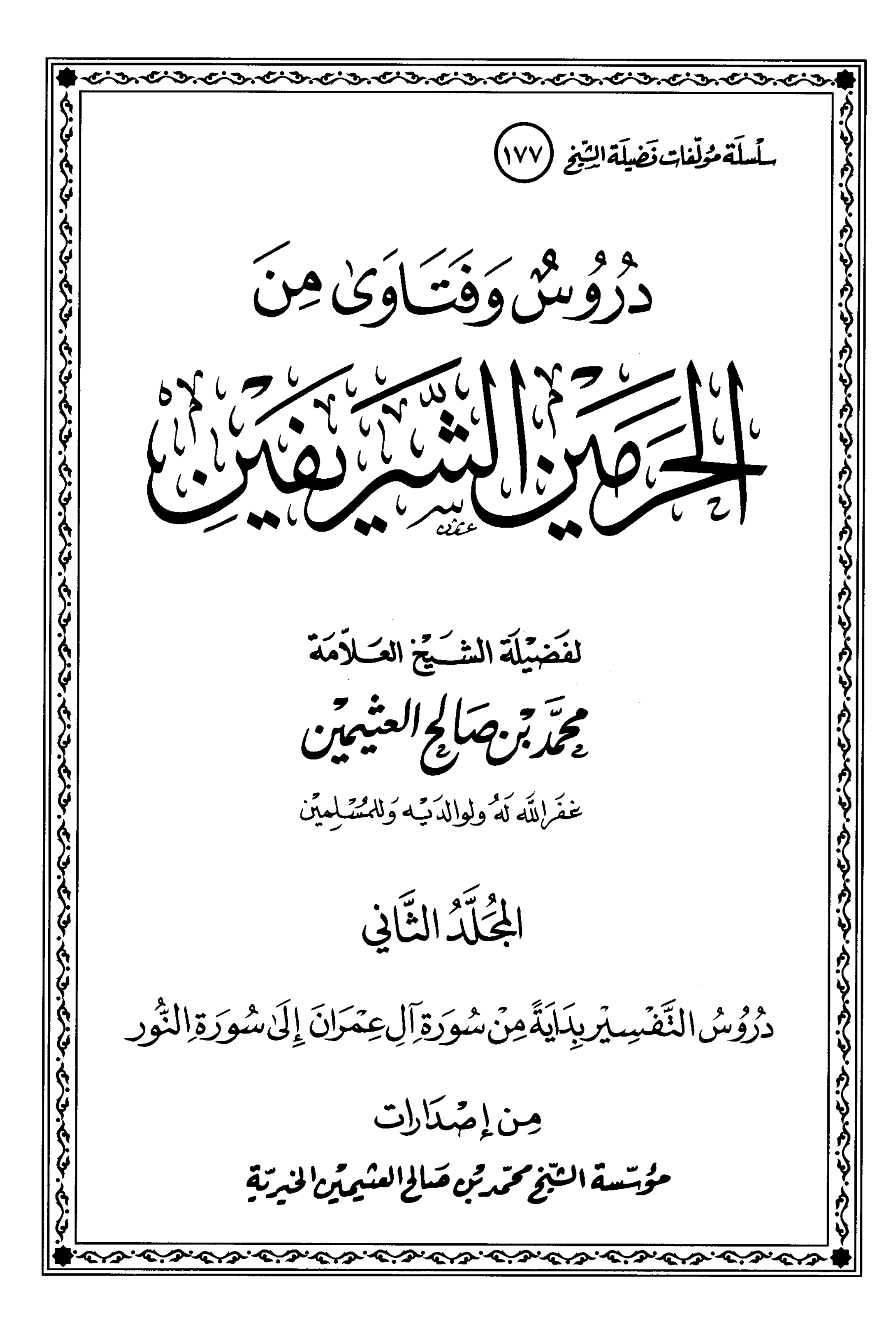


سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٧٧)

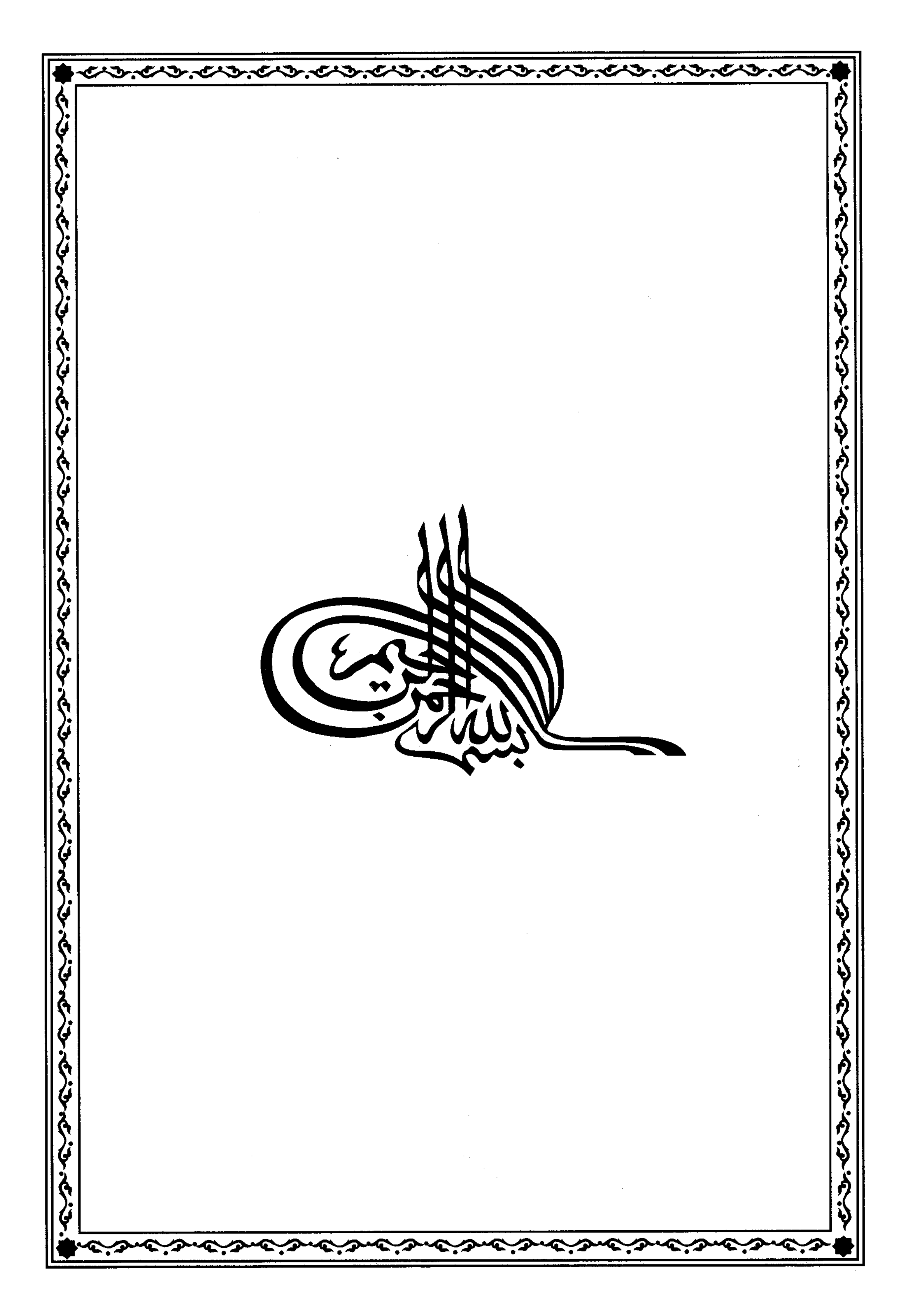
دروس وفتاوى من الحرمين الشريفين

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثاني

دروس التفسير بداية من سورة آل عمران إلى سورة النور

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم

دروس وفتاوى من

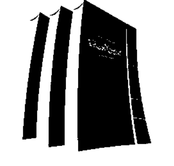
الحرمين الشريفين

المجلد الثاني

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ، ١٤٣٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين ، محمد بن صالح
دروس وفتاوى من الحرمين الشريفين . / محمد بن صالح العثيمين ط ١ -
القصيم ، ١٤٣٩ هـ / ١٨ مج .
٨٥٣ ص ؛ ١٧×٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين ؛ ١٧٧)
ردمك: ٣ - ٦٤ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
٧ - ٦٦ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٢)
١- الفتاوى الشرعية. ٢- الفقه الحنبلي. أ . العنوان
ديوي ٢٥٨,٤ ٢٠٣٥ / ١٤٣٩

رقم الإيداع: ٢٠٣٥ / ١٤٣٩
ردمك: ٣-٦٤-٨٢٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٧-٦٦-٨٢٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

الطبعة الأولى
١٤٣٩ هـ



يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩
هاتف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوّال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦
www.binothaimeen.net
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرَّة الدولية للطباعة والتوزيع
١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .
هاتف وفاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤



سورة آل عمران

الدرس الأول:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتَّقِينَ، ولا عُدوانَ إلَّا على الظالمينَ، وأشهد أن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحده لا شريك له، إله الأولينَ والآخرينَ، وصلى الله وسلَّمَ على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه، ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قال تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

هذه شهادةٌ عظيمةٌ من أعظمِ الشهاداتِ؛ لأن الله ابتدأها بنفسِه فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ثمَّ ثنَّى بملائكتِه فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ثمَّ ثلَّث بأولي العلم فقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾. والمشهودُ عليه وحدانيةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالأُلُوهِيَّة: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي لا معبود حقّ إلا هو جَلَّ وَعَلَا، وأن جميعَ المعبودات من دونه فهي باطلة، قَالَ اللهُ تَعَالَى مبيِّنًا هذا على وجهِ التفصيلِ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢]، فإذا تمت هذه الشهادةُ فإن الإنسانَ لا يمكِن أن يعبدَ إلا اللهَ وحدَه لا شريكَ له، فلا يعبدُ مَلَكًا من الملائكةِ، ولا نبيًّا من الأنبياءِ، ولا وَلِيًّا من الأولياء، ولا رئيسًا من الرؤساءِ، ولا مَلِكًا من الملوكِ، فلا يعبد إلا واحدًا وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

ومَن أخَلَّ بهذا التوحيدِ فإنه مُشرِك كافِر، ولو أقرَّ بأن الله هو الخالِق الرازق

المدبِّر للأمور كلِّها؛ لأن الإقـرار بِمَقام الربوبيَّة دون مَقام الأُلوهيَّة حاصلٌ منَ المشرِكينَ، الَّذِينَ قاتلهمُ النبـيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ واستباح دِماءَهم وأموالَهم، وسبَى ذراريَّهم ونساءَهم؛ قال تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، وقال تَعَالَى: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس:٣١]، فهم يُقِرُّون بالربوبيَّة وانفراد الله تَعَالَى بها، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميعِ الأمورِ، ومع ذلك لم يُدخِلْهم هذا في الإسلامِ، فلا بُدَّ من توحيدِ الله تَعَالَى بالعبادةِ.

ومنَ المؤسِف أن بعضَ المعاصِرين الَّذِينَ يكتبون في التَّوحيدِ يُهمِلون هذا الجانب -أعني جانب الأُلُوهِيَّة- إهمالًا تامًّا، وإن ذكروه فكأنما يمرون عليه مرورَ العَجَالَى، وتجد أكثرَ ما يقرِّرون توحيدَ الربوبيَّة، ولا شَكَّ أن هذا تبِعوا فيه المتكلِّمينَ، الَّذِينَ يقولون: إن التوحيدَ هو أن الله واحِد في ذاتِهِ لا قَسيم له، وواحد في أفعالِهِ لا شَريكَ له، وواحـد في صفاتِهِ لا شبيهَ له. وهذا التعريـف للتوحيدِ لا شكَّ أنَّه ناقِص؛ لأنهم أهملوا أهمَّ شيءٍ في التوحيدِ، بل أهملوا ما جاءتِ الرسلُ من أجلِهِ وتقريرِه، وهو توحيد العبادةِ أو الأُلُوهِيَّة، ويُسمَّى توحيدَ العبادةِ باعتبارِ فعلِ العبدِ، وتوحيدَ الأُلُوهِيَّة باعتبارِ توحيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بذلك.

المهم -يا إخواننا- أن الواجبَ علينا أن نركِّز تركيزًا تامًّا على توحيدِ الأُلُوهِيَّة، حتَّى نسلخَ الشركَ من قلوبِ أولئك الَّذِينَ يتعلَّقون بالقبورِ، ويعبدون القبورَ، ويَنذُرون لها، ويظنون أنَّهم على حقٍّ، ولكنهم على ضلالٍ. وسببُ ذلك -واللهُ أَعْلَمُ- أمور؛ منها أن العلماء هناك ساكتونَ، لا يبيِّنون للعوامِّ أنَّهم على ضلالٍ، وإنْ بيَّن بعضهم فإنَّما يكون بيانًا ضعيفًا لا يَسري في الشعبِ.

إننا نسمع أنَّه يوجد في بعضِ البلاد الإسلاميَّة مَن يَتَرَدَّدون إلى قبر فلانٍ أو فلان، وليتَهم يَزُورونه ويَدْعون له، بل إنَّهم يَدْعُونه من دون الله عَزَّوَجَلَّ ويقولون: إنَّه وليٌّ، وإن له جاهًا عند الله، وإننا نريد أن يشفعَ لنا عند اللهِ فنسجد له، ونَنذُر له ليشفعَ لنا.

وما هذا إلَّا قول المشركينَ تمامًا؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وهذا قول المشركينَ تمامًا.

وهذا المُشركُ لا ينفعه صلاة، ولا صَدَقة، ولا صِيام ولا حجٌّ ولا عُمرة؛ لأنَّه مشرِك، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢].

إنني أدعو إخواني في كلِّ مكانٍ أن يَنتبهوا لهذه النقطةِ المهمَّة الَّتي أهملها كثيرٌ من النَّاسِ، ألا وهي توحيدُ الأُلُوهِيَّة، أي إفراد الله عَزَّوَجَلَّ في العبادةِ، بحيثُ لا يُشرَك به نبيٌّ مُرسَل، ولا مَلَك مُقرَّب، ولا وليٌّ مُتَّقٍ، ولا أحد منَ الخَلق.

قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبودَ حقّ إلَّا هو عَزَّوَجَلَّ، والمعبوداتُ من دونِه كلها باطلة، فالذين يعبدونَ المَسيحَ كالنَّصَارَى مثلًا عبادتهم باطِلة، والذين يعبدونَ الشمسَ عبادتُهم باطلة، والذين يعبدونَ القمرَ عِبادتهم باطِلة، والذين يعبدونَ الكواكبَ عبادتهم باطلةٌ، والذين يَعبُدون البقرَ عِبادتهم باطِلة؛ لأنَّ هناك مَن يَعبد البقرَ، فيأتي إلى البقرةِ ويَدْعُوها ويَعْبُدها ويركَع لها ويَسْجُد لها، وهي بقرةٌ! والبقرةُ أدنَى حالًا منَ البشرِ لا شَكَّ، ومع ذلكَ زُيِّنَ لهم سُوءُ أعمالِهم. نسأل اللهَ لنا ولهمُ الهداية.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ (أل) هنا للعمومِ، يعني جميع الملائكة يشهدون بأنه لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

والملائكةُ هم عالم غيبـيٌّ أخبرنا الله تَعَالَى عنهم وعن صِفاتهم وأعمالهم، عَرَفنا مَن عرفنا منـهم وجهِلنا مَن جهلنا منـهم، هَؤُلاءِ الملائكة خُلِقوا من نُور، وخلقوا صُمدًا ليس لهم أمعاءٌ، ولا يأكلون ولا يشربونَ، وإنما يعبدونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لا يَفتُرون، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠].

والملائكةُ جنود مجـنَّدة؛ منهم مَن وُكِّلَ بالوحي، يَنزل به على الأنبياءِ، وهو جِبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن هذا المَلَكَ وكَّله اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالوحي، ينزل به على الأنبياءِ من عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢]، وُروح القُدُس هو جِبريل.

وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، فهو مُوَكَّل بالوحي، رآه النبي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ على صُورته الَّتي خُلِقَ عليها مرتينِ؛ مرة رآه بالأرضِ له سِتُّ مئة جَناح، -لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ!- قد سدَّ الأفـق[1]، ومرة رآهُ عند سِدْرَةِ المُنتهَـى حين عُرِجَ برسولِ اللهِ ﷺ إلى السَّماء؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ [النجم:١٣-١٦]. فرآه على صورتِهِ مرتينِ، وبقيَّة الأحوالِ يَراه كيف يشاء اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤).

ومرةً جاء إلى النبـيِّ ﷺ وهو جالِس مع أصحابِهِ عليه ثِياب بِيض شَديدةُ البياضِ، شديد سوادِ الشعرِ، لا يُرَى عليه أثرُ السفرِ، والصَّحَابَةُ لا يَعرِفونه فهو ليس مسافرًا عليه علاماتُ السفرِ، وليس مَعلومًا ليقولوا: إنَّه من أهـلِ المدينةِ، فجلس إلى النبيِّ ﷺ جِلسة المتأدِّبِ، وسأله عن أمورٍ خمسةٍ؛ سأله عن الإسلامِ، وسأله عن الإيمانِ، وسأله عن الإحسانِ، وسأله عن الساعةِ، وسأله عن أشراطِها، فعلَّمه النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، ثمَّ انطلق الرجلُ، فقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»[1].

ومن الملائكةِ من وُكِّلَ بنفخِ الصُّـورِ، وهو إسرافيل، فإن إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ أحدُ الملائكةِ العظماءِ، وكَّله الله تَعَالَى بنفخِ الصورِ، ونفخُ الصورِ يكون عند انتهاءِ الدنيا، وعند ابتداءِ الآخِرة، فينفخ إسرافيلُ في الصورِ، وهو عبارة عن قَرن عَظيم سَعَته سعة السَّماوات، ينفخ فيه فيكون له صوتٌ عظيمٌ جدًّا جدًّا، فيَفزَع النَّاس من هذا الَّذِي سمِعوا، ثمَّ يموتون إلَّا مَن شاء الله، ثمَّ ينفخ النفخة الأُخرَى فيُبعَثون، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ صَعِقوا أي هَلَكوا وماتوا ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، والموكَّل بالنفخِ في هذا الصُّور هو إسرافيلُ.

ومن عُظماء الملائكةِ مِيكائِيلُ، وهو مُوَكَّل بالقَطْر والنباتِ، يعني بالمطَر ونبات الأرضِ.

فهؤلاء ثلاثةٌ من عُظماء الملائكةِ، ولهذا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ يَستفتِح صلاةَ اللَّيْل بذكر هَؤُلاءِ الثلاثة فيقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ،**

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام والقدر وعلامة الساعة، رقم (٨).

وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[1].

فيستفتح صلاة اللَّيْل بهذا؛ لأنَّه في مُستقبَل النهارِ، ومستقبلُ النهارِ بمَنزِلة البَعثِ؛ كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام:٦٠].

فهَؤُلاءِ ثلاثة من الملائكةِ الكِرام، ونعرف أسماء آخرينَ؛ مثل (مالِك) خازن النار، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن أهل النَّار: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

ومنهم (رضوان) على ما قيل: إنَّه خازِن الجنة.

ومنهم (مُنكَر ونكير) على ما قيل، اللذانِ يَسألان الميتَ إذا دُفن، فإن الميت إذا دُفن يأتيه ملكان فيُجلِسانه وهو في قبرِه، ويسألانِه عن ثلاثةِ أشياءَ: عن ربهِ ودينهِ، والثَّالث نبيِّه[2]. أسأل الله تَعَالَى أن يُلْهِمَني وإياكم الصوابَ في الإجابة في ذلك الموقفِ الحرِج.

ومِنهم ملائكةٌ مُوَكَّلون بِحِفْظِ أعمالِ بني آدمَ؛ عن اليمين قَعيد، وعن الشمال قَعيد، يكتبان عملَ الإنسانِ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، أيُّ قولٍ تَلفِظه فعندك الرقيبُ، يعني المُراقِب، والعَتيد الحاضر يكتب ما تقول.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠).
(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

كان الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله وألحقنا به وبإخواننا المؤمنين في جنات النعيمِ- مريضًا ويَئِنُّ منَ المرضِ، فقيل له: إن طاوسًا -رجل من كِبَارِ التابعينَ- كَانَ يَكْرَهُ الأَنِينَ فِي المَرَضِ. فَمَا سُمِعَ لَهُ أَنِينٌ حَتَّى مَاتَ[1]، مع أن أنينَ المريضِ قد يكون بغيرِ اختيارٍ؛ لكن لِوَرَعِ الإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تركه؛ خوفًا من أن يُكتَب عليه، فكيف بنا الآن ونحنُ نُطلِق القولَ بلا كيلٍ ولا وزنٍ، بالحلالِ والحرامِ واللغوِ، وبكل شيءٍ، نسأل الله أن يعاملنا بعفوه.

ومن الملائكة من هم مُوَكَّلون بحِفظ بني آدمَ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١].

ومنهم ملائكةٌ سيَّاحون يَسيحونَ في الأرضِ يَلتمسونَ حِلَقَ الذِّكْر، فإذا رأَوُا الحَلْقة جلسوا عندنا يَستمعونَ الذِّكْرَ[2].

المهم أن الملائكةَ التعريفُ العامُّ لهم أنَّهم عالمٌ غيبيٌّ خُلِقُوا من نُورٍ، لا يأكلون ولا يشربون، وإنما يَتَعَبَّدُونَ للهِ تَعَالَى آناءَ اللَّيْلِ والنهارِ.

قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ معطوف على لفظِ الجلالةِ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾. أقول: إنَّه معطوف على لفظ الجلالة، ولماذا لا أقول: إنَّه معطوف على أدنى مذكورٍ، وهم الملائكة؟

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ١٨٣).

(٢) أخرج مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل مجالس الذكر، رقم (٢٦٨٩) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَائِكَةً سَيَّارَةً، فُضُلًا، يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ، حَتَّى يَمْلَؤُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ...».

الجواب: لأن العطـفَ فَرع، والملائكة معطوفـة على لفظِ الجلالةِ، والفـرعُ لا يمكِن أن يكون أصلًا، ولهذا إذا توالتِ المعطوفاتُ -أيُّها النحْويُّ- فإنها تكونُ معطوفةً على الأولِ، ما هي على الآخِر، بل على الأول.

وأولو العلمِ هم أهل العلمِ الَّذِينَ عندهم من شريعةِ اللهِ ما تمكَّنوا أن يكونوا به في مُستوى الملائكةِ في الشهادةِ للهِ تَعَالَى بالأُلُوهِيَّة.

وفي هذا دليلٌ واضحٌ على فَضيلة العلماءِ، وأنهم شُهَداء لله بالحـق، وشهداء بإبلاغِ الرسالاتِ على الخلقِ، ولهذا تجد العلماءَ يَعلَمون من الرسالاتِ ما لا يعلمه العوامُّ، ولهذا نقول: العالم يشهدُ أن الرَّسُول بلَّغ الأمةَ الرسالةَ تامةً؛ لأن عنده عِلمًا، فأهل العلمِ هم أهل الشهادةِ من البشَر، يشهدون للهِ بالحقِّ، ويشهدون على الخلقِ بأنهم قامتْ عليهم الحُجَّة بإبلاغهم الرسالةَ.

ويدخل في أولي العلمِ هنا الأنبياءُ والرسُلُ، بل هم أصلُ العلمِ، فأولو العلمِ يشملونَ الرسلَ والأنبياءَ، ومن آتاهم الله تَعَالَى العلم.

وفي قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ دليل على أنَّه يجبُ على العلماءِ أن يبيِّنوا هذه الشهادةَ العظيمةَ، وهي انفراد الله تَعَالَى بالأُلُوهِيَّة، وأنه يجب أن يُعبَدَ وحدَه، ولا يُعبَد أحدٌ معه.

قوله: ﴿قَآيِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾ (قائمًا) حالٌ من لفـظِ الجلالةِ، يعنـي حال كونه قائمًا بالقسطِ، أي بالعدلِ، فهو عَزَّوَجَلَّ لا يَظلِم أحدًا، قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤].

وقال تَعَالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]، فهو جَلَّوَعَلَا قائم بالقسطِ؛ بالعدل فيما يحكم به على عباده، وبالعدل فيما يحكم به بينَ عبادِهِ، فلا ظُلمَ لا في حَقِّه ولا في حق العبادِ.

ثمَّ أكَّد هذه الشهادةَ بقولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي ذو العزة، وهي الغَلَبَة، والحكيم أي ذو الحكمةِ، وهي الإحكام والإتقانُ، والحُكم بين النَّاس. وحُكْمُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إما كونيٌّ وإما قَدَرِيٌّ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الثاني:

تفسير قوله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٣٣-٣٤].

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣].

منَ المعلومِ أنَّ الأمرَ للهِ عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم:٤]، وأنَّ لله أنْ يختارَ منْ خلقهِ مَا شَاء، كَما قَالَ تَعالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨].

ومَحل (مَا) منَ الإعرابِ فِي قَوْله تَعالَى: ﴿وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أنَّها نَافيةٌ، فَنَقف عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَخْتَارُ﴾.

فَالله تَعَالَى يَخْلق مَا يَشَاءُ، ويَخْتارُ مَا يَشاءُ مِنْ خَلْقه، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾، ذَكَر آدمَ ونُوحًا؛ لِأَنَّ آدمَ هُوَ أَبُو البَشَرِيَّة الأولُ، ونُوح هُوَ أَبُو البشريَّة الثَّاني؛ لِأَنَّ اللهَ أَهْلَكَ النَّاسَ جميعًا الَّذِين كَذَّبُوا نوحًا،

وبقِيَ مَنْ آمَنَ معهُ ناجيًا، وتوالَتِ النَّاسُ من ذريَّة نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فاصطفَى اللهُ آدمَ، واصطفَى نوحًا علَى العالمين؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قالَ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠].

ولكنَّ ابنَ آدمَ إذَا كفَرَ باللهِ صَارَ أَحْقَرَ منَ الأنعامِ، بَلْ شرًّا منَ الأنعامِ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى فِي الكُفَّارِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال:٥٥].

فابْنُ آدَمَ انْحـطَّ منَ القِمَّة إِلَى القُمامة إذا كَفَـرَ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:١-٦].

اصطَفَى اللهُ آدمَ ونوحًا، وجعلَ فِي ذرِّيَّتهما النُّبُوةَ والكتابَ.

فَإِنْ قِيلَ: مَن أَوَّل الأنبياءِ من بَنِي آدمَ؟

قُلْنَا: أولُ الأنبياءِ منْ بَنِي آدمَ هُوَ نُوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأمَّا مَا زَعمه بَعض المُؤرخين مِنْ أنَّ إِدْريسَ قَبل نُوح، فَهُو بَاطلٌ بِدِلَالة الكِتَاب وَالسُّنَّة:

أمَّا الكتابُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٢]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الحديد:٢٦].

وَلَو قُلْنَا: إنَّ إِدْريسَ قَبل نوحٍ، لَم يَكن مِنْ ذريَّة نوحٍ، وَلا مِنْ ذُريَّة إِبْراهيمَ،

وَبِهَذَا نَعْرف أَنَّ الْمُؤَرِّخينَ فِي هَذِهِ الأُمور لَا يُرجَعُ إِلَى أَقْوالهم إِذَا خَالفت مَا دَل علَيْه الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

وَكَذلك مَنْ زَعَم أَنَّ آدمَ رَسُول، فَإِنَّهُ مُخَالفٌ لِلْكتَاب والسُّنَّةِ؛ لِأَنَّ أَوَّلَ رَسُول أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى أَهْل الأَرْضِ هُوَ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يَعْنِي: لَمْ يَخْتلفوا، كُلٌّ يَدِينونَ لله ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، وقَدْ قَرأ بَعضُ السَّلف: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلفُوا فَبَعَثَ اللهُ»[1]، وهَذِهِ القراءةُ لَيست منَ القراءاتِ السَّبع، لكنَّ معناهَا صَحيح، ويَدل عَلَى صحَّتِها قَوْلُهُ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، فَدَلّ هَـذَا عَلَى أَنَّ سَبَبَ إِرْسَالِ الرُّسل اخْتِلَافُ النَّاسِ فِيـما بيْنهم، حَتَّى أَرْسل اللهُ الرسلَ، وأَنْزَلَ الكتبَ: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

وأَمَّا السُّنَّةُ فَقَدْ ثَبَتَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعة أَنَّ الخلقَ إِذَا حُشروا يومَ القيامةِ لَحِقَهُم منَ الغَمِّ والكَرْبِ مَا لَا يُطيقون، ومِقدار هَذَا اليَوْم خَمْسون أَلف سنَة، وَالشَّمْس تَدْنو منَ الخَلائق حَتَّى تكونَ قَدر مِيل، ويَلْحقهم منَ الغَمِّ والكَرْبِ مَا لَا يُطِيقون، فَيَطلبـون مَنْ يشفع لَهم، فيُلهَمونَ إِلَى أَنْ يَأتوا آدم، فَيأتـون إِلَيْهِ، وَيَطلبون مِنْهُ الشَّفاعة، ويَذكرون منْ مَنَاقبه وفَضَائله، ولَكنه يَعتذر بِعُذر مَذْكور فِي القُرْآنِ، وهُو أَن اللهَ نَهَاه عنِ الأكلِ منَ الشَّجرة، فأَكل مِنها، فكَأَنَّه يَقُول: أَنَا أَسْتَحي منَ اللهِ أَنْ أَشفعَ إِلَيْه فِي عِبَاده، وأَنَا قَد جرَى منِّي مَا جَرى.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٤٦).

وفي اعتذار آدم عن الشَّفاعة بأَكْله منَ الشَّجرةِ، دَليلٌ عَلَى بُطْلان القصَّة المعروفةِ في قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠]، فإنَّ في هَذِهِ القصَّة أنَّها لَمَّا حملت أتاهما إبْليس وَقَالَ لهما: إنِّي صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، لَتُطِيعُنَّنِي أَوْ لأَجْعَلَنَّ لَهَا قَرْنَيْ إِبِلٍ فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكِ فَيَشُقُّهُ، وَلأَفْعَلَنَّ وَلأَفْعَلَنَّ، يُخَوِّفُهُما، سَمِّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ يَعْنِي الثَّانِيَةَ فَأَتَاهُمَا أَيْضًا فَقَالَ: أَنَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ، لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لأَفْعَلَنَّ وَلأَفْعَلَنَّ، يُخَوِّفُهُمَا، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَانِهِ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتِ الثَّالِثَةَ فَأَتَاهُمَا أَيْضًا فَذَكَرَ لَهُمَا فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ[1].

فهَذِهِ قصةٌ باطلةٌ، لا مِن حَيثُ السِّياقُ ولَا منْ حَيثُ المَعْنَى؛ لِأَنَّ هَذَا لَو وَقع مِن آدَم لَكَان أعظمَ منَ المخالفةِ فِي أَكْلِ الشَّجرة؛ إذْ إنَّ المُخَالفة فِي أَكْلِ الشَّجرة مَعصية منَ المَعَاصي، ولكِن هَذَا شِرك، والشِّرك أَعْظم حَتَّى منَ الكبائرِ.

وَلِهَذَا قَالَ عبدُ اللهِ بنُ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ وَأَنَا صَادِقٌ»[2]؛ لِأَنَّ سَيِّئَة الشِّرك أَعظم منْ سَيِّئَة الكَبِيرة.

فآدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذَا أَتَاه الخَلق يَطْلبون مِنه الشَّفاعة إِلى اللهِ، يَعتذر بِأَنه أَكل منَ الشجرةِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٥/ ١٦٣٤، رقم ٨٦٥٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٨/ ٤٦٩، رقم ١٥٩٢٩).

فَإِنْ قِيلَ: هَل أَكْلُ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ منَ الشَّجرة أَنْزَلَ مَرْتبتهُ عندَ اللهِ، بَعد أنْ عَاقبهُ اللهُ؟

قُلْنَا: لَا، لَمَّا أَكَلَ منَ الشَّجرةِ أَخْرَجَهُ اللهُ منَ الجنَّةِ، ولكنَّه تَابَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ ورجعَ إِلى اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، فكَانت حالُه بعدَ ذلكَ خيْرًا منْ حَاله قَبل ذَلك؛ لِأَنَّ اللهَ اجتبَاه وهداهُ، وهكذَا المَرْءُ إِذَا أَذْنب وتَاب إِلَى اللهِ مِنْ ذَنْبِهِ، وَنَدِم عَلَى مَا حَصَلَ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُون بَعْدَ التَّوبة خيرًا مِنْهُ قَبلها، وَهَذَا شَيْءٌ مُشَاهَدٌ، فكَثير منَ الشَّباب الَّذِي التزَم عَادت حَالُه خيرًا منْ حَاله قَبل ذَلك.

ثُمَّ يَأتون إِلى نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيشفعَ لَهم، فَيَعتذر بِأنَّه سَأل بِما لَيْسَ لَه بِه عِلم، حَيْثُ قَال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود:٤٥]، وَقَدْ وَعده اللهُ أَنْ يُنْجِيَهُ وَأَهْله، فَقَال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود:٤٥]، فَأَجَابه اللهُ: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦]، هَكَذَا يَقُولُ الله عَزَّوَجَلَّ لِرَسولٍ مِن أُولي العَزم منَ الرُّسل: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، فَما بَالك بِوَاحد مِنَ البشَر يَحكم بِالشريعة بِمَا لَيْسَ لَه بِه عِلم، فَهَذَا أَعْظَمُ؛ لِأَنَّ المُفْتِيَ يَقُولُ عنِ اللهِ، فَإِذَا قَالَ عنِ اللهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ اللهُ، صَار بِذَلِكَ أَشَدَّ ظلمًا مِمَّنْ سَأَلَ مَا لَيْسَ لَه بِه عِلم.

وانْظُرْ إِلَى قَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وَهُوَ أَشْرَفُ البَشَرِ عِنْدَ اللهِ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب:٣٧]، والَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وأَنْعمَ عَلَيْه الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَسَلَّمَ

هُوَ زَيد بنُ حَارثَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حينَ استشارهُ فِي طلاقهَا، فقالَ لهُ الرَّسُولُ ﷺ: «أَمْسِكْهَا»، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

كَلامٌ عظيمٌ لِرَسول اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ لكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَفْعَلُ مثلَ ذلكَ حَتَّى يَتبينَ للخلقِ أَنْ لَا نَسَبَ بينهُ وبين عبادهِ، وأَنَّ أكرمَ الخلقِ عندَ اللهِ أَتْقاهم، وأَنَّه إِذَا وَقع مثلُ ذَلك للرُّسلِ، فمَن دُونهم منْ بَاب أَوْلَى أَنْ تَقَعَ عَلَيهِ اللَّائمة.

فَنُوحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْتذر، فَيأتون بَعد ذَلك إِلَى إِبْراهـيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيعتذر، وإِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيعتذر، وإِلَى عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلا يَعتذر بِشيءٍ فعله، ولَكِنَّه يُقِرُّ بأَنَّ غَيرهُ أَوْلَى بهَا وأَحَقُّ بِهَا مِنْهُ، وَهُوَ رَسول الله صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، فَيأتون إِلَى رَسول الله ﷺ يَطْلبون مِنْهُ الشَّفاعة فَيَشفع، وَهَذَا منَ المَقامِ المَحمود الَّذِي وَعَدَهُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩].

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ آلُ إبراهيمَ: ذريَّتُه، وَآل عِمْرانَ: ذريَّتُه، ومِنْهم مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ مُوسَى بْنُ عمرانَ، اصطَفَاهم عَلَى العالمينَ، وجعَلَ فِيهم النُّبُوةَ، والكتابَ، والمُجاهدين فِي سَبيل اللهِ، والدَّاعينَ إلى اللهِ، وغَيرَ ذَلِكَ منْ أَسباب الاصطِفَاء والاجْتِباء.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ يَصطفي اللهُ تَعَالَى أَحَدًا منْ غَير البشرِ؟

قُلْنَا: نَعم: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥]،

فَالله تَعَالَى يَصْطـفي منَ المَلائكةِ رسلًا كَاصطفاءِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي كَـونه الواسطةَ بَيْنَ اللهِ تَعَالَى وبَين رُسُلِهِ، حَيث إِنَّه مُوَكَّل بالوحْيِ.

ويَصْطفي اللهُ منَ الأزمانِ مَا يَشاء، كرَمَضَانَ اصطَفَاه اللهُ تَعَالَى وَفَضَّله عَلَى الشُّهور، وَكَيَوم عَرفةَ فهو مفَضَّل عَلَى سَائِر أَيَّام العامِ، وكَيَوم الجُمُعَةِ فَإِنَّهُ مُفَضَّل عَلَى سَائِرِ أَيَّامِ الأُسْبُوعِ.

وَيَصْطَفِي اللهُ مِنَ الأَمْكِنَـةِ مَا يَشاءُ، مِثل مَكَّةَ، والمَدِينَةِ، والمسجدِ الأَقْصَى، وَالمساجدِ بِالنِّسْبَةِ إِلى الأسواقِ، وأشياءَ كَثيرة، فَاللهُ تَعَالَى يَصْطفي منْ خَلقه مَا يَشاء مِن إِنْسَانٍ، أَوْ مَكانٍ، أَوْ زَمَانٍ؛ لِأَنَّ بِيَدِهِ الأمرَ.

قَوله تَعَالَى: ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣٤].

الذُّريَّة: كُلُّ مَنْ خَرَجُوا مِن صُلْبِ الإِنْسَانِ، فأحيانًا يُرَادُ بِهِم منْ كَانوا منْ أَولاد البَنِين وأَوْلاد البناتِ، وأحيانًا يُرَاد بِهِم مَن كَانوا مِن أَوْلَادِ البَنِين فَقَطْ.

وهُنَا مَسأَلة: لَو وَقفَ شَخص عَلَى ذُريَّته، فَمن يَدخل فِي الوَقْفِ؟

نَقُولُ: يَدخلُ أبناؤهُ وبناتهُ، وأولادُ أبنائـهِ، أَمَّا أولادُ البناتِ فَفِيهم قَـوْلَانِ للعلماءِ:

مِنْهم مَن قَال: إِنَّهُمْ يَدخلون، ومِنْهم مَن قَال: إِنَّهم لَا يَدْخلون، والصَّحِيح أَنَّهم لَا يَدْخلون إِلَّا إِذَا نَصَّ عَلَيْهم، بأَنْ قَال: أَولاد البَنَات كَأَولاد البَنِين، أو مَنْ مَات عنْ وَلد فَنَصيبُه إِلَى وَلَده، أَو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

واخْتُتِمت هَذِهِ الآية بِذِكْرِ اسمَينِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، وَهما المذكورانِ في قَولِهِ تَعَالَى: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

الأَوَّلُ: السَّمِيعُ.

الثَّانِي: العليمُ.

وسَمِيعٌ لَهَا مَعْنيَانِ:

المَعنى الأَوَّل: مُجِيبٌ، ومِنه قَوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩] أَيْ: مُجِيبُ الدُّعَاءِ.

المَعْنَى الثَّانِي: ذُو السَّمع، يَعْني إِدْراك كُلِّ صَوت وإِنْ خَفِيَ، ومِنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١].

أَمَّا العَليم فَمَعناهُ الَّذِي لَا يَخفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرض وَلَا فِي السَّمَاءِ، المُحيط بِكُل شَيْءٍ عِلْمًا، وعِلم اللهُ تَعَالَى أَزليٌّ: لَمْ يُسْبَقْ بِجَهل، وأبديٌّ: لَا يَلحقه نِسيانٌ.

وَأَمَّا قَولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، فَالمُرَادُ بِالنِّسيانِ هنَا التَّرك، ولَيْسَ المُراد بِالنِّسيانِ الغَفلة عَن شَيْءٍ مَعلوم، بَل هُوَ التَّرك.

وإِذَا آمَنتَ بأَنَّ اللهَ تَعَالَى سميعٌ عليمٌ، أَوْجَبَ لك هَذَا الإِيمانُ أَلَّا تُسمِعَ اللهَ قولًا لا يَرْضاه، وأَلَّا تعملَ عملًا لا يَرْضاه؛ لِأَنَّكَ إِنْ قلتَ قَوْلًا لَا يَرْضاه سَمِعه، وإِنْ عَمِلت عملًا لَا يَرْضاه عَلم بِهِ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

الدرس الثالث:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران:٥٥].

قولُه: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ ﴾ قال المعْرِبُونَ: إن مِثْل هذَا التَّركِيبِ الذي يكثُرُ ورُودُهُ في القُرآنِ على هذا الوجْهِ، تكونُ فيهِ (إذ) منْصوبةً بفِعْلٍ محذُوفٍ، والتَّقْدِيرُ: اذكُرْ إذ قالَ اللهُ. وعيسَى هو عِيسَى بنُ مَريمَ، الذي خَلَقَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ من أمٍّ بِلا أبٍ، والبَشَرُ مِنْهُم مَن خُلِقَ من أمٍّ وأبٍ، ومنهم مَن خُلِقَ بِلا أمٍّ ولا أبٍ، ومنهُمْ من خُلِقَ من أبٍ بِلا أمٍّ، ومنهم من خُلِقَ من أمٍّ بلا أبٍ، فالأقسامُ أربَعَةٌ.

فأمَّا من خُلِقَ بِلا أمٍّ ولا أبٍ: فَهُو آدمُ، ومِن أبٍ بِلا أمٍّ: فحَواءُ، ومن أمٍّ بلا أبٍ: فعِيسى، ومِنْ أُمٍّ وأبٍ: فسائرُ البَشَرِ.

قوله: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ قالَ بعضُ العُلماءِ: هي بمَعْنى: قابِضُكَ، ومنْه قولهم: تَوَفَّى الرجُلُ دَيْنَه، أي: قبَضَه مِن غَريمِهِ، ومنهم من قالَ: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ وَفاةَ مَوْتٍ، كَما في قولِهِ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر:٤٢]، وقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [الحج:٥].

ومنهم مَنْ قالَ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: وفاةَ نَوْمٍ، كما قالَ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام:٦٠].

إذن فالأقوالُ في مَعْنى قولِهِ: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ ثَلاثَةٌ، وأصَحُّها أنَّ المرادَ بذلِكَ وفاةُ النَّومِ، فإنَّ اللهَ تعالى ألقى النَّومَ على عِيسَى، ثم رفَعَهُ إلى السَّماءِ، وهو حَيٌّ الآن، وسَينْزِلُ في آخِرِ الزمانِ إلى الأرضِ، فيَقْتُلُ المسيحَ الدَّجَّالَ ببابِ لُدٍّ، ويَبْقَى في الأرضِ ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ يَمُوتُ[1].

هذا هُو أرجَحُ الأقْوالِ، ولهذَا نَحْنُ نؤمِنُ بأن عِيسَى بنَ مَريمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سوفَ ينْزِلُ في آخِرِ الزَّمانِ إلى الأرْضِ، وسوفَ يحكُمُ بشريعَةِ النَّبِيِّ ﷺ، إلا أنه يَقْتُلُ الخِنزيرَ، ويكسِرُ الصَّلِيبَ، ولا يقبَلُ إلا الإسلامَ، فلا يَقبَلُ الجِزيَةَ، وليس هذا شَرْعًا جَدِيدًا يأتي به عِيسَى؛ لأَنَّه لا شَريعَةَ بعدَ محمَّدٍ ﷺ.

ولهذا نقولُ: هو مِنْ شَريعَةِ الرسولِ ﷺ؛ لأنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أخبرَ بذلِكَ، أي: أخْبَرَ أن عيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سيَنْزِلُ، ويقتُلُ الخِنزيرَ، ويكسِرُ الصَّلِيبَ، ولا يقبَلُ إلَّا الإسلامَ، فيكونُ هذا مِن شَريعَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ يعْني: إلى السَّماءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى في السَّماءِ.

قوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: مطهِّرُكَ مِنْ أرْجاسِهِمْ وعُدوانِهِمْ، وذلك أن الذِينَ كفَرُوا همُّوا بقَتْلِهِ، فألْقَى اللهُ شَبَهَهُ على واحِدٍ منْهُمْ، فقتَلُوا هذَا الشَّبِيهَ، وقالُوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي: قتَلُوهُ وصَلَبُوهُ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته، رقم (٢٩٣٧).

ولكِنَّ اللهَ تعالى كذَّبَهُم فقالَ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٥٧-١٥٩].

قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذِه الجملَةُ يَضْرِبُ عليها النَّصارَى الطُّبولَ فَرَحًا وافتِخارًا، يقولون: نحنُ فوقَ الذينَ كَفَرُوا إلى يومِ القِيامَةِ، ونحن فوقَ المسلِمِينَ، والعِزَّةُ لنَا، والرِّفْعَةُ لنا إلى يومِ القِيامَةِ.

فنقولُ لهُمْ: برَبِّ الكعْبَـةِ لقَدْ كذَبْتُمْ، إنَّ الله يقولُ: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال: ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، والمسلِمُونَ الذينَ آمنُـوا بمحمَّدٍ ﷺ ليسوا كفَّارًا، بل هُم المؤمنونَ المسلِمُونَ، وما سِواهُم فهو كافِرٌ.

ثُمَّ إنَّكُمْ تَدَّعُونَ أنكم متَّبِعُونَ لعِيسَى، وتنْسِبُونَ أنفسَكُم إليه فتَقولونَ: نحْنُ مَسِيحِيُّونَ، وهذا كَذِبٌ، فلَمْ تَتَّبِعُوا عيسَى؛ لأن عيسَى بنَ مريمَ بَشَّرَكُمْ بمحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فكذَّبْتُمْ محمَّدًا، مع أن نَبِيَّكُم عيسَى بشَّرَكُم بِهِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الصف:٦]، ومن الذي جاءهُمْ؟ إنه الرسولُ المبشِّرُ به، وهو محمَّدٌ ﷺ ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦]، ثم هُمْ مع ذلِكَ لم يقْبَلُوا بشارَةَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والبشارَةُ خيرٌ للإنسانِ لا شَكَّ، فإذا جاءَ المبشَّرُ بِهِ كان المؤمنُ بالبشَارَةِ لا بُدَّ أن يتَّبِعَهُ، ولكن هؤلاءِ لم يتَّبِعُوا محمَّدًا ﷺ، فكانُوا كافِرِينَ ببشَارَةِ عِيسَى.

ثم دَعْواهُم أنهم مُتَّبِعونَ للمَسِيحِ بنِ مَريمَ دَعْوى كاذِبَة؛ لأن المَسِيحَ بنَ مَريمَ لو بُعِثَ ونزَلَ في الأرضِ في حياةِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو بعْدَ مماتِه، فإنه سيَتَّبِعُ دِينَ محمَّدٍ ﷺ، ويجاهِدُ مَعَهُ، فكيف يَنتَسِبُ إليهِ مَنْ يَكْفُرُ بمحمَّدٍ؟!

والدَّليلُ على أن عِيسَى لو نَزَلَ لكانَ متَّبِعًا لرَسولِ الله محمَّدٍ ﷺ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ أَخذَ اللهُ عليهِمُ الميثاقَ المؤكَّدَ، ثُمَّ قالَ: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

إذن عِيسَى بنُ مريمَ وغَيرُهُ مِنَ الأنبياءِ والرُّسُلِ، قد أُخِذَ عليهِمُ الميثَاقَ أن لو بُعِثَ محمَّدٌ ﷺ ليؤمِنُنَّ بِهِ ويَنْصُرُنَّهُ، وأقَرُّوا بهذا الميثاقِ الثَّقِيلِ.

فمَن زَعَمَ أنه متَّبِعٌ لعِيسَى، نقولُ لهُ: لو كُنْتَ صادِقًا في زَعْمِكَ لاتَّبَعْتَ محمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ؛ لأن نَبِيَّكَ عيسَى لو نَزَلَ لاتَّبَعَ الرَّسولَ ﷺ.

وبهذا يَبْطُلُ افتخَارُ النصَارَى الذين يقُولونَ: إنَّنا فوقَ الَّذِينَ كفَرُوا إلى يومِ القيامَةِ من وَجْهَيْنِ:

الوجْهِ الأوَّلِ: أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قالَ: ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، والذينَ آمنُوا بمحمَّدٍ ليسُوا كُفَّارًا؛ بل هُم مُؤمِنُونَ مسلِمُونَ.

الوَجْهِ الثَّانِي: أن هؤلاءِ النَّصارَى الذين كفرُوا بمحمَّدٍ لم يتَّبِعُوا عيسَى بنَ مريمَ؛ إذ لَوْ صدَقُوا في اتِّباعِـهِ، لقَبِلُوا بشارَتَهُ، ولاتَّبَعُوا محمَّدًا ﷺ، كما أنَّ رَسُولَهُمْ عيسَى لو نَزَل لاتَّبَعَ محمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وجاهد معه.

وهذه الآية اشتَمَلَتْ على معانٍ أصوليَّةٍ؛ مِنْها: إثباتُ القَوْلِ للهِ، ويُؤخَذُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ ﴾.

وفيها أنَّ قولَ اللهِ تعالى بحَرْفٍ وصَوْتٍ، وليسَ هو المعْنَى القائمَ بنَفْسِهِ كما ادّعاهُ مَنِ ادَّعاهُ ممَّنِ ابتَدَعَ هذا القَوْلَ.

فإن قيلَ: هَلْ في هذِهِ الآيةِ دَلِيلٌ على أن كَلامَ اللهِ بحَرْفٍ وصوْتٍ؟

قلنا: نَعَمْ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فكُلُّ هذِهِ حُروفٌ، وهي مَقُولُ القَوْلِ، فيكونُ كلامُ اللهِ تعالى بحَرْفٍ.

وأما كَونُه بصَوتٍ فنَقُولُ: القولُ الموَجَّهُ للمخاطَبِ لا بُدَّ أن يكونَ المخاطَبُ سامِعًا لَهُ، وإلا لم يكُنْ له فائدَةٌ إطْلاقًا، فَفِي هذِهِ الآية رَدٌّ عَلَى مَن قالَ: إنَّ كَلَامَ اللهِ هو المعْنَى القَائمُ بالنَّفْسِ، وإن ما يُسمَعُ ليسَ كَلامَ اللهِ، وإنما هُو أصْواتٌ وحُرُوفٌ خَلَقَها اللهُ لتُعَبِّرَ عَمَّا في نفْسِهِ. فحَقِيقةُ هذَا القَولِ إنْكارُ أن يكونَ اللهُ متكَلِّمًا، وإثباتُ أن الكلامَ هُوَ العِلْمُ القَائمُ بالنَّفْسِ، حتى لو سَمَّوْه كَلامًا، فإن ذلِكَ لا يصِحُّ لُغَةً، ولا شَرْعًا، ولا عُرْفًا؛ لأن مَا في النَّفْسِ ليسَ كَلامًا.

وأما ما استَدَلُّوا به مِنْ قولِ الأخْطَلِ النَّصْرَانِيِّ[1]:

إِنَّ الكَـلَامَ لَفِـي الفُـؤَادِ وَإِنَّـمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَـلَى الفُـؤَادِ دَلِـيلَا

---

(١) انظر: شرح شذور الذهب (١/ ٣٥).

فليسَ فيه دَلِيلٌ لقَولِهِمْ أيضًا، وإنما أرَاد أنَّ الكلامَ الحَقِيقِيَّ الرَّصِينَ هو الذِي يُقَرِّرُهُ الإنسان في فُؤادِهِ أوَّلًا، ثم يستَدِلُّ عليه بما ينْطِقُ به بلسانِهِ.

ثم لو فُرِض أن هذَا هُو ما يَهْدِفُونَ إليه؛ فإنه قولُ رَجُلٍ ليسَ قولُهُ بحُجَّةٍ.

وفي الآيَةِ أيضًا مِنْ أُصولِ الدِّينِ: إثْباتُ عُلُوِّ اللهِ؛ حيثُ قالَ جل شأنُهُ: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، فَلَوْ حُذِفَتْ كلِمَـةُ ﴿إِلَيَّ﴾ فإنَّها لا تَدُلُّ على عُلُـوِّ اللهِ، أي: لو كانَتِ الآيَـةُ: ﴿وَرَافِعُكَ﴾ فَقَطْ لم تَدُلَّ علَى عُلُوِّ اللهِ، فلَّما قَالَ: ﴿إِلَيَّ﴾ تَعَيَّنَ أن اللهَ تعالى في العُلُوِّ.

إذن فَفِيها إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ العُلُوَّ الذَّاتِيَّ؛ لأن عُلُوَّ اللهِ ينقَسِمُ إلى قِسْمينِ: عُلُوٍّ مَعْنوِيٍّ، وعُلُوٍّ ذاتِيٍّ.

أما العُلُوُّ المعنوِيُّ فقَدْ أجمَـعَ عليهِ المسلِمُـونَ، سَلَفِيُّهُم وخَلَفِيُّهُم، سُنِّـيُّهُم وبَدْعِيُّهُم، أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لَهُ العُلُوُّ المعْنوِيُّ.

وأما العُلُوُّ الذاتِيُّ أنه جَلَّوَعَلَا فَوقَ كلِّ شيءٍ، فهذَا مختَلَفٌ فيه بينَ أهْلِ القِبلَةِ، والصوابُ الذي دَلَّ عليه الكِتَابُ، والسُّنَّةُ، والإجماعُ، والعَقْلُ، والفِطْرَةُ: ثُبوت العُلُوِّ الذَّاتِيِّ.

وفي هذِهِ الآيَةِ أيضًا مِنْ أصولِ الدِّينِ: إثْباتُ البَعْثِ، ويُؤخَذُ هذَا مِن قولِهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، حيث إنَّ الرُّجُوعَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا بُدَّ مِنَ الرُّجوعِ إليهِ، ولَولَا الرُّجُوعُ إلى اللهِ لكانَ خَلْقُ هذِهِ الخَلِيقَةِ عَبَثًا، يقُولُ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، وقالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى**

إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»(١).

نسأَلُ اللهَ تعالى أن يجعَلَ أَسْعَدَ أيامِنَا وأيامِكُم يومَ نلقَاهُ، إنه عَلَى كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ.

إذن لا بُدَّ مِنَ الرُّجوعِ إلى اللهِ، ولا بُدَّ مِنْ أن يحكُمَ بينَنَا فِيمَا نختَلِفُ فيهِ، ولهذا قالَ: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

والاختلافُ الذِي بينَ الكفَّارِ والمسلِمِينَ سَيَحْكُمُ اللهُ فيه بينَنَا يومَ القيامَةِ، وسيُبَيِّنُ الحقَّ، فمَنِ الخاصِمُ والمخْصُومُ مِنَ الكفَّارِ والمسلِمِينَ؟

الجواب: الخاصِمُ يومَ القيامَةِ المسلِمُونَ، والمخْصُومُ الكفَّارُ.

والدَّلِيلُ على هذِه النَّتِيجَةِ: نحنُ الآن نعْلَمُ بالنتِيجَةِ قبْلَ المخاصَمَةِ، ونَعْلَمُ أن الخاصِمَ الذي يَغْلِبُ في الخُصومَةِ هم المسلِمُونَ، فنعلَمُ بهذِهِ النتيجَةِ قبلَ أن يحصُلَ التخاصُمُ، أو التحاكُمُ، وهناك آيَةٌ في سورَةِ النساءِ تَدُلُّ على هذه النتيجَةِ، وهي قولُهُ تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، إذن الخاصِمُ هُمُ المسْلِمُونَ، قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ﴾ عَلَى مَنْ؟ ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. فنحن الآن نؤمِنُ بأَنَّنا ستتَخَاصَمُ مع الكفَّارِ يومَ القيامَةِ، ونؤمِنُ بالنَّتِيجَةِ الآن قبْلَ أن نتخَاصَمَ، بأَنَّ النتيجَةَ للمُؤْمِنِينَ، فنسأَلُ اللهَ تعالى أن يجْعَلَنَا وإياكُمْ مِنَ المؤْمِنِينَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، رقم (٦٥٣٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، رقم (١٠١٦).

تبيَّنَ الآن أن في هَذِهِ الآيَةِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ إثبات القَولِ للهِ وأنَّه أوَّلًا: بحَرْفٍ، وثانيًا: بصَوْتٍ، وثالثًا: إثباتُ العُلُوِّ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ورابعًا: إثباتُ البَعْثِ، وخامسًا: إثْباتُ الحُكْمِ بينَ المؤمِنِينَ والكفَّارِ يومَ القيامَةِ، والنتيجَةُ عَلِمْنَاهَا من آيَةٍ أُخْرَى، وهِي قولُهُ تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

والحَمْدُ للهِ ربِّ العالمينَ أنَّنا عرَفْنَا النتيجَةَ قبْلَ أن يأتِيَ موعِدُ التخاصُمِ، وقبلَ أن يقَعَ التخاصُمُ، ونسألُ اللهَ أن يُمِيتَنَا جميعًا على الإيمانِ.

وعيسَى بنُ مَريمَ آخِرُ الرُّسُلِ مِنْ بَنِي إسرائيلَ، وليسَ بينَه وبينَ محمَّدٍ ﷺ رَسولٌ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، وأحْمَدُ هو محمَّدٌ ﷺ. وانظُرْ كيفَ ألهَمَ اللهُ عيسَى أن يقُولَ: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ ولَمْ يَقُلْ: «اسمه محمد»؛ لأن أحْمَدَ اسمُ تفْضِيلٍ، ومحمَّدًا اسمُ مَفْعولٍ، وهذا مِنَ التَّنْويهِ بشَرَفِ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وفَضْلِهِ عندَ بَنِي إسرائيلَ؛ أن هذا المسمَّى بهذَا الاسْمِ هُوَ أحمدُ الناسِ للهِ، وهُوَ أحَقُّ النَّاسِ أن يُحمَدَ، فهُو أحقُّ الناسِ أن يُحْمَدَ، وهو أعظَمُ الناسِ حَمْدًا للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا شَكَّ أنَّه محمَّدٌ ﷺ.

ويَدُلُّ لهذا أيضًا قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٩].

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

الدرس الرابع:

الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمَامِ المتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٣-٦٤].

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى هَؤُلَاءِ النَّصَارَى الَّذِينَ طَلَبَ مِنْهُم النَّبِيُّ ﷺ المُبَاهَلَةَ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١] وقد امتنعُوا عَنِ المُبَاهَلَةِ لأَنَّهُم يَعْلَمُونَ أَنَّهُم لَوْ باهَلُوا لَأَخَذَهُمُ العَذَابُ؛ لأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ حَقٌّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ.

يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ يَعْنِي عَنِ المُبَاهَلَة وعَنِ اتِّبَاعِكَ يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّمَا هُمْ مُفسِدُونَ، ولِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ولم يَقُلْ: عَلِيمٌ بِهِمْ، بَلْ أَظْهَرَ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ، والإِظْهارُ فِي موضع الإِضمارِ لَهُ فَوَائِدُ:

الفَائِدَةُ الأُولَى: انطِبَاقِ الوَصْفِ فِي هَذَا المُظْهَرِ عَلَى مَنْ يَعُودُ عَلَيْهِ، يَعْنِي أَنَّ هَذَا الوَصْفَ الَّذِي جُعِلَ فِي مَوْضِع الضَّمِير يَنْطَبِقُ عَلَى مَرْجِعِ الضَّمِيرِ، فكَأَنَّهُ قَالَ: فَإِنْ تولَّوا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِهِمْ، لَكِنْ وَصَفَهُمْ بِالفَسَادِ.

الفَائِدَة الثَّانِيَةُ: العُمُومُ؛ لأَنَّهُ لَوْ جَاءَ الضَّمِيرُ هُنَا حَسَبَ السِّيَاق اختَصَّ العِلْم بِهِمْ هُمْ، فَإِذَا قَالَ: بِالمُفْسِدِينَ صَارَ عَامًّا فِيهِم وَفِي غَيْرِهِمْ.

الفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا الفِعْلَ الَّذِي حَصَلَ لِهَـؤُلَاءِ الَّذِينَ جَاءَ الإِظْـهارُ فِي مَوْضِعِ الإِضمارِ عَنْهُمْ هُوَ نَوْعٌ مِنْ هَذَا الوَصْـفِ الَّذِي عبَّر بِهِ فِي مَوْضِعِ الضَّمِـيرِ، يَعْنِي أَنَّ فِعْلَهُم فَسَادٌ، وَهُوَ التَّوَلِّي والإِعْرَاضُ عَنْ دِينِ اللهِ.

الفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَهْدِيدُ مَنْ تَوَلَّى عَنْ دِينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. ووَجْهُ ذَلِكَ قَـوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ لأَنَّ المقصودَ مِنْ ذِكْرِ عِلمِهِ بِهِمْ تَهْدِيدُهُم، وأَنَّه لَا يَخْفَى عَلَيْهِ حَالُهُم وسَيُعَاقِبُهُم بِمَا تَقْتَضِيهِ حَالُهُم.

الفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ التَّوَلِّيَ عَنْ دِينِ اللهِ فَسَادٌ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]. والتَّوَلِّي نفسُهُ فَسَادٌ، وسبَبٌ للفَسَادِ. ووَجْهُ كونِهِ فسادًا أَنَّهُ إِذَا تَوَلَّى عَنْ دِينِ الله حَلَّ مَحَلَّهُ مَا سِـوَاهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ دِينَ اللهِ الصَّلاحُ، وَمَا سِوَاهُ فَسَادٌ، ولِهَذَا نَجِدُ القَوَانِينَ الُمحَكَّمَةَ فِي عِبَادِ اللهِ لَا يُصْلِحُ الخَلْقَ مِنْهَا إِلَّا مَا وَافقَ الشَّرْعَ، وأَمَّا مَا خَالَفَ الشَّرْعَ فَإِنَّهُ فَسَادٌ مَهْمَا كَانَ واضعو القَوَانِينَ فِي الذَّكَاءِ والفَهْمِ لأَحْوَالِ النَّاسِ، فَإِنَّهُم إِذَا وَضَعُوا مِنَ القَوَانِينِ مَا يُخَالِفُ شَرْعَ اللهِ فَإِنَّهُ فَسَادٌ بِكُلِّ حَالٍ.

إِذَنْ نَفْسُ التَّوَلِّي فَسَادٌ، ثُمَّ هُوَ أَيْضًا سَبَبٌ للفَسَاد؛ لأَنَّ الجَدْبَ والقَحْطَ وضِيقَ الرِّزْقِ والفِتَنَ كُلها سَبَبُهَا المَعَاصِي، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

إِذَنْ فالتَّوَلِّي عَنْ دِينِ اللهِ فَسَادٌ وسَبَبٌ للفَسَادِ.

الفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ كُلَّ مَنْ تَوَلَّى عَنْ دِينِ اللهِ فَهُوَ مُفْسِدٌ، وإِنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُصْلِحٌ؛ لقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ولِهَذَا قَالَ كَثِيرٌ مِنَ المُفسرين فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] قَالَ: أَيْ: لَا تُفْسِدُوهَا بالمعاصي.

فكُلُّ عاصٍ فَهُوَ مُفْسِدٌ؛ شَاءَ أَمْ أَبَى، وكُلُّ مُطِيعٍ للهِ فَهُوَ مُصْلِحٌ؛ لأَنَّه بضدِّهَا تتبيَّنُ الأَشْيَاءُ، فَإِذَا كَانَ العَاصِي مُفسِدًا، فإِنَّ الطَّائِعَ مُصْلِحٌ، لَكِنِ الطَّائِعُ فِي الحَقِيقَةِ قَدْ يَكُون صَالحًا بنفْسِهِ غَيْرَ مُصْلِحٍ لِغَيْرِهِ، وَقَدْ يَكُون صَالحًا بنفسِهِ مُصْلِحًا لغيره، فَإِذَا كَانَ عَابِدًا دَاعِيًا إِلَى اللهِ صارَ صَالحًا مُصْلِحًا، وَإِذَا كَانَ عابدًا غَيْرَ داعٍ للهِ صَارَ صَالحًا غَيْرَ مُصْلِحٍ، لَكِنَّهُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ التَّمَامِ فِي صَلَاحِه؛ لأَنَّ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاحِ أَنْ تَدْعُوَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثم قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران:٦٤] الخطاب فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ للرَّسُولِ ﷺ. والقَاعِدَةُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا صَدَّرَ الشَّيْءِ بـ(قُلْ) المُوَجَّهَةِ للرَّسُولِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ- فَإِنَّهُ يَقْتَضِي زِيَادَةَ العِنَايَةِ بِهِ؛ لأَنَّهُ أُمِرَ بِأَنْ يُبَلِّغَ هَذَا الشَّيْءَ بخُصُوصِهِ، وإِلَّا فَإِنَّ جميعَ القُرْآنِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَأْمُورٌ أَنْ يَقُولَهُ.

قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أهلُ الكِتَاب يَعْنِي بِهِمُ اليَهُودَ والنَّصارَى، وَعَلَى هَذَا فالمُرَادُ بالكِتَابِ الجِنْسُ؛ ليَكُونَ شَامِلًا للتَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ، يَعْنِي: يَا أَهْلَ التَّوْرَاةِ والإِنجِيلِ، وإِنَّمَا خاطَبَ هَؤُلَاءِ بأَهْلِ الكِتَابِ أَو وَصَفَهم بذَلِكَ؛ لأَنَّهُ لَا تُوجَدُ كُتُبٌ مُنَزَّلَةٌ بَاقِيَةٌ آثَارُهَا إِلَّا التَّوراةُ والإِنجِيلُ، ولِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الكِتَابِ، وإِلَّا فَإِنَّهُ مَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا ومَعَهُ كِتَابٌ يَدْعُو بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ﴾ يَعْنِي مَعَ الرسل ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥]، لَكِنِ الكُتُبُ الَّتِي بَقِيَتْ وأَثَّرَتْ -وإِنْ كَانَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ التَّغْيِيرِ- هِيَ الَّتِي عِنْدَ اليَهُودِ وعِنْدَ النَّصارَى.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الخامس:

الحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، ومِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لهُ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عبْدُهُ ورَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللهُ بالهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، فبَلَّغَ الرِّسالَةَ، وأدَّى الأَمَانَةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ فِي اللهِ حقَّ جِهادِهِ، فصَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وأَصْحَابِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

إِخْوَتِي الكِرامَ! تَسْمَعُونَ أَنِّي أُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ولَمْ أَرَ مَنْ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ بالصَّلاةِ عليْهِ، ولا بالتَّأْمِينِ عَلَى صَلاتِي عَلَيْهِ، وقدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: **«أَنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لَهُ: رَغِمَ أَنْفُ مَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ»**[1] أَتُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ رَغَامٌ؟ الجَوابُ: لَا. إِذَنْ: مَتَى سَمِعْتُمْ ذِكْرَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ- فصَلُّوا عليْهِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى عَبْدِكَ ورَسُولِكَ مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

إِنَّ مَوْضُوعَ دَرْسِنَا أَنْ نَتَكَلَّم بِمَا شاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى مَا سَمِعْنَاهُ مِنْ إِمَامِنَا فِي صَلاةِ فَجْرِ هَذَا اليَوْمِ، يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾** [آلِ عِمْرَانَ:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آلِ عِمْرَانَ:١٠٢] الخِطابُ هُنَا مُوَجَّهٌ للمُؤْمِنِينَ، نادَاهُمُ اللهُ

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٠/ ١٩٢ رقم ٤٢٧٧)، من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٦٤٦)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (١٨٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَزَّوَجَلَّ باسمِ الإيمانِ، وقدْ قَالَ عبدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فَارْعَهَا سَمْعَكَ» (ارْعَهَا سَمْعَكَ) يَعْنِي: اسْتَمِعْ لَهَا «فَإِمَّا خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ، وَإِمَّا شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ»[1].

اسْتَمِعْ لكَلِمَةٍ مِنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فَارْعَهَا سَمْعَكَ، فَإِمَّا خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ، وَإِمَّا شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ».

ولْنَنْظُرْ هُنَا فِي الآيَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران:١٠٢] (اتَّقُوا) فِعْلُ أَمْرٍ، وعَلَى هَذَا فيكُونُ قَوْلُهُ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران:١٠٢] خَيْرًا نُؤْمَرُ بِهِ (اتَّقُوا اللهَ) وتَقْوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَتَّخِذَ الإِنْسَانُ وِقَايَةً مِنْ عَذَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والوِقَايَةُ مِنْ عَذابِ اللهِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِفِعْلِ أَوَامِرِ اللهِ واجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وعَلَى هَذَا فتُفَسَّرُ التَّقْوَى بأَنَّهَا: فِعْلُ أَوَامِرِ اللهِ وتَرْكُ نَواهِي اللهِ.

وقَالَ بعْضُهُمْ فِي تَفْسِيرِ التَّقْوَى: أَنْ تَعْمَلَ بطاعَةِ اللهِ عَلَى نورٍ مِنَ اللهِ، ترْجُو ثَوابَ اللهِ، وأَنْ تَتْرُكَ مَا نَهَى اللهُ عَلَى نورٍ مِنَ اللهِ، تَخْشَى عِقَابَ اللهِ.

وقالَ بعْضُهُمْ فِي تَفْسِيرِ التَّقْوَى: أَنْ تَدَعَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا صَغِيرَهَا وكَبِيرَهَا، وبذَلِكَ يَقُولُ:

خَلِّ الذُّنوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى

وَاعْمَلْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى

لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى[2]

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد رقم (٨٦٦)، وسعيد بن منصور في السنن رقم (٥٠) [ط الصميعي]، وابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦).

(٢) الأبيات لابن المعتز، انظر: ديوانه (ص:٢٩).

والأقوالُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، لكنْ يَجْمَعُهَا مَا ذَكَرْتُهُ أوَّلًا، وهُوَ أنَّ تَقْوَى اللهِ: فِعْلُ أوَامِرِهِ واجْتِنَابُ نَواهِيهِ.

وقَوْلُهُ: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آلِ عِمْرَانَ:١٠٢] أيْ: حَقَّ التَّقْوَى بأنْ تَكُونَ تَقْوَاكُمْ مَبْنِيَّةً عَلَى أساسِ الإخْلاصِ للهِ، والمُتابَعَةِ لرَسُولِ اللهِ ﷺ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ:١٠٢] المَعْنَى: واسْتَمِرُّوا عَلَى إسْلامِكُمْ إلَى المَوْتِ، وإذَا كانَ الإنْسَانُ مَأْمُورًا أنْ يَسْتَمِرَّ عَلَى إسْلامِهِ إلَى المَوْتِ، فإنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَى يَفْجَؤُهُ المَوْتُ، وهَذَا يَقْتَضِي أنْ يَكُونَ دائمًا عَلَى اسْتِعْدَادٍ فِي إصْلاحِ إيمانِهِ وتَحْقِيقِ إسْلامِهِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آلِ عِمْرَانَ:١٠٣] حَبْلُ اللهِ تَعالَى هُوَ دِينُهُ، وسُمِّيَ دِينُ اللهِ بـ(حَبْلِ اللهِ) لأنَّهُ يُوصِلُ إلَى اللهِ؛ ولأنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي جعَلَهُ لعِبادِهِ سَبَبًا مُوصِلًا إليْهِ، فحَبْلُ اللهِ هُوَ دِينُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ هَذَا الدِّينَ يُوصِلُكَ إلَى اللهِ؛ ولأنَّ الَّذِي جعَلَ هَذَا الدِّينَ لعِبادِهِ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فأُضِيفَ إلَى اللهِ لسَبَبَيْنِ:

السَّبَبُ الأَوَّلُ: أنَّهُ هُوَ الَّذِي شَرَعَهُ.

السَّبَبُ الثَّانِي: أنَّهُ مُوصِلٌ إلَى اللهِ.

وسَمَّاهُ اللهُ حَبْلًا؛ لأنَّ الحَبْلَ يُوصِلُ إلَى المَقْصُودِ، أرَأَيْتَ الحَبْلَ فِي الدَّلْوِ إذَا أنْزَلْتَهُ فِي البِئْرِ، ألَيْسَ يُوصِلُ إلَى المَقْصُودِ فيُخْرِجُ لكَ الماءَ؟

الجَوابُ: بَلَى، إنَّهُ كذَلِكَ.

فقَوْلُهُ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آلِ عِمْرَانَ:١٠٣] والنُّقْطَةُ هُنَا

﴿جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آلِ عِمْرَانَ:١٠٣] يَجِبُ عَلَى الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ أَنْ تَكُونَ مُعْتَصِمَةً بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا، ولا يُمْكِنُ لَهَا اعْتِصَامٌ إِلَّا بالاتِّفَاقِ عَلَى دِينِ اللهِ.

ولكنْ لوْ قَالَ قائِلٌ: إنَّ الخِلافَ فِي الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ مَوْجُودٌ مُنْذُ عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ونَأْتِي لذَلِكَ بأمْثِلَةٍ، منْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ- حِينَ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ الأَحْزَابِ أَمَرَهُ جِبْرِيلُ بإِذْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وبَنُو قُرَيْظَةَ هُمْ آخِرُ قَبِيلَةٍ مِنْ قَبَائِلِ اليَهُودِ الثَّلاثِ الَّذِينَ فِي المَدِينَةِ ونَقَضُوا العَهْدَ.

وقدْ كانَ فِي المَدِينَةِ ثَلاثُ قَبائِلَ مِنَ اليَهُودِ: بَنُو قَيْنُقَاعَ، وبَنُو النَّضِيرِ، وبَنُو قُرَيْظَةَ، والَّذِي جَاءَ باليَهُودِ إِلَى المَدِينَةِ ودِيارُهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا أَنَّهُمْ قَرَؤُوا فِي التَّوْرَاةِ أَنَّهُ سَيُبْعَثُ نَبِيٌّ، وسَيَكُونُ مُهَاجَرُهُ المَدِينَةَ، فنَزَلُوا فِي المَدِينَةِ لتَلَقِّي هَذَا الرَّسُولِ، وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، ويَقُولُونَ: سيُبْعَثُ نَبِيٌّ، وسَنَتَّبِعُهُ، وسَنكُونُ أَعْلَى مِنْكُمْ، لكنْ لَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ.

المُهِمُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ القَبائِلَ مِنَ اليَهُودِ عاهَدَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ قَدِمَ المَدِينَةَ، لكنَّهُمْ نَقَضُوا العَهْدَ؛ لأَنَّ اليَهُودَ مَعْرُوفُونَ بالغَدْرِ والخِيانَةِ، مَعْرُوفُونَ بالكَذِبِ، وقِلَّةِ الأَمَانَةِ، مَعْرُوفُونَ بأَنَّهُمْ يَصِفُونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بالعَيْبِ والنَّقْصِ، ويَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بغَيْرِ حقٍّ، فهُمْ مِنْ أَخْبَثِ البَشَرِ إنْ لَمْ نَقُلْ: إِنَّهُمْ أَخْبَثُ البَشَرِ.

لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ الأَحْزَابِ، وكانَتْ فِي شوَّالٍ، فِي السَّنَةِ الخامِسَةِ مِنَ الهِجْرَةِ، وسُمِّيَتْ غَزْوَةَ الأَحْزَابِ؛ لأَنَّ طَوائِفَ المُشْرِكِينَ تَحَزَّبُوا عَلَى الرَّسُولِ ﷺ وحَاصَرُوا المَدِينَةَ فِي نَحْوِ عَشَرَةِ آلافِ مُقاتِلٍ، عَدَدٌ جَمٌّ كَبِيرٌ، وسَاعَدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِخْوانُهُمْ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فنَقَضُوا عَهْدَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

المُهِمُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لأَصْحابِهِ: «**اخْرُجُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُمُ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»[1] فخَرَجُوا مِنَ المَدِينَةِ مُتَّجِهِينَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَة، فأَدْرَكَتْهُمْ صَلاةُ العَصْرِ فِي أَثْناءِ الطَّرِيقِ، فَقَالَ بعْضُهُمْ: نُصَلِّي، ولا نُؤَخِّرُ الصَّلاةَ عَنِ الوَقْتِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: لَا نُصَلِّي؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**» فاخْتَلَفُوا فِي شَأْنِ الصَّلاةِ هلْ يُصَلُّونَهَا أو لَا؟

واخْتَلَفَتِ الأَقْوالُ فِيمَنِ المُصِيبُ مِنْهُمَا:

القَوْلُ الأَوَّلُ: مَنْ صَلَّاهَا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ.

القَوْلُ الثَّاني: الَّذِينَ صَلُّوهَا فِي الوَقْتِ.

وهُناكَ قَوْلٌ ثَالِثٌ، يَقُولُ: كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ مُصِيبٌ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُعَنِّفْ أَحَدًا مِنَ الطَّرَفَيْنِ.

ولا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ منْهُمَا مُصِيبًا؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الحَقُّ بَيْنَ مُتناقِضَيْنِ، فأَحَدُهُمَا صَلَّى فِي الوَقْتِ والثَّاني صَلَّى فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، فالحَقُّ معَ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ، لكِنْ كانَ كُلٌّ مِنْهُمَا مُجْتَهِدًا، والنَّبِيُّ ﷺ قالَ: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ واجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ**»[2] فكُلٌّ مِنْهُمْ مَأْجُورٌ، لَكِنْ مَنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ومَنْ أَخْطَأَ فلَهُ أَجْرٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب، رقم (٩٤٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو، رقم (١٧٧٠) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وعند مسلم: صلاة الظهر.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (١٧١٦)، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المُهِمُّ أَنَّهُ حَصَلَ اخْتلافٌ بَيْنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لكِنْ هَذَا اخْتِلافٌ فِي الرَّأْيِ، وفي كَيْفِيَّةِ الاسْتِدْلَالِ بالنَّصِّ، لكنْ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ اخْتِلافُ القُلُوبِ، وهَذَا هُوَ البَلاءُ، أَنْ تَخْتَلِفَ القُلُوبُ، أَوْ أَنْ يَحْمِلَ الإنْسَانُ حِقْدًا عَلَى أَخِيهِ، أَوْ أَنْ يَحْمِلَ الإنْسَانُ كَرَاهَةً لأَخِيهِ، أَوْ أَنْ يَحْمِلَ الإنْسَانُ أَقْوَالًا سَيِّئَةً فِي أَخِيهِ.

فإِنَّ مِنَ النَّاسِ اليَوْمَ مَنْ إذَا رأَى أَحَدًا خالَفَهُ فِي الرَّأْيِ قامَ يُضَلِّلُهُ: هُوَ ضَالٌّ! هُوَ مُبْتَدِعٌ! هُوَ فاسِقٌ! وربَّما قالَ: هُوَ كافِرٌ، ولقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ رَمَى أَخَاهُ بالكُفْرِ، أَوْ قالَ: يَا عَدُوَّ اللهِ، ولَمْ يَكُنْ كذَلِكَ؛ فإِنَّهُ يَعُودُ إِلَى القائِلِ[1]، فَاحْذَرْ أَنْ تَسُبَّ إِخْوَانَكَ بالبِدْعَةِ، أَوْ بالفُسُوقِ، أَوْ بالكُفْرِ وهُمْ مُجْتَهِدُونَ! لكنْ يَجِبُ أَنْ نُبَيِّنَ الحَقَّ، وأَنْ نُبْطِلَ الباطِلَ.

إنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اخْتَلَفُوا، لكِنْ قُلُوبُهُمْ مُتَّفِقَةٌ عَلَى دِينِ اللهِ، وهَذَا الخِلافُ لَا يَضُرُّ مادَامَ الإنْسَانُ باذِلًا جُهْدَهُ للوُصُولِ إِلَى الحَقِّ، لكنَّهُ لَمْ يُوفَّقْ له.

واعْلَمْ أَنَّ مَنْ أرادَ الحَقَّ، وسَعَى فِي الأَسْبابِ المُوصِلَةِ إليْهِ فإِنَّ اللهَ تَعالَى سَوْفَ يَهْدِيهِ إِليْهِ، يقولُ اللهُ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مَرْيَم:٧٦].

وقَوْلُهُ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آلِ عِمْرَانَ:١٠٣] يُخاطِبُ المُسْلِمِينَ، كانَ النَّاسُ قَبْلَ بِعْثَةِ الرَّسُولِ ﷺ أَعْدَاءً، قَبائِلَ مُتناحِرَةً، قِتالٌ، وأَخْذٌ وسَلْبٌ ونَهْبٌ، وبَعْدَ أَنْ بُعِثَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، رقم (٦١٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر، رقم (٦٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صارُوا أُمَّةً واحِدَةً، أَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وجَمَعَ بَيْنَهُمْ بعدَ الفُرْقَةِ، وأعَزَّهُمُ اللهُ بَعْدَ الذُّلِّ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران:١٠٣] أيْ: مِنَ النَّارِ ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ﴾ [آل عمران:١٠٣]أيْ:عَلَى طَرَفِ حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ بحَيْثُ تَهْوُونَ فِي النَّارِ، لوْلَا أنَّ اللهَ أَنْقَذَكُمْ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣] أيْ: مِثْلُ هَذَا البَيَانِ يُبَيِّنُ اللهُ لكُمْ آياتِهِ؛ لعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

إذَا نَظَرْنَا إلَى واقِعِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ اليَوْمَ، هلْ هِيَ مُطَبِّقَةٌ لهَذَا الأمْرِ الإلَهِيِّ، والتَّوْجِيهِ الإرْشَادِيِّ، والمَنْهَجِ السَّلِيمِ؟

الجَوابُ: معَ الأَسَفِ لَا، نَجِدُ أُمَّةً مُسْلِمَةً يَقُولُونَ جَمِيعًا: أَشْهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، لكنَّهُمْ مُتَنافِرُونَ -معَ الأسَفِ- يُبَدِّعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حتَّى أَخُوكَ فِي المَنْهَجِ إذَا خَالفَكَ فِي الرَّأْيِ قُلْتَ: هَذَا مُبْتَدِعٌ، ولقدْ رَأَيْتُ قَبْلَ سَنواتٍ ونحنُ فِي مِنًى طَائِفتَيْنِ، كُلُّ واحِدَةٍ تَلْعَنُ الأُخْرَى -فِي مِنًى- وتَقُولُ: هِيَ كافِرَةٌ، وكانَ بَيْنَهُمْ نِزَاعٌ شَدِيدٌ، فأرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَحْصُلَ اجْتِماعٌ فِيهِمْ، فسَأَلْنَاهُمْ: لِمَاذَا؟ قالَ: لأنَّ هَؤُلَاءِ إذَا دَخَلُوا فِي الصَّلاةِ أَرْسَلُوا أَيْدِيَهُمْ -أيْ: سَدَلُوهَا- وقالَتِ الأُخْرَى: لأنَّ هَؤُلَاءِ إذَا دَخَلُوا فِي الصَّلاة وضَعُوا اليَدَ اليُمْنَى عَلَى الذِّرَاعِ اليُسْرَى.

فهَؤُلاءِ يَقُولُونَ: كَفَرُوا بالسُّنَّةِ، وأُولَئِكَ يَقُولُونَ: كَفَرُوا بالسُّنَّةِ، فحَقَّتْ عليْهِمُ اللَّعْنَةُ -والعِياذُ باللهِ- هكَذَا يَقُولُونَ.

انْظُرْ إلَى الجَهْلِ! معَ أنَّ هَذِهِ المَسْأَلَةَ مَسْأَلَةٌ خَفِيفَةٌ، لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يُكَفَّرُ فِيهَا؛ إذْ أنَّ وضْعَ اليَدَيْنِ عَلَى الصَّدْرِ أوْ إرْسالَهُما لَيْسَ أصْلًا مِنْ أُصُولِ الدِّينِ،

إِنَّمَا هُوَ سُنَّةٌ فِي الصَّلَاةِ، والحَقُّ مَعَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّكَ تَضَعُ يَدَكَ اليُمْنَى عَلَى الذِّرَاعِ؛ لِمَا رَوَاهُ البُخَارِيُّ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّاسُ يُؤْمَرُونَ أَنْ يَضَعَ الرَّجُلُ يَدَهُ اليُمْنَى عَلَى ذِرَاعِهِ اليُسْرَى فِي الصَّلَاةِ»[1] لكنْ مع ذَلِكَ لوْ خَالَفْنَا أَحَدٌ وصَارَ يُسبِلُ لَا نَقُولُ: إِنَّهُ مُبْتَدِعٌ، أَوْ: إِنَّهُ كافِرٌ، أَوْ: إِنَّهُ ضَالٌّ؛ لأَنَّهُ هَذَا قالَهُ مَنْ قَالَهُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ.

إِذَن: الواجِبُ عَلَى أَهْلِ الحَلِّ والعَقْدِ فِي الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ أَنْ يَجْتَمِعُوا جَمِيعًا عَلَى مائِدَةٍ واحِدَةٍ، عَلَى مائِدَةِ المُنَاقَشَةِ الهادِئَةِ الهادِفَةِ، الَّتِي يُقْصَدُ مِنْهَا الاجْتِمَاعُ عَلَى دِينِ اللهِ، وأَلَّا نَتَفَرَّقَ أَحْزَابًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩].

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمْرَان:١٠٤] ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ (مِنْ) هُنَا للتَّبْعِيضِ، وقالَ بعضُ المُفَسِّرِينَ: (مِنْ) هُنَا لبيانِ الجِنْسِ، وبينَهُمَا فَرْقٌ.

إِذَا قُلْنَا: إِنَّ (مِنْ) للتَّبْعِيضِ، قَالَ: المَعْنَى أَنَّ الأَمْرَ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ والدَّعْوَةَ إِلَى الخَيْرِ فَرْضُ كِفَايَةٍ، إِذَا قامَ بِهِ البَعْضُ سَقَطَ عَنِ البَاقِينَ.

وإِذَا جَعَلْنَا (مِنْ) لبَيانِ الجِنْسِ صَارَ المَعْنَى: ولْتكُونُوا أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ، ويَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ، ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ، وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ.

وإِذَا تدَبَّرْنَا حالَ المُسْلِمِينَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ- وفيمَا بَعْدَهُ، وجَدْنَا أَنَّ القَوْلَ الرَّاجِحَ أَنَّ (مِنْ) للتَّبْعِيضِ؛ لأَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللهِ فَرْضُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة، رقم (٧٤٠).

كِفايَةٍ، إذَا قامَ بِهَا مَنْ يَكْفِي سَقَطَ عَنِ الباقِينَ، وكذَلِكَ الأَمْرُ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٠٤].

وانْظُرْ إِلَى التَّعْبِيرِ القُرْآنِيِّ؛ حَيْثُ فرَّقَ بَيْنَ الدَّعْوَةِ وبَيْنَ الأمْرِ والنَّهْيِ، فالدَّعْوَةُ إِلَى الخَيْرِ عُمُومًا، كُلُّ خَيْرٍ كُنْ دَاعِيَةً لهُ، سَواءٌ كانَ خَيْرًا دِينِيًّا أَوْ خَيْرًا دُنْيَوِيًّا، فما دامَ خيْرًا فادْعُ إليْهِ، ولا تَتَوَقَّفْ.

مَثَلًا: إذَا رَأَيْتَ خُصُومَةً بَيْنَ شَخْصَيْنِ ودَعَوْتَهُما إِلَى الإِصْلاحِ فهَذَا دَعْوَةٌ إِلَى الخَيْرِ، كذَلِكَ إذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ ورَأَيْتَ أَنَّ مِنَ المُناسِبِ أَنْ تَدْعُوَهُمْ إِلَى اللهِ فادْعُهُمْ، لَا تَأْمُرْهُمْ أمْرًا، لكنِ ادْعُهُمْ، بمَعْنَى أَنْ تُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِ، وتَحُثَّهُمْ عَلَيْهِ بدُونِ أَنْ تَأْمُرَ شَخْصًا بعَيْنِهِ.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٠٤].

لا بُدَّ أَنْ نَعْرِفَ أَوَّلًا أَنَّ المَعْرُوفَ هُوَ كُلُّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ ورَسُولُهُ، والمُنْكَرَ كُلُّ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ ورَسُولُهُ، فالصَّلاةُ مَعْرُوفٌ، والزَّكاةُ مَعْرُوفٌ، والصِّيامُ مَعْرُوفٌ، والحَجُّ مَعْرُوفٌ، وبِرُّ الوَالِدَيْنِ مَعْرُوفٌ، وصِلَةُ الرَّحِمِ مَعْرُوفٌ، والإِحْسانُ إِلَى الجارِ مَعْرُوفٌ، وهَلُمَّ جَرًّا.

فكُلُّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ ورَسُولُهُ مَعْرُوفٌ، وكُلُّ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ ورَسُولُهُ فهُوَ مُنْكَرٌ، لكنْ لَا بُدَّ للأمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ مِنْ شُرُوطٍ:

الشَّرْطُ الأَوَّلُ: الإخْلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، بأنْ يَكُونَ قَصْدُ الآمِرِ والنَّاهِي إقامَةَ شَرِيعَةِ اللهِ، وإصْلاحَ عِبادِ اللهِ، لَا أنْ يَنْتَصِرَ لنَفْسِهِ، ولا أنْ يَنْتَقِمَ مِنْ خَصْمِهِ، ومِنَ الإخْلاصِ أنْ تَنْوِيَ بأمْرِكَ بالمَعْرُوفِ ونَهْيِكَ عَنِ المُنْكَرِ امْتِثَالَ أمْرِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ أمَرَ بِهِ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أنْ يَكُونَ الإنْسَانُ عالِمًا بالمَعْرُوفِ، أيْ يَعْلَمُ أنَّ هَذَا مَعْرُوفٌ، فإنْ كانَ لَا يَدْرِي فإنَّهُ لا يَأْمُرُ بهِ؛ لأنَّهُ قَدْ يَأْمُرُ بِمَا يَظُنُّهُ مَعْرُوفًا وهُوَ مُنْكَرٌ، وقدْ يَنْهَى عَمَّا يَرَاهُ مُنْكَرًا وهُوَ مَعْرُوفٌ، فلا بُدَّ أنْ تَعْلَمَ أنَّ هَذَا مَعْرُوفٌ، وأنَّ هَذَا مُنْكَرٌ، وإلَّا وَجَبَ عَلَيْكَ أنْ تُمْسِكَ وتَسْكُتَ.

فإذَا كانَ هَذَا الشَّيْءُ مُنْكَرًا عِنْدِي ومُباحًا عنْدَ الآخَرِ فهلْ يَجِبُ عليَّ أنْ أنْهاهُ عنهُ؟

الجَوابُ: لَا، لَا يَجِبُ عليْكَ مَا دامَ هُوَ مُجْتَهِدًا، ويَرَى أنَّهُ لَيْسَ بمُنْكَرٍ، فإنَّنِي لَا أُلْزِمُهُ بما أرَى.

مثالُ ذَلِكَ: إنْسانٌ أكَلَ لَحْمَ إبِلٍ، وهُوَ عَلَى وُضُوءٍ، ثُمَّ قامَ يُصَلِّي بدُونِ وُضُوءٍ؛ بِناءً عَلَى أنَّهُ يَرَى أنَّ أكْلَ لَحْمِ الإبِلِ لَا يَنْقُضُ الوُضُوءَ، وأنَا إلَى جَنْبِهِ أرَى أنَّ لَحْمَ الإبِلِ إذَا أكَلَهُ الإنْسَانُ انْتَقَضَ وُضُوؤُهُ، فصَلاتُهُ فِي نَظَرِي باطِلَةٌ، وفِعْلُهُ مُنْكَرٌ، لكنْ صَلاتُهُ فِي نَظَرِهِ صَحِيحَةٌ، وفِعْلُهُ مَعْرُوفٌ، فإذَا كانَ هَذَا الرَّجُلُ مُجْتَهِدًا فِيمَا رَأَى، وأنا مُجْتَهِدٌ فِيمَا رَأَيْتُ فإنَّهُ لا يَلْزَمُنِي أنْ أُنْكِرَ عليْهِ؛ ولهَذَا قَالَ العُلَماءُ: لَا إنْكَارَ فِي مَسَائِلِ الاجْتِهَادِ، وذَلِكَ فيما إذَا كانَ الأمْرُ فِيهِ مَسَاغٌ للاجْتِهادِ، أمَّا مَنْ خَالَفَ نصًّا صَرِيحًا لَا يَقْبَلُ الاجْتهادَ فهَذَا يُنْكَرُ عليْهِ.

ولَوْ أنَّ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي أكَلَ مِنْ لَحْمِ الإِبِلِ ولـمْ يَتَوَضَّأْ صَارَ إمامًا لي، هلْ أُصَلِّي خَلْفَهُ، مَا دُمْنَا قُلْنا: إِنَّنَا لَا نُنْكِـرُ عَلَيْهِ، ونَرَى أنَّ صَلاتَهُ صَحِيـحَةٌ باعْتِبَارِ اعْتِقَادِهِ فهلْ أُصَلِّي خلفَهُ؟

الجَوابُ: نَعَمْ، أُصَلِّي خلفَهُ. معَ أَنَّنِي لوْ صَلَّيْتُ أنا لكانتْ صَلاتِي باطِلَةً، لكنْ نظَرًا لأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ ويَرَى أَنَّهُ لَا يَنْتَقِضُ وُضُوؤُهُ بأكْلِ لَحْمِ الإِبِلِ؛ فإِنَّ صَلاتَهُ صَحِيحَةٌ، ولي أنْ أُصَلِّيَ خَلْفَهُ.

فالشَّرْطُ الثَّانِي مِنْ شُرُوطِ الأمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ أنْ يَكُونَ عالِمًا بأنَّ هَذَا مُنْكَرٌ.

الشَّرْطُ الثالِثُ: أنْ يَعْلَمَ أنَّ هَذَا الَّذِي وُجِّهَ إليْهِ النَّهْيُ أوْ وُجِّهَ إليْهِ الأمْرُ قَدْ تَرَكَ المَأْمُورَ، أوْ فَعَلَ المَحْظُورَ، يَعْنِي هُوَ بِعَيْنِهِ تَرَكَ المَأْمُورَ أوْ فَعَلَ المَحْظُورَ.

مِثالٌ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَـوِيَّةِ: دَخَلَ رَجُـلٌ المَسْجِدَ والنَّبِـيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فجَلَسَ ولَـمْ يَأْتِ بتَحِيَّةِ المَسْجِدِ، فلمْ يَنْهَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويَأْمُرْهُ أنْ يُصَلِّيَ مباشرةً، بلْ قَالَ له: «أَصَلَّيْتَ؟» قالَ: لا، قالَ: «قُمْ فَصَلِّ رَكْعَتَـيْنِ وتَجَوَّزْ فِيهِمَا»[1] يَعْنِـي: خَفِّفْ.

فهلِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ- أنْكَرَ عَلَيْهِ جُلُوسَهُ دُونَ أنْ يُصَلِّيَ قَبْلَ أنْ يَسْأَلَهُ ويَسْتَفْصِلَ؟

الجَوابُ: لا، وإِذَا كانَ كذَلِكَ وَجَبَ عليْكَ الاسْتِفْصَالُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب إذا رأى الإمام رجلا جاء وهو يخطب، رقم (٩٣٠)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب التحية والإمام يخطب، رقم (٨٧٥)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَأَيْتَ إنسانًا فِي هَذَا المَسْجِدِ فِي رَمَضانَ يَشْرَبُ، أَتُنْكِرُ عليْهِ؟

الجَوابُ: لا، حتَّى أَسْأَلَ؛ لأَنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ مُسافِرًا، والمُسافِرُ لهُ أنْ يُفْطِرَ فِي رَمضانَ.

إذَنْ: أقُولُ لهُ: يَا فُلانُ كَيْفَ تَشْرَبُ فِي رَمَضَانَ؟ قَبْلَ أنْ أُنْكِرَ عَلَيْهِ وأَقُولَ: هَذَا حرامٌ عَلَيْكَ، وهَذَا لَا يَجُوزُ.

إذَنْ: لَا بُدَّ أنْ نَعْلَمَ أنَّ الرَّجُلَ بنفسِهِ خَالَفَ الأمْرَ، أوْ وقَعَ فِي النَّهْيِ.

مثلًا: رَأَيْتَ رَجُلًا قَدْ أمْسَكَ بيَدِ امْرأةٍ، ويَمْشِي فِي السُّوقِ، هلْ تُنْكِرُ عَلَيْهِ، وتَقُولُ: يَا فُلانُ! لِماذَا تُمْسِكُ بِيَدِ المَرْأَة؟

الجَوابُ: إذَا شَكَكْتُ فِيهِ أَسْأَلُ، وإذَا لَمْ أَشُكَّ فِيهِ لَا أَسْأَلُ، فإذَا شَكَكْتُ فِيهِ أقُولُ: مَنْ هَذِهِ المَرْأَةُ الَّتِي مَعَكَ؟ فإذَا قالَ: هَذِهِ أُخْتِي، أوْ هَذِهِ زَوْجَتِي، انْتَهى الأمْرُ، هَذَا إذَا كانَ الرَّجُلُ مَحَلَّ تُهْمَةٍ.

أمَّا إذَا كُنْتَ لَا تَدْرِي عَنِ الرَّجُلِ فلا تَسْأَلْهُ، ولا يُمْكِنُ أنْ نُوقِفَ كُلَّ إنْسانٍ معَ امْرَأَةٍ، ونَقُولَ: تَعالَ، مَنْ هَذِهِ المَرْأَةُ؟ هَذَا لَا يُمْكِنُ إطْلاقًا، لكنْ إذَا كانَ الرَّجُلُ مَحَلَّ تُهْمَةٍ فلا بَأْسَ أنْ أُوقِفَهُ، وأَقُولَ: مَنْ هَذِهِ المَرْأَةُ الَّتِي مَعَكَ؟ ولا يَجُوزُ أنْ أضْرِبَهُ فِعْلًا قَبْلَ أنْ أَسْأَلَهُ.

الشَّرْطُ الرابعُ: أَلَّا يَزُولَ المُنْكَرُ إلَى مَا هُوَ أعْظَمُ، فإنْ كانَ نَهْيُكَ عَنِ المُنْكَرِ يَسْتَلْزِمُ أنْ يَقَعَ هَذَا المَنْهِيُّ فِي مُنْكَرٍ أعْظَمَ فلا تَفْعَلْ؛ لأَنَّكَ إذَا نَهَيْتَهُ عَنْ هَذَا المُنْكَرِ الخَفِيفِ نَقَلْتَهُ إلَى مُنْكَرٍ أغْلَظَ.

مثالُ ذَلِكَ: رجُلٌ عندَهُ ولَدٌ مُتهاوِنٌ فِي الصَّلاةِ، كانَ يَأْمُـرُهُ أنْ يُصَلِّيَ لكنَّهُ مُتهاوِنٌ، والتَّهاوُنُ فِي الصَّلاةِ أمْرٌ مُنْكَرٌ، فقالَ: أُخْرِجُ هَذَا الوَلَدَ مِنْ بَيْتِي، ومَعْلُومٌ أنَّ وُجُودَ الوَلَدِ فِي بَيْتِ أبِيهِ أقْـرَبُ إلَى السَّلامَةِ مِنْ كوْنِهِ يَخْـرُجُ عَنِ البَيْتِ؛ لأنَّهُ مُراهِقٌ، ورُبَّما يَضِيعُ ويُضيِّعُ الصَّلاةَ وغَيْرَ الصَّلاةِ، فهَلْ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ أَطْرُدَ هَذَا الوَلَدَ عَنْ بَيْتِي؛ لأنَّهُ كانَ مُتَهاوِنًا فِي الصَّلاةِ؟ أوْ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ يَبْقَى وأَكُونَ معَهُ مُسْتَعْمِلًا الحِكْمَةَ فِي نَهْيِهِ؟

الجَوابُ: الثَّانِي؛ لهَذَا نَقُولُ: لَا تُخْـرِجْ وَلَدَكَ، ماذا تَسْتَفِـيدُ إذَا أخْرَجْتَهُ؟ إنَّهُ لَا يَزْدَادُ إلَّا شرًّا.

مثالٌ آخَرُ: رَجُلٌ وجَدْتَهُ يَشْرُبُ الدُّخانَ، ولا شكَّ أنَّ الدُّخانَ ضارٌّ، وهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الأطِبَّاءِ حَدِيثًا، يَعْنِي قَرَأْنَا عَنْهُ مِنْ صُحُفِ غَيْرِ المُسْلِمِينَ يُقَرِّرُ الأطِبَّاءُ أنَّهُ ضارٌّ، لكنِ الضَّرَرُ لَا يَتَبيَّنُ بأوَّلِ وهْلَةٍ، فرُبَّما لَا يَتبيَّنُ الضَّرَرُ إلَّا بَعْدَ سنواتٍ، وما أفْضَى إلَى الضَّرَرِ فإنَّهُ حَرامٌ؛ لقَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النِّساءِ:٢٩] حتَّى مَا يتأذَّى بِهِ البَدَنُ حَرامٌ، أرَأَيْتُمْ عَمْرَو بنَ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فأجْنَبَ، وكانتِ اللَّيْلَةُ بارِدَةً، وخافَ عَلَى نفسِهِ مِنْ بُرُودَةِ الماءِ فتيَمَّمَ، فلَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لهُ: «**يَا عَمْرُو! أَصَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟**» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتُ قَوْلَ اللهِ تَعالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النِّساءِ:٢٩] وَخِفْتُ البَرْدَ فَتيَمَّمْتُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ»[1] إقْرارًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٣)، وأبو داود: كتاب الطهارة، باب إذا خاف الجنب البرد أيتيمم، رقم (٣٣٤)، وعلقه البخاري: كتاب التيمم، باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض (١/ ٧٧).

إِذَنِ: النَّهْـيُ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ نَهْـيٌ عَمَّا يُؤْذِي وإنْ لَمْ يَكُـنْ قَتْلًا؛ ولهَذَا قَالَ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الطَّعامَ يَكُونُ حَرامًا إذَا خافَ الإنْسَانُ مِنَ التَّأَذِّي بِهِ أَوْ مِنَ التُّخْمَةِ».

يخافُ مِنَ التَّأَذِّي مِثالُهُ: شَخْصٌ يَأْكُلُ حتَّى يَمْلأَ بَطْنَهُ، ويَكُونُ ككَبْشِ البَعِيرِ، ثُمَّ يَتَأَذَّى بِهِ، نَقُولُ: حَرامٌ عَلَيْكَ! الأكْلُ للغِذَاءِ وتَنْمِيَةِ الجِسْمِ، ولَيْسَ للإيذَاءِ.

وإذَا خافَ التُّخْمَةَ أَيْضًا فإنَّهُ يَحْرُمُ عليْهِ، والتُّخْمَةُ تَغَيُّرُ المَعِدَةِ، بحيثُ يَكُونُ لهَا رائِحَةٌ كَرِيهَةٌ عندَ التَّجَشُّؤِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ مُتَأَذِّيًا بمِلْءِ البَطْنِ لكنْ يَخْشَى مِنَ التُّخْمَةِ، نقولُ: هَذَا حرامٌ عليْكَ، فيَحْرُمُ الأكْلُ معَ التَّأَذِّي أوِ التُّخْمَةِ.

والدُّخانُ لَا شكَّ أَنَّهُ ضارٌّ، وكَوْنُ بَعْضِ النَّاسِ لَا يَتَضَرَّرُ بِهِ، هُوَ نَعَمْ لَمْ يَتَضَرَّرْ بِهِ الآنَ، أَوْ لَمْ يَتَضَرَّرْ بِهِ ظاهِـرًا، لكنَّهُ قَدْ تَضَرَّرَ بِهِ باطِنًا ولوْ تَرَكَـهُ لكانَ أَصَحَّ وأَعْفَى.

ثانيًا: الدُّخانُ يُتْلِفُ المالَ؛ حيثُ يَصْرِفُ الإنْسَانُ عَلَى تَحْصِيلِ الدُّخانِ مَصارِيفَ كَثِيرَةً، فيكونُ فِي ذَلِكَ إضَاعةٌ للمالِ، وإضاعَةُ المالِ مُحَرَّمَةٌ فِي الكِتابِ والسُّنَّةِ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النِّساء:٥].

ولماذَا نَهانَا أَنْ نُؤْتِيَ السُّفَهاءَ الأمْوالَ؟

لأنَّ السُّفَهاءَ يُفَرِّطُونَ فِيهَا، ويُبَدِّدُونَهَا فِيـما لَا فائِدَةَ فيهِ، وقالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الإسْراء:٢٦-٢٧].

إِذَنْ: هُوَ مَضْيَعَةٌ للمالِ.

ثالثًا: الدُّخانُ لهُ رائحةٌ مُؤْذِيَةٌ، ولا يَجُوزُ للإنسانِ أنْ يَحْضُرَ مجالِسَ المُسْلِمِينَ معَ رائِحَةٍ تُؤْذِيهِمْ؛ ولهَذَا مَنَعَ النَّبيُّ ﷺ آكِلَ البَصَلِ والكُرَّاثِ والثُّومِ مِنْ حُضُورِ المَسْجِدِ، فقالَ: «مَنْ أَكَلَ بَصَلًا أَوْ ثُومًا أَوْ كُرَّاثًا فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسَاجِدَنَا» لأنَّ النَّاسَ يَتَأَذَّوْنَ بها، وإذَا لَمْ يَكُنْ فِي المَسْجِدِ أحَدٌ فالمَلائِكَةُ تَتَأَذَّى بذَلِكَ؛ ولهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ»[١].

وكانَ الرَّجُلُ يَدْخُلُ مَسْجِدَ النَّبِيِّ ﷺ إذَا أكَلَ بَصَلًا أَوْ ثُومًا أَوْ كُرَّاثًا فيُخْرَجُ إِلَى البَقِيعِ -والبَقِيعُ بَعِيدٌ مِنَ المَسْجِدِ- يُخْرَجُ هَذَا الرَّجُلُ إِلَى البَقِيعِ[٢]؛ تَعْزِيرًا لهُ وإبْعَادًا لرَائِحَتِهِ المُؤْذِيَةِ للمُصَلِّينَ والمَلائِكَةِ.

رابِعًا: شارِبُ الدُّخانِ تَثْقُلُ عَلَيْهِ العِباداتُ، فإذا أُذِّنَ للصَّلاةِ وهُوَ بَعِيدُ العَهْدِ بالدُّخانِ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ الصَّلاةُ؛ لأَنَّهُ يُرِيدُ أنْ يُدَخِّنَ، فتَثْقُلَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ، واسْأَلْ شَارِبَ الدُّخانِ عَنِ الصِّيامِ، أهُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ أمْ صَعْبٌ؟ سيقولُ: إنَّهُ صَعْبٌ، فيَسْتَثْقِلُ رُكْنًا مِنْ أرْكانِ الإِسْلامِ وهُوَ لَا يَشْعُرُ، ولا شَكَّ أنَّ مَا أدَّى إِلَى اسْتِثْقَالِ العِباداتِ فإنَّهُ لَا شكَّ مُحَرَّمٌ؛ لأنَّ الواجِبَ أنْ تَكُونَ العِباداتُ خَفِيفةً عَلَى المُسْلِمِ؛ حتَّى يَسْلَمَ مِنْ مُشابَهَةِ المُنافِقِينَ الَّذِينَ إذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالَى.

خامِسًا: شارِبُ الدُّخانِ يَكْرَهُ مُجالَسَةَ الصَّالِحِينَ؛ لأَنَّهُ إذَا جالَسَ الصَّالِحِينَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث، رقم (٨٥٥)، ومسلم: كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا، رقم (٥٦٤)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا، رقم (٥٦٧)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فسَوْفَ يَمْتَنِعُ عَنِ الدُّخانِ، إمَّا إكْرَامًا لهم، وإمَّا خَجَلًا، وإمَّا خَوْفًا مِنْهُمْ، فيَسْتَثْقِلُ الجُلُوسَ معَ الصَّالِحِينَ، فيَذْهَبُ ويَجْلِسُ معَ مَنْ يُشابِهُونَهُ ممَّنْ يُدْمِنُونَ عَلَى هَذَا الشُّرْبِ؛ لذَلِكَ نَحْنُ نرَى أنَّ شُرْبَ الدُّخانِ حَرامٌ.

لكنْ لوْ كانَ الإنْسَانُ هَذَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ جائِزٌ؛ لأنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إنَّهُ جائِزٌ، فأنَا أُناقِشُهُ ولا أُنْكِرُ عليْهِ؛ لأنَّهُ يرَى أنَّهُ مُباحٌ، وكذَلِكَ أيْضًا بَقِيَّةُ المُحَرَّماتِ الَّتِي اخْتَلَفَ فِيهَا العُلَمَاءُ ولَيْسَتْ تُخالِفُ نصًّا واضِحًا فإنَّهُ لَا إنْكارَ فِيهَا.

وهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي يَشْرَبُ الدُّخانَ فِي اعْتِقادِنَا أنَّهُ حرامٌ نَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ، فإذا كانَ نَهْيُنَا إيَّاهُ يَتَضَمَّنُ مَفْسَدَةً أكْبَرَ، بحيثُ إذَا نَهَيْنَاهُ عَنْ شُرْبِ الدُّخانِ ذَهَبَ يَشْرَبُ المُسْكِرَ، فلَا نَنْهَاهُ عَنْ شُرْبِ الدُّخانِ؛ لأنَّهُ يَنْتَقِلُ مِنْ مُنْكَرٍ إلى أعْظَمَ.

يُذْكَرُ أنَّ شَيْخَ الإسْلامِ ابنَ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ لمَّا دخَلَ التَّتَارُ دِمَشْقَ، التَّتَارُ قَوْمٌ سَلَّطَهُمُ اللهُ تَعالَى عَلَى المُسْلِمِينَ، وحَصَلَ مِنْهُمْ مِنَ الأُمورِ الفَظِيعَةِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ الإنْسَانُ أنْ يُعَبِّرَ عنهُ، حتَّى إنَّ المُؤَرِّخَ الشَّهِيرَ ابْنَ الأثِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ عنْدَ ذِكْرِ هَذِهِ الحَادِثَةِ العَظِيمَةِ المُرَوِّعَةِ قالَ: كُنْتُ أُقَدِّمُ رِجْلًا وأُؤَخِّرُ أُخْرَى هلْ أذْكُرُهَا أوْ لا، حتَّى بَدَا لِي أنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا؛ لأنَّهَا أمْرٌ واقِعٌ، والتارِيخُ لَا بُدَّ أنْ يُذْكَرَ بعُجْرِهِ وبُجْرِهِ.

التَّتَارُ عاثُوا فِي الأرْضِ فَسادًا، وسَلَّطَهُمُ اللهُ عَلَى المُسْلِمِينَ، وصَارَ مِنْهُمْ نَكْبَةٌ عَظِيمَةٌ، دَخَلُوا دِمَشْقَ، ومَرَّ شَيْخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ بقَوْمٍ مِنَ التَّتارِ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ، ويَسْكَرُونَ، وكانَ مَعَهُ صاحِبٌ لهُ، وكانَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أعْنِي شيخَ الإسْلامِ ابنَ تَيْمِيَّةَ، مِنْ أشَدِّ النَّاسِ عَزِيمَةً وإنْكارًا للمُنْكَرِ، لكنَّهُ ترَكَ هَؤُلَاءِ، فَقَالَ لهُ صاحِبُهُ:

لِماذَا لَمْ تُنْكِـرْ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ: لوْ أَنْكَرْتُ عليْـهِمْ لانْتَقَلُوا مِنَ الشَّرِّ القاصِرِ إِلَى الشَّرِّ الْمُتَعَدِّي، والشَّرُّ القاصِرُ هُوَ شُرْبُهُمُ الخَمْرَ، فهَذَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، لكنْ لوْ نَهَيْنَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ تَفَرَّغُوا للعُدْوَانِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بنَهْبِ الأَمْوَالِ، وانْتِهَاكِ الأَعْرَاضِ، والثَّانِي أَشَدُّ، إِذَنْ نَدَعُهُمْ[1].

وهَكَذَا أَيْضًا القاعِدَةُ: اشْـتَرَطُوا للنَّهْيِ عَنِ الْمُنْـكَرِ أَلَّا يَزُولَ إِلَى مَا هُوَ أَشَرُّ وأَنْكَرُ.

إِذَنْ: فالنَّهْـيُ عَنِ الْمُنْكَرِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِهِ زَوَالُ الْمُنْكَرِ نِهائِيًّا، أَوْ تَخْـفِيفُ الْمُنْكَرِ نِهائِيًّا، أَوِ انْتِقَالٌ إِلَى مُنْكَرٍ مِثْلِهِ، أَوِ انْتِقَالٌ إِلَى طاعَةٍ.

والحالُ الَّتِي يُنْهَى عَنْ إِنْكارِ الْمُنْكَرِ فِيهَا هِيَ أَنْ يُنْتَقَلَ مِنْ مُنْكَرٍ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ، فحينئذٍ لَا نُنْكِرُ؛ خَوْفًا مِنَ الوُقُوعِ فيـما هُوَ أَكْبَرُ، فهُناكَ إِنْكَارٌ وأَمْرٌ وهُناكَ تَغْيِـيرٌ، والأَمْرُ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ (إِنِ اسْتَطَعْتَ) والتَّغْيِيرُ ذُكِرَ فِيهِ (إِنِ اسْتَطَعْتَ) فَقَالَ النَّبِـيُّ ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَـطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ**»[2] لأَنَّ التَّغْيِيرَ لَا يكونُ إِلَّا ممَّنْ لهُ سُلْطَةُ التَّغْيِيرِ، لَيْسَ كُلُّ أحدٍ مِنَ النَّاسِ لهُ السُّلْطَةُ، ولوْ جَعَلْنَا لكُلِّ واحدٍ مِنَ النَّاسِ السُّلْطَةَ فِي التَّغْيِيرِ لَحَصَلَ فِي ذَلِكَ فَوْضَى، لَا يَعْلَمُ مَدَاهَا إِلَّا اللهُ؛ لأَنَّهُ قَدْ يَرَى هَذَا الإِنْسَانُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ مُنْكَرٌ، ولَيْسَ بمُنْكَرٍ، ويُحاوِلُ أَنْ يُغَيِّرَهُ بيدِهِ، فيَحْصُلُ بذَلِكَ اشْتباكٌ وضَرْبٌ؛

---

(١) انظر: إعلام الموقعين (٣/ ١٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم (٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولذَلِكَ جَاءَ التَّغْيِيرُ مُقيَّدًا بالاسْتِطَاعَةِ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ**».

وحينئذٍ نقولُ: هُناكَ دَعْـوَةٌ، وهُناكَ أَمْرٌ ونَهْـيٌ، وهُناكَ تَغْيِـيرٌ، وأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُفَرِّقُونَ بينَهَا، لكنَّ بَيْنَهَا فَرْقًا واضِحًا.

الدَّعْوَة: أَنْ يَقُومَ رَجُلٌ فِي مَجْمَعٍ مِنَ النَّاسِ فِي المساجِدِ، أَوْ فِي المَدارِسِ، أَوْ فِي غيْرِهَا، يَتكَلَّمُ بِما شاءَ اللهُ تَعالَى مِنْ أُمُورِ الشَّرْعِ، ويَحُثُّ علَيْهَا.

الأَمْرُ: أَنْ يُوَجِّهَ الخِطابَ إِلَى شَخْصٍ مُعَيَّنٍ، ويَقُولَ: يَا فُلانُ افْعَلْ كذَا.

النَّهْيُ: كذَلِكَ يُوَجِّهُ النَّهْيَ إِلَى شَخْصٍ مُعَيَّنٍ: يَا فُلانُ اتْرُكْ كذَا.

إِذَنْ: هُوَ أَقْوَى مِنَ الأَوَّلِ؛ لأَنَّهُ يُباشِرُ مَنْ حَصَلَ منهُ الخَطَأُ مُباشَرَةً.

الثالثُ: التَّغْيِيرُ، وهَذَا أَشَدُّهَا، فلابُدَّ أَنْ يَكُونَ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُغَيِّرَ أَنْ يَكُونَ لهُ سُلْطَةُ التَّغْيِيرِ، وإِلَّا انْتَقَلَ مِنَ التَّغْيِيرِ باليَدِ إِلَى التَّغْيِيرِ باللِّسَانِ، وهَذَا هُوَ الأَمْرُ والنَّهْيُ، فإِنْ لَمْ يسْتَطِعْ أَنْ يَأْمُرَ ولا يَنْهَى، بحيثُ لوْ أَمَرَ أَوْ نَهَى لَحَصَلَ عَلَيْهِ مَضَرَّةٌ فِي دِينِهِ أَوْ بَدَنِهِ أَوْ مالِهِ، فإِنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ ذَلِكَ ويَنْتَقِلُ إِلَى المَرْتَبَةِ الثالِثَةِ، وهِيَ أَنْ يُغَيِّرَ بقَلْبِهِ، بحَيْثُ يَكْرَهُ هَذَا المُنْكَرَ ويُبْغِضُهُ، لكنَّهُ يقولُ: يَا ربِّ أَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُغَيِّرَ.



الدرس السادس:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩٣]. إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

هَذِهِ الآياتُ العشْر كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ إِذَا قَام منَ اللَّيْلِ يقْرَؤُهَا بَعد أنْ يَقُولَ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»[1]، «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، ثُمَّ يَدعو؛ فَمن ذَكَر هَذَا الذِّكْرَ، ثمَّ دَعَا، استُجيبَ لَه دُعَاؤُهُ[2]، ثُمَّ يَقْرأ هَذِهِ الآياتِ، وَهِيَ تُقَال عِند القيامِ منَ النَّوم كُلّ يَوْمٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، رقم (٦٣١٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب فضل من تعارَّ من الليل فصلى، رقم (١١٥٤).

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: فِي ابْتِدَاءِ خَلْقهما منَ العدمِ، فَالسماواتُ والأرضُ خَلْقُهُمَا أكبرُ منْ خَلق النَّاسِ، كَما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧]، ومَنْ تَأمل مَا فِيهما منَ الآياتِ العَظِيمة، تَبَين لَه عِظَم خَلقهمَا.

قَوْله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: اللَّيْلُ والنَّهَارُ يَخْتلفان طُولًا وقِصَرًا، يَقصر هَذَا تارةً، ويَقْصر الآخرُ تارةً أُخرَى، ويَخْتلفان أيْضًا حَرًّا وبردًا، ويَخْتلفان أَيْضًا شِدةً وبُؤْسًا، ويَخْتلفان حَرْبًا وسِلْمًا، ويَخْتلفان غِنًى وفقرًا، ويَخْتلفان نَصْرًا وذُلًّا، إِلَى غَيْرِ ذَلك منْ الِاختلافاتِ المُتنوعـة، فِي هَذَا آيَات لِأُولِي الأَلْبابِ؛ لِأَنَّ مِنَ المعلـومِ أَنَّ خَالقهمَا هُوَ اللهُ، وَأَنَّ الَّذِي يَجْعل فِيهمَا الاختلافَ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فَيكون فِي ذَلِكَ آياتٌ عظيمةٌ.

قَوْلُهُ: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أَيْ: لأَصحابِ العقولِ، أَمَّا أُولئكَ القَوم الَّذِينَ لَا عُقُولَ لَهُمْ، وَلَا يَتَفكَّرون فِي خَلق السَّماواتِ والأَرْض، فَلَا يَشْعرون بِهَذِهِ الآياتِ.

فَالقُرْآنُ الكَرِيمُ آياتٌ عَظِيمةٌ، لَكن مَن فِي قُلُوبهم مَرض إِذَا تُتلى عَلَيْهم آيات اللهِ قَالوا: هَذه أَسَاطِير الأَوَّلِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: كَيف تَكُون آيةٌ واحدةٌ أَو آيَات لِقوم زِيَادةَ إِيمانٍ، ولآخرينَ زِيادةَ رِجسٍ؟

قُلْنَا: لَا غَرابةَ فِي هَذَا، فالأُمُور الحسيَّة تَكون لِأقوامٍ مَرَضًا، وَلِآخرينَ غِذَاء

وَصِحَّة، فالتَّمْرة لِمَن أَصَابهُ دَاء السُّكَّرِي مَرض يَضُره، وَللصَّحيح منْ ذَلك غذَاء وصحَّة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، وَأَحْوال الإِنْسَانِ لَا تَخْلو منْ هَذِهِ الثلاثِ: إِمَّا قائمًا، وإمَّا قاعدًا، وإمَّا عَلَى جَنْبٍ.

إِذَنْ، هُمْ يَذكرونَ اللهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلِهَذَا قَالَتْ عَائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ»[1]، أَيْ: فِي كُلِّ حِينٍ.

فَإِنْ قِيلَ: هَؤُلَاءِ ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أَيذكرونهُ بِاللِّسان فَقَطْ، أَمْ بالقلبِ فقط، أَمْ بالجوارحِ فَقط، أَم بالثَّلاثة جميعًا؟

قُلْنا: يَذكرون اللهَ بِقُلوبهم، وأَلْسنتهم، وَجَوَارحهم.

يَذْكرون اللهَ بِقُلُوبهم: أَي أَنْ ذِكْرَ اللهِ بِقلوبهم دائمًا، إنْ قَاموا وَإِنْ قَعَدوا وإِنْ ناموا أَوِ اضْطَجعوا فذِكْرُ اللهِ تَعَالَى فِي قُلُوبهم.

ويَذْكرون اللهَ تَعَالَى بِأَلْسنتهم: فِي كُلِّ مَوْطن يُشْرَعُ فِيهِ الذِّكْرُ.

ويَذْكرون اللهَ بِجَوارحهم: وَذَلك بِالأَفْعال، فَإِنَّ الأفعالَ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا العَبد إِلَى الله هِيَ ذِكر للهِ.

فَالرَّجُل الذي يَأكل السَّحور لِيَصوم؛ أَكله لِلسَّحور يُعْتَبرُ ذِكْرًا للهِ؛ لِأَنَّهُ يَنْوِي بِذَلك التَّقرب إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فكل فِعل تَنْوي به التَّقرب إِلى الله، فَإِنَّهُ ذِكر للهِ تَعَالَى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب هل يتتبع المؤذن فاه ها هنا وها هنا وهل يلتفت في الأذان، ومسلم: كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، رقم (٣٧٣).

قَوْلُهُ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ التَّفكُّر بالقلب؛ لِأَنَّ التَّفكر إعْمال الفِكر فِي الأَمر لِيَصل بِه إِلى غَايةٍ، ومَعْلوم أَنَّ هَذَا محَله القَلبُ، فَيَتفكر الإِنْسَانُ بِقَلبه فِي خَلق السَّماوات والأَرْض: لَماذا خُلِقت السَّماوات والأَرْض؟ لِمَاذا خُلِقَ الإنسُ؟ لِمَاذا خُلِق الجنُّ؟ لِمَاذَا خُلِقَتِ الملائكةُ؟ لِمَاذَا أُرْسلت الرسلُ؟ لِمَاذَا أُنزلت الكتبُ؟ وَهكَذَا، يَتفكرون فِي هَذَا كُله لِيَصلوا إِلَى حَقِيقة أَنَّ الله تَعالَى خَلق ذَلِكَ كُلَّهُ لِلحقِّ وبالحقِّ وفي الحقِّ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾.

وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

وَلْنَضْرب لهَذَا مثلًا: خَلق اللهُ الإِنْسَانَ، وأَرْسَلَ إِلَيْه الرسلَ، وأَنْزَلَ الكتبَ، وأَمَرَ ونَهَى؛ لِغَايةٍ محمودةٍ عظيمةٍ جدًّا، وهِيَ عِبادَةُ اللهِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

فَاللهُ لَمْ يَخلقنا منْ أَجل أَنْ نَعيشَ بِالأكلِ والشربِ والُمتَعِ الأخرَى، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِك مَوت لَا رَجعة بَعْده، لَو كَانَ الأَمر كَذَلك لَكَان خلْقنا عبثًا، لَكن الأَمْرَ أَعظم مِن هَذَا، خُلِقْنَا لِعِبَادَةِ اللهِ الَّتِي نَسْعَدُ بهَا فِي الآخِرَةِ.

قَوْلُهُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ اسْمُ مَصْدَرٍ، بِمَعنى: تَسْبِيحًا لَكَ، واسمُ المصدرِ: كُلُّ مَا تَضمن مَعْنَى المَصْدر دُونَ حُرُوفهِ، فاسمُ المصدرِ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى المصدرِ لَكن لَا يَكون بِحُرُوف الفِعلِ الَّذِي اشْتُق منه، فمثلًا: الكلامُ: تَكلمتُ كلامًا نافعًا، هَذَا اسم مصدرٍ، أمَا: تَكَلمت تكليمًا، فتكليمًا مصدرٌ، لَكن (كلامًا) لَيْسَ بمصدرٍ؛ لِأَنَّ (كلامًا) لا يُطابق (كَلَّم)، فَكلَّم تَكليمًا هَذَا مَصْدر، وكَلَّم كلامًا هَذَا اسمُ مَصْدرٍ، وسبَّح تسبيحًا مصدر، سُبْحَانك اسم مَصْدَر.

ومعنى قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: تَنْزِيهًا لَك، والله تَعَالَى يُنزَّهُ عَن ثلاثةِ أشياءَ:

مُماثلة المَخْلوقينَ، وعَن نَقص كَماله، ويُنزه عَنْ كُلِّ نَقْص، فَلَا يُوصَفُ اللهُ بالنَّقص كَالعَمَى وَالصَّمَم والجَهْل، فَهذَا حَرَامٌ، ومُسْتَحيل عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ نَقْص؛ وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهيم لِأَبِيهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٤٢] ﴿مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾، فَهَذَا لَا يُمْكن أَنْ يكونَ مُستحقًّا لِلْعِبَادَةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ؟

قُلْنَا: قَول اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] يَعْنِي الوَصْف الأَكْمل، ومَعْلوم أنَّ النَّقْصَ يُنافي المَثَل الأعلَى.

الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّه مُنزه عَن مُماثلة المَخْلوقينَ قَوله تَعَالَى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وقَوْله تَعَالَى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥]، وقَوْله تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة:٢٢] والآياتُ فِي هَذَا كَثِيرةٌ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقصِ فِي كَمَالِهِ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ هَذَا خَلْق يَدُلّ عَلَى الكَمال ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [ق:٣٨] أَيْ: مِنْ تَعبٍ وَإِعْيَاءٍ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ جَلَّوَعَلَا لَا يَلحقهُ نَقص فِي كَماله.

قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الفَاء هُنا لِلسَّببِيَّة، أَي: فَبِسبب ثنائِنَا عَلَيْكَ قِنَا عَذَاب النارِ، أَيْ: جَنِّبْنَا إِيَّاها.

قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ هَذَا كَالتَّعليل لِطَلبهمُ الوِقَايةَ منَ النارِ، يَعْني أَنَّ مَنْ أَدْخله اللهُ النارَ فَقَدْ أَخْزَاهُ، أَيْ: أذلَّه وفَضَحَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ أَحَدٌ يَنْصُرُهُمْ مِنَ اللهِ.

قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ الْمُنَادِي الَّذِي يُنَادِي لِلْإِيمانِ هُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، يُنَادِي لِلْإِيمانِ باللهِ، وَكَذَلك مَنْ وَرِثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، وَهُمْ دُعاةُ الحقِّ، يُنادُونَ للنَّاسِ: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾، فَسَماعُنا للرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بواسطة سُنَّته، والدُّعاة إِلَى الحقِّ، أَمَّا سَماع الصَّحابَة للرَّسُولِ ﷺ فَهُوَ مُباشرةً: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾، وهَذَا غَايةُ مَا يكون منَ الإيمانِ أَنَّك بِمُجَرَّد أَنْ تَسمعَ كَلامَ النَّبيِّ ﷺ تَتَّبعه، خلافًا لِمَنْ يَتباطأ فِي ذَلِكَ، أَوْ يَتأَنَّى فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠].

فَيَجِبُ الحذرُ عن إِذَا سَمِعْتَ كَلَامَ اللهِ وَرَسُوله صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أَنْ تَتَباطَأَ فِي قَبُولِهِ وَالعَمَلِ بِهِ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّهُ رُبَّما تُصابُ بِهَذِهِ المصيبةِ العَظِيمةِ؛ أَنْ يُقلَّبَ فؤَادك وَبَصَرك، فَمَنْ لَمْ يَقبلِ الحقَّ منْ أَوَّل مرَّة فَهوَ عَلَى خطرٍ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وَمِنْ ذَلك قَوله تَعالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥] يَعْنِي: هُم لَمْ يُؤْمنوا منْ أَوَّل مرَّةٍ، فَأَمرهم مُخْتَلط والعِيَاذُ باللهِ.

تَنْبِيهٌ:

مَسْأَلةٌ خَطيرةٌ يَتوارثُها النَّاسُ، حَتَّى طَلَبَةُ العلمِ، إِذَا سَمِعوا أَمرَ اللهِ ورسولِهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ سَأَلوا: هَلِ الأمرُ للاستحبابِ أَوْ لِلْوجوبِ؟

وَإِذَا سَمِعُوا اللهَ يَقُولُ: لَا تَفْعَلْ كَذَا، وكذَلك فِي السُّنَّةِ: لَا تَفْعَلْ كَذَا، قالوا: هَلِ الأمرُ للاستحبَابِ أَوْ لِلوجوبِ، وإِذَا سَمِعوا النَّهيَ قالوا: هَلْ هُوَ للكراهَةِ أَوْ لِلتَّحريمِ؟

وَهَذَا أمرٌ خَطيرٌ؛ فَالصَّحَابَةُ إِذَا أَمَرهمُ الرَّسُول ﷺ أَوْ سمِعُوا أمرَ اللهِ قَالوا: سَمِعنا وأطَعْنا، ونَفَّذُوا بِدون أنْ يَسألوا: هَلِ الأمرُ لِلْاستحبابِ أَوْ للوجوبِ.

وَلَمَّا خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ فِي يَوْمِ العيدِ، وَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**»[1] مَاذَا فَعَلْنَ؟ جعلتِ المَرْأَةُ تأخذُ قرطًا من أُذُنِهَا وَتُلقيهِ فِي ثَوبِ بِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتَأْخذ الخاتمَ تُلقيه فِي ثَوْب بلالٍ، فامْتَثلنَ مِنْ فَوْرِهنَّ.

ولَمَّا جَاءَ الفُقَرَاءُ وافِدِينَ إِلَى الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وغَالِبهم مِن مُضر، تَمَعَّرَ وَجْهُ الرَّسُولِ ﷺ ثمَّ أمر بالصَّدَقة لهؤُلاءِ، فالصَّحَابَة لَمْ يَقُولوا: يَا رسولَ اللهِ، هَلْ أَمرك أَمْر استحبابٍ أَمْ أَمْر وُجُوبٍ؟ ولكن بَدؤُوا يَأْتون بالصَّدَقَات، حَتَّى جَاءَ رَجل بِصُرَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْ يَدَهُ، وَأَلْقَاهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**»[2].

فَاحْذَرْ إِذَا جَاءَكَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أَنْ تَقولَ: هَلْ هُوَ لِلْاسْتِحبابِ أَوْ لِلْوُجوبِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا قِيلَ لَكَ: لِلاستِحْبَاب، سَتَتَباطأُ، أَوْ لا تُنَفِّذُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم (١٤٦٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله، رقم (٧٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة، وأنها حجاب من النار، رقم (١٠١٧).

أصلًا، وإذَا قِيلَ: للوجوبِ، فَعلتَ ذَلِكَ كُرْهًا، وإذَا سَمِعت اللهَ ورسولَهُ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ يَأمر بِأَمر فَقُل: الحمدُ للهِ سَمْعًا وطَاعةً، وَلَوْلَا أَنَّ لي الخيرَ فِيهِ مَا أُمرتُ به.

وَإِذَا تورَّطَ الإنْسَانُ فِي المخَالفَةِ فحِينَئِذٍ له الحقُّ أَنْ يَقُولَ: هَلِ الأمرُ لِلوُجُوبِ أَوِ الأَمْرُ لِلاسْتِحبابِ، حَتَّى يَنْتَشل نَفْسه منَ الوَرطة بِالإِثْم إِنْ كَانَ الأَمْر لِلْوُجوب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾.

مَطَالِبُ ثَلَاثةٌ عَظِيمة قَدَّمُوا لهَا وَسِيلة عَظِيمة، وهيَ أَنَّهمْ آمَنوا حِين سَمِعوا المنادِيَ يُنَادي لِلْإِيمان، وَهَذِهِ إِحْدى الوَسَائل الجَائِزَة، يَعْنـي أَنَّ التَّوسل نَوْعان: بَعْضه مَحْمود، وبَعْضه مَذْموم، ومِن جُمْلة المَحْمود أنْ تَتوسلَ إِلَى اللهِ بِالإِيمانِ؛ بالإِيمانِ بِهِ، وَبِرَسوله ﷺ، فَحينئذ تَسْأل اللهَ، واسْتَمع لِلتَّوسل هُنا: ﴿إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ يَعْني: بناءً عَلَى ذَلِكَ اغْفِرْ لَنَا.

إِذَن التَّوَسلُ بِالإِيمانِ بِاللهِ مِنَ التَّوسلِ المَحْمودِ المَشْروعِ.

قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ هَذَا المَطْلَبُ الأَوَّلُ: اغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا الذُّنُوبَ. وَالمغْفِرَةُ: أَنْ يسترَ اللهُ ذَنْبكَ، وَأَلَّا يُعذِّبَكَ بِهِ؛ وَلِذَلِكَ يَدْعو المُسْلِم فِي كُلِّ صَلَاةٍ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي».

فَغُفران الذَّنب أَيْ: سَتْرُ الذَّنب عَنِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَوْ يَعْلمون ذُنُوبَك مَا سَاوَيْتَ عِنْدهم فَلْسًا، فَإِذا سَتَرها اللهُ عَنِ النَّاسِ بَقِيَت قِيمتُك عندَ النَّاسِ، وَلِهَذَا نَقُول: مَنْ أَذْنب ذَنبًا، فَلْيَستتر بِستر اللهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ

قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ»[1]، فَيَفعل الذَّنبَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُومُ يَتَحَدَّثُ إِلَى النَّاسِ أَنَّهُ فَعل كَذا وَكَذَا منَ الذُّنوبِ، فَيَجب أَنْ تَحمد اللهَ عَلَى السَّترِ، وَتَتَوب إِلى رَبِّك فِيما بَيْنَك وَبَيْنَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ وَهَذَا المَطْلَبُ الثَّانِي؛ أَيْ: وَفِّقنا لِلْأَعمال الصَّالحة الَّتِي تَكُون تَكْفِيرًا لِلسَّيئات.

فَإِنْ قِيلَ: مَا الأَعْمال الصَّالحات الْمُكَفِّرات لِلسَّيئات؟

قُلْنَا: الأَعْمال الصَّالحاتُ المكَفِّرات لِلسَّيِّئات:

الأَوَّلُ: إِسْباغ الوُضوء عَلَى المكَارِه.

الثَّاني: الصَّلَوات الخَمْس.

الثَّالِثُ: الجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ.

الرَّابِعُ: رَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ.

الخامسُ: العُمْرَة إِلَى العُمْرَةِ، كُلُّ هَذِهِ منَ الكُفَّاراتِ للسيِّئاتِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ هَذَا المطلبُ الثَّالِثُ، وهوَ الثَّبات عَلَى دِينِ اللهِ إِلَى المَوْتِ؛ أَي: اقبِضنَا إِلَيْكَ وَنَحن منَ البَرَرة. وَسُؤالُ اللهِ القَوْلَ الثَّابتَ فِي الحيَاة الدُّنيا وَالآخِرةِ أَمر لَا بُدَّ مِنه، فَكَمْ مِن إِنْسَانٍ زَلَّ عِنْدَ آخِرِ لَحْظَةٍ، وَكَمْ مِن إِنْسَانٍ ثَبَتَ عِنْدَ آخِرِ لَحْظَةٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم (٥٧٢١)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، رقم (٢٩٩٠).

وَمِصْداقُ ذَلِك فِي حَدِيث عَبْد اللهِ بنِ مَسْعود، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ -وَصَدَق عبدُ اللهِ بنُ مَسْعود، فنبيُّنا ﷺ هُوَ الصَّادقُ المصدوقُ؛ الصَّادقُ فِيما أَخْبَرَ، المَصْدُوق فِيما أُوحِيَ إِلَيْهِ- أَنَّهُ ﷺ حدَّثَهُم فَقَال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»، ثُمَّ يَتَحَوَّل شَيئًا فشَيئًا فَيكون بَعدَ الأربعِين عَلَقَةً؛ أَيْ: دُودة منَ الدَّم، وَلَا يَزَال يَتَحول وَيَتَحول وينْمو، ثُمَّ يَكون فِي الأَربعين الثَّالِثةِ مُضْغَةً؛ أَيْ: لَحْمة صَغِيرة بِقَدْرِ مَا يَمْضغهُ الإِنْسَانُ، هَذِهِ المُضْغَةُ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج:٥]، فِي أَوَّل أَمْرِهَا غَير مُخَلَّقةٍ، وفِي النِّهَاية -نِهَاية الأَرْبَعينَ- تكون مُخَلَّقة.

فَهَذِهِ مِئَةٌ وَعِشْرُونَ يومًا، أَيْ: أَرْبعةُ أَشْهرٍ. ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا، والمرادُ بِالملكِ الجنسِ، يَعْنِي الملائكةَ المُوَكَّلين بِالأَرْحامِ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ جُنُودٌ لَا يَعْلمهمْ إِلَّا اللهُ، فالملائكة كلٌّ منهم له وَظِيفةٌ.

والبَيْتُ المعمورُ فِي السَّماءِ السَّابعةِ يَدْخُلُه كُلَّ يَوْمٍ سَبعونَ أَلْف مَلكٍ، وَلَا يَعُودون إِلَيه، وَيَأتِي غَيْرهم، وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَطَّتِ السَّماءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا قَدْرُ مَوْضِعِ أُصْبُعٍ إِلَّا مَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ**»[1] وَالسَّماءُ سِعَتُهَا عَظِيمَةٌ.

فَاللهُ عَزَّوَجَلَّ قَد وكَّل بِالأرحامِ مَلائكةً، «**ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ**» يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، مَا أَضعفَ الإِنْسَانَ، فَالإِنْسَانُ يَسْأَلُ عنِ الرُّوح كَأَنَّه لَم يبقَ عَلَيه منَ

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣، رقم ٢١٨٤٨)، والترمذي: كتاب الزهد، باب قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم**»، رقم (٢٣١٢).

العلومِ إلَّا عِلْمُ الرُّوحِ، فيقُولُ اللهُ لَهُ: كَيْف تَسْأل عنِ الرُّوح، أَمَا بَقِي عَلَيْكَ إلَّا عِلمُ الرُّوح! إنَّك مَا أُوتيت منَ العلمِ إلَّا قليلًا، وصَدَق اللهُ، فَما أُوتِينَا مِنَ العِلْمِ إلَّا قليلًا، فَكَيْفَ يُرِيدُ أَنْ يعرفَ مَلكوتَ السماواتِ والأَرْضِ.

«**ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ**»[1]، فاللهُ قَدَّرَ الأرزاقَ، وقَدَّرَ الآجالَ، فكَمْ مِنْ أَبٍ عُمِّرَ والأبناءُ هلَكُوا، وَكَمْ مِنْ أخٍ صَغِير ماتَ قَبل الأخِ الكَبيرِ؛ فَالآجالُ مَحض إرَادةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَيْسَ للنَّاسِ فِيها تَدخل، هُوَ الَّذِي يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِن عِبَاده فَيَرزقهُ عمرًا طويلًا فِي طَاعةِ اللهِ.

فَإِنْ قِيلَ: أَيُّهما أَولى؛ عُمُر قَصير فِي طَاعة اللهِ، أَمْ عُمر طَوِيل فِي مَعْصية اللهِ؟

قُلْنَا: الأَول أَولى؛ فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»، قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ**»[2].

وَلهَذَا يَنْبغي لِمَن دَعَا لِشَخصٍ بِطُول البَقاء أَنْ يَقُولَ لَه: أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ فِي طَاعَةِ اللهِ. والمرادُ بِالعملِ الدُّنْيَويُّ والأخرويُّ؛ لِأَنَّ (عَمَل) اسم مضاف فَيَعُمُّ.

«**وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**» هَذِهِ غَايةُ العبدِ أَنْ يَكونَ منَ السُّعَدَاءِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، رقم (٣٣٣٢)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣٤/ ٥٨، رقم ٢٠٤١٥)، والترمذي: أبواب الزهد، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، رقم (٢٣٣٠).

ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٦-١٠٨].

وقال ﷺ: «**فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ**»، وَلَيس المُراد «**إِلَّا ذِرَاعٌ**» فِي الوُصُول إِلَيْها، وَلَكن «**إِلَّا ذِرَاعٌ**» فِي أَجَله، يَعْني: حَتَّى يَقرب مَوْته.

«**فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ**»(١)، معنى: «**مَا يَكُونُ بَيْنَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ**»؟ أَي: يَقْرب الأَجَل، وَلَيْس المَعْنَى أَنَّهُ يَتَقربُ إِلَيْهَا.

وَهَذَا الحَدِيثُ مِن أَخْطر مَا يَكُون، ومِنْ أَشدِّ مَا يَكونُ خوفًا عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَعملَ الإِنْسَانُ بِطَاعة اللهِ، حَتَّى إِذَا قَرب أَجَلُه خُتِم لَه بسوءِ الخَاتمةِ.

وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**»(٢).

قَدْ يَقُولُ قَائلٌ: كَيْف يُمْضِي الإِنْسَانُ عُمُرَه إِلَّا قليلًا فِي طَاعَةِ اللهِ، ثُمَّ يُخْذَلُ، فيُخْتَمُ لَه بِسُوء الخَاتمةِ، وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ أَكْرمُ مِن عَبْده، ولَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْذلهُ فِي مَقَام لَا يَسْتحق الخِذْلان؟

قُلْنَا: هَذَا إِشْكال وأَمر مُخِيفٌ أَنْ يَعمل الإِنْسَانُ فِي طَاعَة اللهِ كُلَّ عُمُره إِلَّا قليلًا،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٠٣٦)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

ثُمَّ يُصْرَف، فَنَقول: أَبْشروا أَيُّها الإِخْوة، إِنَّما ذَلِك فِي رَجل يَعْمل بِعَمل أَهْل الجَنَّة فِيمَا يَبْدو لِلنَّاسِ، لَكِنه خَبِيث القَلبِ، فالظَّاهر جَيِّد والبَاطن رَدِيءٌ، وحِينَئِذٍ يُخذلُ فِي أَحْوَجِ مَا يكون فِيهِ إِلَى النَّصر.

يَدلُّ لِذَلك أَنَّه كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي إِحْدى الغَزَوات رَجلٌ شُجَاع، مِقْدَامٌ، لَا يَتْرُكُ لِلعدو شاذَّة ولَا فاذَّة إِلَّا قَضَى عَلَيْها، لَا يَتأخر، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فعَظُمَ ذلكَ عَلَى الصَّحَابَة، وشَـقَّ علَيْهم أَنْ يكونَ مِثل هَذَا الرَّجل مَعَ شَجَاعته وإِقْدَامه مِن أَهْل النارِ، وحُقَّ لَهم أَنْ يَشُقَّ ذَلك علَيْهم.

فقَالَ أحدُ الصَّحَابَةِ: واللهِ لألزمَنَّ هَذَا الرَّجل. يَعْني: لِأُتابع وأَنظر ماذَا يَكُونُ. فَأَصَابَ هَذَا الرجلَ سَهْمٌ منَ العدوِّ، فجَزِعَ أَنْ يُصابَ بِسهم وهُو الرَّجل الشُّجَاع، فسَلَّ السَّيْف وَوَضَعه عَلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ اتَّكَأَ عَلَيْه حَتَّى خَرَجَ مِن ظَهره، فَقَتل نَفسه. ومَعْلوم أَنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسه فَهُو فِي النَّار، خَالدًا مخلدًا فِيها، فإِنْ قتَلَها بسُمٍّ فَإِنَّهُ يتحَسَّاه فِي نَار جَهَنم، وإِنْ قَتَلَ نَفْسه بِالسُّقوط منْ أَعلى وُضِع لَه فِي جَهَنَّم شَيْءٌ عَالٍ يَتَرَدَّى منه، وإِنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِخِنجر خُلِقَ له خِنْجر فِي جَهَنمَ يَطعُن نَفْسه به، فَأَي شَيْءٍ يَقتل نَفسه بِه، فَإِنَّهُ يُعذب بِهِ فِي جَهَنم.

ومِنْ هُنا يَتبيَّن لَنَا أَنَّ الأَعْمال الانْتِحَاريَّة الَّتِي يَفْعلها بَعْضُ النَّاسِ خَطأٌ عظيمٌ، فهو قَتْلٌ للنَّفس يُعذب بِهِ الإِنْسَانُ فِي جهنَّمَ؛ لِأَنَّكَ إِنَّما أُمِرْتَ بِالجِهَاد لِإِقَامة دِينِك، وحِمَايتكَ وحِمَاية دِينِك، كَما تُدَافع عنِ الوطنِ، وتُدَافعُ عَنِ النَّفس، وتُدَافع عَنِ الدِّين، وأنـتَ الآنَ قَتلت نَفْسك، وَهَـذَا حَرَامٌ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، فَكَيْفَ يَعْصِي اللهَ وَيُقدِمُ عَلَى قَتل نَفْسه وَقَد نَهاه رَبه، وَفِي آخِر لَحْظة مِنْ حَيَاته يُخَالف قَوْل اللهِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

فالأَمْرُ خَطيرٌ، وَأَنْتَ إِنَّما أُمرت بِالجهادِ لِحِماية الدينِ، والدِّفَاع عَنِ النَّفس، والدِّفاع عَنِ البلدِ، وعَنِ الوطنِ الإِسْلاميِّ.

أقولُ: إنَّ هَذَا الرَّجل الَّذِي قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، وهُوَ يَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجنَّةِ.

رَجَعَ الرجلُ الَّذِي لَزِمه إِلَى الرَّسُول ﷺ وَقَالَ: أَشْهد أَنَّك رَسول اللهِ، قَالَ: إِنَّ الرجلَ الَّذِي قُلتَ: «**هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، فَعَلَ كَذا وَكَذَا، يَعْنِي: قَتَل نَفْسَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**»، أَمَّا لَوْ عَمِلَ بِعَمَلِ أَهْل الجنَّةِ فِيما بَيْنه وبَيْن رَبِّه فَما خُتِمَ لَه بِسُوء الخاتمةِ، لَكِنه «**فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**».

وَلِهَذَا يَجِب أَنْ نُحَذِّرَ أَنْفسنا منَ الرياءِ؛ لِأَنَّ الرِّياء أَنْ تَعْمَلَ عملًا صالحًا فيما يَبْدُو للنَّاسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي المُنافقينَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون:٤] أَجْسَامهم ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ هُمْ فُصَحاء، ذَوُوا هَيْئة لَكِنَّهم لَيْسوا بِشَيءٍ ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾.

فالشَّاهد مِنْ هَذَا قَوْله: «**فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**».

وَعَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ فِيما يَتَعلق بِالانتِحَار؛ لِأَنَّ بَعضَ النَّاسِ قَد تُحدثهم قُلُوبهم، فَيَقُولونَ: كَيْف! مُنْتحر يُريد أَنْ يُجاهدَ فِي سبيلِ اللهِ تَقُول: هَذَا يُعَذب بِما انتحَر بِهِ فِي النَّارِ؟

أقولُ: الحمدُ للهِ كِتَابُ اللهِ وَاضحٌ، والسُّنَّةُ واضحةٌ؛ أَمَّا كِتَابُ اللهِ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ وهَذَا عَام، فَمَنْ أَخرجَ منْ هَذَا العُمُومِ صُورةً واحِدَةً،

فعلَيْه الدَّلِيلُ. وَأَمَّا السُّنَّةُ فَثبَتَ فِي الصَّحِيحينِ وغَيْرِهِمَا أَنَّ «**مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ فِي النَّارِ**»(١).

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ الإِنْسَانُ يَخُوض غِمَارَ صَفِّ الأَعْدَاءِ، وَقَدْ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّه أَنَّه مَقْتولٌ؟

قُلْنَا: هَلْ هُوَ يَتيقنُ أَنَّه مَقْتول؟ لَوْ كَانَ يَتيقَّن أَنَّه مَقْتول قُلْنَا: لَا تَفعل؛ لِأَنَّك إِنْ فَعَلتَ فَقَدْ قَتلتَ نَفْسك.

فإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ البَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ فِي حِصَارِ حَديقة مُسَيْلمة فِي غَزْوة اليَمامة، أَلَيْس قَد طَلَب مِنْ أَصْحابه أَنْ يُلْقُوهُ مِن وَرَاء الجدارِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَفتحَ لهمُ البابَ(٢)؟

قُلْنَا: بَلى، وَلَا يُمْكن أَنْ يكونَ هَذَا قَتْلَ نَفسٍ، فَهو الَّذِي فَتَح البَاب، فَهَل المَيِّت يَقُوم وَيَفْتح البَاب؟! لَا يُمْكن، إِذَنْ، لَيْسَ فِي طَلَبه أَنْ يُلْقُوهُ مِن وَرَاء السُّور قتلٌ لِنَفسه، صَحِيح أَنَّه رُبَّما يَغْلب عَلَى الظَّن أَنْ يُقْتَل لَكن لَمْ يُقْتل، والمُنْتَحِر قَاتِلٌ لِنَفسه عامدًا مُتَعمدًا، لَيْسَ فِيهِ إِشْكال، وَلَا يُمْكن لِأَيِّ إِنْسَانٍ عِنْدهُ تَدبر مَبْني عَلَى العدلِ دُونَ الهَوَى، إِلَّا وَيَعرفُ أَنْ قضيَّةَ البَرَاءِ بْنِ مَالكٍ لَيْسَ فِيها دَلِيل عَلَى هَذَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُول فِي الَّذِينَ يَنْتحرونَ الآنَ فِي مُصَادمةِ اليَهُودِ؟

قُلْنَا: هَؤُلاءِ نَرجو لَهُم الخَيْر؛ لِأَنَّهُمْ فَعَلوا ذَلِكَ عَنْ تَأْويلٍ، أَوْ عَنْ إِفْتَاءٍ عَنْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم (٦٠٤٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه...، رقم (١١٠).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبير (٩/ ٤٤)، وانظر تاريخ الطبري (٣/ ٢٩٠).

بَعْض النَّاسِ، فَهُم مُتَأَوِّلونَ، والمتأَول مَعْفُوٌّ عَنْهُ، فَكل مُجْتَهد مِن هَذِهِ الأمَّة -والحَمْد للهِ- فَهُو مَأْجور، فكُل مُجْتهدٍ اجتهَادًا مبنيًّا عَلَى الحقِّ لَا عَلَى الهوَى، فَإِنَّهُ مَأْجـور وَلَا بُدَّ، وَلَوْ أَخطَأَ فهو مَأْجور، اسمَعْ كَلام الرَّسُولِ ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ»؛ أَجْرٌ عَلَى الاجتهادِ وَأَجْرٌ عَلَى الإِصَابَةِ، «وَإِذَا حَكَمَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»[1] أَجْرٌ عَلَى الاجتهادِ.

فَنقُول: إِنَّ هَؤُلاءِ تُرجَى لَهمُ المغفرةُ، وأَنْ يَكُونوا عَلَى نيَّاتِهم؛ لِأَنَّهُمْ مُتَأَوِّلونَ مُجْتَهدونَ إِنْ كَانوا هُمْ أَهلًا لِلاجْتِهاد بِأَنْفسهم، أَوْ مُقَلِّدُونَ لِمَنْ أَفْتَاهم بِذَلِكَ، ولكنَّ هَذِهِ الفَتْـوَى إِذَا عُرِضَتْ عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، تَبَيَّنَ أَنَّ الصَّـواب أَنَّ هَذَا الانتحارَ لا يَجُوزُ، ثُمَّ هل النَّتيجةُ مِنْ هَذَا الانتحَار إخراجُ الأَعْداء مِنَ الديارِ؟ لَا، بَلْ يَزْدادون ضَغْطًا عَلَى القَومِ، وتضيِيقًا عَلَيْهم، وإِنْ كَانَ قَد يَحْصل هُنَاك رُعْبٌ منَ المواطنِينَ الَّذِينَ وَقَعَ فِيهِمْ هَذَا الانتحارُ، وقَتل مَن قُتِلَ، لَكن يَجِـب عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَنْظرَ إِلَى العَوَاقب والنتائِجِ؛ حَتَّى يَكونَ عَلَى بَصيرةٍ منْ أَمْرِهِ.

نَعَمْ، لِلْإِنْسَانِ أَنْ يتسللَ إِلَى العدوِّ ويُنكِّلَ بِهِ، لَكِن لا يَقْتلُ نَفْسه.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم: كتاب الحدود، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (١٧١٦).

الدرس السابع:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُهُ ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومَن يضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، أما بعدُ:

فقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩٣]. إلى آخرِ ما ذكرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ منْ صفاتِهم.

وهذهِ الآياتُ كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ إذا قامَ منَ الليلِ يتلُوها، وهيَ عشرُ آياتٍ[1]؛ لما فِيها منَ الآياتِ والعبرِ؛ فقولُه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ﴾ في خلقِ السماواتِ وفي سعتِها وعلوِّها وقوتِها، حتى إن اللهَ عَزَّوَجَلَّ قالَ: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٣-٤].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل، رقم (٦٣١٦)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٦٣).

ومنها أن اللهَ تعالى زينَها بهذهِ النجومِ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٥].

فهذه النجومُ زَيَّنَ اللهُ بها السماءَ، فهيَ زينةُ السماءِ، وجعلَها رجومًا للشياطينِ، تَرمي الشياطينَ التي تصعدُ إلى السماءِ لتتلقَّى أخبارَ السماءِ، فتُرجَمُ بشُهبٍ من هذهِ النجومِ؛ كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:١٠]، أي شهابٌ يَثقبُه ويُحرِقُهُ.

وهذهِ النجومُ أيضًا هدايةٌ ودليلٌ للطرقِ، يهتدي بها الناسُ في البرِّ والبحرِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦].

وكذلكَ ما فيها منَ الشمسِ العظيمةِ، والقمرِ المنيرِ، فكلُّ هذهِ آياتٌ، ويَعرفُ علماءُ الفلكِ مِن هذهِ الآياتِ ما لا نعرفُه.

كذلكَ أيضًا الأرضُ بما فيها مِن بحارٍ وأنهارٍ وجبالٍ وأوديةٍ وغيرِ هذا هيَ أيضًا فيها آياتٌ لأولي الألبابِ؛ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:٢٠].

ولكن الذِي يَنقُصُنا هوَ التأملُ والتدبرُ في مخلوقاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقولُه: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الألبابُ جمعُ لُبٍّ، وهوَ العقلُ، وليسَ المرادُ بالعقلِ الذي يُثنَى عليهِ في القرآنِ والسنةِ عقلَ الإدراكِ؛ لأن عقلَ الإدراكِ يستوي فيهِ المؤمنُ والكافرُ، والراشدُ والغاوِي، لكن المرادُ بالعقلِ هوَ العقلُ الذي يَحبسُ صاحبَه عما لا يَنبغي، فهوَ عقلُ الرشدِ.

فالعقلُ إذنْ عقلانِ؛ عقلُ إدراكٍ وعقلُ رشدٍ، والذي يُثنَى عليهِ هوَ عقلُ الرشدِ، ومناطُ الأمرِ والنهي هوَ عقلُ الإدراكِ، فإذا سمِعتَ العقل فيما يذكرُهُ العلماءُ

في شروطِ العباداتِ، فالمرادُ عقلُ الإدراكِ، لا عقل الرشدِ، لكن إذا رأيتَ الثناءَ على أصحابِ العقولِ فالمرادُ بهم عقلُ الرشدِ.

فقولُه هنا: ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي لأولي العقولِ الراشدةِ التي تحجزُ صاحبَها وتعقِلُه عن كلِّ ما لا ينبغِي أن يفعلَه.

ثم بيَّنَ مِن صفاتِهم فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ في كلِّ الحالاتِ، ولهذا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يذكرُ اللهَ على كلِّ أحيانِه[1].

فإن قالَ قائلٌ: ذِكرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ هلْ هوَ باللسانِ أو بالجوارحِ أو بالقلبِ؟

فالجوابُ: هوَ بالقلبِ واللسانِ والجوارحِ؛ بالقلبِ أي بالتفكرِ، فيذكرُ اللهَ تعالَى بقلبِه حينما يتفكرُ في أسمائِه وصفاتِه وآياتِه. وباللسانِ حينما ينطقُ بذكرِ اللهِ فيقولُ مثلًا: لا إلهَ إلا اللهُ، سبحانَ اللهِ، الحمدُ للهِ. وبالجوارحِ حينما يعملُ عملًا صالحًا، فكلُّ عملٍ صالحٍ فإنهُ ذِكرٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا نقولُ: الصلاةُ فيها ذكرُ اللهِ تعالى باللسانِ، وبالجوارحِ، وبالقلبِ.

إذنْ يذكرونَ اللهَ بقلوبِهم، ويذكرونَ اللهَ بألسنتِهم، ويذكرونَ اللهَ تعالى بجوارحِهم، على كلِّ حالٍ؛ قيامًا وقعودًا وعلى جنوبِهم.

قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إذن تفكرْ ما هيَ الحكمةُ مِن خلقِ السماواتِ والأرضِ، وهلْ خُلقتْ عبثًا أم خلقتْ لحكَمٍ عظيمةٍ، يقولونَ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، رقم (٣٧٣).

وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ [ص:٢٧]. وقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء:١٦]. وقالَ تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الدخان:٣٩].

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ خلقَ هذهِ السماواتِ والأرضَ لحكمٍ عظيمةٍ بالغةٍ، منها ما ندركُه ومنها ما لا ندركُه؛ لأن عقولَنا أنقصُ وأقصرُ من أن تحيطَ بحكمِ الله عَزَّوَجَلَّ وأسرارِ أفعالِه وشرائعِه.

قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾. (سبحانَ) اسمُ مصدرٍ، والقاعدةُ: كلُّ كلمةٍ تدلُّ على معنى المصدرِ ولكنهَا ليستْ بلفظِه فإنها تُسمى اسمَ مصدرٍ، فـ(سبحانَ) هذهِ اسمُ مصدرٍ منصوبةٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه يسبحُ، لكنهُ محذوفٌ وجوبًا لا يُذكرُ معَ سبحانَ، و(تسبيح) يذكرُ معَ هذا الفعلِ، فتقولُ: أسبحُ اللهَ تسبيحًا، لكنْ (سبحانَ) لا يمكنُ أن يذكرَ معها الفعلُ، فعامِلُها محذوفٌ، وهيَ منصوبةٌ على أنها مفعولٌ مطلقٌ، أما مِن حيثُ الصيغةُ فهيَ اسمُ مصدرٍ.

أما معنَاهَا فهوَ تنزيهُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فمعنَى سبحانَك أي: تنزيهًا لكَ عن كلِّ ما لا يليقُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ منَ النقصِ والعيبِ، فهو جَلَّوَعَلَا منزَّهٌ عنْ كلِّ نقصٍ وعيبٍ، يخلقُ بقدرةٍ لا يعترِيها عجزٌ، وبقوةٍ لا يعترِيها ضعفٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨] أي: مِن تعبٍ وإعياءٍ.

وقالَ تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤].

وقالَ تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام:٥٩].

فجميعُ صفاتِ اللهِ منزهةٌ عن كلِّ نقصٍ، وهوَ أيضًا منزهٌ عن مماثلةِ المخلوقينَ، ولا يمكنُ أبدًا أن تكونَ صفةٌ منْ صفاتِ اللهِ مماثلةً لصفةٍ منْ صفاتِ المخلوقِ، فهذا مُحالٌ، فمثلًا نحنُ نؤمنُ بأن اللهَ لهُ يدٌ، لكن لا نتصورُ أن هذهِ اليدَ كأيدِي المخلوقاتِ أبدًا، فنقولُ: لهُ يدٌ عظيمةٌ لا تماثلُ أيدي المخلوقينَ قطعًا، والدَّليلُ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ولهذا انحرفَ أهلُ التعطيلِ الذينَ أنكروا شيئًا مِن صفاتِ اللهِ؛ إما إنكارَ جحودٍ، وإما إنكارَ تأويلٍ وتحريفٍ، فهؤلاءِ ضلُّوا وأضلُّوا؛ لأنهم فهِمُوا أن إثباتَ الصفاتِ يستلزمُ التمثيلَ، فقالُوا: لو أنكَ أثبتَّ للهِ يدًا حقيقيةً لزِمَ أن تُثبتَ لهُ مثيلًا، فنقولُ لهم: أيُّ لازمٍ هذا! ألستَ أيها المنكرُ تثبتُ للهِ ذاتًا؟ فسيقولُ: بلى، فنقولُ لهُ: هلْ يَلزمُ مِن إثباتِكَ ذاتًا للهِ أن يكونَ مماثلًا للذواتِ؟ فسيقولُ: لا، وحينئذٍ يُخصمُ، وتنقطعُ حجتُه، ونقولُ: كما تصورتَ إثباتَ ذاتٍ للهِ لا تماثلُ ذواتِ المخلوقينَ فإنهُ يلزمُكَ أن تتصورَ إثباتَ صفاتٍ للهِ لا تماثلُ صفاتِ المخلوقينَ.

إذنْ (سبحانَك): تنزيهًا لكَ عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، وعنْ مماثلةِ المخلوقِ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ منزَّهٌ عن مماثلةِ المخلوقينَ ولا يمكنُ بأيِّ حالٍ منَ الأحوالِ أن تكونَ صفاتُه مماثلةً لصفاتِ المخلوقينَ.

وخذْ مثالًا سهلًا: عِلمُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ثابتٌ، فالمخلوقُ لهُ علمٌ، والدَّليلُ قولُه تَعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم:٧].

وقولُه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

وقوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤].

وقولُه: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة:١٠].

والآياتُ في هذا كثيرةٌ، فكلُّنا يعلمُ أن الإنسانَ له علمٌ.. فهل علمُ اللهِ مماثلٌ لعلمِنا؟ كلا واللهِ، علمُنا محدودٌ، وعلمُنا سابقُه جهلٌ، وعلمُنا يزولُ.

فعلمُنا محدودٌ ومسبوقٌ بجهلٍ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨]، وهو أيضًا يُنسى، يعني بِه آفةُ النسيانِ، قالَ النبيُّ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ»[1].

أما علمُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فغيرُ محدودٍ، فهو يعلمُ كلَّ شيءٍ.

وهو ليسَ مسبوقًا بجهلٍ، فهوَ لم يزلْ عالمًا.

ولا يلحقُه نسيانٌ؛ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ناقلًا عن موسى ﷺ حينما قالَ لهُ فرعونُ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢]، معنى: لا يضلُّ: أي لا يجهلُ، ولا ينسَى: أي لا يَنسى ما علِمه، فهو عَزَّوَجَلَّ يعلمُ كلَّ شيءٍ أزلًا وأبدًا.

فنحنُ نثبتُ للهِ علما، ونثبتُ لأنفسِنا علمًا، ولا يلزمُ مِن إثباتِ العلمِ للهِ، وإثباتِنا العلمَ لأنفسِنا أن نمثِّلَ اللهَ بخلقِهِ.

إذنْ نقولُ: يجبُ علينا أن نثبتَ للهِ جميعَ الصفاتِ معَ تنزيهِه عن مماثلةِ المخلوقاتِ، وحينئذٍ لا يَضيرُنا هذا شيئًا، أما أهلُ التعطيلِ والتحريفِ الذينَ عطلُوا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٤٠١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة، رقم (٥٧٢).

النصوصَ عنِ المرادِ بها، وحرفُوها إلى ما يريدونَ، لا إلى ما يريدُ اللهُ ورسولُه، فقد ضلُّوا، وجَنَوا واعْتَدَوا على النصوصِ مِن وجهينِ:

الوجهُ الأولُ: أنهم أنكرُوا معناهَا الظاهرَ.

والثاني: أنهمْ أثبتُوا لها معنًى مِن عندِ أنفسِهم لا يدلُّ عليها ظاهرُها.

نضربُ لذلكَ مثلًا: قالَ أهلُ التحريفِ والتعطيلِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] استوَى يعني استولَى، نقولُ: هذا ضلالٌ، وهذا جنايةٌ على النصوصِ مِن وجهينِ:

الوجهُ الأولُ: إنكارُ ما دلَّ عليهِ ظاهرُ اللفظِ.

والوجهُ الثاني: إثباتُ معنًى لا يدلُّ عليهِ اللفظُ.

وهكذا كلُّ أحدٍ يحرِّفُ النصَّ عن ظاهرِه فإنهُ قدِ ارتكبَ هذينِ العدوانينِ.

فحرفُوا النصوصَ سلبًا وإيجابًا، وكلُّ هذا بناءً على اعتقادِهم الفاسدِ أن إثباتَ الصفاتِ يستلزمُ التمثيلَ، ولو أنهم فهِمُوا النصوصَ كما فهمَها السلفُ الصالحُ ما قالُوا: إن إثباتَها يَستلزِمُ التمثيلَ؛ لأن التمثيلَ في صفاتِ اللهِ غيرُ واردٍ إطلاقًا؛ لقولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ولأن تمثيلَ اللهِ بالخلقِ يعني نقصانَ اللهِ؛ إذ إن تمثيلَ الكاملِ بالناقصِ يجعلُه ناقصًا، بل محاولة المفاضلةِ تجعلُ الكاملَ ناقصًا.

وقالَ الشاعرُ:

ألم ترَ أن السيفَ ينقُصُ قدرُهُ ... إذا قيلَ: إن السيفَ أَمْضَى مِنَ العَصَا

فلا شكَّ أن السيفَ أمضَى منَ العَصا، وكلٌّ يقولُه، لكن إذا قلتَ: عندي سيفٌ أمضَى منَ العصا فإن الناسَ لن تتصورَ أن هذا السيفَ بتَّارٌ قطَّاعٌ، ولكن ستتصورُ أنهُ ضعيفٌ، وعلى هذا فلا يمكنُ إطلاقًا أن أحدًا يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ يتصورُ أن اللهَ مماثلٌ للمخلوقاتِ، ولهذا صرَّحَ السلفُ بأن مَن مثَّلَ اللهَ بخلقِه فهوَ كافرٌ.

قولُه: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ قِنَا منَ الوقايةِ، يعني اجعلْ لنا شيئًا يقينَا عذابَ النارِ، والذِي يقِي عذابَ النارِ هوَ التقوَى؛ لأن التقوَى اتخاذُ وقايةٍ منْ عذابِ اللهِ بفعلِ الأوامرِ واجتنابِ النواهِي.

إذنْ فأولُو الألبابِ إذا قالُوا: ربَّنا قنَا عذابَ النارِ فإنهُم لا ينامونَ على فُرشِهم ولكنْ يعملونَ، فلا يقولونَ: قِنا عذابَ النارِ بدونِ أن يَعمَلوا، ولكنْ يسألونَ اللهَ تعالى أن يرزقَهُم عملًا يقيهِم بهِ عذابَ النارِ.

ولهذا لو قالَ رجلٌ: اللهمَّ ارزقنِي ولدًا صالحًا يَسرُّني في حياتِي ويدعُو لي بعد مماتِي، ولم يفكرْ في الزواجِ أبدًا، فقيلَ: تزوجْ، قالَ: قدْ دعوتُ اللهَ أن يرزقنِي ولدًا، فمِن أينَ يأتي الولدُ! فلو قالَ: أريدُ ولدًا بلا زوجةٍ، قلنا: إنهُ مجنونٌ؛ لأنهُ ما يمكنُ ولدٌ إلا بزوجةٍ.

فعلى كلِّ حالٍ إذا قالَ أولُو الألبابِ: قنا عذابَ النارِ فالمعنَى أنهمْ يسألونَ اللهَ أن يوفقَهم إلى عملٍ صالحٍ يقيهِم بهِ عذابَ النارِ.

قولُه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ وصدقُوا اللهَ، فمَن أدخلَهُ اللهُ النارَ فقدْ أخزاهُ وأذلَّه، وألبسَهُ ثوبَ العارِ والعياذُ باللهِ، ولا شيءَ

أشدُّ ذلًّا وعارًا وخزيًا من دخولِ النارِ، أجارَني اللهُ وإياكُم منهَا.. نسألُ اللهَ تعالى أن يعتِقَنا وإياكُم منَ النارِ وأن يحفظَنا فيما بقيَ مِن أعمارِنا.

قولُه: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا﴾ وهو رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ ينادِي للإيمانِ، سواءٌ سمِعُوهُ مباشرةً كالذينَ أدركُوا عصرَهُ، أو سمعُوهُ بواسطةِ ورثتِه، وهمُ العلماءُ؛ لأن تبليغَ رسالاتِ اللهِ إما عنِ الرسولِ مباشرةً، وإما عنْ ورثتِه -جعلنِي اللهُ وإياكُم منهمْ- وهمْ أهلُ العلمِ؛ كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»[1].

ولكنِ العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ ليسَ بمجردِ العلمِ، بلْ بالعلمِ والإيمانِ والعملِ والدعوةِ ونشرِ العلمِ، يعني كلُّ هذهِ الأوصاف يتصفُ بها الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فليسَ مَن حفظَ البخاريَّ ومسلمًا وبقيةَ الكتبِ الحديثيةِ، وفهمَ التفسيرَ يقالُ: وارثٌ للنبيِّ؛ حتى يكونَ داعيًا لما يدعُو إليهِ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وعاملًا بالعملِ الصالحِ ما استطاعَ.

إذنِ: المنادِي الذِي ينادِي بالإيمانِ هوَ الرسولُ ﷺ أو مَن ورثَ الرسولَ، وإن شئتَ فقلِ: الرسولُ إما مباشرةً وإما بواسطةِ العلماءِ.

قولُه: ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا﴾ الفاءُ تدلُّ على الترتيبِ والتعقيبِ، أي بمجردِ ما سمعُوا هذا المناديَ ينادي للإيمانِ آمنُوا ولم يتلكَّؤُوا، ولم يترددُوا، ولم يقولُوا: ننظرُ في الأمرِ، بلْ آمنُوا فورًا.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي: أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣).

قولُه: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: يا ربَّنا، والفاءُ في (فاغفرْ) للسببيةِ، أي: فبسببِ أننا آمنَّا حينَ سمعنَا مناديًا ينادِي للإيمانِ اغفرْ لنا ذنوبَنا ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾، وعلى هذا فتكونُ الفاءُ هنا للسببيةِ، فيكونُ هؤلاءِ البررةُ الأخيارُ قد توسلُوا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بصالحِ الأعمالِ، فحينَ آمنَّا بمنْ ينادي للإيمانِ آمنَّا باللهِ فاغفرْ لنا؛ أي: فبسببِ ذلكَ اغفرْ لنا ذنوبَنا، إلى آخرِه.

التوسلُ إلى اللهِ بصالحِ الأعمالِ:

وهذا أحدُ أقسامِ التوسلِ الصَّحيحِ؛ أن تتوسلَ إلى اللهِ بالإيمانِ والعملِ الصالحِ، فتقولُ: ربِّ أسألُكَ بإيماني بكَ، وبصلاتِي، وبصيامِي، وبصدقتي، وبعملي الصالحِ أن تغفرَ لي، فهذا جائزٌ؛ لأن الإيمانَ والعملَ الصالحَ مِن صلاةٍ وصدقةٍ وغيرِها سببٌ للمغفرةِ؛ فمَن توسلَ بهذا فقدْ توسلَ بسببٍ صحيحٍ، فيوشكُ أن يجيبَ اللهُ دعوتَه بهذهِ الوسيلةِ.

ويدلُّ لذلِكَ قِصَّةُ النَّفَرِ الثَّلاثة مِن بَني إسرائيلَ الذِين لجؤُوا إلى الغارِ حينَ آواهُم المبيتُ، فلجؤُوا إلى الغارِ مِن أجلِ أن يبيتُوا فيهِ، وإذا أصبحُوا مشَوا، فأرسلَ اللهُ صخرةً منَ الجبلِ فطبقتْ عليهمْ فمَ الغارِ، فأرادُوا أن يُزحزحُوها فعجزُوا، فانقطعتِ الأسبابُ، وبقيَ السببُ الوحيدُ الأصلُ وهوَ ربُّ العالمينَ عَزَّوَجَلَّ[1]؛ لأن الإنسانَ يجبُ عليهِ أولًا أن يفعلَ السببَ، ثم إذا عجزَ لجأَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، معَ أنهُ حينَ فعلَ السببَ يجبُ عليهِ أن يكونَ معتمدًا على اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا على السببِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إجابة دعاء من بر والديه، رقم (٥٩٧٤).

المهمُّ لجؤُوا إلى اللهِ وقالُوا: لا بدَّ أن نتوسلَ بشيءٍ يكونُ حجةً لنا، فتوسلُوا إلى اللهِ بصالحِ أعمالِهم؛ أحدُهم توسلَ إلى اللهِ بكمالِ برِّه بوالديهِ، والثاني توسلَ إلى اللهِ بكمالِ عفتِه، والثالثُ توسلَ إلى اللهِ بكمالِ وفائِه، فهذهِ ثلاثةُ أسبابٍ: البرُّ والعفةُ، والوفاءُ.

الأولُ ذَكرَ أن لهُ أبوينِ شيخينِ كبيرينِ، وكانَ لهُ غنمٌ يسرحُ بها، فنأَى بها ذاتَ يومٍ -يعني: أبعدَ بهِ طلبُ الشجرِ وطلبُ المرعَى- حتى تأخرَ في المجيءِ، فلما جاءَ وجدَ أبويه قدْ ناما، والحليبُ بيدِه وصبيتُه يتضَاغَونَ[1] منَ الجوعِ، فالآنَ الأمرُ مشكلٌ هلْ يوقظُ أبويهِ ليشربَا غَبوقَهما[2]، أو يُعطي الصبيةَ الذينَ يتضاغَونَ، فرجَّحَ البرَّ، وقالَ: لن أوقظَ أبويَّ حتى يأتيَ وقتُ استيقاظِهما، وهوَ طلوعُ الفجرِ، فبقيَ الإناءُ بيدِه -وانتبهْ يا أخِي إلى هذا البرِّ العظيمِ- لم يشربْ منهُ، ولم يَسْقِ صبيتَه حتى طلعَ الفجرُ، واستيقظَ الأبوانِ فشربَا، ثم شَربُوا. قالَ: فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ. فانفرجتِ الصخرةُ، لكن لا يستطيعونَ الخروجَ، إذنْ فالانفتاحُ ليسَ كبيرًا، فلو كانَ كبيرًا لخرجُوا.

والثاني توسلَ إلى اللهِ بكمالِ العفةِ؛ فقد كانَ لهُ ابنةُ عمٍّ، وقدْ أعجبتْهُ، وكانَ يراودُها عنْ نفسِها ولكنـها تأبَى لعفتِها، فأصابَتْها ذاتَ سَنةٍ سَنةٌ، يعني حاجـةً، فجاءتْ إليهِ تطلبُ حاجتَها، فأبى أن يعطيَها الحاجةَ حتى تمكنَهُ منْ نفسِها، فرأتْ أن تمكنَه من نفسِها للضرورةِ، فأعطاهَا حاجتَها، فلما جلسَ منهَا ما يجلسُ الرجلُ منِ امرأتِه.. وتعرفونَ أنهُ في تلكَ الحالِ في أشدِّ ما يكونُ إلى الفعلِ.. لما جلسَ منها

(١) أي يصيحون ويستغيثون.

(٢) الغبوق: شرب العشي.

ما يجلسُ الرجلُ مِن أهلِه قالتِ: اتَّقِ اللهَ وَلا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ. فأخذتْهُ التقوى، فقامَ وهيَ مِن أحبِّ الناسِ إليهِ، وتركَ ما أعطَاها.

إذنْ ففي هذا كمالُ العفةِ، ولهذا كانَ الشابُّ الذي تدعُوه المرأةُ ذاتُ المنصبِ والجمالِ فيقولُ: إني أخافُ اللهَ؛ كانَ مِنَ السبعةِ الذينَ يُظلُّهمُ اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه.

فقالَ هذَا: فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً. فانفرجتِ الصخرةُ لكنْ إلا قليلًا فلا يستطيعونَ الخروجَ.

والثالثُ توسلَ إلى اللهِ بكمالِ الوفاءِ؛ استأجرَ أجراءَ فأعطاهُم أجورَهم إلا واحدًا لم يعطِه أجرَه، فبقيَ أجرُه عندَه، فنمَّى هذا المستأجرُ أجرَه حتى صارَ واديًا منَ البقرِ، فقالَ لهُ: خذهَا، فقالَ الأجيرُ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي، ظن أنهُ يسخرُ منهُ، فهوَ قدِ استأجرَهُ على شيءٍ من طعامٍ وهوَ الآنَ يقولُ: كلُّ ما تراهُ فهوَ لكَ، فظن أنهُ يستهزئُ بهِ، فقالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فقالَ: ما استهزأتُ بكَ، كلُّ هذا نماءُ مُلكِكَ، فأخذَ الرجلُ ذلكَ وانصرفَ، قالَ: فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فانفرجتِ الصخرةُ وخَرجُوا يَمشُونَ[١].

فهذا توسلٌ إلى اللهِ بصالحِ الأعمالِ، وهو القسمُ الأولُ.

القسمُ الثانِي من التوسل الصحيح: التوسلُ إلى اللهِ بأسمائِه، سواءٌ كانَ بأسمائِه على العمومِ أو باسمٍ منهَا. ودليلُ ذلكَ قولُ النبيِّ ﷺ في حديثِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٦٥)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، رقم (٢٧٤٣).

«أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ...» إلى آخرِه[١].

فهذا التوسلُ إلى اللهِ بأسمائِهِ.

أو باسمٍ خاصٍّ، مثلَ أن يقولَ: اللهمَّ يا غفورُ اغفرْ لي، فهنَا التوسلُ إلى اللهِ باسمِه الغفورِ. وإذا توسلتَ باسمٍ خاصٍّ فليكنْ هذا الاسمُ الخاصُّ مناسبًا لما تريدُه منَ اللهِ، فمثلًا إذا كنتَ تريدُ المغفرةَ فتوسلْ بالغفورِ، وإذا كنتَ تريدُ الرحمةَ فتوسلْ بالرحيمِ، وإذا كنتَ تريدُ الرزقَ فتوسلْ بالرزاقِ.

القسمُ الثالثُ: التـوسلُ إلى اللهِ تعالى بصفاتِه، وذلكَ أن تتـوسلَ إلى اللهِ بالصفاتِ على العمومِ، أو بصفةٍ خاصةٍ:

مثالُ العمومِ أن تقولَ: أسألُ اللهَ بأسمائِه الحسنَى، وصفاتِه العليَا أن يغفرَ لي، وينصرَ الإسلامَ والمسلمينَ. فهذا توسلٌ إلى اللهِ بالصفةِ، ومنْ ذلكَ قولُ النبيِّ ﷺ: **«اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي»**[٢].

ومِن ذلكَ دعاءُ الاستخارةِ؛ وذلكَ أن الإنسانَ إذا همَّ بأمرٍ وترددَ فإنهُ يصلي ركعتينِ ثم يدعُو بدعاءِ الاستخارةِ المعروفِ: **«اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي...»** إلى آخرِهِ[٣].

القسمُ الرابعُ: التوسلُ إلى اللهِ بأفعالِه. ومِن ذلكَ قولُ المصلِّي: **«اللَّهُمَّ صلِّ على**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب السهو، نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، رقم (٦٣٨٢).

محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كما صليتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ» فهنا توسلٌ إلى اللهِ بفعلٍ مِن أفعالِه، يعني: مثلمَا صليتَ على إبراهيمَ فصلِّ على محمدٍ.

وكذلكَ تقولُ: اللهمَّ كما رزقتَ فلانًا مالًا أَنفَقَهُ في سبيلِكَ فامنُنْ عليَّ بمثلِه. فهذا توسلٌ إلى اللهِ بفعلٍ مِن أفعالِهِ.

القسمُ الخامسُ: التوسلُ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بدعاءِ الرجلِ الصالحِ الذي هوَ مرجوُّ الإجابةِ، ومِن ذلكَ توسلُ الصحابةِ بدعاءِ النبيِّ ﷺ، فيأتي الرجلُ ويقولُ: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ لي، ادعُ اللهَ للمسلمينَ.

أخبرَ النبيُّ ﷺ أنهُ رأى أمتَه ومعهمْ سبعونَ ألفًا يدخلونَ الجنةَ بلا حسابٍ ولا عذابٍ، فقامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فقالَ: «**أَنْتَ مِنْهُمْ؟**»[1]. فهذا التوسلُ بدعاءِ الرجلِ الصالحِ الذي تُرجى إجابتُه.

ودخلَ رجلٌ يومَ الجمعةِ والنبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ يخطبُ الناسَ -وانظرْ إلى هذهِ الآيةِ العظيمةِ- فقالَ: «يا رسولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ» هلكتِ الأموالُ بقلةِ المطرِ، وجاعتِ المواشي وماتتْ وانقطعتِ السبلُ، حيثُ هزلتِ الإبلُ فلم تعدْ تحملُ الناسَ، «فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا». فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا**» ما جاوزَ ذلكَ ولا زادَ عليهِ، قالَ أنسُ بنُ مالكٍ الذِي رَوى لنا الحديثَ عَن رسولِ اللهِ ﷺ: «وَلَا وَاللهِ، مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلَا قَزَعَةً» فالسماءُ إذنْ صحوٌ، ما فيهَا لا قزعة -يعني قطعة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب، رقم (٦٥٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢١٨).

سحابٍ- ولا سحابٌ واسعٌ، «وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلا دَارٍ» وسَلْعٌ جبلٌ معروفٌ في المدينةِ يخرجُ مِن جهتِه السحابُ، فالسماءُ صحوٌ، وجهةُ السحابِ أيضًا صحوٌ، قالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ» والتُّرسُ مثلُ الصحنِ، «فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ» والنبيُّ ﷺ لا زالَ يخطبُ، «ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ ﷺ».

فهاتانِ آيتانِ: آيةٌ منْ آياتِ اللهِ، وآيةٌ منْ آياتِ الرسولِ ﷺ:

أما كونُها آيةً مِن آياتِ اللهِ فاستجابةُ الدعاءِ وبهذهِ السرعةِ العظيمةِ؛ لأنهُ إذا أرادَ شيئًا عَزَّوَجَلَّ قالَ لهُ: كنْ فيكونُ، وأما كونُها آيةً مِن آياتِ الرسولِ فلأن اللهَ أجابَ دعوتَه بهذهِ السرعةِ العظيمةِ.

بقيَ المطرُ ينزلُ أسبوعًا كاملًا، والمطرُ ينزلُ والشمسُ لا تُرى، فدخلَ الرجلُ في الجمعةِ الثانيةِ -أوِ الرجلُ الأولُ- وقالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ» من المطرَ، فرفعَ النبيُّ ﷺ يديهِ وقالَ: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلا عَلَيْنَا**». وجعلَ يشيرُ إلى النواحي، يقولُ الراوِي: «فَمَا يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ السَّحَابِ إِلَّا انْفَرَجَتْ» كأنهُ يدبِّرُ السحابَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لكنِ السحابُ لا يتمايزُ[1] إلا بإذنِ خالقِه جَلَّوَعَلَا، لكنِ اللهُ يجيبُ دعاءَ الرسولِ، فما يشيرُ إلى ناحيةٍ إلا انفرجتْ، وخرجَ الناسُ يمشونَ في الشمسِ[2].

فهذا توسلٌ بدعاءِ مَن تُرجى إجابتُه، ولكنْ يبقَى النظرُ هلْ منَ الأفضلِ أن

---

(١) أي: يتفرق.

(٢) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

تقولَ للشخصِ الذي ترجُو أن يكونَ مجابَ الدعوةِ: ادعُ اللهَ لي؟

فهذهِ يُنظرُ فيـها للمصلحةِ، فإذا كنَّا نخشَى أن هذا الرجـلَ يكونُ ضعيفًا؛ ضعيفَ العزيمةِ وضعيفَ الإيمانِ، فإذا قلنَا لهُ: ادعُ اللهَ لنا، انتفخَ حتى صارَ مثلَ الجبلِ العظيمِ، ورأى أنهُ مِن أولياءِ اللهِ، وأنهُ مجابُ الدعوةِ، وقالَ: أنا الذي يَلجأُ الناسُ إلى دعائِي، فهذا لا كرامةَ لهُ، ولا نسألُه أن يدعوَ اللهَ لنا؛ لأننا إذا فعلنَا ذلكَ وشمخَ بنفسِه هذا الشموخَ لم يكنْ مجابَ الدعوةِ.

كذلكَ أيضًا إذا كانَ القائلُ للشخصِ: يا فلانُ، ادعُ اللهَ لي، فسوفَ يجعلُ هذا أساسَ دعائِه ويقولُ: الحمدُ للهِ أنا قلتُ لفلانٍ: ادعُ اللهَ لي ويكفِي، وانحصرَ عن دعاءِ اللهِ، فهنا نقولُ: لا يَطلبُ مِن غيرِه أن يدعوَ لهُ؛ لأن هذا يُفسدُ عقيدتَه، فيعتمدُ على غيرِ اللهِ في جلبِ المنافعِ وجلبِ المضارِّ، فيجبُ أن يُعرِضَ عن هذا، أما إذا لم يكنْ هناكَ محظورٌ فإنهُ لا يَحرمُ أن يقولَ: يا فلانُ ادعُ اللهَ لي، لكنِ الأَولى ألا يقولَ، وألا يسألَ أحدًا شيئًا، فيجعلُ سؤالَه للهِ عَزَّوَجَلَّ.

حتى جاءَ في الحديثِ: «**لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ**»[1]، والصحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بايعُوا النبيَّ ﷺ على ألَا يسألُوا الناسَ شيئًا، فكانَ الرجلُ يَسقطُ منهُ العصَا مِن على راحلتِهِ ولا يقولُ: يا فلانُ ناولنِي العصَا، بل هوَ ينزلُ مِنَ الراحلةِ ويأخذُ العصا[2]. وكلُّ هذا لئلَّا يُذِلَّ الإنسانُ نفسَه أمامَ الناسِ.

القسمُ السادسُ: أن يتوسلَ إلى اللهِ بذكرِ حالِه، فيقولُ المتوسلُ: اللهمَّ إني أنا الفقيرُ إليكَ، اللهمَّ إني في حاجةٍ، ومِن ذلكَ قولُ موسَى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، باب، رقم (٣٦٠٤). والشسع: أحد سيور النعل.
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٢).

﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، فهذا توسلٌ إلى اللهِ بذكرِ حالِه، يعني أني محتاجٌ لما تُنزلُ إليَّ منَ الخيرِ. فهذا مِن أنواعِ التوسلِ.

القسمُ السابعُ: أن يتوسلَ إلى اللهِ تعالى بالثناءِ عليهِ، لكنْ يُثنـي على ربِّه بأنْ يقولَ: اللهمَّ أنتَ الغفورُ الرحيمُ ذو الجلالِ والإكرامِ، وما أشبهَ ذلكَ، يرجُو مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يثيبَه على هذَا، فهذَا توسلٌ إلى اللهِ تعالى بالثناءِ عليهِ، وليسَ منْ بابِ التوسلِ بالصفةِ؛ لأن التوسلَ بالصفةِ أن يَذكرَ الصفةَ ويذكرَ حاجتَه، لكنْ هذا مجردُ ثناءٍ فهوَ توسلٌ، ويقولُ الشاعرُ[1]:

إذا أَثنـى عَليـكَ المـرءُ يومًـا ... كفـاهُ مِـن تعرضِـه الثنـاءُ

ومنْ ذلكَ أن أبا بكرٍ الصديقَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: يا رسولَ اللهِ، علمنِي دعاءً أدعو بهِ في صلاتي، قَالَ: «**قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[2].

ففي هذا توسلٌ بثلاثةِ أشياءٍ: ذكرُ حالِ الداعي، والثناءُ على المدعوِّ، والتوسلُ بالصفةِ:

ذكرُ الحالِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا**».

الثناءُ على اللهِ: «**لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**».

التوسلُ بالاسمِ: «**فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِـي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُـورُ الرَّحِيمُ**».

---

(١) هو أمية بن أبي الصلت. عيون الأخبار لابن قتيبة (٣/ ١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).

فهذهِ سبعةُ أقسامٍ منَ التوسلِ المباحِ.

وأما التوسلُ المحرَّمُ فأن يتوسلَ الإنسانُ بما لا يكونُ وسيلةً لهُ، فهذا ضابطُه. مثالُ ذلكَ: أن يقولَ: اللهمَّ إني أسألُكَ بجاهِ النبـيِّ أن تغفرَ لي، وجاهُ النبيِّ يعني منزلَتَه عندَ اللهِ وشرفَه وسؤدُدَه، فماذا يفيدُكَ جاهُ الرسـولِ! أيُفيدُك شيئًا! فجاهُ الرسولِ ينتفعُ بهِ الرسولُ فقطْ، أما أنتَ فلا تنتفعُ بهِ، وليسَ لكَ بهِ أيُّ علاقةٍ، فأنتَ توسلتَ بما ليسَ بوسيلةٍ.

فالتوسلُ الممنوعُ أن يتوسلَ الإنسانُ بما ليسَ بوسيلةٍ، وهذا ليسَ بوسيلةٍ.

وإذا توسلَ بذاتِ النبيِّ: اللهمَّ إني أسألُكَ بنبيِّك نبيِّ الرحمةِ، ففيهِ تفصيلٌ، فإذا قالَ: بنبيِّكَ أي بالإيمانِ بنبيك واتباعِ نبيِّك فهذا إذا كانَ يريدُ هذا المعنَى فهذا توسلٌ صحيحٌ؛ لأنهُ توسلٌ بعملٍ صالحٍ، أو أسألُك بنبيِّك أي بمحبتِي لهُ؛ لأن محبةَ الإنسانِ للرسولِ ﷺ مِن أفضلِ الأعمالِ، فهوَ توسلٌ بعملٍ صالحٍ.

أما إذا أرادَ ذاتَ النبـيِّ فهذا لا يصحُّ؛ لأن ذاتَ النبـيِّ ﷺ ليستْ وسيلةً تُوصِّلُكَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإذا قالَ: أردتُ بقولِي: اللهمَّ إني أتوسلُ إليكَ بنبيِّك، أي بدعاءِ نبيِّك، فنقولُ: أما إذا كانَ الرسولُ ﷺ حيًّا حياةً لهُ فيها عملٌ صالحٌ، فيصحُّ؛ لأني أسألُكَ بدعاءِ الرسولِ، يعني أنكَ تسألُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن يدعوَ لكَ الرسولُ فيُستجاب، وأما بعدَ مماتِه فلا يصحُّ؛ لأن الرسولَ ﷺ بعد مماتِه لا يمكنُ أن يدعـوَ لأحدٍ، فقدِ انقطعَ عملُه؛ كما قالَ هوَ نفسُه ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ**

صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١).

ولهذا كانَ منَ السَّفهِ في العقلِ والضلالِ في الدينِ أن يقفَ إنسانٌ على قبرِ الرسولِ ﷺ ويقول: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ لي، فهذا غلطٌ وسفَهٌ؛ لأنهُ ميتٌ، والميتُ انقطعَ عملُه، ولا يمكنُ أن يدعوَ لكَ، وكيفَ يدعُو لكَ وهوَ ميتٌ، فهذا لا يمكنُ، وإذا كانَ هذا بالنسبةِ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فمَن سواهُ مِن بابِ أولى، فربَّما يقفُ الإنسانُ عندَ قبرِ رجلٍ يعتقدُه وليًّا وهوَ مِن أعداءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويقولُ: يا وليَّ اللهِ، ادعُ اللهَ لي، وهوَ ميتٌ. فنقولُ: هذا ضلالٌ في الدينِ، وسفهٌ في العقلِ، فهذا رجلٌ ميتٌ، هذا إن سلمنَا أنهُ وليٌّ؛ لأن مِنَ الناسِ مَن يعتقدُ أن فلانًا وليٌّ، وهذا المعتقَدُ أنهُ وليٌّ مِن أكبرِ أعداءِ اللهِ؛ لأن مَن دعا الناسَ إلى نفسِه ليعبدُوه أو يدعُوه أو يعلقُوا بهِ الرجاءَ أو يعلقُوا بهِ الخوفَ، فإنهُ كافرٌ؛ لأنهُ أنزلَ نفسَه منزلةَ اللهِ، فالذي تتعلقُ بهِ النفوسُ خوفًا ورجاءً هوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فكيفَ يجوزُ لإنسانٍ بشرٍ هوَ نفسُه ما يستطيعُ أن يملكَ لنفسِه نفعًا ولا ضرًّا أن يقولَ للناسِ: أنا الذي أدفعُ عنكمُ الضررَ وأجلبُ لكمُ النفعَ! لكنِ الشيطانُ يلعبُ بالإنسانِ حتى يرتكبَ ما هو خطأٌ واضحٌ.

على كلِّ حالٍ فضابطُ التوسلِ الممنوعِ أن يتوسلَ الإنسانُ بما لا يصحُّ أن يكونَ وسيلةً؛ فهذا خطأٌ في العقلِ وفي الدينِ.

اللهمَّ إنا نسألُك الوسيلةَ التي توصلُنا إليكَ، وهي الإيمانُ بكَ، واتباعُ مرضاتِك يا ربَّ العالمينَ.



---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).



سورة النساء

الدرس الأول:

قال تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء:٣٦].

هذهِ الآيةُ منْ سُورةِ النِّسَاء، وتُسَمى آيةَ الحقُوقِ العَشَرةِ.

قَولهُ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، هذَا هوَ أَوَّلُ الحقوقِ، وَأَعْظمها وَأَوْلَاها بِالرعايَةِ؛ لأَنَّهُ حقُّ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ حقُّ مَن خَلَقَنا وَأَوْجدنا منَ العدَمِ، وَأَمَدنا بِالنِّعَمِ، وهوَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وَالعبادَةُ تُطْلق عَلَى مَعْنَيينِ:

أَوَّلًا: علَى التَّعبدِ، وهوَ التَّذللُ وَالخضُوعُ للهِ عَزَّوَجَلَّ محبةً وتَعْظيمًا.

ثَانيًا: المتعبَّدُ بهِ، وهوَ اسمٌ جَامعٌ لكلِّ مَا يُحبهُ اللهُ وَيَرْضاهُ منَ الأقوَالِ وَالأعمالِ الظَّاهرةِ وَالباطنَةِ.

وَالعبادَةُ لَا بُدَّ لَها منْ شَرطينِ كَيْ تَكونَ صَحيحةً:

الأَوَّلُ: الإِخلاصُ للهِ.

الثَّانِي: مُتابعةُ رَسولِ اللهِ ﷺ.

ولنَا أَنْ نَقولَ بَدلَ (مُتَابعةِ رَسولِ اللهِ ﷺ): مُوَافقةُ شَريعةِ اللهِ؛ لِيَشملَ الشَّرائعَ السَّابقـةَ، فإنَّهُ إذَا أَخْلصَ المتبعُ للهِ وَوافـقَ عَملُهُ شَريعةَ اللهِ، فَعِبادتهُ صَحيحةٌ، وَالموافقَةُ التِي تَصحُّ بِهَا العِبادةُ لَا بُدَّ أَنْ تَشتمِلَ عَلى سِتةِ أُمورٍ:

أَوَّلًا: أَنْ تَكونَ مُوافِقةً لِما جَاءتْ بِهِ الشَّريعةُ فِي جِنسهَا.

ثَانيًا: مُوَافقتهَا فِي المكَانِ.

ثَالثًا: مُوافقتهَا فِي الزَّمانِ.

رَابعًا: مُوَافقتهَا فِي قَدْرِهَا.

خَامسًا: مُوَافقتهَا فِي الصِّفةِ.

سَادسًا: مُوَافقتُها فِي السببِ.

مِثالُ الأولِ: لَو ضَحَّى رَجلٌ بظبيٍ، فَهذهِ الأُضحيةُ غَيرُ صَحيحةٍ؛ لأنَّهَا لَمْ تُوافقِ الشرعَ فِي الجنسِ؛ لأنَّ جنسَ الذِي يُضحَّى بِهِ شَرعًا بِهيمةُ الأنعَامِ، وهِيَ الإبلُ وَالبقرُ وَالغنمُ.

مِثالٌ آخرُ: لَو ضَحَّى رجلٌ بِشاةٍ فِي عِيدِ الفطرِ فَهذهِ لَا تصحُّ؛ لأَنَّه خَالفَ شَرطَ الزَّمانِ، وَكَمَا نَعلمُ فَزمانُ الأُضحيَّةِ عِيدُ الأَضْحَى.

مِثالٌ لِلْمُخالفة فِي الصِّفةِ: تَوَضأَ رَجلٌ عَلى النَّحوِ التَّالي: غَسل رِجْلَيه، ثُمَّ مَسَحَ رَأسَهُ، ثُم غَسل يَديه، ثُم غَسل وَجْهه، فَوُضوءُهُ غَير صَحيحٍ؛ لِمُخَالفتهِ لِلشريعةِ فِي الصِّفةِ.

مثالُ المخَالفةِ فِي السَّببِ: تَطَيَّبَ رَجُلٌ بطِيبٍ، فَكانَ يَقولُ كُلَّما تَطَيَّب: اللهمَّ صلِّ عَلى محمدٍ، فَنَهاه عَن ذَلك؛ لأنهُ لَم يُوافقِ الشرعَ فِي السببِ؛ إذْ لَيس منْ أَسبابِ الصلاةِ عَلَى النَّبيِّ ﷺ أنْ يَتطيبَ الإنسانُ، وإنْ كانتِ الصلاةُ عَلَى النَّبيِّ ﷺ مَشروعةً فِي كلِّ وقتٍ، لكنَّ تَقييدَهَا بِهَذَا السَّببِ المعينِ بِدونِ دَليلٍ منَ الشرعِ لَا يصحُّ.

أمَّا الشركُ، فإنَّنَا نَقولُ: إنَّ اللهَ تَعالَى قالَ: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ أي: فِي عِبادته تَعالى، ومِنَ العبادةِ الدعاءُ، وَالدَّليلُ عَلى أنَّ الدعاءَ منَ العبادةِ قَولهُ تعالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

فَسمَّى اللهُ الدعاءَ عِبادةً، فَإِذَا كانَ الإنسانُ يَصومُ وَيصلِّي وَيُزكي وَيَحجُّ، ولكنَّهُ يَدْعو الموتَى فَهذا مُشركٌ لَا يُقبل عَمَلُه؛ لأَنَّهُ يَدعو غَيْرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَالنَّهيُ عنِ الشركِ يَشملُ النهيَ عنِ الشركِ الأصغرِ وَالشِّركِ الأكبرِ.

فَالشركُ الأكبرُ: هُو كلُّ عملٍ أَطلقَ الشرعُ علَيْهِ الشركَ، وهُو رِدةٌ عنِ الإِسلامِ.

أمَّا الشركُ الأصغرُ: فَهُوَ كلُّ عملٍ أَطلقَ عَليه الشرعُ أَنَّه شركٌ، وَلم يَصِلَ إِلى حدِّ الردةِ عَنِ الإسلامِ، وهَذَا هوَ الضَّابطُ فِي الشِّركِ الأَصغرِ.

ومنَ **الشرْكِ الأَصغرِ**: أَنْ يَحلِفَ الإنسَانُ بِغيرِ اللهِ، فَيقولُ: وَحَياتكَ، أَو وَحَياتي، أَو يَقولُ: وَالنبيِّ، أَو وَالكَعبةِ، أَوْ وَالشمسِ، أَوْ وَالقمرِ، أَوْ وَالليلِ، أَوْ وَالنهارِ، أَو غَير ذَلكَ منْ مَخلُوقاتِ اللهِ، فإنَّ «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»(١)، وهذَا الشركُ شِرْكٌ أَصغرُ؛ لأنَّ الإِنسانَ لَا يَخرج بِهِ منَ الإيمانِ إِلَّا إِذَا اعتقَدَ أنَّ المحلوفَ بِهِ لَه

(١) أخرجه أحمد (٩/ ٢٧٥، رقم ٥٣٧٥).

منَ التَّعظيمِ مِثْلُ مَا للهِ، فَفِي هذَا الحالِ يَكون شِركهُ شِركًا أَكبرَ، لَا لِأجلِ الحَلِف ولكنْ لِأجلِ مَا قَام فِي قَلبهِ مِن هَذِهِ العَقيدةِ الفَاسدةِ؛ أَنَّ هذَا المحلوفَ يَستحقُّ منَ التعْظيمِ مَا يَسْتحقه رَبُّ العَالمينَ.

وَمِنَ **الشِّركِ الأَصغرِ**: أَن يَقولَ الإِنسانُ: مَا شَاءَ اللهُ وَشئتَ، مثلُ أَنْ يَقولَ لهُ صَاحبٌ: هَل تُريد أَنْ نَسأَلَ اللهَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيقولُ: إنْ شاءَ اللهُ وَشِئت، أَو يَقولُ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئت فَافعلْ كَذَا؛ وَذَلك لأنَّ قَولهُ: «وَشئتَ» عَطفٌ لِمَشيئةِ الإنسانِ عَلَى مَشيئةِ اللهِ بِحرفٍ يَقْتَضِي التَّسويةَ، فَيسوي بينَ الخالقِ وَالمخلُوقِ، ومِنَ الممكنِ أَنْ يُصححَ هذَا النُّطقَ بِقولهِ: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ.

ومنْ **ذَلكَ أَيْضًا**: أَن يَقولَ القَائلُ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ لَهلكتُ، مِثالهُ: رَجُلٌ سقطَ فِي ماءٍ عميقٍ يُغرقهُ، فَأنقذهُ بعضُ النَّاسِ، فقَالَ: لَوْلَا اللهُ وَفلانٌ لَهلكتُ، فَنقولُ: إنَّ هذَا شركٌ أصغرُ؛ لأَنَّهُ قرنَ غَيْرَ اللهِ معَ اللهِ بِحرفٍ يَقْتضي التَّسويةَ، وَلَكنْ لَه أَنْ يَقولَ: لَوْلَا اللهُ ثُم فُلان، أَو يَقول: لَوْلَا فُلانٌ لَغرقتُ؛ لأَنَّ إِضافةَ الشيءِ إِلَى سَببهِ المعلُومِ شَرْعًا أَوْ حِسًّا، صَحيحٌ، وَلَا يُنافي التَّوحيدَ، وَلَا يُعْتَبرُ شِرْكًا.

وَلهَذا لما حَدَّثَ النَّبيُّ ﷺ عَن عَمه أَبي طالبٍ أَنَّهُ شَفعَ فِيه، قالَ: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلا أَنَا لَكانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»، فَقَالَ: «**وَلَوْلا أَنا لَكانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»[1]، وَلم يَقلْ: «لوْلَا اللهُ ثُمَّ أَنَا» بَل قَالَ: «**وَلَوْلَا أَنَا**»؛ لأَنَّ ذَلك كَان بِسببِ شَفاعةِ النَّبيِّ ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٦٧٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم (٢٠٩).

فَإِضافةُ الشَّيءِ إِلى سَببِهِ المعلُومِ شَرْعًا أَو حسًّا، لَا يُنافي التَّوحيدَ.

أَمَّا إِضافتهُ إِلى شَيءٍ غَيْرِ سَببٍ شَرعيٍّ، أَو سَببٍ غيرِ حِسيٍّ، فَينافِي التَّوحيدَ، فَلَوْ أنَّ الإنسانَ أضافَ الشيءَ إِلى ميتٍ، مِثل أَن يَقولَ: لَوْلَا فلانٌ -يَعني بِهِ صاحبَ القبرِ- لَهَلَكت، كانَ هذَا شركًا أكبرَ يُنافي التَّوحيدَ؛ لأنَّ الميتَ لَا يستطيعُ أَن يُخَلِّصَ أحدًا، فالحيُّ رُبما يُخَلِّصُ مَن وَقع فِي هَلَكةٍ بالطرقِ المعلومةِ، لكنِ الميتُ لَا يُمكنُ أَنْ يُخَلِّصَ أَحدًا منَ الهَلكةِ.

فإِذَا أضافَ الإِنسانُ إِنقاذهُ إِلَى مَيتٍ، قُلنا: هَذهِ إِضافةٌ إِلى أَمرٍ لَيس بِسببٍ شرعيٍّ، ولَا حسيٍّ، فَيكونُ شركًا مُنافيًا لِلتَّوحيدِ.

وَمِما يُعَدُّ مِنَ الشركِ؛ لِكونهِ أُضيفَ إِلَى غَيرِ السببِ المعْلومِ شَرْعًا أَو حسًّا مَا يَكون مِن وَضْعِ الحلْقةِ، وَالسوارِ، وَالخيطِ عَلَى مَوضعِ الألمِ، يَعْتقِدُ أنَّ ذلكَ سَببٌ لِلشفاءِ، فإنَّ هذَا نَوْعٌ منَ الشركِ الأَصغرِ؛ وَلِهَذَا تَرجمَ شَيخُ الإِسلامِ مُحمدُ بْنُ عَبْدِ الوهابِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلى هَذه المسألةِ، بِقولهِ: بَابٌ منَ الشركِ لبسُ الخيطِ وَالحلقَةِ وَنَحْوهما؛ لرفعِ البَلاءِ أَو دفعِه[1]، إِذْ لَا عَلاقةَ بَينَ الحلقةِ وَبَيْنَ البُرءِ منْ هذَا المرضِ، وَلَا بَيْنَ الخيطِ وَبين البُرءِ منْ هذَا المرضِ.

ومِن ذَلك أَيضًا: أَن يُعَلِّقَ المريضُ شيئًا مَكتوبًا بِكتابةٍ غَيرِ معلومَةٍ، ولَا يُدرَى مَا فِيها، فلَعَله طَلاسمُ سحريةٌ، أَو كَلِماتٌ شِركيةٌ، فَلا يَجوز أَن يُعَلِّقَ الإِنسانُ عَلى نَفسه مِثل هَذَا.

---

(١) كتاب التوحيد (ص:٢٧)، ط جامعة الإمام.

أَمَّا تَعليقُ الآياتِ القُرآنيةِ التِـي فِيها الشِّفاءُ، فَهذا مَوضعُ نزاعٍ بينَ السلفِ وَالخلفِ، فمِنْهم مَن قَال: إنَّه جَائزٌ، ومِنْهم مَن قَال: إنَّه لَيس بِجائزٍ؛ لكنْ إذَا كانَ التَّعليقُ مِنَ القُرْآنِ، فإنَّ حجةَ المُجيزِ أنَّ القرآنَ شِفَاءٌ، كَما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]، وهذَا كَما يَدْخل فيهِ الشفَاءُ مِنْ أَمراضِ القلوبِ، فإِنَّه يَدخل فِيه أَيْضًا الشفاءُ منْ أَمراضِ الأَبدانِ.

وأمَّا منْ مَنعه فَاحتجَّ بِعمومِ النَّهيِ عنِ الرُّقَى: «**إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**»[1] والمسألةُ مَوضعُ نزاعٍ بَيْنَ السلفِ وَالخلفِ، فَمَنْ أَخذَ بِالرخصةِ فَلَا ضَيرَ عَليه، ومنِ احتاطَ وَلَم يَفعلْ، فَلَا ضَيرَ عَليهِ.

فَالقاعدَةُ عِندنا أنَّ (إِضافةَ الشَّيءِ إِلَى شَيءٍ لَيس بِسببٍ لَه؛ لَا شَرْعًا وَلَا حِسًّا، يُنافِي التَّوحيدَ، فأمَّا إِضافتهُ إِلى السببِ الشرعيِّ أَوِ الحسيِّ، فَإِنَّه لَا يُنافي التَّوحيدَ).

فإنْ قالَ قائلٌ: هَل منَ الشركِ أَنْ يُضيفَ الإنسانُ المطرَ إِلى النوءِ، وَالنوءُ نَجمٌ، والنجومُ عِند عُلَماء الفلكِ لَهَا مَنازلُ؛ ثَمانٍ وَعِشرونَ مَنزلةً، فَإِذا أَضافَ المطرَ إِلى النوءِ فَهل يَكون مُشركًا، أَو لَا؟

الجوابُ: يَكون مُشركًا؛ لأنَّ الأَنواءَ لَا أثرَ لَها فِي نُزولِ المطرِ، فَالأنواءُ أَوقاتٌ فَقَط ولَيْست أَسبابًا؛ وَلِهَذَا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ:**

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١١٠، رقم ٣٦١٥)، وأبو داود: كتاب الطب، باب في تعليق التمائم، رقم (٣٨٨٥).

مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ»[1].

وأمَّا قولُ القائلِ: مُطِرنا فِي نَوء كَذَا، فَهذا لَا بَأسَ بِه؛ لأنهُ لَم يُضفِ المطرَ إِلى النوءِ، وإنَّما ذَكَرَ أنَّ المطرَ حَدثَ فِي النوءِ، فَهَذا بَيانٌ لِوقتِ المطرِ، وليسَ بيانًا لِسببِهِ.

ومنَ الأَلفاظِ العَاميةِ عِندَنَا: أَنَّهم يَقُولون: مُطرنا بِنَوءِ الإِكليلِ مثلًا، أَو بِنوءِ الزبانا، أَو بِنوء سَعدِ السعودِ، أَو مَا أَشْبَهَ ذَلك، فَهَلْ هَذا منَ الكفرِ؟

نقولُ: أمَّا ظاهرُ اللفظِ، فإنَّه منَ الكفرِ؛ لأنَّ هذَا هُو قولُ الرَّسولِ ﷺ: «بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا»، ولكِنَّنا نَعلم علمَ اليقِينِ أنَّ العامَّةَ إذَا قَالُوا: مُطرنا بِنَوءِ النعايمِ، أَوِ الزبانا، أَو مَا أَشْبَهَ ذَلك، فَإنما يُرِيدون بِذَلك بَيَانَ الوقتِ، فَالباءُ عِنْدهم بِمَعنى (فِي) الَّتي لِلظَّرفية.

فإنْ قالَ قائلٌ: هلْ تَأتِي الباءُ بِمعنى (فِي) فِي اللغَةِ العَربيةِ؟

قلنَا: نَعم، ومنْ ذَلك قَولُهُ تَعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]، ﴿وَبِالَّيْلِ﴾ يَعني: فِي اللَّيْلِ.

ويَدْخل فِي الشِّركِ: الشِّرك فِي المحبَّة، بأنْ يُحبَّ الإنسانُ أَحدًا منَ النَّاسِ مِثل مَحبَّةِ اللهِ، أَو أَكثر، فَتَستولي مَحبَّةُ هذَا الشخصِ عَلَى قَلبهِ حَتَّى يَنْسَى بِمَحبَّته جَميعَ المحبُوبِينَ، حتَّى يَنسى ربَّه عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ هذَا شِرْكٌ فِي المحبَّةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، رقم (٨٤٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، رقم (٧١).

وقدْ يَلتبس عَلى بعضِ النَّاس هذَا النوعُ منَ المحبَّةِ، فَيَظنه منَ الحبِّ فِي اللهِ، فَقَدْ يُعجبُ بِشخصٍ، إمَّا مِن أجلِ خُلُقه، أَو مِن أَجل عِلْمِهِ، أَو مِن أَجل دِينِهِ، أَو مِن أَجل إِحْسانه إِلَيْهِ، أَو لِغير ذَلك منَ الأَسْبابِ، فَيُحبه محبةً تَسْتولي عَلَى شَغافِ قَلبه، ثمَّ يَقول: أنَا أَحْببته للهِ، فَنقول: إنَّ المحبةَ فِي اللهِ لَا تَجوز أَبَدًا أَنْ تَطغَى عَلى محبَّةِ اللهِ، فإِنْ طَغت عَلى محبةِ اللهِ صَارتْ نَوْعًا منَ الشركِ، وهذَا حبٌّ معَ اللهِ وليسَ حبًّا فِي اللهِ، وَبَيْنَهُمَا فرقٌ عظيمٌ.

ومنَ الشِّركِ بِاللهِ: الشِّركُ بِاللهِ فِي التَّشريعِ، بِمعنى أَنْ يَسُنَّ قَوانينَ يُلزِمُ الناسَ بِالرجوعِ إِلَيْهَا تُخالفُ أَحكامَ اللهِ، كَما يُوجد فِي بَعضِ القَوانينِ فِي الدُّولِ الإِسلاميَّةِ، حيث هناكَ قَوانينُ وَضعيةٌ تُخالفُ شَريعةَ اللهِ، فإنَّ هذَا منَ الشِّركِ بِاللهِ.

وَدليلُ ذَلك أَنَّ عَـديَّ بنَ حاتمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ فِي قَولِهِ تَعالـى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] قالَ: يَا رَسولَ اللهِ، إِنَّا لَسْنَا نَعبدهمْ، فَقالَ ﷺ: «**أَلَيْسُوا يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَه فَتحِلُّونَهُ**». قُلْتُ: بلَى، قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**»[١]، فَسَنُّ القوانينِ المُخَالفةِ لِقانونِ الشَّرعِ يُعْتَبر نَوْعًا منَ الشِّركِ.

بلْ نقولُ: إنه إِذَا اعتقَد أَنَّه يُسوغُ لَهُ الخروجُ عَنْ شَريعةِ اللهِ، أَوِ اعتقدَ أَنَّ مَا سَنَّه مِنَ القوانينِ خيرٌ منْ شرعِ اللهِ، أَوِ اعْتَقَدَ أَنَّ مَا سَنَّه منَ القوانينِ مثلُ حُكمِ اللهِ، فَهو فِي هَذِهِ الصورِ كلِّها يُعتبر كَافرًا مُرْتدًّا عنِ الإِسلامِ وَلَوْ صَلَّى وَصَامَ؛ لأَنَّ اللهَ تَعالَى يَقولُ فِي كتابهِ: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠]،

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ٧، رقم ١٣٦٧٣)، وسنن البيهقي (١٠/ ١١٦، رقم ٢٠١٣٧).

فمَن زَعَم أنَّ منَ الأَحكامِ الوضعيَّةِ مَا يُساوِي حُكمَ اللهِ، فَقَدْ كَذَّب هذِهِ الآيةَ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وكَذَّبَ تَسميةَ اللهِ لِحُكم هَؤلاءِ بأَنَّه حُكمُ جاهليَّةٍ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

ومنَ الشِّرك أَيضًا: الرياءُ، وهُو أنْ يَعملَ الإنسانُ العملَ الصَّالحَ منْ أَجلِ أَن يَراهُ الناسُ، لَا لِيَتقرب بِه إِلَى ربهِ، ولكنْ لِيكسب ثنَاءَ الناسِ، مِثالهُ: رَجُلٌ أحسَّ بِقومٍ دَخلُوا المسجدَ، فقامَ يُصلِّي مُراءاةً لَهم؛ لِيُثنوا علَيْه إذَا رَأَوهُ يُصَلِّي بأَنَّه رجلٌ عَابدٌ، فَنقولُ: إنَّ هذَا الإنسانَ فِيه رِياءٌ، وَالرياءُ شِركٌ، وَالشِّركُ لَا يَقبلهُ اللهُ؛ وَلِهَذَا جَاء فِي الحديثِ الصَّحيحِ أنَّ اللهَ تَعالى قَالَ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

أقسام الرياء:

وَالرِّياءُ يَنقسمُ إِلَى أَرْبعةِ أَقسامٍ:

القِسمُ الأَوَّلُ: مَا يَكون شِركًا أَكبرَ، وَذلك فِيما إذَا كانَ الحاملَ لهُ عَلَى العبادَةِ التقربُ إِلَى الخلقِ فَقَطْ، مثلُ: إذَا أَقبلَ الرجلُ قامَ هذا يُصَلِّي تقرُّبًا إِلَيْه، لَا إِلى اللهِ، وتَزَلُّفًا له، فَهذَا فِي الحقيقَةِ شركٌ أكبرُ؛ لأَنَّه عِبادةٌ لِلْمخلوقِ.

القِسْمُ الثَّانِي: أنْ يَقعَ فِي قلبهِ، ولكنْ لَا يَعتقد أَبدًا أَنَّ مَن رَآه بِهَذَا العملِ مُساوٍ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فَهذا شِركٌ أصغرُ.

القِسمُ الثَّالثُ: أنْ يطرأَ عَليه الرِّياءُ وَهو فِي أثناءِ العِبادةِ، يَعْنِي أَنَّهُ لَم يُرِدِ الرِّياءَ منَ الأصلِ، بَلْ كَبَّرَ لِلصَّلاةِ مُخلصًا للهِ تَعالى فِيها، ولكنَّه فِي أثنائِهَا طَرأت عَلَيْها

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

المرَاءاةُ، وهذَا القسمُ نَقول فِيه: إِنْ دَافَعَهُ الإِنسانُ حتَّى أَخرجَه مِن قَلبه، فإنَّه لَا يَضرُّه؛ لِقولِ النَّبـيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تعْمَلْ أَوْ تتكَلَّمْ**»(١)، ولأنَّ التَّحرزَ منْ هذَا شاقٌّ، وقَد قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقالَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، ولكنْ علَى الإِنسانِ أَنْ يُدافعَ الرِّياءَ عَن نَفسهِ مَا أَمكنَ.

وقَد كَثُرتِ الشَّكاوِي منْ هَذا النَّوعِ، منْ أَنَّ الإِنسانَ يَأتيهِ الشَّيطانُ فَيقولُ: إِنَّكَ مُراءٍ فِي عَملكَ، وإِنَّ عَملكَ غَيرُ مَقبولٍ مِنْكَ؛ لِأَنَّكَ رَاءَيْتَ بِه، فَنقول: إِذَا حدَثَ فِي قَلبك رِياءٌ وَدَافعتهُ فأَنْت مَأجورٌ عَلَيْهِ.

القِسمُ الرَّابعُ: أَنْ يَحْـدُثَ الرِّياءُ عليهِ فِي أَثناءِ العِبادةِ، ويُقِرَّهُ فِي قلبهِ، وَيَبقى مُرَائيًا، فهذَا حرامٌ عَليهِ.

ولكنْ هَل تَفسُدُ عِبادتُهُ التِي وَقع فِيها هذَا الرِّياءُ؟

نَقول: فِي هذَا تَفصيلٌ:

أَوَّلًا: لَا يَرتبطُ أَوَّلُ العِبادةِ بِآخـرهَا، فَأَوَّلها صَحيحٌ بِكلِّ حالٍ، وَآخـرهَا بَاطلٌ. مِثال ذَلك: أَنْ يَتَصدَّقَ الإِنسانُ بِصاعٍ منَ البُرِّ مُخْلِصًا للهِ عَزَّوَجَلَّ فِي ذلكَ، ثُمَّ يَتَصدَّق بِصاعٍ آخـرَ يُرَائِي فِيه، فَالصدقةُ الأُولى الَّتِي سَبقتْ مَقبـولةٌ، وَالثَّانيةُ التِي طَرأَتْ تَكونُ بَاطلةً؛ لِاختلاطِ الرِّياءِ فِيهَا بِالإِخلاصِ.

ثَانِيًا: إِن كَانت مِمَّا لَا يُمكنُ انْفِصالُ بَعْضها عَن بَعضٍ فَلَهُ حَالَتَيْنِ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون، رقم (٤٩٦٨).

الأُولَى: أَن يُدافعَ الرِّياءَ وَلَا يَسكنَ إِلَيْهِ، بَل يُعْرِض عَنه وَيَكرهه، فَفِي هَذهِ الحالِ لَا يُؤَثِّرُ شَيئًا؛ لِقولِهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**»[1].

الثَّانيةُ: أَنْ يَطمئنَّ إِلَى هذا الرِّياءِ وَلَا يُدافعَهُ، فَحِينئذٍ تَبطلُ جَميعُ العبادَةِ؛ لأَنَّ أَوَّلها مُرتبطٌ بِآخرهَا، وَمَا أَبْطَلَ آخرَ العبادةِ يُبْطِلُ أَوَّلَهَا. مِثالُ ذَلِكَ: أَنْ يَبتدِئَ الصلاةَ مُخْلِصًا بِها للهِ تَعالى، ثُمَّ يَطرأُ علَيْها الرياءُ فِي الرَّكعةِ الثَّانيةِ، فَتبطلُ الصلاةُ كلُّهَا؛ لِارْتِباط أَوَّلها بِآخِرِهَا.

لكنْ يَنْبغي لِلإِنسان أَنْ يُجاهدَ نَفسهُ لِإِخْلاصِ العبَادةِ للهِ تَعَالَى؛ لأَنَّه لَا شَكَّ أَنَّ استمرارَ الإِنسانِ عَلى الشِّركِ خَطر عَلَيه جدًّا؛ لأَنَّه إِذَا مَات عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

هذَا هوَ التَّفصيلُ فِي مَسألةِ الرِّياءِ إِذَا حَدث فِي أَثناءِ العبادَةِ.

ومنْ أَرادَ المزيدَ فِي ذَلكَ، فَلْيرجعْ إِلَى كِتابِ (التَّوحيد) لِشَيخِ الإِسلامِ مُحمدِ بنِ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإِنَّ فِيه كِفايةً إِنْ شَاءَ اللهُ[2].

قَولهُ تَعالَى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يَعني: وَأَحْسنوا بِالوَالدينِ إِحْسانًا. وَالوَالدانِ هُما الأُمُّ وَالأَبُ، وأَمَّا الجدُّ وَالجدةُ فَلَا يَدْخلانِ فِي الوَالدينِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون، رقم (٤٩٦٨).

(٢) كتاب التوحيد (٤٦).

ولكِنَّهما يَدْخلانِ فِي مُطْلَقِ القَرابةِ، فَالوَالدانِ يَجِبُ الإِحسانُ إِلَيْهما بِالمالِ، وَالبدنِ، والجاهِ؛ فَبِالمالِ أَنْ تُنْفِقَ عَلَيْهِمَا إِنْفَاقًا كاملًا، وتَسُدَّ حَاجَتهما بِالإنفَاقِ مِنَ الثِّيابِ، وَالأَوَانِي، وَالمنَازِلِ.

وكذلك الإِحسانُ بِالجاهِ: بأنْ تَشفعَ لَهما فِيما فِيه نفعٌ لهما، وَيَدخل فِيه أَيْضًا أَنْ تُحافظَ عَلى سُمْعتهما، وَطِيبِهما، وَحُسْنهما، فإِنَّ هذَا بِلَا شَكٍّ منَ البِرِّ وَالإِحْسانِ إِلَى الوَالدينِ.

فَضَابطُ الإِحسانِ بِالوالدَيْنِ أَنَّ الإِنسانَ يُحسنُ إِلَيْهما بِالبَدنِ، وَالمالِ، وَبِالجاهِ: بِأَنْ يَشفعَ لَهما عِنْدَ الحاجةِ إِلَى ذَلكَ.

واعلمْ أَنَّ بِرَّ الوالدينِ مِنْ أَفضلِ الأَعمالِ، حتَّى إِنَّ النبيَّ ﷺ جعلهُ أَفْضَلَ منَ الجهادِ فِي سبيلِ اللهِ، فَفِي حَديثِ عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: سَأَلْتُ النَّبيَّ ﷺ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «**الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا**». قُلتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ**». قُلت: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[1]، فَجعلَ برَّ الوَالدينِ مُقدَّمًا عَلى الجِهادِ فِي سَبيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَوْلُهُ: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يَعنـي: أَمَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَن نُحسِنَ إِلى ذِي القُرْبَـى، والقُربَى: مُؤنثُ أَقْرَب، والمرادُ بِهم قَرابةُ الإِنسانِ، قالَ العلماءُ: وَالقَرَابة كلُّ مَن يَجمعُ بَيْنَكَ وَبَيْنَه الجدُّ الرابعِ، ومَا جَمع بَيْنك وَبيْنه الجدُّ الخامسِ فَما فَوْقَ فَلَيْسَ مِن القرابةِ، فَالإِخوانُ وَأَبْناؤهمْ وَالأَعمامُ قَرابةٌ، وَأَوْلَادهمْ قَرابةٌ، وَالأَخوالُ قَرابةٌ، وَأَبْناؤهمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة لوقتها، رقم (٤٩٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى، رقم (١٢٣).

قَرابةٌ، لَكِنَّهم لَيْسوا كَقرابةِ الأبِ؛ لأنَّ قرابةَ الأبِ يُنسبُ إِلَيْهِمُ الإنسانُ، وَيَنْتَمِي إِلَيْهم، بِخِلافِ قَرابةِ الأمِّ.

وحقُّ القَريبِ وَاجبٌ، وهُو مِن صلةِ الرَّحمِ، ولكنَّه أَدْنَى وُجُوبًا منْ حَقِّ الأمِّ والأبِ؛ وَلِهَذَا أَوْجَبَ اللهُ فِي الأمِّ وَالأبِ الإحسانَ عَلى وَجهِ الاستِقلالِ، ثُمَّ قالَ: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وَجَعَلهم فِي المرتبةِ الثَّانيةِ، ويُسمَّى الإحسانُ إِلَى الأمِّ والأبِ بِرًّا، ويُسمَّى الإحسانُ إِلى غَيْرِهما منَ القرابةِ صِلةً، عَلى أنَّ بِرَّ الوَالدينِ هُو صِلةٌ أيضًا، لكنْ سُمِّيَ بِرًّا إِشارةً إِلى أَنَّه يَجب إِكثارُ الإِحسانِ إِلَيْهِما؛ لأنَّ الأصلَ أن الاشتقَاقَ فِي الباءِ والرَّاءِ يَدل عَلَى السعةِ، ومِنْهُ البَرُّ: اسمٌ لِلخلاءِ الخارجِ عَنِ البلدِ؛ لأَنَّهُ وَاسعٌ.

قَولُه: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾: جمعُ يتيمٍ، واليتيمُ شَرعًا: هوَ الَّذي مَات عَنْهُ أَبوه قَبل بُلُوغِهِ، والضَّميرُ عَائدٌ إِلى اليَتيمِ الَّذِي مَاتَ أَبُوه قَبل أَنْ يَبلغَ، فإِذَا بَلغَ الولدُ لَم يَكنْ يَتِيمًا، خِلافًا لِما هُو مَعروفٌ عندَ بَعضِ العوامِّ الآنَ، حَيثُ يَظنونَ أنَّ مَن ماتَ أَبوهُ وَلَمْ يَتزوجْ فَهو يَتِيمٌ، وأَنَّ اليُتمَ لَا يَزولُ إِلَّا بِالتزوجِ.

ومَن مَاتتْ أُمُّـهُ دُونَ أَبيه فَلَيْسَ بِيتيمٍ؛ وذلكَ لأنَّ اليُتمَ بِمَعنـى الانفرادِ، وحَقيقةُ الانفرادِ أَنْ يَنفردَ الصـبيُّ عَمن يَقومُ بِرعايتهِ وَصِيانتِهِ، وَصِيانةُ الصبـيِّ وَرِعَايتهُ وَاجبةٌ بِالدرجةِ الأُولى عَلَى الأبِ؛ وَلِهَذا قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**أَلا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم (٨٤٩)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، رقم (٣٤١٤).

والبلوغُ يَحصلُ بِواحدٍ من أُمورٍ ثَلاثةٍ بِالنسبةِ لِلذَّكرِ، وَواحدٍ منْ أَربعةٍ بِالنسبةِ للأُنْثَى، فَيحصلُ بُلوغُ الذَّكرِ بِتَمامِ خَمسَ عشْرَةَ سَنةٍ، والثَّاني: خُروجُ شَعرِ العانةِ خَاصةً، والثالثُ: خُروجُ المنيِّ بِشهوةٍ، فإِذَا وُجِدَ وَاحدٌ منْ هذهِ الثَّلاثةِ صارَ الصبيُّ بَالِغًا.

أمَّا الأُنْثَى فَتزيدُ أَمْرًا رَابِعًا، وهوَ الحيضُ، فَمَتَى جَاءهَا الحيضُ، فَهِيَ بَالغةٌ وَلَوْ لَم يَكن لَها إلَّا عشرُ سَنواتٍ.

وهذهِ المسْألةُ تُعاني مِنْها الشَّاباتُ، حَيثُ إنَّهنَّ يبلغنَ مُبكِّراتٍ، وَتظنُّ الوَاحدةُ مِنهنَّ أنَّ البلوغَ لَا يَكونُ إلَّا بعدَ تَمامِ خَمْسَ عَشْرةَ سَنةً، فَتجدهنَّ يَتْركنَ الصَّلاةَ لأنَّهنَّ يَعتقدنَ أنَّهنَّ لَم يَبلغنَ بَعْدُ، وَيُضيِّعنَ كَثِيرًا منَ الوَاجباتِ بِحُجَّةِ أنَّهنَّ لَم يَبلغنَ.

ونحنُ نَعلم أنَّ الواجبَ عَلى كلِّ مُكَلَّفٍ أنْ يَسألَ وَيَبحث عَن دِينهِ؛ حتَّى يَعْبُدَ اللهَ تَعَالى عَلى بَصيرةٍ، فلَو قُدِّر أنَّ هذهِ الفتاةَ جَاءهَا الحيضُ وَلَها عَشرُ سَنواتٍ فَقَطْ، فإنَّها تكون بَالغةً، وَيَلْزمها مَا يَلْزمُ البَالغاتِ منَ الصَّلاةِ، والصِّيامِ، وَالحجِّ، وَلا نَقولُ: الزَّكاةُ؛ لأنَّ الزَّكاةَ لا يُشْتَرَطُ لَها البلوغُ، فَتجب حتَّى فِي مالِ الصِّبيانِ، وفِي مالِ غيرِ العُقلاءِ.

تَنْبِيهٌ:

كَثير منَ الآباءِ يُهملُ أَبناءهُ غَايةَ الإِهمالِ، فَتجدهُ لَا يَسألُ أيْنَ ذَهبوا، ولَا مَتى جاؤُوا، وَلَا مَن زُمَلَاؤهمْ، ولَا مَن أَصْحَابهمْ، ولَا يَبحث عَن شَيءٍ فِيما يَتعلق بِشُؤونهم إِطْلاقًا، حتَّى لَوْ كَانَ الَّذي عِنده منَ الأَولادِ الَّذينَ لَا يَظهر عَلَيْهمُ الصلاحُ،

فَتجده لَا يَهْتَمُّ بِهِمْ، ولَوْ كَانَ لهُ مالٌ لَوَجَدْتَهُ حَرِيصًا عَلَيْهِ غَايةَ الحرصِ، وَيُنَمِّيهِ، ويُثَمِّرُهُ، ولكنَّه قَد أَهمـل أَوْلاده، مَع أَنَّه مَسؤولٌ عَنـهم أَمامَ اللهِ تَعَالى، ومعَ أَنَّ صَلاحهمْ صلاحٌ لَهُ فِي الحقيقَةِ، قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**».

فعَلَى كلٍّ مِنَّا أَنْ يَتَفقدَ أَولادهُ، وأَنْ يَحرصَ غَايةَ الحرصِ عَلى استقامَتِهِمْ أَكثرَ مِمَّا يَحرصُ عَلى فَوائدَ وَثَمَراتِ المالِ.

قَولهُ: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾، المساكينُ: جَمْعُ مِسكينٍ، وَالمسكينُ هُوَ الفقيرُ، وسُمِّيَ الفقـيرُ مِسكينًا لأنَّ الفقرَ أَسكـنهُ، فَالفقرُ -أَعَاذنا اللهُ وَإِيَّاكم مِنه- ذُلٌّ لِلْإِنسان يُوجب علَيْهِ السكونَ، وأَن يَكون نَازلًا عَن مُسْتـوى غَيرِهِ، فَتجدُ الفقيرَ لَا يُؤَهِّلُ نَفسهُ لِكلامٍ، بَلْ إِذَا تَكَلَّمَ لَن يَرفعَ الناسُ بِهِ رأسًا، وَلَمْ يَلْتَفتـوا إِلَيْهِ؛ وَلِهَذَا سُمِيَّ مِسْكِينًا.

ولكنَّ الإنسانَ قَدْ يَكونُ مِسكينًا عندَ الخلقِ، وهُو عِندَ اللهِ وجيهٌ ذُو مَنزلةٍ، والشيءُ الَّذي يَنْبغـي أَنْ نَسعَى لَهُ هُو أَنْ نَكونَ وُجهاءَ عندَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإِنَّ هذهِ الوَجاهـةَ هِي النافعَةُ، أَمَّا الوَجَاهـةُ عندَ الناسِ مَعَ الضَّعفِ عِنْدَ اللهِ، وَالسُّفولِ عِندهُ، فَهذهِ لَا خَيْرَ فِيهَا؛ لِأَنَّهَا إِنْ بَقيتْ لِلْإِنسانِ فَإِنها تَبْقَى لَه فِي الحياةِ الدُّنيا فَقَطْ، وَلَا تَنْفعهُ.

والمسكِينُ هُوَ الفقيرُ، وَلكنْ قَد يَقول قَائلٌ: كَيفَ نُفسِّرُ الفَقيرَ بِالمسكينِ، وقدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]، والأصلُ فِي العطفِ المغايَرةُ، فيكونُ المسكينُ غَيْرَ الفقيرِ؟

والجوابُ أنَّ فِي اللغةِ العَربيةِ كَلماتٍ إذَا ذُكِرَتْ مُفْرَدةً عَن قَرِيناتها دَلَّت عَلى مَعْنًى، وإن ذُكِرَت مَعَ قَرِينَاتها دَلَّت عَلى مَعْنًى آخرَ؛ فَالفقيرُ إذَا ذُكِرَ دُونَ المسكينِ شَمِلَ المسكينَ، والمسكينُ إِذَا ذُكِرَ دُونَ الفقيرِ شَمِلَ الفقيرَ، وإذَا ذُكِرَ الفقيرُ والمسكينُ جَميعًا افترقَا؛ وَلِهَذا يقالُ: إذَا اجتمعَا افترَقَا، وإذَا افترقَا اجتمَعَا، فإذا اجتمعَ الفَقيرُ وَالمسكينُ قُلْنَا: الفَقِيرُ: هُوَ الَّذِي لَا يَجِدُ شَيْئًا منَ الكفايَةِ، أَو يَجِد أقلَّ منَ النصفِ، والمسكينُ هُوَ الَّذِي يَجِدُ النِّصفَ ودُونَ الكمالِ يَعْنِي مَا بَيْنَ النِّصفِ والكمالِ، فهذَا إذَا ذُكرَ الفقيرُ وَالمسكينُ جَمِيعًا، أمَّا إِذَا أُفرِدَ أَحَدُهُما فإنَّه يَشملُ الآخرَ.

فَقولهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ يَعني: وَأَحْسِنوا بِالمساكينِ؛ بِالفقراءِ. وَالإحسانُ إِلَى الفُقراءِ يَكونُ صدقةً، فَيكونُ بِالصدقةِ الوَاجبةِ، وَيَكونُ بِالصدقةِ المسْتَحبةِ، فَإِذَا تَصدَّقت عَلَى الفَقيرِ بِالصَّدقَةِ الوَاجبةِ كَان هَذا دَاخلًا فِي الآيَةِ، وإِذَا تَصدَّقت عَلَيْهِ بِصَدقةٍ تَطوعٍ كَانَ دَاخِلًا فِي الآيَةِ، فَالإِحْسانُ إلى الفُقراءِ مِما أمرَ اللهُ بهِ؛ لما فِي ذَلك مِنْ قَضاءِ حَوائجِهِمْ، ورَفع مَعْنَوِيَّاتهم، وَمُوَاسَاتهم فِي أُمُورِهم، وكلُّ هَذهِ أُمورٌ وَأَخلاقٌ فَاضلةٌ، دَعَا إِلَيْهَا الإِسلامُ.

قَولهُ تَعالَى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾، الجارُ ذِي القُربى: يَعْني الجار القَريب، وَالجارُ الجُنبُ: يَعْني الجار البَعيد، فَأَوْصَى اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هُنا بِالجارِ القَريبِ، وَبِالجارِ البَعيدِ، وَبَدَأَ بِالجارِ القَرِيبِ؛ لأنَّ الجارَ القريبَ لَهُ حقَّانِ؛ حقُّ القرابةِ وحقُّ الجوارِ، وأمَّا الجارُ الجُنُب فلهُ حقٌّ وَاحدٌ، وهوَ الجوارُ.

إِذَنِ الجارُ ذو القُرْبَى لَه حقَّانِ؛ تصلهُ لأنَّه قَرِيبُكَ، ولأنَّه جَارُكَ، والجارُ الَّذِي لَيْسَ قَرِيبًا لكَ تَصله لأنَّه جَارُكَ.

وحقُّ الجارِ كبيرٌ، فيَجبُ عَلى الإنسانِ إكرامُ جَارهِ؛ لِقولِ النبيِّ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جارَهُ»[1]، وفِي لفظٍ آخرَ «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جارَهُ»[2].

وقالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ»، قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الجَارُ لَا يَأْمَنُ جارُهُ بَوَائِقَهُ»[3] وبَوَائقُه تَعني ظُلْمَهُ وَخِيانَتَهُ وَخَديعتَهُ.

وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «إِذَا طَبَخَ أَحَدُكُمْ مَرَقًا فَلْيُكْثِرْ مَاءَهَا وَلْيَتَعَاهَدْ جِيرَانَهُ»[4].

وقالَ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[5].

وإذَا نَظَرنَا إلى مُجْتمعنا اليَوم، وجَدْنا أنَّ كثيرًا منَ الناسِ لَا يَهْتم بِجِيرانِهِ، وَلَا يَدْري مَا هُم عَلَيْهِ، ولَا يَدْري مَاذا حَصَل لَهم، وهذَا بِلَا شَكٍّ نَقصٌ فِي الإيمانِ، ونَقصٌ فِي الأَخلاقِ. والَّذي يَنْبغي لَنَا أنْ نَتَعاهدَ الجيرانَ وأَنْ نَسألَ عَنْهم، وأَنْ نُوَاسِيَهم بِمَا نَستطيعُ، وأنْ نُكرمَهم حتَّى نَنالَ كَمالَ الإيمانِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، رقم (٥٥٨٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٧٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، رقم (٥٥٨٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤٥/ ١٣٩، رقم ٢٧١٦٢).

(٤) أخرجه النسائي (١/ ٢١٤، رقم ٦٠٦).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، رقم (٥٥٨٣)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، رقم (٤٧٦٢).

وقـولهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ يُرادُ بهِ الزوجـةُ، فأَمَرَ اللهُ تَعالَـى بالإِحسانِ إِلى الزَّوجةِ، وقالَ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»[1]، ولَا شَكَّ أنَّ العِشْرَةَ بينَ الزَّوجينِ كُلَّما استَقامتْ سَعِدَ الإنسانُ بِحياتِهِ، وانشَرَحَ صَدرهُ، وصارَ فِي سُرورٍ دائمٍ، وإذَا ساءتِ العلاقاتُ تَنكَّدَ العيشُ، وإذَا كانَ مَعهما أَوْلادٌ تنكَّدَ أكثرَ، وتَفرَّقَ الأولادُ، فصارَ أحدهمْ معَ أَبيهِ، والثَّاني مَع أُمِّهِ، ورُبَّما تَتَفرقُ البيوتُ كلُّهَا منْ أَجلِ سُـوءِ المعَاشرةِ. فَالواجبُ عَلَى الرَّجلِ أَنْ يُحسِنَ مُعَاشَرَةَ زَوجتِهِ، وأَنْ يَكونَ كَما كانَ النَّبـيُّ ﷺ خَيْرَنا لِأهلِهِ، وَلْيعلمْ أَنَّ الأمـورَ لَا تَتمُّ عَلى وِجهةٍ واحدةٍ، وكذلك الأيامُ، يَقولُ الشاعرُ الحكيمُ[2]:

فَيَـوْمٌ عَلَيْنَـا وَيَـوْمٌ لَنَـا ... وَيَـوْمٌ نُسَـاءُ وَيَـوْمٌ نُسَـرّ

وهذَا هوَ الواقعُ، حتَّـى إنَّ الإنسانَ نفسيًّا فِي يَومٍ مِنَ الأَيَّامِ يَنشرحُ صَدرُهُ، وفِي التَّالي يَضيقُ صَدرهُ.

فلِذَلك نَقولُ: إنَّ الأمورَ لَا تَتمُّ، فالزَّوجةُ لَا تتمُّ فِي كلِّ الأَحوالِ، ولَا فِي كلِّ الأَوقاتِ، ولَا فِي كلِّ مَكانٍ، بل تَخـتلفُ، ولكنَّ النَّبـيَّ ﷺ وهوَ الطَّبيبُ؛ طَبيبُ الأَخلاقِ وَالآدابِ، وَالحكيمُ فِي تَوْجيهاتِهِ قالَ: «**لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ**»[3]، ومَعْنى «**لا يَفْرَكْ**» لا يُبغِضْ وَلَا يُعادِ، فإِنْ كرِهَ مِنها خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا خُلُقًا آخرَ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب فضل أزواج النبي ﷺ، رقم (٣٨٥٩)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، رقم (١٩٦٧).

(٢) العقد الفريد (٣/ ٥٩).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم (٢٦٨٠).

قدْ يَكرهُ الإنسانُ منِ امرأتِهِ شَيْئًا منَ التَّصرفاتِ، ولكنْ يَنظر إِلى التَّصرفاتِ الأُخْرَى، فلَا يَنظر إِلَى مُعَاملتها إِيَّاه بِعينِ الأَعورِ؛ الذِي لَا يَرَى إِلَّا مِن جَانبٍ واحدٍ، لِيَجعل فِي النَّظر إِلَى الأُمورِ نَظَرًا بِالعينينِ كِلْتَيْهما، حتَّى تَصيرَ الأشياءُ عَلى حَقِيقتها، فَمثلًا إِذَا أَسَاءت فِي مُعَاملتك فِي إِصلاحِ القَهوةِ؛ فَانظُر إِلى إِحْسَانها فِي إِصْلاحِ الشَّايِ، وإِذَا أَسَاءت بِإِصْلاحِ الغَداءِ فَانْظر إِلَى إِحْسانها فِي إِصلاحِ العشاءِ، وهَكَذَا، فلَا تَنْتظر مِنْها أَنْ تَكونَ الأُمورُ تَامةً مِن كلِّ وَجهٍ، فإِنَّ هذَا لَا يُمكنُ.

ثمَّ إِنَّ الرَّجلَ مَرتبتهُ أَعْلَى مِن مَرتبةِ المرأةِ، فَهو أَعقلُ مِنْهَا، وأكملُ دينًا؛ وَلِهَذَا قالَ اللهُ تَعَالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤]، فإِذَا كانَ كَذَلك فَيَنْبغي أَنْ يَتحملَ، وأَنْ يَصبرَ، ويَنتظرَ الأمورَ حتَّى تَتَحسَّنَ.

أَمَّا المرأةُ فَيجبُ علَيْها أَيضًا أَنْ تُحسِنَ إِلى زَوْجِها؛ لأَنَّ زَوْجَها منَ الصَّاحبِ بِالجنبِ لَا شَكَّ، فَعَليها أنْ تُحسنَ صُحْبته، وأَنْ تُحسنَ مُعَاشَرته، وأَنْ تقومَ بِما يَجبُ عَلَيْها لَه، حتَّى تَكونَ الحياةُ الزوجيةُ حياةً سعيدةً كاملَةً.

قَوْلُهُ: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وابنُ السَّبِيلِ هُوَ المُسافرُ الذِي انْقَطع بهِ السفرُ، ونَفَدت نَفَقتهُ فَاحتاجَ إِلى نَفقةٍ، فيُعطى، ويُسَاعَد بِما يُوصِله إِلَى بَلدهِ، بَلْ وحتَّى وإِنْ كَانَ مَعه نَفَقة فإِنَّ المسافرَ غَريبٌ، والغريبُ مُسْتوْحَشٌ بَيْنَ المؤمنينَ، فيَحْتاج إِلَى عِنايةٍ، وَإِلَى رِفقٍ بِهِ وَإِحسانٍ إِلَيْهِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، أَيْ: منَ العبيدِ الأرقَّاءِ، ومنَ الحَيواناتِ منَ البهائِمِ وغيرِهِ، فَالإِنسانُ مَأْمورٌ بأَنْ يُحسنَ إِلى مَا مَلكت يَمِينهُ منْ آدميِّينَ، ويَترفقَ

بِهِمْ؛ لأنَّهـم مَحلُّ الرفقِ، ومَحلُّ العـشرةِ الطَّيبةِ إذَا كَانوا منَ الأرقاءِ، ومحلُّ العطفِ والحنانِ وَالرحمَةِ إذَا كَانُوا مِنَ البَهائمِ.

فهذهِ الآيةُ الكَريمةُ تَضمَّنتِ التوصيةَ فِي حُقوقِ كَثـيرٍ منَ الناسِ، فَعَلينا أنْ نَتأملَ كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنْ نتدبرهُ، وأنْ نَعملَ بِما تَقْتضيه دلالتهُ؛ حتَّى نَنتفعَ بِه.

نسألُ اللهَ أَنْ يَجْعَلنا جَميعًا مِن أَهْلِ القُرْآنِ، وأنْ يَرْزُقَنا تَدبُّرَ كَلامِهِ وَالعملَ بِهِ، إنَّه جوَادٌ كريمٌ.

قَولهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أي: مَن كان مختالًا فِي هَيْئته، فخورًا فِي مَقالِهِ؛ لأنَّ الاختيالَ فِي الهيئَةِ، والفخرَ فِي المقالِ، يَدلُّ عَلى الكِبرِ، والكِبْرُ مِن كَبائرِ الذُّنوبِ، وقَد سُئلَ النبـيُّ ﷺ حِين حَدَّثَ عنِ الكِبْرِ، وحذَّرَ منَ الكِبْرِ، سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»[1]، فبَطَرُ الحـقِّ رَدُّهُ، وغَمْطُ النَّاسِ احتِقَارهمْ وازْدِرَاؤُهم، فهذَا هوَ الكِبْرُ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ لَا يُحبُّ كلَّ مُختالٍ فَخورٍ، وكذَلِك مَا كَانَ الاختيالُ وَالفخرُ دَلِيلًا عَلَيْه، وهوَ الكِبْرُ منْ بَابِ أَوْلَى، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣].

واعلمْ أنَّ الواجبَ عَلَى المؤمنِ إذَا تبيَّنَ لهُ الحقُّ أنْ يُذعِنَ لَه، وَيَنْقادَ لَه، وَيَتْبعه، مَهْما كانَ الذي بَيَّنَهُ له، وكَثيرًا ما يُبيِّنُ لَكَ الحقَّ مَن هُو دُونَك فِي العلمِ وَالفضلِ؛ لأنَّ الحقَّ عِلْمه لَيْسَ مَحْصورًا فِي طَائفةٍ منَ الناسِ، أَو فِي جِنْس منَ الناسِ، فَقَدْ يُبيِّنُ التِّلميذُ الحقَّ لِأُسْتاذه وَشَيْخه، فَيَجب أَنْ يَتَّبعَ الحقَّ، وهوَ إذَا اتَّبعَ الحقَّ لَيْسَ مَعناهُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (١٣٤).

الخضوعَ أَوِ الخنوعَ لِلتِّلميذِ، أَو لِمِن أَخْبره، بَلْ هُو خُضوعٌ لِلحق أَيْنما كَان، والحقُّ يَجب قَبولُه حتَّى ولَوْ كَان مِن كافرٍ، قالَ تَعالَى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨]، فَاحتجُّوا علَيْها بِأَمْرَين:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: أنَّهم وَجَدُوا عَلَيْها آباءَهُمْ.

الأَمْرُ الثَّانِي: أنَّ اللهَ أَمَرهم بِها.

فقَبِلَ اللهُ تَعالَى مِنهم أحدَ الأمرينِ، وأَنْكر الثَّانِيَ، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، فَأَنكر عَلَيْهم قَوْلهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، ولَمْ يُنكرِ الثَّانِيَ، وهوَ قَولهم: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ لأَنَّه حقٌّ، والحقُّ يَجب قَبوله حتَّى لَو كانَ مِنْ كَافرٍ، أَو مُشركٍ، والباطلُ يَجب ردُّهُ، حتَّى وإِن كانَ مِنْ مُؤمنٍ مُخْلِصٍ.

ومنَ الكِبْرِياءِ الَّذي يُحذَّر مِنه، وهو سَببٌ لِلْهَلاك: مَا يَفعله بعضُ المأمورينَ وَالمنهيِّينَ، بعضُ المأْمُورينَ بِالمعروفِ يَأْنفُ مِنْ أَمْرِ مَنْ أَمرَهُ، ولَا سِيَّما إِذَا كانَ يَعْتقدُ أَنَّه أَكْبَرُ منه سنًّا، وأَغْزر مِنه علمًا، وأَفْقه مِنْه، فَتَجدهُ إِذَا أَمَره قالَ: نَحنُ نَعلمُ مَا لَا تَعلم، وَاسْتَنكفَ، وَاستكْبر، وهذَا منَ الكِبْرِ المُحَرَّمِ، بَلْ هُو مِن كبائرِ الذُّنوبِ؛ لِمَا فِيه منْ ردِّ الحقِّ وغَمْطِ النَّاسِ.

ومنَ الناسِ منْ إِذَا نُهِيَ عَن مُنكرٍ اسْتكبر، وقالَ: أَنَا أعلمُ بِذَلك مِنك، ثُمَّ ردَّ مَا نُهِيَ عَنه منَ المنكرِ؛ لِمَا فِي قَلبِهِ منَ الكِبْرياءِ.

ومنَ النَّاسِ مَن يُؤمَرُ بِالمعروفِ ويُنْهَى عنِ المنكرِ، ولكنَّه لَا يَأْتمِرْ بِمعروفٍ وَلَا يَنْتَهي عَن مُنكرٍ؛ عُلوًّا واستِكْبارًا، فَكلُّ مَن رَدَّ الحَقَّ، أَوِ احتقرَ النَّاسَ، فإِنَّهُ مُتكبرٌ لَا يُحبُّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صنيعَهُ.

وفِي الآيةِ دَليلٌ عَلى إِثباتِ المحبَّةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وَوَجهه أَنَّه لَمَا نفَاها عمَّن كَان مُخْتالًا فَخورًا، دَلَّ ذَلك عَلى أنَّها تَثْبُتُ لِغيرِهِ، وهذَا مَذهبُ أَهْلِ السُّنَّة وَالجماعَةِ: إِثباتُ أنَّ اللهَ يُحِبُّ، وأنَّه يُحَبُّ أيضًا، كَما دلَّ علَى هذَا قَولهُ تَعَالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، وقدْ أَنْكر بَعضُ أَهْلِ البِدعِ صفةَ المحبَّةِ للهِ، وقَالُوا: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ ولَا يُحَبُّ، وأَنْكَرَ بَعضُهُمْ أنَّ اللهَ يُحِبُّ، وأثبتَ أنَّ اللهَ يُحَبُّ، فَالأقوالُ إِذَنْ ثَلاثةٌ.

والصَّوابُ الَّذي لَا شَكَّ فِيه أنَّ اللهَ يُحِبُّ ويُحَبُّ، كَما دَلت عَلَيهِ الآيةُ التِي ذَكَرْناها آنفًا، وكَما دَلَّ عَلى ذَلك قَولُهُ تَعَالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فتَحَدى هَؤُلاءِ الَّذينَ يَدَّعُون أنَّهم يُحِبُّون اللهَ بِشيءٍ وَاضحٍ بَيِّنٍ، وهوَ اتِّباعُ النبيِّ ﷺ، فمَن كَان صَادقًا فِي دَعْوى المحبَّةِ، فَلْيتبعِ النَّبيَّ ﷺ.

وَلِهذا نَعرف قَدرَ محبَّةِ الإِنسانِ للهِ بِقدرِ اتِّباعه لِسُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ، فكلُّ مَن كَان لِسنَّةِ النَّبيِّ ﷺ أَتبَعَ فَهوُ للهِ أَحبُّ؛ لأنَّ اللهَ ذَكر مِيزَانًا عَدْلًا وَوَاضحًا.

ومَنِ ادَّعى أنَّه يُحبُّ اللهَ وَرَسولهُ ﷺ ولكنَّهُ لَا يَتبعُ السُّنَّة، بَل يَبتدعُ منَ البدعِ مَا لَا يَرْضَى اللهُ بِهِ، فَقَد كَذَبَ فِي دَعْواه؛ لأنَّ اللهَ ذَكر مِيزَانًا.

وعلَى هذَا فَنقولُ لِلَّذين يَبْتَدعونَ الأذكارَ الَّتي لم يُنَزِّلِ اللهُ بِها سُلطانًا، أَو يَبْتَدِعُونَ مَا يَبْتدعون منْ تَعظيمِ النَّبيِّ ﷺ مِمَّا نَهى عنهُ النبيُّ ﷺ منَ الغُلوِّ، نقولُ لِهؤلاءِ إِذَا ادَّعوا أنَّهم يُحبُّونَ اللهَ، أَو يُحبُّون رَسولَ اللهِ ﷺ: كَذَبتم فِي دَعْواكم؛ لأَنَّه مَا مِن دَعْوى إِلَّا وَتَحْتاج إِلى بَيِّنَة، قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**البيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي**»(١)،

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء في أن البينة على المدعي، رقم (١٢٥٧).

فَمن ادَّعَى أنَّه يُحبُّ اللهَ، قُلنا لَه: هاتِ البيِّنَةَ، والبيِّنةُ التِي وَضَعها اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِإثباتِ مَحبةِ اللهِ هيَ اتباعُ النَّبيِّ ﷺ فِي فَعْلِ ما أمر بِه، وتَرْكِ ما نَهى عَنْه.

ولَا رَيْبَ أنَّ البدعَ فِي الأذْكارِ، أَو فِي الصَّلواتِ عَلى النَّبيِّ ﷺ أَو فِي تَوْقيتها بِزَمانٍ أَو مَكانٍ، غَيرُ مَحبوبة إِلى اللهِ وَلَا إِلى رَسُولهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، بَل هي مَبْغوضة إِلَيْهما.

ومنَ الكِبْرِ أنَّ بعـضَ النَّاس إذَا أَمَرته بِمَعروفٍ أَو نَهَـيْته عَن مُنْكرٍ، قالَ: إنَّ الشَّيخَ الفلانيَّ يقولُ كَذَا وكَذَا، وهذَا لَيْسَ بِحجَّةٍ، والمشايخُ مَهْـما بَلغوا منَ العلمِ فإِنَّهم قَابِلون لِلخطأِ، فَقد يُخْطئُ الرَّجُلُ العَالِم الكبيرُ فِيما يَقول، ويَكُون خَطؤُه منْ أَوضحِ الأشيَاءِ، وقَد يُصِيب مَن هُو دُونهُ فِي العلمِ بِمَرَاحل، فَكون هَذَا العالِم قَال هَذَا القَوْلَ لَا يَعْنـي أنَّهُ الصوابُ المقطوعُ بِه، صَحيحٌ أنَّ العامـةَ لَيس لَهُم إِلَّا اتباعُ عُلَمائهم؛ لِقَوله تَعَالـى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، لكنَّ طالبَ العلمِ يَجب عَلَيْه أنْ يَتَّبعَ الحقَّ أَينما كَان، وألا يَحتجَّ بِقولِ مَنْ لَيْسَ بِمعصومٍ، وَلَا مَعصومَ إِلَّا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ؛ إذْ إنَّ كلَّ واحدٍ منَ الناسِ قولُه قَابلٌ لِلخطأِ.

ثمَّ بيَّن اللهُ عَزَّوَجَلَّ صفةَ أَهْلِ الاخْتيالِ والفخْرِ، فَقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْـلِ﴾ [النساء:٣٧]، ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ أَي: يَمنعونَ مَا وَجب عَلَيْـهم بَذْلُه مِن مالٍ، أو علمٍ، أَو جاهٍ، فيَبْخلون بِمَا وَجب عَلَيْهم مِنْ مَالٍ وَأَعْظمهُ الزَّكاةُ، فإِنَّ أَعظمَ وَاجباتِ المالِ هِيَ الزَّكاةُ، وَالزَّكاةُ أَوجبُ منَ الإنفاقِ عَلَى النَّفْسِ، وعَلَى الأهلِ، وعَلَى الأَقاربِ؛ لأَنَّها رُكْنٌ منْ أَركانِ الإسلامِ.

وهنَاك مَنْ يَبْخلونَ بِما يَجب عَلَيْهم بِذله منَ العِلْمِ، فلَا يُعَلِّمُونَ الناسَ، سَواءٌ احتَاجَ الناسُ إِلى عِلْمهم، أَمْ لَم يَحْتاجوا، فَلَا يَجْلسونَ لِلنَّاسِ لِيُعلِّموهم، بَل إِنَّ بعضَهمْ إِذَا سُئل لَم يُجِبْ.

وقَد وردَ الوعيدُ عَلى مَن سُئِلَ عَن عِلمٍ فكَتمه، فقالَ ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١).

أَيضًا يَبْخلون بِمَا يَجب عَلَيْهم بَذلُه منَ الجاهِ، مثلُ أَنْ يَحتاجَ أحدٌ منَ المسلِمينَ إِلى شَفاعةٍ مِنهم فِي دَفعِ الضَّررِ عَنه، فَيَبْخلون وَلَا يَشْفَعون، فإِنَّ هذَا لَا شَكَّ منَ البُخلِ.

وقَد جَاء فِي الحديثِ أَنَّ «**البَخِيل الَّذِي ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**»(٢)، فهذَا بُخلٌ.

فَالضابطُ لِلبخلِ أَنْ يَمنعَ الإِنسانُ مَا يَجبُ علَيْه بَذلهُ منْ مالٍ، أَو عِلمٍ، أَو جاهٍ.

نَسأَلُ اللهَ تَعَالى أَنْ يُعيذَنا جَميعًا منَ الكِبْرِ والبخْلِ، وأَنْ يَرْزقنَا التَّواضعَ لِلحقِّ وللخَلْقِ، وأَنْ يُعينَنا عَلى بذْل مَا يَجب علَيْنا بذلُهُ مِن مَالٍ، أَو عِلمٍ، أَو جاهٍ، إِنَّه جوَادٌ كريمٌ.



---

(١) أخرجه أحمد (١٤/ ٢٨٤، رقم ٨٦٣٨)، وأبو داود: كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم (٣١٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب قول رسول الله ﷺ، رقم (٣٤٩٧).

الدرس الثاني:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦].

هَذَا الأمرُ الَّذِي أَمَـرَنا اللهُ به، وهو الأمرُ بعبادتِه؛ هُوَ الَّذِي خُلِقْنَا من أَجْلِه، كما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، لا لأجلِ أن يَتمَتَّعُوا فِي الدُّنيا ورفاهيتِها ويعْمُرُوها؛ فقد عَمَرَها من كانَ قَبْلَهم أكثرَ ممَّا عَمَرُوها، وجَاءَتْهم رسلُهم بالبيناتِ فما أَغْنَت عنهم العمارةُ، ولا القوةُ.

إن عادًا استكـبروا فِي الأرضِ ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، (مَـن) استفهامٌ بمعنى النفيِ والتحدِّي، فقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

تأَمَّلْ يا أخي قول اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ولم يقلْ: إنَّ اللهَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً؛ لِيَكُونَ هَذَا دليلًا عَلَى أن اللهَ أشدُّ؛ لأنَّ الخالقَ أَشَدُّ قُوَّةً من المخلوقِ، فبَدَأَ بالدَّلِيلِ قبلَ الحكمِ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت:١٥-١٦]، ريحٌ ألطفُ شيءٍ وأهونُ شيءٍ أَرْسَلَها اللهُ عليهم، أرسلَ اللهُ عليهم الريحَ فدَمَّرَتْهم، فأصبحَ لا يُرَى إِلَّا مساكنُهم، فأينَ القوةُ؟ هَذَا الَّذِي خُلِقْنا لأجلِه قَدَرًا، وأُمِرْنا به شَرْعًا: اعْبُدُوا اللهَ، فلا بُدَّ أن نحققَ مَا أَمَرَ اللهُ به.

أسألُ اللهَ أن يجعلَني وإياكم من عبادِه الصَّالِحين.

ولكنَّ العبادةَ لَيْسَتْ طقوسًا وأعمالًا بَدَنِيَّةً بأصواتٍ وحركاتٍ، ولكن العبادةُ مبنيَّةٌ عَلَى الخضوعِ التامِّ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وذلك بالقلبِ؛ بأن تَعْبُدَ اللهَ بقلبِكَ قبلَ أن تَعْبُدَه بلسانِكَ، وقبلَ أن تَعْبُدَه بجوارحِك، هَذِهِ هي العبادةُ الصَّحيحةُ. ولا يمكنُ أن تَتَحقَّقَ العبادةُ وأن تكونَ مقبولةً عندَ اللهِ إِلَّا بِشَرْطَيْنِ ذُكِرَا فِي كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ:

أولهما: الإخلاصُ.

والثَّاني: المتابعةُ.

الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ بألا تنويَ بعبادتِك جاهًا، ولا رئاسةً، ولا مدحًا عندَ النَّاسِ، وإنما تَقْصِدُ وجهَ اللهِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الرعد:٢٢]، فلا تَقْصِدْ بعبادتِك إِلَّا ابتغاءَ وجهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧].

فمَنْ أَشْرَكَ مَعَ اللهِ أحدًا فإن عبادتَه باطلةٌ لا تَنْفَعُه، ولا تُقبلُ منه، ودليلُ هَذَا

قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

وفي الحَديثِ القدسيِّ أن اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَالَ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**»[١]. والشركاءُ كلُّ واحدٍ مُفْتَقِرٌ لشريكِه، أَرَأَيْتَ لو كانَ بَيْنَك وَبَيْنَ فُلَانٍ دارٌ هل يمكنُ أن تبيعَ الدارَ كُلَّها بدونِ إذنِ الشريكِ؟ وهل يمكنُ أن تَعْمُرَ فيها شيئًا بدونِ إذنِ الشريكِ؟ لا، أما اللهُ عَزَّوَجَلَّ فهو أَغْنَى الشركاءِ عن الشركِ، يقولُ عَزَّوَجَلَّ فِي آخرِ الحَديثِ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» لأنَّ اللهَ غَنِيٌّ عن العَالَمِينَ كُلِّهم، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر:٧].

وفي الحَديثِ القدسيِّ: «**يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**»[٢]. فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غَنِيٌّ.

إذن كلُّ عبادةٍ أَشْرَكَ الإِنْسَانُ فيها مَعَ اللهِ غيرَه فهي باطلةٌ مردودةٌ، لا تنفعُ صاحبَها، حتَّى لو كانَ فِي جوارحِه مِنْ أَحْسَنِ ما يكونُ، فإنَّها لا تُقبلُ، ومن ذلك الرياءُ؛ فلو أنَّ الإِنْسَانَ رَأَى النَّاسَ حَوْلَه فقَامَ يُصَلِّي من أجلِ أنْ يَقولَ النَّاسُ: هَذَا رجلٌ عابدٌ فلا تُقبلُ صلاتُه؛ لأنه أَشْرَكَ مَعَ اللهِ، فقد صَلَّى رِياءً لِيَمْدَحَه النَّاسُ لا لِيُثِيبَه اللهُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

وآخرُ أَنْفَقَ فِي الجهادِ لِيَقُولَ النَّاسُ: إنَّ الرجلَ كريمٌ، فلا تُقْبَلُ هَـذِهِ النفقةُ؛ لأنها فَقَدَت الإخلاصَ، فكأنما عَمِلَ للناسِ.

ومَن قاتلَ حَمِيَّةً لقومِه فلا نقولُ: هَذَا الرجلُ يُقْبَلُ جهادُه؛ لأنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ سُئِلَ عن الرجلِ يقاتلُ شجاعةً ويقاتلُ حميةً ويقاتلُ رياءً، أيُّ ذلك فِي سبيلِ اللهِ؟ قالَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[1]. إذن لا بُدَّ مِنَ الإخلاصِ.

الشَّرط الثَّاني الَّذِي لا بُدَّ منه: المتابعةُ لرسولِ اللهِ ﷺ؛ أن تعملَ العبادةَ تَعْتَقِدُ أن إمامَك فيها مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ، مُتَأَسِّيًا به راجيًا أن تحشرَ فِي زُمْرَتِه، وأن تدخلَ فِي شفاعتِه، وأن تشربَ من حَوْضِه.

اللَّهُمَّ احْشُرْنَا فِي زُمْرَةِ نَبِيِّكَ، اللَّهُمَّ احْشُرْنَا فِي زُمْرَةِ نَبِيِّكَ، اللَّهُمَّ احْشُرْنَا فِي زُمْرَةِ نَبِيِّكَ، واسْقِنَا مِنْ حَوْضِه، وأَدْخِلْنَا فِي شفاعتِه.

فتكونَ مُتَّبِعًا للرَّسُولِ ﷺ لا مُتَعَبِّدًا بهـواك، فانْظُرْ إذا أَرَدْتَ أن تفعلَ عبادةً هل الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فَعَلَها أو لا، فإن قيل: فَعَلَها، فَافْعَلْهَا، وإن قيل: لم يَفْعَلْها، فلا تَفْعَلْها، حتَّى لو رَاقَتْ لِنَفْسِكَ، حتَّى لو رَأَيْتَ فيها رِقَّةَ قَلْبٍ وخشوعَ جَوَارِحَ؛ لأنَّ الشيطانَ ربما يُزَيِّنُ لك شيئًا فِي عبادةٍ بِدْعِيَّةٍ فتقولُ: هَذِهِ مِنْ أَحْسَنِ ما يكونُ، هَذِهِ رَقَّ لها قلبي وَصَفَتْ لها نَفْسِي فأَفْعَلُها. نقولُ: لا تفعلْ، هل فَعَلَها الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أو لا؟ هَذَا هُوَ الميزانُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالما جالسا، رقم (١٢٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠٤).

ولهذا كانَ رسولُنا صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وهو أَنْصَحُ الخلقِ لعبادِ اللهِ، وأعلمُ الخلقِ بشريعةِ اللهِ، وأَفْصَحُ الخلقِ مَقَالًا كانَ يومَ الجُمُعَةِ يقولُ: «**أَمَّا بعدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا**». اللهُ أكبرُ، كُلُّ محدثةٍ فهي شَرُّ الأمورِ، هي شَرُّ الأمورِ وإن ظَنَنْتَها خَيْرًا، «**وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ**» وكُلُّ محدثةٍ يعني فِي الدِّينِ، أَمَّا فِي أمورِ الدُّنيا فأمورُ الدُّنيا للدُّنيا، لكنَّ كُلَّ محدثةٍ فِي الدِّينِ يعني كُلَّ شَيْءٍ يُحْدِثُه الإِنْسَانُ يَتَقَرَّبُ به إِلَى اللهِ وَلَمْ يَكُنْ فِي شريعةِ اللهِ فهو بِدْعَةٌ، «**وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[1] فلو قالَ قائلٌ: إنَّ بَعْضَ عُلَمَائِنا قَسَّمَ البِدَعَ إِلَى خَمْسَةِ أقسامٍ، وبعضُهم إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ، حتَّى قالَ بعضُهم: إنَّ مِنَ البِدَعِ مَا هُوَ وَاجِبٌ.

قلنا: كَلَّا واللهِ، واللهِ لا نُقَسِّمُ شَيْئًا وَصَفَه النَّبِيُّ ﷺ وَصْفًا شُمُولِيًّا بأنه بِدْعَةٌ، لَنْ نُقَسِّمَه إِلَى بِدْعَةٍ حسنةٍ وبِدْعَةٍ سيئةٍ، وهو يقولُ: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

انْتَبِهْ يا أخي، لَا يَغُرَّنَّكَ زُخْرُفُ القولِ فِي بعضِ الكتبِ أبدًا، فأَنْتَ لَدَيْكَ كَلَامُ الرَّسُولِ ﷺ، وهو أَعْلَمُ الخلقِ بِلَا ارْتِيَابٍ، وأَنْصَحُ الخلقِ بِلَا ارْتِيَابٍ، وأَفْصَحُ الخلقِ بِلَا ارْتِيَابٍ، فهل يمكنُ أن يُعلِنَ عَلَى المنبرِ يومَ الجُمُعَةِ فيقولَ: «**كُلّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» ثُمَّ نَأْتِي نَحْنُ مِنْ بَعْدِه ونقولُ: البدعُ أقسامٌ! إِنِّي سَائِلُكُمْ باللهِ هَلْ يُمْكِنُ هذا؟ واللهِ لا يُمْكِنُ أَبَدًا. ولهذا نقولُ: مَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةً وَاسْتَحْسَنَهَا فهي إِمَّا أَلَّا تكونَ بِدْعَةً، وإِمَّا أَلَّا تكونَ حسنةً.

انْتَبِهْ معي يا أخي، هَذِهِ قاعدةٌ مفيدةٌ فانْتَبِهْ لها: كُلُّ مَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةً فإِمَّا أَلَّا تكونَ بِدْعَةً وهو ظَـنَّ أنها بِدْعَةٌ، وإِمَّا أَلَّا تكونَ حسنةً وهو ظَـنَّ أنها حسنةٌ. هَذِهِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

قاعدةٌ مفيدةٌ لك يا طالبَ العلمِ، فاجْعَلْها فِي رأسِكَ، فكلُّ مَنِ ابْتَدَعَ فِي الدِّينِ بِدْعَةً وقالَ: إنَّها حسنةٌ، نقولُ له: إمَّا ألا تكونَ بِدْعَةً، وإمَّا ألا تكونَ حسنةً، أَمَّا أن تكونَ بِدْعَةً وحسنةً وإمامُنا وسيدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ يقولُ: «**كُلّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» فَهَذَا مستحيلٌ.

مَثَلًا لو قالَ قائلٌ: مُكَبِّرُ الصوتِ بِدْعَـةٌ، فما هُوَ معروفٌ فِي عهدِ الرَّسُـولِ ولا الصَّحَابَةِ، إذن هُوَ ضلالةٌ.

قلنا له: هَذِهِ وسيلةٌ، ووسائلُ المشروعِ مشروعةٌ، وأنا لَسْتُ أَتَعَبَّدُ للهِ عَزَّوَجَلَّ بهذا المُكَبِّرِ لأَنَّه مُكَبِّرٌ، لَكِنْ لأَنَّه يُوَصِّلُ إِلَى أمرٍ مشروعٍ، ولهذا لو أنَّ إِنْسَانًا وَضَعَ مُكَبِّرًا لِيُسمِعَنا أغنيةَ فُلَانٍ وفُلَانٍ، فإنه يكونُ حرامًا، فمرةً هو حلالٌ ومرةً حرامٌ ومرةً مشروعٌ، والآلةُ هِيَ الآلةُ، وكلُّ شيءٍ هُوَ نفسُه.

إذن مِنْ شَرْطِ صِحَّةِ العبادةِ اتِّباعُ رسولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وكُلُّ مَنِ ابْتَدَعَ فِي دِينِ اللهِ فهو ضَالٌّ فيما ابْتَدَعَ فيه، وعَمَلُهُ مَرْدُودٌ.

فإن قلتَ: ما الدَّلِيلُ عَلَى أنَّ العملَ الَّذِي لَيْسَ مِنْ شريعةِ اللهِ مردودٌ؟

قلنا: قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1]. وفي لفظٍ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، (١٧١٨). وذكره البخاري معلقًا: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الحدود، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، (١٧١٨).

فهناك أشياءُ يَتَعَبَّدُ بها بعضُ المُسْلِمِينَ ويَرَاهَا قُرْبَى، ويَنْشَرِحُ لها صَدْرُه ويَخْشَعُ لها قَلْبُه؛ مثلًا فِي أولِ جُمُعَةٍ من شَهْرِ رَجَبٍ بعضُ الناسِ يصلون اثنتي عَشْرةَ ركعةً بينَ المَغْرِبِ والعِشَاءِ، تُسَمَّى صَلَاةَ الرَّغَائِبِ، ويُصَلُّونَها بصفةٍ مخصوصةٍ، ويَتَعَبَّدُون للهِ بها مُخْلِصِينَ للهِ، فهل هَذِهِ الصَّلاةُ مقبولةٌ مشروعةٌ أو لا؟

إذا قُلْنَا: لا فَقَطْ فَقَدْ أَخطَأْنَا، فالأمرُ فيه تفصيلٌ؛ فنَعْرِضُ المسألةَ عَلَى القُرْآنِ والسنةِ، فهَذَا هُوَ العدلُ يا إخواني، فلا تَرُدَّ الشَّيْءَ هكذا جُزَافًا، قَالَ تعالى: ﴿**كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ**﴾ [النساء:١٣٥]، وقَالَ تعالى: ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا**﴾ [الأنعام:١٥٢].

نقولُ: عَلَى العينِ والرأسِ، نَحْنُ ما خُلِقْنَا إِلَّا للعبادةِ والقُرْبَى إِلَى اللهِ، ونَسْأَلُ اللهَ ألا يحرِمَنَا قُرْبَهُ، ولكنِ اقْرَأِ القُرْآنَ فلن تَجِدَ فيه صَلَاةَ رَغَائِبَ بكل تأكيدٍ، إذن لم يَدُلَّ عليها القُرْآنُ، واقْرَأِ السُّنَّةَ، فقد قَرَأْنَا السُّنَّةَ؛ البخاريَّ ومسلمًا والأصولَ الحَدِيثيةَ المعروفةَ عندَ أهلِ العلمِ المُتَلَقَّاةَ بالقبولِ فلم نَجِدْهَا، ومَنْ أَرَادَ أن يعرفَ أَنَّه لا أصلَ لهذه الصَّلاةِ فليقرأْ ما كَتَبَه الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي رسالةٍ صغيرةِ الحجمِ كبيرةِ المعنى: «تَبيين العجبِ بما وَرَدَ فِي فَضْلِ رَجَب»، فقد ذَكَرَ الحافظُ فيها أَنَّ حديثَها موضوعٌ باطلٌ لا يَصِحُّ عنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[1]، فإذا لم يَصِحَّ فتكونُ هـذه الصلاةُ بِدْعَةً، وقد قالَ النَّبِـيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كُلّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

نقولُ: يا أخي، لا تُكَلِّفْ نَفْسَكَ بشيءٍ لم يشرعْه اللهُ، فَأَرِحْ نَفْسَكَ، وعليك بما ثَبَتَ مِنَ الأمورِ المشروعةِ وَدَعْ عَنْكَ هَذَا.

---

(١) تبيين العجب بما ورد في فضل رجب، لابن حجر (ص:٣٤).

وهناك بعـضُ النَّاسِ يصومُ شهرَ رجـبٍ ويقولُ: إنه شهرٌ حرامٌ فله مزيَّـةٌ. فَيَصُومُه، والصَّوْمُ حبيبٌ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، حتَّى إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»[1]، فيصومُ بناء على ذلك شَهْرَ رَجَبٍ.

نقولُ: الصَّوْمُ مِنْ أفضلِ الأعمالِ لَا شَكَّ، لكنْ تَخْصِيصُكَ إِيَّاهُ بشهرِ رجبٍ نَنْظُرُ أَهُوَ بِدْعَةٌ أم لا؟ فنَعْرِضُ المسألةَ عَلَى القُرْآنِ والسنةِ، هَذَا هُوَ المـيزانُ العدلُ يا إخواني، فلا تَرُدَّ الشَّيْءَ هكذا جُزَافًا.

نقولُ: هل فِي القُرْآنِ أنَّ الأشهرَ الحُـرُمَ يُصامُ فيها؟ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦]، ولم يَقُلْ: فَصُومُوها. إذن، لَيْسَ فِي القُرْآنِ دلالةٌ عَلَى صومِ رَجَبٍ.

وبالنسبةِ للسنةِ هَلْ حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى صَوْمِ رَجَبٍ؟ لا، إنما حَثَّ عَلَى صَوْمِ المُحَرَّمِ؛ قالَ ﷺ: «**أَفْضَلُ الصِّيَام بَعْدَ رَمَضَانَ صِيَامُ شَهْرِ اللهِ المُحَرَّمِ**»[2]. ومَعَ ذلك لا يُصَامُ كُلُّهُ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يَصُمْ شهرًا كاملًا إِلَّا واحدًا، وهو رَمَضَانُ.

إذن لَا يُسَنُّ أَنْ نَخُصَّ شَهْرَ رَجَبٍ بِشَيْءٍ مِنَ الصِّيَامِ، ولا يَصِحُّ، وعندنا دليلٌ: «**كُلّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

إذن يا أخي أَرِحْ نَفْسَكَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب: هل يقول: إني صائم إذا شتم، رقم (١٩٠٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم، رقم (١١٦٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم، رقم (١١٦٥).

ويقولون أيضًا: إنَّ معراجَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى السماواتِ كانَ فِي رجبٍ. ويُحَدِّدُونَ اللَّيْلَةَ فِي سبعٍ وعشرينَ مِنْ رَجَبٍ.

فهل الاحتفالُ بالمعراجِ ليلةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ بِدْعَةٌ أو غَيْرُ بِدْعَةٍ؟

إن قَالَ أَحَدٌ: بِدْعَةٌ، مِنْ غَيْرِ أن يَزِنَهَا بالميزانِ فقد أَخْطَأَ، وإن قَالَ: غَيْرُ بِدْعَةٍ، قُلْنَا: أَخْطَأْتَ.

وَضَرْبُ الأمثالِ هُنَا لَيْسَ خَاصًّا بِشَهْرِ رَجَبٍ، بَلْ أَقُولُ: كُلُّ عِبَادَةٍ يَتَعَبَّدُ بها الإِنْسَانُ إِلَى اللهِ لَا بُدَّ أَنْ نَزِنَهَا بالميزانِ؛ فَالأَصْلُ فِي العباداتِ المنعُ، فيَحْرُمُ أَنْ يَشْرَعَ الإِنْسَانُ أي عبادةٍ إِلَّا بإذنِ اللهِ، أي: بشرعِ اللهِ، ونحنُ نريدُ أن نَتكَلَّمَ بمعقوليةٍ وبأدبيةٍ مَعَ اللهِ ورسولِه، فلا نَتَقَدَّمُ عَلَى اللهِ ورسولِه إِنْ شَاءَ اللهُ إِلَى المماتِ.

فهل ثَبَتَ أنَّ ليلةَ المعراجِ ليلةُ سَبْعٍ وعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ؟ ابنُ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ ادَّعَى الإجماعَ عَلَى أنها فِي ربيعٍ الأولِ، وَقَالَ: لَيْسَتْ فِي رَجَبٍ. فإجماعُ المؤَرِّخِينَ أنها فِي ربيعٍ الأولِ، ولَكِنَّ ابنَ حَجَرٍ تَعَقَّبَه فِي هذا، وقَالَ: دَعْوَى الإجماعِ غيرُ صحيحةٍ؛ لأنَّ فيها خلافًا؛ فمنهم مَن قالَ: فِي ربيعِ الأولِ، أو فِي ربيعِ الآخرِ، أو فِي رَمَضَانَ، أو فِي رَجَبٍ[1]. لَكِنْ مَعَ ذلك لَمْ تَثْبُتْ فِي أيِّ ليلةٍ بسندٍ صحيحٍ تَطْمَئِنُّ إليه النفسُ، فَكُلُّ الآثارِ الواردةِ فيها مختلفةٌ لم تَتَّفِقْ عَلَى شَهْرٍ، ولا عَلَى يومٍ بِعَيْنِه، وكُلُّها أيضًا مُنْقَطِعَةُ السَّنَدِ. ومِنْ شرطِ صحةِ الحَدِيثِ اتصالُ السندِ.

وهذا يَدُلُّكَ عَلَى أنَّ السلفَ الصَّالِحَ لا يَعْبَؤُونَ بها، وتمرُّ عليهم وكأنَّها لَيْسَتْ بِشَيْءٍ؛ لأَنَّهم لو كانوا يَعْبَؤُونَ بها ويعرفُونَها لكانت معلومةً عندهم، ولَتَوَاتَرَ النقلُ بها.

---

(١) انظر فتح الباري لابن حجر (٧/ ٢٠٣).

إذن لَيْلَةُ الإسراء والمعراج لم تَثْبُتْ مِنَ الناحيةِ التاريخيةِ فِي رجبٍ ولَا فِي شَهْرٍ مُعَيَّنٍ، وهَذِهِ كُتُبُ العُلَمَاءِ والمؤرخينَ بَيْنَ أَيْدِينَا، حتَّى ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذَكَرَ فيها عَشَرَةَ أقوالٍ، وشَيْءٌ كهذا لا يُمْكِنُ أن يثبتَ مَعَ عَدَمِ وُجُودِ دَلِيلٍ يُعَيِّنُ.

إذن لا نؤمنُ بأنها ليلة سبعٍ وعشرين من رجبٍ، وهذا من الناحيةِ التاريخيةِ، أما من الناحيةِ العمليةِ التعبديةِ فلْنفرضْ أنها ثبتتْ فِي ليلةِ سبعٍ وعشرين من رجبٍ أو ليلةِ اثنتي عَشْرَةَ من ربيعٍ الأولِ، لنفرضَ أنها ثبتت؛ هل لنا أن نَشْرَعَ فيها عباداتٍ لم يَشرَعْها اللهُ ورسولُه؟ أبدًا، لَيْسَ لنا هذا.

وعلى هَذَا فلا احتفالَ بليلةِ سبعٍ وعشرين من رجبٍ، وأقول هَذَا إبراءً للذمَّةِ، وإصلاحًا للأمةِ، وإقامةً للملةِ، فأنا لا أحب أن إخواني المُسْلِمِينَ يتعبدون للهِ بما لم يَشرَعْه، ويُتعِبون أنفسهم، ويُتلِفون أموالَهم عَلَى غيرِ هُدًى، وإذا كانَ فِي قلوبنا تعظيمُ اللهِ ورسولِه، وهذا واجبٌ، فمن تعظيمِ اللهِ ورسولِه ألا نتجاوزَ ما شَرَعَه اللهُ ورسولُه.

إذن لا داعيَ للاحتفالِ، ونقولُ: ليلةُ المعراج بالنِّسْبَةِ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ هِيَ أشرفُ ليلةٍ، لكنْ بالنِّسْبَةِ لِلْأُمَّةِ لا، فأشرفُ ليلةٍ بالنِّسْبَةِ للأمةِ هِيَ لَيْلَةُ القَدْرِ، وهذا شيءٌ واضحٌ.

قلنا هَذَا استطرادًا لقولِنا: إن من شرطِ العبادةِ المتابعةَ للرَّسُولِ ﷺ. سُبْحَانَ اللهِ! أينَ أبو بكرٍ، أين عمرُ، أين عثمانُ، أين عليٌّ، أين خلفاءُ المُسْلِمِينَ فِي صدرِ الأُمَّةِ عن هَذِهِ اللَّيْلَةِ! أتَخْفَى عليهم وتَبِينُ لنا، أو نكونُ نَحْنُ أطوعَ للهِ منهم! لا واللهِ، لا هَذَا ولا هَذَا.

أَرْجُو من إخواني طلبةِ العلمِ أن يُبَيِّنُوا ذلك لشعوبهم وأن يقولوا: يا قَوْمَنا، العبادةُ محترمـةٌ نازلةٌ من عندِ اللهِ، فـما نَزَلَ من عندِ اللهِ قَبِلْنَاه، وما لـم يَنْزِلْ رَدَدْنَاه «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، هَكَذَا قالَ إمامُنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وشَهْرُ رَجَبٍ أَحَدُ الأَشْهُرِ الأربعةِ الحُرُمِ، وهي شَهْرُ اللهِ المُحَرَّمُ، ورجبٌ، وذو القَعْدَةِ، وذو الحِجَّةِ، ثَلَاثَةٌ منها متواليةٌ؛ وهي: ذو القَعْدَةِ، وذو الحِجَّةِ، ومُحَرَّمٌ، وواحدٌ منفردٌ وهو رجبٌ. حُرِّمَتْ لأنَّ النَّاسَ يَحُجُّونَ ويَعْتَمِرُونَ، فالحجُّ يحتاجُ إِلَى ذَهَابٍ وإِيَابٍ وبقاءٍ فِي مَكَّةَ، قَالُوا: الشهرُ الَّذِي قبلَ ذي الحِجَّةِ للذهابِ، وشهرُ ذي الحِجَّةِ لأداءِ النسكِ، وشهرُ مُحَرَّمٍ للإيابِ، هَذِهِ ثلاثةُ أشهرٍ يَحْرُمُ فيها القتالُ ويَأْمَنُ فيها النَّاسُ، حتَّى إن الواحدَ من العربِ يشاهدُ قاتلَ أبيه فِي هَـذِهِ الأشهرِ ولا يَقْتُلُه، ثمَّ إن العربَ لا يَعْتَمِرُونَ فِي أشهرِ الحجِّ، ولكن يعتمرون فِي رجبٍ لمصلحةٍ اقتصاديةٍ أو دينيةٍ، وإن كانَ دِينُهُمْ غَالِبُه غير مشروعٍ. إذن رجبٌ للاعتمارِ، والثَّلاثةُ المتواليةُ للحجِّ.

ولـم تبقَ سُنِّيَّةُ الاعتمارِ فِي رجبٍ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يعتمرْ فِي رجبٍ ولا نَدَبَ أُمَّتَه للاعتـمارِ فِي رجبٍ، فلم يَقُلْ: مَنِ اعْتَمَرَ فِي رجـبٍ له كَذَا وكَذَا، ولـم يعتمرْ هُوَ أيضًا فِي رجبٍ.

ولهذا لما حَكَى عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ اعتمرَ فِي رجبٍ رَدَّتْه عليه عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وقَالَتْ: يَرْحَمُ اللهُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا اعْتَمَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ عُمْرَةً إِلَّا وَهُوَ شَاهِدُهُ، وَمَا اعْتَمَرَ فِي رَجَبٍ قَطُّ[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العمرة، باب كم اعتمر النبي ﷺ، رقم (١٧٧٦).

ولا شَكَّ أن الصوابَ مَعَ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فالرَّسُولُ ﷺ لم يعتمرْ فِي رجبٍ. فهل حَثَّ الأُمَّةَ عَلَى الاعتمارِ فِي رجبٍ؟ أبدًا، فَتِّشُوا فِي الأحاديثِ، ما حَثَّ، بخلافِ رَمَضَانَ فَقَدْ حَثَّ عَلَى العُمْرَةِ فِي رَمَضَانَ وقالَ ﷺ: «**إِنَّ عُمْرَةً فِيهِ تَعْدِلُ حَجَّةً**»(١). وفي بعضِ الألفاظِ: «**عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً مَعِي**»(٢). وهو نفسُه -صَلَوَاتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ- اعْتَمَرَ كُلَّ عُمَرِهِ فِي أَشْهُرِ الحجِّ(٣).

بَقِيَ أن يُقَالَ: إنه ثَبَتَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الخطابِ وعَنِ ابْنِهِ عبدِ اللهِ وعن جماعةٍ من الصَّحَابَةِ الاعتمارُ فِي شهرِ رجبٍ(٤)، وقد أُمِـرْنَا بِاتِّبَاعِ الخلفاءِ الراشدينَ، ومنهم عمرُ بنُ الخطابِ، فيقالُ: إنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرَادَ ألا يَبْعُدَ عهدُ المُسْلِمِينَ بالبيتِ، يعني لو قيلَ للناسِ: لا يوجدُ إِلَّا الحجُّ فِي أَشْهُرِه؛ بَقِيَ البيتُ شِبْهَ مَهْجُورٍ، لا سِيَّمَا فِي الزمنِ الأولِ قبلَ وفورِ هَذِهِ المواصلاتِ، فقد كانَ النَّاسُ لا يأتون إِلَّا بِشِقِّ الأنفسِ إِلَى مَكَّةَ، فأرادَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألا يَبْعُدَ اتصالُ المُسْلِمِينَ بالبيتِ الحرامِ، وقال: حُجُّوا فِي أشهرِ الحجِّ، واعتمروا فِي رجبٍ؛ لأنَّ شهرَ رَجَبٍ نصفُ السنةِ، وشهر ذي الحِجَّةِ فيه الحجُّ، ثم محرمٌ، ثم صفرٌ، ثم ربيعٌ الأولُ، ثم ربيعٌ الثاني، ثم جُمَادَى الأُولَى، ثم جُمَادَى الآخِرةُ، هذه ستةٌ عندَ تمامِ نصفِ السنةِ، ثم يأتي شهرُ العُمْرَةِ؛ حتَّى يكونَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب فضل العُمْرَة في رمضان، رقم (١٢٥٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أبواب العمرة، باب العمرة في رمضان، رقم (١٦٩٠)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل العمرة في رمضان، رقم (١٢٥٦) ولفظ مسلم: «عمرة في رمضان تقضي حجة أو حجة معي».

(٣) أخرجه البخاري: كتاب العمرة، باب كم اعتمر النبي ﷺ، رقم (١٧٨٠)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان عدد عمر النبي ﷺ وزمانهن، رقم (١٢٥٣).

(٤) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، للمتقي الهندي (٥/ ٦١١)، والبداية والنهاية، لابن كثير (١٠/ ٤٧).

اتصالُ المُسْلِمِينَ بالبيتِ الحرامِ فِي آخرِ السنةِ، وفي وسطِ السنةِ.

على كلِّ حالٍ هَذَا رأيٌ جَاءَ عَنِ اجتهادٍ، والشَّيْءُ بالشَّيْءِ يُذْكَرُ؛ فِي الأزمنةِ الأخيرةِ شَرَعَ بعضُ النَّاسِ زيارةَ المَسْجِدِ النَّبوِيِّ فِي رجب، يقولُ: ينبغي أن يزورَ النَّاسُ المَدِينَةَ فِي رجبٍ، ويُسَمُّونَهَا الرَّجَبِيَّةَ، يعني نسبةً إِلَى رجبٍ، فيقالُ: إنَّ زيارةَ المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ من الأعمالِ الصَّالحةِ بلا شَكٍّ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، ومَسْجِدِي هَذَا، والمَسْجِدِ الأَقْصَى**»[1]. أَسْأَلُ اللهَ أن يُطَهِّرَه مِنَ اليهودِ الغَاصِبِينَ، وأن يَلْعَنَهم اللعائنَ المتتابعةَ إِلَى يوم القيامةِ.

ولقصةِ المَسْجِدِ الأَقْصَى طولٌ لا يَتَّسِعُ المقامُ لذكرِه، لَكِنَّنِي أَسْأَلُ اللهَ تعالى فِي أن يُنْقِذَه من أَيْدِي المُعْتَدِينَ الظَّالمِينَ الغَاشِمِينَ اليهودِ.

فلا شَكَّ أنَّ زيارةَ المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ من أفضلِ الأعمالِ، لكنْ تكونُ فِي أيِّ وقتٍ، فهي غيرُ محددةٍ، ففِي أيِّ وقتٍ شئتَ زرتَه؛ فِي أولِ السنةِ، وفِي آخرِها، وفِي أَوْسَطِها كما تَشَاءُ، فتزورُ المَسْجِدَ النَّبَوِيَّ وتُصَلِّي فيه ما شَاءَ اللهُ، ولاحِظُوا أن بعضَ النَّاسِ يقولُ: لا بُدَّ أن تُصَلِّيَ فيه أَرْبَعِينَ صلاةً، ولا يَلْزَمُ الزائرَ أن يجلسَ ولا خمسَ صَلَوَاتٍ، المهمُّ أن أَبْقَى فِي المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ ما شَاءَ اللهُ وأَزُور قَبْرَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وقَبْرَيْ صَاحِبَيْه، وهم فِي مكانٍ واحدٍ، وأَزُور كذلك البَقِيعَ؛ لأنها مقبرةُ الصَّحَابَةِ، وأَخُص من ذلك قَبْرَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو معروفٌ مشهورٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم (١١٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد، رقم (١٣٩٧).

وبعدَ ذلك نَزُورُ مَسْجِدَ قُبَاء، فيخرجُ الإِنْسَانُ مُتطَهِّرًا مِنْ بَيْتِه، وإذا خَرَجَ مُتطَهِّرًا مِنْ بَيْتِه وصَلَّى فيه مَا شَاءَ اللهُ رَكْعَتَيْنِ أو أكثرَ فكَأَنَّما أَدَّى عُمْرَةً[1]، انْظُرْ إِلى فضائلِ الأعمالِ. سُبْحَانَ اللهِ العظيمِ، إن بعضَ العَمَلِ اليسيرِ يَعْدِلُ عَمَلًا كثيرًا، فمثلًا سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ.

إذن المَسْجِدُ النَّبَوِيُّ، والقُبُورُ الثَّلاثةُ المشرفةُ، والبَقِيعُ، وقُبَاءٌ، هَذِهِ أربعةٌ، والخامسُ شُهَدَاءُ أُحُدٍ، وعلى رَأْسِهم أسدُ اللهِ وأسدُ رَسُولِه حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَيِّدُ الشهداءِ، فتزورُ هَؤُلاءِ، ولكنْ ماذا تقولُ فِي الزيارةِ؟

أما النَّبِيُّ ﷺ فتُسَلِّمُ عليه بأفضلِ صيغةٍ فِي السَّلامِ عَلَّمَنا إياها هُوَ ﷺ، وهي: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ**»[2]. وإنْ زِدْتَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ» إِلَى آخِرِه فهذا طيبٌ.

أما أبو بكرٍ فتقولُ: السَّلامُ عَلَيْكَ يا خليفةَ رسولِ اللهِ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه، اللَّهُمَّ ارْضَ عنه واجْزِهِ عن أُمَّةِ مُحَمَّدٍ خَيْرًا. وعمرُ كذلك، لكن لا تقلْ: يا خليفةَ رسولِ اللهِ، بل قل: يا أميرَ المُؤْمِنِينَ؛ كما لَقَّبَه الصَّحَابَةُ، وهو خليفةُ الخليفةِ، وعثمانُ خليفةُ خليفةِ الخليفةِ، وعَلِيٌّ خليفةُ خليفةِ خليفةِ الخليفةِ، رضي الله عنهم أجمعين.

أما البَقِيعُ فتسلمُ عليهم بما كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُسَلِّمُ: «**السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ**

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، رقم (٣٢٤)، والنسائي: كتاب المساجد، باب مسجد قباء والصلاة فيه، رقم (٦٩٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، رقم (١٤١١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢).

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ»[1]. وكذلك شهداءُ أُحُدٍ.

وهَذِهِ الزياراتُ لَيْسَتْ مخصوصةً فِي رجبٍ، ولا فِي رَمَضَانَ، ولا فِي شوالٍ، بل فِي أي وقتٍ يأتي بك المسيرُ إِلَى هَذِهِ المَدِينَةِ الطيبةِ؛ المَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ.

نعودُ إِلَى تفسيرِ الآيةِ بعدَ أن بَيَّنَّا ما سَاقَنَا اللهُ تعالى إليه، وأَرْجُو اللهَ تعالى أنْ يكونَ فيه خيرٌ:

قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أَمْرٌ وَنَهْيٌ، أمرٌ بالعبادةِ، ونهيٌ عن الشركِ، وهذا يعني الإخلاصَ.

ثم قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فأين حقُّ الرَّسُولِ؟ وأين شهادةُ أنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ؟ قد يتساءلُ الإِنْسَانُ؛ لأنَّ اللهَ ذَكَرَ حقَّه ثُمَّ حَقَّ الوَالِدَيْنِ.

نقولُ: لأنَّ حقَّ اللهِ لا يتمُّ إِلَّا بالوفاءِ بحقِّ الرَّسُولِ ﷺ؛ لأنَّ العبادةَ لا بُدَّ لها من متابعةٍ، والمتابعةُ هِيَ مُقْتَضَى شهادةِ أنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ.

إذن نقولُ: إن حقَّ الرَّسُولِ ﷺ مذكورٌ ضِمْنَ قولِه: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ لأَنَّه لا يمكنُ أن تَتِمَّ عبادةُ اللهِ إِلَّا باتباعِ الرَّسُولِ ﷺ، ولا يمكنُ اتباعُه إِلَّا بأنْ تَشْهَدَ أَنَّه رسولُ اللهِ ﷺ؛ لأنَّ شهادةَ أنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ تصديقٌ فيما أَخْبَرَ، وامتثالٌ لما عنه نَهَى وزَجَرَ، وألا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بما شَرَعَ.

قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الوالدانِ: الأمُّ والأبُ، وأَحَقُّهما بحسنِ الصحبةِ الأمُّ؛ لأَنَّه جاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (٩٧٤).

قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ»[1].

وإنما قَدَّمَ الأمَّ بحسنِ الصحبةِ، لأنَّ الأمَّ تَكَلَّفَتْ أكثرَ ممَّا يتكلَّفُ الأبُ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان:١٤]، وقال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف:١٥]، ثمَّ حَضَانَتُه بعدَ ذلك؛ فتَسْهَرُ لِسَهرِكَ، وتَتْعَبُ لرَاحَتِكَ، وتَتَجَشَّمُ الليالِيَ الباردةَ الطويلةَ مِنْ أَجْلِ رَاحتِكَ.

والأبُ لا شَكَّ أنَّه يَتَأَلَّمُ بمثلِ ما يُؤْلِمُكَ لَكِنَّهُ لَيْسَ كالأمِّ.

ولو سَأَلَ سَائِلٌ: كيفَ الإحسانُ للوَالِدَيْنِ؟

أقولُ: معاملةُ الإِنْسَانِ لِوَالِدَيْه ثلاثةُ أقسامٍ:

القسم الأوَّل: أن يسيءَ المعاملةَ، وهذا عُقُوقٌ.

القسم الثَّاني: أن يحسنَ المعاملةَ، وهذا بِرٌّ.

القسم الثَّالِثُ: أن يكونَ سلبيًّا لا يحسنُ ولا يسيءُ، فهَذَا عَصَى الأمرَ بالإحسانِ إليهم، لَكِنْ هل فِعْلُه هذا عُقُوقٌ؟ قد نَقُولُ هذا؛ لأنَّكَ أُمِرْتَ بالإحسانِ فكيفَ لا تُحْسِنُ!

واعْلَمْ يا أخي أن عقوقَ الوالِدَيْنِ مِنْ كَبَائِرِ الكبائرِ، قالَ أبو بَكرةَ الثَّقَفِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ، أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ**». انْظُرْ إلى حُسْنِ الأسلوبِ والإلقاءِ، يعني ما أَخْبَرَ مباشرةً، إنَّما قَالَ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ**» تَنْبِيهًا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب: من أحق الناس بحسن الصحبة، رقم (٥٦٢٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم (٢٥٤٨).

للإِنْسَانِ حتَّى يَحْضُرَ ذِهْنُه وقَلْبُه ويكونَ قَلْبُه حَاضِرًا وجِسْمُه حاضرًا، لَيْسَ كبعضِ النَّاسِ يَحْضُرُ الجسمُ والقلبُ غَائِبٌ.

قَالَ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّمَ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**» ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ**». وهذا أكبرُ الكبائرِ، وأَظْلَمُ الظُّلْمِ أن تجعلَ للهِ نِدًّا وهو خَلَقَكَ، «**وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ**» وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: «**أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ**». قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ[1].

إذن عقوقُ الوَالِدَيْنِ مِنَ الكبائرِ.

ثُمَّ اعْلَمْ أَيُّها الابنُ أَنَّكَ سَتُعَامَلُ من أولادِك بمثلِ ما تُعَامِلُ به وَالِدَيْكَ، هَذَا هُوَ الغالبُ؛ إنْ بَرَرْتَ بِهِمَا بَرَّ بِكَ أَبْنَاؤُكَ وَبَنَاتُكَ، وإنْ كانت الأُخْرَى عَقَّكَ أَبْنَاؤُك وبَنَاتُكَ، ولهذا عندنا فِي اللغةِ العاميةِ يقولون: إنَّ البِرَّ أَسْلَافٌ، يعني معناه أَنَّكَ إِذَا بَرَرْتَ أَبَاكَ كَأَنَّك سَلَّفْتَه وسَيُوَفِّيكَ، لَكِنْ هَذَا بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهذا صحيحٌ.

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء:٣٦]. ذَوُو القُرْبَى مَنْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُمْ صِلَةٌ بِوِلَادَةٍ، يعني يَرْبِطُكَ بهم ولادةٌ قريبةٌ أو بعيدةٌ، و(بِذِي القُرْبَى) أي: بصاحبِ القرابةِ، فالجَدُّ قريبٌ والعمُّ قريبٌ، والخالُ قريبٌ، وابنُ العمِّ قريبٌ، وابنُ الخالِ قريبٌ، وابنُ الأخِ قريبٌ، لَكِنَّهم عَلَى حَسَبِ القُرْبِ، يعني إحسانُك إِلَى الأقربِ آكَدُ من إحسانِك إِلَى الأبعدِ، لَكِنْ لِكُلِّ قريبٍ حَقُّه.

وصِلَةُ الرحمِ من أسبابِ صِلَةِ اللهِ للعبدِ؛ لأنَّ اللهَ تَكَفَّلَ بالرَّحِمِ أن يصلَ مَنْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، رقم (٢٥١١)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٨٧).

وَصَلَهَا، ويَقْطَعَ مَنْ قَطَعَها؛ كما جاءَ في الحديثِ: «**إِنَّ الرَّحِمَ شَجْنَةٌ**[١] **مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللهُ: مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ**»[٢].

فَصِلْ رَحِمَكَ يَصِلْكَ اللهُ، حتَّى جَاءَ فِي الحَدِيثِ «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[٣]. مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَبْسُطَ اللهُ له فِي رزقِه يَعْنِي يُوَسِّع، ويُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ يعني يُؤَخِّرُ أَجَلَهُ.

إذن، صِلَةُ الرَّحِمِ مِنْ أَسْبَابِ سَعَةِ الرزقِ وطـولِ العمُرِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا من الواصِلِينَ البَارِّينَ.

قال تعالى: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ اليتامى جمعُ يتيمٍ، وهو الَّذِي مَاتَ أَبُوه قبلَ أن يَبْلُغَ، والضميرُ فِي (يَبْلُغ) يعودُ عَلَى من مَاتَ أَبُوه قبلَ أن يبلغَ، فربما يقولُ بعضُ النَّاسِ: لماذا لا تُبَيِّنُ؟ ولماذا لا تقولُ: مَنْ مَاتَ أَبُوه قبلَ أن يَبْلُغَ هُوَ؟ أقولُ: ما الحاجةُ إلى ذلك، فالكلُّ يَعْرِفُ أَنَّ المرادَ بـ(قبلَ أَنْ يَبْلُغَ) الابنُ.

واليتيمُ الَّذِي مَاتَ أَبُوه قبلَ أَنْ يَبْلُغَ لا شَكَّ أَنَّه مِسْكِينٌ مُنْكَسِرُ الخاطرِ يحتاجُ إِلَى جَبْرٍ، فلهذا أَوْصَى اللهُ بِهِ.

أَمَّا مَنْ مَاتَتْ أُمُّه وأَبُوه موجودٌ فَلَيْسَ بيتيمٍ؛ لأَنَّ أَبَاه هُوَ الَّذِي يَأْتِي له بالرزقِ، ولهذا كانت النفقةُ تَجِبُ عَلَى الأبِ دونَ الأمِّ، فلو كانت الأمُّ عِنْدَها مَالٌ كثيرٌ، والأبُ عنده مالٌ لَكِنَّه أقلُّ مِنْ مَالِ الأمِّ فَعَلَى مَنْ تَجِبُ النفقةُ؛ أَعَلَى الأمِّ أَمْ عَلَى الأبِ؟

---

(١) شجنة: أي قرابة مشتبكة كاشتباك العروق. النهاية، لابن الأثير (شجن).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، رقم (٥٩٨٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم (٢٠٦٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٧).

نقولُ: عَلَى الأبِ، ولهذا كانَ مَنْ مَاتَ أَبُوهُ يَتِيمًا، ومَنْ مَاتَتْ أُمُّه لَيْسَ بيتيمٍ.

وإنما أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى بالإحسانِ إِلَى اليتامَى لأنَّهم قَدِ انْكَسَرَتْ قلوبُهم، فلا يجدونَ لَهُمْ أبًا كما يَجِدُ بقيةُ الصِّبْيَانِ، فَأَوْصَى اللهُ تعالى بهم خيْرًا.

قوله: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ جمعُ مِسْكِينٍ، وهم الفقراءُ؛ لأنَّهم مَحَلٌّ للرَّأْفَةِ والمُوَاسَاةِ، ولهذا جَعَلَ اللهُ لهم حظًّا مِنَ الزَّكَاةِ.

قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ الجارُ ذُو القُرْبَى يعني صَاحِبَ القَرَابَةِ، والجَارُ الجُنُبُ الَّذِي لَيسَ بَيْنَكَ وبَيْنَه قَرَابَةٌ، فالجارُ القريبُ مثلًا: إذا كَانَ لَكَ بيتٌ وإلى جَنْبِكَ أَخُوكَ، فنُسَمِّي هَذَا جَارًا ذَا قُرْبَى، والجَارُ الجُنُبُ إذا كَانَ لَكَ بَيْتٌ وَإِلَى جَارِكَ رَجُلٌ لا تَعْرِفُه ولا يَمُتُّ إِلَيْكَ بِصِلَةٍ، فهَذَا نُسَمِّيه جارًا جُنُبًا؛ أي: بعيدًا.

بَدَأَ اللهُ تعالى بالجارِ ذِي القُرْبَى لأنَّ الجارَ ذَا القُرْبَى له حَقَّانِ:

الحقُّ الأوَّلُ: القرابةُ، **والثَّاني**: الجوارُ، ويُبْدَأُ بالأهمِّ فالأهمِّ.

والجارُ له حقٌّ عَلَى جَارِه، فعَلَيْه أن يُكْرِمَه؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ**»[1]. حتَّى إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ**»[2]. إِلَى هَذَا الحدِّ، وقَالَ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار، والإحسان إليه، رقم (٢٦٢٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الوَصَاة بالجار، رقم (٥٦٦٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه رقم (٢٦٢٥).

فأَكْرِمِ الجارَ، وإِكْرَامُ كلِّ إِنْسَانٍ بما يَلِيقُ به، فإذا كانَ جَارُك فَقِيرًا فيُمْكِنُ أنْ تُكْرِمَه بإناءٍ من طعامٍ، وإذا كَانَ غَنِيًّا لو أَنَّك أَرْسَلْتَ إليه إناءً مِنْ طَعَامٍ لَعَدَّ ذلك إهانةً، لَكِنْ أَكْرِمْه بالهدايا الَّتِي تُهْدَى لِمِثْلِهِ، وإِيَّاكَ أنْ تُسِيءَ إِلَى جارِكَ؛ فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ**» قَالُوا: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ حَلَفَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ بِنَفْيِ الإيمانِ عَنْهُ، قَالَ: «**مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[١]. يَعْنِي غَشْمَه وظُلْمَه، وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أهميةِ الإحسانِ إِلَى الجارِ، وعدمِ الإساءةِ إليه.

وما رَأْيُك فِي رجلٍ له جارٌ وكَانَ يَرْفَعُ صَوْتَ المِذْيَاعِ بالأَغَانِي الَّتِي يَحْرُمُ اسْتِماعُهَا، أَيَكُونُ مُحْسِنًا إِلَى جَارِهِ أم مُسِيئًا؟

الجوابُ: يكونُ مُسِيئًا؛ لأنَّه أولًا يُلْجِئُه إِلَى سماعِ المُحَرَّمِ، وَثَانيًا: أَنَّه يُقْلِقُ رَاحَتَه بالأصواتِ، مَعَ أَنِّي أقولُ: إنَّ سَماعَ هذه الأصواتِ المحرمةِ لَيْسَ فيه إثمٌ، فالإثمُ فِي الاسْتِماعِ.

والفرقُ بينَ السماعِ والاستماعِ أنَّ المستمعَ الَّذِي يَقْصِدُ السماعَ وَيُنْصِتُ، فهَذَا مُشَارِكٌ للقائلِ فِي إِثْمِه، أَمَّا السامعُ فلا يَقْصِدُ الاستماعَ، فأنا جالسٌ فِي بيتي وجَارِي قد رَفَعَ صوتَ المِذْيَاعِ بالأغاني المحرمةِ ولا أستمعُ ولا أُرِيدُه، ولا أُنْصِتُ له، لَكِنْ هَذَا ربما فِي آخِرِ الأمرِ يستمعُ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الصاحبُ بالجَنْبِ قيل: إنه الزَّوْجةُ، والزَّوْجةُ لها حَقٌّ عَلَى الزَّوْجِ، وقيل: إنه الَّذِي يَصْحَبُكَ ويَسِيرُ مَعَكَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم (٦٠١٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، رقم (٤٦).

ذَاهِبًا وراجِعًا؛ لأَنَّه إِلَى جَنْبِك دائمًا.

ولو قالَ قائلٌ: إنَّ الآيَةَ تَشْمَلُ المَعْنَيَيْنِ لكانَ مُصِيبًا، وأَنَا أُعْطِي طلبةَ العلمِ الآنَ قاعدةً مفيدةً: إذا كَانَتِ الآيةُ القُرْآنيةُ أو الحَدِيثُ النَّبَوِيُّ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ أو يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ لا يُنَافِي أحدُهما الآخَرَ ولا مُرَجِّحَ لأحدِهما عَلَى الآخَرِ فالواجبُ حَمْلُها عَلَيْهِما جَمِيعًا؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يعلمُ ما يريدُ، وما دَامَ كَلَامُه محتملًا الأَمْرَيْنِ فهما حَقٌّ، والرَّسُولُ كذلك ﷺ يعلمُ ما يريدُ، وما دَامَ كَلَامُه محتملٌ لِلْمَعْنَيَيْنِ فهما حَقٌّ.

أَمَّا إذا كانَ أحدُهما يُنَافِي الآخَرَ فَلَا، فانْظُرْ للراجحِ، فمثلًا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨]، القُرُوءُ جَمْعُ قَرْءٍ بالفتحِ، قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: القُرُوءُ: الحَيْضُ، وقَالَ آخَرُونَ: القُرُوءُ: الأَطْهَارُ، فهنا لا يمكنُ أنْ نَحْمِلَ الآيَةَ عَلَى المعنيينِ؛ لأنَّ الطُّهْرَ يُنَاقِضُ الحَيْضَ، إذن نَطْلُب المرَجِّحَ.

وقَالَ بَعْـضُ العُلَمَاءِ فِي قولِه تعالَى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٧-١٨]؛ قَالَ: عَسْعَسَ يعني أَقْبَلَ. وقَالَ بعضُهم: عَسْعَسَ يعني أَدْبَرَ. واللفظُ من حيثُ قواعدُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ يَحْـتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ، فهل نَحمِلُها عَلَى المَعْنَيَيْنِ؟ نقولُ: نعم، فهي تَحْتَمِلُ المَعْنَيَيْنِ، يعني يكونُ أَقْسَمَ باللَّيْلِ حِينَ إِدْبَارِه وحِينَ إِقْبَالِه. فيجوزُ أنَّ اللهَ أَقْسَمَ بهما لأنَّ الإقبالَ حَالٌ والإدبارَ حَالٌ، ولا يوجدُ تَنَاقُضٌ.

لَكِنْ نقولُ: الَّذِي يُرَجَّحُ أنَّ المرادَ إقبالُ اللَّيْلِ؛ لأنَّ اللهَ قَالَ: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ فالصبحُ إذا تَنَفَّسَ هُوَ إدبارُ اللَّيْلِ، إذن نُرَجِّحُ أَنَّ المرادَ بقولِه تعالَى: ﴿إِذَا عَسْعَسَ﴾ إِذَا أَقْبَلَ؛ لأنَّ فِي إقبالِ اللَّيْلِ وإدبارِه آيةً عظيمةً مِنْ آياتِ اللهِ، فهل يستطيعُ أحدٌ أن يأتِيَ باللَّيْلِ إذا جاءَ النهارُ، أو بالنهارِ إذا جاءَ اللَّيْلُ؟ لا يمكنُ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ

أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١]. وقَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢].

فإذا كَانَت الآيةُ القُرْآنيةُ أو الحَدِيثُ النَّبوِيُّ يَحْتمِلُ المَعْنيَيْنِ ولا تَناقُضَ ولا مُرَجِّحَ فيَجِبُ أنْ يُحْمَلَ عَلَى المَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا. واللهُ أعلمُ.

قوله: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ابنُ السبيلِ هُوَ المسافرُ الَّذِي انْقَطَعَ به السَّفَرُ، فتَرَى رجلًا مُسَافِرًا لَيْسَ مِنْ أَهْلِ البلدِ، وتَعْرِفُ أَنَّه مُحْتَاجٌ إِلَى أُجْرَةٍ يَصِلُ بها إِلَى بلدِه، فَأَعْطِه، وإذا كان مُحْتَاجًا إِلَى طعامٍ، أو إِلَى شرابٍ، أو إِلَى كِسْوَةٍ، فَأَعْطِه؛ لأَنَّه فِي مَحَلِّ رَأْفَةٍ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الثالث:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وأُصلِّي وأُسلِّمُ على نبينا محمدٍ خاتَمِ النبيين وإمامِ المتقين، وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين، أما بَعْدُ:

فقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٤٣].

إذا قال اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، فهو نداءٌ للمُؤمِنين بوَصْفِهم مُؤْمنين، وهو في الحقيقةِ رُتْبةٌ عاليةٌ، أن يُوجِّه اللهُ إليكَ الخِطابَ بهذا الوصفِ العظيمِ، واعْلَمْ أنَّ الغالِبَ في السُّور المدنيةِ أنَّ النداءَ فيها يكونُ بوصفِ الإيمانِ، والسور المَكِّية بلفظِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

قال ابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا سَمِعْتَ اللهَ يقولُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فأَرعها سَمْعَك -أي: انْتَبِهْ لها واسْتَمِع- فإِمَّا خَيْرٌ تُؤْمَرُ به، وإمَّا شَرٌّ تُنْهَى عنه[1].

قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ أي: لا تَسْكَروا قُربَ الصلاةِ، والسُّكْرُ هو ذَهابُ العقلِ على وَجْهِ اللذةِ والطَّربِ، ويكونُ من شُربِ الخمرِ.

وقد ذكَرَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الخَمْرَ على أوجهٍ أربعةٍ:

الوجهُ الأول: ذكَرها على سبيلِ الإباحةِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦، رقم ١٠٣٧).

في قـولِه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧]، وهذا يعني الإباحةَ، وأنَّ ذلك من نِعْمةِ الله على العِبادِ.

الثاني: ذكَرَها على سبيلِ التَّعْريضِ بالتحريمِ.

في قولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]، ولا شكَّ أن العاقِلَ إذا عَلِم أن إِثْمَهما أكبرُ من نَفْعِهما، فإنه سوف يَجْتَنِبُها.

الثالث: ذكَرَها على سبيلِ المنعِ في قُربِ الصلاةِ.

في هذه الآيةِ: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾، وهذا يعني أنه يَجُوزُ أنْ تَشْرَب الخمرَ قبلَ قُربِ وقتِ الصلاةِ، وتُمْنَعَ عندَ قُربِ الصلاةِ.

الرابع: ذكَرَها على سبيلِ المَنْعِ المُطلَقِ في كلِّ وقتٍ.

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩٠-٩١]، والاستفهامُ هنا بمعنى الأمْرِ، أي: فانتهوا، فقال الصحابةُ: انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا[١].

وأجمَعَ المسلمون على تَحْـريمِ الخَمْرِ من أيِّ نوعٍ كانَ، سـواءٌ كان من العِنَبِ، أو من التَّمْرِ، أو من الشَّعـيرِ، أو من البُرِّ، أو من أَيِّ مَادَّةٍ كانتْ، فإنه مُحَـرَّمٌ بإجماع المسلمين. وقالوا أيضًا: مَن أنْكَرَ تحريمَ الخَمْرِ، وقد عاشَ بينَ المُسلمِينَ، فإنه كافرٌ مُرْتَدٌّ؛ لأنه أنْكَرَ شيئًا يُعْلَمُ بالضَّرُورةِ من الدِّينِ ثُبوتُه.

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة المائدة، برقم (٣٠٤٩).

وأمَّا مَن شَرِبها مُعْتقِدًا تحريمَها فإنه لا يَكْفُر، ولكنه يكونُ من جملةِ العُصاةِ، ويُعاقَب بالجلدِ، فإن عادَ مرةً أخرى عُوقِب بالجلدِ، فإن عادَ مرةً ثالثةً عُوقِبَ بالجلدِ، فإنْ عادَ مَرَّةً رابعةً وجَبَ قَتْلُه؛ كما دلَّت على ذلك السُّنةُ الصَّحيحةُ. وذلك أنه إذا كان يُعاقَبُ على الشُّربِ ثلاثَ مراتٍ ولا ينتهي صارَ عُضْوًا فاسدًا في المجتمعِ، لا يُمْكنُ أن يَبْقَى فيه فيُفْسِدَه، وصار قتلُنا إياه من مصلحةِ المُجتمعِ، ومن مَصلحتِه هو أيضًا؛ لأنه لو بَقِيَ مُدمنًا على الخمر لازدادَ بذلك إثمًا، فإذا قُتل كفَّ عن هذا الإثمِ، وأمْرُه إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

إِذَن شاربُ الخَمْرِ إذا أدْمَنَ عليه -مع كونِه يُعاقب عليه- فإنه يُقْتَلُ في الرابعةِ؛ لأن هذا لا ينتهي بدُون القَتلِ.

وقولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ يَحْتمِلُ أن تكونَ (حتى) للتعليلِ، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ للغايةِ، فإذا كانتْ للتعليلِ صار المعنى: لا تَقْرَبوا الصلاةَ وأنتم سُكارَى كي تَعْلَموا ما تقولون؛ لأن السَّكْران -والعياذُ بالله- لا يَعْلَمُ ما يقولُ. وإذا كانت للغايةِ فالمَعْنَى: لا تَقْرَبوا الصلاةَ حتى تَطْهُروا، ويَزُولَ عنكم السُّكْر، فتعلموا ما تَقولون.

و(حتى) تأتي في اللغةِ العربيةِ للغايةِ وللتعليلِ، ومثالُ مجيئِها للغايةِ قولُ بني إِسْرائيلَ لهارُونَ: ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ أي: على العِجْلِ ﴿عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٩١]، أي: إلى أن يَرْجِعَ إلينا مُوسَى. ومثالُها للتعليلِ: قولُ المُنافِقِينَ: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون:٧]، أي: كي يَنْفَضُّوا عنه إذا لم يَجِدُوا مَن يُنْفِقُ عليهم.

على كلِّ حالٍ الآيةُ التي معنا يَحْتمِلُ أنْ تكونَ للتعليلِ، ويَحْتمِلُ أنْ تكونَ للغايةِ.

وفي هذا دليلٌ على أنه يَنْبَغِي للمُصَلِّي أنْ يَبْتعِدَ عن كلِّ ما يُلْهيهِ عن صلاتِه؛ ولذلك صلَّى النبيُّ ﷺ بخَميصةٍ، وهي ثوبٌ مُخطَّط، فنظَرَ إليها نَظْرةً واحدةً في صلاتِه، فلمَّا انْصَرَفَ من صَلاتِه قال: «اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْمٍ، فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفًا عَنْ صَلَاتِي»[1]. وهي كِساءٌ غليظٌ لا يُلْهِي المُصَلِّي، فدلَّ ذلك على أنه يَنْبغِي للإنسانِ أن يَبْتعِدَ عن كلِّ ما يُلْهيهِ في صلاتِه.

فإن وجَدَ ما يُلْهيهِ عن صلاتِه، وغلَبَ ذلك على الصلاةِ أو أكثرِها، فقد اختلَفَ العُلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ هل الصلاةُ باطلةٌ أو لا؛ فمِنهم مَن يقولُ: إنها بَاطِلةٌ؛ لأن لُبَّ الصلاةِ ورُوحَ الصلاةِ هو الخُشوعُ، الذي هو حُضورُ القلبِ، فإذا صلَّى بدونِ حُضورِ قَلْبٍ فتلكَ صَلاةٌ لا رُوحَ لها، وإنما هي مُجَرَّدُ حَرَكاتٍ. وقالَ أكثرُ أهلِ العِلْمِ: إنَّ الصلاةَ لا تَبْطُلُ، ولو كانَ سَاهِيًا. واستدَلُّوا بقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ عن الشيطانِ: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ، وَلَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ المَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب إذا صلى في ثوب له أعلام ونظر إلى علمها، رقم (٣٧٣)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة في ثوب له أعلام، رقم (٥٥٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل التأذين، رقم (٦٠٨)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، رقم (٣٨٩).

وهذا يَدُلُّ على أنَّ الوَساوِسَ والهواجسَ في الصلاةِ لا تُبْطِلُها، ولكن بلا شَكٍّ تَنْقُصُها نَقْصًا عَظِيـمًا، ولهذا حَاوِلْ أخي المُسلِمَ إذا انفتح عليـك بابُ الهواجسِ وأنت تُصلِّي أن تَسُدَّه، وأن تُقْبِلَ على صلاتِك.

ويُستفادُ من هذهِ الآيةِ الكريمةِ أنَّ أقوالَ السكرانِ لا عِبْرَةَ بها، فلو أنَّ الإنسانَ سَكِرَ، وقال: إنَّ جَمِيعَ عَقاراتي وَقْفٌ لله. فإنَّ الوقفَ لا يَنْفُذُ؛ لأنه لا يَدْرِي ما يقولُ، ولو كان عندَه عَبِـيدٌ، وقال في حالِ السُّكْر: كلُّ عبيدي أحرارٌ. فإنه لا يَعْتِـقُ منهم أَحَدٌ.

ولو كانتْ له زوجةٌ فقالَ: زوجتي طالقٌ؛ لم تَطْلُقْ؛ لأنه لا يَدْرِي ما يقولُ. لكن في مسألةِ الطلاقِ قال كثيرٌ من أهـلِ العِلْمِ: إنها تَطْلُقُ عقوبةً له على السُّكْرِ، والرَّاجِحُ أنها لا تَطْلُقُ، ولكنْ يُعاقَبُ على سُكْرِه بما ذكرتُ أوَّلًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ أي: ولا تَقْرَبوا الصلاةَ جُنُبًا، ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾، قال المُفَسِّرونَ: معنى ذلك: لا تَدْخُلوا المَسْجِدَ الذي هو مَحَلُّ الصلاةِ جُنُبًا إلا عَابِرِي سَبِيلٍ، أي مُتجاوِزِينَ وأنتم على مِشْيَتِكم. فلو كانَ الإنسان جُنُبًا، وأراد أنْ يَحْضُرَ الدرسَ، وهو على جَنَابَتِه، قلنا: لا تَقْعُد؛ لأنه لا يَجوزُ للجُنُبِ أن يَمْكُثَ في المسجدِ، ولو قال: أنا أريدُ أن أَعْبُرَ من البابِ الجَنُوبِيِّ إلى البابِ الشَّمالِيِّ مَشْيًا؛ قلنا: لا بأسَ بذلكَ؛ لأن اللهَ قال: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾.

ويُسْتثنَى من ذلكَ إذا تَوَضَّأَ الجُنُبُ، فإذا تَوَضَّأ خَفَّتِ الجنابةُ، وجازَ أن يَجْلِسَ في المَسجِدِ.

ولا يَجوزُ للجُنُبِ أن يقرأ القرآنَ حتى يَغْتسِلَ؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ كانَ لا يَحْجُزُه عن القرآنِ شَيْءٌ إلا الجَنَابَةَ[1]؛ ولأنَّ الجُنُبَ يتمكَّن من أنْ يَغْتسِلَ ويقرأ، فإذا قال: أنا أُحِبُّ أنْ أقرَأَ القُرآنَ قلنا: مَرْحَبًا، اغْتَسِلْ واقرأ القرآنَ، أمَّا الحائضُ فلا يَحْرُمُ عليها قِراءةُ القُرآنِ، إذا كان ذلك لحاجةٍ؛ كامرأةٍ تَتعاهَدُ حِفْظَها، وتَخْشَى أنْ تَنْساهُ، وامرأةٍ مُعلِّمةٍ تُرِيدُ أنْ تُعَلِّمَ الطالباتِ القرآنَ، وامرأةٍ دارسةٍ تُرِيدُ أن تُسْمِعَ مُعَلِّمَتَها القرآنَ، فكلُّ هذا لا بأسَ به؛ لأنه حاجةٌ.

وأما قِراءةُ الحائضِ القرآنَ تَعَبُّدًا وتَطَوُّعًا به فلا؛ لأنَّ كثيرًا من العُلماءِ يقولونَ: إنَّ قِراءةَ الحائضِ القرآنَ حَرَامٌ بكلِّ حالٍ.

ولهذا كانتِ الحائضُ لا تَطوفُ بالبيتِ؛ لحديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أُمِرَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِمْ بِالبَيْتِ، إِلَّا أَنَّهُ خُفِّفَ عَنِ الحَائِضِ»[2]. فلا يَلْزَمها الطوافُ؛ وذلك لأنها لا يُمكِنُ أن تَمْكُثَ في المسجد، والطوافُ مُكْثٌ، فإنَّ الطائفَ يَدُورُ على الكَعْبةِ، ويَبْقَى مُدَّةَ دَورانِهِ ماكثًا في المَسْجِدِ.

ويَدُلُّ على هذا أنَّ النبيَّ ﷺ لما دخَلَ على عائشةَ وهي حائضٌ وجَدَها تَبْكِي، وكانت قَدْ أَحْرَمَتْ مُتَمَتِّعةً بعُمرةٍ، فقال لها: «**فَاقْضِي مَا يَقْضِي الحَاجُّ، غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالبَيْتِ**»[3]؛ لأنها حَائِضٌ، والحائضُ لا تَبْقَى في المسجدِ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في قراءة القرآن على غير طهارة، رقم (٥٩٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب طواف الوداع، رقم (١٧٥٥)، ومسلم: كتاب الحج، باب وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض، رقم (١٣٢٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب كيف كان بدء الحيض وقول النبي ﷺ: «**هَذَا شَيْءٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ**»، رقم (٢٩٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم (١٢١١).

ولأن النبيَّ ﷺ حين فرَغَ من الحَجِّ أراد من امرأتِه صَفِيَّةَ ما يُرِيدُ الرجُلُ من امرأتِه، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنها حَائِضٌ. فقال: «**عَقْرَى حَلْقَى، إِنَّكِ لَحَابِسَتُنَا، أَمَا كُنْتِ طُفْتِ يَوْمَ النَّحْرِ؟**». قَالَتْ: قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «**لَا بَأْسَ، انْفِرِي**»[1]؛ لأن الحائضَ لا يَجِبُ عليها طوافُ الوداعِ.

وعلى هذا إذا كانتِ المرأةُ مُعْتمِرةً في هذا الشهرِ، وطافتْ وسَعَت وقَصَّرت، ثم حاضَت، وأرادتِ الرُّجوع إلى بَلَدِها في حالِ حَيْضِها، فلا شيءَ عليها؛ لأن الحائضَ لا يَلْزَمُها طوافُ الوداعِ. وأمَّا إذا حاضَت قبلَ أن تَطوفَ الطوافَ الأولَ، فإنها تَنْتَظِرُ حتى تَطْهُرَ، ثم تَطوف وتَسْعَى وتُقَصِّر.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾. أي: إنْ كُنتم مَرْضَى، وخِفْتُم من استعمالِ الماءِ بالغُسلِ أو بالوُضوء، فتَيَمَّموا، أي: اقْصِدوا مكانًا طَيِّبًا طاهرًا من الأرضِ.

وكذلك لو كانَ الإنسانُ مُسافِرًا، فإنه لا يَلْزَمُه أن يُثْقِلَ نفسَه بحَمْلِ الماءِ، وإذا حانَ وقتُ الصلاةِ فإنه يَتيَمَّمُ، والتَّيمُّم رافعٌ للحَدَثِ، أي إنَّك إذا تَيمَّمْتَ عن وُضوءٍ أو عن غُسْلٍ، فكما لو تَوَضَّأْتَ واغْتسلْتَ. وعلى هذا فلا يَلْزَمُكَ أن تَتيَمَّمَ لوقتِ كلِّ صلاةٍ، فلو تيممتَ لصلاةِ الفَجْرِ، وبَقِيتَ على طهارتِك إلى صلاةِ الظُّهر،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب إذا حاضت المرأة بعدما أفاضت، رقم (١٧٦٢)، ومسلم: كتاب الحج، باب وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض، رقم (١٢١١).

فلا حاجـةَ إلى أن تُعِيدَ التيممَ، بل تُصَلِّي بالتَّيَمُّمِ السابقِ، لأن التَّيَمُّم مُطَهِّرٌ رافـعٌ للحَدَثِ.

ودليلُ هذا قولُ النبـي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»[1].

وأَمَّا قولُ بعضِ أهلِ العِلْمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ التَّيَمُّمَ ليسَ رَافِعًا، وإنه يَتَقَيَّدُ بالوقتِ؛ فهذا قولٌ ضَعِيفٌ، والدَّليلُ على خِلافِه. فإذا تَيَمَّمْتَ فكما لو تَطَهَّرْتَ بالماءِ، سواءٌ بسواءٍ، إلا إذا وَجَدْتَ الماءَ وأنت مُتَيَمِّم لعَدَمِ الماءِ؛ وجَبَ عليك استعمالُه، وهذا بالنصِّ والإجماعِ.

أما النصُّ ففي حديثِ عِمْرانَ بنِ حُصَيْنِ الطويلِ، الذي رواهُ البُخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قِصَّةِ الرَّجُلِ الذي وجَدَهُ النبيُّ ﷺ مُعْتَزِلًا لم يُصَلِّ مع النَّاسِ، فقال: «**مَا مَنَعَكَ يَا فُلَانُ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ القَوْمِ؟**». قَالَ: أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ -أي أنه أصابته جنابة ولا ماء عنده- فقال النبي ﷺ: «**عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ؛ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ**». والصَّعِيدُ: الأرضُ، ثم إنَّ الماءَ حَضَرَ إلى النبيِّ ﷺ وسَقَى الناسَ منه وَارْتَوَوْا، وبَقِيَ بَقِيَّةٌ، فقال للرجُلِ الذي كان تَيَمَّمَ: «**اذْهَبْ فَأَفْرِغْهُ عَلَيْكَ**»[2]. فأمره أن يَغْتسِلَ، مع أنه كانَ قد تَيَمَّمَ، لكن لما وجَدَ الماءَ بطَلَ التَّيَمُّمُ. ومن أمثلةِ العامَّةِ: إذا حَضَرَ الماءُ بَطَلَ التَّيَمُّمُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب الصعيد الطيب وضوء المسلم يكفيه من الماء، رقم (٣٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، رقم (٦٨٢).

وهناك دليلٌ آخرُ، وهو أن النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قال: «**الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ وَضُوءُ الْمُسْلِمِ وَلَوْ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ، فَإِذَا وَجَدْتَ المَاءَ فَأَمِسَّهُ جِلْدَكَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ**»[1].

إذَن التَّيمُّمُ يَرْفَعُ الحَدَثَ، لكن إذا وُجِدَ الماءُ بَطَلَ التيممُ، ووجَبَ عليه استعمالُ الماءِ.

وقولُه تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾، الوَجْهُ حَدُّه عَرْضًا من الأُذُنِ إلى الأُذُنِ، وطُولًا من مَنابِتِ الشَّعَرِ إلى أسفلِ اللِّحْيةِ. ولكنْ يَخْتَلِفُ الناسُ فيما يَخُصُّ مَنابِتَ الشَّعَرِ، فالناسُ منهم الأصلعُ ومنهم ذو الشَّعَرِ، لذا قال العُلماءُ: إنه يُعتبر المُعتادُ الغالبُ. لكنَّ بعضَهم حَدَّدَ الوَجْهَ بحَدٍّ آخَرَ فقال: حَدُّ الوجهِ من مُنْحنى الجَبْهةِ. ولم يَتقَيَّد بالشَّعَرِ، وهذا أقربُ؛ لأنه إذا تَجاوَزْنا مُنحنَى الجبهةِ تَزولُ المواجهةُ، والوَجْهُ مأخوذٌ من المُواجهةِ. وعلى هذا نَقولُ: حَدُّ الوجهِ من مُنْحَنَى الجبهةِ إلى أسفلِ اللِّحية طُولًا، ومن الأُذُن إلى الأُذُن عَرْضًا.

﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ المرادُ بالأيدي: الكفُّ؛ لأنَّ اليدَ إذا أُطْلِقَت فهي الكَفُّ، وهذه قاعدةٌ، وإن قُيِّدت بشيءٍ تَقَيَّدت به، ودليلُ هذا قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨]، والذي يُقْطَعُ من السارقِ الكَفُّ، فيكونُ قولُه تعالى: ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي: أَكُفّكم، ولا يَصِحُّ أنْ يُقاسَ على الوُضوءِ الذي يكونُ إلى المَرْفِقِ؛ لاختِلافِ الحُكْمِ بينَ التَّيمُّمِ والطَّهارةِ بالماءِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب الجنب يتيمم، رقم (٣٣٢)، والترمذي: كتاب الطهارة، باب التيمم للجنب إذا لم يجد الماء، رقم (١٢٤)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب الصلوات بتيمم واحد، رقم (٣٢٢).

ويَدُلُّ على أنَّ المرادَ بذلك الكَفُّ حديثُ عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقد أَرْسَلَه النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ في حَاجَـةٍ، فأَصَابَتْهُ جَنَابةٌ، فصار يَتَمَرَّغُ في التُّرَابِ كما تَتَمَرَّغُ الدابَّةُ؛ حتى يَعُمَّ الترابُ جميعَ بَدَنِه قياسًا على الغُسْلِ، لكن هذا القياس غَيْرُ صحيحٍ؛ ولهذا قال له النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَصْنَعَ هَكَذَا**» فَضَرَبَ بِكَفِّهِ ضَرْبَةً عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ نَفَضَهَا، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا ظَهْرَ كَفِّهِ بِشِمَالِهِ أَوْ ظَهْرَ شِمَالِهِ بِكَفِّهِ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ[1].

والتَّيَمُّمُ طهارةٌ مُخَفَّفةٌ؛ ولذلك لا تكـونُ إلا في مَوضِعَيْنِ من البَدَنِ: الوجـهِ والكَفَّيْنِ فَقَطْ، ويستوي فيها الحَدَثُ الأصغرُ والأَكْبَرُ.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ عَفوًّا: في التقصيرِ، غَفُورًا: في التفريطِ، أي: التَّجاوُزِ. عفوًّا: في مُقابِلِ تركِ الوَاجِبِ، غَفورًا: في مُقابِلِ فِعْلِ المُحَرَّمِ، فهو عَزَّوَجَلَّ شَامِلٌ بفَضْلِ المُذْنِبَ والمُقَصِّرَ، فالمُقَصِّرُ نقولُ له: إنَّ الله عَفُوٌّ. والمُذنِبُ نقولُ له: إن الله غَفورٌ. ولكن هذا ليس بحُجَّةٍ لمن تَرَكَ الوَاجِبَ، فإذا قِيلَ له: يا فلانُ، أنتَ تَرَكْتَ الواجبَ، فلم تُصَلِّ مع الجماعةِ اليومَ؛ قال: اللهُ عَفُوٌّ غَفورٌ. فنقولُ له: نعم، اللهُ عَفُوٌّ غَفُورٌ، لكنَّ استدلالَك بهذه الآيةِ على التفريطِ في الواجبِ وانتهاكِ المُحَرَّمِ غيرُ صَحيحٍ.

أما كونُ اللهِ عفوًّا غَفورًا فهذا لا إِشكالَ فيه، لكنَّ كونَ الإنسانِ يَستدِلُّ على جُرْأَتِه على فِعْلِ المُحرَّمِ والتهاون في فعلِ الواجبِ بهذه الآيةِ، فهذا لا يُوافَقُ عليه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب التيمم ضربة، رقم (٣٤٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب التيمم، رقم (٣٦٨).

وبالمناسبةِ أذْكُرُ قِصَّة رجلٍ أتاه أعرابيٌّ، فتعامل معه معاملةً تِجاريَّةً، وكأنَّ هذا الرجلَ لم يُعْجِبْه فعلَ الأعرابيِّ، فقال الرجُلُ: صَدَقَ اللهُ ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة:٩٧]، والأعرابُ هم البَدْوُ، وهذا يُعَدُّ قدحًا في الأعرابيِّ، فقالَ: صدَقَ اللهُ ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة:١٠١]. فأجابه بمَعْنًى صحيحٍ، فمن أهلِ المدينةِ فِعْلًا مَرَدُوا على النِّفاقِ، أي أنَّ النِّفاقَ والجَهْلَ لا يَكونُ في الباديةِ فَقَطْ، بل يكونُ في الحاضرةِ أيضًا، وكذلك من الجهةِ الأُخْرَى فصحيحٌ أنَّ الأعرابَ أبعدُ عن العِلْمِ، وأقربُ إلى الجَهْلِ.

المُهِمُّ أنه لا يُمكن أن يَستدِلَّ بها المُفَرِّطُ؛ لأن اللهَ عَفُوٌّ غفورٌ لكن هل أنت أيها المُفَرِّطُ محل لهذا العَفْوِ أو لا؟ فلا بُدَّ أنْ يَعرِفَ الإنسانُ أنَّ النصوصَ المُطْلَقَةَ لها تَقْيِيداتٌ مَعْلومةٌ من جِهةٍ أُخْرَى.

ونَقْتصِرُ على ما ذكرنا في تفسيرِ الآيةِ، وإلا فلها فوائدُ كَثيرةٌ.

وفوائدُ القرآنِ وعجائبُ القرآنِ لا تَنْقضِي، وكلما كرَّر الإنسانُ التأملَ والتَّدبُّرَ في كتابِ اللهِ انفتح له من المعاني والأسرارِ والحكمِ ما لم يكن معلومًا له من قَبْلُ، فعليك يا أخي المسلم بتَدَبُّرِ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، واستنباطِ الفَوائدِ منه؛ فإن ذلك مما يُعِينُكَ على تعظيمِ القرآنِ وبيان أنَّه من لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ، وأنَّ عَجائِبَه لا تنقضي، نَفعَنِي اللهُ وإياكم بكلامِه، وجَعَلَنا اللهُ وإِيَّاكم من أَهْلِ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومن الذين يَتْلونَه حقَّ تِلاوتِه، إنه على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ.



الدرس الرابع:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، يَقُولُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ» أيِ: اسْتَمع لَهَا وأَصْغِ إِلَيْهَا «**فَإِنَّهُ خَيْرٌ يُؤْمَرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يُنْهَى عَنْهُ**»(١).

و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ﴾ هَذَا خَيْر يُؤْمر بِهِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧] فهَذَا شَرٌّ نُهِينَا عَنْهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ طَاعَةُ اللهِ تَعَالَى هِيَ امْتِثَالُ أَمْره، واجتنَابُ نَهْيِه، فإِذَا قَام الإِنْسَانُ يُصَلِّي كَمَا أُمِرَ، فهَذِهِ طَاعةٌ، وَإِذَا تَقَدَّمَ إِلَى المسجدِ وَصَلَّى مَعَ الجماعةِ، فَهَذِهِ طاعةٌ، وَإِذَا تَأَخَّرَ عنِ الجماعةِ فَهَذِهِ مَعْصِيَةٌ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦، رقم ١٠٣٧).

وَأَوَامرُ اللهِ تَعَالَى كَثيرةٌ؛ فِي التَّوْحيدِ، والعَقِيدةِ، والصَّلَاةِ، والزَّكَاةِ، والصَّوْمِ، والحجِّ، وبرِّ الوالِدَيْنِ، وصلَةِ الأرحَامِ.

أَوَامِرُ اللهِ فِي التَّوْحِيدِ:

مِثَالُ الأَمْرِ بِالتَّوْحيدِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء:٣٦].

أوامرُ اللهِ فِي العَقِيدةِ:

مِثَالُ الأمرِ فِي العقيدَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]. أَخْبر اللهُ تَعَالَى بأنَّ لهُ الأَسْمَاءَ الحُسْنَى، وأمَرَنا أَنْ ندعوهُ بِهَا، ولَنْ ندعوَهُ بِهَا إِلَّا إِذَا أَثْبَتناهَا، وعلَى هَـذَا فيجبُ أَنْ نُثْبِتَ للهِ كُلَّ اسمٍ سَمَّى بِهِ نفسَهُ، أَوْ سَمَّاهُ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، وَأَنْ نُثْبِتَ مَا دل عَلَيْهِ منَ المعْنَى؛ إِذْ إِن إِثبَات الاسمِ بِدُون إِثباتِ المَعْنَى لَا قِيمَةَ لَهُ.

فمَثَلًا: منْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى السَّميع، ذَكَرهُ اللهُ اسمًا له فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فَنُثْبِتُ مَا دَلَّ عليْه منَ السَّمع؛ لِأَنَّ إثباتَ السَّمِيع بِدُونِ السَّمْعِ لَا مَعْنَى لَهُ، فَنُثْبِت أَنَّ اللهَ تَعَالَى ذُو سَمع واسعٌ، يَسْمَعُ كُلَّ شَيءٍ، حَتَّى دَبِيبَ النَّملة السوداءِ عَلَى الصَّخْرة الصَّمَّاء يَسْمعها عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم﴾ يَعْنِي: أَيظنُّ هؤُلاءِ أَنَّنا لَا نَسمع سرَّهُمْ وَنَجْواهمْ ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، أَيْ: يَكْتبونَ كُلَّ مَا يَقُولونَ.

أَوَامِرُ اللهِ فِي الصَّلَاةِ:

وأَوامرُ اللهِ فِي الصَّلَاةِ كثيرةٌ؛ مِنْهَا: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

فَإِنْ قِيلَ: أَيُّهما أَبْلغُ أَقِيموا الصَّلَاةَ، أَمْ حَافظُوا عَلَى الصَّلَاةِ؟

قُلْنَا: حَافظُوا عَلَى الصَّلَاةِ أبلغُ.

والصَّلَاةُ الوُسْطى فَسَّرَهَا أَعلمُ الخلقِ بكَلَام اللهِ، وهُوَ الرَّسُول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فَقال فِي غَزْوة الخندقِ: «**شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الوُسْطَى حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ**»(١)، وهَذَا نصٌّ صَريحٌ بأَنَّ الصَّلَاةَ الوُسطى هِيَ صَلَاة العصرِ، والوُسْطى والوُسْطى يَعْني: الفُضْلَى، كَقَوله تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣] أَيْ: فِي الفَضْلِ والشَّهَادةِ والعدلِ والخيارِ، وغَيْرِ ذَلِكَ.

فَمِنْ طَاعـة اللهِ أَنْ تُحَـافظَ عَلَى الصَّلَاةِ؛ تُحَـافظُ عَلَى شروطِهَا، وَأَرْكانها، وَوَاجِباتها، وَتُحَافظ عَلَى الجَمَاعة، وَتُحَافظ عَلَى حُضُور القلبِ فِيـهَا، وكُلُّ مَا يُعَدُّ مُحافظة فَهُو طَاعة؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ بِهِ.

أَوَامِرُ اللهِ فِي الزَّكَاةِ:

أَوَامرُ اللهِ فِي الزَّكَاةِ مِنْهَا قَوله تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:١٤٣]، فَتُعْـطَى الزَّكَاةُ لِمُسْتَحقِّيـها الَّذِين ذَكَرهم اللهُ فِي قَـوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، رقم (٢٩٣١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، رقم (٦٢٧).

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة:٦٠].

هَؤُلاءِ الثَّمانية هُم أَهل الزَّكَاة؛ وَلهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

والزَّكَاةُ هِيَ جُزْءٌ يَسِيرٌ منَ المالِ أَمَرنا اللهُ بِإِخْراجِهِ لِلْمُسْتحقين، فَالَّذِي أَعْطَى المالَ هُوَ الَّذِي أمر بِإِخْرَاجه؛ كَما قَالَ تَعالَى: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ أَيِ: المُكَاتَبِينَ ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور:٣٣].

فَاللهُ أَعْطاكَ مِئَةَ رِيَالٍ وَطَلَبَ مِنْكَ إِخراج رِيَالَيْنِ ونصفًا، وأعطاكَ أَلْفَ ريالٍ، وطلبَ مِنْكَ إِخْرَاجَ خَمْسَةٍ وعشرِينَ رِيَالًا.

فالنِّعمَةُ كَبيرةٌ وَالمطلوبُ يَسِيرٌ، وَمَعَ ذَلِكَ نَجِدُ مَنْ يَبْخَلُ بِالزَّكَاةِ، ولكنْ ليترقَّبَ هَذَا الَّذِي يَبْخَلُ بالزَّكَاةِ أَنْ يَكونَ مِمَّن قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يومَ القِيامةِ يَكونُ مَآله الطوق عَلَى أعناقِهِمْ، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٠]، يَعْنِي أَنَّ هَؤُلاءِ لَنْ يَبقوا لِلمالِ، بَلْ سيُورَثُون، ثُمَّ الَّذِينَ يَرِثونهم سَيُورَثَونَ، إِلَى أَنْ يَعودَ إِلى اللهِ؛ إِلَى خَيرِ الوَارِثِينَ.

وقَدْ فَسَّر الرَّسُولُ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ فَقَالَ: «**مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيامَةِ شُجاعًا أَقْرَعَ**» أَيْ: صُوِّرَ بِصُورَةِ شُجاعٍ أَقْرَعَ، قَالَ العُلَماءُ: هُوَ الحيَّة الكثيرةُ السُّمِّ، والشُّجَاع هُوَ الذَّكَرُ منَ الحيَّات الكَثِير السُّمِّ، وأَقْرع أَيْ: لَيْسَ عَلَى رَأْسه شَعْر، تمزَّق شَعْرهُ منْ كَثْرَةِ سُمِّهِ، «**لَهُ زَبِيبَتَانِ**» أَي: غُدَّتان مَمْلُوءتانِ سُمًّا في

أَسفل الرَّقبة مِمَّا يَلي الحَنَكَ، «**يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ**» أَي: بلهْزِمتَيْ صَاحب المالِ، واللِّهْزِمتانِ هُما الشِّدْقَان، يَأْخذه يَعَضُّهُ وَيَقُول: «**أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ**»[1].

فَمَا الفَائدةُ منْ مَال يَكُونُ مَآله هَذَا. وَإِذَا قَدَّمَ المسلمُ الزَّكَاةَ لِلفَقِيرِ، فَقَدْ مَنَحَهَا لِنَفسه فِي الوَاقع؛ لِأَنَّهُ سَوْفَ يَجِدُ ثَوَابها يَوْمَ القِيَامة: «**كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[2].

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة:٢٦١].

وَالبَخِيلُ إِنَّما يَبْخَلُ على نَفْسهِ، فيَمْنَعُ الخيرَ عَنْ نَفسهِ، والمُتَصَدِّقُ هُوَ الَّذِي بَذَلَ المالَ لِنَفْسِهِ، فَعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا بَقِيَ مِنْهَا؟**» قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: «**بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا**»[3]، فالَّذِي تَصَدَّقْتَ به تَجِده يوْمَ القيامةِ.

أَوَامِرُ اللهِ فِي الصَّوْمِ:

صَومُ رَمَضَانَ منْ طاعةِ اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣]، وَمَعْنَى: ﴿كُتِبَ﴾ أَيْ: فُرِضَ، فَالصِّيَام فَرْضٌ، وكَمْ منْ صَائمٍ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (١٤٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٧، رقم ١٧٣٧١)، وابن حبان (٨/ ١٠٤، رقم ٣٣١٠)، والطبراني (١٧/ ٢٨٠، رقم ٧٧١)، والحاكم (١/ ٥٧٦، رقم ١٥١٧) وقال: صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٥٠، رقم ٢٤٧٤٤)، والترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، بابٌ، رقم (٢٤٧٠) وقال: هذا حديث صحيح.

عنِ الأكلِ والشُّرْبِ والنِّكَاحِ، ولَيْس بِصَائمٍ عنِ المحارمِ، والحكمَةُ منَ الصَّوْمِ الصَّوْمُ عَنِ المحارِمِ؛ لِقَوله تبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالجَهْلَ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»(١) هَذِهِ هِيَ الحكمةُ مِنَ الصَّوْمِ.

فَلَوْ عَمِلنا بهَذِهِ الحكمَةِ لَمَا خرَجَ رَمَضَانُ إِلَّا وَقَدْ تَغَيَّرَ مَنْهجنَا، وَتَغَيَّرَ سُلُوكنَا، وَرَجَعنا إِلَى طَاعَةِ اللهِ بعدَ المعصيَةِ؛ لِأَنَّ ثَلَاثينَ يومًا يَحْبِسُ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِيهَا عَنْ مَعْصيةِ اللهِ، سَتُؤثر فيه.

أَوَامِرُ اللهِ فِي الحَجِّ:

وحَجُّ البَيْتِ لَا لِلْمُباهاةِ، ولَا لِلَقَبِ حَاجّ، وَلَكِن رَجَاءَ رَحْمَةِ اللهِ، وَامْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ.

أمر الله بِالإحسانِ لِلْوَالدينِ:

والوَالدانِ لَهُمَا حَقٌّ عَلَيْكَ، فقد رَبَّيَاك صغيرًا، والأُمُّ تَسْهَرُ إِذَا سَهِرْتَ، وتَفْرَحُ إِذَا فَرِحَتْ، وتَتَأَلَّم إِذَا تَأَلَّمت، فَأَلمك أَلَمُها، وسَهَرك سَهَرها، ورَاحتُك رَاحتُها، فلَا يُمْكِنُ أَنْ يُدركَ الإِنْسَانُ شَفَقَةَ الأمِّ وَحَنانها أبدًا، اللَّهُمَّ إِلَّا البِنت إِذَا جَاءَهَا وَلَدٌ، أَمَّا الولدُ لَا يُمكن أَنْ يُدركَ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمكن أَنْ يَكونَ أُمًّا، لَكِنَّ البنتَ تُدرك هَذَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]، رقم (٦٠٥٧).

والأَبُ يَكْسوك، ويُنْفِقُ عَلَيْكَ، ويَضرب الفَيَافِيَ لِطَلَبِ الرِّزق مِنْ أَجْلِكَ. وَلهِذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء:٢٤].

وكذلك أمر الله تعالى بصلةِ الرَّحِمِ، والرَّحِمُ همُ القَرابةُ، وَصِلتهم بِمَا جَرى بِهِ العُرْفُ؛ لِأَنَّ اللهَ لَمْ يُقَيِّد نوعًا منَ الصِّلة، بَلْ كُلُّ مَا جَرى بهِ العُرْفُ بِأَنَّهُ صِلة، فَهو صِلة. ولَا تَقْطَع الرَّحم، فقَدْ تَكَفَّل اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِلرَّحم أنْ يَصِلَ مَنْ وَصَلها، وأَنْ يَقْطَعَ مَنْ قَطَعهَا، وكَثِيرٌ منَ النَّاسِ يُعَادِي ابنَ عمِّه أو ابنَ عمَّته منْ أَجْلِ متاعِ الدُّنيَا، ومنْ أجلِ أَنَّه تَكلم فيه مرَّة فِي مجْلس، فَيَراها زَلَّة لَا تُغْفر، ويَقطع أَرْحامه، وَهَذَا كُلُّه مِن أَسْباب وَحْي الشَّيْطَانِ، يَقُولُ لَكَ: ابْنُ عمِّك ازْدَراك، ابْنُ عمِّك احتَقَرك، ابْنُ عمِّك أخذَ مَالكَ. ثُمَّ تَقَاطعه منْ أَجْلِ الدُّنيا، ومَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ يَقْطعك فِي الدُّنْيا وفِي الآخِرةِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى تَكَفَّلَ لِلرَّحِمِ أَنْ يَصلَ مَنْ وَصَلها، وأَنْ يَقطعَ مَنْ قَطَعَهَا.

وَأَنْوَاعُ الأَوَامر وَالنَّوَاهي لَا يُمْكِنُ عَدُّهَا، فضلًا عَنْ إِفْرَادها، وَلكِنْ نَقُولُ: طَاعَةُ اللهِ هِيَ امْتِثَال أَمْرِهِ، واجتِنَاب نَهْيِه.

قَوْلُهُ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أَيْ: أَطِيعُوا الرَّسُولَ محمدًا ﷺ، وَعلَى هَذَا فَـ(أل) فِي الرَّسُولِ لِلعَهْدِ الذِّهْنِيِّ. فَالرَّسولُ ﷺ تَجب طَاعتُه، وهُو مُحَمَّد بنُ عبدِ اللهِ الهاشمِيُّ القُرَشيُّ ﷺ.

فطَاعةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واجبةٌ استقلالًا، فلَوْ وَرَدَ حَديثٌ فِيهِ الأَمر بشيءٍ وَلَمْ يَكُنْ مَذكورًا فِي القُرْآنِ، فَيَجبُ عَلَيْنَا أَنْ نُطيعهُ؛ لِأَنَّ طَاعةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَطاعةِ اللهِ، وَمَا ثَبتَ فِي السُّنَّةِ فَهو كَالَّذِي ثَبتَ فِي القُرْآنِ تمامًا.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: أَنا لَا أَعْمل إِلَّا بِمَا فِي القُرْآنِ، وَلَا أَعْمَلُ بِمَا فِي السُّنَّةِ.

قُلْنَا: إِنَّكم بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ خَالفْتم القُرْآنَ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾، وقَدْ أَشَارَ النَّبِـيُّ ﷺ إِلَى مِثْلِ هَؤُلَاءِ، فَقَالَ: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، وَنَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا نَدْرِي، وَمَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ اتَّبَعْنَاهُ**»(١).

وبَعْضُ النَّاسِ الآنَ يَقُولُ: الَّذِي لَيْسَ بِقُرآن ما نَقبله، وَالرَّسُولُ ﷺ يَقُولُ: «**لَا أُلْفِيَنَّ**»، أَيْ: لَا أَجِدَنَّ، «**أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ**»، والاتِّكَاءُ عَلَى الأَرِيكةِ يَدُلُّ عَلَى أَنْ فِيهِ غَطْرسة وَكِبْرِياء، فَيَقُولُ: «**لَا نَدْرِي، وَمَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ اتَّبَعْنَاه**»، قَالَ النَّبِـيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»(٢)، فَمَا جَاءَ عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ فَهُو كَالَّذِي جَاء عنِ اللهِ تَمَامًا.

فَإِنْ قِيلَ مِنْ بَعض هَؤُلاءِ الحَمقى السُّفهاءِ الأَغبياءِ: إِنَّ السُّنَّة نُقِلَت بالآحادِ، يَعْني: رَوى فُلَانٌ عَنْ فُلانٍ عَنْ فُلانٍ، وربَّما يَكونُ النَّاقلونَ أَخْطؤُوا.

قُلْنَا: هَذَا مِن وَحي الشَّيْطَانِ، فَقَدْ قَيَّد اللهُ للسُّنَّةِ عُلَماءَ، حُفَّاظًا، جهَابِذَةً، يُمَحِّصُونهَا، ويُبَيِّنونَ مِنْهَا السَّقيم منَ الصَّحِيحِ، والزَّيْفَ منَ الحَقِّ، يُبينونَ ذَلِكَ تمامًا، وكُتُبُ الرِّجَالِ معروفةٌ، وكتبُ علومِ الحديثِ مَوجودةٌ، مَعْروفةٌ، فَالسُّنَّة مَحْفوظةٌ،

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٠، ٢٤٣٧٥)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٥)، والترمذي: أبواب العلم، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ، رقم (٢٦٦٣) وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه: افتتاح الكتاب، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ، والتغليظ على من عارضه، رقم (١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠، رقم ١٧٣٠٦)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٤).

ولكنْ لَيْسَ مَعْنى هَذَا أنَّ كُلَّ مَا نُسِبَ لِلرَّسُولِ ﷺ فهو حَق، فقدْ يُنسبُ لِلرَّسُولِ الأَحاديثُ الموضوعةُ، مِثْل حَدِيث: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَزُرْنِي فَقَدْ جَفَانِي»[1]، وَهَذَا كَذِبٌ مَوْضوعٌ، فَلو قُلنا بهَذَا الحَدِيث كَانَ الَّذِي يَحُج وَلَا يَزُور المَدِينَةَ كَافِرًا؛ لِأَنَّ جَفَاءَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كُفْر.

إذن طَاعَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وَاجبةٌ استِقْلَالًا، فَمَتَى صَحَّ الخبرُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وَجَبَ علَيْنَا قَبولهُ وتَصْديقه إنْ كَانَ خَبَرًا، وامتِثَاله إِنْ كَانَ طَلَبًا.

قَوْلُهُ: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ الوَاوُ حَرفُ عَطفٍ، وَ(أولي) مَعطوفةٌ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ، يَعْنِي: وأَطِيعُوا أُولِي.

وهُنا فَائِدة نَذْكُرها، وهِيَ لِمَاذا كُرِّرتْ ﴿أَطِيعُواْ﴾ فِي الأوَّلِ والثَّاني، وَلَمْ تُكرر فِي الثَّالِثِ؟

قُلْنَا: هَذَا مِنْ بَلَاغَةِ القُرْآنِ العظيمةِ، فَلَمْ يَقُلِ اللهُ تَعَالَى: وأَطِيعُوا أُولِي الأَمْرِ، فَلَوْ قَالَ ذَلكَ: لَكَانَ وَلِيُّ الأمرِ إذَا أَمر بشيءٍ وَجَبَتْ طَاعتهُ، وَإِنْ لَم يَكن منَ القُرْآنِ والسُّنَّةِ، ولكنَّ الأمرَ لَيْسَ كَذَلِكَ، فطَاعَةُ وُلَاة الأمورِ لَا تَكونُ إِلَّا إذَا لَمْ تُخَالِفْ طَاعَةَ اللهِ ورسُولهِ ﷺ، فَطَاعَةُ وُلاةِ الأمورِ تَابعةٌ لِطَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، فَإذَا أَمَرُوا بِمَعصيةِ اللهِ وَرَسولِهِ ﷺ فَلَا طَاعَةَ لَهُمْ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ**»[2]، وَقَالَ أيضًا: «**فَإِذَا أُمِرَ**

---

(١) أخرجه ابن حبان في الضعفاء (٣/ ٧٣، ترجمة ١١٢٨)، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢١٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٦٦، رقم ٢٠٩٢٩).

بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»[١].

وأُولُو الأمرِ هُنَا صنْفَانِ مِنَ النَّاسِ: العُلَمَاءُ والأمراءُ.

وَالمقصودُ بِالعُلَمَاءِ عُلَماءُ الشَّريعـةِ؛ لِأَنَّ المَقَامَ مَقَامُ تَشْريع، إِذَنْ هُمُ العُلَمَاءُ بِشَرِيعةِ اللهِ؛ لِأَنَّ العُلَمَاءَ هُم أُولُو أَمْرٍ بِتَبْيِينِ الشَّريعةِ، فَالَّذِي يُبيِّن الشَّريعةَ لِلنَّاسِ هُمُ العُلَمَاءُ؛ لِأَنَّهم وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ.

وَلِهَذَا قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ؛ وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِمَوْتِ العُلَمَاءِ» فَإِذا مَاتَ العُلَمَاءُ فَالنَّاسُ يَحْتاجون إِلَى أَحَدٍ يَسْتَفْتُونَهُ «حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالًا؛ فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[٢].

هَؤُلاءِ العُلَمَاءُ، وَهُمْ وُلاةُ الأَمرِ فِي تَبْيِينِ شَريعةِ اللهِ، وَلِذلكَ فإِنَّ النَّاسَ إِذَا اشتبَهَ عَلَيْهم الحكمُ يَسْألونَ العُلَمَاءَ، وَيَأْخذونَ بِأَقْوالهم.

الصنْفُ الثَّاني مِن وُلَاة الأمرِ: الأُمراء، والأَمِير لَيْسَ الوَلي عَلَى قَرْية، فالأَمير: مَنْ لَه السُّلطة العُلْيَا، وهُوَ فِي البِلَادِ المَلَكِيَّةِ المَلِك، وفِي البلادِ الجمهورِيَّة رَئِيس الجمهوريَّة، أَوْ رَئِيس الوُزَرَاء، حَسبِ الأَنْظمة عِنْد كُلِّ بَلد، فمَنْ لَهُ السُّلطة العليَا فِي البَلد هُوَ وَلِي الأَمْر. ومَنْ دُونَ ذَلك وَلِي أَمر أَيْضًا، فَالوَزِير وَلِي أَمرٍ فِي نِطَاق وِزَارته، وَالمُدِير وَلي أَمر فِي إِدَارته الخَاصَّةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب السمع والطاعة للإمام، رقم (٢٩٥٥)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، رقم (١٨٣٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب: كيف يقبض العلم، رقم (١٠٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، رقم (٢٦٧٣).

مَسْأَلَةٌ: جَماعة سَافَروا ويُوَلُّونَ عَلَيْهم وَاحدًا يؤمِّرُونه، هَلْ يَكون مِنْ أَوْلياء الأمرِ؟

الجَوابُ: يَكون مِنْ أَوْلياء الأَمْرِ فِي نِطَاق مَأْموريَّته وَاخْتِصاصه، وتَجب طَاعته؛ لِأَنَّ النَّبِـيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أَمَرَ المسَافِـرينَ إِذَا كَانوا ثَلَاثة فَأَكثر، أَنْ يُؤمِّروا واحدًا مِنهم[1]، وَلَا فَائِدَةَ منَ التَّأْمير إِلَّا بِطَاعة الأَمْرِ، لَكن فِيما يَتَعَلَّقُ بِالإِمَارة فَقَطْ، فَمَثلًا إِذَا كَانوا فِي الطَّريق وَقَالَ الأميرُ: سَنَنْزل هُنا، فَقَالوا: بَلْ سَنَنْزل فِي مَكَان آخَرَ، فيُطَاعُ هُنا الأَمير، ولكِن هُنَاكَ أُمُور لَا تَتَعلق بِوَلِيِّ الأَمر كَالطَّعامِ والشَّراب وَغَيْر ذَلكَ فَما لَه فِيها مِنْ إِمْرَةٍ؛ لِأَنَّ مُخَالَفتَهُ لَا تَضُر.

كَذَا الرَّجـلُ فِي أَهْلِهِ أَمـير، قَالَ ﷺ: «**وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْـؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[2].

إِذَنْ يَجِبُ عَلَيْنا أَنْ نُطِيعَ اللهَ وَنُطِيعَ الرَّسُولَ ﷺ وأُولي الأَمْرِ، وَإِنْ لَمْ يَكنْ ذَلك فإِنَّه سَتَكونُ الفَوْضَى؛ الفَوْضى الدِّينيَّة فِي مُخَالفة العُلَماءِ، والفَوضى الأَمنيَّة فِي مُخَالفة الأُمَراء.

وَلِذَلك أَخْطأَ خَطأً عَظيمًا مَنْ يُنَابِذُ العُلَماء، وَمَنْ يُنَابِذ الأُمراءَ؛ لِأَنَّ الَّذِي يُنَابِذُ العُلَماءَ يَعْني أَنَّهُ حَارَبَ الشَّريعةَ؛ إِذْ إِنَّ العَالِمَ إِذَا هَبطَ مِيزَانهُ بَيْنَ النَّاسِ لم يكنْ لِقَوله قِيمَة، فَيَضِيع مِنَ الشَّرِيعَةِ مَا يَضِيعُ مما يُبَيِّنُهُ هَذَا العالِمُ.

---

(١) أخرجه البزار (١/ ٤٦٢، رقم ٣٢٩)، والطبراني (٩/ ١٨٥، رقم ٨٩١٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم (٨٩٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم (١٨٢٩).

والأُمَراءُ إِذَا نَابَذْنَاهُمْ وَلَمْ نَمتَثِلِ الأمرَ حَدَثَتِ الفَوضى الَّتِي تُؤَدي إِلَى النِّزَاع المسلحِ، كَما يُوجد فِي بَعض البِلَادِ، وهَذِهِ الفَوْضَى لَا تُحدِثُ إِلَّا شرًّا، فَكم مِن دِمَاء سُفِكَت، وَكم مِن أعراضٍ انْتُهكت، وَكَم مِنْ أَموال أُتْلِفت بِسبب هَذِهِ الحُرُوب الَّتِي يَدَّعُونَ أَنَّهم يُريدونَ بِها الإصلاحَ، وَلكنَّهم لَم يُوفَّقوا.

إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ**»[1]، اضْرِبُوا عُنُقه، وإِنْ كَانَ مُسلمًا يَدَّعِي الإِسْلامَ نَضْربُ عُنُقهُ إِذَا أَرَاد أَنْ يُفرقَ جَمَاعتنَا، وأمرنَا جَمِيع عَلَى إِمَامٍ.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»[2].

وَلِهَذَا تَجِدُ المنازعينَ لِلدُّول فِي شَقَاءٍ، وَفِي عَناءٍ، حَتَّى الصَّلَاة لَا يُدْرِكُونَها تَمَامًا، وحتَّى التَّهَجُد بِاللَّيْلِ لَا يُدْركونهُ تمامًا، وتَجد آخرينَ الَّذِين امتَثَلوا أَمرَ اللهِ وسَارُوا عَلَى مَنْهجِ السَّلفِ الصَّالحِ، تَجِدُهُمْ مُطْمئنِّينَ، مُسْتريحِينَ، يَدْعُونَ لِوُلاة أُمُورهم بالتَّسديد والتَّوفيق.

وقَد لَا يَعلم الكَثير منَ النَّاسِ أَنَّ إمامَ أهلِ السُّنَّة، الإمامَ أَحمدَ بْنَ حَنْبلٍ، قَد أُوذِيَ فِي اللهِ، وحُبِسَ، وضُرِبَ، فكَان يُجرُّ فِي الأَسْواق بالبغلةِ مِن وَرَاء ذَيْلها،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، رقم (١٨٥٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**سترون بعدي أمورا تنكرونها**»، رقم (٧٠٥٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، رقم (١٨٤٩).

ويُضْرَبُ بالسيَاطِ حَتَّى يُغْمَى عَلَيْه، ومَع ذَلِكَ يَدعو لِلْخليفةِ، حَتَّى إِنَّه قَالَ فِيما رُوِيَ عَنْه وعنِ الفُضَيل بْنِ عِيَاضٍ: لَو أَعلم أَنَّ لِي دعوةً مُسْتجابةً لَصَرفتها لِلسُّلطانِ[(١)].

بَعضُ السُّفهاءِ الجُهَّال الَّذِين لَيْس عِنْدهم إِلَّا عَاطفَة عَاصفة إِذَا قُلت لَه: ادعُ اللهَ لِأَميركَ، ادعُ الله لِرَئِيسكَ، ادعُ اللهَ لِوَزِيركَ، قَالَ: لَا أَدعُو اللهَ لَهُ، بَلْ أَدعُو اللهَ عَلَيْهِ، قَاتَلَهُ اللهُ، فَعل بِي كَذا وكَذَا. فَمَاذَا يَسْتفيدُ إِذَا سُلِّطَ عَليه، إن هَذَا ما يَزِيدُ الأَمرَ إِلَّا شدَّة، لَكن إِذَا هُدِيَ إِلَى الصِّراطِ المستقيمِ انتفعَ ونفَعَ، لكنَّ السَّفَه والحُمْق، وعدمَ التَّرَوِّي، يُؤَدي إلى هَذِهِ النَّتِيجةِ السيِّئَة، فادعُ اللهَ لهُ بالهدايَةِ، قُل: اللَّهُمَّ لَا تُسَلِّطهُ عَلَيْنا بِذُنُوبنا؛ لِأَنَّهُ لَم يُسلط عَلَيْنا وَلِي الأَمْر إِلَّا بِذُنُوبنا، وفِي الأَثَر: «كَمَا تَكُونُونَ يُوَلَّى عَلَيْكُمْ»[(٢)].

وقدْ جَمع أَحَدُ خُلَفاء بَنِـي أُميَّة، وهوَ عبدُ الملكِ بنُ مَرْوان، جَمَـعَ الأَعْيَانَ وَالوُجَهاءَ حِين سَمِعَ كلَامَ النَّاسِ، ووشْوشةَ النَّاسِ به، جَمَعهم وخاطبهُمْ، وَقَالَ لهمْ: أَتُريدونَ أَنْ نَكونَ لَكم كَما كَانَ أَبُو بَكْر وعُمَر؟ قَالوا: نَعَمْ، قَال: إِنْ كُنتم تُرِيدونَ ذَلك، فَكُونوا لَنَا كَمَا كَانَ النَّاسُ لِأَبِي بَكْر وعُمَر[(٣)]. يَعْني: إِنْ صَلُحت الرَّعية صَلح الرَّاعي.

وقامَ رجلٌ منَ الخـوَارِج.. وقَد كَانوا مَعَ عليِّ بنِ أَبي طَالِـبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ثُمَّ لَمَّا تَصَالحَ هُوَ وخَصْمُه قَامُوا عَلَيْه، وكَفَّروهُ، وقاتلوهُ، ومعَ ذَلِكَ فَالخَوارج أَخْبَرَ عَنْهم النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ حَيثُ قَال: «**يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ،**

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٩١).

(٢) انظر: كشف الخفاء (٢/ ١٤٩).

(٣) انظر: عيون الأخبار للدينوري (١/ ٦٢).

لَيْسَتْ قِـرَاءَتُكُمْ إِلَى قِـرَاءَتِهِمْ شَيْئًا، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ شَيْئًا، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ شَيْئًا، يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ»[1]، أَيْ أَنَّهم يُصَلُّونَ، ويقرؤُون القُرْآنَ، ويَتَصدَّقونَ، والصَّحَابَةَ يَحْقِرُونَ صَلاتهم إِلَى صَلاتهم، وقِـرَاءَتهم عِند قِـرَاءتهم، فكأَنَّهم أحسنُ منَ الصَّحَابَةِ، لكنَّ الرَّسُول ﷺ أخبرَ أَنَّهم: «يَقُولُونَ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ البَرِيَّةِ» ولكنَّهم «يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ». السَّهم إِذَا ضربَ الطائرَ خرجَ منَ الجهةِ المقابلَةِ، ويَخرج لَيْسَ فِيهِ دمٌ؛ لِأَنَّهُ بِسُرعة فَمَا تَلوث بِالدَّم، فهَؤُلاءِ يَمْرقون منَ الإِسْلامِ كَما يَمْرق السهمُ منَ الرَّمِيَّة «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ»[2]؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ شَرٌّ عَلَى المُسْلِمِينَ.

يُرْوَى أَنَّ رجلًا منَ الخوارجِ جَاءَ إِلَى عليِّ بنِ أَبِي طَالبٍ، ابنِ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ وزوْجِ ابنتِهِ، قَالَ لهُ: كيفَ اختلَفَ النَّاسُ عَلَيْكَ وَلَمْ يَختلفوا عَلَى أَبِي بَكرٍ وعُمَرَ؟ وهَذِهِ مُشْكلة أُورِدَتْ عَلَى مَن عِنْده حَلها، وهُو عَلي بنُ أَبِي طَالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَعْطاه اللهُ تَعَالَى عقلًا وذكاءً، وَلِهَذَا منْ أَمِثَالِ النَّحْويينَ: «قَضِيَّة ولَا أَبَا حَسن لهَا» يَعْني عَلِي بن أَبِي طَالِب.

فكانَ جَواب عليِّ بنِ أَبِي طَالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رِجالُ أَبِي بَكرٍ وَعُمَرَ أَنَا وأَمِثَالي، نَسمعُ ونُطِيعُ، ونتأَنَّى، ونَتَروَّى، ورِجَالي أَنْـت وَأَمْثَالُكُمْ[3]. وَهَذَا جَـوَابٌ كَافٍ لَا كَلام بَعْدهُ، فأُلقِمَ الخارجيُّ حَجَرًا، ولَمْ يَنْطق بكَلِمَةٍ.

---

(١) التراقي: جمع ترقوة، وهي العَظْم الذي بين ثغرة النحر والعاتق. وهما ترقوتان من الجانبين. النهاية (ترق).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤١٥)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج، رقم (١٠٦٦).

(٣) تاريخ ابن خلدون (١/ ٢٦٤).

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: هَلْ أُطيعه فِي كُلِّ شَيْءٍ؟

قُلْنَا: لَا؛ لِأَنَّهُمْ لَيسوا أَرْبَابًا، وَلَا رُسُلًا، فأطِعْهم فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي مَعْصيةِ اللهِ؛ لِأَنَّ أوامرَ ولاةِ الأُمورِ ثَلاثةُ أقسامٍ:

الأَوَّلُ: أَنْ تَكونَ بأمرِ اللهِ، يَعْني أَنْ يَأمرُوا بِمَا أَمَرَ اللهُ بهِ، فَإِذَا أمروا بِمَا أَمر اللهُ بِهِ؛ مِثْل أَنْ يَأمرُوا النَّاسَ بِأدَاءِ الزَّكَاةِ، صَارَتْ طَاعَتُهُمْ وَاجبةً منْ وَجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِذَلكَ، وغايةُ مَا وَقَعَ مِنْهُمْ أَنْ ينفذوا أمرَ اللهِ.

الوَجه الثَّاني: أنَّ وُلاةَ الأَمر أَمَروا بِه.

الثَّانِي: أَنْ يَأمروا بِمَا نَهَى اللهُ عَنْهُ، فَإِن أَمروا بِمَا نَهَى اللهُ عَنْهُ، فَإِنَّهم لَا يُطاعونَ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسوا أَرْبَابًا ولَا رُسُلًا، وَلَا طَاعةَ لَهُمْ فِي مَعْصِية اللهِ.

وَيُروى أَنَّه فِي عَهدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ بعثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّة -والسرِيَّةُ: هِيَ طَائفةٌ تُقاتِلُ- وأمَرَهم أَنْ يَمْتثلوا أمرهُ وجَعَلوه أميرًا عَلَيْهم، فَمَشى القَوم، وَفِي يَوم منَ الأَيَّام أَغْضَبوه، فَقَالَ: اجْمَعُوا لِي حَطَبًا، قَالوا: سَمعًا وطاعةً، فَجَمَعُوا لَه حطبًا، فقالَ: أَوْقِدُوا فِيهِ النَّارَ، قَالُوا: سَمْعًا وطَاعةً، فأَوْقَدُوا النارَ، وكُلُّ هَذَا لَا يُخالفُ أمرَ اللهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، قَالَ: أَلْقوا أَنْفسكم فِي النَّار، فالجماعَة تَوقَّفت، فَقَال بَعْضهم لِبَعض: نَحْنُ آمنَّا بِاللهِ وَرَسوله ﷺ اتِّقاءَ النارِ، فَكَيْف نُلْقي بِأَنفسنا فِي النَّار، فلَمَّا وَصَلوا إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وَأَخبرُوهُ، قَالَ: «**لَوْ دَخلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ**»[1]

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب سرية عبد الله بن حذافة السهمي، وعلقمة بن مجزز المدلجي ويقال: إنها سرية الأنصار، رقم (٤٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، رقم (١٨٤٠).

أَيْ: لَمَاتُوا مِنْ نَارِ الدُّنيا إِلى نَارِ الآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقْتلَ نَفسهُ، فقَتل النَّفس حَرامٌ.

الثَّالِثُ: أَنْ يَأْمروا بِشيءٍ لَيْسَ بِهِ أَمرٌ وَلَا نَهي منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَمِنْ أَوَامرِ وُلاةِ الأمرِ مَا لَا يَتعلق بِه أَمْرٌ وَلَا نَهيٌ، لَكن رَأَى وَلِي الأَمر أَنَّ فِيهِ مَصلحةً، فَأَمر به، فَهَذَا تَجب طَاعته فِيه.

مِثَالُ ذَلك: أَنظمة المرورِ مَا هِيَ فِي القُرْآنِ وَلَا فِي السُّنة، لَكن رَأى وَلي الأَمْر أَن يُنظمَ المَارِّينَ بهَذِهِ الطرقِ، فتَجِب طاعَته فِي ذَلِكَ، وإِنْ لَم يأمرْ بِها بذاته، لَكِن عَلَى سَبِيل العُمُومِ.

فَأَنْت إِذَا وَافَقْتَ وَلِيَّ الأَمر فِيما نَظَّمَهُ مِما لَا يُخالف الكِتَابَ والسُّنَّةَ، فَاعْلم أَنَّ هَذِهِ عِبَادَةٌ، فاتخِذْهَا عِبَادَةً تَتقرَّب بِهَا إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِذَا كنت مثلًا أَمشي فِي الطَّرِيقِ، وَأَضَاءتِ الإِشارةُ الحَمْرَاءُ، وَوَقفتُ، فَأَنَا أُثَاب عَلَى هَذَا، وهَذِهِ حَسَنَةٌ يَأْتِيني بِهَا أَجرٌ؛ لِأَنَّ اللهَ أَمَرنِي بِطَاعة وَلي الأَمرِ، وَأَنَا الآنَ أَطَعْتُ وَلِيَّ الأمرِ.

وهُنَا مَسأَلةٌ نَذكرهَا: لَو كَانَ وَلِي الأَمرِ عِنده مَعاصٍ؛ كَأَن يَكونَ مسْتَئْثِرًا بالمالِ، أَو يَشرب الخمرَ، أو عِندهُ أفكارٌ سَيِّئَةٌ، أَو يُهينُ أَهلَ الخيرِ والعلمِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، كَما يُوجد فِي بَعضِ البلادِ، فَهل تُطيعه إِذَا أَمرك بِما لَيْسَ بِمَعصيةٍ؟

الجَوَابُ: نَعَمْ أُطِيعهُ، وإِن كَانَ هُوَ بِنَفسهِ لَيْسَ صالحًا، فصلَاحُهُ لِنفسه وَفَسادُه عَلَى نَفْسه.

وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ يُصلُّونَ خلفَ أَئمة الجَوْرِ، ويُقِيمُونَ مَعَهم الحجَّ والجهادَ والأَعيادَ وَهُمْ فُجَّارٌ، وَلَا يَخْفَى عَلَى مَنْ قَرأ التَّاريخ أَنَّ مِنْ أَشد الصَّحابَةِ وَرَعًا

عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَكَانَ يُصَلِّي خَلْفَ الحجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ الَّذِي قَالَ عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ: «يَكُونُ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ»[١]، قَالَ العُلَمَاء: مُبِيرٌ أَي: قَاتل، والحجَّاج بنُ يُوسف مَعْروفٌ بِأَنَّهُ يَقْتُلُ النَّاسَ، ومعَ ذَلِكَ كَانَ ابْنُ عُمَرَ يَأْتَمُّ بِهِ فِي الصَّلَاةِ، ويُصَلِّي خلفهُ، وكَان يَأْتمُّ به فِي إِمَارةِ الحجيجِ، ويُرْشدهُ إِلَى الرَّمْيِ.

فَلَوْ قِيلَ: هَلْ يُشْتَرطُ فِي وُجُوب طَاعة وُلَاة الأُمُور أَنْ يَكُونوا هُم مُسْتَقيمينَ، أَم تَجِب طَاعتهُمْ وَلَو كَانُوا غَيْرَ مُسْتَقيمينَ؟

قُلْنَا: لِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ لِلْأَنصارِ: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً» يَعْنِي اسْتِئْثَارًا عَلَيْكم «فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي وَمَوْعِدُكُمُ الحَوْضُ»[٢]، فَأَمرهُم بِالصبرِ، وَعَدمِ المنازَعَةِ.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ لَا بُدَّ أَنْ يَكونَ هُناكَ اخْتِلَاف فِي الرَّأْيِ، فَلَو رَجَعنا إِلَى كُتبِ الخلافِ فِي الفِقْهِ نَجد الخلافَ بحرًا لَا سَهْلَ لَه، والمرجعُ إِذَا تَنَازعَ النَّاسُ هُوَ إِلى اللهِ والرَّسُولِ ﷺ.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَي: إِلَى كِتابِ اللهِ، وَالرَّسُول ﷺ إليه فِي حَيَاته، وإِلَى سُنَّتِهِ بَعد وَفَاته.

وَبِهَذَا نَعْرف أَنَّ الرجوعَ إِلَى الأَئمَّة فِيما يُخَالفُ الشَّريعةَ غَيْرُ صَحيحٍ؛ وَلِهَذَا لَو قَالَ لَكَ قَائلٌ يُحاجُّكَ فِي شَيْءٍ منَ الأشياءِ، أَوْ فِي مَسْأَلةٍ منَ المسائلِ: هَذَا القَول خِلَاف قَول الإِمَام فُلان، فَهَذَا لَيْسَ حُجَّة؛ لِأَنَّ المرجعَ عِنْدَ النِّزاعِ إِلَى كتابِ اللهِ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب ذكر كذاب ثقيف ومبيرها، رقم (٢٥٤٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجزية، باب ما أقطع النبي ﷺ من البحرين...، رقم (٣١٦٣)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، رقم (١٠٦١).

وإِلَى سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِأَنَّ أقوالَ العُلَماءِ لَا يُحتَج بِهَا، لَكن إذَا قالَ: هكذَا قَالَ اللهُ، فَهو حجَّةٌ.

وَلِهَذَا قَالَ ابنُ عبدِ البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَجمعَ العُلَماءُ عَلَى أَنَّ مَن استَبَانَتْ له سُنَّةُ رَسولِ اللهِ ﷺ فلَيْس لَهُ أَنْ يَعْدِلَ عَنها إِلَى غَيْرِهَا. وَصَدَقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فكل منِ استبانتْ لَهُ السُّنَّةُ حَرُمَ عَلَيْهِ أَنْ يُخَالفهَا إِلَى قَول أحدٍ، كَائِنًا مَن كانَ.

بعضُ النَّاسِ يُجادلُ وَيقُولُ: هَكذا قَالَ فلانُ بنُ فلانٍ، هَكَذَا قَالَ الإمامُ الفلانيُّ، ويَقُولُ: هَل نَحن أَعْلم مِنْهُ، نَحن لَا شَيْءَ بِجَانب عِلْمِهِ. فهَذِهِ لَيْست حجةً، فالحجةُ فِيمَا قَالَ اللهُ ورسولهُ ﷺ.

فَعَلَى طُلَّابِ العِلْمِ أَنْ يَرجعُوا إِلَى كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِهِ ﷺ وأَنْ يَتدبَّروهما حَتَّى يَكونَ لَدَيْهِم حجَّةٌ عندَ اللهِ، وعندَ عبادِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أَيْ: لَو أَنَّكم صَادقونَ فِي الإِيمانِ بِاللهِ وَاليومِ الآخِرِ، فَارْجِعوا عندَ التَّنازعِ إِلَى كتابِ اللهِ، وسنةِ رَسُول اللهِ ﷺ.

فَلَو قَالَ قَائلٌ: الفَاسقُ لَيْسَ أَخًا لِي، ولَا أَعْترف بِه، فيَقُولُ لَهُ آخرُ: لَا، بَل الفاسقُ أَخوك، ومَنْ يَشربُ الدُّخان أَخوكَ، ومَنْ يَحلقُ لِحيته أَخُوك، ومَن يَسْمع الأَغَاني أَخُوك، ومَنْ يَتعاملُ بِالربَا أَخُوك، فيَقُولُ: لَا هُوَ لَيْسَ أَخِي، فنَقول: بَيْننا وبَيْنك كتابُ اللهِ:

مثال ذلك: إن قتل المؤمنِ حَرامٌ، ومِن كَبائرِ الذنوبِ، قَالَ تعَالَى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ

لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٤]، خَمْسُ عُقوباتٍ، وهَذِهِ مَعصيةٌ، فهَلِ القاتلُ أخ لَنا؟

فَمَنْ يَقُول: الفاسقُ لَيْسَ أخًا لِي، مَاذا يَكون القَاتل عَلَى قَاعدتهِ؟ يَقُول: لَيْسَ أخًا لي، أَعوذ بِالله، أَنا أَبْرأ مِنه بَراءةَ الذِّئب مِن دَم يُوسف، ولَا يُمكن أَنْ يَكونَ أخًا لِي، نَقول: هَذَا خطأٌ، فنَرُدُّ الأمرَ إلى كتابِ اللهِ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٧٨]، وَالقاتلُ عمدًا عَاصٍ، فَاعلُ كبيرةٍ عظيمةٍ، فسَمَّاهُ الله تَعالَى أخًا، إِذَنْ إِذا قَال: القاتلُ لَيْسَ أخًا لِي، قُلنا لَهُ: عِنْدَنا كِتاب اللهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّه أخ لَنا.

مثال آخر: طائفتانِ يَقْتتلانِ منَ المؤمنينَ، فَقَال رجلٌ مُتَشدد: أَبْرَأُ إِلى اللهِ مِنْ هَؤُلاءِ، لَيْسوا إِخْوةً لِي، فَنقول لَه: نَرُدُّ الأَمر إِلَى كتَاب اللهِ، ففِي كتابِ اللهِ قولُ الله تَعالَى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:٩-١٠].

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





سورة المائدة

الدرس الأول:

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصلاةُ والسَّلامُ على نَبِيِّنا محمَّدٍ، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المتَّقِينَ، وعلَى آله وأصحابِهِ أجمعينَ، أما بعد:

فقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

إذا صَدَّرَ اللهُ الخِطَابَ بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فإنَّه ينبَغِي لكَ أن تَنْتَظِرَ، وأن تستَمِعَ كما قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إذا قالَ اللهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأَرْعِها سَمْعَكَ، فإمَّا خَيْرٌ تُؤمَرُ به وإمَّا شَرٌّ تُنْهَى عنه[1].

وإذا كان النِّداءُ بوَصْفِ الإيمانِ؛ دَلَّ ذلكَ على أن القِيامَ بمُقْتَضَى هذَا الخطابِ من مُقتضياتِ الإيمانِ، وأن مخالَفَةَ هذا الخطابِ نَقْصٌ في الإيمانِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦، رقم ١٠٣٧).

وهذه الآيَةُ الكريمَةُ صَدَّرهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، إذن فالعَمَلُ بها مِنْ مُقتَضياتِ الإيمانِ، وتَرْكُ العَمَلِ بها من نُقصانِ الإيمانِ، ولهذا قالَ النَّبيُّ ﷺ: «الطُّهورُ شَطْرُ الإِيمانِ»[1]، أي: نِصْفه؛ لأنَّ الإيمانَ تَحلٍّ وتَخَلٍّ، تَخَلٍّ عمَّا يُخِلُّ بالإيمانِ من الشَّكِّ والإنكارِ، وتَحَلٍّ بما يُقوِّي الإيمانَ مِنَ العَملِ الصالِحِ أو غيرِ ذلِكَ.

وقولُهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة:٦]، قال العلماءُ: إن قولَهُ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ أي: إذَا أَرَدْتُمُ القِيامَ؛ لأن الإنسانَ يُؤمَر بالوُضوءِ لا حينَ فِعْلِ الصلاةِ؛ ولكن حينَ إرادَةِ فعلِ الصلاةِ.

والتعبيرُ عن الفِعْلِ بإرادتِهِ موجودٌ في كتابِ اللهِ، وموجودٌ كذلِكَ في السُّنَّةِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨]، والمعنى: إذا أردت أن تقرأ القرآن.

وفي حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الخَلَاءَ، قَالَ: «أعوذُ باللهِ مِنَ الخُبْثِ والخَبَائِثِ»[2]، فقوله: «إِذَا دَخَلَ الخَلَاءَ» أي: أرادَ دُخولَ الخلاءِ.

ولا يُعَبَّرُ بالفِعْلِ عن إرادَتِهِ إلا إذا كانَتِ الإرادَةُ جازِمَةً ومقارِنَةً للفِعْلِ.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يشْمَلُ كلَّ الصلواتِ، فكُلُّ ما يُسَمَّى صلاة فإنَّه داخِلٌ في ذلِكَ، سواءٌ أكانتْ فَرضًا أم نَفْلًا، وسواءٌ أكانَتْ صَلاةً ذاتَ رُكوعٍ وسجودٍ، أو صلاةً ذاتَ تكبيرٍ وسَلامٍ، مثل صلاةِ الجنازَةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما يقول عند الخلاء، رقم (١٤٢)، ومسلم: كتاب الحيض، باب ما يقول إذا أراد دخول الخلاء، رقم (٣٧٥).

قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ الغَسْلُ: جَريانُ الماءِ على العُضْوِ، ولا يُشْتَرَطُ فيه التَّدْلِيكُ، أي أن التَّدِليكَ لا يدْخُلُ في مُسَمَّى الغَسْلِ، بل يَكْفِي في الغَسلِ أن يجْرِيَ الماءُ عَلَى العُضْو.

والوجوهُ: جَمْعُ وجْهٍ، والوجْهُ ما تَحْصُلُ به المواجَهَةُ، ويُطلَقُ الوجْهُ على كلِّ مستَقْبَلِ البَدَنِ، ويُطْلَقُ على الوجْه الأعْلَى الذي في الرَّأسِ، وهذا الأخيرُ هو المرادُ.

وحَدُّ الوجْه الذي يجِبُ غَسلُه طُولًا: من مُنحنَى الجبْهَةِ إلى أسفَلِ اللِّحْيَةِ، وعَرْضًا مِنَ الأُذُنِ إلى الأُذُنِ. إذن فالبياضُ الذي بينَ العارِضِ والأُذُنَيْنِ يكون داخِلًا في حدِّ الوجْهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ هذه معطوفة على قوله: ﴿وُجُوهَكُمْ﴾، وهي جَمْعُ يَدٍ، واليدُ عندَ الإطلاقِ إنَّما تكونُ للكَفِّ فَقط، الذي حَدُّه الكُوعُ، والكُوعُ: هو العَظْمُ الذي يَلِي الإبْهامَ عندَ رأسِ الذِّراعِ، ويقابِلُهُ الكُرْسُوعُ، وما بينهما يُسَمَّى الرُّسْغُ، قالَ الشاعِرُ:

وَعَظْمٌ يَلِـي الإبْهامَ كُوعٌ ومَا يَلِـي ... لِخنْصِرِهِ الكُرْسُوعُ والرُّسْغُ مَا وَسَطْ

وعَظْـمٌ يَلِــي إِبْهَـامَ رِجْـلٍ مُلَقَّـبٌ ... بِبُوعٍ فَخُذْ بالعِلْمِ واحْذَرْ مِنَ الغَلَطْ

فاليدُ إذا أُطْلِقَتْ فهِي إلى الكُوعِ، ولا يدْخُلُ فيها الذِّارعُ، ولهذا لما قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، كان الذي يُقْطَعُ من السارِقِ إلى الكُوعِ الكَفُّ فقط، لكنها هنا قُيِّدَتْ في قولِهِ: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾، والمرافِقُ: جمعُ مِرْفَقٍ، وهو العَظْمُ الناتِئُ في المَفْصِل الذي بينَ العَضُدِ والذِّرَاعِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ المسحُ: أن تَبُلَّ يدَيْكَ بالماءِ، ثم تُمِرَّهَا على العُضْو، وليس غَسْلًا يَجْرِي عليهِ الماءُ، ولكنَّك تَبُلُّ يدَكَ بالماءِ وتُمِرُّها على العُضْوِ، هذا هو المَسْحُ. وقوله: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ قالَ العُلماءُ عنِ الباءِ: إنها هنا للإلْصَاقِ وللاسْتيعابِ أيضًا، فإن المَسْحَ يَعُمُّ جميعَ الرأسِ.

والرأسُ مأخوذٌ مَنَ الترَوُّسِ، وهو العُلُوُّ؛ لأنه يكون في أعلى البَدَنِ. وحَدُّه من جِهَةِ الوجه: حدُّ الوجهِ، فهو من مُنْحَنَى الجبهَةِ، وحدُّه من الخَلْفِ: مَنابِتُ الشّعَرِ، فالرَّقَبةُ ليستْ مِنْهُ. ومن الرأسِ الأذنانِ، ولهذا كانَ الرسولُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يحافِظُ على مسْحِ أُذُنَيْهِ مع رأسِهِ[1].

قال تعالى: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾، وفي هذه قراءتان:

الأولى: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ بالنَّصْبِ.

والثانية: (وأرجلِكم)[2]، بالجَرِّ.

فعَلَى قراءَةِ النَّصْبِ تكونُ مَعطوفةً على ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾؛ لأن العَطْفَ عندَ تَعَدُّدِ المعطوفاتِ يكونُ على الأَوَّلِ، لا على ما بعْدَهُ؛ لأن ما بعْدَهُ تابعٌ، والتابعُ لا يكونُ مَتْبُوعًا، فإذا قُلْتَ: أكرِمْ زيدًا وعَمرًا وبَكرًا وخالِدًا، فـ(زيدًا) هو المفعولُ الأَوَّلُ، و(بكْرًا) معطوفٌ عليه، و(عَمْرًا) معطوفٌ على الأَوَّلِ؛ على زَيْد، و(خالِدًا) معطوفٌ على زيد أيضًا، ولا يصِحُّ أن يكون معطوفًا على ما يَلِيهِ؛ لأن ما يَلِيهِ معطوفٌ على ما قَبْلَهُ، فهو فَرْعٌ، والفرعُ لا يكون أصلًا متبُوعًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٣، رقم ٢٢٦٢٨)، أبو داود: كتاب الطهارة، باب صفة وضوء النبي ﷺ، رقم (١٠٨).

(٢) الحجة في القراءات السبع (ص:١٢٩).

القراءةُ الثانية: (**وأرْجُلِكُم**) بالجرِّ، قال بعضهم: إنها معطوفةٌ على ﴿وُجُوهَكُمْ﴾، لكنها كُسرت للمجاورَةِ، وعلى هذا فهِي منصُوبَةٌ بفَتْحَةٍ مقدَّرَةٍ على آخِرِها مَنَع من ظُهورِهَا حَرَكَةُ المجاوَرَةِ.

وقال بعضُ العلماءِ في قراءة الجرِّ: إنها معطوفَةٌ على قولِهِ: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ أي: وامْسَحُوا برؤوسِكُم وأرجُلِكم -بالكسر-، فيكونُ فرْضُ الرَّجُلينِ إما غَسْلا وإما مسْحًا، فيكونُ غَسْلا على قِراءةِ النصبِ، ويكون مَسْحًا على قِراءَةِ الجرِّ.

ويبقى عنْدَنا إشكالٌ: هلِ الإنسانُ مخيَّرٌ في تطهيرِ رِجْلِه بالوضوءِ بينَ المسح والغَسْلِ؟

والجواب: لا، لكن السُّنَّة بيَّنَتْ أن للرِّجلينِ حالَيْنِ؛ حالًا تُغسَلُ فيها، وحالًا تُمْسَحُ فيها، فإن كانَ على الإنسان خُفَّانِ فالمسْحُ، وإن لم يكُنْ عليه خُفَّانِ فالغَسْلُ، وهذا الوجهُ الأخيرُ هو الراجِحُ والمتعَيِّنُ؛ لأن الجرَّ بالمجاورَةِ ضعيفٌ، واللغَةُ الضعيفَةُ الشاذَّةُ لا ينبَغِي أن يُحمَلَ عليهَا القُرآنُ؛ لأنَّ الله يقولُ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

وقوله: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ الكَعبانِ هما العَظْمانِ النَّاتِئانِ في أسفَلِ الساقِ، فتُغسَلُ الرِّجْلُ من أطرافِ الأصابعِ إلى الكَعْبَينِ.

بذا يكونُ قد انتَهى القِسْمُ الأوَّلُ من هذِهِ الآيَةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعَلَ هذه الآية ثلاثَةَ أقسامٍ: قِسْمًا للوُضوءِ، وقِسْمًا للغُسلِ، وقسْمًا للتَّيمُّمِ.

ثم قالَ في القسمِ الثانِي: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾: ﴿جُنُبًا﴾ خبرُ (كانَ)، واسمُهَا التاءُ الدَّالَّةُ على الجَمْعِ.

وكَلِمَةُ (جُنبًا) مُفْرَدٌ، فكيف صَحَّ أن يُخبَرَ بالمفردِ عن الجماعَةِ؛ لأنك لو قُلْتَ: كان الطَّلَبَةُ منتبِهًا، لم يصِحَّ، وصوابه أن تقول: كان الطلبَةُ منتَبِهِينَ؛ لأنه لا بد أن يتَطَابَقَ المبتدأُ والخبرُ، وهنا قالَ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا﴾، فجاءَ بالمفرَدِ؟

قال علماءُ اللُّغَةِ: لأن كَلِمَةَ (جنب) يستَوِي فيها المفرَدُ وغيره، فيقالُ: القومُ جُنُبٌ، والرَّجُلانِ جُنُبٌ، والرَّجُلُ جنُبٌ، وإذا كان يستَوِي فيهَا المفردُ وغيرُهُ، فإنه يَصِحُّ أن يخبرَ بها عَنِ الجماعَةِ.

والجُنُب هو الَّذِي حصلَتْ منه الجَنَابَةُ، والجنابَةُ شَرْعًا: إما إنزالُ المَنِيِّ بشهْوَةٍ، وإما الجِماعُ وإن لم يحصُلْ إنزالٌ؛ لقولِ النَّبِيِّ ﷺ فيما صحَّ عنه من حديثِ أبي هريرةَ: «**إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ، ثُمَّ جَهَدَهَا، فَقَدْ وَجَبَ الغُسْلُ وَإِنْ لَمْ يُنْزِلْ**»(١).

وهذه مسأَلَةٌ تَخْفَى على كثيرٍ مِنَ الناسِ، فما أكثرَ الذين يفْعَلُونَ ذلِكَ، فيأْتُون أهلَهُم بدونِ إنْزالٍ ولا يغتَسِلُونَ، يظنُّونَ أنه لا غُسْلَ إلا بإنزالٍ، وتَجِدُهم يُصَلُّونَ عدَّة صلواتٍ وهُمْ على جَنَابَةٍ لم يشْعُروا بِهَا. ولهذا ينبَغِي لطالِبِ العلْمِ أن ينْشُرَ هذه المسألَةَ بينَ الناسِ، ولا سِيَّما بينَ المتزَوِّجِينَ؛ حتى لا يَتْرُكوا ما يجِبُ عليهِمْ من الاغتسالِ؛ ظنًّا منهم أنه لا يجِبُ.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ﴾ أي: تَطَهَّرُوا، ولم يُبيِّنِ اللهُ تعالى كيفَ نَتَطَهَّرُ، بل جعلَهُ مُجْمَلًا، وهو واضِحُ المعنَى في الواقِعِ، ولا يحتاجُ إلى بيانٍ؛ لأنني لو قُلْتُ لكَ: تَطَهَّرْ، لعرَفْتَ أنه يجِبُ أن يَعُمَّ الماءُ جميعَ بدنِكَ على أيِّ وجْهٍ كان.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الغسل، باب إذا التقى الختانان، رقم (٢٩١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب نسخ الماء من الماء ووجوب الغسل بالتقاء الختانين، رقم (٣٤٨)، وزيادة: «وَإِنْ لَمْ يُنْزِلْ» لمسلم فقط.

فقولُهُ تعالَى: ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ ليستْ جملَةً مُبْهَمَةً تحتاجُ إلى بيانٍ، لكنها جملَةٌ مبْهَمَةٌ لا تحتاجُ إلى تفصيلٍ في أدَائها، فإذا تَطَهَّرْتَ من الجنابَةِ على أيِّ وجْه كانَ؛ فقد طَهُرتَ، حتى لَو نَوَيْتَ وانْغَمَسْتَ في بِركَةٍ، أو انغَمَسْتَ في البحرِ وخَرَجْتَ وتَمَضْمضتَ واستَنْشَقْتَ، فإن ذلِكَ يُجزئكَ، ولا حاجَةَ أن تعمَلَ شيئا آخَرَ، وهذا على سبيلِ الإجزَاءِ.

ولكِنَّ السُّنَّة بيَّنَتْ كيفَ يغتَسِلُ الإنسانُ مِنَ الجنابَةِ، وهو على سبيلِ الاستِحبابِ، وليس على سبيلِ الوُجوبِ، أعني: الكَيفِيَّةُ التي جاءَتْ بها السُّنَّةُ عَلَى سبيلِ الاستِحبابِ لا الوُجوبِ، فكانَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ إذا اغتسل من الجنابَةِ غسَلَ كَفَّيْهِ ثَلاثًا، وغَسَلَ فَرْجه، وتَوَضَّأَ وضوءَهُ للصَّلاةِ، وأفاضَ الماءَ عَلَى رأسِهِ ثلاثًا، ويُخَلِّلُ شعَرَ رأسِهِ، ثم يُفيضُ الماءَ على سائرِ جَسَدِهِ، فيبْدَأُ أوَّلًا بالوضوء[1].

ولو أنك لم تَفْعَلْ هذا وأفَضْتَ الماءَ على جميعِ بدنِكَ بدونِ وُضوء قَبْلَهُ، لصحَّ غُسْلُكَ؛ لأنَّ الله قالَ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾، ولم يذكر تفصيلًا.

وهذا هو القِسْمُ الثاني مما جاءَ في هذِهِ الآيَةِ.

القسم الثالث: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، هذا هو القِسْمُ الثالِثُ من الطَّهارَةِ في هذِهِ الآيَةِ وهو طهارَةُ التيَمُّمِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الغسل، باب تخليل الشعر حتى إذا ظن أنه أروى بشرته أفاض عليه، رقم (٢٧٢).

قولُهُ: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ المراد بالمَرَضِ هنَا ما يَشقُّ معَه استعمالُ الماءِ، مثل لو كان مَريضًا بجُروحٍ، أو كان مريضًا بمَرَضٍ أقعدَهُ عن العَمَلِ، ولا يستطيعُ أن يتوضَّأَ، أو كان يَخْشَى مِنَ البردِ الشديدِ الَّذِي يُهـلِكُهُ، أو يَضُرُّهُ، ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ ولـم تجِدُوا ماءً فتيَمَّمُوا.

وقولُهُ: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾، قال بعضهم: إنَّ (أو) بَمْعنى الواوِ، أي: وجاءَ أَحَدٌ منكم من الغائطِ.

والغائطُ في اللُّغة العربيَّةِ: الموضِعُ المنخفِضُ في الأرْضِ، ومنه قولهُم في اللغة العُرْفية الآن الدارِجَةِ: «هذا شيء غَوِيط»، أي: عَميقٌ في الأرْضِ.

وكانوا فيما سبق عندَ نُزولِ الآية يقْصِدُونَ هذا الموضِعَ لِيَتَخَلَّوْا به، أي: ليَقْضُوا حاجَتَهم به؛ لأن البيوتَ ليسَ فيهَا محَلٌّ للبرازِ، فكانوا يَخْرُجونَ إلى البَرِّ، فإذا وجَدُوا مكانا منْخَفِضًا قَضَوْا فيه الحاجة؛ لأنه يكون مُستَتِرًا.

وفي الآيةِ الكريمَةِ من الكنايةِ عمَّا يُسْتَقْبَحُ ذِكْرُهُ ما هو ظاهِرٌ؛ لأن المرادَ بقولِهِ: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾: أو تَغـوَّطَ أحدٌ منكم؛ لكِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كَنَى عن ذلِكَ بهذه العبارةِ التي لا يستَقْبِحُها السامِعُ.

قوله: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وفِي قراءَةٍ: (أَوْ لَمَسْتُم النساء)[1].

والملامَسَةُ فسَّرَها ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وهو تَرجُمـانُ القرآنِ، بأنها الجِماعُ[2]، فـ﴿لَٰمَسۡتُمُ﴾ أي: جامَعْتُم، ولهذا جاءتْ ﴿لَٰمَسۡتُمُ﴾ هنا على صِيغَةِ فاعَلْتُمْ، كما هي

---

(١) حجة القراءات (ص:٢٠٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٠٥، رقم ١٧٦٨).

في: جَامَعْتُم، فيكون المرادُ بالملامَسَةِ الجماعَ، أي: جامَعْتُمُ النساءَ، ولكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَكنِي عن الجِماعِ بالمَسِّ والمُمَاسَّةِ والملامَسَةِ والإتيانِ، وما أشبَه ذلِكَ؛ لأنه قد يُسْتَحْيَا مِنْ ذِكْرِهِ، ولهذا من الأدَبِ في المخاطَبَةِ ألا تُعَبِّرَ بشيءٍ يُسْتحيا مِنْ ذِكْرِهِ، إلا إذا دَعَتِ الضرورَةُ إلى ذلِكَ.

وفي قولِهِ: ﴿لَـٰمَسْتُمُ﴾ قِراءةٌ ثانية سَبْعِيَّةٌ، وهي: (أَوْ لَمستُمُ النساءَ)، والقراءتان بمعنًى واحد؛ لأن اللمس والمَسَّ يُطلَقان أيضًا على الجماع، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة:٢٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ [البقرة:٢٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة:٣].

وعليه فيكونُ مَعْنَى القراءتينِ واحِدًا، لكنَّ إحداهُما تُفَسِّرُ الأخْرَى تفْسيرًا لا مجالَ للعُدولِ عنْه، وهو أنَّ المـرادَ باللَّمْسِ -بدون الألف- المُلامَسَةُ التـي هِي الجِماعُ.

وذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أن المرادَ باللَّمْسِ اللمسُ باليدِ، وقالُوا: إن الرَّجُل إذا مَس المرأةَ بيدِهِ مطلَقًا؛ انتَقَضَ وُضوءُه، ولكنَّ هذا القولَ ضَعِيفٌ، يُضعِّفه أننا لو قُلْنَا: إن المراد باللِّمْسِ أو الملامسَةِ المسُّ باليدِ، الذي يوجِبُ الوُضوءَ؛ لكانَ اللهُ تعالى ذَكَـر في الآيةِ الكريمَةِ سَببينِ مُوجِبَيْنِ للوضـوءِ، ولـم يذْكُر سَببًا واحدًا لِما يُوجِبُ الغُسْلَ:

فإذا قُلْنَا: ﴿جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ فهذا يوجِبُ الوضـوءَ، ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ

﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: باليدِ، فيوجِبُ الوُضوءَ فإذا قُلْنا: المرادُ اللَّمْسُ باليدِ، فهنا ذَكَرَ في الآية سَبَبينِ لشَيءٍ واحِدٍ، وهو الوضوءُ.

لكن إذا فسَّرنا الملامَسَةَ بالجِماعِ صارَ في الآية ذِكْرُ سَببينِ لحدَثَيْن؛ سببٍ للوضوء، وسببٍ للغُسْلِ. ومعلومٌ أن هَذَا أشملُ في الدَّلالَةِ وأعَمُّ، وأكمَلُ في التَّقْسِيم.

قوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟﴾ تيَمَّمُوا بمَعْنى: اقْصِدُوا، والتَّيَمُّمُ في اللُّغَةِ بمَعْنَى القَصْدِ، أما شَرْعًا فهُو قَصْدُ الصَّعِيدِ الطَّيِّبِ للتَّطَهُّرِ بِهِ، أو بعبارة أخرى: للتَّطَهُّرِ منْهُ.

قوله: ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ المرادُ بالصعيدِ: وَجْهُ الأرضِ، كما جاء في الحديثِ: «**إِنَّ اللهَ تعالى يَجْمَعُ الخَلَائقَ يومَ القِيامَةِ عَلَى صَعِيدٍ وَاحِدٍ**»[1].

وفي الحديثِ القُدُسِيِّ قال الله عَزَّوَجَلَّ: «**يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي**»[2]. فالصعيدُ إذن وَجه الأرضِ.

وقوله: ﴿طَيِّبًا﴾: الطَّيِّبُ ضدُّ الخَبيثِ، والخبيثُ هنا النَّجسُ، فيكون الطَّيِّبُ الطاهِرَ.

قوله: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ بَيَّنَ النَّبيُّ ﷺ كيفِيَّةَ ذلِكَ، بأن يَضْرِبَ الإنسانُ يدَيْهِ عَلَى الأرضِ مَرَّةً واحِدَةً، ثم يمْسَحَ بهما وجْهَهُ، ثم يمْسَحَ كَفَّيهِ بَعْضَهُما ببعضٍ[3]، هذا هُو التَّيَمُّمُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح:١]، رقم (٣٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب التيمم ضربة، رقم (٣٤٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب التيمم، رقم (٣٦٨).

وقولُه: ﴿مِّنۡهُ﴾ قيل: إن (من) للابتداءِ أو البيان، وقِيلَ: إن (مِن) للتَّبْعِيضِ، فعَلى القول بأنَّ (من) للتَّبعيضِ يُشْتَرَطُ أن يكونَ في هذا الصعيدِ تُرابٌ يُمْكِنُ أن يُنَفَضَ إلى الوَجْـهِ والكفَّيْنِ، وعلى القولِ بأنَّها للبَيانِ فإنَّه لا يلزم، وهذا القولُ هو الصَّحِيحُ.

ثم قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٍ﴾، ﴿يُرِيدُ﴾ هنا من أقْسامِ الإرادَةِ الشرعِيَّةِ؛ لأنها بمَعْنَى: يُحِبُّ، يعني أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لا يُحِبُّ أن يجعَلَ على العبادِ حَرَجًا، أي: ضِيقًا ومشَقَّةً فيما أمرهُم به.

وقوله: ﴿مِّنۡ حَرَجٍ﴾ (من) حرْفُ جَرٍّ زائدٌ زائدٌ، وبينهما فَرْقٌ، حرفُ جرٍّ زائدٌ من حيثُ الإعرابُ، لكنَّه زائدٌ للمَعْنى، يعني: يَزيدُ في المعْنَى، فزائدٌ الأُولى مِنْ (زادَ) اللازِمِ، وزائدٌ الثانِيَةُ من (زادَ) المتَعَدِّي؛ لأن الفعلينِ (زادَ ونَقَصَ) يُستعملانِ لازمينِ ومتعديينِ.

وفي الحقيقةِ هَذَا المقامَ قد لا يكونُ مَقامَ بحثٍ في النَّحْو، لكن أُحِبُّ تَنْشيطَ الذِّهْنِ لطلَبِ عِلْمِ النَّحْو؛ لأن بعضَ الناسِ لا يهتَمُّ بالنَّحْو إطلاقًا. انظر الفعلينِ (زادَ ونَقَصَ) يُستعملانِ لازمينِ ومتعديينِ، فيقال: زادَ المَرَضُ ونَقَصَ المرضُ، فهذا لازمٌ. ونقول: زادَ الإيمانُ ونقصَ الإيمانُ، وهو لازِمٌ أيضًا. وتقول: زادَهُ خيرًا، فهذا متَعَدٍّ، وتقول: نَقَصَهُ كذا، فهذا متَعَدٍّ أيضًا. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [التوبة:١٢٤]، وقال تعالى: ﴿لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ [التوبة:٤].

وهنا أنَا قُلْتُ: هذا حرفُ جَـرٍّ زائدٌ زائدٌ، فالأوَّلُ حرفُ جـرٍّ زائدٌ مِنْ زادَ اللازِمِ، والثاني مِنْ زادَ المتَعَدِّي، فهو زائدٌ من حيثُ الإعـرابُ، ولكنه من حيثُ

المعنَى يَزيدُ المعْنَى تَوْكِيدًا. فإذا قلتَ في النَّفْي: ما رأيتُ رجُلًا، فهذا نَفْيٌ لرُؤيَةِ الرجُلِ، وإذا قلت: «ما رأيتُ من رَجُلٍ» فإنه يكونُ هذا النَّفْيُ أبلَغَ.

فقولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ المعنى أنه لا يريدُ أن يَجْعَلَ علينَا -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وله المنَّةُ والفضلُ- أيَّ حَرَجٍ كانَ في دِينِ اللهِ.

وهذا كقولِهِ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

فليس في دِينِ اللهِ حَرَجٌ ولا مَشَقَّةٌ إطلاقًا.

واللامُ في قولِهِ: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ لامُ التَّعْلِيلِ، وإذا جاءتْ متَعَلِّقَةً بفِعْلِ الإرادَةِ فإنها زائدةٌ لفْظًا، زائدةٌ مَعْنًى؛ لأنها لو حُذِفَتْ وقال: ولكن يريدُ أن يُطَهِّرَكُم، صحَّ بدونِ لامٍ، ولهذا يُعْرِبُونَ اللام الواقعَةَ في سياقِ الإرادةِ على أنها زائدةٌ من حيثُ الإعرابِ.

قال تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يُتِمُّ النِّعْمَةَ بهذا التطهيرِ الَّذِي شَرَعَهُ لنَا ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وهذه الآيةُ الكَرِيمَةُ من حَيثُ الإجمالُ قسَّمَتِ الطهارَةَ إلى ثلاثَةِ أقسامٍ:

طهارَة بالماءِ مِنَ الحدَثِ الأصغرِ، وتنْتَهِي عندَ قولِهِ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾.

وطهارَة بالماءِ عَنِ الحدثِ الأكْبَرِ عندَ قولِهِ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾.

وطهارة بالتَّيَمُّمِ عن الحدَثينِ جَميعًا في قولِهِ: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾، إلى قولِهِ: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾.

فوائد الآية الكريمة:

أولًا: أَهَمِّيَّةُ الطهارَةِ من الحدَثِ الأصغَرِ والأكبرِ بِقِسْمَيْهَا المائيةِ والتُّرابِيَّةِ. ونأخذُ الأهمِّيَّةَ من أن الله صَدَّرهَا بالنِّداءِ.

ثانيًا: أن الوضوءَ مِنْ مقتَضياتِ الإيمانِ؛ لأن الخِطابَ به صُدِّرَ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وأن الإخلالَ به نَقْصٌ في الإيمانِ.

ثالثا: عِنايةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالصَّلاةِ؛ حيثُ فَرَضَ علينَا أن نتطَهَّرَ إذا قُمْنَا إليها، وغيرُها مِنَ العِبادات لا يُشْتَرَطُ له الطهارَةُ، ولم يُجمِعِ العلماءُ على أن شَيئًا مِنَ العباداتِ يُشْتَرَطُ له الطهارَةُ إلا الصلاة، وما عدَاها ففيه خِلافٌ.

فمثلًا: الطوافُ بالبَيْتِ، جمهورُ أهلِ العِلْمِ على أنه يُشترطُ له الطهارَةُ، وذَهَبَ بعضُ العُلماءِ -ومنهم شيخُ الإسلام ابن تَيميةَ[1]- إلى أنَّه لا تُشْتَرَطُ لَهُ الطهارَةُ.

أيضًا مَسُّ المصْحَفِ، فجُمهورُ العُلماءِ أو أكثَرُهم على أنه لا يجوزُ إلا بطهارَةٍ، وذهبَ بعضُ العلماءِ -ومنهم الشَّوْكَانِيُّ[2]- إلى أنه لا تُشْتَرَطُ لَهُ الطهارَةُ، وأظنُّ أهلَ الظاهِرِ كذلِكَ.

رابعًا: وجوبُ الطهارَةِ لصلاةِ الجَنازَةِ؛ لقولِهِ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، والصلاةُ على الجنازَةِ صَلاةٌ، كما تَدُلُّ على ذلكَ الأحاديثُ الكثيرَةُ عن النَّبيِّ ﷺ، مثلُ أنه صَلَّى على النَّجاشِي[3]، وقال: «**صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**»[4]، ودُفِن شُهداءُ أُحدٍ

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٩/ ٢٢٥).

(٢) نيل الأوطار (١/ ٢٥٩، ٢٦٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب موت النجاشي، رقم (٣٨٧٧)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب في التكبير على الجنازة، رقم (٩٥٣).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الحوالات، باب إن أحال دين الميت على رجل جاز، رقم (٢١٧٣).

أُحدٍ ولم يَصَلِّ عليهِمْ[(١)]، وهي أحاديثُ لا تُحصَى تُطْلِق الصلاةَ على هذَا الدعاءِ المخصوصِ على الميِّتِ.

بَقِيَ عندنَا سجودُ التِّلاوَةِ وسجودُ الشُّكْرِ؛ فإن قلنا: إنهما صلاةٌ، اشتُرِط لهما الطهارَةُ، فمن قال: إنهما يُبدآنِ بالتَّكبِيرِ ويُختمانِ بالتَّسْلِيمِ، قال: إنهما صلاةٌ، وتجِبُ لهما الطهارَةُ، ومن قال: لا يُبدآن بالتَّكْبِيرِ ولا يُخْتمانِ بالتَّسليمِ، قال: لا يُشْتَرَطُ لهُما الطهارَةُ.

خامسًا: ومِنْ فوائدِ الآيةِ الكَريمَةِ: وجوبُ غَسْلِ الوَجْهِ في الوُضوءِ، نأخُذُ ذلك من قولِهِ تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، والأصْلُ في الأمْرِ الوجوبُ.

سادسًا: تَحريمُ مسْحِ الوجْهِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾، وقوله في الرؤوس: ﴿وَٱمۡسَحُواْ﴾ ففَرَّق اللهُ تعالى بينَ الغَسْلِ والمَسْحِ.

سابعًا: أنه يجِبُ في الوُضوءِ إزالَةُ ما يَمْنَعُ وصولَ الماءِ؛ لأنه لو كانَ على العُضْو مانِعٌ يمنَعُ الماءَ؛ لم يَصْدُقْ عليه أنه غَسَلَهُ، ولهذا يجِبُ على الذين يُمارِسُونَ الشُّغْل في (البُوية) أن يُلاحِظُوا ذلك؛ لأن (البوية) تمنَعُ وصولَ الماءِ، فإذا مَنَعَتْ وصولَ الماء لم تَصِحَّ الطهارَةُ.

ثامنا: شَرَفُ الوجْهِ على بَقِيَّةِ الأعضاءِ؛ لأنَّ الله بدأَ بِهِ.

تاسعًا: أنه لا يجِبُ غَسْلُ الكفَّيْنِ قبلَ غَسْلِ الوجـهِ، يعْني: لو أنَّ الإنسانَ توَضَّأَ وبدأَ بغَسْلِ وجْهِهِ دونَ أن يَغْسِلَ كَفَّيْـهِ، فوُضُوؤهُ صَحِيحٌ؛ لأن اللهَ لم يذْكُرْ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجنائز، باب في الشهيد يغسل، رقم (٣١٣٥).

ذلك، ولو كانَ واجِبا لَذَكَرَهُ، لكِنَّ غسْلَ الكَفَّيْنِ في مُقَدِّمَةِ الوُضوءِ سُنَّةٌ فعَلَها النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ[1].

عاشرًا: ومِنْ فوائدِ الآيةِ الكَريمَةِ: وُجوبُ المضْمَضَةِ والاستِنْشاقِ. ويؤخَذُ هذا من قَولِهِ: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾؛ لأنَّ الأنفَ والفَم داخِلانِ في مُسَمَّى الوجْهِ، وعلى هذا فتَجِبُ المضْمَضَةُ والاستِنْشَاقُ. وقد أمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بالمبالَغَةِ في الاستِنْشَاقِ، إلا أن يكونَ الرَّجُلُ صَائمًا[2].

حادِي عشَر: وجوبُ غَسْلِ اليَدَيْنِ إلى المِرْفَقينِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾.

ويُستَفادُ مِنَ الآيةِ أن الأفْضَلَ أن يبْدَأَ الإنسانُ بغَسْلِ اليدِ مِنْ أطرافِ الأصابعِ، بذا قالَ بعضُ العلماءِ، قالُوا: إن في الآيةِ دليلًا على أنه يَنبَغي أن تَغسِلَ اليدَ مِنْ أطرافِ الأصابعِ مارًّا بِها إلى المِرْفَقِ، يعنِي لو أنَّك وضَعْتَ يدَكَ تحت (البزبوز) وهو صنبورُ الماءِ، وبدأتَ من عندِ المرفَقِ، لكان هذا خِلافَ المطلُوب.

ولكن هذا الاستِدلال عنْدِي فيهِ نَظَرٌ؛ لأن الغايَةَ تكون هِي الأخيرَةَ إذا ذُكِر الابتداءُ، أما إذا لم يُذكَرْ فإن ذلِكَ محَلُّ نظَرٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب الوضوء ثلاثا ثلاثا، رقم (١٥٩)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، رقم (٢٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب في الاستنثار، رقم (١٤٢)، والترمذي: أبواب الصوم، باب ما جاء في كراهية مبالغة الاستنشاق للصائم، رقم (٧٨٨)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي: كتاب الطهارة، باب المبالغة في الاستنشاق، رقم (٨٧)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب المبالغة في الاستنشاق والاستنثار، رقم (٤٠٧).

وعلى كلِّ حالٍ، فالظاهِرْ من فِعْلِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه يُبْدَأُ عندَ غَسْلِ اليدِ مِنْ أعْلاهَا.

وتَجِدُ أُناسًا يَغْسِلُونَ الذِّرَاعَ إلى المِرْفَقِ، ويتْرُكُون الكَفَّ، وهذا كثيرٌ، وخَطَأٌ؛ لأن الكَفَّ يجِبْ غسلُهُ مع الذِّرَاعِ. ومِنهم مَن لا يصِل بالماءِ إلى المرفقِ لأنه لا يرفَع ثيابَه عن ذِراعَيْه جيِّدًا قبلَ الوضوءِ، ولا سِيَّما في أيامِ الشتاءِ، فلا يكون قَدْ غَسَلَ يدَيْهِ إلى المرافِقِ، وهذا خطأ يجِبُ التَّنَبُّهُ لَهُ.

ثاني عشر: وجوبُ مَسْحِ الرأسِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾، وأنه يجِبُ في المَسْح تَعميمُ الرأسِ بِهِ؛ لقولِهِ: ﴿بِرُءُوسِكُمۡ﴾ ولم يقل: ببعضِ رُؤوسِكُم. فلو غَسَلَ الإنسانُ رأسَهُ بأن وضَعَه تحتَ البزبوز ليرْوَى بالماءِ بدلا مِنْ مسْحِهِ؛ لم يُجْزِئْه ذلِكَ؛ لأن هذا يَنْبَنِي على تَقْييدِ النَّصِّ بالعِلَّةِ.

والحِكْمَةُ من كونِ الأعضاءِ الثلاثَةِ تُغْسَلُ -وهي الوجه واليدانِ والرِّجْلانِ- وأن الرأسَ يُمسَحُ؛ هي التَّخْفِيفُ على الأُمَّةِ؛ لأنَّ الرأسَ لو غُسِل، والغالِبُ أن فيه شَعَرًا، تأذَّى الإنسانُ منه، ولا سِيَّما في أيام الشِّتَاءِ.

فقالَ بعضُ العلماءِ: إن الغَسْلَ لا يُجْزِئ؛ لأنه خِلافُ أَمْرِ اللهِ، وقدْ قالَ النبيُّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1]، إذن فلا يجزِئُ الغَسْلُ بدَلًا عن المَسْحِ، وقال آخرون: يُجْزِئ الغَسْلُ إن أَمَرَّ يدَهُ على الرأسِ؛ لأنه أَتَى بالمَسْحِ وزيادَةٍ، وهذا القولُ أرْجَحُ. ومع ذلك فإننا نقولُ: إن هذا خِلافُ الأَوْلى، وإنَّ الأَوْلى أن يَمسَحَ الإنسانُ رأسَهُ كما أمرَ اللهُ بِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

ثالث عشر: وُجوبُ مَسْحِ الأُذُنَيْنِ؛ لأن الأُذُنَيْنِ مِنَ الرأسِ، وعلى هذا تكونُ الآيَةُ دالةً على وُجوبِ مَسْحِ الأُذُنَيْنِ.

رابع عشر: مِنْ فوائدِ الآيةِ الكريمَةِ: وجوبُ غَسْلِ الرِّجْلينِ إلى الكَعْبَيْنِ؛ لقولِهِ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾.

خامس عشر: جوازُ المسحِ علَى الخُفَّيْنِ والجَوْرَبَيْنِ، وهذا علَى قراءةِ: **(وأرجلِكُم)** بالكَسْرَةِ، وهي قِراءَةُ الجرِّ، كما تقدَّم قَبْلَ قليلٍ.

سَادس عشر: وُجُوبُ الترتيبِ بينَ الأعضاءِ الأربعَةِ، فنَبْدَأُ بالوجْهِ، ثم اليَدَيْنِ، ثم الرأسِ، ثم الرِّجْلَيْنِ؛ لأن اللهَ تعالى بدَأَ بها مُرَتَّبَةً، ولأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أدْخَلَ مَمْسُوحًا بينَ المغْسُولاتِ، والبلاغَةُ تَقْتَضِي أن تُذْكَرَ المغسولاتُ وحدَها، والمَمْسُوحاتُ وحْدَها إلا لسببٍ، ولا نَعلَمُ لذلك سَبَبًا إلا مُراعاةَ التَّرتيبِ. وعلى هذا فيكونُ في الآية دَلَالَةٌ على التَّرتيبِ من وَجْهَينِ:

الوجه الأول: أن اللهَ ذَكَرَهَا مُرَتَّبَةً، والنبيُّ ﷺ حينَ أقْبَلَ على الصَّفَا ليَسْعَى قَرأَ: ﴿ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ﴾ [البقرة:١٥٨]، وقال: «**أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ**»[1]، وفي رواية للنَّسَائي: «**ابْدَؤُوا بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ**»[2].

الوجه الثاني: أنَّ اللهَ تعالى أدْخَلَ المَمْسُوحَ بينَ المغْسُولاتِ، ولا نَرَى لذلك فائدَةً إلا مراعَاةَ التَّرتيبِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب مناسك الحج، باب القول بعد ركعتي الطواف، رقم (٢٩٦٢).

سابع عشر: مِنْ فـوائدِ الآيةِ الكريمَةِ: أنه لا يجِـبُ التَّرْتِيبُ بينَ اليُمْنَـى واليُسْرى، وأنـه لو قدَّمَ اليُمْنَـى على اليُسْرَى أجْزَأَهُ؛ لأنـه قالَ: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾، ولـم يقل: واليَد اليُمْنَى ثم اليُسْرَى، وقالَ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، ولـم يقل: اليُمْنَى قبلَ اليُسْرى.

ولكن مع ذلك التَّيامُـنُ أفضلُ، أي: أن تَبدأَ باليدِ اليُمْنَـى قبلَ اليُسْرَى، وبالرِّجلِ اليُمْنَى قبلَ اليُسْرَى أفضلُ، قالت عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ فِي تَنَعُّلِهِ، وَتَرَجُّلِهِ، وَطُهُورِهِ، وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ»[١].

ثامن عشر: وجوبُ المُوالاةِ، يعني: أَلَّا تُؤَخِّرَ غَسْلَ عُضْوٍ عن الَّذِي بعدَهُ بزمَنٍ كثيرٍ تَنْقَطِعُ به الموالاةُ، ففي الآية دَليلٌ على وُجـوبِ المُوالاةِ؛ وذلك أن الأعضاءَ ذُكِرَتْ مُتواليَةً، وهِي واقِعَةٌ في جوابِ الشَّرْطِ، حيث قال: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ﴾، ومعلومٌ أن جوابَ الشَّرْطِ يَلِي المشْرُوطَ، فإذا كان جوابُ الشَّرْطِ يَلِي المشروطَ، وقد ذُكِرتِ الأعضاءُ متوالِيَةً؛ دلَّ ذلك على أنه لا بُدَّ من المُوالَاةِ.

وقد جاءتِ السُّنَّةُ بذلِكَ، وأن الرَّجُلَ لو أخَّرَ غَسْلَ عُضْوٍ عن الذي قبْلَهُ بزمنٍ كثيرٍ يُعَدُّ منْفَصِلا؛ وجَبَتْ عليهِ الإعادَةُ.

وقد سبَقَ أن ذكرنا أن فِي الآيَةِ الكَريمَةِ جَوازَ المسْحِ على الخُفَّيْنِ، وكذلك على الجَوْرَبَيْنِ، والفَرْقُ بين الخُفَّيْنِ والجَورَبَيْنِ؛ أن الخُفَّيْنِ من الجُلودِ وشِبْهِهَا، والجورَبَيْنِ مِنَ الصُّـوفِ والقُطْنِ والكَتَّان، وما أشبَه ذلِكَ، وتُسَمَّى الجـوارِبُ عندَ النَّاسِ في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل، رقم (١٦٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب التيمن في الطهور وغيره، رقم (٢٦٨).

لُغَتِهِمُ العامِّيَّةِ شُرَّابة، وعلى هذا فيجوزُ المَسْحُ علَى الخُفَّيْنِ أو الجوارِبِ بدَلالَةِ القُرآنِ، كما أن السُّنَّةَ متواتِرَةٌ به، فَقَدْ تواتَرَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنه مَسَحَ عَلى الخُفَّيْنِ، وجاء فيه عَنِ النَّبـيِّ ﷺ وعن الصحابَةِ نحوُ أربعينَ حدِيثًا. وقد نَظَمَ الشاعِـرُ بعضَ الأحاديثِ المتواتِرَةِ في بيتَينِ مِنَ الشِّعْرِ هما:

مِمَّـا تَـوَاتَرَ حَـدِيثُ مَـنْ كَـذَبْ ... وَمَـنْ بَنَـى للهِ بَيْتًـا وَاحْتَسَـبْ

وَرُؤْيَـــةٌ شَـــفَاعَةٌ والحَـــوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّـيْنِ وهَـذِي بَعْـضُ[1]

ونَتَعَرَّضُ بعضَ الشيءِ لجوازِ المَسْحِ على الخُفَّيْنِ فنقولُ:

يُشترطُ لجوازِ المَسْحِ على الخُفَّيْنِ أن يتَقَدَّمَ لُبْسَهُما طهارَةٌ؛ ودليلُ ذلِكَ حَدِيثُ المغيرَةِ بنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: كنتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في سَفَرٍ فتوَضَّأَ، فأَهْوَيْتُ لِأَنْزِعَ خُفَّيْهِ، فقالَ: «**دَعْهُما، فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُما طَاهِرَتَيْنِ**»[2]، فلا بُدَّ أن تَلْبَسَهُما على طهارَةٍ.

فلو أن أحدًا لَبِسَهما على غيرِ طهارَةٍ للتَّدْفِئةِ، فنَسِي ومَسَحَ عليهِما وصَلَّى، فوُضوءُهُ وصَلاتُهُ ليسَا بصَحِيحَيْنِ؛ لأنه لم يُطَهِّرْ رِجْلَهُ الطهارةَ الواجِبَةَ، وهذا ليس من بابِ فِعْلِ المحظُورِ؛ ولكنه من بابِ تَرْكِ المأمورِ.

وفي حديثِ المغيرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَلِيلٌ على أن مَن كان عليهِ خُفَّانِ، فإنَّ مَسْحَهُما أفضَلُ من الغَسْلِ. ويُؤخَذُ ذلِكَ من قَولِهِ: «**دَعْهُما**». فلو سأَلَ سائلٌ: أيهما أفضَلُ المَسْحُ على الخُفَّيْنِ، أم غَسلُ الرِّجلَيْنِ؟ قلنا: مَن كان لابِسًا للخُفَّيْنِ فالأفضَلُ المَسْحُ،

---

(١) للتاودي كما في نظم المتناثر (ص:١٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا أدخل رجليه وهما طاهرتان، رقم (٢٠٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب المسح على الخفين، رقم (٢٧٤).

ومن لم يكن لابسًا فالأفضَلُ الغَسْلُ، بمعنى أننا لا نقول له: البَسِ الخُفَّيْنِ لتَمْسَحْ، فالرِّجْلُ إن كانت مستُورَةً فإنها تُمسَحُ، وإن كانت غيرَ مسْتورَةٍ فإنها تُغسَلُ.

ومن شُروطِ جوازِ المسحِ على الخُـفَّيْنِ: أن يكونَ في المدَّةِ المحدَّدَةِ، وهي يومٌ وليلَةٌ للمُقِيمِ، وثلاثَةُ أيامٍ بلَيَالِيهَا للمسَافِرِ، ودليلُ ذلك حديثُ عليِّ بنِ أبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبِيَّ ﷺ جعَلَ لِلْمُقِيمِ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَلِلْمُسَافِرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ[1]، يعنِي للمسحِ علَى الخُفَّيْنِ.

وكذلك حديثُ صفوانَ بنِ عَسَّالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كُنَّا سَفْرًا[2]، أَلَّا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهُنَّ، إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ، وَلَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ»[3].

فيَجِبُ أن يكونَ المسْحُ في المدَّةِ المحدَّدَةِ، وفي ابتداءِ هَذِهِ المدَّةِ أقوالٌ، فهناكَ قولٌ -وهو قول شاذ- أنَّها تَبْتَدِئُ مِنَ اللُّبْسِ، وقيلَ: تَبْتَدِئُ من الحَدَثِ بعدَ اللُّبْسِ، وقيل: تَبْتَدِئُ مِنَ المسحِ بعدَ الحدَثِ.

ولنمثِّل مثالًا يَتَبَيَّنُ بِهِ ابتداءُ المدَّةِ: فهذا رجلٌ توضَّأَ لصلاةِ الفَجْرِ في الساعَةِ الرابعة وعَشْر دقائق، ولَبِس، ثم أحدَثَ في الساعة الثامنة، ثم مَسَحَ في الساعَةِ الثانية عشرةَ، فعَلَى القَولِ بأنه من المسْحِ، يكونُ ابتداء المدَّةِ من الساعَةِ الرابعة وعشْرِ دقائقَ، ومن الحَدَثِ بعدَ اللُّبْسِ: الساعة الثامنة، ومن المسْحِ: الساعَة الثانية عشرة.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب التوقيت في المسح على الخفين، رقم (٢٧٦).

(٢) أي: مسافرينَ.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الطهارة، باب المسح على الخفين للمسافر والمقيم، رقم (٩٦)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب التوقيت في المسح على الخفين للمسافر، رقم (١٢٦)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء من النوم، رقم (٤٧٨).

والقولُ الراجِحُ أنها تَبْتَدِئُ مِنَ المسحِ؛ لأن النَّبِيَّ ﷺ قال: يَمْسَح، ولا يتَحَقَّقُ المسحُ إلا بوجودِهِ فِعْلًا، فابتداءُ المُدَّةِ من أَوَّلِ مرَّةٍ مَسَحَ بعدَ الحدَثِ.

ولمزيد مِنَ الإيضاحِ نَضْرِبُ المثالَ بصورةٍ أُخْرَى بها بعضَ التَّغْييرِ عنْ سابِقَتِهَا: لَبِسَ رجلٌ الخُفَّيْنِ في الساعةِ الرابعة وعشر دقائق من صَباحِ يومِ الأربعاءِ، وبَقِي مُتَوَضِّئًا كلَّ النهارِ، ونامَ بعدَ أن صَلَّى العشاء، وقام لصلاةِ الفَجْرِ من اليومِ الثاني في الساعة الرابعة وعشر دقائق، فمَسَحَ، فيكونُ ابتداءُ المدَّةِ من الساعةِ الرابعة وعشر دقائق من صباحِ يومِ الخَمِيسِ؛ لأن ما قَبْلَ المسْحِ لا يُحسَبُ من المدَّةِ، ثم عُدَّ أربعًا وعشرين ساعة بعدَ المسْحِ إذا كُنْتَ مُقِيمًا، واثنتين وسبعينَ ساعة بعدَ المسْحِ إذا كُنتَ مسافرًا.

ومن شُروطِ المسحِ على الخُفَّيْنِ: أن يكونَ المسْحُ في الحَدَثِ الأصغر، أما في الجنَابَةِ فلا مَسْحَ، ودليلُهُ حديثُ صفوانَ الَّذِي أشَرْنَا إليه قَبلُ: «إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ، وَلَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ».

فإذا حَصَلَتْ للإنسانِ جَنَابَـةٌ وعليه خُفَّانِ، فإن الواجِبَ عليه أن يخْلَعَهُما ليَغْسِلَ رِجْلَيْهِ؛ لأن طهارَةَ الجنابَةِ أغلَظُ مِنْ طهارَةِ الحَدَثِ الأصغَرِ، ولهذا يَحْرُمُ على مَن عليهِ جنابَةٌ ما لا يَحْرُمُ على مَن كانَ عليه حدَثٌ أصغَرُ.

فإن قالَ قائلٌ: إذا تَمَّتْ مدَّةُ المسحِ فهَل يبْطُلُ الوضوءُ؟

قلنا: مثالُ ذلِك: هذا رَجُلٌ مسَحَ وهو مُقِيمٌ في الساعةِ الثانية عشرة ظُهْرَ يوم الثلاثاء، فلما صارَتِ الساعَة الحادية عشرة ونِصْفًا ظُهْرَ يومِ الأربعاء، توَضَّأَ ومسَحَ، فتَمَّتِ الساعَةُ الثانية عشرة، وصَلَّى الظُّهرِ، فَفِي هذه الحالِ نقولُ: الصَّحيحُ

أن وُضوءَهُ لم يَنْتَقِضْ بمَجِيءِ الساعة الثانية عشرة مِنْ يومِ الأربعاء؛ بل وُضوءهُ باقٍ ولو تمَّتِ المُدَّةُ، لكن لا يمْسَحُ بعدَ تمامِ المُدَّةِ.

ووجْه كونِ ذلِكَ هو القَولَ الصَّحيحَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ إنَّما وقَّتَ المسْحَ ولم يوقِّتِ الطهارَةَ، فلم يَقُلْ: الطهارةُ يومٌ وليلَةٌ، وإنما وقَّتَ المسْحَ، فإذا تَمَّ اليومُ والليلةُ، فإن مُقْتَضَى ذلِكَ ألَّا أمْسَحَ، وليس مُقْتضاهُ أن يَبْطُلَ وُضُوئي، هذا وجه.

وهناك وجهٌ ثانٍ يقولُ: إن هذا الَّذِي مسَحَ قبلَ تمامِ المُدَّةِ بنصفِ ساعَةٍ، ثم تمَّتِ المدَّةُ وهو ماسِحٌ، قد صَحَّ وُضوءُه بمُقْتَضَى دليلٍ شَرْعِيٍّ، والقاعدةُ: أن ما صَحَّ بمُقْتَضَى دليلٍ شَرْعِيٍّ، فإنه لا يمكنُ إفسَادُه إلا بدليلٍ شَرْعِيٍّ، وليس لِمَن قال: إنه ينتَقِضُ بتمامِ المُدَّةِ دليلٌ شَرْعِيٌّ يدلُّ على ذلِكَ.

ولو أن الرَّجُلَ خَلَعَ الجَوْربَ -أو الخُفَّ- الذي مسَحَهُ فهل تُنتَقَضُ طهارَتُه؟

فيه خلافٌ كالأوَّلِ، لكنَّ الصَّحيحَ أن طهارَتَهُ لا تَنْتَقِضُ؛ لأننا نقـولُ: هذا الرجل الذي مسَحَ على الجورَبِ، أو على الخُفِّ، صحَّتْ طهارَتُهُ؛ لأن المدَّةَ ما زالَتْ باقِيَة، فإذَا خَلَعَ الخُفَّ فإنَّنا نقولُ: ما دَامَتْ طهارتُهُ قد صَحَّتْ بمُقْتَضَى دليلٍ شَرْعِيٍّ، فإنَّنا لا نَنْقُضُها إلا بدليلٍ شَرْعِيٍّ، وأين الدَّليلُ على أن خَلْعَ الخُفِّ ناقِضٌ للوضوءِ؟ ليس هناكَ دَلِيلٌ.

وأيضًا لو أن رَجُلًا توضَّأ وعليهِ شَعَرٌ كثيرٌ على رأسِهِ، ومسَحَهُ، ثم بعدَ أن أتَمَّ وُضُوءهُ حَلَقَ رأسَهُ، فزالَ المَمْسُوحُ، فلا ينتَقِضُ وُضُوءُهُ، حتى على قولِ مَنْ يقولُ: إن الوضوءَ يَنتَقِضُ بخَلْعِ الخُفِّ. وعلى هَذَا، فإذا خَلَعَ خُفَّهُ فإن طهارَتَهُ باقِيَةٌ لا تَنْتَقِضُ، لكن لا يُمكِنُ أن يعيدَ الخُفَّ مرَّةً أُخْرَى إلا بعدَ أن يتَوَضَّأَ ويغْسِلَ الرِّجْلَيْنِ.

تاسع عشر: وجوبُ التَّيَمُّمِ عندَ عدمِ الماءِ، أو عندَ التَّضَرُّرِ باستِعمالِهِ. ودليلُ ذلِكَ: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾.

عشرون: أن التَّيَمُّمَ يكونُ في الحدَثِ الأكبرِ والأصغَرِ؛ لقولِهِ: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ على التفسيرِ الصَّحِيحِ لقولِهِ: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ﴾.

واحد وعشرون: أن الغائطَ ناقِضٌ للوُضوءِ. ويُؤخَذُ ذلِكَ من قولِهِ: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾، وهذا يدُلُّ على أن الغائطَ ناقِضٌ للوضوءِ، ومثلُهُ البَولُ؛ لأنه خارِجٌ من السَّبِيلِ، كذلك مِثْلُهُ الريحُ؛ لأنه خارِجٌ من السَّبِيلِ أيضًا.

وقد ثَبَتَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قالَ: «**إِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ فِي بَطْنِهِ شَيْئًا، فَأَشْكَلَ عَلَيهِ أَخَرَجَ مِنْه شَيْءٌ أَمْ لَا فَلَا يَخْرُجَنَّ مِنَ المَسْجِدِ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا**»[1]، وهذا دليلٌ على أن الرِّيحَ ناقِضٌ للوضوءِ.

ولو خَرَجَ مِنَ السَّبِيلَيْنِ دَمٌ، ليس بولًا ولا غائطا ولا رِيحًا، ولكنه دَمٌ، مثل أن يكونَ الإنسانُ مُصَابا بالبَواسِيرِ، أو أن مثانَتَهُ به جُرْحٌ، فكذلك يَنْتَقِضُ الوضوءُ. ولهذا نقولُ: كل خارِجٍ مِنَ السَّبِيلَيْنِ فإنه ناقِضٌ للوضوءِ، سواءٌ أكان بولًا، أم غائطًا، أم دَمًا، أم مَاءً، أم مَذيًا، أما المنيُّ فإنه يوجبُ الغُسْلَ.

اثنان وعشرون: جوازُ التَّيَمُّمِ على كلِّ أجزاءِ الأرضِ؛ لقولِهِ: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، رقم (١٣٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على أن من تيقن الطهارة ثم شك، رقم (٣٦١).

طَيِّبًا﴾، فيجوزُ التَيَمُّمُ على الأرضِ، سواءٌ أكانَتْ رَمْلِيَّةً، أو طِينِيَّةً، أو ذاتَ غُبارٍ، أو ليس لها غُبارٌ؛ لأن الله تعالى لم يُفصِّلْ، ولأن النَّبِيَّ ﷺ وأصحابَهُ كانُوا يُسافِرُونَ ويَمُرُّونَ بالأراضِي الرَّمْلِيَّةِ والتُّرابِيَّة، ويتيَمَّمونَ، وهذا دليلٌ على أنه يجوزُ التيَمُّمُ بكلِّ ما كانَ على وجهِ الأرضِ، وهذا إذا كان مِنَ التُّراب، أي: مِن أصلِ الأرْضِ، كالأحجارِ، والأتْرِبَةِ، وما أشبَه ذلِكَ.

أما الفَرْشُ فالصَّحيحُ أنه لا يُتَيَمَّمُ عليه، إلا إذا عَدِمَ مكانًا من الأرضِ، وكان عندَهُ فُرُشٌ وفيها غُبارٌ، فحينئذ يجوزُ أن يتيَمَّمَ عليهَا.

ثلاثة وعشرون: أنه يُشتَرَطُ للتُّرابِ المتيَمَّمِ بِهِ أن يكونَ طاهِرًا؛ لقولِهِ تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

أربعة وعشرون: تَسَاوِي الطَّهارَتَيْنِ في التيَمُّمِ؛ طهارةِ الحدَثِ الأصغرِ والأكبرِ؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآيِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾، بينَما الأعضاءُ المغسولَةُ أو المطهَّرَةُ بالطهارَةِ الصُّغْرَى تختَلِفُ في طهارةِ الماءِ؛ ففي الجنابَةِ يَغسِلُ جميعَ البَدَنِ، وفي الوُضوءِ لا يغسِلُ إلا الأعضاءَ الأربعةَ، أما التيَمُّمُ فإن الطهارَتيْنِ فيه على حدٍّ سواءٍ.

والفرْقُ ظاهِرٌ؛ لأن المقصودَ بالتيَمُّمِ إظهارُ التعبُّدِ للهِ، حيثُ إن الإنسانَ يمْسَحُ أشرَفَ أعضائِهِ بهذَا التُّرابِ، وهذا لا يختَلِفُ فيه الموجِب للغُسل والموجِبُ للوضوءِ، فإن التَّعبُّدَ حاصِلٌ، بخلافِ الطهارةِ بالماءِ، فإن فيها تَنْظِيفًا، فلذَلِك خُصَّتِ الأعضاءُ الأربعةُ بالوضوء، وجميعُ البَدَنِ بالغسْلِ.

خمسة وعشرون: وجوبُ مَسْحِ الوجْهِ في التيَمُّمِ. ويُؤخَذُ هذَا من قولِهِ تعالى: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾، فلو أن رَجُلًا ليس عندَهُ ماءٌ، وهو ممن يجوزُ له أن يَتيَمَّمَ، فهَبَّتْ عاصِفَةٌ، فاستَقْبلَهَا بوجْهِه حتى امتلأَ غُبارًا، واستَقْبلَها بيدَيهِ أيضًا حتى امتلأتْ غُبَارا، لم يُجْزِئه ذلِكَ؛ لأنه ليس فيه مَسْحٌ، والله عَزَّوَجَلَّ أَوْجَبَ المسحَ.

ستة وعشرون: أن التَّيَمُّمَ مُطَهِّرٌ؛ لقولِه: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾. وقد جاءتِ السُّنَّةُ أيضا بما جاءَ بِه القُرآنُ، وهو أن التيَمُّمَ مطَهِّرٌ، مثلُ قولِهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»(١)، فقال: «**وطَهُورًا**» بفَتْحِ الطاءِ، ولم يَقُلْ: وطُهورًا بضَمِّهَا، والفرق بينَهُما أن الطُّهُورَ بالضَمِّ: فِعْلُ المتَطَهِّرِ، والطَّهُورُ بالفتْحِ: ما يُتطَهَّر به.

ومنه أيضًا: السَّحُورُ بالفتْح، والسُّحورُ بالضَمِّ، فالسَّحورُ بالفتْحِ: ما يُتَسَحَّر به، وبالضم: الأكلُ نفْسُه، وقد قال الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا أَخَّرُوا السُّحُورَ**»(٢)، يعني الفِعْلَ.

وبناءً على قولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**» لو تيَمَّمَ الإنسانُ لصلاةِ الفَجْرِ، وبَقِي على طهارتِهِ إلى صلاةِ الظُّهْرِ، فإنه يُصَلِّي بالتَّيَمُّمِ صلاةَ الظُّهْرِ، وإن بَقِيَ إلى العَصْرِ صَلَّى العَصْرَ، وإن بَقِيَ إلى المغرِبِ صلى المغرِبَ، وإن بَقِيَ إلى العشاءِ صَلَّى العشاءَ؛ لأن هذا التيَمُّمَ طهَّرَهُ بمُقْتَضَى دلالَةِ القُرآنِ والسُّنَّةِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٢، رقم ٢١٨٣٩).

والطهارة إذا ثَبَتَتْ بدليلٍ شَرْعِيٍّ لا تَرْتَفِعُ إلا بدليلٍ شَرْعِي، ولا دليلَ على أن التيَمُّمَ يَنتَقِضُ بخُروجِ الوقتِ.

وعلى هذا، فما دُمْتَ على طهارَتِكَ فإنَّك تَبْقى على طهارتِك، ولا تَتيَمَّمْ، وهذا القول -أعني أن التيَمُّمَ رافِعٌ للحدَثِ- هو القول الصَّحيح الذي اختاره شيخ الإسلام ابنُ تيميةَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وجماعةٌ من المحقِّقين.

لكنَّ رَفْعَهُ للحَدَثِ رفْعٌ مؤقَّتٌ، فإذا وُجِدَ الماءُ أو زالَ المانِعُ مِنِ استِعمالِ الماء، وجَبَ عليه أن يتَوَضَّأَ إن كانَ تيَمُّمُهُ عن حدَثٍ أصغَرَ، وأن يغتَسِلَ إن كان تَيمُّمُهُ عن حدَثٍ أكبَرَ.

ودليلُ ذلك ما ثَبَتَ في (صحيح البخاريِّ) من حديثِ عِمرانَ بنِ حُصَينٍ في قِصَّةِ نَقْصِ الماءِ عليهِمْ، وأخْذِهِمُ المَزادَة من المرأةِ المشرِكَةِ، وتَوَضُّئِهم منها، وسَقْيِهم الإبل، وكان هناك رجلٌ لما فَرَغَ النَّبِيُّ ﷺ من صلاتِهِ رآهُ مُعْتَزِلًا، فقالَ له النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَنَا؟**» قال: يا رسولَ اللهِ، أصابَتْنِي جَنابَةٌ ولا ماءَ، فقالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ، فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ عَنِ المَاءِ**»، وهذِهِ الجملَةُ دليلٌ على أن التيَمُّمَ رافِعٌ للحَدَثِ؛ لأن الماءَ رافِعٌ للحدَثِ.

ثم جلس الرجل، فلَمَّا جِيءَ بالماء، وارتَوى الناسُ، واستَقَوا، وبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ، قال للرَّجُلِ: «**خُذْ هَذَا، فَأَفْرِغْـهُ عَلَى نَفْسِكَ**»[2] فقولُهُ: «**خُذْ هَذَا فَأَفْرِغْـهُ**» يدُلُّ على أن

(١) جامع المسائل لابن تيمية (٢/ ٢٠٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب الصعيد الطيب وضوء المسلم، رقم (٣٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة، رقم (٦٨٢).

التيَمُّمَ رفعَ الحدَثَ عنه رَفْعًا مؤقَّتًا حتَّى يجِدَ الماءَ، فإذا وجَدَه فلْيَسْتَعْمِلْهُ، وكذلك قوله ﷺ في حديث أبي ذَرٍّ: «**إِنَّ الصَّعِيدَ الطَّيِّبَ وَضُوءُ لِلْمُسْلِمِ وَإِنْ لَمْ يَجِدِ المَاءَ عَشْرَ سِنِينَ، فَإِذَا وَجَدَ المَاءَ فَلْيُمِسَّهُ بَشَرَتَهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ**»[1].

سبعة وعشرون: من فوائدِ الآيـةِ الكَريمَةِ: إثباتُ الإرادَةِ لله عَزَّوَجَلَّ بالمعْنَـى الشَّرْعِيِّ؛ لقولِهِ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾.

ثمانية وعشرون: أن الحَرَجَ منْفِـيٌّ شَرْعًا، ولهذا يقولُ العلماءُ: كُلَّما وُجِدَتِ المشقَّةُ وُجِدَ التَّيْسِيرُ، وبعضهم يُعَبِّرُ عن المعنَى بعبارَةٍ أخْرى، فيقولُ: المَشَقَّةُ تجْلِبُ التيْسِيرَ، وهذا صحيحٌ؛ قال النَّبِيُّ ﷺ لعِمْرانَ بن حُصَيْنٍ: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**»[2]، وهذا تَيسيرٌ لوُجودِ المشَقَّةِ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «إنَّ النَّبيَّ ﷺ جمَعَ بينَ الظُّهْرِ والعصر، وَبَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ فِي غَيْرِ خَوْفٍ وَلَا مَطَرٍ»، وعِندمَا سُئلَ ابنُ عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «**أَرَادَ أَلَّا يُحْرِجَ أُمَّتَهُ**»[3]، أي: ألَّا يَشُقَّ عليهَا.

وصَلَّى النَّبِـيُّ ﷺ بأصحابه في رَمضانَ ثلاثَ ليالٍ، ثم ترَكَ ذلك في الليلـةِ الرابعَةِ أو الثالثة، ثم قال: «**إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا**»[4].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٦، رقم ٢١٣٤٢)، وأبو داود: كتاب الطهارة، باب الجنب يتيمم، رقم (٣٣٢)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب الصلوات بتيمم واحد، رقم (٣٢٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعدا صلى على جنب، رقم (١٠٦٦).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع، باب الجمع بين الصلاتين في الحضر، رقم (٧٠٥).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب من قال في الخطبة بعد الثناء أما بعد، رقم (٩٢٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، رقم (٧٦١).

وقالَ ﷺ: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي -أَوْ عَلَى النَّاسِ- لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ»[1].

وقال حينَ تأخَّر في صَلاةِ العِشَاءِ إلى ثُلُثِ الليلِ: «إِنَّهُ لَوَقْتُهَا لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي»[2].

والآياتُ في هذَا كثيرَةٌ، وكلها تَدُلُّ على أن هذَا الدِّينَ ليسَ فيه حَرَجٌ ولا مشَقَّةٌ؛ سواء في أصلِ العِباداتِ، أو فِيـمَا إذا وُجِدَ طارِئٌ يَقْتَضِي التَّخْفِيـفَ؛ فَفِي الصوم -مثلًا- إذا سَافَرَ الإنسانُ فإنه يُفطِرُ، وإذا كانَ مَرِيضًا فإنه يُفْطِرُ؛ لأن ذلِكَ قد يَشُقُّ عليهِ.

تسعة وعشرون: أنه لا يجوزُ أن يَمَسَّ القرآنَ رَجُلٌ بغيرِ وُضوءٍ. ويُؤخَذُ ذلِكَ من قَولِهِ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، وقَدْ قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَمُسُّ القُرآنَ إِلَّا طَاهِرٌ»[3]. فإذا قَرَنْتَ الحديثَ بالآيةِ عَرَفْتَ أن مَعْنى الطاهِرِ هو الذي تَوَضَّأَ وتطَهَّرَ بالماءِ أو بالتَّيَمُّمِ، وعلى هذا فلا يجوزُ أن يَمَسَّ القرآنَ إلا طَاهِرٌ.

وقد قالَ بعضُ العلماءِ: إنه يجـوزُ لغَيْرِ الطاهِرِ أن يَمَسَّ القرآنَ، يعْنـي: لغيرِ المتَوَضِّئ، وقالوا: إن قولَهُ ﷺ: «لَا يَمُسُّ القُرآنَ إِلَّا طَاهِرٌ» أي: إلا مؤمِنٌ، واستَدَلُّوا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة، رقم (٨٨٧)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب السواك، رقم (٢٥٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب وقت العشاء وتأخيرها، رقم (٦٣٨).

(٣) أخرجه مالك رقم (٤٦٩)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٣١٣، رقم ١٣٢١٧)، والصغير (٢/ ٢٧٧ رقم ١١٦٢).

لقولِهِمْ بقولِ النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤمِنَ لَا يَنْجُسُ»[1]، وبِقولِهِ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ ﴾ [التوبة:٢٨]، فقالوا: المرادُ بالطاهِرِ المؤمِنُ، أي: لا يَمَسَّ القرآنَ إلا مؤمِنٌ، سواءٌ أكان مُتَوَضِّئًا أم غيرَ متَوَضِّئٍ، ولكن هذا ليس بصوابٍ؛ لأننا لم نَعْهَدْ عن النَّبيِّ ﷺ أنه عبَّر عن المؤمِنِ بالطاهِرِ، وإنما عبَّر عن المؤمِنِ بالإيمانِ، ألم تَرَ إلى قولِهِ تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ [الأنفال:٢]، ولم يَقُلْ: إنما الطاهِرُونَ الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وجِلَتْ قُلُوبُهم.

ثلاثون: أن الشَّرْعَ من تَمامِ النِّعْمَةِ؛ لقولِهِ: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ ﴾، ويدُلُّ على أن الشَّرْعَ من تَمامِ النِّعْمَةِ قولُه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة:٣].

ولا شَكَّ أن أكْبَرَ نَعْمَةٍ يُنْعِمُ اللهُ بها علَى العبادِ؛ أن يَشْرَعَ لهُم دِينًا يُوصِّلُهُم إليه، أرَأيتَ لو أنَّ قَرْيَةً من القُرَى على رأسِ جَبَلٍ، والوصولُ إليهَا صَعْبٌ، فجاءَ بعضُ المُحْسِنينَ وفتَحَ لها طَرِيقًا سَهْلًا مُعَبَّدًا، ألا يُعْتَبَرُ ذلك إحسانًا منْهُ! ففَتْحُ الطريقِ الشَّرْعِيِّ المُوَصِّلِ إلى الجَنَّةِ لا شكَّ أنه إحسانٌ، ولا طريقَ يُوَصِّلُ إلى الجَنَّةِ إلا التَّمَسُّكُ بشريعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الله تعالى قد سَدَّ جميعَ الطُّرُقِ إلا الطريقَ الَّذِي جاءَ بِهِ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

واحد وثلاثون: وجوبُ الشُّكْرِ للهِ؛ لقولِهِ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾.

اثنان وثلاثون: إثباتُ الحِكْمَةِ في أفعالِ اللهِ وشَرْعِ اللهِ؛ لأنَّه قالَ: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الغسل، باب عرق الجنب وأن المسلم لا ينجس، رقم (٢٨٣)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على أن المسلم لا ينجس، رقم (٣٧١).

وبالجملة نقولُ: إن هذِهِ الآيةَ الكَريمَة فيها فوائدُ عظيمَةٌ، ذَكَرْنَا بعْضَها.

والمهم أن نَفْقَهَ كلامَ اللهِ، ونَفْهَمَ مَعْناهُ، وليس المهم أن نَقرأهُ فقَـطْ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ونحنُ لو رَجَعْنَا إلى تفاسيرِ أهْلِ العِلْمِ، وجَدْنَا أن أكثَرَهَا لا يَعْتَنِي باستِنباطِ الأحكامِ مِنَ الآياتِ، وهذا في الحقيقَةِ قُصورٌ، والذي ينْبَغِـي أن نستَنْبِطَ الأحكامَ مِنَ الآياتِ؛ لأجلِ أن نَسْتَفِيدَ فائدَةً أكثر.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الثاني:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، إن الحمدَ للهِ نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونتوبُ إليه، ونَعُوذ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنَا، ومِن سَيِّئَاتِ أَعْمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورسولُهُ، أرسلهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِين الحقِّ، فبلَّغ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأُمَّة، وجاهدَ فِي اللهِ حقَّ جهادِه، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بعدُ:

فقد قال تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ما المراد بالإيمان؟ هل المراد بالإيمان مجرَّد الاعتراف بالربِّ عَزَّوَجَلَّ أو هُوَ الاعترافُ المُستلزِم للقَبول والإذعانِ؟ أي: هل بمجرّد أنْ يقول الإِنْسَان: أنا أُومِن بربٍّ خلق السماواتِ والأرضَ، ويدبِّر الأمرَ، وبيدِه مَلَكُوت السماواتِ والأرضِ، هل يكفي هَذَا الإيمانُ أو لا؟

الجواب: لا يَكفي هَذَا الإيمان، فلا بُدَّ من إيمانٍ مُسْتَلْزِمٍ للقَبول والإذعانِ، القَبول: إذا فرضَ اللهُ شيئًا قبلتَ أن يكون فرضًا، والإذعان: استسلمتَ وفعلتَ.

فهناك فرق يجب عَلَى طالبِ العلمِ أن يعرِفه: فرق بين القبول وبين الإذعانِ، فمثلًا الصَّلاة أَقْبَلُ أنها فرضٌ، والإذعان: بأن أُصلِّيَ، فلا بدَّ في امتثالِ الأمرِ من قبولٍ لما يدلُّ عليه هَذَا الأمرُ من استحبابٍ أو وجوبٍ، وإذعانٍ بأن أُنفِّذ هَذَا الأمرَ.

كذلك مثلًا إذا حرَّم اللهُ أمرًا فلا بُدَّ من القبول بتحريمهِ، ثمَّ إذعان باجتنابِه. فهذه هي القاعدة.

فمجرَّد الإيمان بأن الله موجود، وأنه الَّذِي خلق السماواتِ والأرضَ، وأنه الَّذِي يحيي ويميت، وأنه الَّذِي يدبِّر الأمرَ، هَذَا ليس إيمانًا؛ لأنَّ هَذَا موجود فِي قُرَيْش فِي الَّذِينَ كذبوا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥].

وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١].

فكلُّ هَذَا يؤمنون به، فيؤمنـون بأن اللهَ موجودٌ، وأنه ربٌّ، وأنه مدبِّر، وأنه الخالِق، وأنه المُحْيِـي المُمِيت، ومع ذلك استباحَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دماءَهم وأموالهم، ولم يَحْكُم بإيمانهم؛ فلا بُدَّ أن يكونَ مَعَ الإيمانِ قَبُولٌ وإذعانٌ.

أما أن تقول: أنا أومِن بأن الله موجود، وهَذَا إيماني، فهذا ليس بصحيحٍ، فلا بُدَّ أن تقبلَ وتُذعِن، ولهذا قالَ الرَّسُول ﷺ: «**الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**». وقال فِي الإيمان: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ،**

وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». وقال فِي الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» ثمَّ قالَ فِي آخر الحَدِيث: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[1].

فجعل الرَّسُول ﷺ الدينَ كل هَذِهِ الأشياء، لَيْسَ أن تؤمنَ باللهِ فقطْ.

إذن ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ معنى آمنوا أي: صَدَّقوا وقَبِلوا وأَذْعَنُوا وانقادوا إِلَى أمرِ اللهِ.

قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ وهنا نقف:

أولًا: لماذا صدَّر الله الأمرَ بالنداءِ؟

ثانيًا: لماذا وجهه إِلَى المُؤْمِنِينَ خاصَّة؟

إجابة السؤال الأول: بدأ الله هَذَا الأمرَ: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ بالنداء للعناية به، لتنبيه المخاطَب؛ لأنَّ المخاطب إذا نُودي فإنه ينتبه، فإذا صَدَّرَ اللهُ الخطابَ بالنداءِ فاعلمْ أن ذلك زيادةٌ فِي الاعتناء به؛ لأنَّ النداء يَستلزِم تنبُّهَ المخاطَب.

إذن فائدة تصدير هَذَا الحُكم -أو هَذَا الخطاب- بالنداءِ هِيَ التنبيه عَلَى العناية به، ولهذا صُدِّر بالنداء.

إجابة السُّؤال الثَّاني: وجه الله تعالى النداءَ للمُؤْمِنِينَ لفوائدَ ثلاثٍ:

الفائدة الأولى: أن هَذَا من باب الإغراءِ والحثِّ؛ لأنَّه كأنَّه قالَ: إن كنت مؤمنًا حقًّا فافعلْ ما آمركَ به.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام والقدر وعلامة الساعة، رقم (٨).

ونظير هَذَا أن تقول للرجل: يا كريمُ تصدَّقْ، فإذا قلتَ: يا كريم تصدَّقْ كانَ أبلغ ممَّا لو قلتَ: يا رجلُ تَصَدَّقْ؛ لأنَّ مُقتضَى كَرَمِه أن يتصدقَ، فتوجيه الخطاب للمُؤْمِنِينَ من باب الإغراءِ عَلَى الفعلِ والامتثال؛ لأنَّه كلما كانَ الإِنْسَان أكملَ إيمانًا كانَ أشدَّ تنفيذًا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائدة الثَّانية: أن امتثال هَذِهِ الأوامـرِ من مقتضياتِ الإيمانِ؛ أي: من أجـل إيمانكم افعلوا هَذَا الشَّيْء، فيكون هَذَا من مقتضى الإيمانِ أن يكونَ الإِنْسَانُ قائمًا بهذه الأوامرِ.

الفائدة الثَّالثة: أن مخالفة هَذِهِ الأوامرِ نقصٌ فِي الإيمانِ؛ لأنَّه إذا وُجِّه الخطابُ إليك بصفتِك مؤمنًا فلم تفعلْ فإنه سينقص إيمانُك.

فهذه ثلاثُ فوائدَ فِي توجيهِ الخطابِ إِلَى المُؤْمِنِينَ.

ويُذكَر عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه قالَ: «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فَأَصْغِ لَهَا سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ تُصْرَفُ عَنْهُ»[1].

قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قالَ العُلَماء: معناه إذا أردتم القيامَ؛ لأنَّ الوضوءَ يَسبِق القيامَ، فيكون إذا قمتَ بمعنى إذا أردتَ القيامَ.

وهل يأتي التعبير بالفعل عن إرادة الفعل؟

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (١/ ١٣٠، رقم ٨٦٦)، وسعيد بن منصور في التفسير (١/ ٢١١، رقم ٥٠).

الجواب: نعم، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨] فليس المقصود إذا أنهيتَ القراءةَ، بل إذا أردتَ أن تقرأه، ولهذا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يستعيذ ثمَّ يقرأ.

فقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي: أردتم القيامَ إليها.

وما هِيَ الصَّلاة؟

يصح أن أقولَ: الصَّلاة معروفة؛ لأنَّ الصَّلاة -والحمدُ للهِ- لا يجهلها أحدٌ من النَّاس، ويصحُّ أن أقول: الصَّلاة: عبادة ذات أقوالٍ وأفعالٍ معلومةٍ مُفْتَتَحَة بالتَّكبير، مُخْتَتَمَة بالتسليمِ.

والفائدة من قولنا: «مختتمة بالتسليم» أنَّه لو طرأ عَلَى المُصَلِّي ما يَقتضي الانصرافَ من صلاتِه قبل أن يُتِمَّها، فإنَّه لا يسلِّم. ولنفرضْ أن رجلًا شَرَعَ يُصَلِّي فِي صَلَاة الظُّهْر، فطرأَ حريقٌ فِي بيتِه يخشى أن يَلتهِمَ عائلتَه، فهنا يجوز أن ينصرفَ من صلاتِه، بل يجب أن يَنصرِفَ من صلاتِه ويَقطعها، ولا يحتاج إِلَى تسليمٍ؛ لأنها ما خُتِمَتْ إِلَى الآن.

كذلك: شَرَعَ إِنْسَان فِي النافلةِ، ولما كبَّر وقرأ الفَاتِحَة أُقيمت الصَّلاةُ، نقول: لا تُكمِل النافلةَ واقْطَعْها لِتُدْرِكَ الفريضةَ، ولا يُسلِّم؛ لأنَّه لم يختتمِ الصَّلاةَ، إنَّما يسلم لها إذا خَتَمَها.

والصَّلاة في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ تشمل صَلَاةَ الجنازةِ، يعني يجب أن يتوضأ لصلاة الجنازة؛ لأنها صَلَاة، قالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ [التوبة:٨٤]، وإذا كانت صَلَاة وجبَ لها ما يجب للصلاةِ.

قوله: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ الوجهُ من الأُذن إِلَى الأذن عرضًا، ومن منحنى الجبهة إِلَى أسفل الذقنِ طُولًا، هَذَا الوجهُ.

وقال: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ ولم يذكرِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ المضمضة والاستنشاقَ، لكن بَيَّنهما الرَّسُول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، فكان إذا توضَّأ يَتَمَضْمَض ويَستنشِق، وتمضمضُه واستنشاقُه فِي موضعٍ داخلِ الوجهِ يدلُّ عَلَى أن المضمضةَ والاستنشاقَ فريضتانِ؛ لأنهما داخلتانِ فِي الوجهِ، فيَشملهما حُكمُ الوجهِ، فكما غسل الوجه فريضة فِي الوضوءِ فكذلك المضمضةُ والاستنشاقُ؛ لأنهما عُضوانِ فِي الوجهِ.

ولكن هل يَتَمَضْمَضُ ويَستنشِق قبلَ أن يغسلَ ظاهرَ الوجهِ؟

الجواب: نعم، هكذا جاءتِ السنَّة. ولو عكسَ وغسلَ وجهَهُ ثمَّ تمضمضَ واستنشقَ فلا بأسَ.

ولم يذكر الله عَزَّوَجَلَّ غسلَ الكفَّين قبل غسلِ الوجهِ، ولكن السنَّة بيَّنتْ أن غَسلَ الكفينِ قبل الوجهِ، ولكن غسل الكفينِ لَيْسَ بواجبٍ، يعني لو غسل الإِنْسَان وجهه أولًا أجزأهُ الوضوءُ؛ لأنَّ الله لم يَذْكُرِ الكفَّينِ فِي القُرْآن، فغَسلهما سُنة، وغسلهما من باب غسل الأداةِ، يعني مثلما يَغسِل الإِنْسَانُ الإناءَ إذا أراد أن يشربَ فيه، فيغسل كفيْه قبل غسل الوجهِ؛ لكمال تنظيفِ الأداةِ الَّتِي يَغسِل بها الوجهَ.

ولم يذكرِ اللهُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ غسلَ الفَرْجِ؛ لأنَّ غسل الفرجِ لَيْسَ من الوضوءِ، فغَسلُ الفرجِ تطهيرُ الفرجِ منَ الخارجِ منه، فإذا طهرتَه فلا حاجةَ إِلَى إعادةِ غَسلِه عند الوضوءِ.

ولذلك لو أن الإِنْسَان بالَ أو تغوَّط فِي أوَّل النهارِ عند طلوعِ الشَّمْسِ، واستنجى أو استجمرَ استجمارًا شرعيًّا، فلما أُذِّنَ للظُّهْرِ تَوَضَّأ بدونِ غَسْلِ فَرْجِه؛ جاز؛ لأنَّه لا دخل له فِي الوضوءِ إطلاقًا؛ لأنَّ الاستنجاء والاستجمار الشَّرعي يُراد بهما تطهيرُ المَحَلِّ فقطْ، فإذا طهر أوَّل مرَّة فإنه لا تَعُود نَجاستُه إِلَّا بسببٍ جديدٍ.

قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ هنا ابتداء وانتهاء، فالابتداءُ من رءُوس الأصابعِ، والمنتهَى المرافِق، إذن يجب فِي الوضوءِ أن تغسلَ اليدَ من أطرافِ الأصابعِ إِلَى نهاية المرفقِ، وانتبه لهذه النقطة؛ لأنَّ بعضَ النَّاس إذا غسلَ يدَه فإنه يَغسل الذراعَ فقطْ بعد الوجهِ، وَيَدَع الكفَّ، وهَذَا خطأ، يعني لو فعلتَه ما صحَّ وضوءُك، ولا تَصِحُّ صلاتُك، فلا بُدَّ أن تغسلَ اليدَ من رءُوس الأصابعِ إِلَى المرفقِ.

وهذا المرفق داخل في الوضـوء؛ لأنَّه ثبت فِي (صحيح مسلم) من حديث أبي هُرَيْرَةَ أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل ذراعيه حتَّى أَشرَعَ فِي العَضُدِ[1]. يعني: حتَّى تناول العضد. إذن فالمرفِقُ داخل.

وهناك فرق بين المرفق والكوع. وعندنا في المثل العامِّيِّ يقولون فِي الإِنْسَان الجاهِل الَّذِي لا يَعرِف: لا يَعرِف كُوعَه من كُرْسُوعِه، هَذَا ما أعرف أنا، وبعضهم يقول: لا يَعرِف كُوعَه من بُوعِهِ.

عَلَى كل حال الذِّراع منتهاه ما بينه وبين الكفِّ فِي عظمينِ من اليمين واليسار والوسط، والعظم الَّذِي يلي الإبهامَ هو الكوع، والعظم الَّذِي يلي الخِنْصَر كُرْسُوع، والرُّسْغ في الوسط بينهما، وأما البُوع فهو العظمُ الَّذِي يلي إبهامَ الرِّجل.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم (٢٤٦).

وأنشدكم بيتين فِي هَذَا حتَّى لا تَنْسَوا[(١)]:

وعَظْمٌ يَلِـي الإبهامَ كُوعٌ وما يَلـــي ... لِخنْصِرِهِ الكُرسُوعُ والرُّسْغُ ما وَسَطْ

وَعَظْـمٌ يَلِـــي إِبْهَـامَ رِجْـلٍ مُلَقَّـبٌ ... بِبُوعٍ فَخُذْ بِالعِلْمِ وَاحْذَرْ مِنَ الغَلَطْ

فاحْذَرْ أن تجعلَ الكُوعَ كُرسوعًا، أوِ الكُرسوعَ كُوعًا.

إذن تغسل اليدَ من أطرافِ الأصابعِ إِلَى المِرْفَقِ.

قوله: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ الرأس ما علَا وترأَّس، ومنه سُمِّـي الرئيسُ رئيسًا لِعُلُوِّ مَرْتَبَتِه، فالرأسُ يقول العُلَماء: إنه مِن مَنابتِ الشعرِ إِلَى الرقبةِ إِلَى منابت الشعر إِلَى الجبهة، وكذلك ما عَلَى اليمين وما عَلَى الشمالِ.

قال: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ الباء بيان لكون المَسْح لا بُدَّ أن يباشرَ الرأسَ. وكيف يمسح؟

إذا مسحه عَلَى أيِّ صفةٍ كانت فلا بأسَ، ولكن الأفضل أن يبلَّ يديه بالماءِ ثمَّ يُمِرّهما عَلَى رأسه حتَّى يردهما إِلَى قفاه، ثمَّ يردهما إِلَى الموضع الَّذِي بدأ منه، فهَذَا مسح الرأسِ.

والأُذنان من الرأسِ؛ لأنهما فِي أعلى البدن، فلهما الرئاسة، فكيف يمسحهما؟

كَانَ الرَّسُـولُ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ يُدخِل سَبَّابَتَيْهِ فِي صِماخِ أُذُنَيْهِ ويمسح بإبهاميْه ظاهرهما.

---

(١) انظر غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/ ٢٣٦).

ولاحِظوا أن الرأس يُمسَح ولا يُغسَل؛ لأنَّ الرأسَ ذو شعرٍ، فلو غُسِل لكان فيه مَشَقَّة، لا سِيَّما فِي أيَّام البردِ، والمَسْحُ لَيْسَ فيه مَشَقَّة، ثانيًا: الرأس المُتَرَّس لو غسله لَنَزَلَ الماء إِلَى جميع البدن، وصارت ثيابُه رَطبةً، وشَقَّ عليه ذلكَ حتَّى فِي أيَّام الحرِّ، فكان من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وحِكمته أنْ فَرَضَ عَلَى عِبادِه مَسْحَ الرأسِ فقط، لا غَسْلَه.

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ وهنا أسأل: هل هِيَ ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالفتح، أم (وأرجُلِكم) بالكسر؟ فالَّذِي فِي المصحف الَّذِي بين أيدينا ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالفتح، وحينئذ يأتي أتباع سِيبَوَيْهِ، وهم أهل النحوِ، فيقولون: كيف تكون القراءة: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ والتي قبلها مجرورة: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾، والمعروف أن المعطوفَ يَتْبَعُ المعطوفَ عليه، فكيف يكون هَذَا؟

نقول: العطف هنا لَيْسَ عَلَى (رءوس)، ولكن العطف هنا عَلَى (وجوه) ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾.

فائدة: قلنا هنا: العطف على (وجوه) وليس عَلَى (أيديكم)، وهذه فائدة ينبغي لأهل النحوِ أن يَعرِفوها، أنَّ العطفَ يكونُ عَلَى أوَّل متبوعٍ، فلو قلتَ: «زيدٌ وعمرٌ وخالدٌ»، فـ(خالدٌ) معطوف عَلَى (زيدٌ) أول متبوعٍ، وليس على (عمرٌ).

فهنا نقول: (وأرجلكم) معطوفة عَلَى (وجوهكم)؛ لأنها أوَّل مذكورٍ.

قوله: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ الكعبانِ هما العظمانِ الناتئانِ فِي أولِ الساقِ، ولكن هل يدخل الكعبانِ فِي الغَسلِ؟

الجواب: نعم؛ لحديث أبي هُرَيْرَةَ الثابت فِي (صحيح مسلم)؛ أن الرَّسُول

صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ غسل رِجليه حتَّى أشرع فِي الساقينِ[1]. إذن فالكعبانِ داخلانِ فِي الغَسلِ.

إذن كم عدد الأعضاء التي تطهر في الوضوءِ؟

الجواب: الَّذِي يُفصِّل يُمكِن أن يقول: الوجه، والأنف، والفم، واليد اليمنى، واليسرى، والرأس، والأُذُنان، والرِّجل اليمنى، والرجل اليُسرى.

لكن العُلَمَاء لا يفصلون هَذَا التفصيل، يقولون: إن الأعضاء أربعة فقط: الوجهُ ويشمل المضمضة والاستنشاق، واليدانِ اليمنى واليسرى، والرأسُ ويشمل الأُذنين، والرجلانِ اليمنى واليسرى. إذن هِيَ أربعةُ أعضاءٍ.

فإن قيل: فلماذا بدأنا باليمنى قبل اليسرى والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ وقال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾؟

قلنا: لأنَّ الرَّسُول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ كانَ يبدأ باليُمنى قبل اليسرى، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ، فِي تَنَعُّلِهِ، وَتَرَجُّلِهِ، وَطُهُورِهِ، وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ»[2].

فإن قال سائل: فِي مسحِ الأُذُنَيْنِ أبدأُ باليمنى أو باليسرَى؟

قلنا: تمسح بهما جميعًا؛ لأنهما عضوٌ واحدٌ، أما اليدُ اليمنى واليسرى فمتفرِّقتان، وأما الأذنان فهما عُضو واحد؛ لأنهما من الرأس، ولكن لو فُرِض أن رجلًا من النَّاس

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم (٢٤٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل، رقم (١٦٨)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب التيمن في الطهور وغيره، رقم (٢٦٨).

لا يستطيع أن يمسحهما جميعًا لأنَّ يده الأخرى لا يستطيع أن يمسح بها فإنه يبدأ باليمينِ.

وهناك قراءة صحيحة سبعية في قوله: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾: (أَرْجُلِكُمْ) بالكسرِ[1]. ونحن نعلم أن الرِّجلين تُغسلان، فهل نقول: إن القراءتينِ كالصفتينِ، بمعنى أنَّه يجوز أن تغسلَ الرجلينِ، ويجوز أن تمسحَ الرجلينِ، أو كيـف نُخرِّج هَذِهِ القراءة؛ لأنَّ هَذِهِ القراءة ثابتة عن الرَّسُول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (أرجلِكم)..

فإذا قلنا: (وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وأرجلِكم إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ) كانـت (أرجلكم) معطوفة عَلَى (رؤوس)، وهذا يَقتـضي أن تكون الرجلُ ممسوحـةً، إذن هل تُنزِّل القراءتينِ عَلَى صفتينِ، بمعنى أنَّه يجوز أن تَغسلَ الرجلينِ ويجوز أن تمسحهما؟

نقول: لا يصحُّ هَذَا؛ لأنَّه لم يأتِ حرفٌ واحدٌ عن رسولِ الله ﷺ بأنه مسح رجليه وهما مكشوفتانِ أبدًا، بل إنَّه لما رأى أصحابه يومًا وبعض أقدامهم لم يَمَسَّها الماءُ نادى بأعلى صوتِه: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»[2] يعني هم ما أتموا الوضوءَ.

إذن فما وجه القراءتين؟

اختلف العُلَماءُ فِي ذلك؛ فمنهم مَن سَلَكَ مَسْلَكًا قد يكون له وجهٌ فِي اللُّغَة العَرَبِيَّة، وقال: إن هَذَا من باب المجاورةِ، وإنها جُرَّتْ لَفْظًا، وأما حُكمًا فهي منصوبةٌ.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:١٢٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب غسل الرجلين، ولا يمسح على القدمين، رقم (١٦٣)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، رقم (٢٤١).

ومنهم مَن قالَ: بل تُنزل الآيتانِ عَلَى صفتينِ باختلافِ حالِ الرِّجلِ؛ فإذا كانت الرجل مستورةً بالخُفِّ أوِ الجَوْرَب ففَرْضُها المَسْح، وإذا كانتْ مكشوفةً ففَرْضُها الغَسْل، قَالُوا: وهكذا جاءتِ السنَّة، فكَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يمسح رجليه إذا لبِس خُفَّيْه، ويغسلهما إذا كانتا مكشوفتينِ.

وهذا القولُ هُوَ القول الراجح، فتكـون الآيةُ منزَّلةً عَلَى صفتينِ مختلفتـينِ باختلاف حالَيِ الرِّجل.

فائدة في القراءات:

وهل يجوز للإِنْسَان أن يقرأ بالقراءتينِ، أو لا يجوز؟ يعني لو جاءت آية فيها قراءتانِ مثل هَذِهِ الآيةِ وغيرها، هل يجوز أن يقرأ بالقراءتينِ؟

الجواب: يجوز.

وهل هَذَا الجواز عَلَى سبيل تساوي الطرفينِ، أو نقول: الأفضل أن تقرأ بهذا أحيانًا وبهذا أحيانًا؟

نقول: إذا جاءت القراءتانِ فإن الأفضل أن تقرأ مرةً بهذه ومرة بهذه، بشرطينِ:

الشَّرط الأوَّل: أن تَتيَقَّن أن القراءة ثابتةٌ سبعيَّة، والشَّرط الثَّاني ألَّا يكون فِي ذلك تشويشٌ؛ لأنك لو تقرأ عند العامَّة خلافَ ما فِي المصحَف الذي بأيديهم حصلَ بهذا فتنةٌ وتشويشٌ عليهم، إذن لا تقرأ، لكن فيما بينك وبين نفسِك، فإذا كنتَ قد تيقَّنتَ أن هَذِهِ قراءة سبعيَّة ثابتة فاقرأ أحيانًا بهذه وأحيانًا بهذه؛ لأنَّ الكل سُنة، والكل قد قَرَأَ به النَّبِي ﷺ، فلا تدعْ هَذَا وتستمِر فِي هَذَا.

المسح على الخفين:

ولعلنا هنا نتكلَّم عَلَى حُكم المَسْح عَلَى الخُفين؛ فإذا قلنا: إن الآيةَ الكريمةَ تُنَزَّل عَلَى حالينِ فيكون القُرْآنُ دالًّا عَلَى جواز المَسْحِ عَلَى الخفين، وهل السنَّة دلَّت عَلَى جوازِ المَسْحِ عَلَى الخفين؟

الجواب: نعم السنة دلتْ عَلَى جواز المَسْح عَلَى الخفين، بل قد تواترتِ السنَّة عَلَى جوازِ المَسْحِ عَلَى الخفينِ، وننشدكم بيتينِ، يقول المنشد(١):

مِمَّا تَواتَرَ حَدِيثُ مَن كَذَبْ ... ومَن بَنَى للهِ بَيْتًا واحْتَسَبْ

ورُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالحَوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

الشاهد من هذين البيتين قوله: «ومسحُ خفينِ». فقد أجمع السلفُ عَلَى مشروعيَّة مسحِ الخفَّين إذا تمَّت الشروط.

فإذا كانَ عَلَى الإِنْسَان خُفَّان فهل الأفضل أن يخلعَهُما لِيَغْسِلَ القدمينِ، أو أن يمسح عليهما بدونِ خلعٍ؟

الجواب: يمسح بدون خلعٍ؛ لقولِ المُغِيرَة بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَهْوَيْتُ لِأَنْزِعَ خُفَّيْهِ، فَقَالَ: «**دَعْهُمَا؛ فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ**». فَمَسَحَ عَلَيْهِمَا(٢).

---

(١) قالها التاودي في حواشيه على صحيح البخاري؛ كما في نظم المتناثر في الحديث المتواتر للكتاني (ص:١٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا أدخل رجليه وهما طاهرتان، رقم (٢٠٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب المسح على الخفين، رقم (٢٧٤).

فلو سَأَلَنا سائل فقالَ: أنا عليَّ الآن جواربُ، فهل الأفضلُ أن أخلعَ الجواربَ لأغسلَ القدمينِ أو أن أمسحَ عليهما؟

قلنا: الأفضل أن تمسحَ.

لكن لا بُدَّ من شروطٍ تُشترَط لجواز مسحِ الخفَّين:

أولًا: أن يَلبَسَهما عَلَى طهارةٍ؛ لقول الرَّسُول ﷺ للمغيرة: «**إِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ**» فلو لبِسهما عَلَى غير طهارةٍ لم يصحَّ المَسْحُ.

ثانيًا: أن يكون المَسْحُ فِي الحَدَث الأصغرِ، فلو كانَ عَلَى الإِنْسَان جنابة وجبَ أن يخلعَ الخفَّين وأن يغسل قدميْه؛ لقولِ صَفوانِ بنِ عَسَّالٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّا سَفْرًا[1] أَلَّا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيَهُنَّ، إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ، وَلَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ»[2].

ثالثًا: أن يكون المَسْحِ فِي المدَّة المحدَّدة شرعًا، والمدَّة شرعًا يومٌ وليلةٌ للمقيمِ، وثلاثة أيَّامٍ بلياليها للمسافرِ.

وابتداءُ المدَّة من أولِ مرَّة مَسَحَ بعد الحَدَثِ، فإذا قَدَّرنا أنك لَبِسْتَ الجَوْرَبَ -الَّذِي هُوَ الشراب- لصلاة الفَجْرِ، وبَقِيتَ عَلَى طهارتِكَ فصليتَ الظُّهْرَ بطهارتِك ما نقضتَ الوضوءَ، وبقِيتَ إِلَى العَصْرِ، فصليتَ العَصْرَ بطهارتِكَ ما نقضتَ الوضوءَ،

(١) أي: مسافرينَ.

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الطهارة، باب المسح على الخفين للمسافر والمقيم، رقم (٩٦)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب التوقيت في المسح على الخفين للمسافر، رقم (١٢٧)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء من النوم، رقم (٧٧٨).

وحين توضأت لصلاةِ المَغرِبِ مسحتَ، يعني أحدثتَ عند صَلَاة المَغْرِبِ فنقضت الوضوء ومسحتَ؛ فإنك تبدأ المدَّة من صلاة المغرب.

مثالٌ آخرُ: توضأتَ لصلاةِ الفَجْرِ، ولبِستَ الجواربَ، وبقِيتَ عَلَى طهارتِكَ إِلَى صَلَاة العِشَاءِ، فصليتَ العِشَاءَ بوُضوءِ الفَجْرِ، ونمتَ وقمتَ لصلاةِ الفَجْرِ وتوضأتَ فِي الساعةِ الخامسةِ -لأنَّ الإِنْسَان إذا نامَ فإنه يَنتقِض وضوءُه- ومسحتَ، فإنه يُبْتَدَأُ المَسْحُ من الفَجْرِ فِي اليوم الثَّاني، يعني مرَّ عليك يوم وليلة كلها ما تُحسَب؛ لأنَّ المدَّة تُبْتَدَأُ من أوَّل مسحٍ بعد حَدَثٍ.

وإذا انتهتِ المدَّة فلا مسحَ؛ لأنَّ الرَّسُول ﷺ وقَّت، وقد قالَ الله تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق:١]، فإذا حدَّ الرَّسُول ﷺ حدًّا فلا نَتجَاوَزه.

مثال: رجل لبِس الجواربَ لصلاة الفَجْرِ، ونقضَ وضوءَه عند صَلَاةِ الظُّهْرِ فِي الساعةِ الثَّانية عشرة، ومسح فِي الساعة الثَّانية عشرة، فإنه يَبْتَدِئ المَسْحَ من الساعة الثَّانية عشرة إِلَى اليوم الثاني الساعة الثَّانية عشرة، ولكن فِي اليوم الثاني توضأ ومسحَ فِي الساعة الثَّانية عشرة إِلَّا ربعًا، أي: قبل انتهاءِ المدَّة، ولكنه بقيَ عَلَى طهارته حتَّى صَلَّى العِشَاءَ، فهل صلاتُه صحيحةٌ بعد انتهاءِ المدَّة؟

الجواب: نعم؛ لأنَّ الطهارة لا تنتقض بانتهاءِ المدَّة، فالَّذِي لا يمكن بعد انتهاء المدةِ هُوَ المَسْحُ، وأما الطهارةُ فإنَّها تبقى؛ لأنَّ الرَّسُول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ إِنَّما وقَّت المَسْح ولم يوقِّت الطهارةَ، وعلى هَذَا فنقول: إن انتهاء المدة لا تنتهي به الطهارة عَلَى القول الراجح.

وإذا قالَ لك قائل: إن الطهارة تنتهي بانتهاء المدَّة فقل له: أليسَ قد صحَّت طهارتُه قبل انتهاء المدَّة؟ فسيقول: بلى؛ لأنَّه توضأ قبل المدَّة، فطهارته صحيحة، نقول: إذا ثَبَتَتِ الطهارةُ بمقتضى دليلٍ شرعيٍّ فلا تَنتقِض إِلَّا بدليلٍ شرعيٍّ، فإن أتيتَ لنا بدليلٍ شرعيٍّ يدلُّ عَلَى أن المدَّة إذا انتهتِ انتفضتِ الطهارةُ، وإن لم تأتِ فإننا نَستصحب الأصلَ، وهو بقاء الطهارةِ.

إذن هذه ثلاثة شروط: أن يَلبَسَهما عَلَى طهارةٍ، وأن يكون المَسْحُ فِي الحَدَث الأصغرِ، وأن يكون المَسْح فِي المدَّة المحدَّدة شرعًا.

وهناك شروط اختلف العُلَماء فيها، مثل ألا يكون في الجوارب خَرقٌ، وأن تكونَ غيرَ خَفيفة ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وكلُّ شرطٍ لا يدلُّ عليه الكِتَاب والسُّنَّة فإنَّه غير مقبولٍ، وعليه فنقول: يجوز المَسْحُ عَلَى الجواربِ إذا كانَ فيها خُروق، ويجوز المَسْحُ عَلَى الجواربِ إذا كانت خفيفةً، وإذا قالَ قائل: لا بُدَّ أن تكون صَفيقةً قلنا: هاتِ الدَّلِيلَ عَلَى العينِ والرأسِ.

وقد ذكر النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (المجموع شرح المهذب) قال: «وحكَى أصحابُنا عن عُمرَ وعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جوازَ المسحِ على الجَوْرَبِ وإنْ كان رَقِيقًا»[1]. وطبعًا هَذَا الأثر ما دام حكاية أصحاب الشافعي فيحتاج إِلَى سندٍ، ولكن نقول: عندنا الأصل؛ ما دام يُسمَّى خُفًّا أو يُسَمَّى جَوربًا فإنَّه يجوزُ المَسْحُ عليه، حتَّى يَثْبُتَ دليلٌ عَلَى اشتراطِ ما يزيد عَلَى مسمَّى الخفِّ أو الجوربِ.

(١) المجموع شرح المهذب للنووي (١/ ٥٠٠).

وهذه قاعدة ينبغي لطالب العلمِ أن يَفهَمها: إذا أطلقَ الشارعُ الشَّيْءَ فإضافةُ أيِّ قيدٍ إليه يحتاجُ إِلَى دليلٍ. فمن لم يأتِ بدليلٍ عَلَى القيدِ الَّذِي اشترطه فإنَّه لا يُقبَل منه.

الجَنابة:

ثمَّ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة:٦] يعني إذا كانَ الإِنْسَان عليه جَنابة فعليه أن يطَّهَّرَ. و(يطَّهَّر) بمعنى (يَتَطَهَّر) لكن أُدغِمت التاءُ فِي الطاءِ.

ولم يذكرِ اللهُ كيف يتطهَّر، فنقول: لو أن رجلًا عليه جَنابة وأتى إِلَى بِركةٍ، ونوى، وانغمسَ فيها ثمَّ خرج، ناويًا التطهُّر من الجَنابة، فإنه يُجْزِئُه، لكن عليه أن يَتَمَضْمَضَ ويَستنشِقَ، وقلنا: يُجزئه لأنَّ الله قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾، ولا يَحتاج إِلَى وضوءٍ؛ لأنَّ الله لم يذكُرْه فِي الجنابة، لكن لا شَكَّ أن الوضوء مع الاغتسال أفضل؛ لأنَّ الرَّسُول ﷺ كانَ إذا اغتسل توضَّأ كما يتوضأ للصَّلاة، ثمَّ أفاض الماء عَلَى رأسه حتَّى يرويه ثلاثَ مراتٍ، ثمَّ غسل سائرَ جسدِه.

وبماذا تكونُ الجنابةُ؟

تكونُ الجنابةُ بأحدِ أمرينِ:

١- إما بالجماع وإنْ لم يحصُل إنزالٌ، وهذه مسألة تَخْفَى عَلَى كثيرٍ من المتزوِّجين الجُدُد؛ لأنَّ السُّؤال يقع عنها كثيرًا، يَظُنّ كثيرٌ منَ النَّاس أنَّه إذا جامعَ زوجتَه ولم يُنزِلْ فلا غُسْلَ عليه، ولهذا يكثُر السُّؤال عَن هَذِهِ المسألة، ونقول: بل يجب عليه الغسلُ؛ لحديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قالَ: «إِذَا جَلَسَ

بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ، ثُمَّ جَهَدَهَا، فَقَدْ وَجَبَ الغُسْلُ»[١] وفي روايةٍ لمسلمٍ: «**وَإِنْ لَمْ يُنْزِلْ**»[٢].

إذن الجِماع بمجرّده يُوجِب الغُسلَ وإن لم يكنْ إنزالٌ.

٢- الإنزال، سواء كانَ باحتلامٍ أو كانَ بمباشرةٍ، أو كانَ بتقبيلٍ، أو كانَ بتفكيرٍ، أو بأيِّ سببٍ يكون، فإذا أنزلَ الإِنْسَانُ بلذَّةٍ وجبَ عليه الغُسل بكلِّ حالٍ.

إذن الجنابة تتضمَّن حالتين: الجماع وإن لم يحصلْ إنزالٌ، والإنزالُ وإن لم يحصلْ جِماع. فإنْ حصلَ جِماع وإنزال فمِن باب أَولى.

فالجنابة إذن مُوجِبة للغُسل، ويكفي عن الوضوء، ولكن الوضوء قبل الغُسل أفضل؛ لفعلِ رسولِ اللهِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه.

التيمُّم:

يقول الله تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ﴾ [المائدة:٦] إذا وجبَ عَلَى الإِنْسَان وُضُوء، أو وجب عليه الغُسل، ولكنه لا يستطيع استعمالَ الماءِ؛ إما لِعَدَمِه، وإما للتضرُّر به، فإنه يَتيَمَّم، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ أي: اقصِدوا صعيدًا طيِّبًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الغسل، باب إذا التقى الختانان، رقم (٢٩١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب نسخ الماء من الماء ووجوب الغسل بالتقاء الختانين، رقم (٣٤٨).

(٢) (٣٤٨/ ٨٧).

والصَّعيدُ الطيِّبُ: كل ما عَلَى وجـه الأرضِ من جنسِ الأرضِ، مثل التُّراب والرَّمل والحَجَر، أما الفِراش وشِبهه فهذا لا يجوز التيمُّم عليه إِلَّا إذا كانَ فيه غُبَار؛ لأَنَّه إذا كانَ فيه غبار كانَ فيه شيءٌ من جِنس الأرضِ.

فإذا لم نجدِ الماءَ، أو كانَ الإِنْسَان مريضًا يتضرَّر باستعماله، فإنَّه يتيمم، وكيف يَتيَمَّم؟

يَضرِب المكانَ بيديْه، ويَمْسَح وجهَه ويديْه إِلَى الكفَّينِ فقط؛ لأنَّ الله تَعَالَى قالَ: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم﴾، وليسَ إِلَى المرافِق؛ فالله تَعَالَى لما أرادَ أن تكون الأيدي إِلَى المرافقِ فِي الوضـوءِ قالَ: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾، واليد إذا أُطلِقت فهي الكفُّ فقط، ودليلُ ذلك قولُه تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، ولا يُقطَع منَ السارقِ إِلَّا الكفُّ فقطْ. إذن يَضْرِب الإِنْسَانُ المكانَ ويَمْسَح وجهَه وكفَّيه فقطْ.

وهل هناك فرقٌ بين التيمُّم عن الحَدَث الأصغر، أو الأكبر؟

الجواب: لا؛ لأنَّ الله قالَ: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾. والمجيء من الغائطِ إشارة إِلَى الحدثِ الأصغرِ، و﴿لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي جامعتموهنَّ، إشارةً إِلَى الحَدَث الأكبرِ.

فإذن التيمُّم عن الجـنابة وعن الحدث الأصغر سـواءٌ، ولا فرقَ، ولهذا لما أصابتْ عَمَّارَ بنَ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَنابَةٌ وهو فِي السَّفَر؛ صار يَتَمَرَّغ فِي الصَّعيد -يعني يتدحرج فِي الصعيد- كما تَتَمَرَّغ الدابَّة، ظنَّ أن طهارةَ الترابِ كطهارةِ الماءِ لا بُدَّ أن تشملَ جميعَ البدنِ، ثمَّ أخبر النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، فقال له الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ**

أَنْ تَقُولَ بِيَدَيْكَ هَكَذَا» ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدَيْهِ الأَرْضَ ضَرْبَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ مَسَحَ الشِّمَالَ عَلَى اليَمِينِ، وَظَاهِرَ كَفَّيْهِ، وَوَجْهَهُ[١]. فهكذا التيمم عن الحدث الأصغر والحدث الأكبر.

وتلاحظون الآن أنَّه لَيْسَ فيه مَضمضة ولا استنشاق؛ لأنَّ المضمضة والاستنشاق هنا فيهما تَعذُّر، فكيف يتمضمض بتراب أو يستنشق ترابًا! فهَذَا لا يمكِن.

وإذا قالَ قائل: لماذا لا تُوجِبون عليه أن يتمضمضَ ويستنشق بماءٍ عنده مِما يشربُه مثلًا؟

قلنا: لأنَّ الطهارةَ لا تَتَجزَّأ، فإذا كانَ ذلك من أجل عدمِ الماءِ أو المرضِ فنقول فِي هَذِهِ الحال: يتيمم عن الحدث الأكبر والحدث الأصغر عَلَى حدٍّ سواء؛ لأنَّ المقصود بذلك التذلُّل لله عَزَّوَجَلَّ بمسحِ الوجهِ والكفينِ بالترابِ، وأنا قلت: إن الطهارة لا تتجزَّأ، لكن لعدم الماء أو مرض، أما إذا كانَ لِخَلَلٍ فِي عضوٍ من الأعضاءِ، كما لو كانت يد الإِنْسَان مجروحةً ويستطيع أن يتوضأ ببقيَّة الأعضاء؛ فإنَّه يتوضأ ببقية الأعضاءِ ويتيمم عن اليدِ المجروحةِ الَّتِي لا يُمكِنه أن يغسلها.

ثمَّ قالَ الله تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة:٦] وهذا دليل عَلَى أن التيمُّم مطهِّر، وهو القولُ الراجِحُ. وعلى هَذَا فلو تيَمَّمْتَ لصلاةِ الفَجرِ مثلًا وبقِيتَ إِلَى صَلَاة الظُّهرِ لم تُحدِثْ، وصليتَ الظُّهر فصلاتُك صحيحة، ولا حاجةَ إِلَى إعادةِ التيممِ؛ لأنَّه لم يَرِدْ دليلٌ عَلَى أن التيممَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب المتيمم هل ينفخ فيهما، رقم (٣٣٨)، ومسلم: كتاب الحيض، باب التيمم، رقم (٣٦٨)، واللفظ لمسلم.

يَبطُل بخروجِ الوقتِ، والله عَزَّوَجَلَّ سَمَّى ذلك طهارةً، فإذا ثبت أنه طهارة فإنَّها لا تزول إِلَّا بدليلٍ شرعيٍّ، ولهذا كانَ القول الراجح أن التيممَ لا يَبطُل بخروج الوقتِ، بل يبقى الإِنْسَان عَلَى طهارتِه حتَّى يُحدِث.

التيمُّم للمريض ولخوف البَرْد:

قالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦] هَذِهِ يستفاد منها جواز التيمم للمريضِ ولعادمِ الماءِ، فالمريض لو كانَ عنده الماء وخاف التضررَ من الماء فليتيممْ، فإذا اشتدَّ البردُ وليس عندك ما تسخِّن به الماء، وخَشِيتَ عَلَى نفسِك وعليك جَنابة مثلًا؛ جاز لك أن تَتيَمَّمَ؛ لأنَّ عمرَو بنَ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعثَه النَّبِي ﷺ فِي سَرِيَّة، فأجنبَ، فتيمَّم وصلى بهم؛ لأنَّه خاف البردَ، فلما قدِموا عَلَى الرَّسُول ﷺ وأخبروه بذلك قالَ: إِني سَمِعْتُ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] فأقرَّه النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذلك[(١)].

فأخذ العُلَمَاء من هَذَا أن الرجل إذا كانَ فِي بَرِّيَّة، وأصابتْه جَنَابَة، وليس عنده ما يسخِّن به الماءَ، فله أن يتيممَ، ولكن إذا وَجَدَ ما يُسخِّن به الماءَ؛ وجب عليه أن يغتسلَ.

نواقض الوضوء:

وفِي الآية الكريمةِ إشارة إِلَى نوعي الحدثِ، والحدثُ: أكبرُ وأصغرُ، قال تعالى:

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب إذا خاف الجنب البرد أيتيمم، رقم (٣٣٤).

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ إشارة إِلَى الحَـدَثِ الأصغرِ. والغائطُ فِي الأصلِ: المكانُ المنخفِض من الأرضِ، وما زال النَّاس عَلَى هَذَا، يقول الإِنْسَان: إنني سبحت فِي ماء غائط، أو غويط، يعني: بعيد فِي الأرض.

ولماذا سُمِّيَ الخارجُ المستقذَر من البدنِ غائطًا؟

لأنَّهم كانوا فِي الأول إذا أرادوا هَذَا خَرَجوا إِلَى خارج البلد فِي الأماكنِ المنخفِضَة ليقضوا حاجتَهم بذلك، فكانوا يَنتابون هَذِهِ الأمكِنة المنخفِضَة لقضاءِ الحاجةِ، فَكَنَّوْا بها عن الحَدَث نفسِه كراهةً لِذِكْرِه باسمه.

كلُّ ما خرج من السبيلينِ:

إذا سأل سائل: ما هِيَ نواقضُ الوضوءِ؟

فالجواب: كلُّ ما خرج من السبيلِ -القُبُل أو الدُّبُر- فهو ناقض للوضـوءِ، فخذْ هَذِهِ قاعدةً، فكلُّ ما خرجَ من السبيلِ حتَّى الطاهر منه، حتَّى الَّذِي لا جِرْمَ له، فهو ناقض للوضوءِ.

ولهذا قالَ النبي -صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ- حين شُكي إليه الرجلُ يُخَيَّل إليه أنَّه أحدثَ فِي صلاته؛ قـالَ: «**لا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا**»[1].

وهذه الرِّيح الَّتِي تخرج من الدبُر لَيْسَ لها جِرم، ومع ذلك تنقُض الوضوءَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لم يرَ الوضوء إلا من المخرجين: من القبل والدبر، رقم (١٧٧)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على أن من تيقن الطهارة، ثم شك في الحدث فله أن يصلي بطهارته تلك، رقم (٣٦١).

حكم الخارج من غير السبيلين:

وهلِ الخارجُ من غيرِ السبيلينِ؛ كالخارج من الأنفِ -الرُّعاف- أو الخارج من الجُرح، أو التقيُّؤ؛ هل ينقض الوضوءَ أو لا ينقض الوضوءَ؟

نقول: اختلف فِي هَذَا أهلُ العلمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ؛ فمنهم من قالَ: إنه ينقض الوضوء، ومنهم من قالَ: إنه لا ينقض الوضوءَ.

والصَّحيح أنَّه لا ينقضُ الوضوءَ، يعني: لو خرج من الإِنْسَان دمٌ كثيرٌ من غير السبيلينِ، أو تقيَّأ وخرج منه قيء كثيرٌ، أوِ انجرحتْ يدُه، أو رِجْلُه وخرجَ منه دمٌ كثيرٌ، وهو عَلَى وضوءٍ، فإن وضوءَه لا يَنتقِض بذلكَ ولو كَثُر.

ولو قالَ قائل: ما دليلُك عَلَى أنَّه لا ينتقض؟

قلتُ له: ما دليلُك عَلَى أنَّه ينتقض؟ فأنا الَّذِي أُطالب بالدَّلِيلِ مَن قالَ بأنه ينتقض؛ لأنني قدِ اتفقتُ أنا وهو عَلَى أن هَذَا الرجل كانَ عَلَى طهارةٍ صحيحةٍ شرعيَّة قبل أن يحصل هَذَا الحادث، فليأتِ بدليلٍ يدل عَلَى أن هَذِهِ الطهارة الَّتِي اتفقنا عليها قد فسدتْ، فإذا لم يأتِ بالدَّلِيل فالأصلُ بقاء الطهارةِ، ولهذا نقول: كل ما ثبتَ بمقتضى دليلٍ شرعيٍّ فلا يمكِن أن يَرتفِعَ إِلَّا بدليلٍ شرعيٍّ؛ لأنَّ الأصلَ بقاءُ الشَّيْءِ عَلَى ما كانَ عليه.

النَّوم:

وهناك شيء من نواقض الوضوءِ غير هَذَا، وهو النومُ؛ لحديث صَفْوَانَ بنِ عَسَّالٍ الَّذِي ذكرناه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّا سَفْرًا أَلَّا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيَهُنَّ، إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ، وَلَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ**».

فالنومُ ينقُض الوضوءَ، وانتبه لكلمةِ (النوم) وليس (النُّعاس)، فالنعاسُ لا يَنقُض الوضوءَ؛ لأنَّ هناك فرقًا بين النومِ والنعاسِ؛ قالَ الله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، قالَ العُلَمَاء: فالسِّنَةُ معناها النـومُ، إذن فهناك فرق، إذن لو بقي الإِنْسَان ينعس من صَلَاة المَغْرِب إِلَى أن أُذِّن للعِشَاء فلا يَنتقِض وضوءُه، لكن لو نام فإنه يَنتقِض. وهل هناك ضابط للنومِ الَّذِي ينقُض الوضوء؟

الجواب: نعم، هناك ضابط، فإذا كانَ الإِنْسَان يُحِسُّ بنفسِه بحيثُ لو أحدثَ لعلِم بذلك، فإنَّه لا يَنتقِض وضوءُه؛ لأنَّ إحساسه معه، أما إذا فَقَدَ الإحساسَ، بحيث لو أحدثَ لم يُحِسَّ، فحينئذٍ يَنتقِض وضوءُه، سواءٌ أحدثَ أو لم يُحدِثْ، فهَذَا الضابطُ فِي النومِ الَّذِي ينقُض الوضوءَ.

ولهذا قالَ أَنَسُ بنُ مالِكٍ: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَنْتَظِرُونَ العِشَاءَ الآخِرَةَ حَتَّى تَخْفِقَ رُءُوسُهُمْ، ثُمَّ يُصَلُّونَ وَلَا يَتَوَضَّؤُونَ»[(١)].

الإغماء والبِنج الكُلِّيُّ:

لو أُغمِيَ عَلَى الإِنْسَان بأن أُصيب مثلًا بحادثٍ، -أجارني الله وإياكم- ثمَّ أُغمي عليه، فإنه يَنتقِض وضوءُه؛ لأنَّ الإغماء يَزول به الإحساسُ، فينتقض وضوءُه، ولو بُنِّجَ الإِنْسَان لعملية تبنيجًا كلِّيًّا، وهو عَلَى وضوء، فإن وضوءه يَنتقِض.

أكل لحم الإبل:

أكل لحم الإبل ينقض الوضوء؛ سواء أكله نِيئًا أو مَطبوخًا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ:

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب في الوضوء من النوم، رقم (٢٠٢)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب الوضوء من النوم، رقم (٧٨).

«تَوَضَّؤُوا مِنْ لُحومِ الإِبِلِ»[(١)]، ولأنَّ النَّبِيَّ ﷺ سأله رجلٌ: أَأَتَوَضَّأُ مِنْ لُحُومِ الغَنَمِ؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتَ فَتَوَضَّأْ، وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَوَضَّأْ». قَالَ: أَتَوَضَّأُ مِنْ لُحُومِ الإِبِلِ؟ قَالَ: «نَعَمْ فَتَوَضَّأْ مِنْ لُحومِ الإِبِلِ»[(٢)].

ووجهُ الدلالةِ أن لحمَ الإبلِ يَنقُض: أنَّه لما جعل لحمَ الغنمِ راجعًا إِلَى المشيئة، دلَّ هذا عَلَى أن لحم الإبل لَيْسَ راجعًا إِلَى المشيئة، وهذا يعني أنَّه يُلزَم الإِنْسَانُ بالوضوء منه.

إذن فلحمُ الإبلِ ينقض الوضوء؛ لأنَّ الرَّسُول قالَ هكذا.

فإذا قالَ قائل: ما هِيَ الحكمة فِي أن لحم الإبل ينقُض الوضوءَ؟

فالجواب أن نقول: الحكمة لأنَّ النَّبي ﷺ أمرَ به، وهو رسولُه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، فما شَرَعَه فهو شرعُ اللهِ، وقد قالَ الله تَعالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة:٥٠]، وقال ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨].

إذن الحكمةُ أن الرَّسُول ﷺ أمرَ به، وكلُّ مؤمنٍ إذا قلتَ له هَذِهِ الحكمةَ فإن يَقتنِع، والدَّلِيل قوله تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦] فما يكون لهم خِيَرة أو يكون لهم خِيارٌ آخرُ، بل يَستسلمون ويَقبلون.

وقد سُئلت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما بال الحائض تَقضِي الصَّوْمَ ولا تقضي الصَّلاةَ؟

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٤٩٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٣٦٠).

قالت: «**كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ، فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ**»[١]. وانتهى الأمرُ، فما دام هَذَا أمر الله ورسوله فلَيْسَ لنا الخِيَرة فِي ذلك.

فهَذَا هُوَ الجوابُ المُقنِعُ لكلِّ مؤمنٍ، لكن لو قالَ: أنا أُومِن ومُقتنِع بذلكَ، وسأتوضأ، ولكن أَعْطُوني حِكمةً لِيزدادَ إيماني إيمانًا؛ لأنَّ المؤمنَ إذا سألَ عن الحكمةِ ليزدادَ إيمانُه، لا لأجلِ أن يَرُدَّ الحُكم، فإنَّه لا حرجَ عليه.

ولهذا لما سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ التَّمْرِ بِالرُّطَبِ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: «**أَيَنْقُصُ الرُّطَبُ إِذَا يَبِسَ؟**». قَالُوا: نَعَمْ، فَنَهَى عَنْهُ[٢]. ويستطيع الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنْ يَقولَ من أول الأمرِ: لا يجوز بيع الرطبِ بالتمرِ، ولكن أراد أن يبيِّن لهم الحكمةَ من أجل أن تَزداد طُمأنينتُهُم.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام:١٤٥]، فيكفي أن نعرفَ أن الله حرَّمه، لكن قالَ: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾؛ لنزداد طمأنينةً.

فلو سألَنا سائلٌ: ما الحكمة فِي أن لحوم الإبل تَنقُض الوضوء؟

قلنا: الحكمة لأنَّ الرَّسُول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أمر به، فإذا قالَ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، باب في التمر بالتمر، رقم (٣٣٥٩)، والترمذي: أبواب البيوع، باب ما جاء في النهي عن المحاقلة، والمزابنة، رقم (١٢٢٥)، والنسائي: كتاب البيوع، باب اشتراء التمر بالرطب، رقم (٤٥٤٥)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب بيع الرطب بالتمر، رقم (٢٢٦٤).

هل هناك معنى نعرفه؟ قلنا: نعم؛ لأنَّ فِي الإبل قوة شيطانية كما قالَ الرَّسُول: إنها خُلقت من الشياطين، وقد جاء هكذا عن الرَّسُول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فِي حديثٍ فيه مَقال[1]، لكن هكذا عَلَّلَ بعض أهل العلم، ولهذا يَنهى الأطبَّاءُ المعاصرونَ أن يأكل الإِنْسَان العصبيُّ شيئًا من لحمِ الإبلِ أو يُكثِر منه؛ لأَنَّه يثير الأعصابَ، والوضوءُ يُهدِّئ الأعصابَ ويَرُدُّها إِلَى طَبيعتها. ولهذا أُمِر الإِنْسَان إذا غضِب أن يتوضأَ[2].

مَسُّ الفَرْجِ:

ومس الفرجِ فيه خلافٌ كما أن لحمَ الإبلِ أيضًا فيه خلافٌ، وكذلك النوم فيه خلافٌ.

يقول بعض العُلَماء: إن مسَّ الفرجِ ناقِض للوضوء، فإذا مسَّ الإِنْسَان فرجَه أو فرجَ غيرِه انتقضَ وضوءُه، وليس هناك مَسٌّ مَعَ حائلٍ؛ لأنك إذا مَسِسْتَ ثوب إنسان فما يُقال: مَسِسْتَه، بل يقال: مَسِسْتَ ثوبَه، إذن لا حاجةَ فِي أن نقولَ: يمس بلا حائلٍ، فليس هناك مَسٌّ إِلَّا بدون حائلٍ. والمراد مَسُّ الفرجِ سواء كانَ قُبُلًا أو دُبُرًا من الإِنْسَان أو من غيره. فما الدَّلِيل؟

الدَّلِيل قول الرَّسُول ﷺ في حديث بُسْرَة: «**مَنْ مَسَّ ذَكَرَهُ فَلْيَتَوَضَّأْ**»، وفي

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب المساجد، ذكر نهي النبي ﷺ عن الصلاة في أعطان الإبل، رقم (٧٣٥)، وابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب الصلاة في أعطان الإبل ومراح الغنم، رقم (٧٦٩).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب، رقم (٤٧٨٤)، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ**».

روايةٍ: «مَنْ مَسَّ فَرْجَهُ فَلْيَتَوَضَّأْ»(١). والأصل فِي الأمر الوجـوبُ، إِلَّا بقرينةٍ تمنع الوجوبَ.

وقال بعض العُلَمَاء: لا يَنتقِض الوضوء إذا مسَّ الإِنْسَان فَرْجَهُ؛ لحديثِ طَلْقِ ابن عليٍّ؛ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ سئل في الرجل يمس ذكره فِي الصَّلاة أعليه الوضوء قال: «لَا، إِنَّمَا هُوَ بَضْعَةٌ مِنْكَ»(٢)، ومعنى بضعة: جزء، فهنا حكم وتعليل، الحكم هو نفي وجوبِ الوضوءِ، والتعليل «إِنَّمَا هُوَ بَضْعَةٌ مِنْكَ». ولا يمكن أن تزولَ هَذِهِ العلَّة، فهُوَ دائمًا بضعة -أي عضو- من الإِنْسَان.

فإذا علّل الحُكم بعلَّة لا يمكن أن تزولَ، فمعنى ذلك أن الحُكم لا يمكن أن يزول؛ لأنَّه ربط بعلة لا تزول، فإذن لا يزول، والحُكم يَدُور مَعَ عِلَّته وجودًا وعدمًا.

قَالُوا: وهذا دليل عَلَى أَنَّه لا يَنتقِض الوضوءُ؛ لأنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علَّل بعلةٍ لا يمكن أن تزولَ، إذن لا يمكِن أن يزولَ الحكمُ.

وفصَّلَ بعضُ العُلَمَاءِ وقَالُوا: إنْ مَسَّه لشهوةٍ انتقضَ وضوءُه، وإنْ مَسَّه لغيرِ شهوةٍ لم يَنتقِضِ الوضوءُ، قَالُوا: وجـه ذلك أن الرَّسُول ﷺ علَّل عدمَ وجـودِ الوضوءِ بأن الذَّكَر بَضعَة من الإِنْسَان، فإذا مسَّه كما يمسُّ سائرَ جسدِه فلا وُضُوءَ عليه، ومعلومٌ أن الإِنْسَان إذا مسَّ سائرَ جسدِه لا يَتَلَذَّذ، وإنْ مَسَّه عَلَى وجهٍ يتلذَّذ به

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب الوضوء من مس الذكر، رقم (١٨١)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب الوضوء من مس الذكر، رقم (٨٢)، والنسائي: كتاب الغسل والتيمم، باب الوضوء من مس الذكر، رقم (٤٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب الرخصة في ذلك، رقم (١٨٢)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب ترك الوضوء من مس الذكر، رقم (٨٥)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب ترك الوضوء من ذلك، رقم (١٦٥)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب الرخصة في ذلك، رقم (٤٨٣).

فقد خالفَ مسُّه مَسَّ بقيَّة الأعضاءِ؛ لأَنَّه مَسَّهُ بشهوةٍ، فحينئذٍ يجب الوضوء؛ لأَنَّه خالفَ بقية الأعضاءِ، والرَّسُول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ علَّل عدمَ وجوبِ الوضوءِ بأنه بَضعَة من الإِنْسَان، فإذا مَسِسْتَهُ مِثلَما تَمَسُّ البَضعةَ من جِسمِكَ -مثل أن تَغسِلَه أو تحكَّه، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ- فإن ذلك لا ينقُض الوضوءَ، وإن مَسِسْتَهُ لشهوةٍ انتقضَ الوضوءُ.

وهذا القولُ جيدٌ جدًّا، فيقال: إن مسَّه لشهوةٍ انتقض الوضوءُ، ولغير شهوةٍ ما يجب، ومع ذلك نحبُّ له أن يتوضأَ خُروجًا منَ الخلافِ.

مَسُّ المَرْأَةِ:

هل ينقض مسُّ المَرْأَة الوضوء أو لا؟

قالَ بعض العُلَمَاءِ: إنه ينقض مطلقًا، وقال آخرون: لا ينقض مُطلَقًا، وفصَّلَ آخرونَ من أهل العلمِ بأنه ينقض لشهوةٍ ولا ينقضُ لغير شهوةٍ، يعني بعض العُلَمَاء يقول: إذا مَسِسْتَ المَرْأَة لأيِّ سببٍ وجبَ عليك أن تتوضأَ، فلو أمسكتَ بيدِ امرأةٍ عَجُوزٍ لِتَهْدِيَها إِلَى الطريقِ قلنا: انتقضَ وضوءُك واذهبْ فتوضَّأ، ولو مسِست يد امرأتِك لأيِّ سببٍ كأن تتناول منها فنجان الشايِ فوقع إصبعك عَلَى إصبعِها انتقضَ الوضوءُ.

وقال بعض العُلَمَاءِ: لا يَنتقض الوضوءُ، ولو مَسَّها لِشهوةٍ، ما لم يخرجْ منه خارجٌ. وهذا القولُ هُوَ الصَّحيح؛ أنَّه لا نقضَ بِمَسِّ المَرْأَةِ مُطلَقًا، ولو بشهوةٍ، فإذا مسَّ الإِنْسَان زوجتَه لشهوةٍ أو قبَّلها وهو عَلَى وضوءٍ فإن وضوءَه باقٍ؛ لأنَّ الأصل بقاءُ الوضوءِ، إلَّا إذا خرج منه خارجٌ كَمَذْيٍ أو شِبْهِهِ.

فإذا قالَ قائل: أليس الله يقول: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾؟

قلنا: بلى.

قال: إذن كيف تقول: إن مسَّ المَرْأَة لا ينقُض؟

أقول: المراد بالملامسةِ هنا الجِماع؛ كما صح عن تَرْجُمَانِ القُرْآنِ عبدِ الله بنِ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن المراد بالملامسةِ الجِماعُ[1].

وهذا كما أنَّه الصَّحيحُ أثرًا، فهو الصَّحيحُ نَظَرًا وسياقًا؛ فالغائط قلنا: إشارة إِلَى الحَدَث الأصغر، و﴿لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ إشارة إِلَى الحدثِ الأكبرِ، فيكون فِي الآية إشارة إلى الحدثينِ الأكبر والأصغر، ولو كانت الملامسة ليست بمعنى الجماع لكان فِي الآية إشارة إِلَى سببين لحدث واحدٍ، ومعلوم أننا إذا قلنا: إن فيها إشارة إِلَى سببينِ لحدثينِ كانَ ذلك أبلغَ، لا سيما وأن الله ذكر فِي الآية الطهارتينِ؛ وهما الطهارة الصغرى والكبرى، فيكون فِي هَذَا إشارة إِلَى سَبَبَي الطهارتينِ، وهما الحدثُ الأصغرُ والحدثُ الأكبر.

مسائل حول التيمم:

قالَ الله تَعَالَى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦]، سبق لنا أن طهارةَ التيمُّم يتساوى فيها الحدثانِ الأكبرُ والأصغرُ؛ لأن الله تَعَالَى بعد أن ذكر الطهارتينِ قال: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ١٩٢).

واليد لا تُمسَح إِلَى المرفق؛ لأنَّ الله لم يقيِّدْها إِلَى المرفقِ، وقيَّدها فِي الوضوءِ إِلَى المرافِقِ، واليدُ عند الإطلاق إنَّما تكون للكفِّ فقط؛ بدليل قوله تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨] ولا تُقطَع يدُ السارق إِلَّا من الكفِّ.

فإن قالَ لك قائل: إنه وردَ عن الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه تيَمَّمَ فمسَح ذِراعيْه إِلَى المرفقينِ[١]، وهَذَا دليل أَثرِيٌّ.

وإن التيممَ طهارةٌ تتعلَّق باليدينِ، فوجب أن تكونَ إِلَى المرفقـينِ؛ كطهارة الوضوء، وهذا دليلٌ عقليٌّ؛ لأنَّه قِيَاس، والاستدلالُ بالقياسِ من باب الاستدلالِ بالعقلِ.

قال: فيجب فِي التيمُّم أن يصل إِلَى المرفقينِ؟

قلنا: أما الحَدِيث فضعيفٌ لا يصِح عنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وأما القياسُ ففاسِد، ووجهُ فسادِه أن القياسَ تعريفُه: إلحاقُ فرعٍ بأصلٍ فِي حُكم لعلَّةٍ جامعةٍ.

والفرعُ: هو المَقِيس، والأصلُ: المقيسُ عليه، والحُكم: حلال أو حرام أو واجب، والعلَّة الجامعةُ: المعنى الَّذِي يَجمَع بين المَقيس والمقيس عليه، فهنا قالَ القائس: هذه طهارة تتعلَّق باليدينِ، فوجب أن تكون إِلَى المرفقينِ كطهارة الوضوءِ.

فهذه كيفيَّة إجرائه للقياس؛ يقول: طهارة تتعلق باليدينِ. وهل الأصل والفرع مُتساويان هنا؟

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب التيمم، رقم (٣٢٨).

نعم، متساويان فِي كونهما يَتَعَلَّقان باليدينِ، فكلٌّ منهما يتعلَّق باليدِ، فوجب أن يكون إِلَى المرفقينِ.

نقول: أولًا: إن قولك: طهارة تتعلق باليدينِ صحيح، لكن تعلُّق الطهارةِ باليدينِ فِي الوضوءِ ليسَ كتَعَلُّقِها باليدينِ فِي التيمُّم؛ لأنه فِي الوضوء إذا كانَ الإِنْسَان عليه جَنَابة فإنه يَغسِل الجسمَ كله، وفي الوضوء يطهِّر أربعةَ أعضاءٍ فقط، وفِي التيمُّم لا يطهِّر إِلَّا عُضويْنِ فِي الطهارة الصغرَى والكبرَى، إذنِ اختلفَ الحُكمُ.

ثانيًا: الطهارة فِي الوضوءِ غَسل ومَسح، وهذه مسحٌ، ولا يمكِن إلحاق المَسْح بالغَسْلِ.

عَلَى كل حالٍ التيمُّمُ يَسْتَوِي فيه الحَدَثُ الأصغرُ والأكبرُ، والتيمم يَقومُ مَقامَ الطهارةِ بالماءِ فِي جميعِ الأحوالِ حتَّى يجد الماءَ.

ولو تيممَ الإِنْسَان لصلاةِ الفَجْر وبقيَ عَلَى طهارتِه إِلَى صَلَاة العِشَاء فإنه لا يَلزَمُه أن يُعِيدَ التيممَ كلَّ وقتٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة:٦]، ولِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»[1]، والطَّهُور: ما يُتَطَهَّر به.

إذن فالتيممُ مُطَهِّر، لكن إذا وَجدَ الماءَ بَطَلَ التيمُّمُ، ووجبَ عليه استعمالُ الماءِ. وشيخ الإسلام حكاه أيضًا إجماعًا[2]، فلو تيممتَ لجنابةٍ لعدمِ الماءِ ثمَّ قدرتَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا**»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١).

(٢) مجموع الفتاوى (٢١/ ٣٥٠).

عليه بعد ذلك وجب عليك أن تَغتسِلَ؛ كما فِي حديث عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ؛ أن الرَّسُول ﷺ رأى رجلا مُعتزِلًا لم يُصَلِّ فِي القومِ، فقال: «**مَا مَنَعَكَ يَا فُلَانُ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ القَوْمِ؟**». قَالَ: أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ. قَالَ: «**عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ، فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ**». ثمَّ وُجِدَ الماءُ واستقى النَّاس منه وفضل منه بقيَّة، فأعطى الرَّسُول ﷺ للرجل الَّذِي أمره أن يَتَيَمَّمَ من جَنَابَتِه؛ أعطاه إناءً وقالَ: «**اذْهَبْ فَأَفْرِغْهُ عَلَيْكَ**»[1].

وهذا دليلٌ واضح عَلَى أن الإِنْسَان إذا تيمَّم من الجنابةِ لعدمِ الماءِ، ثمَّ وجد الماءَ؛ وجبَ عليه أن يغتسلَ.

وكذلك لو تيَمَّمَ لمرضٍ ثمَّ شُفِيَ من مرضه؛ وجبَ عليه أن يغتسلَ عن الجنابة الأولى.

ليس في أوامرِ الشرعِ ونواهيه مَشَقَّة:

قالَ الله تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الحمدُ لله.

قوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي: من مشقَّة فِي الدين كلِّه، فكلُّ الدينِ ما فيه مشقَّة، ولو تأمَّلتَ أوامرَ الشَّرعِ وجدتَها سهلةً، ولننظرْ إِلَى العبادات اليومية، فالصَّلاة عبادة يومية، ولا تستغرق منك في طَهارتها وفي أدائها وقتًا طويلًا، فالوضوء خمسُ دقائقَ على الأكثر، والصَّلاة الرباعية عشرُ دقائقَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، باب الصعيد الطيب وضوء المسلم، يكفيه من الماء، رقم (٣٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة، واستحباب تعجيل قضائها، رقم (٦٨٢).

فإن قال قائل: إني أنتظر الصلاة.

قلنا: الانتظار نافلة، فالرَّسُول ﷺ يقول: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الإِقَامَةَ، فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ...**»(١).

والصلاة الثَّلاثية: ثماني دقائقَ، والثنائية: خمسُ دقائقَ، إلَّا إذا قرأ الإِنْسَان فيها ما يُسْتَحَبُّ، فصَلَاة الفَجْر كانت رَكْعَتَيْنِ لأنها تُطَوَّل فيها القراءةُ، فهَذَا السبب، فإذا كانَتْ تَطُول فيها القراءةُ فيمكِن أن تساويَ الثَّلاثيَّة والرباعية.

فذكرنا الآن خمسَ دقائق فِي الوضوء، وعشرًا لكلِّ صَلَاة، ولنكون أَجْوَادًا فنقول: كل صَلَاة رُبُع ساعةٍ: خمس صلوات في ربع ساعة تساوي ساعة ورُبعًا من وقتِك للصلواتِ الخمسِ بطهارتِها.. ساعة وربع من أربعٍ وعشرينَ ساعةً، يعني نصف الثمُن، وهَذَا لَيْسَ بشيء، وسهل وليس بمَشَقَّةٍ.

ونحن نجد الواحد من النَّاس إذا أمسكَ بيدِ صاحبِه أو صديقِه يبقى يتحدث معه ساعةً وساعتينِ وهما واقفانِ، وربما تكون أشعَّة الشَّمْس عَلَى رُؤُوسِهِما، أو يكونان واقفينِ فِي الطريق والجو بارد ولا يهتمُّ، لكن الصَّلاة أهونُ من هَذَا والحمدُ للهِ.

ثمَّ مَعَ ذلك قالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**»(٢). إذن ليس هناكَ مَشَقَّة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب لا يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار، رقم (٦٣٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهي عن إتيانها سعيا، رقم (٦٠٢).

(٢) أخرجه البخاري: أبواب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعدا صلى على جنب، رقم (١١١٧).

وفي الوضوء ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾، فليس في الدِّين من حرجٍ ولله الحمدُ، فكلُّه سهلٌ، حتَّى الإِنْسَان لو كانَ مريضًا وكان يَشُقُّ عليه أن يُصَلِّيَ كل صَلَاةٍ فِي وقتها، فله أن يجمعَ بين الظُّهْر والعَصْرِ تقديمًا أو تأخيرًا، وبين المَغْرِب والعِشَاءِ تقديمًا أو تأخيرًا، فكل هَذَا من تيسيرِ اللهِ.

ومع هَذَا فإن الحسنةَ بعشرِ أمثالها إِلَى سبعِ مِئَة ضعفٍ إِلَى أضعافٍ كثيرةٍ[1].. اللَّهُمَّ لك الحمدُ.

«**السلامُ**» نموذجًا لغيابِ المشقَّة في الشرع مع تضاعُف الأجرِ:

ونضرِب مثلًا بالسلامِ، فإذا لقِيتَ أخاكَ فسلِّم عليه، وهو يردُّ عليك، فإذا قلتَ: السلام عليك، حصلتَ على عشْرِ حسناتٍ[2]، وإذا قلتَ: السَّلام عليك، ولم يردَّ، فالإثم عليه، ولك الأجرُ، ولكن مَعَ الأسف أننا نرى النَّاس الآنَ يمرُّون زَرَافَاتٍ[3] ووُحْدَانًا لا يسلِّم بعضُهم عَلَى بعض، كأنَّهم ليسوا من الأُمَّة الإسلامية،

---

(١) أخرج البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو سيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، رقم (١٣١)، أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً**».

(٢) أخرج أبو داود: كتاب الأدب، باب كيف السلام، رقم (٥١٩٥)، عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَشْرٌ**». ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: «**عِشْرُونَ**» ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: «**ثَلَاثُونَ**».

(٣) زرافات، أي: جماعات، ووُحدانًا: أفرادًا.

وكأنَّهم لم يَعلَمُوا قول الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ...»(١).

فسلِّم يا أخي، وإذا سلَّمتَ تحصُل فوائدُ، ولنعدَّ الفوائدَ فِي السلامِ:

الفائدة الأولى: الثواب، وهو عشر حسناتٍ.

الفائدة الثَّانية: أنه سببٌ للمَحَبَّة والأُلفة، وما رأيكم لو كانَ الشعب يحبُّ بعضه بعضًا، وكل واحدٍ يحب لأخيهِ ما يحب لِنَفْسِهِ، فإنه يتمُّ بذلك الإيمانُ.

الفائدةُ الثالثةُ: سببٌ لدخولِ الجنَّة الَّتِي هي الغايةُ، فغاية كل إِنْسَان ومُنى كل إِنْسَان أن يكون من أهلِ الجنَّة، وأسأل الله لي ولكم أن نكونَ من أهلِ الجنَّة، آمين آمين.

ودليل ذلك ما قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»(٢).

الفائدةُ الرابعة: تمام الإيمانِ؛ لقول الرَّسُول: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا**»، وكل إِنْسَانٍ يحب أن يَكمُل إيمانه ويزداد إيمانُه، وهذا من الطرقِ والسبلِ الَّتِي تَزيد فِي إيمانِك.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام، رقم (٢١٦٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سببا لحصولها، رقم (٥٤).

إذن لماذا لا أُسلِّم، وفيه هذه الفوائدُ العظيمةُ، وفي تركِهِ عكسُ ذلك؛ خَسارة، فهَذِهِ الفوائد، أما الإثم فلقولِ الرَّسُول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ**»[1].

والنبي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وهو أشرفُ الخلقِ، وأحقُّ الخلقِ حقًّا عَلَى الخلقِ؛ كانَ يبدأُ مَن لقِيه بالسلامِ، ويُسلِّم عَلَى الصبيان إذا مرَّ بهم[2]، ونَحْنُ نمر عَلَى الشيوخِ وما نسلم عليهم، فهَذَا خلاف هَدْيِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفيه فواتُ هَذِهِ الأجورِ العظيمةِ.

فإذا قالَ الإِنْسَان وقد مـرَّ بأخيه: مرحبًا، وقال الثَّاني: مرحبًا، فهَـذَا ليس بسلامٍ، وإنما تحيَّة. فإذا قال: السَّلام عليك وقالَ الآخَرُ: أهلًا ومرحبًا ومَسْهَلًا بالأخِ الصديقِ الحـميمِ الطيِّب.. إِلَى آخِـرِه، وقام يَكيل له من هَذَا المدحِ، فما أتى بالواجبِ فِي ردِّ السَّلامِ؛ لأنَّ الأولَ قالَ: السَّلامُ عليك، وهذا قام يرحِّب به ولم يقلْ: عليك السلامُ.

طهارة الوُضوء حِسِّيَّة ومعنويَّة:

قوله تَعَالَى: ﴿وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْـمَتَهُۥ﴾ وهَذِهِ الطهارة حِسِّيَّة ومَعنويَّة، فليستْ حسيةً فقـط؛ أما كونها حسيةً فظاهر، ولا سيَّما طهارة الماءِ، وأما

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب السلام للمعرفة وغير المعرفة، رقم (٦٢٣٧)، ومسلم: كتاب البر والصلاة والآداب، باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي، رقم (٢٥٦٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب التسليم على الصبيان، رقم (٦٢٤٧)، ومسلم: كتاب السلام، باب استحباب السلام على الصبيان، رقم (٢١٦٨).

كونها معنويةً فإن الوضـوءَ يطهِّر الإِنْسَانَ من الخطايا، فإذا غسلَ وجهَه خرجتْ خطايا وجهه مَعَ آخر قطرةٍ من الماءِ، وكذلك يُقال فِي بقية الأعضاءِ.

ومِن ثَمَّ يُشرَع للإِنْسَان إذا فَرَغَ من وضوئِه أنْ يَقولَ: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**» لِيُطَهِّر قلبه منَ الشِّرْكِ، وهذا تطهيرٌ معنويٌّ «**اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ**». يقول الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ، فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**»[(١)].

شُكر الله تعالى:

ثمَّ قالَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦] (لعلَّ) تفيد هنا التعليلَ، وليستْ للترجِّي؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يَتَرَجَّى شيئًا؛ إذْ إنَّه قادِر عَلَى كل شيءٍ، لكنها للتعليل؛ أي: لأجلِ أن تشكروا اللهَ عَلَى هَذِهِ النعمةِ، وهذا التيسيرِ.

والشكرُ قالَ أهلُ العلمِ: إنه القيامُ بطاعةِ المنعِم إقرارًا بالقلبِ، واعترافًا باللسانِ، وطاعةً بالجوارحِ، فهذه ثلاثة، يعني أن الشكر لا يكون باللسانِ فقط؛ أن تقول: الشكر لله، بل هُوَ باللسانِ والجوارحِ والقلبِ.

فبالقلب أن تعترفَ بأن النعمةَ من اللهِ وحدَه، فهو المنعم عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الطهارة، باب ما يقال بعد الوضوء، رقم (٥٥).

وأما باللسانِ فأن تُثنِيَ بها عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ، فتقول: الحمدُ للهِ الَّذِي رَزَقَنِي وعافاني، وَأَطْعَمَنِي وَكَسَانِي، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وتتحدَّث بها عند النَّاس؛ لتذكرَ نعمةَ اللهِ، لا لتفتخِرَ بذلك عَلَى عبادِ اللهِ. قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ**»[1] يعني لا أقولُ ذلك افتخارًا ولكن تحدُّثًا بنعمةِ اللهِ.

الثَّالث: القيام بطاعةِ اللهِ، بأن تمتثلَ أوامرَه وتجتنبَ نواهيَه، أما أن تقول: أشكر الله عَلَى هَذِهِ النعمةِ وأنت تُبارِز اللهَ بالعصيانِ، فأين الشكر! وقد قالَ الشاعرُ مبيِّنًا مواضعَ الشكرِ أو متعلقات الشكر[2]:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

يعني أن متعلق الشكرِ اليدُ واللسانُ والقلبُ الَّذِي هُوَ الضميرُ المحجَّبُ. وشكرُ النعمةِ إذا أعطاك اللهُ علمًا أن تعترفَ بأن ذلك من اللهِ، ولولا أن الله عَلَّمَكَ ما عَلِمتَ، وأن تعلِّم النَّاس.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) أخرجه الترمذي: أبواب التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم (٣١٤٨)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم (٤٣٠٨).
(٢) انظر غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦).

الدرس الثالث:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ، وأُصلِّي وأُسلِّم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النَّبِيِّينَ وإمام المتَّقينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٨٩].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ يُستفادُ مِن هذِهِ الآيةِ أنَّ الأَيْمانَ تَنْقسم إِلَى قِسمينِ:

القِسمُ الأوَّلُ: قِسمٌ عَقدها الإنسانُ وأَرادها، وهيَ مْذكورةٌ فِي قَولِهِ تَعالى فِي سُورةِ البَقرةِ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥]، فَهذه يُؤاخذُ عَلَيْها وَيُؤمرُ بِالبرِّ فِيها، فإنْ لَمْ يَفعلْ فَعلَيْهِ كَفَّارةٌ، فالأَيْمانُ المُعقَّدةُ: هِيَ الَّتي يَنْويها الإنسانُ حتَّى تكونَ كسبًا لِقَلبِهِ.

القِسمُ الثَّانِي: يَمينُ اللَّغو، وهُوَ الَّذي لَا يُريدُهُ الإنسانُ، وهو الذي يَجْري عَلى اللِّسانِ كثيرًا، مثلُ: وَاللهِ مَا ذَهبتُ لِفلانٍ، وَاللهِ مَا جِئتُ مِن عندِ فلانٍ، واللهِ مَا فعلتُ كَذَا، ولَا يَقصدُ بِذَلك أَنْ يَنويَ اليمينَ.

فهذِهِ الأَيْمانُ تُعتبر لَغوًا لَيْسَ بِها كفَّارةٌ، حتَّى لَو حلفَ الإنسانُ بِهَا أَلْفَ مرَّةٍ؛ لأنَّ القصدَ مِن لغوِ اليَمينِ أَنْ يَحلفَ عَلى شَيءٍ يَظنُّ صدقَ نفسِهِ، وتَبيَّنَ الأمرُ بِخلافِهِ.

مثالُ ذَلكَ: قولُ الرَّجلِ: وَاللهِ لَقد شَاهدتُ فُلانًا البارحَةَ، وهُو قَد شَاهد رَجلًا يُشبههُ، فظنَّ أَنَّه هُو، ثمَّ تبيَّن بَعد ذَلِكَ أَنَّه لَمْ يُشاهِدْهُ، فهذَا لَغوُ يمينٍ لَيْسَ عَلى الإِنسانِ فِيهِ الكفَّارةُ.

ومنْ ذَلك أَيْضًا علَى القولِ الرَّاجحِ إذَا قالَ: وَاللهِ لَيَقْدَمَنَّ فلانٌ غدًا؛ بناءً عَلى ظَنِّه أَنَّه سَيقدَمُ، ثمَّ لَم يَقدَمْ، فإِنَّه لَا كفَّارةَ عَلَيْهِ؛ لأَنَّه حَلف عَلى ظنِّهِ، والحالفُ عَلى ظنِّه لَيْسَ عَلَيْهِ كفَّارةٌ.

قَولهُ تَعَالَى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾، أفادتِ الآيةُ فِي أوَّلِهَا، وفِي قَوْلِهِ: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ أنَّ شأنَ الحَلفِ عظيمٌ؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ﴾ ولكنَّه تَعالَى قالَ: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾، والكفَّارةُ لَا تكونُ إلَّا عَن ذنبٍ؛ ولهذَا يُنهى الإنسانُ عَن أَنْ يَقطعَ يمينهُ وأنْ يَحنثَ فِيهِ إلَّا لِسببٍ شرعيٍّ، وإلَّا فاحفظْ يَمينكَ، وإذَا حَلفتَ فصمِّمْ، ولا تَتراجعْ، إلَّا إذَا كَان هُناكَ مَصلحةٌ شرعيَّةٌ.

وَلِهذَا قالَ تَعالَى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ هذهِ ثَلاثةُ أشياءَ يُخيَّرُ فِيها الإِنسانُ؛ إنْ شاءَ أَطعمَ عَشَرَةَ مَساكينَ، وإنْ شاءَ كَساهمْ، وإنْ شاءَ أَعتقَ رَقبةً، وأشقُّ الكفَّارةِ عَلَى الإِنسانِ هِيَ عِتقُ الرَّقبةِ، ثمَّ الكسوةُ؛ لأنَّ الكسوةَ فِي الغَالبِ أَغْلَى منَ الطَّعامِ، ثمَّ الطَّعامُ، فبدأَ اللهُ تَعالى بالأسهلِ تَخْفيفًا عَلى العبادِ.

كَيفيَّةُ الإِطعامِ:

وإِطعامُ المَساكينِ لَه صُورتانِ:

الصُّورةُ الأُولَى: أنْ تُطعمَهمُ الطَّعامَ غَيْرَ مَطبوخٍ، ومِقدارهُ رُبعُ صاعٍ لكلِّ

واحدٍ، فيكونُ لِلعشرةِ صَاعانِ ونِصفٌ إنْ كَانوا مُجْتمعينَ، وإنْ كَانوا مُتفرِّقين فَنُعطي كلَّ وَاحدٍ رُبعَ صاعٍ.

الصُّورةُ الثَّانيةُ: أنْ تَصنعَ غَداءً أَو عَشاءً لِلعشرةِ، وبِذَلك تَكونُ قَد كَفَّرتَ عنِ اليَمينِ.

والأَولى أنَّ الإِنسانَ يَبَرُّ بِيَمينِهِ، ولَا يَحنَث إلَّا إذَا كانَ فِي الحِنثِ خَيرٌ، ويُكفِّر عَن يَمينِه؛ كَما قالَ النبيُّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنِّي وَاللهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ، لا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ**»(١).

وأَمثلةُ ذلكَ:

المثالُ الأَوَّلُ: لَو صَار بَيْنك وَبَيْنَ أَخيكَ المسلمِ خُصومةٌ، فَقلتَ لهُ: وَاللهِ لَا أُكلِّمكَ، ولَا أَدخلُ بَيتكَ، فهَذه يَمينٌ عَلى إثمٍ؛ لأَنَّه يَلزم مِن هذه اليَمينِ الهَجرُ، والهَجرُ حَرامٌ، فيَحنثُ ويُكفِّرُ عَن يَمينِه.

المثالُ الثَّاني: لَو قَال شَخصٌ: وَاللهِ لَا أُصلِّي راتبةَ الظُّهر، فَيَحنثُ ويُكفِّرُ عَن يَمينِهِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ خيرٌ مِنْ عَدمِها، ودليلُ ذَلك قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنِّي وَاللهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ، لا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ**».

ويَلحقُ بِالأَيمَانِ التَّحريمُ، وَالتَّحْرِيجُ، وهَذا حُكمهُ حُكمُ اليَمينِ، فإِذَا قُلتَ: حرامٌ عليَّ أنْ ألبسَ هذَا الثَّوبَ، فَهو كَقولكَ: واللهِ لَا أَلبسُ هذَا الثَّوبَ، وعَلَى هذَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥]، رقم (٦٦٢٣).

فَنقولُ: إنْ لَبستَ الثَّوبَ فَعَليك كفَّارةُ يمينٍ. والدَّليلُ علَى هذَا قولُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ للنبيِّ ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ [التحريم:١-٢]، فَسمَّى اللهُ التَّحريمَ يَميناً.

فإنْ قيلَ: هلِ التَّحريمُ هُو لكلِّ شيءٍ، سواءٌ فِي اللِّباسِ، أَو فِي الطَّعامِ، أَو فِي الزِّيارةِ، وكذلك في الزوجة؟

قلنَا: فِي هذَا خِلافٌ بينَ العلماءِ، فَهل لَوْ قالَ: زَوْجَتِي عليَّ حرامٌ إنْ لَم أَفعل كَذَا؛ كقَولِهِ: حرامٌ عليَّ أَن أَفعل كَذَا؟ فَجمهورُ العلماءِ عَلَى أَنَّه لَيْس مِثلهُ، وأنَّ تَحريمَ الزَّوجةِ ظِهارٌ، والظِّهارُ يحرِّمُ عَلى المُظاهرِ أَنْ يَمسَّ الزَّوجةَ حتَّى يُكفِّرَ، والكَفَّارةُ عِتقُ رقبةٍ، فإنْ لَم يجِدْ فَصيامُ شَهرينِ مُتتابعينِ، فإنْ لَم يَستطعْ فَإطعامُ سِتِّين مِسكيناً.

ولكنَّ الصَّحيحَ أَنَّ تَحريمَ الزَّوجةِ كَغَيْرِها، بِمَعنى أَنَّه إذَا قالَ: حرامٌ عليَّ زَوْجتِي، وقصدَ اليمينَ، فإنَّه يَكون يَميناً؛ لِعُمومِ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، و(مَا) اسمُ مَوْصولٍ مِن صِيغِ العُمومِ، فَيشملُ كلَّ شيءٍ، فكلُّ شيءٍ حلالٌ إذَا حرَّمته لِقصدِ اليمينِ فَهو يَمينٌ، وقدْ صحَّ ذَلك عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وجماعةٍ منَ الصَّحابةِ، أنَّ تحريمَ الزَّوجةِ كَغَيْرِها؛ إذَا قصدَ بِهِ اليمينَ فَهو يَمينٌ[1].

وَالتَّحْرِيجُ أيضًا كَالتَّحريمِ: فإذَا قالتِ الأمُّ مثلًا لِبنتها: أَنتِ فِي حرجٍ أَلَّا تَفْعلي كَذَا وَكَذَا، وكانَ قصدُهَا اليَمينَ؛ صَارَ يَميناً؛ لأنَّ الحرجَ هوَ الإثمُ، أوِ التَّحريمُ، أو مَا أَشْبهَ ذَلك، فيكونُ دَاخلًا فِي حُكْمِ اليَمينِ.

---

(١) فتح القدير، للشوكاني (٨/ ٤٦٥).

فَائدةٌ:

ثمَّ هُنا فَائدةٌ يَستدلُّ بِها الإِنسانُ فلا يحنَث ولا تَلزمَهُ الكفَّارةُ، وهِي أَنْ يَقرِنَ يَمينهُ بِمَشيئةِ اللهِ، فإِذَا قالَ الإنسانُ: واللهِ إِن شاءَ اللهُ لَا أَفعلُ كذَا، وَفعَله، فلَيْس عَلَيْهِ شيءٌ؛ لأنَّ مَن حلفَ عَلى يَمينٍ فقالَ: إنْ شاءَ اللهُ فإِنَّه لَا يَحنثُ.

وفِي الصَّحيح أنَّ سُليمانَ بنَ داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةٌ مِنْ نِسَائِهِ إِلَّا وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَلَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ**»(١).

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) أخرجه البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان، رقم (٦٧٢٠)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).



سورة الأنعام

الدرس الأول:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال تَعالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

يَقولُ اللهُ تَعالَى لِرَسولِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، فالرَّسولُ يَحزنُ وَيضيقُ صَدرهُ، ويَكادُ يَهلكُ كَما قالَ تَعالَى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، أَي: مُهلكٌ نَفْسه أَلَّا يَكُونوا مُؤْمنينَ.

فَهو مِن حِرصِهِ علَى مَصلحةِ الخَلقِ يَحزنُ عَلى مَا يَقولونهُ، ولكنَّ اللهَ قَالَ لَهُ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، فَهم لَا يَعْتقدون أَنَّكَ كَاذبٌ، ويَعْلَمون صِدقهُ وَأَمَانته حتَّى كَانُوا يُسمُّونه قَبلَ البعثةِ بِالأمينِ، فلمَّا بُعثَ بِالحقِّ اتَّهموهُ بِالكذبِ وَالسِّحرِ.

وهذَا كَقولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنْ آلِ فِرعونَ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ أَيْ: كذَّبوا ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، وقالَ مُوسى لِفرعونَ وهُو يُحاجُّه: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ

مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء:١٠٢]، وفِرعونُ لَمْ يُنكرْ، وَلَوْ كَانَ لَمْ يَعلمْ لقَالَ: أَنَا لَا أَعلمُ، لَا سيَّما وأنَّ مُوسَى قالَ لهُ: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾، فَفِرعونُ يَعلم أنَّ مُوسَى عَلى حقٍّ، وآلُ فِرعونَ يَعْلَمون أنَّه عَلى حقٍّ، ولكنْ جَحَدوا.

وقُريشٌ تَعلمُ أنَّ الرَّسولَ ﷺ على حقٍّ لكنْ جَحَدُوا، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾، وهَذَا تَسليةٌ للرَّسولِ ﷺ أنَّه صَادقٌ، لكنَّ هَؤُلاءِ مُعاندُونَ.

قال تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام:٣٤].

وهذَا تَسليةٌ للرَّسولِ، يَعْني: لَست أوَّلَ مَن كُذِّب، ولَسْتَ أوَّلَ مَن أُوذِيَ، ولكنِ اصبرْ حتَّى يَأْتِيَكَ النَّصرُ، فَصبرَ وَانْتَصرَ وظَفِرَ وللهِ الحمدُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وهوَ القرآنُ؛ وَلِهذا نَجد أَخْبارَ الرُّسل الصَّحيحةَ هِي مَا جَاء فِي الكتابِ وَالسُّنَّةِ، كَمَا قالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [إبراهيم:٩]، وإِذَا كانَ لَا يَعْلمهم إلَّا اللهُ فَالواجبُ تَلقِّي عِلْمِهم منَ اللهِ، وَيَجب الحذرُ مِمَّا يُنقَلُ مِنْ أَخبارِ السَّابقين، إلَّا مَا صحَّ فِي الكتابِ والسُّنَّةِ.

قال تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأنعام:٣٥].

قَوْلُهُ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، يَعْني كانَ شَقَّ عَلَيْك وَعظُمَ.

قَوْلُهُ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تغوصُ فِيهِ.

قَولهُ: ﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فَتصعد فافعل.

وَالمعنَى إنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهم فاصبرْ، فلَا يُمكنُ أَنْ تَفرَّ مِن هذَا لَا بِسلَّمٍ فِي السَّماءِ، ولَا بِنفقٍ فِي الأرضِ.

قَولهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فالَّذي يَجمعُ عَلى الهدَى هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فَيَنْبَغي إذَا دَعَا الإِنسانُ إِلَى اللهِ وَلَم يُجبْ أَلَّا يَضيقَ صَدرهُ؛ لأَنَّه أَتى بِالواجبِ، وَالهدايةُ عَلى اللهِ، فعَلَينا أنْ نَدعوَ عِبادَ اللهِ إِلَى دِينِ اللهِ، وأنْ نَحرصَ غَايةَ الحرصِ، لكنْ لَا نَشتغلُ بِهم عَنْ أَنفسنَا.

كثيرٌ منَ النَّاسِ تَجدهُ يَشتغلُ بِالنَّاس عَن نَفسِه، حتَّى إنَّه مَتَى دخل فِي الصَّلاةِ تَجوَّل قلبُه فِي الأَسواقِ؛ يأمرُ بِالمعروفِ وَيَنْهى عنِ المُنكرِ، وَهَذَا غَيرُ صَحيحٍ، فعلَيْكَ أنْ تَدعوَ إِلَى اللهِ، فَمنِ اهتَدَى فهذَا مِنْ نِعمةِ اللهِ عَلَيْكَ وعَليهم، وإِنْ لَم يَهْتدوا فَقَد أَدَّيت مَا عَلَيْك؛ وَلِهَذَا قالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. وفِي هذَا إِشارةٌ إِلى أنَّ مَن حَاول أوِ ابتَغَى أنْ يَجمعَ اللهُ كلَّ الخلقِ عَلى الهدَى فَهو جَاهلٌ، فلَا يُمكنُ هذَا أَبدًا أَنْ يَجمعَ اللهُ جميعَ الخلقِ عَلَى الهُدَى.

وَلِهَذَا قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورةِ هُود: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨-١١٩].

فَالمهمُّ أَنْ تَدعوَ إِلى اللهِ، ولَو أُوذِيت، وَلَو كُذِّبت، واصبرِ عَلى مَا حَصل؛ فإِنَّ العاقبةَ لِلمتَّقين، ولكنْ لَا تَحزنْ عَلَيهم، ولَا تَكُ فِي ضيقٍ مِمَّا يَمكرونَ؛ فإِنَّ اللهَ لَو شَاء لجَمَعهم عَلى الهُدَى، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَى النَّاسَ كلَّهُمْ جميعًا، ولكنَّ حِكمتَهُ تَأْبى ذَلِكَ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





سورة الأعراف

الدرس الأول:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال تَعالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢٦].

قَوْلُهُ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، خاطبَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ البشرَ بهذا النداءِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، وآدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَبُو البشرِ، خَلقَهُ اللهُ تعالَى منْ تُرابٍ، وَعَلَّمَهُ أَسْماءَ كُلِّ شيءٍ، وأَسْجَدَ لهُ ملائكتهُ، وأسْكَنه جنَّتهُ، ولكنَّ اللهَ تَعالَى بِحِكمتهِ قَدَّرَ ما حَدث منَ المخالفةِ منْ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وزَوجِه، ثُمَّ أمَرَهما أَنْ يَهبطَا إلَى الأرضِ؛ لِحكمةٍ أرادَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وآدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَوَّلُ الأنبياءِ، كَما أَنَّ نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَوَّلُ الرُّسلِ، فَلَمْ يُرْسَلْ أَحدٌ قَبل نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَما قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦].

وفي حَديثِ الشَّفاعةِ الطَّويلِ أنَّ النَّاسَ يَقُولونَ لآدمَ إذَا طَلَبوا مِنه أَنْ يَشفعَ لهمْ إلى اللهِ؛ لِيُريحهم منَ الموقـفِ العَظيمِ، فيَقُولُ: «**اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ**»[1] وَبهَذَا يَتَبين لنَا أنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ رسولًا، ولكنَّه نبيٌّ، ويتبيَّن أَيْضًا أنَّ إدريسَ النَّبِيَّ الرَّسُولَ لَيْسَ قبل نُوح، كَما وَرَدَ فِي كُتبِ التَّاريخ، فإنَّ كتبَ التَّاريخِ تَذْكر أنَّ إِدْريسَ منْ آباءِ نُوح، وهَذَا كَذِب وَلَا يَجُوزُ اعتقادهُ؛ لِأَنَّ أوَّلَ الرُّسلِ هُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وأمَّا آدمُ فَمَنْ قَال: إنَّه رَسولٌ، فقدْ أَخطأَ، ودليلُ ذَلكَ قَول اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة:٢١٣]، أَيْ: عَلَى دِينٍ واحدٍ، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، وهَذَا دَليل وَاضحٌ عَلَى أنَّ النَّاسَ كَانوا عَلَى ملَّة واحدةٍ، ثُمَّ اخْتَلفوا، فأرسلَ اللهُ الرُّسلَ لِيَحكموا بَيْنَ النَّاسِ فِيما اختلَفُوا فِيه.

وبناءً عَلَى مَا سَبق فَعَقِيدتنا هِيَ:

أوَّلًا: أنَّ آدمَ نَبِيٌّ وَلَيس بِرَسول.

ثَانِيًا: أنَّ نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَوَّل رَسُول أَرْسله اللهُ إِلَى أَهلِ الأَرْض.

ثَالثًا: أنَّ إدريسَ لَيْسَ قَبل نُوح، بَل هُوَ بَعْدهُ؛ لِأَنَّهُ يَلزَم منْ قَولنا: إنَّ نُوحًا هُوَ أَوَّلُ الرُّسلِ؛ أَنْ يَكونَ إِدْريسُ بَعْده، وَهَذَا لَا شَكَّ فِيهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح:١] إلى آخر السورة، رقم (٣٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

وقَد يَغترُّ بَعضُ النَّاسِ بِمَا يُوجدُ فِي كُتبِ التَّاريخ منْ أَنَّ إِدْريسَ مِنْ آبَاءِ نُوح، وكُتُب التَّاريخِ لَيْسَ لَهَا -فِي الغَالِبِ- زِمَامٌ، وَلَا إِسْنَاد صَحِيح، بَلْ مِنْها مَا هُوَ صَحيحٌ يَكادُ يَكونُ مَقطوعًا بِهِ، ومنهَا مَا دُون ذَلِكَ، ومِنْهَا مَا هُوَ ضَعيفٌ جدًّا، ومنْهَا مَا لَا أَصلَ لَهُ.

قَوْلُهُ: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾.

قولُهُ: ﴿لِبَاسًا يُوَارِي﴾ أَيْ: يُغطِّي، وهَذَا هُوَ اللِّبَاسُ الضرورِيُّ الَّذِي يَحْتاجه كُلُّ إِنْسَانٍ.

وقولُهُ: ﴿سَوْءَاتِكُمْ﴾ أَيْ: عَوراتِكُم. والسَّوْءات جَمْع: سَوْءةٍ، وهِيَ العورةُ، وعَوْرةُ الرَّجُلِ: مَا بَيْنَ السُّرَّةِ وَالرُّكْبة، وَهَذَا بِاعْتِبار النَّظر، لَا بِاعتبارِ الصَّلَاةِ، فَالصَّلَاةُ لهَا لِبَاس خَاصٌّ، فَلَو أَنَّ رجلًا لَيْسَ علَيْه إِلَّا إِزَار، فَلا يُقَالُ: إِنَّه كَاشفٌ لِعورتِهِ.

وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيث سَهْلِ بنِ سَعدٍ فِي قِصةِ المَرْأَة الَّتِي وَهَبت نَفْسها لِلرَّسُول ﷺ أنها قَالَتْ: إِنِّي وَهَبْتُ نَفْسِي لَكَ، فَقَامَتْ طَوِيلًا. وهَذَا خاصٌّ بالنَّبِيِّ ﷺ؛ ولهَذَا لم يُنْكر عَليها الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَلَكنه لَم يَكن لَه بِها حَاجَة، فَلم يَقبلِ الهبَةَ، فَلَمَّا أَطَالت القيامَ قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فزَوِّجْنِيهَا إِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ. وفِي الحديثِ بَيَان لِفقهِ الصَّحَابَةِ وأَدبِهم، فَهُو لَم يَقل: زَوِّجْنيها، وأَطلَق؛ لِاحْتِمال أَنْ يَكونَ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَه بِها حَاجة، فَقالَ: إِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ. فَقَالَ: «**هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُصْدِقُهَا؟**»؛ لِأَنَّهُ لَا يُوجدُ نِكاح إِلَّا بِصَداقٍ، فالنِّكَاح بِلا صَداق هُوَ الهبَة، والهبَةُ مَمْنوعة إِلَّا لِلرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقالَ: مَا عِنْدِي إِلَّا إِزَارِي هَذَا.

قالَ سَهل بنُ سَعد -رَاوي الحدِيثِ-: الرَّجل لَيْسَ عَلَيْه رِدَاء، وعَلَيه إزَار، معناه أنَّ أعلَى بَدَنه عَارٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِزَارُكَ، إِنْ أَعْطَيْتَهَا جَلَسْتَ وَلَا إِزَارَ لَكَ، فَالتَمِسْ شَيْئًا؟**». فَذَهبَ الرَّجلُ، وَقَالَ: مَا وَجَدْت. قَالَ ﷺ: «**فَالتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ**»، فَذَهَبَ الرجلُ وَلَم يَجِدْ، ولَا حَتَّى خاتمًا منْ حَديدٍ؛ لِأَنَّهُ فقيرٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَلْ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ شَيْءٌ؟**» قَالَ: نَعَمْ، سُورَةُ كَذَا، وَسُورَةُ كَذَا، لِسُوَرٍ سَمَّاهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ**»[1]، فزوَّجهُ إيَّاها بأنْ يعلِّمَهَا مَا مَعه منَ القُرْآنِ.

الشَّاهدُ منْ هَذَا الحديثِ هُوَ أنَّ الرجلَ عَوْرتهُ بالنِّسْبَة لِلنَّظر مَا بيْنَ السُّرَّة والرُّكْبَةِ.

وأَمَّا عَوْرةُ المَرْأَةِ فقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**لَا تَنْظُرِ المَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ المَرْأَةِ**»[2]، لكنَّ المَرْأَة لبَاسُها غَير لِبَاسِ الرجلِ، فلبَاسُ المَرْأَةِ يَكونُ ساترًا منْ كَفِّها فِي اليَدِ إِلَى كَعْبها فِي الرِّجلِ؛ لِأَنَّ هَذَا لِبَاسُ نِسَاء الصَّحَابَةِ، قَالَ تَعالَى: ﴿**وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ**﴾ [المؤمنون:٣١]، وهَذَا يَدُلُّ دلالةً واضحةً عَلَى أن ثيابَ النِّسَاءِ تكونُ إِلَى القَدم، كَما حَكى هَذَا شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِية وغيرُهُ، منْ أنَّ لباسَ نساءِ الصَّحابَةِ منَ الكفِّ إِلَى الكعبِ.

وأَمَّا مَا توهَّمهُ بعضُ النَّاسِ منْ رِجَالٍ أَوْ نساءٍ، منْ أنَّ المَرْأَةَ كالرَّجلِ فِي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر القلب، رقم (٤٧٤٢)، ومسلم: كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، رقم (١٤٢٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب تحريم النظر إلى العورات، رقم (٣٣٨).

اللباسِ، وأنَّه كما يَجُوز للرَّجلِ أَنْ يَخرجَ بِإِزَارٍ يَجُوز لِلمرأةِ أَنْ تَخرجَ بإزارٍ؛ فَهَذَا مِنْ أبعَدِ الأقوالِ وَأَبْطلها، فَالمَرْأَةُ إِذَا كَانت عَلَيْها ثِيابٌ ضَافيَةٌ، ثُمَّ نظرتْ أُختها إِلَى ثَديها وَهِي تُرضعُ طِفلهَا، فَهَذَا لَا بَأس بِه، ومنْ قَالَ: إِنَّ المَرْأَةَ يَجوزُ أَنْ تلبسَ لباسًا يَسترُ مَا بينَ السُّرةِ والرُّكبةِ، فَهَذا قَول بَاطلٌ.

ومَا عِلمنا أحدًا يَسْتسيغُ أَنْ تَخرجَ المَرْأَةَ ولَيْس عَلَيْها إِلَّا مَا يَستر مَا بَيْنَ السُّرةِ والركبةِ، إِلَّا الكَافِرينَ، الَّذِينَ زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لهمُ الكفرَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ. ولِذَلِكَ يَجبُ أَنْ نَفهمَ النصوصَ عَلَى مُرادِ اللهِ ورَسولهِ ﷺ لَا عَلَى أَهوائِنَا.

يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

وقَولهُ: ﴿وَرِيشًا﴾ أَيْ: لِباسُ الجمالِ.

واللباسُ يَنْقسمُ إلى قِسمَينِ:

القِسْمُ الأَوَّل: مَا كَانَ لباسًا ضَروريًّا: وهُوَ مَا يُواري بِهِ الإِنْسَانُ عَوْرتَهُ، سَواءٌ منْ قُطنٍ، أَو صوفٍ، أو جلودٍ، أَو غَيْرِ ذَلِكَ.

القِسْمُ الثَّانِي: مَا كَانَ لباسًا كماليًّا: وهوَ لِباسُ الجمالِ والزينةِ؛ لِأَنَّ هَذَا زَائدٌ عَلَى اللِّباسِ الضَّروريِّ.

وكِلَاهمَا منْ نِعمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومنْ آياتهِ، كَما قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

والأَصْلُ أنَّ جميعَ الألبسةِ حَلالٌ، إِلَّا مَا دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى تَحريمهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا دَلِيلكم عَلَى أنَّ الأصلَ فِي اللِّبَاس هُوَ الحِلُّ والإباحةُ؟

قُلْنَا: دَلِيلنا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ [البقرة:٢٩]، فَكُلُّ مَا فِي الأرضِ فهُو لَنا حَلالٌ، إِلَّا مَا حرَّم اللهُ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ**﴾ [الأنعام:١١٩]. فَالمحرَّم مَنْصوصٌ عَلَيْهِ مُبيَّنٌ، وَمَا عَداهُ فَإِنَّهُ مُباحٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ عَن ثَوبٍ: إنَّه حَرامٌ.

قُلْنَا: مَا دَلِيلك عَن أنَّ هَذَا الثَّوب حَرامٌ؟ فَالأَصل أَنَّ كُلَّ الأَلبسةِ حَلالٌ؛ فقدْ أَنْزل اللهُ علَيْنا لباسًا يُوارِي سَوْءَاتنا، ولباسًا ريشًا جمالًا وزِينةً.

والمحَرَّماتُ منَ الألبسةِ ثَلاثةُ أقسامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: مُحرماتٌ لِعَينها؛ كَالذَّهب والحريرِ للرجالِ.

القِسْمُ الثَّانِي: مُحرَّماتٌ لِوَصفها؛ كَاللِّباس النازلِ عنِ الكعبِ.

القِسْمُ الثَّالِثُ: مُحرَّمات لِكَسبها، كَاللِّبَاس المسرُوقِ.

فَالقِسْمُ الأَوَّلُ: المحَرَّماتُ لِعَيْنها: وهُوَ الَّذِي يَحْرُمُ لِبَاسهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، كَلُبسِ الذَّهب للرجالِ، فَلَا يَحل للرَّجُل أنْ يَلبسَ خَاتمًا مِن ذَهَبٍ، أَو يتقلَّدَ قِلادةً منْ ذهبٍ، أَو يَكسو أَسْنانه ذهبًا، إِلَّا عِندَ الضَّرورةِ، فالذَّهب مُحرَّم عَلَى الرِّجَال لِعَينِهِ.

ولكنْ لَو فُرِضَ أنَّ هُنَاكَ لباسًا فِيهِ خَطٌّ منَ الذَّهَب، كَمَا يُوجدُ فِي بَعضِ المشالحِ، تُوجد فِيهِ خِياطة بِأَسلاكٍ فِيها ذَهَب، فَهَذَا رَخَّصَ فِيهِ بعضُ العُلَماءِ، ومنهمْ مَن مَنَعَهُ، وَقَالَ: إنَّ الذهبَ مطلقًا، سَوَاءٌ كَانَ تابعًا أمْ غيرَ تَابعٍ، حَرامٌ عَلَى

الرِّجَالِ. وهَذَا لا شَكَّ أَنَّه أحوطُ، لكنَّ القطعَ بِتَحريمِهِ يَحْتاج إِلى دليلٍ بيِّنٍ.

ومنَ المحرماتِ لِعَينها أَيضًا الحريرُ الطَّبيعيُّ الَّذِي يَخرج مِن دُودِ القزِّ -وليسَ الصناعيَّ- فهوَ حَرام عَلَى الرِّجَالِ، أمَّا الحريرُ الصناعيُّ فَلَيس حَرامًا عَلَى الرِّجَالِ، ولكنْ قد يَحْرُمُ؛ لِكونهِ ذَريعةً لشيءٍ محرَّمٍ.

فَلَا يَجُوزُ لشابٍّ وسيمٍ لُبسُ ثيابٍ منَ الحريرِ الصناعيِّ؛ لِأَنَّهُ سَيكونُ فتنةً، يَفتتنُ بهِ النَّاسُ، ويَتأذَّى هُوَ كَذلك؛ لِأَنَّ السُّفهاءَ سَوف يُلَاحقونه ويُضَايقونه، فلَيْس مَعنى أنَّ الحريرَ الصناعِيَّ جائز أن يَلبسه منْ شَاءَ منْ رِجَالٍ وَشَبَاب؛ لِأَنَّ لُبْسه يُؤَدِّي إِلَى فِتْنة، فَهُو حَرَامٌ تَحْريمَ الذَّرَائعِ، لَا تَحْريمَ المَقَاصِدِ، أَيْ: لِأَنَّهُ ذَرِيعةٌ إِلَى الفِتْنة، ومَا كَانَ ذَرِيعة إِلَى الفتنةِ فَإِنَّهُ مَمنوعٌ.

والقِسْمُ الثَّانِي: المحرمُ لِوَصفِهِ، مِثَالُهُ اللِّبَاسُ النازلُ عنِ الكعبِ فَهوَ حَرامٌ عَلَى الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ؛ لِأَنَّ النِّسَاءَ يَحْتجنَ إِلى سَتْرِ أقدامهنَّ؛ ولذلكَ كَانَ لباسُ المَرْأَةِ نازِلًا إِلى القدمِ. واسْتَمع إِلَى قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: **﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾** [النور:٣١]، فإِنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَرْأَةَ لا بُدَّ أَنْ تَلبسَ ثوبًا إِلى أسفلِ البَدنِ، والَّذِي تُخفيه فِي زِينَتِها مِن رِجلهَا هُوَ الخَلخالُ، وهو طوق تَلبسه فِي سَاقِها، ويَكون لَه صَوت عِندَ الضَّرب بالرِّجل. فنهَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ المَرْأَةَ أن تَضْرب بِرِجلها لِيُعلم مَا تُخْفي مِنْ زِينَتها.

فالثَّوبُ النازلُ عنِ الكعْبِ بالنِّسْبَةِ للرِّجالِ حَرامٌ لِوَصفهِ، فَلَو لَبسَ الرَّجل ثوبًا منْ قُطنٍ، أَو ثوبًا منْ صُوفٍ، نازلًا عنِ الكعبِ، كَانَ ذلكَ حَرامًا لِوَصفه، بَلْ هُوَ منْ كَبائرِ الذُّنوبِ.

ويَجِبُ عَلَى الرِّجَالِ ذَوِي العقولِ أَنْ يَحْـترسوا منْ أَنْ يَلعبَ بهمُ الشَّيْطَانُ فيلبسُوا ثيابًا نَازلةً عنِ الكعبِ، ومنَ العجبِ -فِي هَذَا الزَّمَانِ- أَنَّ الرِّجَالَ الَّذِينَ يَقُولونَ: إِنَّهمْ مُثَقفون يَنْزلون الثِّياب إِلى أَسْفل منَ الكعبِ، وأَنَّ النِّسَاءَ اللَّاتي يدَّعين أَنَّهنَّ مُثَقفات يَرفعنَ الثيابَ!

ودليلُ تَحريمِ إِسبَالِ الثَّوب لِلرِّجال قَول النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ فَفِي النَّارِ**»[1]، وهَذَا الخبرُ منَ الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ يُرادُ بِهِ التَّحذيرُ، ولَيْسَ الإخبارُ المجرَّدُ؛ كَما قَالَ محـذِّرًا للذينَ توضَّؤوا وأخلُّوا بِوَاجِـب غَسلِ الرِّجلِ، نَادى بِأعلى صَوته وَقَالَ: «**وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ**»[2].

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: أَنا لَم أَفعله خُيَلاء.

قُلْنَا: الحديثُ عامٌّ: «**مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ فَفِي النَّارِ**»، ولم يقيِّدْهُ النَّبيُّ ﷺ.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاءَ، لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[3]، وَقَالَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**»، فَقَرَأَهَا رَسُـولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ ثَلَاثَ مِـرَارٍ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار، رقم (٥٤٥٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب غسل الأعقاب، رقم (١٦٣)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، رقم (٢٤٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلًا**»، رقم (٣٤٦٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء وبيان حد ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحب، رقم (٢٠٨٥).

بِالحَلِفِ الكَاذِبِ»[١]. الشَّاهدُ منْ هَذَا الحديثِ قَولُهُ: «المُسْبِلُ». فهَذَا صَحيحٌ مُطلقٌ يُقيَّد بِمَا إِذَا كَانَ مُسبلًا خيلاءَ، أمَّا إذَا أَسْبَلَ لِغَيْرِ الخيلاءِ فَلَا وَجْهَ للتَّحريمِ.

قُلْنَا: «مَنْ جرَّ ثَوْبَهُ خُيلاءَ، لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ» يَعْني: إذَا أَسْبل لغَيْرِ الخيلاءِ نَظَرنا للحَدِيث الآخرِ، وهُوَ: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ فَفِي النَّارِ»، ولا يُمْكِنُ أبدًا أنْ يُقالَ: إنَّ قولهُ: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ فَفِي النَّارِ» مقيَّدٌ بِقَولِهِ: «خُيَلاءَ»؛ وذَلك لِاختلافِ العَمَلين، واختِلَافِ الحُكْمَيْنِ، والدَّليلَانِ إِذَا اختلفَا فِي الحُكمِ، واختلَفَا فِي العَمَلِ، فلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقيَّدَ أَحَدُهما بِالآخرِ.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: أَلَيْس أَبُو بَكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سَمِع بالحديثِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَحَدَ شِقَّيْ إِزَارِي يَسْتَرْخِي إِلَّا أَنْ أَتَعاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ خُيَلَاءَ»[٢].

قلنا: لِأَنَّ أبَا بَكرٍ يَقُولُ: «يَسْتَرْخِي إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ»، فكَان إِذَا اسْتَرخى رفَعه، وَالَّذِي يَسْترخي إزَارُه، ثُمَّ يَنْزل إِلَى مَا دُون الكَعْبين، ثُمَّ يَرْفعه، لَمْ يَصْنعه خُيَلاء.

لَكِن هَؤُلاءِ الَّذِينَ يُسبِلونَ ثِيَابهم لَا تَسْترخي عَلَيْهم ثم يَتَعَاهدونها، لكنَّهم يتعمَّدُون أَنْ تَسترخِيَ، فهَؤُلَاءِ صَنَعوه خُيلاءَ، ويَزِيدون عَنِ الكعبينِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رقم (١٠٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، رقم (٣٦٦٥).

وَفِي إِطَالَةِ الثَّوب منَ المفاسدِ كَونه يتقطَّع أَسْفله منْ حكِّ الأَرْض، وفِيهِ عُرضةٌ لِكونِ الثَّوبِ يَتَّسخ أَسْفله إِذَا انجرَّ عَلَى الأرضِ.

فَهذَا عُمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له قِصة عَجِيبةٌ، حَيثُ اسْتُشهد وهُو قَائمٌ يُصَلِّي بِمَسجدِ النَّبيِّ ﷺ، فَإِنَّ أَبا لُؤْلؤة المجُوسيَّ، غُلام المُغِيرةِ بنِ شُعبةَ، كَانَ يتحيَّنُ الفُرصَ لِقَتل هَذَا الخليفةِ الرَّاشدِ؛ لِأَنَّ اللهَ أزالَ مُلكَ الفرسِ عَلَى يَدِ عُمَرَ بنِ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَحَقدوا عَلَيْه، فكَان هَذَا الغُلَام يَتحيَّن الفُرص لِيَقتلَ هَذَا الرَّجلَ الَّذِي أَبادَ مُلْكَهم، فَانْتَهزَ الفُرْصةَ وأَميرُ المُؤْمنينَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَائمٌ يُصَلِّي صَلاةَ الفجرِ، فَطَعنهُ بخِنجرٍ لَه جِهَتان منْ أَجل أَنْ يَتخلصَ إِذَا لَحِقهُ النَّاسُ.

فَطَعنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولما لَحِقه النَّاسُ أَلقَى عَلَيْه بعضُ الصَّحابَة بساطًا حَتَّى أدركهُ، فقُتِلَ، أَمَّا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإِنَّهُ حُمِلَ إلى بَيْتِهِ، وبقِي ثَلَاثة أيامٍ، وتُوُفِّي.

كانَ يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللَّهُمَّ ارْزُقني الشَّهادةَ فِي سَبِيلك، والموتَ فِي بَلَد رَسُولك. فكانَ النَّاسُ يَتعجَّبون منْ هَذَا الدُّعَاءِ، كَيف يَدعو بِهَذَا الدُّعَاءِ: اسْتِشهادٌ فِي سَبيلِ اللهِ، ومَوْتٌ فِي بلدِ رَسولِ اللهِ ﷺ؛ لِأَنَّ المَدِينَةَ إِذْ ذَاكَ بَلدٌ آمنٌ، وليستْ حَولهَا حُروبٌ، فكيفَ يَدعو هَذَا الدُّعَاء الَّذِي ظاهرهُ اعتداءٌ فِي الدُّعَاءِ، وَلكنَّ اللهَ تَعَالَى قيَّضَ لَهُ الشهادةَ فِي بلدِ الرَّسُولِ ﷺ، وماتَ فِي بلدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ قُتل مظلومًا، لَا مِن أَجْلِ المالِ ولَا مِن أجلِ الدَّار، ولكنْ مِن أجلِ الجهادِ فِي سبيلِ اللهِ، فَيكونُ بذلكِ شهيدًا؛ لِأَنَّ هَذَا الغلامَ الخبيثَ مَا قتله لِأَنَّهُ عُمَرُ بْنُ الخطَّاب، بل قَتله لِأَنَّهُ مُجاهد بِجُنوده، فقَد قَضى عَلَى عَرش الإِمْبِرَاطوريَّة الفارسيَّة. فأَجَابَ اللهُ دَعْوَتَهُ.

والشاهدُ فِي هَذِهِ القصَّةِ؛ أَنَّهُ أَتَاهُ شابٌّ منَ الأنصارِ وهُو فِي بَيْتِهِ مَطعونًا، كَما يأتيهِ النَّاسُ يؤبِّنونهُ، يَقُولونَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ تُوُفِّي وهُو عنكَ رَاضٍ، ويُطَمئِنونهُ، ويُسلونهُ، ولكنَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: ودِدت أَنِّي أَخرج مِنْها -أَيْ: منَ الدُّنيا- كَفافًا، لَا عَلَيَّ ولا لِي[1]. وهُو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي فتحَ الفتوحاتِ يَخَافُ عَلَى نفسهِ، فَنَسأَلُ اللهَ أَلَّا يَجعلنَا مِمَّن أَمِنَ مَكرَ اللهِ.

هَذَا الشَّابُّ جَاءهُ مَعَ النَّاسِ، فلَمَّا انْصَرفَ النَّاسُ فإِذَا إِزَاره يَضْربُ الأَرضَ، فَنَاداه عُمَرُ وهُو فِي هَذِهِ الحالِ الحرجةِ، وَقَالَ لَهُ: «يَا ابْنَ أَخِي، ارْفَعْ ثَوبكَ؛ فَإِنَّهُ أَتْقَى لِرَبِّكَ، وأَبْقَى لِثَوبِكَ»[2]. رَضِيَ اللهُ عَنْ عُمَرَ.

قال: «أَتْقَى لِرَبِّكَ» لِأَنَّكَ إِذا أَنزلتَ الثَّوبَ إلى أسفلُ فَهَذِهِ مَعصيةٌ للهِ، مُجَانِبةٌ للتَّقوى، فَإِذا رَفعتَه فَقدِ اتَّقيتَ اللهَ، «وأَبْقَى لِثَوْبِكَ» لِأَنَّ الثَّوب إِذَا نَزل عَلَى الأَرضِ أَكلتهُ الأَرضُ، وإِذَا ارتَفَعَ سَلِمَ، فَذَكر فِيهِ فَائدتينِ: الأُولَى: دِينيَّة، والثَّانيةُ: دُنيويَّةٌ.

مَسْأَلَةٌ: ما حُكم إسبالِ الرِّجَالِ لِثِيابِهِمْ؟

الجَوَابُ: إِسْبالُ الرِّجَالِ لِثِيابِهِمْ مِن كَبَائِرِ الذنوبِ، وكَبَائرُ الذنوبِ لَا تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ، وَلَا الصَّدقةُ، ولَا الصِّيَامُ، ولا الحجُّ، فكبائرُ الذُّنوبِ لَا تُكفرهَا إِلَّا التَّوبة، وَالتَّوبة أَنْ يُقلعَ الإِنْسَانُ عنِ الذَّنبِ، وَلَا يَكفي أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، فَلَوْ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِر لِي، وهُو يُمارِسُ الذنبَ، لَكَانَ هَذَا الدُّعَاءُ شبيهًا بالاستهزَاءِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (١٣٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٤ رقم ٢٣١٣٥)، وابن سعد (٦/ ٤٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ١٥٠ رقم ٦١٤٥).

فَعَلى مَنِ ابتُلِيَ بِتَنْزِيل ثِيَابه إِلى أَسْفل منَ الكعبينِ، أَنْ يَتقيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وَأَنْ يَشكرَ اللهَ عَلَى نعمهِ، وأنْ يَلبسَ لباسَ التَّقْوى فهوَ خيرٌ، وليَرفعَ ثَوبهُ إِلَى مَا فَوْقَ الكَعْبِ.

مَسْأَلَةٌ: ما مِقدارُ تَقصيرِ الثَّوبِ؟

الجَوَابُ: مِقْدَارُ تَقْصيرِ الثَّوبِ منْ نصفِ السَّاقِ إِلَى الكَعبَيْن، لَكن لَا يَنْزل عنِ الكعبينِ، سَوَاءٌ كَانَ ثوبًا أَمْ سِرْوالًا أم مشلحًا؛ لِأَنَّ حديثَ أَبِي بَكْرٍ -الَّذِي سُقناهُ آنفًا- يَدُلُّ عَلَى أنَّ إزارَ أَبِي بكرٍ نَازلٌ عنْ نِصْفِ السَّاقِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يُشَاهدهُ صَباحًا ومساءً، ولمْ يَقُلِ: ارْفَعْهُ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، فَالرَّفْعُ إِلَى نِصفِ السَّاقِ لَيْسَ بِواجبٍ، بَلِ الأمرُ واسعٌ.

القِسْمُ الثَّالِثُ: المُحَرَّمُ لِكَسبهِ، مِثَالُهُ: شَخصٌ سَرَقَ ثَوْبَ إِنْسَانٍ نَظيفًا جديدًا، لَا يَبلغُ الكعبينِ، فَلَبِسَهُ، فَالثوبُ فِي حَدِّ ذَاتهِ حلالٌ مُبَاحٌ، لَا لِعَينه ولَا لوصفهِ، لَكِنه حَرامٌ لِكَسبه؛ لِأَنَّهُ مَسْروقٌ.

مَسْأَلَةٌ: ما حُكمُ لِباسِ الإِنْسَانِ خِلافَ مَا يَلْبسه النَّاسُ، وهو لِبَاسُ الشُّهْرَةِ؟

الجَوَابُ: هُوَ مَنْهيٌّ عَنه لَا شَكَّ، وكَونُ النَّهيِ للتَّحريمِ أَمِ الكراهةِ: مَحَلُّ نظرٍ، فَلَو أَنَّ أحدًا منَ النَّاسِ السُّعُوديِّينَ خرج عَلَيْنَا بِإِزَارٍ ورداءٍ وَعِمامةٍ، فَنقول: هَذَا مَنْهيٌّ عَنه، مَعَ كَونهِ لِباسَ الصَّحَابَةِ، فَالصَّحَابَةُ يَلْبسون ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ هُوَ المُعْتَاد عِنْدهم، وَلا يَشْتهرُ الواحدُ مِنهمْ بِلِباسِ ذلكَ، لَكن فِي السُّعودية لَو أَنَّ أحدًا لَبس هَذَا لَكان لِباسَ شُهرةٍ، وقَد جَاءَ النَّهي عنْ لِبَاسِ الشُّهرةِ.

فَنقولُ: لَا تَلبسْ هَذَا؛ لِأَنَّ هَذَا لِباس شُهْرة تَشْتهر بِهِ.

فَلَو أنَّ رَجلًا مِنَ المشايخِ العُلَماءِ الكبارِ، خَرجَ لَنا بِبَنْطلونٍ وكَرفتةٍ فِي السُّعُوديَّة، أَوْ خَارجهَا، فَيكون هَذَا اللباسُ لِباس شُهْرةٍ وَيُنهى عَنْهُ؛ لِأَنَّ هَذَا لَيْسَ معتادًا، أمَّا لَو خَرج بِهَذَا اللِّباس مُهندسٌ فِي بَلَد يَلْبسه المُهَنْدسونَ، قُلْنَا: هَذَا لَا بَأسَ بِه، وَلَيْس فِيهِ نَهْيٌ.

إِذَنْ لِباس الشُّهْرة مَنْهيٌّ عَنْه، لَا لِعَيْنه وَلَا لِوَصفه وَلَا لِكَسْبه، وَلَكن للخُرُوج عنِ العادةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، وهنا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى نوعًا ثالثًا منَ اللباسِ، وهوَ لباسُ التَّقوى، أَيْ: لباسُ تَقْوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ خيرٌ منَ اللباسِ الَّذِي يُوارِي السَّوءاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أَيْ: هَذَا اللِّباس الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ولوْ شَاء اللهُ لَحرمنا هَذَا اللِّباس، ولكنَّه لِرَحمته أَنْزله إِلَيْنا.

قَوْله تَعَالَى: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ الضَّمير يَعود عَلَى بَنِي آدمَ.

قَوْله تَعَالَى: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ يَتَّعظون.

فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ: مَا وَجْهُ الاتِّعاظ فِي هَذَا؟

قُلْنَا: لَوْلَا هَذَا اللِّباسُ لِبَقيتِ العَوْراتُ بَاديَةً، إِذَنْ نَحن مُحْتَاجونَ لِلبَاس الحِسِّيِّ، وَكَذَلك مُحْتَاجون لِلبَاسِ المَعْنَوي، وهُوَ لِبَاسُ التَّقْوى، فَكَأَنَّ اللهَ يَقُولُ لِبَنِي آدمَ: انْتَبهوا، كَمَا أَنَّكم مُحْتاجونَ لِسَتْرِ العَوْراتِ الحسِّيَّة، فأَنْتم مُحْتَاجون لِسَتْرِ العَوْرات المَعْنويَّة منْ بَابِ أَوْلى.

وَلِذَلك قَالَ بعضُ الَّذِين يعبِّرونَ الرُّؤيا: إِذَا رَأَيْتَ الرجلَ فِي المنامِ عاريًا، فَإِنَّهُ قليلُ التَّقوى للهِ؛ لِأَنَّ التَّقوى لِبَاسٌ سَاترٌ، وَهُوَ خيرٌ منَ اللباسِ الحسيِّ.

لِذَلك يَجب عَلَينا أَنْ نَتَذكرَ، فَغَير بَنِـي آدم لَهُم مَا يَسْتر عَوْرَاتِهم مِنَ الرِّيش، والصُّوفِ، والوَبَر، والزَّعانف، وَغَيْرها؛ لِأَنَّها لَيْست مُحْتَاجة لِلتَّذكر، لَكِنَّ بَنِي آدمَ مُحْتَاجونَ للتَّذكر؛ وَلِذَلك ذكَّرَهم اللهُ بِمَا مَعْنَاهُ: كَمَا أَنَّكم مُحْتَاجون للِّبَاس الحسيِّ، فَأَنْتم مُحْتَاجون إِلَى اللِّبَاس المعنَويِّ.

مَسْأَلَةٌ: الأَصلُ فِي اللباسِ الحِلِّ، فَهَلْ يُنكَرُ عَلَى مَنْ قالَ: هَذَا اللباسُ حَرامٌ بِلَا دَلِيلٍ؟

قُلْنَا: يُنكرُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ اللهَ أَنْكر عَلَيْهِ فِي قَوْلهِ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢]، وَهَذَا الاستِفهامُ استِفْهامُ استِنْكارٍ، فَيُنكر عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّ هَذَا اللِّبَاسَ حَرامٌ، إِلَّا بِدَليلٍ، فَأَنْتَ تَمْـنَعُ فَضلَ اللهِ عَلَى عبادِ اللهِ بتحريمِكَ إِيَّاه عليهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأعراف:٣٢]، ﴿هِىَ﴾ الضَّميرُ يَعودُ عَلَى الزِّينة، ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢] انْتَبه لهَذِهِ القُيُودِ: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يتمتعون بِهَا، أَيْ: بِالزِّينة، ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَيْ: لَا يَلْحقهم عَلَيْها عِقَابٌ.

وفِي هَذِهِ الآيةِ دَليلٌ عَلَى أَنَّ ثيابَ الكُفَّار يَلْحقهم عَلَيْها عِقاب، ولَو كَانت مِمَّا أَحلَّهُ اللهُ؛ لِأَنَّهُ قالَ: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، هِيَ للذِين كَفروا لَكنها لَيْست خَالصة، ويُعاقَبون عَلَيها يَوم القِيَامةِ.

فلَوْ فَرضنا أنَّ رَجُلين أَحَدهما مُسْلمٌ والثَّاني كَافر، وَلِبَاسُهما وَاحِد؛ لِبَاس منَ القطنِ أوِ الصُّوفِ، فكان الكَافر يُعاقبُ عَلَى هَذَا اللِّباسِ، والمسلمُ لَا يُعاقَبُ؛ لِأَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾. إِذَنْ غَيرُ الَّذِينَ آمنُوا غَير خَالِصة لَهُمْ، بَلْ يُعَاقبونَ عَلَيْهَا.

زِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ المسلمَ يَأكلُ ويَشْربُ حَلالًا طيبًا، لَيس عَلَيْهِ عقُوبة، والكافرُ يَأكل ويُعاقَبُ عَلَى أكلهِ.

فمثلًا هُناك رَجُلَانِ؛ أَحَدهما مُسْلم والآخرُ كافـرٌ، وكُل واحِد مَعَهُ تُفاحةٌ يَأكلها، فَالمُسْلم لَيْسَ عَلَيْه شيءٌ، والكافرُ يُعَاقب عَلَى أَكْلِ التفاحِ، ودليلهُ قَوْلُ اللهِ تَعالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ [المائدة:٩٣].

إِذَنِ الَّذِينَ لَيسوا بِمُؤمنـينَ وَلَا عَمِلوا الصَّالحات عَلَيْـهم جُناح، فَالكافـرُ لَا يَرفع لُقمة لِفمه إِلَّا عُوقِب عَلَيها، وَلَا يَشربُ جَرعة مِن مَاء إِلَّا عُوقبَ عَلَيْها؛ لِهَذِهِ الآيةِ.

ثُمَّ إِنَّ العقلَ يَقْتضي هَذَا، كَيْف يُمْكن أَنْ تَتنعمَ بِنِعمِ الخالقِ عَزَّوَجَلَّ وتَعْصي أَمْرهُ؟! أَنَا لَو وَضَعت هَديَّةً لِأَوْلادي، وقُلت: هَذِهِ للَّذِي يُطيع مِنْكم، فأَحدهم أَطَاع، وصَار بِحَسَبِ مَا آمُرُهُ به، والثَّاني تَمَرَّد، فَلَا يَلِيق أَنَّ الثَّانيَ الَّذِي تَمَرَّد أنْ يَأْكلَ منْ هَذِهِ الهديةِ، فالشَّرع وَالعَقْل يَدُلانِ عَلَى أَنَّ تَمَتُّعَ الكافرِ بِما رَزَقه اللهُ يُعاقَب عَلَيْهِ فِي الآخرةِ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

الدرس الثاني:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا محمدٍ، وعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِه وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بعدُ:

فقد قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف:٢٦].

يخاطبُ اللهُ تَعَالَى بَنِي آدمَ، والمرادُ بَنُو آدمَ وبَنَاتُ آدمَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ المخاطبُ قبيلةً فَإِنَّهُم يخاطَبون بِلَفْظِ الذُّكُورِ؛ كما تقولُ: بَنُو تَمِيم، كذلك بَنُو آدمَ يَشْمَلُ الذُّكُورَ والإِنَاثَ: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ثلاثةُ ألبسةٍ:

الأولُ: اللباسُ الَّذِي يُوَارِي السَّوْءَاتِ، أي: العَوْرَاتِ، وَهَذَا اللباسُ الضروريُّ، والثَّانِي الريشُ، وَهَذَا لباسُ الجمالِ الزائدِ عَلَى قدرِ الحاجةِ، والثالثُ: لباسُ التَّقْوَى، ولباسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خيْرٌ. وجَاءَتْ هَذِهِ الكلمةُ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ لِئَلَّا يَتَمَادَى الإنسانُ فِي اللباسِ؛ لباسِ الضرورةِ ولباسِ الجمالِ، ولْنَتَكَلَّمْ عَلَى هَذَا.

اللباسُ الَّذِي يُوَارِي السوءاتِ بالنسبةِ للنساءِ يَشْمَلُ كُلَّ المرأةِ، فالمرأةُ لا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تُظْهِرَ شيئًا مِن بَدَنِها لرجالٍ لَيْسُوا مِن محارمِها، فكُلُّها عورةٌ، حَتَّى الوجهُ فَإِنَّهُ عورةٌ بالنسبةِ للنَّظَرِ، فَلَا يجوزُ لها -أي للمرأةِ- أَنْ تَكْشِفَ وَجْهَهَا لغيرِ محارمِها، هَذَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الكتابُ والسُّنَّةُ، وَإِنْ كَانَ فِي المسألةِ خِلَافٌ ولَكِنَّ الحقَّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ.

وَقَدْ صرَّحَ الأئمةُ أَنْفُسُـهُم رَحِمَهُمُ اللَّهُ بأنَّه إِذَا كَانَتْ أقوالُهم تُعارِضُ الكتابَ والسُّنَّةَ فَإِنَّ الواجبَ الأخذُ بالكتابِ والسُّنَّةِ وطَرْحُ الأقوالِ الأُخْرَى.

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الحِكْمَةِ مِن وجوبِ سترِ المرأةِ جميعَ بَدَنِها عَلِمْنا علمَ اليقينِ أَن الوجهَ لَا بُدَّ أَنْ يُسْتَرَ، والحكمةُ مِن كونِ المرأةِ تسترُ جميعَ بَدَنِها البعدُ عن الفتنةِ، وذلك لِأَنَّ المرأةَ مَحَلُّ فِتْنَةِ الرجالِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»(١)، وقَالَ أيضًا ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»(٢)، وَلِهَذَا وَجبَ عَلَى المرأةِ أَن تَسْتُرَ جميعَ بَدَنِها.

ولو سَأَلَنَا سَائِلٌ: أَيُّهما أَعْظَمُ فتنةً؛ أَن تكشفَ المرأةُ وَجهَها أو تكشفَ قَدَمَها؟

لكانَ الجوابُ: أَنْ تكشفَ وَجْهَها بِلَا شَكٍّ؛ لِأَنَّ الوجهَ هُوَ مَحَلُّ الرغبةِ ومَحَلُّ الفتنةِ، وَلِهَذَا لو أَرَدْتَ أَن تخطبَ امرأةً أَتَقُولُ للواسطةِ بينك وبينها: مَا لَوْنُ وَجْهِها؟ مَا حُسْنُ وَجْهِها؟ أو تقولُ: مَا لَوْنُ قَدَمِها؟ مَا حُسْنُ قَدَمِها؟ إِذَا طَلَبْتَ مِن شخصٍ أَنْ يَخْطُبَ لك امرأةً هل ستقولُ: ماذا رَأَيتَ مِن قَدَمِها؟ هل إِبْهَامُها ضخمٌ أو غَيْرُ ضخمٍ؟ هل الخِنْصَرُ ضخمٌ أو غَيْرُ ضخمٍ؟ هل الظُّفُرُ طويلٌ أو غَيْرُ طويلٍ؟ أتقولُ هَكَذَا؟ لا، بل ستقولُ: هل وَجْهُهَا جميلٌ أو غَيْرُ جميلٍ؟ هل هُوَ مستطيلٌ أو مستديرٌ؟ هل عَيْنَاها حَوْرَاوَانِ أو لا؟ وهَكَذَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، رقم (٤٨٠٨)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، رقم (٢٧٤٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، رقم (٢٧٤٢).

فكيفَ يمكنُ أَنْ تكونَ الشريعةُ الحكميةُ الَّتِي أَحْكَمَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ تُبِيحُ للمرأةِ أَن تكشفَ وَجْهَها وتوجبُ عَلَيْهَا أَن تَسْتُرَ قَدَمَها؟! هَذَا لَا يُمْكِنُ أَبَدًا، فإما أَن نَقُولَ بجوازِ كَشْفِ الوَجْـهِ والكَفَّيْنِ والقَدَمَيْنِ والسَّاقَيْنِ والذِّرَاعَيْنِ وإما أَن نَقُولَ بحجبِ جميعِ ذَلِكَ، فالثَّانِي هُوَ الأبعدُ مِن الفتنةِ.

وَلِهَذَا يجبُ عَلَى كُلِّ إنسانٍ يَغَارُ عَلَى أَهْلِهِ أَن يُلْزِمَهم بتغطيةِ الوجهِ عندَ الرجالِ الأجانبِ.

وَهَذِهِ المسألةُ كما قُلْتُ أَوَّلًا وإن كَانَتْ مسألةً خلافيةً، ولَكِنَّ الحقَّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ، وَمَا دَلَّ الكتابُ والسُّنَّةُ عَلَيْهِ فالواجبُ الأخذُ بِهِ.

انْظُرِ الآنَ لو مَرَّتِ امرأةٌ جميلةٌ كاشفةُ الوجهِ، فَسَوْفَ يَتْبَعُهَا السفهاءُ، وَهَذَا شَيْءٌ معلومٌ، وما أَكْثَرَ الشِّكَايَةَ منه.

فنقولُ: إِذَا كُنْتِ تُرِيدِينَ السَّلَامَةَ مِن هَذَا فَغَطِّي الوجهَ.

ثم إنَّ النساءَ اللَّاتِي قِيلَ لَهُنَّ: لَا بأسَ بكشفِ الوجـهِ؛ لم يَقْتَصِرْنَ جميعُهُنَّ عَلَى كشفِ الوجهِ، رُبَّما يَكُونُ بَعْضُهُنَّ قَدِ اقْتَصَرْنَ عَلَى هَذَا وبَعْضُهُنَّ جَمَّلْنَ الوجهَ بالكحلِ والمكياجِ وتحميرِ الشفاهِ والنَّمْصِ وغَيْرِ ذَلِكَ.

ثم هل اقتصرتِ المرأةُ عَلَى كَشْفِ الوجهِ فقط أو كَشَفَتِ الوجهَ والرقبةَ والصدرَ وأعلَى الصدرِ والرأسَ؟

ولقد عَجِبْتُ كثيرًا مِن امرأةٍ تَسْأَلُ تقولُ: إنَّ ضَفِيرَتَها تخرجُ مِن الخمارِ، فهل هَذَا جائزٌ؟ وهِيَ تَسْأَلُ وَهِيَ كَاشِفَةُ الوجهِ، اللهُ المستعانُ! تَسْأَلُ عن شعرةٍ مِن رأسٍ خَرَجَت مِن تحتِ الخمارِ وتَدَعُ هَذَا الوجهَ المليحَ الجميلَ!

فالواجـبُ عَلَى المرأةِ أَنْ تَتَّقِـيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وألا تكشـفَ وَجْهَها إِلَّا لِزَوْجِهَا أو محارِمِها، كما أَن الواجبَ عَلَى المرأةِ أَن تَتَجَنَّبَ الطِّيبَ القويَّ الرائحةِ الَّذِي يَشَمُّهُ مَن كَانَ حَوْلَها؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قَالَ: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَصَابَتْ بَخُورًا فَلَا تَشْهَدْ مَعَنَا العِشَاءَ الآخِرَةَ**»[1]، والبَخُورُ مِن أزهدِ الأطيابِ وأقلِّها شَأْنًا، وَمَعَ ذَلِكَ مَنَعَها مِن شُهُودِ المسجدِ لِأَجْلِ هَذَا البَخُورِ، فما بالُكَ بِمَنْ تَطَيَّبَت بأطيبِ الطِّيبِ وتخرجُ إِلَى السوقِ وَلَا تُبَالِي؟!

إن خروجَ المرأةِ متطيبةً مِن الأمورِ المحرمةِ الَّتِي يجبُ عَلَيْهَا أَنْ تَتَّقِيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ فِي نَفْسِها وتَدَعَه، وَإِذَا كَانَتْ تريدُ أَن تَتَطَيَّبَ لزوجِها كما تَدَّعِي فَلْتَبْقَ فِي بَيْتِهَا.

وإِنَّ عَلَى المرأةِ أَنْ تعرفَ قَدْرَ نَفْسِها وَأَنَّهَا امرأةٌ محترمةٌ معظمةٌ، ولَا يوجدُ احترامٌ وَلَا تعظيمٌ أشدُّ مِن احترامِ وتعظيمِ الإسلامِ لها، لَكِن بماذا يكونُ احترامُها وتعظيمُها؟ أيكونُ بأَنْ تخرجَ إِلَى الأسواقِ كما شَاءَتْ وعَلَى أي وَجْهٍ شَاءَتْ، أو أَنْ تَبْقَى فِي بيتِها تَخْدُمُ زوجَها وتُرَاعِي أولَادَها وتقومُ بحوائجِ البيتِ؟ الثَّانِي بِلَا شَكٍّ، هَذِهِ وظيفةُ المرأةِ.

إِنَّ مِن النساءِ اليومَ مَن تخرجُ إِلَى الأسواقِ وكَأَنَّها رجلٌ، فتَجِدُها تَمْشِي مِشْيَةَ القوةِ والضربِ عَلَى القدمِ وَلَا تُبَالِي، ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى بيتِ زَوْجِها وكَأَنَّها مَعَ زَوْجِها نِدٌّ له، يَعْنِي مساويةً له، فأين التمتعُ بالزوجةِ إِذَا كَانَتْ تعتقدُ نَفْسَها مساويةً لك؟! إِنَّ الإنسانَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَمَتَّعَ ويَتَلَذَّذَ بها وَهِيَ عَلَى هَذِهِ الحالِ، فلْتكُنِ المرأةُ امرأةً حَقًّا كَمَا يَلِيقُ بِهَا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد...، رقم (٤٤٤).

وإنَّ مِنَ الأمرِ المنكرِ مَا تخـرجُ به النساءُ مِنَ الألبسةِ المتطورةِ والتـي هِيَ فِي الحقيقةِ متدهورةٌ وَرِثَتْها عن النساءِ الأوربياتِ أو غَيْرِهِنَّ ممن يُقَلِّدْنَ نساءَ أوربا، فهو لِبَاسٌ لَيْسَ بلباسٍ فِي الحقيقةِ، بل هُوَ كاسٍ مُعَرٍّ.

وَقَدْ جَاءَ التحذيرُ مِن هَذَا؛ فقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا؛ قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وكَذَا**»[1].

معنى كَاسِيَاتٍ عَارِيَاتٍ قَالَ العلماءُ: يَشملُ هذا ثلاثةَ أنواعٍ مِن الألبسةِ:

الأول: اللباسُ الضيقُ، فتجدُ المرأةَ تَلْبَسُ لِبَاسًا ضَيِّقًا فيَبْدُو حَجْمُ عظامِها، ويَبْدُو حَجْمُ العَجِيزَةِ وَحَجْمُ الفَخِذِ وحَجْمُ الصَّدْرِ، فتكونُ كَاسِيَةً لَكِنَّها فِي الحقيقةِ عَارِيَةٌ.

الثاني: أَنْ يَكُونَ اللباسُ قصيرًا، والمشروعُ فِي لباسِ المرأةِ أَن يصلَ إِلَى كَعْبِها فِي بَيْتِها، أما فِي السوقِ فلْيُغَطِّ القدمَ أيضًا، فإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَهِيَ كاسيةٌ عاريةٌ.

الثالث: أَنْ يَكُونَ اللباسُ خَفِيفًا، يُرَى مِن وَرَائِه الجلدُ، فَهَذِهِ كاسيةٌ عاريةٌ، وَهِيَ داخلةٌ فِي قولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا**».

قوله: «**مُمِيلَاتٌ**» المعنى أنها تُمِيلُ غَيْرَها عَنِ الحقِّ؛ لِمَا اتَّسَمَتْ به مِن الفتنةِ؛ إِمَّا بالرائحةِ، أو بالتَّغَنُّجِ، أو بالتمايلِ فِي المِشْيَةِ، أو بالخضوعِ بالقولِ، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات، رقم (٢١٢٨).

قوله: «مَائِلَاتٌ» أي مائلاتٌ عن طريقِ الحقِّ بما يَحْصُلُ منهن مِن أسبابِ الفتنةِ، فلْتَتَّقِ اللهَ المرأةُ، ولْتَعْرِفْ قَدْرَها وَأَنَّ الدينَ الإسلاميَّ أَحَاطَها بأسوارٍ عظيمةٍ تَمْنَعُها مِن الفتنةِ.

ومن الكِسْوَةِ العاريةِ البنطلون، ويزيدُ البنطلونُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ مِن لباسِ الرجالِ، فَإِذَا لَبِسَتْه المرأةُ صَارَتْ مشابهةً للرجلِ فِي لُبْسِ البنطلونِ، وَقَدْ لَعَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ المتشبِّهاتِ مِن النساءِ بالرجالِ[١]، وما حاجةُ المرأةِ لِلُبْسِ البنطلونِ؟ هل هِيَ ميكانيكيةٌ تعملُ بالمكائنِ؟ هل هِيَ تريدُ أَن تلعبَ الرياضةَ حَتَّى تلبسَ هَذَا اللباسَ؟!

ولَكِنَّ الشيطانَ -والعياذُ باللهِ- يُزَيِّنُ لبَنِي آدمَ سُوءَ أعمالِهم، وما يُدْرِينا لَعَلَّ أعداءَنا الَّذِينَ أَغْرَقُونَا بالفتنِ، لعلهم فِي يومٍ مِن الأيامِ يأتونَ إِلَى نسائِنا ببنطلوناتٍ خفيفةٍ رقيقةٍ ضيقةٍ لَوْنُها كألوانِ الجلدِ، فَإِذَا لَبِسَتْها المرأةُ تكونُ كَأَنَّها عاريةٌ تمامًا؛ لِأَنَّ أعداءَنا يعرفونَ أَنَّ إغراقَهم إِيَّانَا بِهَذِهِ الفتنِ يوجبُ الصدَّ عن ذكرِ اللهِ وعن الصلاةِ، وهم أذكياءُ لَا يَأْتُونَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَجْهًا لِوَجْهٍ ولَكِن مِن الأسفلِ حَتَّى يَصْعَدُوا، فيُغْرُونَا بهذه الألبسةِ ويُغْرِقُونَا فيها حَتَّى نَقَعَ فِي شِباكِهم، نَسْأَلُ اللهَ أَن يكفِيَنا شَرَّهم وشَرَّ أمثالِهم.

قوله: ﴿يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ هَذَا اللباسُ الضروريُّ.

قوله: ﴿وَرِيشًا﴾ هَذَا اللباسُ الكماليُّ.

والنوعُ الثالثُ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وَهُوَ خيرٌ مِن هَذَا وهَذَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب المتشبهون بالنساء، والمتشبهات بالرجال، رقم (٥٨٨٥).

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل:٨١].

فهَذِهِ أيضًا فائدةُ غَيْرِ الريشِ وما يُوَارِي السوءةَ ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ يَعْنِي: والبردَ، لَكِنْ ذَكَرَ الحرَّ لِأَنَّ القرآنَ نَزَلَ فِي الحجازِ، والحجازُ حارٌّ، فيحتاجُ الإنسانُ إِلَى ثيابٍ تَقِيهِ الحرَّ، ولو أَنَّ الإنسانَ بَقِيَ عَارِيًا فِي الشمسِ فِي الحجازِ لَتَأَلَّم واسْوَدَّ جلدُه، ولَكِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ جعَلَ هَذِهِ السرابيلَ تَقِي الحرَّ. وَهُنَاكَ سرابيلُ تَقِي البأسَ، وَهِيَ الدروعُ الَّتِي يَلْبَسُها المقاتلُ حَتَّى تَقِيَهُ السهامَ.

وقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف:٣١] فأَمَرَ اللهُ تَعَالَى أَنْ نتخذَ الزينةَ عندَ كُلِّ مسجدٍ؛ أي: عند كُلِّ صلاةٍ، وَهَذَا مَا ذَكَرَه العلماءُ مِن وجوبِ سَتْرِ العورةِ فِي الصلاةِ.

قال ابنُ عبدِ البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ سَتْرَ العَوْرَةِ فَرْضٌ وَاجِبٌ بِالجُمْلَةِ عَلَى الآدَمِيِّينَ، وَاخْتَلَفُوا هَلْ هِيَ مِنْ فُرُوضِ الصَّلَاةِ أَو لَا؛ فَقَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ العِلْمِ وَجُمْهُورُ فُقَهَاءِ الأَمْصَارِ: إِنَّهَا مِنْ فُرُوضِ الصَّلَاةِ[1].

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) التمهيد، لابن عبد البر (٦/ ٣٧٦).

الدرس الثالث:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومَن يُضلل فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إله الأولينَ والآخِرينَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وخليلُه، وأمينُه على وحيِه، بلغَ الرسالةَ، وأدى الأمانةَ، ونصحَ الأمةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، وتركَ أمتَه على محجةٍ بيضاءَ، ليلِها كنهارِها، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أما بعد:**

فقد قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الأعراف:٥٣].

قولُه: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ الاستفهامُ هنا للنفيِ، و(ينظرون) بمعنى ينتظرونَ، أي: ما ينتظرُ هؤلاءِ المكذبونَ ﴿إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾ أي وقوعَ ما أخبرَ بهِ منَ البعثِ والجزاءِ، ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ أي وقوعُه ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾ ونسُوا هنا بمعنَى تركُوا؛ لأن النسيانَ يأتي بمعنَى التركِ، ومنهُ قولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة:٦٧] أي: تركُوا العملَ للهِ فتركَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لأن اللهَ تعالى لا ينسى، ولكنِ النسيانُ الذي يكونُ في حقِّ اللهِ بمعنى التركِ، فقولُه هنا: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ أي تركُوا العملَ لهُ مِن قبلُ، أي: مِن قبلِ وقوعِ تأويلِه.

قولُه: ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ يقولونَ هذا حينَ لا ينفعُ التصديقُ؛ لأنهم يقولونَ هذا يومَ القيامةِ، ويومُ القيامةِ إذا صدَّقَ الإنسانُ بهِ فإنهُ إذا كانَ بعدَ وقوعِه

لا ينفعُهُ التصديقُ؛ لأنهُ انتهَى وقتُ التصديقِ، ولهذا قالَ: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

وأهلُ النارِ كلما أُلقيَ فيها فوجٌ سألَهُم خزنتُها: ألم يأتِكمْ نذيرٌ؟ قالوا: بلى قدْ جاءنا نذيرٌ، ولكنْ هذا الإقرارُ لا ينفعُ؛ لأنهُ فاتَ الأوانُ.

ثم يقولُ هؤلاءِ إذا رأَوْا تأويلَه: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ فيشفعُوا لنا، و(هلْ) هنَا استفهامٌ بمعنى التمنِّي، يعني يتمنونَ أن يكونَ لنا شفعاءُ، والشفعاءُ همُ الوسطاءُ، ولهذا نقولُ: الشفاعةُ: هيَ التوسطُ للغيرِ بجلبِ منفعةٍ أو دفعِ مضرةٍ.

يقولونَ: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ﴾ أي: إلى الدنيَا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: نعملَ عملًا صالحًا بدلَ الشركِ والتكذيبِ والاستكبارِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ وصدقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ خسرَ هؤلاءِ أنفسَهم؛ لأنهمْ لم ينتفعُوا في دنياهُم؛ إذ إن وجودَهم في الدنيا ما زادَهُم إلا خسارًا والعياذُ باللهِ؛ كما قالَ نوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح:٢١].

قولُه: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ضاعَ عنهُم ما كانُوا يفترونَه منَ الآلهةِ التي يدَّعونَ أنها تنفعُهُم.

فهذا معنَى الآيةِ، والتأويلُ هنا في قولِه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ بمعنى الوقوعِ.

أقسامُ التأويلِ:

واعلمْ أن التأويلَ ينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

القسمُ الأولُ: بمعنى التفسيرِ.

القسمُ الثاني: بمعنى المآلِ.

القسمُ الثالثُ: بمعنى صرفِ اللفظِ عن ظاهرِه إلى معنًى يخالفُ الظاهرَ.

فالقسمُ الأولُ: بمعنى التفسيرِ؛ ومنهُ قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ لابنِ عباسٍ: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[1]. أي: علِّمْهُ التفسيرَ.

وهذَا تجدونَهُ كثيرًا في كتبِ المفسرينَ بالأثرِ، يعني الذينَ يفسرونَ القرآنَ بالآثارِ، فتجدهُم يعبرونَ عنِ التفسيرِ بالتأويلِ، وعلى رأسِهم إمامُ المفسرينَ بالآثارِ محمدُ بنُ جَريرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنهُ يقولُ: «القولُ في تأويلِ قولِه تعالى: كذَا وكذَا» أي: في تفسيرِهِ.

مثالُ التأويلِ بمعنى التفسيرِ في القرآنِ: قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في صاحبَي السجنِ، حيثُ قالا ليوسفَ: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦] بتأويله أي: تفسيرِه، أي فسرْ لنا هذهِ الرؤيا، ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف:٣٧].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، رقم (١٤٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٢٤٧٧) واللفظ لأحمد (١/ ٣٢٨).

ومن ذلكَ أيضًا قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران:٧].

فإن هذهِ الآيةَ فيها للسلفيِّ قولانِ:

القولُ الأولُ: الوصلُ، يعني يقرءونَ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾. وعلى هذهِ القراءةِ يكونُ التأويلُ هنا بمعنَى التفسيرِ، يعني: لا يعلمُ تفسيرَه إلا اللهُ والراسخونَ في العلمِ، يعني المتعمِّقينَ فيهِ، ولهذا جاءَ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهُ قالَ: «أنا منَ الراسخينَ الذينَ يعلمونَ تأويلَه»(١) أي تفسيرَه.

القولُ الثاني: الوقفُ عندَ قولِه: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وسيأتِي.

القسمُ الثاني: تأويلُ الشيءِ يعني مآله وما يؤولُ إليهِ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي عاقبةً ومآلًا، ومنهُ هذهِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: مآلَه وعاقبتَه، وهوَ وقوعُ ما أخبرُوا بهِ.

ومنهُ قولُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٦/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود، رقم (٨١٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٤).

معنى «يتأولُ القرآنَ» أي: يُطبقُه ويعملُ بهِ.

وهذا التأويلُ -أي: بمعنَى العاقبةِ- لا يعلمُه أحدٌ إلا بعدَ وقوعِه، وعلى هذا قراءةُ بعضِ السلفِ لآيةِ آلِ عمرانَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ على قراءةِ الوقفِ، فيكونُ المرادُ بالتأويلِ العاقبةَ والمآلَ.

وأنتمْ إذا نظرتُم إلى المصحفِ وجدتُم قد كُتبَ على لفظِ الجلالةِ ميمٌ؛ علامة على أن الوقفَ لازمٌ. وعلى هذهِ القراءةِ -أي لزومِ الوقفِ في ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾- يكونُ التأويلُ بمعنى العاقبةِ والمآلِ، وهذا لا يعلمُه إلا اللهُ.

فإذا قالَ قائلٌ: هلْ يمكنُ العلمُ بهذا التأويلِ؟

قلنَا: نعمْ إذا وقعَ علمناهُ، ولهذا قالَ تَعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

القسمُ الثالثُ، وهوَ المعتركُ بينَ أهلِ السُّنَّةِ وأهلِ البدعةِ: التأويلُ الذي بمعنى صرفِ اللفظِ عَن ظاهرِه إلى المعنى المخالفِ للظاهرِ، وهذا لم يكنْ معروفًا في عهدِ السلفِ الصالحِ، وإنما حدثَ هذا التفسيرُ للتأويلِ في القرنِ الثالثِ فما بعدَه، وإلا فلمْ يكنْ معروفًا في عهدِ الصحابةِ والتابعينَ، وهوَ صرفُ اللفظِ عنْ ظاهرِه إلى ما يخالفُ الظاهرَ.

ولنسألِ الآنَ: هلْ هذا التأويلُ جائزٌ؟

الجوابُ: إن دلَّ عليهِ دليلٌ فإنهُ جائزٌ، ويكونُ مِن قسمِ التفسيرِ، وإن لم يدلَّ عليهِ دليلٌ فإنهُ ليسَ بجائزٍ.

مثالُ ما دلَّ عليهِ الدَّليلُ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، فـ(أتى) إذا نظرتَ إلى اللفظِ قلتَ: هذا فعلٌ ماضٍ، وإن الفعلَ قدِ أتى وانتهى، فإذا نظرتَ إلى قولِه: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ تبينَ لكَ أنهُ لم يأتِ بعدُ، ولهذا قالَ: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾. إذن هنَا أتى فعلٌ ماضٍ والمرادُ بِهِ المستقبلُ، والدَّليلُ على ذلكَ قولُه: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾، ففي هذهِ الآيةِ إذا فسرنَا (أتى) بمعنَى (يأتي) لا نكونُ ضالينَ؛ لأن تفسيرَنا إياهَا بما يخالفُ ظاهرَها فيهِ دليلٌ، وهوَ قولُه: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾.

المثالُ الثاني: قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨]، فظاهرُه: إذا أتممتَ القراءةَ فاستعذْ باللهِ، لكنِ المرادُ إذا أردتَ أن تقرأَ.

فإذا قالَ قائلٌ: هذا تأويلٌ صَرفَ اللفظَ عنْ ظاهرِهِ؟

قلنَا: نعمْ هوَ تأويلٌ، لكنِ الرسولُ ﷺ كان يستعيذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ قبلَ القراءةِ، إذنْ هنا دليلٌ، فصرفُ اللفظِ عَن ظاهرِهِ هل هوَ جائزٌ أو لا؟

الجوابُ: فيهِ تفصيلٌ؛ إن دلَّ عليهِ دليلٌ فهوَ جائزٌ، وإن لم يدلَّ عليهِ دليلٌ فليسَ بجائزٍ.

وقالَ تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] (استوى) بمعنى (علا) على العرشِ، لو قالَ قائلٌ: (استوى) بمعنَى (استولى) فقدْ صرفَ اللفظَ عنْ ظاهرِه بغيرِ دليلٍ.

فهذَا هوَ التفصيلُ في التأويلِ الذي هوَ صرفُ اللفظِ عنْ ظاهرِه، نقولُ: إن دلَّ عليهِ دليلٌ فإنهُ جائزٌ، بل واجبٌ، وهوَ مِن ضمنِ التفسيرِ، وإن لم يدلَّ عليهِ دليلٌ فإنهُ ممنوعٌ ولا يحلُّ؛ لأنهُ صرفٌ للفظِ عنْ ظاهرِه، وقولٌ على اللهِ بلا علمٍ.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] فسرَهَا المفسرُ وقالَ: بأيدٍ أي: بقوةٍ، فهلْ هذا التفسيرُ على ظاهرِه، يعني أهوَ تفسيرٌ بالظاهرِ، أو تأويلٌ؟

نقولُ: هذَا تفسيرٌ بالظاهرِ، وليسَ فيهِ تأويلٌ؛ لأن اللهَ قالَ: ﴿بِأَيۡيْدٍ﴾ ولم يقلْ: بأيدينَا، فلم يُضفِ اللهُ الأيديَ إليهِ حتى نقولَ: إن تفسيرَه بالقوةِ صرفٌ للفظِ عن ظاهرِه، بل قالَ: ﴿بِأَيۡيْدٍ﴾، و(الأيد) في اللغةِ القوةُ، وفعلُه (آد)، والمضارعُ منه (يئيدُ)، والمصدرُ (أيد)، كما تقولُ: باعَ يبيعُ بيعًا.

إذنْ إذا فَسرنَا: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ أي: بقوةٍ فإننا لم نفسرْها بخلافِ الظاهرِ؛ لأن اللهَ لم يضفْهَا إلى نفسِهِ.

وقولُه تعالى: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] قالَ اللهُ تعالى لإبليسَ لما أبى أن يسجدَ لآدمَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ إذا فسَّرَها المفسرُ بأن المرادَ بيدي أي: بقوتِي، فهلْ تفسيرُه صحيحٌ؟

نقولُ: لا، تفسيرُهُ باطلٌ؛ لأن ذلكَ خلافُ ظاهرِ اللفظِ، ولا دليلَ عليهِ، بلِ اللفظُ يقتضِي أن اللهَ خلقَ آدمَ بيدِه عَزَّوَجَلَّ.

فإذا قالَ: إذنْ مَثلتَ اللهَ بالخلقِ، حيثُ أثبتَّ للهِ يدينِ يخلقُ بهما، كما للإنسانِ يدانِ يعجنُ بهما ويبنِي بهما، فأنتَ إذن أثبتَّ للهِ يدينِ فقدْ مثلتَه بالخلقِ؟

قلنَا: لا يلزمُ مِن إثباتِ اليدينِ حقيقةً أن يكونَ هناكَ تمثيلًا.

ثم نقولُ لهذا الرجلِ: أنتَ لكَ يدٌ؟ سيقولُ: نعمْ، فنقولُ: وللأرنبِ يدٌ؟ سيقولُ: نعمْ، فنقولُ: هلْ يدُكَ أنتَ مثلُ يدِ الأرنبِ؟ فإذا كانتِ الأيدي في المخلوقاتِ

لا يلزمُ من إثباتِ حقيقتِها التماثُل، فما بينَ الخالقِ والمخلوقِ أعظمُ تبيانًا. وإثباتُ اليدِ لله عَزَّوَجَلَّ حقيقةً لا يستلزمُ التمثيلَ أبدًا؛ لأنكَ سوفَ تثبتُ للهِ يدًا حقيقةً ولن يطرأَ ببالِكَ أن هذهِ اليدَ تماثلُ أيدِيَ المخلوقينَ.

الخلاصةُ: التأويلُ ينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: قسمانِ صحيحانِ، وهما التفسيرُ والعاقبةُ، وقسمٌ فيهِ تفصيلٌ، وهوَ صرفُ اللفظِ عن ظاهرِه إلى معنًى يخالفُ الظاهرَ، فهذا إن دلَّ عليهِ دليلٌ فهوَ صحيحٌ مقبولٌ، وإن لم يدلَّ عليهِ دليلٌ فهوَ باطلٌ مرفوضٌ.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه.



الدرس الرابع:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ، وأُصلِّي وأُسلِّم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النَّبِيِّينَ وإمام المتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أَيْ: أَوْجَدها منَ العدمِ بَعْدَ أَنْ لَم تكنْ شَيئًا، وهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَالقُ كُلِّ شَيءٍ، لَكنهُ يُنبِّهُ أحيانًا عَلَى بعضِ المخلوقَاتِ؛ لِعِظمها، وكَوْنها منْ أكبرِ الآياتِ.

فَالسَّماواتُ سبعٌ كَما فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾ [المؤمنون:٨٦]، والأَرضونَ سَبعٌ أَيْضًا؛ لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] أي: فِي العددِ، لَا فِي الكَيفيَّة ولَا فِي السَّعةِ؛ لِأَنَّ السَّماءَ أَعْظمُ مِنَ الأرضِ، وأوسعُ، لَكِنها مِثلها فِي العَددِ، وصَحَّتِ السنَّة عنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّ الأَرضينَ سَبعٌ، فَقَالَ ﷺ: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»(١).

فَعَقِيدتُنَا أَنَّ السَّماواتِ سبعٌ، والأَرضِينَ سبعٌ، كَما جاءَ ذَلكَ فِي الكِتَاب والسُّنَّةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هِيَ: الأَحدُ، والاثنين، والثلاثَاءُ، والأَرْبعاءُ، والخميسُ، والجُمُعَةُ، ابتدأَ اللهُ خَلْقَها يومَ الأحِد، واختَتَمهُ يومَ الجُمُعَةِ، وفِيه خُلق آدمُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٠).

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: كَيف تحدِّدُونها هَذَا الحدَّ، وَلَيس هُنَاك شَمس تُعرَف بها الأَيَّام، وَلَا قمرٌ تُعْرف بِهِ الشُّهُورُ؟

قُلْنَا: نَقُول كَما قَالَ ربُّنَا عَزَّوَجَلَّ: خَلقَهَا في ستةِ أيامٍ، ولَيْس لَنا أَن نَسْأَلَ كَيفَ كَانَ ذلكَ، ولَا لمَ؛ لِأَنَّ خَلقَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فوقَ عُقولنَا، ولَا يُمْكننَا إِدْراك ذَلِكَ؛ لِقَولهِ تَعَالَى: ﴿مَآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الكهف:٥١]، فَالإِنْسَانُ مَا أَشْهده اللهُ خَلق السماواتِ وَالأَرْضِ، وَلَا أَشهدهُ خلقَ نَفْسِهِ؛ إِذْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَا يَعرف كَيف تَتكون نَفسه فِي بَطْن أُمِّه.

فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ: مَا هِيَ الرُّوح الَّتِي بِهَا حَيَاتك؟

قلنا: لَا يُمكن أَنْ تُجِيبَه، والدَّلِيلُ قَول اللهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء:٨٥]، فَإِذَا كانتِ الرُّوحُ الَّتِي بَيْنَ جَنْبيك، وَهِيَ قِوام حَيَاتكَ، لَا تَدْرِي مَا هِي، وَلَيْس لَكَ عِلم عَنْهَا إِلَّا مَا جَاء فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ، فَكَيْفَ تُرِيد أَنْ تَعلمَ شَيئًا عَن خَلق السَّماواتِ والأَرضِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ كأنَّ اللهَ يَقُولُ: مَا بَقِيَ عَلَيكم منَ العلمِ إِلَّا أَنْ تَسألوا عنِ الرُّوح، فَما أَكثَرَ العُلومَ الَّتِي فَاتتِ الإِنْسَانَ، فالإِنْسَانُ لَا يَعلم كَيف خَلقَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا بِما جَاء فِي الكتابِ والسنَّةِ.

فَإِنْ قِيلَ: وهَل جَاء فِي الكتابِ أَوِ السُّنةِ مَا يَدُلُّ عَلَى تَطَور الإِنْسَانِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ؟

قُلْنَا: نَعَم جَاء فِي السُّنة مَا يَدُلُّ عَلَى تَطَور الإِنْسَانِ فِي بَطْنِ أُمِّه، فَفِي (الصَّحِيحينِ) عنْ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ**

مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ»، أَيْ: مِئَةً وعِشْرينَ يومًا، وهِيَ أَرْبعةُ أَشْهُرٍ. بَعدَ ذَلكَ قَالَ: «ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا»(١).

فَبَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ كَيفَ يَتَطوَّرُ الإِنْسَانُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ؛ أَرْبعينَ يومًا نُطْفة، ثُمَّ يَنْقلب بِالتَّدريج حَتَّى يَكونَ عَلَقةً، ثُمَّ تَتَخَّنُ هَذِهِ العلقةُ حَتَّى تكونَ مُضغةً، أَي: قِطعةَ لَحمٍ بِقَدرِ مَا يَمْضَغهُ الإِنْسَانُ، وهَذِهِ المضْغة قَدْ تُخلَّق أَو لَا تُخلق، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج:٥]؛ ولِذَلك مِن تَمام ثَمانين يومًا فِي الحملِ يَبدأ التَّخليقُ، وَإِذَا تمَّتِ الأربعونَ الثَّالِثةُ تَمَّ التخليقُ، ويَكونُ الجسدُ مُستعدًّا لِأَن تُنفخَ فِيهِ الرُّوحُ.

مَسْأَلَةٌ: إِذَا سَقَطَ الحملُ منْ بَطنِ الأمِّ قبل أَن يخلَّقَ، فَهَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ أَو لَا؟

الجَوَابُ: لَا يُصلَّى عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَم يُنفخْ فِيهِ الرُّوح.

مَسْأَلَةٌ: إِذَا سَقطَ الجنينُ بَعد أَن خُلِّق لَكن قَبل أَن تُنفخَ فِيهِ الرُّوح، فَهَل يُصلَّى عَليه؟

الجَوَابُ: لَا يُصلَّى عَلَيه، ويُدفنُ فِي أَيِّ مَكانٍ عَلَى أَنَّه قِطعةُ لَحْمٍ، ولَا يُغسلُ ولَا يُكفَّنُ؛ لِأَنَّهُ لَم تُنفخْ فِيهِ الرُّوح، ولَا يُبْعثُ يومَ القِيامةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٠٣٦)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٣).

مَسْأَلَةٌ: إِذَا تَمَّ الجنينُ أَربعةَ أَشْهرٍ ونُفختْ فِيهِ الرُّوحُ، ثُمَّ سَقَطَ مَيِّتًا، فهل يُغسل؟

الجَوابُ: نَعم، يُغسل ويُكفنُ، ويُصلى عَلَيْهِ، ويُدفن فِي مَقَابر المُسْلِمِينَ، ويُبعَثُ يومَ القيامةِ؛ لِأَنَّهُ صار إِنْسَانًا مَخْلوقًا، كَما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أَيْ: بَعد أَن تَكاملَ خلقُ السماواتِ وَالأَرْض اسْتَوَى عَلَى العرشِ. واسْتَوَى بِمَعنى: علَا، والعرشُ عرشٌ عظيمٌ، هُوَ عَرشُ الرَّحمنِ عَزَّوَجَلَّ الَّذِي لَا يَقْدُر قدرهُ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ جَاء فِي الحديثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ**»، حلقة المِغفرِ، وهِيَ ضَيِّقَةٌ جِدًّا، أَلقِها فِي فَلاة -الفلاةِ: الأَرضُ الواسعةُ- فهَذِهِ الحلقةُ بالنِّسْبَةِ للفلاةِ الواسعةِ لَا شَيءَ، وَهَذِهِ السَّماواتُ السَّبعُ والأَرضونَ السَّبعُ بالنِّسْبَةِ لِلكرسيِّ كحلقةٍ أُلقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الأرضِ، «**وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَة**»[1]؛ إِذَنِ العرشُ لَا يَقدر قَدْرهُ إِلَّا اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى.

واسْتَوَى عليْهِ بِمَعنى: عَلا عَلَيْهِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ اسْتَوَى بِمَعنى عَلَا، أَنَّ هَذَا هُوَ مَعْناها فِي اللُّغة العربيةِ، والقُرْآنُ الكريمُ نزَلَ باللغةِ العربيَّة؛ كَما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]. وفي اللسانِ العربيِّ المبينِ إِذَا قِيلَ: اسْتَوَى عَلَى كَذَا، فمعناهُ: عَلَا عَلَيْهِ، واقرأْ قولَ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا

(١) أخرجه سعيد بن منصور في التفسير (٣/ ٩٥٢)، وابن حبان (٢/ ٧٧).

تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٢-١٣].

وكَلِمَةُ اسْتَوَى جَاءتْ مرَّتَين فِي هَذِهِ الآيةِ: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾، مَعْنَى تَسْتَووا عَلَى ظُهُورِه أَيْ: تَعلُوا عَلَيه، وتَرْكبوا عَلَيه، ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أَيْ: إِذَا عَلَوْتم عَلَيْه.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨] عَلَى الفُلكِ يَعْنِي: اسْتَوَيْتَ عَلَيْهِ، أَيْ: عَلَوْت عَلَيْه، وَلَمْ تَأْتِ اسْتَوَى فِي اللُّغة العَرِبيَّة إذَا عُدِّيت بـ(عَلَى) إِلَّا بِمَعْنى العُلو؛ اسْتَوَى عَلَى كَذَا، أَي: عَلا عَلَيْهِ.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: أَلَيْسَ اللهُ تَعَالَى فوقَ كُلِّ شَيءٍ؟

قُلْنَا: بَلى، لكنَّ هَذَا العلوَّ عَلَى العرشِ علوٌّ خاصٌّ بِالعرشِ، ولَيْس كَعُلُوِّهِ تَعالَى عَلَى جَمِيع المخلوقاتِ، ولَقَدْ ضَلَّ ضلالًا مُبينًا مَنْ قَال: إنَّ اسْتَوَى عَلَى العرشِ بمَعْنى استولَى عَلَيْهِ، ومَلَكهُ؛ فإِنَّ هَذَا تحريفٌ لِلكلمِ عَنْ مَواضعهِ، وتغْيير لكلامِ اللهِ عنْ مُرادِ اللهِ، ومَا أَعظمَ إِثمَ المحرِّفِينَ لِكتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ! فلا يَصح أَنْ نَقولَ: اسْتَوَى عَلَى العرشِ بمعنَى استولَى عليه، وهُوَ القائلُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾.

وعَلَى هَذَا التَّحريف الَّذِي فُسِّرت بِهِ هَذِهِ الكَلِمَةُ، يَكونُ العرشُ قَبل ذَلك مُلكًا لِغَيرِ اللهِ، ويَكونُ الاستِيلاءُ فِيهِ مُقَاتلةٌ ومغالبَةٌ، فَيَغلب ويَسْتولي، وهَل أَحد غَالبَ اللهَ تَعالَى فِي العرشِ حَتَّى يُقالَ: إِنَّ اللهَ استولَى عليهِ، فَمَن لَم يَجْعل اللهُ لَهُ نورًا

فَما لَه مِنْ نُورٍ، فَاللهُ تَعَالَى اسْتَوَى عَلَى عَرشِهِ، أَيْ: عَلا عَلَيْه، كَما أَنَّ لَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ العُلُوَّ المطْلَقَ عَلَى جَميعِ المخلوقاتِ.

وهَؤُلاءِ المحرِّفونَ مَاذَا يُلَاقونَ اللهَ بِه يومَ القيامَةِ إِذَا قَالَ لَهُم: أَنْزَلت عَلَيْكم كِتَابي بِلُغة عَربيَّة بيِّنة، فكَيف تُحرفون الكَلم عَنْ مَوَاضعِهِ، وتَصْرفونهُ عَن مُراد اللهِ، وعمَّا دَلت عليهِ اللُّغة العربيةِ، فَلا شَكَّ أَنَّهُمْ لَنْ يُجِيبوهُ، وسَوف يَعْترفون بِخَطئِهمْ إِذَا وَقفوا بَيْنَ يَدَي اللهِ، أَمَّا فِي الدُّنيا فَقَدْ يُجادلونَ بِالباطلِ، ويَقُولونَ: إِنَّ اللهَ لَيْسَ فوقَ السماواتِ، وليسَ مُستويًا عَلَى العرشِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا اسْتَوَى عَلَى العرشِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أي: علَا عَلَيْهِ، فَهل عُلُوُّهُ عَلَى العرشِ كَعلو الإِنْسَانِ عَلَى السريرِ، بِمَعنى أَنَّه لَوْ أُزيلَ السريرُ لَسَقطَ المستوِي عليهِ؟

قُلْنَا: لَا، وإِنَّما هوَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غنيٌّ عنِ العرشِ وغيرِهِ، لكنْ لِعَظمة وكَمالِ سُلْطانه عَلَا عَلَى العرشِ، أَي: اسْتَوَى عليْهِ.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: كَيف اسْتَوَى اللهُ عَلَى العَرْشِ؟

قُلْنَا: وَجبَ عَلَيْنَا أَنْ نَقولَ: اللهُ أعلمُ، فجَميع صِفَاتِ اللهِ نَحن لَا نَعلم كَيْفيَّتَها.

ولَو قَالَ لكَ قائلٌ: كَيف وَجْهُ اللهِ، فَماذا تَقول؟

الجَوَابُ: أَقولُ: اللهُ أعلمُ.

كَيْف عَينُ اللهِ؟ الجَوَابُ: اللهُ أعلمُ.

كيفَ يَدُ اللهِ؟ الجَوَابُ: اللهُ أعلمُ.

سأَلَ رَجـلٌ الإمامَ مالكًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ: يَا أَبَا عبـدِ اللهِ، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيفَ اسْتَوَى؟ فالرَّجل يَسأَلُ عنِ الكيفيَّةِ وَلَمْ يَسأل عنِ المعنَى.

فأطرقَ الإمامُ مَالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ برأْسِهِ، وَجعَل يَتصببُ عـرقًا؛ استعظامًا لهَذَا السُّؤالِ، ثُمَّ رفعَ رأسَهُ وَقَالَ كَلِمتَهُ المشهُورةَ: «الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مجهُولٍ، وَالكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ» وَاللهُ سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُلْهِمُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِلَّا كَيْفَ تيَسَّرَتْ هَذِهِ الجُمَلُ العَظِيمَةُ الَّتِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تُكتبَ بالنورِ عَلَى لسانِ هَذَا الإمامِ، وَبهَذِهِ السُّرعةِ.

«الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مجهُولٍ» أَيْ أَنَّه مَعْلوم فِي اللُّغةِ العَربيةِ لَا يَحْـتاج إِلَى السُّؤَال عنْهُ.

«الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ» أَيْ: لَا نُدْركُه بِعُقُولنَا؛ لِأَنَّ كَيْفيَّةَ صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أعظمُ مِن أَنْ تُحيطَ بِهَا العُقُولُ.

«الإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ» أي: الإيمانُ بِالاستـوَاءِ وَاجبٌ؛ لِأَنَّهُ جَـاءَ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ.

«السُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»؛ لِأَنَّ الصَّحابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لَم يَسْألوا عَنه النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، مَعَ أَنَّ الصَّحَابَةَ أَحْرصُ منَّا عَلَى العلمِ، والَّذِي يُوَجِّهُ السُّؤال منَ الصَّحَابَةِ أَعلمُ الخلقِ بِاللهِ، ومعَ ذَلكَ لَمْ يَسْأَلُوا الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، فكَيْفَ يَلِيق بنَا ونَحنُ منْ بَعْدهِمْ أَنْ نَسأَلَ عنْ شَيْءٍ لم يَسْأَلُوا عَنْهُ.

«ومَا أُرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا» أَيْ: ما أظنُّك إِلَّا منْ أَهل البدعِ.

ثمَّ أَمر بِه الإمامُ مَالكٌ فأُخرجَ منَ المسجدِ النَّبوي تعزيرًا لَهُ، ونكَالًا لِغَيْره[١].

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: كَيْف يُخْرَجُ الرَّجل منْ مَسجدِ النَّبيِّ ﷺ؟!

قُلْنَا: نَعَمْ يُخرج فَهو أَهل لِأَنْ يَخرجَ؛ لِأَنَّهُ رَجلٌ مُشوشٌ مُبتدِعٌ.

فَيَجبُ عَلَى وُلاةِ الأمورِ منَ المُسْلِمِينَ أَنْ يَمْنعُوا الَّذِينَ يَكتبونَ فِي الصُّحف أَوْ غَيرها منَ الآراءِ المنْحَرفةِ، الَّتِي تُشككُ النَّاسَ فِي دِينِهم عَقيدةً أو عملًا، وَلَيس هَذَا منعًا للحرِّيَّات، بَلِ المفسدُ فِي الأرضِ يَجب أَنْ يُمنعَ؛ حَتَّى يُكَفَّ شرُّه وفسادُهُ، واللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة:٣٣].

فَقُطَّاعُ الطَّرِيقِ الَّذِينَ يَجْلسونَ عَلَى الطُّرقات وَيَأْخذونَ أَمْوالَ النَّاسِ، لَا نُمكِّنهم منْ هَذَا، بَل نَفعل بِهِمْ كَما أَمَرَ اللهُ: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِيمنْ يَقطعونَ الطُّرقَ الحِسِّيَّة عَلَى المُسْلِمِينَ، فَكَيفَ بِمَنْ يَقطعونَ الطُّرقَ المعنويَّةَ الَّتِي تُوصلُ إِلَى اللهِ بِالتَّشكيكِ فِي الدينِ، وإِيرَاداتِ الأَسئلةِ الَّتِي لَا يُقصدُ بِهَا إِلَّا إعْنَاتُ المسؤُولِ، والإشقاقُ عَلَيْهِ، وتَشْكيكُ النَّاس فِي دِينِهم وعَقِيدتهم.

هَؤُلَاءِ أَيْضًا يَجب أَنْ يُمْنعوا، ولَا يَجُوزُ أَنْ يُمكَّنَ لَهم بِأَنْ يَقُولُوا مَا يَشاؤُون،

---

(١) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٥١٥)، عن الإمام مالك بإسناد جوَّده الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٠٧).

وَلَا يُقالُ: إِنَّ هَذَا حبسٌ لِلحرِّيَّات، بَلْ يُقال: هَذِهِ هِيَ الحرِّيَّة حَقيقةً؛ لِأَنَّك لَنْ تُطلق الحريَّة لِشَخص يَفْعل مَا يَشاء وَيَقُولُ مَا يَشَاءُ إِذَا كَانت عَلَى حسابِ حريَّةِ الآخرينَ.

ولَو أُطلقتِ الحريةُ لِكُل وَاحِد أَنْ يَقُولَ مَا شَاءَ وَيَفعل مَا شَاءَ، لَكان فِي هَذَا حَبْسٌ لِحُرِّياتِ الآخرينَ؛ لِأَنَّهُمْ يُعَارضونهُ فِيما يَرَى، وحِينَئِذٍ نَرْجعُ إِلَى كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ يُمكن أَنْ نَجعلَ كَلامَ الإمامِ مَالكٍ قَاعدةً نَسيرُ عَلَيْهَا فِي جَمِيعِ الصِّفاتِ؟ **قلنا**: نعم، فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ عَنْ كَيفيَّة يدِ اللهِ، وَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَثبتَ لِنَفسهِ يَدَيْنِ، فَقالَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] فَكَيفَ هَاتانِ اليدانِ؟

فالجَوَابُ: اليدُ مَعلومةٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ بِهَا وَاجِبٌ، والسُّؤالُ عَنْهَا بِدعةٌ.

وهَلْ نمكِّن مِثل هَذَا السَّائِلِ مِن أَنْ يُورِدَ هَذَا السؤالَ عَلَى مُجْتَمعٍ فِي المساجِدِ؟

الجَوابُ: لَا، بَل نَطْرده ونُخْرجه منَ الحلقةِ؛ لِأَنَّهُ مُشَكِّكٌ، ويُرِيد أَنْ يُبلبلَ عقيدةَ المُسْلِمِينَ بِمِثْلِ هَذِهِ الأَسْئلةِ، فَحَسبنَا أَنْ نُؤمنَ بِالمعانِي الَّتِي جَاءتْ بِهَا صفاتُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمَّا الكَيْفِيَّةُ فَلَيْسَتْ إِلَيْنَا، وَلَا يَجُوزُ السُّؤالُ عنهَا.

وَلَوْ سَأَلَنا سَائلٌ فَقَالَ: إِنَّه تَوَاتر عنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَنْزِلُ إِلَى السَّماءِ الدُّنيا حِين يَبْقَى ثُلثُ اللَّيْلِ الآخرُ، فيَقُولُ: «**مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»(١)، فَكَيف يَنزل اللهُ تَعَالَى؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب والدعاء والذكر آخر الليل، رقم (٧٥٨).

الجَوَابُ: النُّزول مَعْلومٌ، والكَيْف غَيْرُ معقولٍ، وَالإيمانُ بِهِ وَاجبٌ، والسُّؤالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ. وَهَكَذَا جَميعُ الصِّفاتِ.

وَلِهَذَا لَمْ يَسْأَلِ الصَّحَابَةُ -وهمْ أَحرص منَّا عَلَى العِلم بِاللهِ وأَسْمائِهِ وصِفَاتِه- النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ حِين حَدَّثهم بأنَّ اللهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمْ يَقُولوا: كَيْفَ ينزل، فَعَلينا أَنْ نَقولَ: سَمِعنا وآمنَّا وصدَّقْنَا.

قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يُغْشي بِمَعْنَى: يُغطِّي، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل:١] أَيْ: يُغطِّي البَسِيطةَ؛ الأَرْضَ، فقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾، أَيْ: يَجْعلُ اللَّيْلَ غاشيًا عَلَى النَّهَارِ، أَيْ: مُغَطِّيًا لَهُ.

قَوْلُهُ: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أَيْ: يَطْلُبُ اللَّيْلُ النَّهَارَ حثيثًا؛ ولهَذَا مِنْ حِينِ أَنْ تَرى اللَّيْلَ مُقبلًا تَرى ظُلْمته فِي المَشرق، وَإِذَا بِهِ يَمْتدُّ بِسُرعة حَتَّى يُغَطِّيَ الأَرضَ كُلَّها.

قَوْله تعَالَى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: خَلَق الشَّمْس والقمرَ.

والشَّمْس وَالقَمَر والنُّجُوم مَعْطوفة عَلَى ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

قوله: ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ حَال منَ الشَّمْسِ، والقمرِ، والنُّجومِ.

فَالشَّمْسُ والقمرُ والنُّجوم مُسَخَّرات بِأَمْرِ اللهِ، وتَسِيرُ بِأَمرِ اللهِ؛ شُروقًا وغروبًا، لَا تَختلفُ مُنْذُ خَلقهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى أَنْ يَأذنَ اللهُ تَعَالَى بِخَرابِ العالمِ، وهِيَ عَلَى هَذَا السيرِ، لَا تَخْتَلِفُ أبدًا، ولا نستطيعُ في هذا المَوْضعِ أَنْ نَشرحَ كَيف كَانتْ هَذِهِ مُسَخرات بِأَمْرِ اللهِ؛ لِأَنَّ عندَ عُلَماءِ الفلكِ منَ العلمِ فِي هَذَا أَكثرُ مِمَّا عِندنَا.

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هَذِهِ الجملةُ العَظِيمةُ مُؤَكدة بـ(أَلَا)؛ و(أَلَا) أَدَاةُ اسْتِفتاحٍ، وأدَاة تَنْبيهٍ، كَأَنَّما نَقُولُ: انْتَبِهْ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

وهَذِهِ الجملةُ تُفِيد الحصرَ؛ لِأَنَّ الخبرَ فِيها مُقدَّم، والقاعِدَةُ البلاغِيَّة أَنَّه إِذَا قُدِّمَ مَا حقُّه التَّأخيرُ، كَانَ ذَلك دليلًا عَلَى الحصرِ، بِمَعنى أنَّ الخلقَ والأمرَ للهِ وَحْده.

فالأمرُ كُلُّه للهِ؛ الأمرُ الكَوْنِيُّ والأمرُ الشَّرْعِيُّ، فالأَمْرُ الكَوْنِيُّ مَا يَحْصل بِهِ الخلقُ، والأمرُ الشَّرْعِيُّ مَا يَحْصل بِهِ الشرعُ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢] أَمْرٌ شَرْعيٌّ، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] هَذَا أَمْرٌ كَوْنِيٌّ قَدَرِيٌّ.

وَلِهَذَا قَالَ بعضُ العُلَمَاءِ: مَن كَانَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الملكوتِ فَلْيَأْتِ بالبيِّنَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: تَعَالَى وتَعَاظَمَ، وحلَّتِ البركةُ بِاسمِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: خَالِقُهم وَمَالكُهم ومُدَبرُهم.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الخامس:

الحَمدُ لله رَبِّ العالَمِينَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ عَلَى نبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأصحابِهِ، ومَنِ اتَّبَعَهُمْ بإحْسَانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أمَّا بَعْدُ:**

فقَدِ اسْتَمَعْنَا إلَى تِلاوةِ شَيْءٍ مِنْ كِتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِيما قَرَأَهُ إمامُنَا فِي صَلاةِ الفَجْرِ لِهَذَا اليَوْمِ، الثالِثِ مِنْ شَهْرِ ذِي الحِجَّةِ، عامَ ستَّةَ عَشَرَ وأَرْبَعِ مِئَةٍ وأَلْفٍ، فِي المَسْجِدِ الحَرامِ.

اسْتَمَعْنَا إلَى قَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

يُخاطِبُ اللهُ تعالَى عِبادَهُ فِي قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ [الأعراف:٥٤] فالخِطابُ هُنا لِجَمِيعِ النَّاسِ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ [الأعراف:٥٤] يعْنِي أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف:٥٤] لَا ربَّ لَكُمْ سِواهُ، فلا أحَدَ يُدَبِّرُ الخَلْقَ إلَّا اللهُ، ولا أَحَدَ يَمْلِكُ الخَلْقَ إلَّا اللهُ، ولا أحَدَ يَرْزُقُ الخَلْقَ إلَّا اللهُ، ولا أحَدَ يَبْعَثُ الخَلْقَ إلَّا اللهُ، ولا أحَدَ يُحْيِي ويُمِيتُ إلَّا اللهُ.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جَمْعٌ، فما مِقْدَارُ هَذَا الجَمْعِ؟ عَشَرَةٌ، عِشْرُونَ، مِئَةٌ، خَمْسَةٌ، أرْبعَةٌ؟ بَيَّنَهُ اللهُ تعالَى فِي آياتٍ أُخْرَى فِي قولِهِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [الطلاق:١٢] هَذِهِ السماواتُ العظيمةُ المُحِيطَةُ بالأرْضِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ خَلَقَها اللهُ مَعَ الأرْضِ فِي ستَّةِ أيَّامٍ، وقولُهُ: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ مُفْرَدٌ، فهلِ الأرْضُ واحِدَةٌ أوْ مُتَعَدِّدَةٌ؟

لنَنْظُرِ: الأرْضُ مُتَعَدِّدَةٌ، كمْ عَدَدُهَا؟ نَسْتَمِعُ، قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

هلْ مِثْلُهُنَّ فِي الكَيْفِيَّةِ، والسَّعَةِ، والعَظَمَةِ؟

الجَوابُ: لَا؛ لأنَّ السماواتِ أعْظَمُ منَ الأرْضِ، وليْسَتْ مِثْلَهَا، وحينئذٍ يَتَعَيَّنُ أنْ يَكُونَ المرادُ بالمِثْلِيَّةِ هُنا: مِثْلِيَّةُ العَدَدِ، إذَنِ الأرْضُ سَبْعٌ، وقدْ جاءَ ذَلِكَ فِي السُّنَّةِ صَرِيحًا.

قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ طَوَّقَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ**» ومعْنَى اقْتَطَعَ: أخَذَهُ بغَيْرِ حقٍّ «**طُوِّقَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»[1] فإذَا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ يُجْعَلُ ذَلِكَ طَوْقًا فِي عُنُقِهِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ، وهَذَا نَصٌّ صَرِيحٌ بأنَّ الأرْضِينَ سَبْعٌ، كما أنَّ السَّماواتِ سَبْعٌ.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف:٥٤] وهذِهِ السِّتَّةُ بيَّنَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي سُورةِ فُصِّلَتْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فُصِّلَتْ:٩-١٢].

إذَنْ: هَذِهِ الأَيَّامُ السِّتَّةُ منْهَا: أرْبَعَةٌ للأرْضِ، ومنْهَا يَوْمَانِ للسَّماواتِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: أليسَـتِ السماواتُ أعْظَمَ مِنَ الأرْضِ، وأوْسَعُ مِنَ الأرْضِ، وأقْوَى مِنَ الأرْضِ، وأكثرُ سُكَّانًا مِنَ الأرْضِ، إذَنْ كَيْـفَ كانَتِ الأرْضُ فِي أرْبَعَةِ أيَّامٍ، وكانَتِ السَّماواتُ فِي يَوْمَيْنِ؟

قُلْنَا: لذلكَ فائِدَتَانِ:

الفائِدَةُ الأُولَى: بيانُ عِنايةِ اللهِ تَعالَى بهذِهِ الأرْضِ، وأنَّهُ اعْتَنَى بها، فخَلَقَها فِي يَوْمَـيْنِ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فُصِّلَتْ:١٠].

الأمْرُ الثاني: بيانُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ مُدَّةَ الخَلْقِ لَيْسَتْ لأنَّ اللهَ عاجِزٌ أنْ يَخْلُقَها فِي لَحْظَةٍ، ولكنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، ولوْ شَاءَ لَخَلَقَها فِي لَحْظَةٍ، فالسماواتُ أعْظَمُ مِنَ الأرْضِ، ومعَ ذَلِكَ كانَتْ مُدَّةُ خَلْقِها أقَلَّ مِنَ الأرْضِ؛ إشارَةً إلَى أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي السَّماواتِ ولا فِي الأرْضِ.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف:٥٤].

المُدَّةُ سِتَّةُ أيَّامٍ، وهيَ: الأحَدُ، والاثْنَيْنِ، والثُّلاثاءُ، والأرْبِعاءُ، والخَمِيسُ، والجُمُعَةِ، ستَّةُ أيَّامٍ، أمَّا السَّبْتُ فلا؛ لأنَّهُ لوْ كانَ السَّبْتُ لكانَتِ الأيَّامُ سَبْعَةً، ولكنَّها سِتَّةُ أيَّامٍ.

للأرْضِ: الأحَدُ، والاثْنَيْنِ، والثُّلاثاءِ، والأرْبِعاءُ، وللسماواتِ: الخَـمِيسُ، والجُمُعَةُ، وبهِ تَمَّ خَلْقُ السماواتِ والأرْضِ.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] ثُمَّ: تُفِيدُ التَّرْتِيب بمُهْلَةٍ، يعنِي أنَّ مَا بَعْدَها يَعْنِي أنَّ الَّذِي يَلِيها بعدَ الَّذِي قَبْلَها بمُهْلَةٍ.

أَضْرِبُ لكُمْ مَثَلًا: تقولُ: قامَ زَيْدٌ ثُمَّ عَمْرٌو، أَيَّهُمَا الأَوَّلُ؟ الجَوابُ: زَيْدٌ، هلْ بَيْنَهُمَا مُهْلَةٌ أَوْ قامَ بَعْدَهُ فَوْرًا؟ الجَوابُ: بَيْنَهُمَا مُهْلَةٌ.

فقولُهُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] أيْ: بَعْدَ خَلْقِ السماواتِ والأرْضِ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أيْ عَلَا عَلَى العَرْشِ؛ لأنَّ اسْتَوَى فِي اللُّغَةِ العربيَّةِ إذَا تعدَّتْ بِـ(عَلَى) صارَ معْنَاهَا العُلُوَّ.

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨]، وقالَ تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزُّخرُفِ:١٢-١٣] ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أيْ لتَعْلُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيْ: عَلَوْتُمْ عليْهِ.

﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزُّخرُفِ:١٤].

﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا﴾ مَعْنَى سُبْحَانَ: أيْ تَنْزِيهًا لهُ عَنِ الحاجَةِ، أَمَّا نَحْنُ فمُحْتَاجُونَ إِلَى أَنْ يُخْلَقَ لنَا مِثْلُ هَذَا حتَّى نَرْكَبَهُ، لكنِ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مُنَزَّهٌ عَنِ الحاجَةِ؛ ولهَذَا قالَ: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا﴾ كُلُّكُمْ إذَا رَكِبَ السَّيَّارَةَ يقولُ: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا﴾ [الزُّخرُفِ:١٣] لكنْ عَجَبًا لنَا، كَيْفَ نقولُ ما لَا نَعْرِفُ؟ نَعَمْ، إنَّنَا نقولُ مَا لَا نَعْرِفُ؛ ولهَذَا لَا نَتَأَثَّرُ بهذِهِ الأذْكارِ الَّتِي وَرَدَتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لأَنَّنَا لَا نَعْرِفُ مَعْنَاهَا.

إذَنْ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ [الزُّخرُف:١٣] أيْ: تَنْزِيهًا للَّذِي سخَّرَ لنَا هَذَا مِنْ أنْ يَكُونَ مُحْتاجًا كما نَحْنُ مُحْتاجُونَ، ومعْنَى ﴿سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ [الزُّخرُف:١٣] أيْ: ذلَّلَهَا.

﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾: أيْ: ومَا كُنَّا لهُ مُطِيقِينَ لوْلَا أنَّ اللهَ سَخَّرَهُ.

﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾أيْ: سَوْفَ نَنْقَلِبُ إلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فيتَذَكَّرُ الإنْسَانُ برُكُوبِهِ عَلَى هَذِهِ البَعِيرِ مثلًا، يتذَكَّرُ أنَّهُ سَوْفَ يُحْمَلُ عَلَى أعْنَاقِ الرجالِ إلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ وهذِهِ مِنْ حِكَمِ القُرْآنِ.

إذَنِ: اسْتَوَى عَلَى كذَا: أيْ عَلَا عليْهِ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ اسْتوَى عَلَى العَرْشِ، لكنْ كَيْفَ اسْتَوَى؟ نقولُ: كما قَالَ الإمامُ مالِكُ بنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ حِينَ سَأَلَهُ رَجُلٌ، قالَ: يَا أبا عبدِ اللهِ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] كَيْفَ اسْتَوَى؟ فأطْرَقَ مالِكٌ برأسِهِ، حتَّى جاءَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا مِنْ عِظَمِ السُّؤَالِ الَّذِي وَرَدَ عليْهِ، سُؤَالٌ عَظِيمٌ، تسأَلُ كَيْفَ اسْتَوَى اللهُ عَلَى العَرْشِ؟ فلا يُمْكِنُ أنْ تُحِيطَ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

فإذَا كانَ لَا يُمْكِنُ أنْ تُحِيطَ بِهِ، فكيفَ تَسْأَلُ عَنْ كَيْفِيَّةِ اسْتِوَائِهِ؟ ثُمَّ رَفَعَ رأسَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ وقالَ: يَا هَذَا، الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والإيمانُ بِهِ واجِبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ[١].

كَلِماتٌ تُكْتَبُ بِماءِ الذَّهَبِ، وهِيَ كَلِماتٌ مِنْ نُورٍ.

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (٦٦٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٨٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والدارمي في الرد على الجهمية رقم (١٠٤).

الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مجْهُولٍ: يعْنِي أَنَّهُ مَعْلُومٌ، عَلِمْنَاهُ، بأَنَّ القُرْآنَ نَزَلَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، واللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ فِي جميعِ مَوارِدِهَا إذَا عُبِّرَ بهَذَا التَّعْبِيرِ (اسْتَوَى عَلَى كَذَا) فمعناهُ عَلَا عليْهِ، فكأَنَّ مالِكًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ: أيْ عَلَا عَلَيْهِ.

والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ: يَعْنِي أَنَّ عُقُولَنَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تُدْرِكَ كَيْفَ اسْتَوَى اللهُ عَلَى العَرْشِ، لَا نَعْرِفُ، فَلَوْ قِيلَ لكَ: إنَّ فُلانًا اسْتَوَى عَلَى البَعِيرِ، وهُوَ لَيْسَ أمامَكَ، فإنَّكَ لَا تَعْرِفُ كَيْفَ اسْتَوَى، إذَنِ: الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ أَوْلَى أَنْ نَجْهَلَ كَيْفِيَّةَ اسْتِوَائِهِ، فالكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، ولا يُمْكِنُ أَنْ تُدْرِكَهُ عُقُولُنَا.

والإيمانُ بِهِ واجِبٌ، الإيمانُ بِهِ: أَيِ التَّصْدِيقُ بِهِ واجِبٌ، وكانَ واجِبًا؛ لأَنَّ اللهَ تَعالَى أَخْبَرَ بِهِ فِي كِتابِهِ عَنْ نفسِهِ، ذكرَ اللهُ الاسْتِوَاءَ فِي سَبْعَةِ مَواضِعَ مِنَ القُرْآنِ، كلُّهَا ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ولِهَذَا صارَ الإيمانُ بِهِ واجبًا.

والسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، أيِ: السُّؤَالُ عَنْ كَيْفِيَّتِهِ بِدْعَةٌ.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: لِماذَا كانَ بِدْعَةً، أَلَيْسَ الإنْسَانُ مَأْمُورًا بأَنْ يَبْحَثَ ويَسْأَلَ؟

قُلْنَا: نَعَمْ، هُوَ مَأْمُورٌ، لكنْ أُمُورُ الغَيْبِ لَا يُبْحَثُ عَنْهَا، يُؤْمِنُ بها ويُصَدِّقُ بدُونِ أَنْ يَسْأَلَ عَلَى الكَيْفِيَّةِ، فكانَ السُّؤَالُ عنْهَا بدْعَةً لِسَبَبَيْنِ:

السَّبَبُ الأَوَّلُ: أنَّ الصَّحابَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ عَنْ ذلكَ، لَمْ يَقُولُوا: يا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ اسْتَوَى؟ فإذَا كانُوا لَمْ يَسْأَلُوا عَنْهُ وهُوَ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، كانَ السُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةً، فأيُّ شَخْصٍ يَسْأَلُنَا عَنْ كَيْفِيَّةِ الاسْتِوَاءِ، نقولُ: هَذَا بِدْعَةٌ.

السَّبَبُ الثَّانِي: أنَّ السُّؤَالَ عَنْ كَيْفِيَّةِ الاسْتِوَاءِ مِنْ دَيْدَنِ أَهْلِ البِدَعِ، فأَهْلُ البِدَعِ هُمُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ عَنْ كَيْفِيَّةِ الاسْتِوَاءِ، يُرِيدُونَ أَنْ يُحْرِجُوا أَهْلَ السُّنَّةِ والجماعَةِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ عَلَى مَا أرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فهُم يَقُولُونَ لأَهْلِ السُّنَّةِ: الاسْتِوَاءُ كَيْفَ هُوَ؟ صِفْهُ لنَا، أقولُ لهُ: إنَّ اللهَ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ اسْتَوَى، ولَمْ يُخْبِرْنَا كَيْفَ اسْتَوَى، لكنْ أَهْلُ البِدَعِ يَأْتُونَ إلَى أَهْلِ السُّنَّةِ، ويُنَاقِشُونَهُمْ فِي هَذِهِ الأُمُورِ مِنْ أَجْلِ إِقْحَامِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي الباطِلِ الَّذِي كانُوا عَلَيْهِ مِنْ تَحْرِيفِ كِتابِ اللهِ، وسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ قَالَ مالِكٌ: ومَا أُرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا، وأَمَرَ بِهِ فأُخْرِجَ مِنَ المَسْجِدِ، فالمَسْجِدُ لَيْسَ فِيهِ مَكانٌ لأَهْلِ البِدَعِ؛ وذلكَ لأنَّ «**كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» كما كانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَخْطِبُ بذلِكَ عَلَى المِنْبَرِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ[1]، ولَيْسَ فِي المَسْجِدِ مَكانٌ لأَهْلِ البِدَعِ؛ لأنَّ المَساجِدَ أمْكِنَةٌ لِذِكْرِ اللهِ وعِبادَتِهِ، ونَشْرِ شَرِيعَتِهِ، وتَحْكِيمِ كِتابِهِ، وسُنَّةِ رَسُولِهِ، وليستْ مَحَلًّا للبِدَعِ؛ ولهَذَا أمَرَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ أنْ يُخْرَجَ هَذَا الرَّجُلُ مِنَ المَسْجِدِ؛ تَعْذِيرًا لهُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ.

الخُلاصَةُ: نُؤْمِنُ بأنَّ اللهَ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ، يَعْنِي عَلَا عَلَى العَرْشِ، نُؤْمِنُ بأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ نَسْأَلَ عَنِ الكَيْفِيَّةِ؛ لأنَّ الصَّحَابَةَ -وهُمْ أَشَدُّ مِنَّا حِرْصًا عَلَى مَعْرِفَةِ اللهِ- لَمْ يَسْأَلُوا عَنْهُ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنَّا بِاللهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

وهُناكَ مَنْ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يَعْنِي اسْتَوْلَى عَلَى العَرْشِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهَذَا باطِلٌ؛ لأَنَّهُ تَحْـرِيفٌ للكَلِمِ عَنْ مَواضِعِهِ، ويُقالُ: يَا هَذَا، لِمَنِ العَرْشُ قَبلَ خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ؟

الجَوابُ: للهِ، العَرْشُ للهِ، والسماواتُ للهِ، والأرْضُونَ للهِ، كُلُّ شَيْءٍ للهِ، لكنْ عَلَى كَلامِكَ إذَا قُلْتَ: خَلَقَ السَّماواتِ والأرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوْلَى، يكونُ العَرْشُ قَبْلَ ذَلِكَ لغَيْرِ اللهِ، فهَلْ هَذَا مَعْقُولٌ؟ فالعامِّيُّ الَّذِي لَمْ يَدْرُسْ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا التَّفْسِيرَ تَفْسِيرٌ باطِلٌ، تحريفٌ للكَلِمِ عَنْ مَواضِعِهِ، فِيمَنْ سَلَكَهُ شَبَهٌ مِنَ اليَهُود؛ لأَنَّ اليَهُودَ هُمُ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ.

إذَنْ: حَرامٌ عليكَ أنْ تُفسِّرَ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] بأَنَّهُ اسْتَوْلَى عليْهِ؛ لأنَّ اللهَ مُسْتَوْلٍ عَلَى العَرْشِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السَّماواتِ والأرْضَ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧] فالعَرْشُ قَبْلَ السماواتِ، واللهُ تَعالَى مَالِكٌ لهُ قَبْلَ السماواتِ.

فكَيْفَ تقولُ: إنَّهُ مَلَكَ العَرْشَ بَعْدَ خَلْقِ السماواتِ؟ أَلَيْسَ فِي هَذَا تَكْذِيبٌ لقَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟! ولوْلَا أنَّ بَعْضَ العُلَماءِ الَّذِينَ فَسَّرُوا الاسْتِواءَ بهَذَا التفسيرِ الباطِلِ، لوْلَا أَنَّا نَعْلَمُ مِنْهُمْ حُسْنَ النِّيَّةِ، وأَنَّهُمُ اجْتَهَدُوا فأَخْطَؤُوا، لكانَ الأمْرُ شديدًا.

إذَنْ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عَلَا عليْهِ، ومَنْ فَسَّرَهُ بـ(اسْتَوْلَى) فقَدْ أَخْطَأَ، وحَرَّفَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ، وقالَ عَلَى اللهِ مَا لَا يَعْلَمُ، وهُوَ جانٍ عَلَى النُّصُوصِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: صَرْفُ النَّصِّ عَنْ ظاهِرِهِ.

الوَجْهُ الثَّاني: إثْبَاتُ معنًى لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الظاهِرُ.

فجَنُوا عَلَى النُّصُوصِ فِي النَّفْيِ، وجَنُوا عَلَى النُّصُوصِ فِي الإثباتِ، نَفُوا مَا دلَّ عَلَيْهِ النَّصُّ، وأثْبَتُوا مَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ، ومَا أَحْسَنَ ومَا أَجْمَلَ بالمَرْءِ أنْ يُبْقِيَ كلامَ اللهِ ورَسُولِهِ عَلَى ظاهِرِهِ بدُونِ تَحْرِيفٍ!

سَمِعَ أعرابِيٌّ قارِئًا يَقْرَأُ: «والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أيْدِيَهُما جَزاءً بما كَسَبَا نكالًا مِنَ اللهِ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فَقَالَ لهُ الأعْرَابِيُّ: أَعِدِ الآيَةَ، قِراءَتُكَ للآيَةِ خَطَأٌ، أعادَهَا، قالَ: «وَالسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أيْدِيَهُما جَزاءً بِمَا كَسَبَا نَكالًا مِنَ اللهِ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» قَالَ الأعْرَابِيُّ: أعِدِ الآيَةَ، قالَ: «وَالسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أيْدِيَهُما جَزاءً بِمَا كَسَبَا نَكالًا مِنَ اللهِ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» قَـرَأَ الرَّجُلُ: ﴿**وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [المائدة:٣٨] قَالَ الأعرابِيُّ: الآنَ قَرَأْتَها حقًّا؛ لأَنَّهُ عزَّ وحَكَمَ فقطَعَ، ولوْ غَفَرَ ورَحِمَ مَا قَطَعَ[1].

إِذَنْ: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ» بَعْدَ خَلْقِ السماواتِ والأرْضِ، لَا يَتَنَاسَبُ أنْ نَقُولَ: ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَى العَرْشِ؛ لأَنَّهُ معْنًى بَاطِلٌ، لكنَّهُ بعدَ أنْ خَلَقَ هَذِهِ السماواتِ والأرْضَ، صارَ الاسْتِوَاءُ عَلَى العَرْشِ دَلِيلًا عَلَى عَظَمَةِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، وكمالِ سُلْطَانِهِ.

﴿**يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الأعرافِ:٥٤].

﴿**يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ**﴾ أي: يَجْعَلُهُ يَغْشَاهُ، حتَّى يُذْهِبَ نُورَهُ «**إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**» بيْنَمَا النَّاسُ فِي

---

(١) ذكرها السمعاني في تفسيره (٢/ ٣٦)، والطيبي في حاشيته على الكشاف (٣/ ٣٢٥)، وابن القيم في جلاء الأفهام (ص: ١٧٢).

ضِياءٍ وإذَا بِهِمْ فِي ظُلْمَة، فمثلًا: نَرْكَبُ الطَّائِرَةَ، ارْكَبْهَا عندَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، إذَا ارْتَفَعَتْ فِي الجَوِّ، وجَدْتَ أنَّ اللَّيْلَ كأنَّهُ ثَوْبٌ أسْوَدُ سُدِلَ عَلَى الأرْضِ، لكنَّكَ تَرى الشَّمْسَ؛ لأنَّك مُرْتَفِعٌ، وأهلُ الأرْضِ لَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ؛ لأنَّهَا قَدْ غابَتْ عنهُمْ، فتَجِدُ -سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ- الأرْضَ وكأنَّهَا سُدِلَ عليْهَا ثَوْبٌ أسْوَدُ، وهَذَا مَعْنَى يُغْشِي: يُغَطِّي، إذَا أقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا، وأدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا، وغَرَبَتِ الشَّمْسُ.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤] أيْ يَطْلُبُ اللَّيْلُ النَّهارَ حَثِيثًا: أيْ بسُرْعَةٍ؛ ولهَذَا لَيْسَ هُناكَ فاصِلٌ بَيْنَ اللَّيْلِ والنَّهارِ، إذَا أقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا، أدْبَرَ النَّهارُ مِنَ الغَرْبِ.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ [الأعراف:٥٤] خَلَقَ الشَّمْسَ والقَمَرَ، الشَّمْسُ مَعْرُوفَةٌ، والقَمَرُ مَعْرُوفٌ، والَّذِي يَسْتَمِدُّ نُورَهُ مِنَ الآخَرِ هُوَ القَمَرُ، يَسْتَمِدُّ نُورَهُ مِنَ الشَّمْسِ؛ ولذَلِكَ إذَا كانَتِ الْمُقابَلَةُ بينَهُ وبينَ الشَّمْسِ ضَعِيفَةً تَجِدُ نُورَهُ ضَعِيفًا، عنْدَمَا يكونُ قَرِيبًا مِنَ الشَّمْسِ يكونُ نُورُهُ ضَعِيفًا، ويكونُ قَرِيبًا مِنَ الشَّمْسِ فِي أوَّلِ الشَّهْرِ، وفِي آخِرِ الشَّهْرِ، ففِي أوَّلِ الشَّهْرِ تكونُ الشَّمْسُ أمامَهُ، لكنَّها قَرِيبَةٌ منهُ، وفِي آخِرِ الشَّهْرِ تَكُونُ الشَّمْسُ خَلْفَهُ، لكنَّهَا قَرِيبةٌ منهُ؛ لذلكَ يكونُ نُورُهُ ضَعِيفًا، ثُمَّ كلَّمَا كَمُلَتِ الْمُقابَلَةُ صارَ نُورُهُ أوْسَعَ، حتَّى إذَا تَمَّتِ الْمُقابَلَةُ -وذلكَ فِي مُنْتَصَفِ الشَّهْرِ- صَارَ نُورُهُ تامًّا.

إذَنْ: الشَّمْسُ هِيَ الَّتِي تُضِيءُ القَمَرَ.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٤] أيْ: مُذَلَّلاتٍ بِأَمْرِه، تَسِيرُ حَيْثُ شاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وانْظُرْ إلَى كمالِ القُدْرَةِ: الشَّمْسُ والقَمَرُ مُنْذُ خَلَقَهُمُ

اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى أَنْ يَقْضِيَ بفنائِهِمَا يَسِيرَانِ عَلَى حَسَبِ النِّظامِ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٨-٣٩] نَحْنُ الآنَ فِي زَمَنِ تَطَوُّرِ الصِّناعَةِ والقُوَّةِ البَشَرِيَّةِ، فلا يُمْكِنُ للبَشَرِ كُلِّهِمْ أنْ يُوقِفُوا الشَّمْسَ عَنْ مَسِيرِهَا، ولا يُمْكِنُ للخَلْقِ أنْ يُخْرِجُوا الشَّمْسَ قَبْلَ وقْتِ شُرُوقِهَا.

إِذَنْ: نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّنا ضُعفاءُ مَهْمَا بَلَغَتْ بِنَا القُوَّةُ، وأنَّ القُوَّةَ للهِ جَمِيعًا.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] هَذِهِ الجُمْلَةُ عَظِيمَةٌ فِي تَرْكِيبِهَا، وجُمْلَةٌ عَظِيمَةٌ فِي مدْلُولِهَا:

أوَّلًا: (أَلَا) إعْرابُهَا عِنْدَ النَّحْوِيِّينَ أداةُ تَنْبِيهٍ واسْتِفْتَاحٍ، انْتَبِهْ لِمَا سَيُلْقَى عليْكَ مِنَ جُمْلَةِ ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ وهِيَ جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ مِنْ مُبْتَدَإٍ وخبَرٍ، والخَبَرُ مُقدَّمٌ ليُفِيدَ الاخْتصاصَ والحَصْرَ.

وَ﴿ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ كُلُّ شَيْءٍ إمَّا مَخْلُوقٌ وإمَّا مأمُورٌ، فالخالِقُ والآمِرُ والرَّازِقُ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فكُلُّ شَيْءٍ للهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] فلا خَلْقَ لأحدٍ، ولا أَمْرَ لأحدٍ؛ ولهَذَا كانَ يَجِبُ عَلَيْنَا نَحْنُ العِبادَ أنْ نُؤْمِنَ بخَلْقِ اللهِ وأمْرِهِ، وألَّا نَزِيغَ عَنْ أمْرِهِ، بلْ نُنَفِّذُ حُكْمَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فِي كُلِّ دَقِيقٍ وجليلٍ؛ لأنَّهُ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ لهُ الخَلْقُ والأمْرُ.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] أيْ عظُمَ، وحَلَّتِ البَرَكَةُ باسْمِهِ؛ ولهَذَا إذَا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَى الشَّاةِ عِنْدَ الذَّبْحِ صارَتْ حلالًا، وإذَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ علَيْهَا صارَتْ حَرامًا، فإذَا قَالَ مَنْ يَذْبَحُ الشَّاةَ: بسْمِ اللهِ، صارَتْ حلالًا طاهِرًا، وإذَا

لَمْ يَقُلْ: بِسْمِ اللهِ صارَتْ حَرامًا نَجسًا، قالَ تعالَى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ [الأنعامِ:١٤٥] أيْ نَجسٌ.

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعْرافِ:٥٤-٥٥] إذَا دَعَوْتَ اللهَ، فادْعُ اللهَ بتَضَرُّعٍ إليْهِ عَزَّوَجَلَّ، وافْتِقَارٍ إليْهِ، وخُفْيَةً دُونَ صُراخٍ؛ ولهَذَا نَحْنُ نَعْتِبُ عَلَى أُولَئِكَ القَوْمِ الَّذِينَ يَطُوفُونَ بالبَيْتِ، ويَصْرُخُونَ بالدُّعَاءِ؛ لأنَّ هَذَا خِلافُ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعْرافِ:٥٥] ولأنَّ هَذَا يُشَوِّشُ عَلَى إخْوانِهِمُ الطَّائِفِينَ؛ ولأنَّ النَّبيَّ ﷺ خرَجَ ذاتَ يَوْمٍ عَلَى أصْحَابِهِ، وهُمْ يَقْرَؤُونَ ويَجْهَرُونَ، فقالَ: «**لَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي القِرَاءَةِ**»(١) نَسْأَلُ اللهَ تَعالَى أنْ يَجْعَلَنا وإيَّاكُمْ مِنَ الهُداةِ المُهْتَدِينَ، ومِنَ الصُّلحاءِ المُصْلِحِينَ؛ إنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



(١) أخرجه أحمد (٣/ ٩٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب رفع الصوت بالقراءة في الليل، رقم (١٣٣٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الدرس السادس:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وأُصَلِّي وأسلِّمُ على نَبِيِّنا محمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أما بعدُ:

فقد قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هذه جُملَةٌ مُكَوَّنَةٌ من مبتَدَأ وخَبَرٍ قُدِّمَ فيها الخَبرُ لإفادةِ الحَصْرِ والاختِصاصِ. والخبرُ هو قولُهُ: لله. والمبتَدَأُ هو قولُه: الأسماءُ. لكِنْ قُدِّمَ الخبرُ للحَصْرِ والاختصاصِ، بمعنى أن الأسماءَ الحُسْنَى خاصَّةٌ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا يتَسَمَّى بها أحدٌ من خَلقِ اللهِ، بل هِي للهِ وحْدَهُ، أما غيرُهُ مِنَ المسَمَّينَ فقد تكونُ أسماؤُه حُسْنَى، وقد تكونُ قُبْحَى، لكِنَّ أسماءَ اللهِ كلَّها حُسْنَى، ومعنى حُسْنِهَا أنها متَضَمِّنَةٌ لأكمَلِ الصفاتِ، ولهذا نقول: ما مِن اسمٍ مِنْ أسماءِ اللهِ إلا ويتَضَمَّنُ شيئينِ:

أولهما: تَعْيينُ المسَمَّى، وهو الدَّلالَةُ على ذاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

والثاني: الدلالَةُ على الوصفِ الذي تَضَمَّنَهُ هذا الاسمُ.

وأضربُ لهذا مثلًا، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] السميعُ: دلَّ هذا الاسمُ على تَعْيِينِ المسَمَّى، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، وتَضَمَّنَ هذا الاسمُ الصِّفَةَ، وهي السَّمْعُ، وأنَّ اللهَ تعالى ذو سَمْعٍ، وليس سمْعُه كسَمْعِ المخلُوقينَ، بل سمْعُه عامٌّ شامِلٌ لكلِّ شيءٍ، قالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ﴾ بلى: يَعْنِي نسْمَعُ سِرَّهُم ونجْواهُمْ ﴿وَرُسُلُنَا﴾ وهم الملائكَةُ الموكَّلُونَ بكتابَةِ أعمالِ بَنِي آدمَ ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

لكن هَلْ هناكَ أحدٌ مِنَ المخلُوقينَ يسمَعُ سِرَّ ونَجْوى جميعَ الناسِ؟ لا، فالذي يَسْمَعُ السِّرَّ والنَّجْوى من جميعِ الخَلْقِ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

واستَمِعْ إلى قِصَّةٍ غَريبَةٍ تدُلُّ على كمالِ سَمْعِ اللهِ في سورَةِ المجادَلَةِ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

فهذه المرأةُ جاءتْ تَشْتكِي إلى الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تقولُ: إنَّ زَوْجَها ظاهَرَ مِنها، وقال لها: أنتِ عَلَيَّ كظَهرِ أُمِّي، وكانُوا في الجاهِلِيَّةِ إذا قالَ الرجلُ لزَوْجَتِهِ: أنتِ عَلَّي كظَهْرِ أُمِّي؛ حَرُمَتْ عليه كما تحرُمُ أمُّهُ، فجاءتْ هذه المرأةُ تشتكِي بعدَ أن كَبِرَتْ، وبلَغَتْ سنَّ العجائزِ مَعَهُ، جاءتْ تُجادِلُ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكانت عائشَةُ أمُّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في نَفْسِ الحُجْرَةِ، ويَخْفَى عليهَا بعضُ حديثِهَا وما تَسْمَعُه، والمكانُ واحدٌ؛ مكانٌ ضيِّقٌ، وعائشةُ لا تَسْمَعُ لا لصَمَمٍ فيها، ولكن لأنَّ المرأة تتكَلَّمُ بأدَبٍ، ولا ترْفَعُ صَوتَها عندَ النَّبيِّ ﷺ، ويقول الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾، واللهُ في السماءِ فوقَ سَبْعِ سماواتٍ عَلَى العَرْشِ استوَى عَزَّوَجَلَّ؛ يقولُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

فتقولُ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ، لَقَدْ كُنْتُ فِي الحُجْرَةِ» أي: في حُجْرَةِ النَّبيِّ ﷺ «والمَرْأَةُ تُجادِلُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهَا، وَإِنَّهُ لَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ حَدِيثِهَا»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٦).

إذن سَمْعُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكُلِّ ما يُسْمَعُ خَفِيًّا كانَ أو ظاهِرًا.

والرَّحْمَنُ: اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ، والدَّليلُ على أن الرَّحْمَنَ من أسماءِ اللهِ أنَّك إذَا أَرَدْتَ أن تأكُلَ تقولُ: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرَّحِيمِ، وإذا أردتَ أن تَقْرَأَ الفاتحة تقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهذا دَلِيلٌ على أن الرحمنَ اسمٌ من أسماءِ اللهِ يدُلُّ على المسَمَّى، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، ويَدُلُّ على الوصفِ الذي تَضَمَّنَهُ هذا الاسمُ، وهو الرحْمَةُ.

فكلُّ اسمٍ يدُلُّ على تَعْيينِ المسمَّى وهو الله، ويدُلُّ على ما تَضَمَّنَهُ من الصِّفَةِ، وعلى حسبِ ما تَضَمَّنَ، فالرحمنُ دلَّ على الرَّحْمَةِ، والسميعُ دَلَّ على السَّمْعِ، والعزيزُ دلَّ على العِزَّةِ، وهلُمَّ جرًّا.

وليس في أسماءِ الله اسمٌ جامِدٌ لا يدُلُّ على الصِّفَةِ أبدًا؛ لأن الأسماءَ الجوامِدَ لا تَدُلُّ على شيءٍ، مثالُ ذلك: رَجُلٌ سمَّى ابنَه عبدَ اللهِ، فدلالةُ عبدِ اللهِ على الولَدِ المسمَّى دَلَالَةُ تَعْيين عَلَمِيَّة، لكِنْ لا يَلْزَمُ من هذا الاسمِ أن يكونَ هذَا المسمَّى عبْدًا للهِ، بلْ قد يكونُ أكْفَرَ عبادِ اللهِ، فجميعُ الأسماءِ التِي يُسَمَّى بها البَشَرُ غير أسماءِ الأنبياءِ كلُّها لا تَدُلُّ على معناهَا، بل قد تَدُلُّ على عكْسِهِ، أما أسماءُ اللهِ ورسولِهِ وكتابِه، فكُلُّها تَدُلُّ على المعانِي التي تَضَمَّنَها هذا الاسْمُ.

إذن خُذْ هَذِه القاعِدَةَ: كلُّ اسمٍ مِنْ أسماءِ اللهِ فإنه دالٌّ على شَيْئينِ:

الأوَّل: تَعْيين المسَمَّى.

والثاني: الصِّفَة التي تَضَمَّنَها هذا الاسمُ.

والخلَّاقُ: من أسماءِ اللهِ، والدَّليلُ قولُهُ تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١]، فهذا الاسمُ تَضَمَّن شيئينِ:

الأوَّل: تَعْيين المسَمَّى، وهو اللهُ جَلَّوَعَلَا.

والثاني: الصِّفَة التي تَضَمَّنَها هذَا الاسمُ، وهي الخَلْقُ.

وهناكَ صِفَةٌ أُخْرَى يتَضَمَّنُها هذا الاسمُ، وهِي العِلْمُ؛ لأنه لا يمكِن أنْ يَخلُقَ بلا عِلْمٍ.

وهناك صفَةٌ ثالِثَةٌ، وهي القُدْرَةُ، لأنه لا يمكِنُ أن يَخلُقَ بغيرِ قُدْرَةٍ.

فهذا الاسم تَضَمَّنَ ثلاثَ صِفاتٍ: الخَلْقَ والعِلمَ والقُدْرَةَ، أما الخَلق فلأنه مَدْلُولِ اللَّفْظِ، وذاكَ مدلولٌ لازِمٌ للفظِ، لازِمٌ للمَعْنَى، ومِن لازمِ الخالِق أن يكون عالِمًا وقادرًا، وإلا فلا خَلْقَ.

هناك بحثٌ آخَرُ، وهو: هل يُوجَدُ أحدٌ مِنَ الناسِ قالَ: إن أسماءَ اللهِ لا تَدُلُّ إلا على تَعْيينِ المسَمَّى بدونِ وصْفٍ؟

الجواب: نعم، هناك من أهْلِ البِدَعِ كالمعتزِلَةِ والجَهْمِيَّةِ، ومَن وافقهُم يقولونَ: أسماءُ اللهِ ليس لهَا مَعْنى. أعوذ بالله! أي أنَّ أسماءَه جامِدَة، قالوا: لأَنَّكَ لو أثْبَتَّ لهَا مَعْنًى -وهو الصفة- فقد أثْبَتَّ قَدِيمًا مع اللهِ؛ لأنه يَلْزَمُ من تَقَدُّمِ الاسمِ تقَدُّمِ الصِّفَةِ إذا كان متَضَمِّنًا لها، فتُثبِتُ حينئذٍ عِلْمًا قَدِيمًا مع اللهِ، وتُثْبِتُ سمْعًا قدِيمًا مع الله، وتُثْبِتُ بَصَرًا مع الله، وتثْبِتُ قُدْرَةً مع اللهِ، وتُثْبِتُ حكمَةً معَ اللهِ، وأنتم تُنْكِرُونَ على النصارَى لما قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ وأنتُم الآنَ قُلْتُم: مئات، فلا يمكِنُ أن تَدُلَّ الأسماءُ على صِفَاتٍ؛ لأننا لو أثْبَتْنَا الصفاتِ لَلَزِمَ أن تكون هذه الصفاتُ قديمَةً قِدَمَ الاسمِ، وحينئذٍ تُثْبِتُونَ معَ الله قُدماءَ متَعَدِّدِينَ.

انظر كيف لَعِبَ الشيطانُ بعُقُولِهِمْ!

فيقالُ: نعم نَحْنُ نؤمِنُ بقِدَمِ الصِّفَةِ كقِدَمِ الموصوفِ، وأن الله لم يَزَلْ سَمِيعًا بصيرًا عَلِيمًا قديرًا، لكن من يقول: إن الصِّفَةَ منْفَصِلَةٌ عن الموصوفِ، بحيث تُعدُّ نِدًّا له؟ لا أحدَ يقـولُ هَذَا، وإلا قُلْنَا: أنت الآن سَمِيعٌ بصـيرٌ عَلِيمٌ قَدِيرٌ قويٌّ. فيكونُ الواحدُ خمْسَةَ أنفارٍ، فتعدُّدُ الصِّفَةِ لا يلزمُ منْه تعدُّدُ الموصوفِ؛ لأن الصِّفَةَ غـيرُ مستَقِلَّةٍ، ولهذا قال شيـخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ دعا صِفَـةً من صفاتِ الله فَهُو مُشْرِكٌ»[1].

فمَن دَعَا الصِّفَةَ فهو مُشْرِكٌ؛ لأنه زعَمَ أنها منفَصِلَةٌ عَنِ اللهِ، فلو قلتَ: يَا رحْمَةَ اللهِ ارْحَمِينِي. فإنَّه لا يجوزُ أبدًا؛ لأنك جعَلْتَ الرحمةَ إلهًا يُدْعَى، والرحمةُ وصفٌ في الراحِمِ، وليستْ مستَقِلَّةً، ولو قلت: يا سَمْعَ اللهِ رُدَّ عليَّ سَمْعِي. فلا يجوزُ؛ لأن سَمْعَ الله ليسَ مُسْتَقِلًّا، لكن قل: يا سَمِيعُ رُدَّ عليَّ سَمْعِي.

إذن تَقَرَّرَتْ هذِهِ القاعِدَةُ أن صفاتِ اللهِ لا تُدْعَى، لكِنْ قد يورِدُ مُورِدٌ فيقول: أليس قَدْ ثبتَ في الدُّعاءِ المشْهُورِ: «**يَا حَيُّ، يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**»[2]؟

فيقال: إن هذا مِنْ بابِ التَّوَسُّلِ؛ لأن هذا الدَّاعِيَ إنما يستَغِيثُ اللهَ، فلم يقل: اللهمَّ رَحْمَتَكَ أستغيثُ. كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال:٩] لكنه قال: بِرَحْمَتِكَ، أي: بما أنَّك رَحِيمٌ ذُو رَحْمَةٍ أسأَلُكَ أن تُغِيثَنِي.

فالدعاءُ هنا ليسَ دُعَاءً للرَّحمَةِ، بل تَوَسَّلَ إلى اللهِ تعالى بِرَحْمَتِهِ أن يُغِيثَهُ.

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٣٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، باب عقد التسبيح باليد، باب منه، رقم (٣٥٢٤).

ولو سأَلَ سائلٌ: هَلِ الدَّهْرُ منْ أسماءِ اللهِ؛ لقولِهِ ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**»(١)، ولقولِه تعالى في الحدِيثِ القُدُسِيِّ: «**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»(٢)؟

قلنا: قد ذَهَبَ إلى هذا بعضُ العُلماءِ، ولكن هذا ليسَ بصَحِيحٍ، فالدَّهْرُ ليس من أسماءِ اللهِ، ولهذا لا يجوزُ أن تَقولَ: يا دَهْرُ اغْفِرْ لي.

إذن نُجِيب عن هذا الحديثِ بأن الحدِيثَ مُفَسَّرٌ في نفْسِ الحديثِ، حيث قال: «**أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، والليلُ والنَّهارُ هو الدَّهْرُ، فالمعنى: لا تَسُبُّوا الليلَ والنهارَ ولا الدَّهْرَ؛ لأن هذا مَربوبٌ مخلُوقٌ يدَبِّرُهُ الخالِقُ عَزَّوَجَلَّ.

فمعنى «**أَنَا الدَّهْرُ**»، أي: أنَا مصرِّفُ الدهْرِ، أُقلِّبُ الليلَ والنهارَ.

وعلى هذا، فلا يكونُ الدهْرُ من أسماءِ اللهِ؛ لأن المرادَ به في الحديثِ: أنَّ الله تعالى هو مُصَرِّفُ الدهْرِ، ومقلِّبُ الليلِ والنَّهارِ، ولهذا خَرَجَ مِنَ الآيةِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والدَّهْرُ نفْسُه اسمٌ جامِدٌ لا يدُلُّ على مَعْنًى، فليسَ مِنَ الأسماءِ الحُسْنَى.

ولو سأَلَ سائلٌ: هلْ أسماءُ اللهِ تعالى محصورةٌ بعدَدٍ مُعَيَّنٍ؟ يعني هَلْ هِي مئة، أو مئتان، أو ثلاثُ مئةٍ، أو ألف، أو ألفان؟

فالجواب: أنها ليستْ محْصُورَةً بعددٍ مُعَيَّنٍ؛ لا بمئةٍ ولا مئتينِ ولا ألفٍ ولا أكثرَ ولا أقَلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، رقم (٤٥٤٩)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

فإذا قال إنسانٌ: ما دَلِيلُكُم على أنها غيرُ محصورَةٍ؟

قلنا: الدَّلِيلُ الحديثُ المشهورُ في دُعاءِ الهمِّ والغمِّ؛ حديثُ ابنُ مسعودٍ أن الإنسانَ إذا أُصِيبَ بِهَمٍّ أو غمٍّ فقال من جملة الحديثِ: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ**»[1].

ومن المعلومِ أن ما استَأْثَرَ اللهُ بعِلْمِهِ فإنه يَخْفَى على غيرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وليس معلومًا لنَا، وإذا لم يكُنْ معلومًا، فليس بمَحْصُورٍ، وهذا هو الحقُّ، أن أسماءَ الله ليس لها مُنْتَهًى ولا حصْرٌ لها.

فإذا قالَ قائل: كيفَ تقولونَ بهذا وقَدْ جاءَ في الحديثِ: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[2]؟

قلنا: معنى الحديثِ أن مِنْ أسماءِ اللهِ تسعةً وتسعينَ اسْمًا مَن أَحْصَاهَا دخَلَ الجنَّةَ، هذا هو المعْنَى، وليس المعنى أنه ليس لَهُ إلا هذِهِ الأسماء. ونظيرُ ذلك أن تقولَ: عنْدِي مئةُ ريالٍ أعدَدْتُها للذين يُفْطِرُونَ في رمضانَ، فلا يعني ذلِكَ أنه ليس عنْدَك إلا مئة ريال، فقد يكون عِنْدَكَ آلافُ الريالات، لكن خَصَّصْتَ هذه المئةَ للذين يُفْطِرُون.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٢، رقم ٤٣١٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠، رقم ٢٩٣١٨)، والطبراني (١٠/ ١٦٩، رقم ١٠٣٥٢)، وصححه الحاكم (١/ ٦٩٠، رقم ١٨٧٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار، والشروط التي يتعارفها الناس بينهم، رقم (٢٥٨٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، رقم (٢٦٧٧).

كذلكَ قولُه: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا**»، يعْنِي أن هذِهِ التسعةَ والتِّسْعينَ اختُصَّتْ بأن مَن أحصاهَا دخَلَ الجنَّةَ.

إذن أسماءُ الله عظِيمَةٌ، ولا يمكِنُ إحصاؤهَا، ولكن مع ذلك لا نُسَمِّي اللهَ إلا بما سَمَّى بِهِ نَفْسَهُ.

قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا**﴾ ادعْوا اللهَ بأسمائِهِ الحُسْنَى، ولم يَقُلْ: ادْعُوا الأسماءَ الحُسْنَى، فما قال: وللهِ الأسماءُ الحُسْنَى فادْعُوهَا، بل قالَ: ﴿**فَٱدْعُوهُ**﴾ يعني اللهَ ﴿**بِهَا**﴾: أي بِهذِهِ الأسماءِ.

ودعاءُ اللهِ تعالى بهذه الأسماء يتَضَمَّنُ مَعْنَيينِ:

المعنى الأوَّلِ: أن تَتَوَسَّلَ إلى تعالى بهذِهِ الأسماءِ.

والمعنى الثاني: أن تَتَعَبَّدَ للهِ بمُقْتَضَى هذِهِ الأسماءِ.

مثل أن تقولَ: اللَّهُمَّ يا غَفورُ اغْفِرْ لِي. كأنك تقولُ: يا غَفورُ بمَغْفِرَتِكَ اغْفِرْ لي. أو تقول: يا رَزَّاقُ ارْزُقْنِي. وتقول: يا لَطِيفُ الطُفْ بي في قَضائكَ... وهلُمَّ جَرًّا.

ومن ذلك قولُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ لأبي بَكْرٍ: «**إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ**»[1]، اللهُ أكبرُ، أعظَمُ الناسِ مِنَّةً علَى الرسولِ بمالِهِ وصُحْبَتِهِ هو أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا**»، رقم (٣٦٥٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٣).

والذي ذُكِرَتْ صُحْبَتُه في الغارِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة:٤٠] هو أبو بكر بالإجماع، قال: يا رَسولَ اللهِ، عَلِّمْنِي دعاءً أدْعُو بِهِ في صَلاتِي. سائلٌ ومَسؤولٌ، والسائلُ هو أشْرَفُ هذِهِ الأمَّةِ بعدَ نبيِّها، والمسؤولُ هو النَّبيُّ ﷺ. قال: عَلِّمْنِي دُعاءً أدْعُو بِهِ في صَلاتِي. قال: «**قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[1].

فقوله: «**إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»، هذا تَوَسُّلٌ، يعْنِي: فلِكَوْنِكَ الغفورَ الرحيمَ اغفِرْ لي وارْحَمْنِي، هذا أحدُ الوَجْهينِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

الثاني: التَّعَبُّدُ للهِ بمُقْتَضاهَا، وهذا هامٌّ جِدًّا، فمَثلًا إذا عَلِمْتَ أن اللهَ سمِيعٌ بصيرٌ أوجَبَ لكَ ذلِكَ ألا تقولَ قولًا يُغْضِبُهُ؛ لأنك لو قُلْتَ قَوْلًا يُغْضِبُ اللهَ سَمِعَهَ، وإذا عَلِمْتَ أن اللهَ بصيرٌ أوجْبَ لكَ ألا تَفْعَلَ ما يُغْضِبُهُ، لأنه يَراكَ، وإذا عَلِمْتَ أنه غَفورٌ يوجِبُ لكَ ذلك أن تَسْتَغْفِرَهُ وأن تَتَعَرَّضَ لمغْفِرَتِهِ وتتوبَ إليهِ، وتعملَ الأعمالَ التي تُوجِبُ المغفِرَةَ.

ألم تَعْلَمْ أن أهلَ البطالَةِ ادَّعَوْا أنه إذا كانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا، فإنهم يَبْقَونَ في معاصِيهِمْ، وإذا نَهَيْتَهُ عنْ مَعْصِيَةٍ قال: اللهُ غفورٌ رَحِيمٌ. وهذا غيرُ صحيحٍ.

ومن الأعمالِ التي تُوجِبُ المغفِرَةَ صيامُ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، وقيامُ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، وقيامُ ليلَةِ القَدْرِ إيمانًا واحتِسَابًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).

إذن ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ يتَضَمَّنُ معْنَيَيْنِ:

المعنى الأوَّل: التَّوسُّلَ إلى اللهِ بِهَا.

والمعنى الثاني: التعبُّدَ للهِ بمُقْتَضاهَا، وهذا مُهِمٌّ، فلو أن إنسانًا همَّ بمَعْصِيَةٍ وهو في بَيتِهِ في حُجْرَةٍ ليس عندَهُ أحدٌ إذا كانَ يؤمِنُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ وبأسمائه فلن يَفْعَلَ المعصِيَةَ؛ لأنه يعلَمُ أن اللهَ يراهُ إن كانَتْ فِعْلًا، ويَسْمَعُه إن كانَتْ قَوْلًا.

ولعلَّنَا نَقْتَصِرُ على ما ذكرنا.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس السابع:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ، وأُصلِّي وأُسلِّم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النَّبِيِّينَ وإمام المتَّقينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

هذا الخِطَابُ للنَّبِيِّ ﷺ لكِنَّ الخِطاب الموجَّهَ إلى الرَّسولِ مُوَجَّهٌ إلينَا؛ لقَولِهِ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].

قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ لم يَقُلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: اعْفُ، ولكن قال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، فهناك آخِذٌ ومأخُوذٌ، يعني: خُذْ مَعَك مِنْ معاملاتِ الناسِ، ولا تُرِدْ من الناسِ أن يُعْطُوكَ كلَّ ما تُريدُ أبدًا؛ لأن مَنْ أرادَ مِنَ الناسِ أن يُعْطُوه كلَّ ما يُريدُ فاتَهُ كلُّ ما يريدُ، فالناس ليسُوا عبيدًا لكَ يفْعَلُونَ ما تُريدُ، فإنْ آذَوْكَ فتَحَمَّل، وإن لم يَقُومُوا بحقِّكَ فتَحَمَّل، وإن ظَلَمُوك فتحَمَّل، فخُذِ العَفْوَ الَّذي يأتِي مِنَ الناسِ.

ولو أنك عامَلْتَ الناسَ بهذه المعامَلَةِ لاطْمَأَنْنْتَ واستَقَرَّتْ نَفسُك، وأبعَدَ اللهُ عنك مَرَضَ السُّكَّر والضغط، وما أشبه ذلِكَ مِنَ الأمراضِ، فما عَفَا مِنَ الناسِ خُذْهُ، وما فاتَكْ فلا تَطْلُبْهُ، ولهذا قال: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾، فلو أن رَجُلًا جهَلَ عليك وسبَّكَ وقالَ فيكَ ما قالَ، وكُنْتَ تريدُ أن تَتَرَبَّى على مقْتَضَى هذه الآية فعليكَ أن تأخُذَ ما حَصَلَ، ثم تقولُ له: يا أخي هذا لا يَلِيقُ بمُسْلِمٍ، اتْرُكْ هذا، وكُنْ عَدْلًا مع الناسِ، وهذا معنى قوله ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ يعنـي: لا تَدَع الذي يُؤذِيكَ ويَجْهَلُ عليكَ، لكن انْصَحْهُ وأمرْهُ بالعُرْفِ.

الثالث: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الجاهِلِينَ الذين يعْتَدُونَ عليك أعْـرِضْ عنْهُم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]، واللهِ لو أنَّنَا تَعَامَلْنَا مع الناسِ بمُقْتَضَى هذِهِ الآيةِ لوجَدْتَ الصُّدورَ مُنْشَرِحَةً، وقلوبَنَا مُطْمَئِنَّةً، لكن لجَهْلِنَا نريدُ مِن الناسِ أن يُعامِلُونَا بما نريدُ، وهذا غيرُ حاصِلٍ، ولهذا مَن طَلَب من الناسِ كلَّ ما يريدُ فاتَهُ كلُّ ما يُريدُ.

فخذ هذه الآية، وعامِلِ الناسَ بِهَا، حتى يَصْفُوَ لكَ الدَّهْرُ بقدرِ ما كُنْتَ تعامِلُ الناسَ وتَطْمِئنَّ، لكنَّ بعضَ الناسِ يقول: كيـفَ يَعْتَدِي عَلَيَّ هذا الرجل؟ كيـف يَنْقُصُنِي مِنْ حقِّي؟ واللهِ لأكِيلَنَّ الصاعَ صاعَينِ. ثم يُشاتمه أكثرَ، وقد قال النبي ﷺ: «**المُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَى البَادِئِ، مَا لَمْ يَعْتَدِ المَظْلُومُ**»[1].

فعامِلِ الناسَ بهذه المعامَلَةِ: خُذْ ما جاءَ مِنَ الناسِ، واتْرُكِ الباقِيَ، حتـى لَوْ آذَوْك، أو لم يَعْرِفُوا قدْرَكَ، فلا يَهُـمُّكَ ما دُمْتَ عارفًا نفـسك، فأمُـرْ بالعُرْفِ، ولا يكُـنْ في نفسكَ قَلَقٌ، فبعضُ الناس إذا عَفَا وانْصَرَفَ عن صاحبِه قام يفكِّرُ: كيفَ أنني لم أقُلْ له كَذَا؟ كيف لم أَرُدَّ عليه؟ أنا الآن انهزَمْتُ، خُذِلْتُ، وما أشبه ذلك، وهذا غَلَـطٌ، فاجْعَلْ نِبراسَكَ الذي تَسيرُ عليه ما دلَّتْ عليه هذه الآيـةُ، فأرجوكم يا إخواني أن تكونَ عَلَى بالِكُمْ دائمًا في مُعاملاتِ الناسِ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن السباب، رقم (٢٥٨٧).



سورة الأنفال

الدرس الأول:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بعدُ:**

فقد قال تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧].

قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اعْلَمْ أنَّ هَذَا النِّداء المقرُونَ بِهَذَا الوَصْفِ العَظِيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يَدُلُّ عَلَى أهمِّيَّة المَوْضُوع المُوَجَّه إِلَى الَّذِينَ آمنُوا.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ تَعالَى يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فَأَرْعِها سَمْعَكَ» يَعْني: اسْتَمع لَها «فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ»(١)، عَنْهُ»(١)، وَهَذِهِ الآيَةُ منَ الشَّرِّ الَّذِي نُنْهَى عَنْهُ.

والنِّداءُ بِهَذَا الوَصفِ يَدُلُّ عَلَى أنَّ امتثالَ ما وُجِّهَ بِهِ منْ مُقْتَضياتِ الإيمانِ، كأَنَّهُ قَالَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لإِيمانِكُمْ لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ. والنداءُ بِهَذَا الوصفِ يَدُلُّ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦، رقم ١٠٣٧).

عَلَى أنَّ مخالفتَهُ تَنْقُصُ الإيمانَ؛ لِأَنَّهُ وَجَّه إِلَيْك الخطابَ بِهَذَا الوصفِ، فإِذَا خَالفته نَقص وَصْفُكَ بِهَذَا، فَيَكُونُ ذَلك نقصًا فِي الإيمانِ، والَّذي عَلَيْهِ أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ أنَّ الإيمانَ يَزِيدُ وينقصُ بِدِلَالةِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ والواقعِ:

أمَّا الكتابُ فقدْ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر:٣١].

وَفِي السُّنَّةِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فِي النِّسَاءِ: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**» اللُّبُّ يَعْنِي العقلَ، ثُمَّ سَأَلَتِ النِّسَاءُ رسولَ اللهِ ﷺ عنْ نُقصانِ الدينِ، فقالَ: «**أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟**»، قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا**»[١].

إِذَنِ الإيمانُ يَزِيدُ ويَنقصُ بِدَلَالةِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، وبِدَلالةِ الواقعِ أيضًا؛ لِأَنَّكَ إِذَا جعلتَ الأعمالَ مِنَ الإيمانِ، فَالنَّاسُ يَخْتلفونَ فِي الأعمالِ، فَمِنْهم مَن يسبِّحُ اللهَ مِئَةَ مرَّةٍ، ومنهمْ مَنْ يُسَبحهُ خَمْسِينَ مَرَّةً.

كذَلِكَ أَيْضًا تحسُّ بِقلْبكَ أَنَّك فِي بعضِ الأحيانِ يَكُون عِنْدك إيمان قَوِيٌّ كأنَّما تُشَاهد عَالَم الغيبِ، وفي بَعْضِ الأحيانِ تَسْتَولي الغفلةُ حَتَّى يَتَنَاقص هَذَا اليقينُ، فَالإيمانُ إِذَنْ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ بدلَالَةِ القُرْآنِ والسُّنَّةِ والوَاقعِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الحائض تترك الصوم والصلاة، رقم (١٩٥١).

أَلَمْ تَرَوْا أنَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة:٢٦٠]؛ لِأَنَّ الخبرَ لَيْسَ كَالمعاينةِ، فَلَوْ أَخْبركَ مَنْ تَثِقُ بِهِ أَمَانَةً وصدقًا بشيءٍ، ثُمَّ رَأَيْتَهُ، فالأَقْوى دلالةً هو المُشَاهَدةُ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**لَيْسَ الخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ**»[١]، وهُنَا قَالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿بَلَىٰ﴾ يَعْنِي: أُومِنُ بِأَنَّكَ يَا ربِّ تُحْيِي الموتَى ﴿وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَل هُنَاكَ دَلِيل عَلَى أَنَّ الأعمالَ مِنَ الإيمانِ؟

قُلْنَا: نَعَمْ، هُناكَ دَلِيلٌ منَ القُرْآنِ والسنةِ، أَمَّا القُرْآنُ فقدْ قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣] أَيْ: صَلاتَكُمْ إِلَى بَيْتِ المقدسِ؛ لِأَنَّ المُسْلِمِينَ كانوا أَوَّلَ مَا قدمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ المَدِينَةَ، كَانوا يُصَلون إِلى بيتِ المقدسِ، وتكون الكعبةُ خَلفَ ظُهُورهِمْ حَتَّى نَسَخ اللهُ ذَلِكَ إِلى استقبالِ الكعبةِ بَعد سِتَّةَ عشرَ شَهْرًا، أَيْ: بَعد سَنَةٍ وثُلثٍ، فَهُنَا سَمَّى اللهُ تَعَالَى الصَّلَاةَ إِيمانًا.

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»[٢]، ومَا وَرَدَ فِي الحديثِ كلُّه أعمالٌ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ قولٌ، وإِمَاطةُ الأذى عنِ الطريقِ عملٌ، فَدَلَّ الكِتَاب والسُّنَّة عَلَى أَنَّ الأعمالَ منَ الإيمانِ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥، رقم ١٨٤٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم (٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، رقم (٣٥).

فَإِنْ قِيلَ: هَلِ الأعمالُ شَرْط لِكَمال الإِيمانِ أَمْ شَرطٌ لِصِحَّته؟

قُلْنَا: هَذَا عَلَى حسبِ النصوصِ، فَمَا جَاءَ النَّصُّ أَنَّه منْ كَمَاله فَهُو مِنْ كَمَالِهِ، ومَا جَاءَ النصُّ أَنَّهُ مِن شُرُوطِ صِحَّته فَهُو مِنْ شُرُوطِ صِحَّتِهِ.

فَالصَّلَاةُ عملٌ منَ الأعمالِ، وَهِيَ شَرط لِصِحَّةِ الإيمانِ؛ وَلِهَذَا مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَهُو كَافر، حَتَّى وإِنْ قَالَ: أَشهد أَنْ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّ شَهَادَتَهُ كذبٌ؛ لِأَنَّهُ لَو شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ مَا تَرَكَ الصَّلَاةَ، فَأَيُّ شَهادةٍ تَنفعُ إِذَا كَانَ الإِنْسَانُ لَا يعملُ بِمُقْتَضاها؛ وَلِهَذَا قَالَ عبدُ اللهِ بنُ شَقِيقٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وهُوَ مِنَ التَّابِعينَ: «كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ»[1].

أَمَّا الصِّيَامُ فهوَ شَرطٌ لكمالِ الإيمانِ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ لَوْ لَمْ يَصم لَم يَكن كافرًا.

ومنَ العجيبِ أَنَّ النَّاسَ يعظِّمُونَ الصِّيَامَ أَكثرَ مِمَّا يُعظمُونَ الصَّلَاةَ، مَعَ أَنَّ الصَّلَاةَ أعظمُ، ومنْ صَام وهُوَ لا يُصَلِّي فَلَا صِيَامَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُؤمنٍ بَلْ كَافرٌ، فتَجدُ الإِنْسَانَ يَصُوم، ولَكنَّه يَنَام مِن حِينِ أَنْ يَتَسحرَ إِلَى أَنْ يَبقى عَلَى الغُرُوب مَا يَتمكنُ بِهِ مِنْ تَجْهيزِ الإفطارِ.

فَالَّذِي يَصُومُ وَلَا يُصَلِّي لَا صِيامَ لَهُ، ولَا حَجَّ لَهُ، وَلَا تُقْبَل صَدَقته؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤]، فالكفرُ يَمنعُ قَبولَ أَيِّ عملٍ، ومِنْ ثَمَّ أجمعَ الفقهاءُ عَلَى أَنَّ مِنْ شُرُوطِ صِحَّةِ العِبادَةِ الإِسْلَامَ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢٢).

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءٍ نَهَى اللهُ عَنِ الخِيَانَةِ فِيهَا:

الأَوَّلُ: الخيانةُ فِي حقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. ومنَ الخيانةِ فِي حقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَبيعَ المرءُ دينَ اللهِ بعَرَضٍ منَ الدُّنْيا، فَتَجدهُ يَكتمُ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ أَجلِ جاهٍ، فيعلمُ أَنَّ هَذَا الشَّيءَ حَرامٌ، لكنَّه لَو قَالَ للنَّاسِ: إِنَّ هَذَا حَرامٌ لَنَقصت قِيمَته عِنْدهم، فَيكتم الحقَّ وَلَا يَقُولُ: إِنَّ هَذَا حَرامٌ، وهَذِهِ خيانَةٌ لَا شَكَّ، فَعَلَيْنا أنْ نُبيِّنَ مَا أنزلَ اللهُ تعَالَى فِي كتابِهِ، ولَا تَخشَ أحدًا من النَّاس، وَكَما قِيلَ: رضَا النَّاسِ غَايَةٌ لا تُدْرك، ولَا يُمْكن أَنْ تُرضِيَ جَميعَ النَّاسِ، لَكن أَرْضِ اللهَ يَكفِكَ مؤُونةَ النَّاسِ.

الثَّانِي: خِيانةُ الرَّسُولِ ﷺ. والخيانةُ فِي حياتِهِ خِيَانَةٌ لِشَخصه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وخِيَانةٌ لسنَّته، وخِيَانتُهُ بَعد مَوته خِيَانته بِسُنته فَقَطْ. ومِنْ خِيانَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِسُنَّته؛ إخفاءُ السُّنة؛ لِئَلَّا يَهبط ميزانُهُ عندَ النَّاسِ، زعمًا منهُ أَنَّ إبداءَ السُّنةِ وإِظْهارَها يُقلِّلُ مِنْ قِيمةِ الرَّجلِ، وَهَذَا مِنْ وَساوسِ الشَّيْطَانِ، وأَنَا أقولُ: كُلُّ مَن أَبَانَ شَريعةَ اللهِ فِي القُرْآنِ أَوِ السُّنةِ، فَلَنْ يَزْدَادَ عندَ النَّاسِ إِلَّا رفعَةً وعزَّةً.

لَكنَّ بَعضَ النَّاسِ يَسْتعجلُ وَيُريدُ أَنْ تَكونَ العزةُ يدًا بِيدٍ مَعَ العملِ، وَاللهُ تَعَالَى قَدْ يَختبرُ الإِنْسَانَ وَيُؤخر مَا يَقْتضيه عَمَله منَ الثوابِ العاجلِ امتِحَانًا. فَبعضُ النَّاسِ يَقُولُ: إِنَّه يَتَّقي اللهَ وَلكنْ لَم يَجْعلْ لهُ منْ أمرِهِ يسرًا، المعيشةُ صعبةٌ، ومُخالطةُ النَّاسِ صَعبةٌ، وكُلُّ شَيْءٍ صَعبٌ، حَتَّى زَوْجتهُ انقِيادها صَعبٌ عَلَيْهِ، فيقُولُ: أَيْنَ الثوابُ، أينَ أَنَا منْ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤]، فَهَذَا الشَّخصُ أَخْطَأَ واستعجَلَ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ قَدْ يَمْتحن العبدَ فَيتأخرَ ثوابُ العملِ امتحانًا.

كذَلِكَ الدُّعَاءُ فأحيانًا يَدْعو الإِنْسَانُ ربَّهُ وَلَا يَرَى إجابةً لِدُعائِهِ، فَيَسْتعجل ويَتَحسر وَيَدع الدُّعَاءَ، واللهُ تَعَالَى حَكِيمٌ فِي تَدْبير عِبَادِهِ، فلَا تَسْتعجِلْ، وَالنَّصر لِلمُؤْمنِينَ، والنَّصر لِلمُتَّقِين، والنَّصر لِمَنْ نَصَرُوا اللهَ، ولكنْ قَد يُعَجلُ اللهُ النصرَ، وقَد يكونُ النصرُ مُتأَخرًا.

الثَّالِثُ: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ أَيْ: تَخُونوا مَا ائتُمنتم عَلَيْه مِن أَمَانَاتكم؛ و﴿أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ جمْع مُضاف، وَالجمعُ المضافُ يَدُلُّ عَلَى العُمُوم؛ وَلِهَذَا علَّمَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نَقولَ: «**السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ ذَلِكَ أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**»[1]؛ لِأَنَّ (عباد) جمعٌ مضافٌ، والجمعُ المضافُ يُفِيدُ العمومَ.

قوله: ﴿أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ أَيْ: كُلَّ مَا ائْتُمنتم عَلَيْه، سَواءٌ فِي حقِّ اللهِ، أَوْ فِي حقِّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَو فِي حُقُوق الخلقِ؛ كَما جَاءَ فِي الآيةِ الكريمَةِ.

أَمْثِلَةٌ لِخِيَانَةِ الأَمَانَةِ:

المِثَالُ الأَوَّلُ: رَجُلٌ أَعْطَاكَ وَدِيعةً، وَلْتكنْ إِنَاءً، وَقَالَ: خُذْ هَذَا واحْفَظْهُ لِي حَتَّى أَرْجعَ منَ السفرِ، فاسْتَعْملَ الرجلُ الإناءَ يَأْكل فِيهِ ويَشْربُ، فهَذِهِ خِيَانَةٌ؛ لِأَنَّ صاحبَ الإناءِ إِنَّما جعلهُ عِنْدَكَ لِلْحِفْظِ، وَدِيعَةً، ولَيس لِلاسْتِعمال، فَاستِعْماله إِيَّاهُ يُعْتبرُ خِيَانةً.

المِثَالُ الثَّانِي: رَجلٌ أَعْطَاكَ دَرَاهم بِكِيسٍ وَرَبطه، ثُمَّ إِنَّك حَللتَ الربطَ، فهَذِهِ خِيانةٌ، حَتَّى إِنَّ الفقهاءَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ قالُوا: إِذَا حلَّ الرباطَ -رِبَاطَ الكيسِ- ولو لم يَسْتعملِ الأمانَةَ، فَهَذِهِ خيانةٌ، فَيكون ضَامنًا عَلَى كُلِّ حَالٍ فِيمَا لَو أتلفهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب: السلام اسم من أسماء الله تعالى، رقم (٦٢٣٠).

المِثَالُ الثَّالِثُ: إِذَا تأخَّر الموظفُ عنِ المجيءِ فِي الزَّمنِ المحدَّدِ؛ لِأَنَّ المدِيرَ يَتَأَخَّرُ، وأرادَ أَنْ يَتأخرَ كَمَا يَتأخرُ المديرُ، فَهَذِهِ خِيانةٌ، وَلَوْ تَأَخرَ المديرُ فَلَا عُذْر لِلْموظف أَنْ يَتَأخرَ، فكلٌّ مَسْؤُول عَن عَمَلِه.

كَذَلك إِذَا خَرَجَ الموظفُ قَبل انتهاءِ الدَّوَام بِنِصف سَاعةٍ فهَذِهِ خِيَانةٌ؛ لِأَنَّ مُقْتَضَى الأمانةِ أَنْ يَأتِيَ حِين دُخُول وَقْت العملِ، وَلَا يَخرجَ إِلَّا إِذَا انْتهَى.

المِثَالُ الرَّابعُ: مُوظف يَأْتِي مُبكرًا مَعَ أولِ الدوامِ، ولَا يَخرجُ إِلَّا فِي آخِرِهِ، لكنْ إِذَا جَلس عَلَى المكتبِ يَقُولُ للسكرتِيرِ: لَا تُدخِلُ عليَّ أحدًا، ويظلُّ يَقْرأُ الكتبَ والصُّحفَ والمجلاتِ، فيَتَشاغلُ عنْ مَصَالحِ المُسْلِمِينَ بهَذِهِ الأشياءِ، فهَذِهِ خِيَانةٌ.

المِثَالُ الخامسُ: فِي شَهرِ رَمَضَانَ النَّاسُ يُحِبونَ كَثرةَ قِراءَةِ القُرْآنِ، وَهَذَا حَسنٌ لَا شَكَّ، فيَأتِي الموظَّفُ فِي أَوَّلِ الدَّوامِ وَيَخْرجُ فِي آخرِ الدَّوام، لَكن مَعَهُ المصحفُ يَقرأُ القُرْآنَ، وَالنَّاسُ عَلَى الأَبْوَابِ يَنْتَظِرونَ حَاجَتَهم، وَيَقُولُ لِلسِّكرِتيرِ: لَا تُدخلْ أحدًا؛ وَجعل يَقرأ القُرْآنَ، فهَذِهِ خِيانةٌ؛ لِأَنَّهُ وَالحالُ هَكذا لَا يَكونُ عاملًا بِالقُرْآنِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّك تَنْهَى عبدًا عنْ قِراءَةِ القُرْآنِ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩-١٠]؟

قُلْنَا: القُرْآنُ يَأمركَ أَنْ تُؤَدِّيَ الأماناتِ إِلى أهلهَا، قَالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، فَهَذَا الشخصُ مَعَ أَنَّهُ مُتَشَاغلٌ بِأَمرٍ يُثابُ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ هَذَا المكانِ، لَكن فِي هَذَا المكانِ لَا يُثابُ عَلَى قِراءَةِ القُرْآنِ، وَدليلُهُ قَولهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1]، وقراءَتُكَ الآنَ لِكِتابِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

اللهِ لَيْسَ عَلَيْهِ أمرُ اللهِ وَرَسولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَلْ أَنْتَ مَأمورٌ بِالتَّشاغل فِي عَمَلك الَّذِي عَاهَدت عَلَيْه دَوْلتك.

المِثَالُ السَّادِسُ: إِنْسَانٌ أَخْبرك بِسِرٍّ، فَأَصبحت تَتَحدثُ بِهِ، فَهَذِهِ خيانةٌ؛ لِأَنَّهُ ائْتَمَنَكَ فَخُنته، وكَثير منَ النَّاسِ مُبتلًى بِهَذَا؛ لَا سِيَّما إِذا كَانَ الَّذِي أسرَّ إِلَيْه الحديثَ مِن كُبَراء القومِ، فَتَجده يَتَحدثُ يَقُولُ: قَالَ لِي فُلَانٌ وَقَالَ لِي فُلَان منَ الكبرَاءِ؛ لِيُفهِمَ النَّاسَ أَنَّهُ قَريبٌ مِنهم، وأنَّ الكبراءَ وَالرُّؤساءَ والوزراءَ وَالملوكَ يُفْضون إِلَيْهِ بِأَسْرَارهِمْ، وَهَذَا حَرامٌ، ولَا يَجُوزُ أبدًا، وهُو مِن خِيَانةِ الأمانَةِ.

قالَ بعضُ العُلَمَاءِ: إِذَا حدَّثَكَ الإِنْسَانُ بِحَديثٍ ثُمَّ التفتَ، فَقَدِ ائتمنكَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ التفَتَ لِينظر هَل حَوله أَحد يَسْمع، فَإِذا كَانَ كَذَلك فَلَا تَخُنِ السِّر، فتكون مِمَّن خَان الأَمَانة.

المِثَالُ السَّابِعُ: رَجُلٌ خطَبَ ابنته رَجُلان، أَحدهما مُسْتقيم فِي دِينه وخُلُقه، والثَّاني دُون ذَلِك، لَكنَّ الثاني صَاحب لَه، وَالأَولُ لَيْس بَيْنه وَبَيْنه صُحْبة، فزوَّجَ الثَّانيَ وَلَمْ يُزَوِّجِ الأولَ، فَهَذِهِ خِيَانةٌ؛ لِأَنَّهُ مَأْمور بِأَنْ يَخْتَارَ لِابنتِهِ أَحسن مَنْ يَكون خلقًا ودينًا، وَهَذَا زَوَّجَهَا لِمَصْلَحة نَفْسه؛ لِأَنَّ الخاطبَ الثَّانيَ صَاحبه، والأَوَّل لَيست بينهما صحبة، فهَذَا من الخيانة.

المِثَالُ الثَّامنُ: رَجُل خَطَب ابنتَهُ رَجُلانِ؛ أَحَدهما مُسْتقيم، والثَّاني كَذَلك مُسْتقيم، لَكنَّ الثَّانيَ عِنْده ابنَةٌ، وأَوْحى إِلَيْهِ أَنَّهُ إِنْ زوَّجه سَيُزوجه ابنتَهُ، فَقَدَّم الثَّانيَ، مَعَ أَنَّه أَقَل منَ الأَوَّل مِن حَيثُ الخلقُ والدينُ؛ لِأَنَّهُ أَوْحى إِلَيْهِ أَنَّه سَيُزوجهُ ابْنَته، فَهَذِهِ خِيَانةٌ.

واعْلَمْ أَنَّك إذَا خُنْتَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ فَلَنْ يُيَسَّرَ لكَ الأمورَ، فرُبَّما هَذَا الَّذِي أَوْحى إِلَيْهِ أَنَّهُ سَيُزوجهُ ابْنَته يَقُولُ: واللهِ البِنتُ اعْتَذَرت، وحِينَئذ تَخُون الأمانَةَ وَلَا يَحصل لَك مَقْصودك.

قال تَعَالَى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال:٢٨].

قَوْلُهُ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ إِشَارة إِلَى أَنَّ الإِنْسَانَ يَخُونُ الأمانةَ إِمَّا لِطَلب المالِ وإِمَّا لِلقَرابةِ، وَهَذَا منَ الفتنِ، فاحْذَر أَنْ يَفْتنكَ المالُ والولدُ فِي أداءِ الأمانةِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ: ثَوَابٌ عَظِيمٌ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





سورة التوبة

الدرس الأوَّل:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِدَّةَ آياتٍ عَنِ الزكاةِ؛ مِنْهَا قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٤-٣٥]، وكَنْزُ الذَّهَبِ والفِضَّةِ ليس دَفْنَها فِي الأرْضِ، ولكِنَّ اللهَ بيَّنَه في هَذِهِ الآيَةِ، وهو قولُهُ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وأعْظَمُ ما تُنفَقُ الأموالُ فيهِ وأَشَدُّهُ وأوكَدُهُ هو الزَّكاةُ؛ فإنَّها أحدُ أركانِ الإسلامِ، ولذلِكَ نقول: مَنْ لم يُخرِجْ زكاةَ مالِهِ فَقَدْ كَنَزَه، حتى لو كان عَلَى رُؤوسِ الجِبالِ، ومَنْ أخرَجَ زكَاةَ مالِهِ فإنَّهُ لم يَكْنِزْهُ، ولو كانَ في قُعورِ البِحَارِ، وما أكثَرَ الذينَ لا يُؤَدُّونَ الزكاةَ! وما أكثرَ الَّذِينَ يَغْلِبُ عليهِمُ الشُّحُّ! وهم في الحقيقَةِ قدْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُم لأنَّهم يَدَّخِرُونَ هذِهِ الأموالَ لغيرِهِم؛ فيكونُ عليهِمْ عارُهَا ونارُهَا،

ولغَيرِهِمْ غنِيمَتُها وثِمارُها، فإنها يُحمَى عليهَا في نارِ جهنَّمَ، ونارُ جهنَّمُ- كما ثَبَتَ به الحدِيثُ عنِ النَّبِيِّ ﷺ «**فُضِّلَتْ عَلَى نَارِ الدُّنْيَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا**»[1]، وإذا كان الواحِدُ مِنَّا لا يمْكِنُ أن يُبقِيَ إصبَعَه في أبْرَدِ نارٍ مِنْ نارِ الدُّنْيا لمدَّةِ ساعاتٍ؛ فكيفَ بإنسانٍ تُحمَى عليه هذِهِ المعادِنُ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ ويُكْوَى بها جَنْبُه وجَبِينُه وظَهْرُه، كلَّما بَرَدَتْ أُعيدَتْ؛ في يومٍ كانَ مِقْدارُهُ خمسينَ ألفَ سنَةٍ حتى يُقضَى بينَ العِبادِ، فيَرَى سَبِيلَهُ إما إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّارِ.

باللهِ عليكُمْ أيها المسلِمُونَ من يَسْتَطِيعُ أن يتَحَمَّلَ هذا خَمسِيَن ألفَ سنَةٍ؟! ليسَ يومًا واحدًا، وليسَ شَهْرًا واحدًا، وليسَ ساعةً واحِدَةً، ولكنْ خمسونَ أَلْفَ سنَةٍ.

وهذه الآيةُ الكريمَةُ تَدُلُّ على عِظَمِ الزكاةِ وعلى جُرمِ مَن مَنَعَ الزكاةَ وأنَّ عليهِ هَذَا الإثمَ العَظِيمَ والعياذُ باللهِ.

مصَارِفُ الزَّكاةِ:

أما الآية الثَّانِيَةُ فإنَّ الله يُخَاطِبُ بِهَا المزَكِّينَ والقَابِضِينَ للزَّكاةِ، وهِي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة:٦٠].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٩٢)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، رقم (٢٨٤٣).

وهذه الآيَةُ يظُنُّ بعضُ الناسِ أنَّها تُخاطِبُ أهْلَ الأموالِ فقَطْ، ولكنها تُخَاطِبُ أهلَ الأمْوَالِ وتخاطِبُ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ الزَّكاةَ، فمَن قَبَضَها ولم يتَّصِفْ بواحِدٍ مِنْ هذِهِ الأوصافِ فإنَّهُ قَبَضَ ما لا يَسْتَحِقُّ، وأكَلَ مالًا بالباطِلِ، ولا بُدَّ أن يَنَالَ إثْمَه في الدُّنْيَا والآخِرَةِ والعياذ بالله.

أما الفقَراءُ والمساكِينُ فَهُمُ الَّذِينَ لا يجِدُونَ كِفَايتَهُم، ليسَ مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ فحَسْبُ، ولكِنْ من الطَّعامِ والشَّرابِ واللِّباسِ والمسْكَنِ والمنْكحِ، فالرَّجُلُ الفقيرُ الَّذِي عندَهُ بيتٌ يَسْكُنُه، ومالٌ يَنْفِقُ منْه على نفْسِهِ بالكِسْوَةِ والطعامِ والشَّرابِ لكن ليسَ عنْدَهُ ما يتزَوَّجُ به، فلا بأسَ أن يَتَزَوَّجَ من الزكاةِ؛ لأن الزَّواجَ مِنْ أهمِّ حاجاتِ الإنسانِ، ويدْخُلُ فِي (الفُقراءِ) الَّذِينَ يحتاجُونَ إلى هذَا المالِ، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُقَيِّدِ الفَقْرَ بعدمِ وِجْدانِ ما يُؤكَلُ ويُشرَبُ ويُلْبَسُ ويُسكَنُ، ولكنه أطْلَقَ الفَقْرَ، فكلُّ إنسانٍ لا يجِدُ ما يَسُدُّ حاجتَهُ من ضرورياتِ الحياةِ فإنَّه يُعطَى مِنَ الزكاةِ.

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾، فهُم المَدِينُونَ الذين يحتَاجُونَ إلى إبراءِ ذِمَمِهِمْ من الناسِ. وللإنسانِ أن يسلُكَ أحدَ طَرِيقَينِ؛ إمَّا أن يُعْطِيَ المدينَ ليَقْضِيَ دينَه بنفسِهِ، وإما أن يذهَبَ إلى الدائنِ ويَقْضِيَ الدَّيْنَ عن المَدِينِ، وهذه الطريقُ قد تكونُ أصلَحَ من الطريقِ الأُولى؛ لأنك لو أعْطَيْتَ المدِينَ شيئًا فربما لا يُوفِّي بِهِ ويُفسِدُ المالَ في أمورٍ أُخْرى، ولكن إذا ذهَبْتَ أنتَ بنَفْسِكَ وأعطَيْتَ المالَ للدائنِ لإبراءِ ذِمَّةِ المدِينِ فإن ذلِكَ يُجزِئُهُ. ولهذا تجِدُونَ الآية الكريمةَ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، هؤلاء الأصنافُ الأربعَةُ كلُّهُم ذكَرَ اللهُ استِحْقاقَهُم باللامِ الدَّالَّةِ على التَّمْلِيكِ، أما الغارِمُونَ فإنَّ الله تعالى قال: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾

فأتَى بـ(في) الدَّالَّةِ على الظَّرْفِيَّةِ التي لا تَقْتَضِي أن يَمْلِكَ المدِينُ شَيئًا، وإنَّما المقصودُ أن يُقْضَى الدَّيْنُ.

فإن قيل: هل يَقـضِي الولدُ عن والِدِهِ الدَّيْنَ إذا كانَ الوالِدُ لا يتَمَكَّـنُ من قَضائِهِ؟ أو الوالدُ يقْضِي الدَّيْنَ عن وَلِده إذا كانَ لا يتَمَكَّنُ من قَضائِهِ؟

فالجواب: أنَّ هَذَا محَلُّ خلافٍ بينَ أهلِ العِلْمِ، والصوابُ في ذلك: أنه يجـوزُ للوالِدِ أن يَقْضِيَ الدَّينَ عن ولَدِهِ إذا كان وَلَدُهُ لا يستَطِيعُ الوفاءَ، وأن الولَدَ يجوزُ أن يَقْضِيَ الدَّينَ عن والِدِهِ إذا كانَ والِدُهُ لا يستَطِيعُ الوفاءَ؛ لأن الآيَةَ عامَّةٌ، ولم تَرِدِ السُّنَّةُ بتَخْصِيصِ الوالِدَيْنِ أو الأولادِ وإخْراجِهِمْ من هذَا العُمومِ.

والواجبُ على المرْءِ المسلِمِ في هذِهِ المسألَةِ وفي غيرِهَا مما دَلَّ عليه كِتابُ اللهِ أن يأخُذَ بعُمومِهِ، إلا إذا ثَبَتَ تخْصِيصُهُ من كتابِ اللهِ، أو سُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، أو إجماعٍ مِنْ أهلِ العِلْمِ، أو قياسٍ صَحِيحٍ تَشْهَدُ لَهُ الأدِلَّةُ.

والحاصلُ أن الغَارِمِـينَ هم المدِينُـونَ، فتُعطَى الزكاةُ في قَضاءِ دَيْنِهِـمْ على الوجهينِ السابِقَينِ.

فإنْ قيل: هل يُقضَى الدَّيْنُ مِنَ الزكاةِ عن الرَّجُلِ الميِّتِ؟

فالجواب: أنَّ ابنَ عبدِ البَرِّ[1] وأبا عُبَيْدٍ[2] قَدْ ذكَرا إجماعَ أهلِ العِلْمِ أنه لا يُقْضَى مِنَ الزكاةِ دَيْنٌ على مَيِّتٍ، ولكنَّ الحقَّ أن المسألَةَ خِلافِيَّةٌ، وأن بعضَ أهلِ العِلْمِ أجازَ أن يُقضَى الدَّيْنُ عن الميِّتِ إذا لم يُخلِّفْ وَفاءً.

---

(١) الاستذكار لابن عبد البر (٣/ ٢١٣).

(٢) الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص:٧٢٣).

والطريقُ الَّتِي أمرَنَا اللهُ بها عندَ النِّزاعِ أن نرْجِعَ إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، وإذا رَجَعْنَا إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ فإنه يتبَيَّنُ أنه لا يُقْضَى من الزكاةِ دَينٌ على مَيِّتٍ؛ وذلك لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ قَبْلَ أن يَفتحَ اللهُ عَليهِ إِذَا قُدِّمَ إِلَيْهِ مَيِّتٌ مَدِينٌ يسأَلُ: «**هَلْ لَهُ مِنْ وَفَاءٍ؟**» فَإذَا قَالُوا: لَا وَفَاءَ لَهُ، فَإِنَّهُ يَتَأَخَّرُ وَيَأْمُرُ أَصْحَابَهُ أَنْ يُصَلُّوا عَلَيْهِ[1]، وهو لا يُصَلِّي على المدِينِ الذي لا وَفاءَ لهُ، حتَّى فتَحَ الله عليهِ، فكانَ ﷺ حين حين فتح اللهُ عليه يقول: «**أَنَا أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ تُوُفِّيَ مِنَ المُؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دَيْنًا، فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ**»[2].

فَلَمْ يَقْضِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الزكاةِ دَينًا على مَيِّتٍ، مَعَ أنه ﷺ حَرِيصٌ على إبراءِ ذِمَّةِ أصحابِهِ، فهذا دَليلٌ بَيِّنٌ على أنه لا يُقْضَى منها دَيْنٌ على مَيِّتٍ.

ثم إنَّ المعنى يقتَضِي ذلِكَ؛ وهو أن الميِّتَ لا يَلْحَقُهُ مِنَ الذُّلِّ في هذا الدَّيْنِ مثلما يلْحَقُ الإنسانَ الحَيَّ، فكوننا نَعْتَنِي بالأحياءِ ونُبْرِئُ ذِمَمَهم ونُحَرِّرُهم من ذلِكَ فَهُو أَوْلى وأجْدَرُ.

أما الميِّتُ فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ**»[3].

ومما يتَعَلَّقُ بالمباحِثِ في هذِهِ الآيَةِ قولُه تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ما المرادُ بِهِ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحوالات، باب إن أحال دين الميت على رجل جاز، رقم (٢١٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الكفالة، باب من تكفل عن ميت دينا، فليس له أن يرجع، رقم (٢١٧٦)، ومسلم: كتاب الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته، رقم (١٦١٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها، رقم (٢٣٨٧).

فالمعروفُ أن المرادَ بقولِهِ: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هُو الجِهادُ في سبيلِ اللهِ فَقَطْ، وهذا هو المفترَضُ في القُرآنِ، ولكنَّ بعضَ المتأخِّرينَ يقولُ: إن المراد بـ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كلُّ طريقِ خيْرٍ وبِرٍّ، من بناءِ المساجِدِ وإصلاحِ الطُّرُقِ وغيرِ ذلِكَ، ولكنه ليسَ بصَحيحٍ؛ لأننا لو جَعَلْنَا قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عامًّا لجميعِ طُرُقِ الخيرِ التي يُنفَقُ فيهَا المالُ لم يكُنْ للحَصْرِ المذكورِ في أوَّلِ الآيَةِ فائدَةٌ؛ فإنَّ أوَّلَ الآيَةِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾، و(إنَّما) أداةُ حَصْرٍ، وإذا كانَتْ أداةَ حَصْرٍ فإنما نَحْصُرُها على ثمانِيَةِ أصنافٍ فَقَطْ، ولو جعلنَاها عامَّةً لكانَتِ الفائدَةُ من الحَصْرِ قليلَةً.

ولذلك لا يجوزُ أن تُصْرَفَ الزكاةُ في بناءِ المَدارِسِ، ولا في بناء المساجِدِ، ولا في إصلاحِ الطُّرُقِ، ولكن تُصْرَفُ في الجهادِ في سبيلِ اللهِ؛ سواءٌ كانَ الجهادُ في سَبيلِ اللهِ طَريقُهُ السلاحُ، أو طريقُهُ العِلْمُ والبَيانُ. ولهذا تُدْفَعُ الزكاةُ لطلَبَةِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ الذين لا يجِدُونَ ما يكْفِيهِمْ وإن كانوا لو عَمِلُوا واحتَرَفُوا لوَجَدُوا ما يَكْفِيهِمْ، فالمتفرِّغُ لطلبِ العِلْمِ الشرْعِيِّ يُعطَى مِنَ الزكاةِ ما تَقومُ به كِفَايَتُهُ، وكذلك يُشتَرَى له مِنَ الكُتُبِ من الزكاةِ ما ينتَفِعُ بِهِ في علْمِهِ؛ لأن هذا كلَّهُ من الجهادِ في سبيلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بعدُ:**

فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ الصَّدَقاتُ المرادُ بها الزَّكواتُ، و(إنما) تُفِيدُ الحَصْرَ، وهُوَ إثباتُ الحُكْمِ في المذْكُورِ ونَفْيهُ عما سِواهُ.

قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ وهذان الصِّنْفانِ يأخُذانِ الزكاةَ لحاجَتِهِما، لكِنَّ الفُقراءَ أحوجُ من المساكِين، والدَّليلُ على أن الفُقراءَ أحوجُ أن اللهَ بدأَ بِهِمْ، وإنما يبْدَأُ بالأحَقِّ فالأحَقِّ، والأهَمِّ فالأهَمِّ، ولكن مَنِ الفُقراءُ والمساكِينُ؟

قال العلماءُ: مَن عندَهُ دونَ نِصْفِ الكِفايَةِ فهُو فَقِيرٌ، ومن عندَهُ دونَ الكِفَايَةِ فهو مسكينٌ، فمَنْ عندَهُ ثلاثَةُ أرباعِ الكِفَايَةِ مسكِينٌ، ومن عندَهُ ثُلُثَا الكفايَةِ مسكِينٌ، ومن عندَهُ رُبُع الكِفَايَةِ فَقِيرٌ، لكن كيفَ نَعْرِفُ الكِفايَةَ؟

لنفرض أن إنسانًا عنْدَهُ عشَرَةُ آلافِ رِيالٍ، وقَدَّرَ أنها تَكْفِيهِ لمدَّةِ سنَةٍ، لكِنْ غَلتِ الأسعارُ فلا تَكْفِيهِ، أو رَخصتِ الأسعارُ فتكفيهِ لسَنَتَيْنِ، فما هو الضابِطُ؟

يمكن أن نقول: الضابِطُ لو قَدَّرْنَا أن رَجُلًا موظَّفًا كانَ راتِبُه ثلاثَةَ آلافٍ، وكان يُنْفِقُ في الشهْرِ عليه وعلى عائلَتِهِ أربعةَ آلافٍ، فهذا مِسْكِينٍ؛ لأن عندهُ ثلاثَةَ أرباعِ الكِفايَةِ، فيُعْطَى مِنَ الزكاةِ ما يُكَمِّلُ، نحن قلنا: راتِبُهُ ثلاثَة وكفايَتُهُ أربعةٌ، فنُعْطِيهِ في السَّنَةِ كلِّها اثْنَي عشَرَ ألفًا؛ لأننا نُعْطِيهِ كِفَايَتَهُ سنَةً، فنُعطيهِ اثني عشَر ألفًا، ولكن لا نُعْطيهِ أكثرَ إلا أن يفْتَقِرَ في أثناءِ العامِ؛ فنُكْمِلُ.

رجل آخرُ راتِبُهُ ألفُ ريالٍ، ولكنَّ مَؤونَتَه أربعةُ آلافِ ريالٍ، فهَذَا فَقِيرٌ، نعطِيهِ ثلاثةَ آلافٍ في الشَّهْرِ، اضْرِبْها في اثْنَي عشَرَ، فنُعْطِيهِ ستًّا وثلاثينَ ألفًا في السَّنَةِ؛ لأننا نُعْطي الفَقِيرَ والمسكينَ مقدار كِفَايتِهِ سَنةً.

كذلك: إنسانٌ راتبُهُ ثلاثةُ آلافِ ريال يَكْفِيهِ طعامًا من أكْلٍ وشُرْبٍ وكِسْوة ومَسْكَنٍ، لكنه يحتاجُ إلى نِكاحٍ، وليس عندَهُ مَهْرٌ، فإننا نعْطِيهِ المهرَ كامِلًا، فإذا وجَدْنا شابًّا ملْتَزِمًا مستَقِيمًا، لكنه يحتاجُ إلى نِكاحٍ، فإننا نعْطِيهِ مِنَ الزكاةِ، فنسأَلُهُ: كَمِ المهْرُ؟ فإذا قال: المهرُ عشَرَةُ آلاف. أعطيناهُ عشَرَةَ آلاف فقط، وإذا قال: المهْرُ خمسونَ ألفًا. أعطيناه خَمسينَ ألفًا؛ لأن المهْرَ مِنَ النَّفقَةِ، ولذلك يجِبُ على الأبِ الغَنِيِّ إذَا كانَ له ابنٌ يحتَاجُ إلى النِّكاحِ؛ يجِبُ عليه أن يُزَوِّجَهُ.

وهذه مسألَةٌ يُخِلُّ بها كَثِيرٌ مِنَ الآباءِ؛ يأتِي الشابُّ لأبيهِ ويقولُ: يا أَبِي زَوِّجْنِي، أنا محتاجٌ إلى النِّكاحِ. فيقولُ: في أَيِّ مستوى أنتَ في الجامِعَةِ؟ قال: في المستَوَى الأوَّل، قال: باقٍ عليك ثلاثُ سنواتٍ، فإذا تخَرَّجْتَ زَوَّجْتُك. فهذا حرامٌ على الأب، بل يجِبُ أن يزوِّجَ ابْنَهُ.

وأبٌ آخَرُ جاءَهُ ابنُهُ يريدُ أن يتزَوَّجَ، قالَ لَهُ: ما يَحُكُّ ظَهْرَكَ إلا ظُفُرُكَ. يعْنِي:

حصِّلِ المهْرَ أنتَ وَتزوَّج، وهذا الأبُ غَنِيٌّ أيضًا، فحرامٌ عليهِ، بل يجِبُ على الأب أن يُزَوِّجَ الابنَ إذا احتاجَ للزَّواجِ، كما يجبُ عليه أن يُعْطِيَهُ أكلَهُ وشُرْبَهُ.

ولو أنَّ الابنَ زَوَّجَهُ أبوهُ أوَّلَ مرَّةٍ ولم يُقَدِّرِ اللهُ بينهما اتِّفاقًا فطلَّقَها، وجاءَ يريدُ من أبيهِ أن يُزَوِّجَهُ، فيَجِبُ على الأب أن يُزَوِّجَهُ.

ولو زوَّجَهُ الثانِيَةَ والشابُّ عندَهُ قوَّةُ شَهْوةٍ ولم تَكْفِهِ واحدَةٌ فطلَبَ من أبيهِ أن يُزَوِّجه ثانِيَةً مع التي مَعَهُ؛ وجَبَ أن يُزَوِّجه الثالثَةَ، وكذلكَ الرابِعَةُ.

على كلِّ حالٍ، المهِمُّ أن نَعْلَمَ أن تَزْويجَ الأبِ لأبنائِهِ الذينِ لا يستَطِيعونَ واجبٌ سوف يُعاقَبُ عليه، ويحاسَبُ عليه يومَ القِيامَةِ.

ولاحِظوا أن هذا حَقُّ آدَمِيٍّ، يعني كون الأبِ يمْتَنِعُ من تَزْوِيجِ ابنِهِ وهو غَنِيٌّ، والابنُ فَقِيرٌ هذا حقُّ آدَمِيٍّ، وحقوقُ الآدَمِيِّينَ يقولُ العلماءُ: لا بُدَّ مِن العُقوبَةِ عليهَا، وعلى هذا فسيعاقَبُ الأبُ على مَنْعِ إعطاءِ الأبناءِ ما يتَزَوَّجُونَ بِهِ.

وإذا أعْطَى الأبُ ابنَهُ الذي احتاجَ إلى الزَّواجِ مَهْرًا قَدْرُهُ خمسونَ ألْفًا لكِنْ له أبناءٌ صغارٌ لم يَبْلُغوا سِنَّ الزواجِ، فلا يجِبُ عليه أن يُعْطِيَهُم مثْلَهُ، ولا يجوز أيضًا، لقولِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**اتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ**»[1]، ولو أعْطَيْنَا الصغيرَ الَّذِي لم يَبْلُغْ سِنَّ الزَّواجِ لم نَعْدِلْ بين الأولادِ؛ لأننا إنما زَوَّجْنَا الأوَّلَ لحاجَتِهِ.

وعلى هذا فلا يجوزُ أن نُعْطِيَ الآخرينَ مثلَما أُعْطِيَ هذَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الإشهاد في الهبة، رقم (٢٥٨٧).

فلو قال قائل: هل يجـوزُ أن يُوصِيَ الأبُ بشَيءٍ مِنْ مالِهِ بعدَ موته يُعْطَى مَن لم يبْلُغوا سِنَّ الزَّواجِ في حياتِهِمْ بقدْرِ ما أَعْطَى الأوَّلَ؟

قلنا: لا يجوزُ.

فلو قالَ: أنَا أعْطَيْتُ الابنَ الَّذِي تَزَوَّجَ خمسينَ ألفًا وكَتَبَ في وَصِيَّتِهِ: يُعْطَى ابني الثاني خَمْسينَ ألفًا، والثالث خَمْسينَ ألفًا من التَّرِكَةِ.

قلنا: هذا حَرامٌ لا يجوزُ؛ لأن هؤلاء الأبناءَ إن بَلَغُوا سِنَّ الزواجِ في حياتِهِ وجَبَ أن يُزَوِّجَهم، وإن لم يَبْلُغُوا سِنَّ الزَّواجِ في حياتِهِمْ، فليس لهم إلا ما قَدَّرَ الله لهم مِنَ المِيراثِ.

ولو هناك إنسانٌ له أبناء واحِدٌ طويلٌ جدًّا طولُه مِتران، والثاني قَصِيرٌ جِدًّا طوله متر، وثوبُ الأوَّلِ بمئة، وثوبُ الثاني بخَمسينَ، فلا يجوزُ إذا كسَا الثَّانِيَ ثَوْبًا بخمسين أن يُعْطِيَهُ الفرْقَ بينه وبين ثوبِ أخيهِ خمسينَ، وهذه مثلُ مسألةِ الزَّواجِ تمامًا، فالعدلُ أن يُعْطَى كُلُّ واحِدٍ ما يحتاجُهُ.

هنا سؤال: هل يجوز للإنسان أن يُعْطِيَ زكاتَهُ أحَدًا مِنْ أقارِبِه إذا كانَ فَقِيرًا أو مِسْكِينًا؟

الجواب: يجوزُ، بل إعطاءُ الأقارِبِ أَوْلَى، بشَرْطِ ألا يكونَ صاحِبُ الزكاةِ تجِبُ عليه نَفَقَةُ هؤلاءِ، فإن وَجَبَتْ عليه نَفَقَةُ هؤلاءِ، فإنه لا يجوزُ أنْ يُعْطِيَهُم مِنَ الزكاةِ؛ لأنه لو أعطاهُمْ وفَّرَ مالَهُ.

فمثلًا: عندنَا أخوانِ شَقِيقانِ؛ أحدُهُما فَقِيرٌ والثانِي غَنِيٌّ، فلا يجوز للغَنِـيِّ أن

يعْطِيَ أخاهُ من زكاتِهِ؛ لأن أخاهُ الفقيرَ لو ماتَ لَوَرِثَهُ الغَنِيُّ، وإذا كان الإنسانُ يَرِثُ الفقيرَ وجَبَ عليه الإنفاقُ عليهِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٢٣٤].

كذلك: أخوانِ شَقِيقانِ أحدُهُما فقيرٌ والثاني غَنِيٌّ، فلا يجوزُ للغَنِيِّ أن يُعْطِيَ زكاتَهُ الفقيرَ؛ لأنه إذا أعطَاهُ وفَّرَ مالَهُ، فمثلًا إذا كان هذا الفَقِيرُ يكْفِيه للإنفاق عشَرَةُ آلاف، فأعطاهُ الغَنِـيُّ عشرةَ آلافٍ مِنَ الزكاة، فالآن اغتَنَـى الفقيرُ، فلا يحتاجُ إلى إنفاقٍ، فيكون هذا الذي أعطَاهُ الزكاةَ قد وفَّر مالَهُ مِن زكاتِهِ، وهذا حرامٌ.

ولو كان هناك أخوانِ شَقِيقانِ، للفَقـيرِ منْهُما أبناءٌ، فيجوزُ للغَنِـيِّ أن يعْطِيَ أخاهُ الفقـيرَ من زَكاتِهِ؛ لأن الغَنِـيَّ في هذه الصورةِ لا يَرِثُ الفقِـيرَ، فلا يجِبُ عليه إنفاقُهُ.

كذلك: القَرِيبُ الفَقِيرُ الَّذِي لا يجِـبُ عليكَ إنْفاقُهُ يجـوزُ لَكَ أن تُعْطِيَهُ من زكاتِكَ، بل إعطاؤهُ أفضَلُ من إعطاءِ من ليس بقريب لكَ.

ولو كان هناكَ أبٌ أمـورُهُ ماشية، وله ابنٌ غَنِـيٌّ، وحصَلَ للأب حادِثٌ، واحتاجَ إلى المالِ؛ فإنه يجوزُ لابنِهِ أن يُؤَدِّيَ زكاتَهُ في هذا الحادِثِ، فيجوزُ أن يَقْضِيَ غُرمَ الحادثِ عن أبيهِ؛ لأنَّ الابنَ لا يَلْزَمُهُ أن يضْمَنَ غُرمَ الحادثِ عنْ أبيهِ، بخلاف النَّفَقَةِ، فالإنفاقُ على الأبِ واجِبٌ، لكن تَحمُّل ما لَزِمَهُ بالحادثِ غيرُ واجِبٍ على الابنِ.

وعلى هذا فنقول: يجوزُ للابنِ في هذا الحالِ أن يَقْضِيَ غُرْمِ أبيهِ في هذَا الحادث، وكذلك العَكْسُ، فالضابِطُ هو: إذا كانَ يجِبُ عليكَ الإنفاقُ على هَذَا الفَقِيرِ، أو قَضاءُ الدَّيْنِ عنْه، فلا تُؤَدِّي زكاتَكَ إليهِ، وإذا كانَ لا يَجِبُ، فالقَرِيبُ أولى مِنَ البَعِيدِ.

ولو كان هناكَ امـرأة عنْدَها حُلِيٌّ تريدُ أن تُزَكِّيَهُ، وزَوْجُها فَقـيرٌ، فيجوزُ أن تُعْطِيَ زكَاتَها لزَوْجِهَا، ما دامَ من أهلِ الزَّكاةِ، والدَّليلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ﴾، وهذا الزَّوْجُ فَقِيرٌ، فمَنْ أخرَجَ الزَّوجَ الفَقِيرَ من عُمومِ الآيَةِ فعليهِ الدَّليلُ.

فإذا قالَ قائلٌ: إذا أعْطَتْهُ من الزكاةِ فسوفَ يُنْفِـقُ عليهَا. نقول: لا يَضُرُّ، كما لو أعْطَيْتَ فِطْرَتَكَ فقيرًا ثم دعَاكَ إلى بيتِهِ، وصنعَ لكَ طعامًا من هذِه الفِطْرَةِ، فيجوزُ أن تأكُلَ، ولا يَضُرُّ ذلِكَ.

الغارِمُونَ: الغارِمُ مَن لَزِمَهُ دَينٌ، ولا يستطيعُ وَفَاءَهُ، فيَقْضِي دَينَهُ مِنَ الزكاةِ، ولكن هَلْ تُعْطِي هذا الغارِمَ ليَقْضِيَ الدَّينَ، أو تَذْهَبُ إلى الدَّائنِ فتُعْطِيه الدَّينَ؟ هذا رجلٌ عليه ألْفُ ريالٍ هل تُعْطِيهِ ألفًا وتقول: يا فُلانُ اقْضِ دَينَكَ بالألف. أو تَذْهَبُ إلى الذي يطْلُبُه وتقولُ: يا فلانُ، هذِه ألفُ ريالٍ عن الَّذِي لكَ على زَيْدٍ؟

نقول: في ذلك تَفْصِيلٌ: إن كانَ الغارِمُ الذي عليه الدَّيْنُ شخْصًا يُحِبُّ إبراءَ ذِمَّتِهِ، ويعلَمُ أننا إذا أعْطَيْنَاهُ هذِهِ الدرَاهِمَ ليُوَفِّيَ بها فسوفَ يذْهَبُ ويوفِّي بِهَا، فهنَا الأَوْلى أن نُعْطِيَهُ بيدِهِ، ونقول: يا فُلانُ، خُذْ هذا أوفِ ما عليـكَ؛ لأن هذا أطْيَبُ لقلبِهِ، ولأن هذا أبعدُ مِنْ خَجَلِهِ.

أما إذا عَلِمْنَا أن هذا الغارِمَ لو أعطَيْنَاهُ لِيَقْضِيَ دَينَهُ أفسدَ المالَ، وصَرَفَه فيما لا ينفعُ، وتركَ ذِمَّتَهُ مشغُولَةً، فهُنَا نذهَبُ إلى صاحبِ الدَّيْنِ ونقول: يا فلانُ، أنت تَطْلُبُ من فلانٍ ألفَ ريالٍ، وهذِهِ ألفُ ريالٍ، فتكون قد أَوْفَيْتَ عنه، وأَعْلِمْهُ وقل: يا فلانُ، الطَّلَبُ الَّذِي عليكَ قَدْ أَوْفَيْنَاهُ؛ حتـى لا يُطَالِبَهُ صاحِبُ الدَّينِ مَـرَّةً ثانية إما نِسْيانًا وإمَّا عُدْوانًا.

مسألة: رجلٌ عليه زَكَاةٌ قَدْرُها ألفُ ريالٍ، وله غارِمٌ فَقِيرٌ بدَينٍ قَدْرُهُ ألفُ ريالٍ، فهل يجوزُ أن يقولَ لهذا الفَقيرِ: أبْرَأْتُكَ مِن دَينِكَ، ويكون هذا من زكاتِكَ؟

الجواب: لا يجوزُ أن تُسْقِطَ عن الفَقيرِ شَيئًا مِنْ دَينِهِ وتَعْتَبِره مِنَ الزكاةِ؛ لأن الدَّيْنَ في الذِّمَّةِ ليس كالمالِ الَّذِي بيدِكَ، فالدَّينُ الذي في الذِّمَّةِ كالمُيؤوسِ منْه، والمالُ الذي في يَدِكَ هو في يَدِكَ تَتَصَرَّفُ فيه كما شِئتَ.

ولهذا نذكرُ قاعدةً: لا يجوزُ إبراءُ المُعْسِرِ مِنَ الدَّيْنِ الذي عليه بِنيَّةِ الزَّكاةِ.

ولو أن رجُلًا مَنَعَ الزكاةَ تهاوُنًا حتَّى ماتَ فهَلْ نقولُ: إنَّهُ ماتَ علَى الكُفْرِ؟

الجواب: لا نقول: إنَّه ماتَ على الكُفْرِ؛ لأن حديثَ أبي هريرَةَ الذي سُقْناهُ أوَّلًا فيه: «**فَيَرَى سَبيلَهُ، إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**» يدُلُّ على أنه لا يَكْفُرُ؛ لأنه لو كَفَرَ لم يكن له سَبِيلٌ إلى الجنَّةِ، ولكن لو أن الوَرَثَةَ أخْرَجُوا الزكاةَ التي عَليهِ، يَعْنِي: عَرَفُوا أن هذَا الرَّجُلَ لا يُزَكِّي وقَدَّرُوا الزكاةَ بأربعينَ ألفًا، وأخْرَجُوها عن الميِّتِ فهل تَبرأُ بذَلِكَ ذِمَّتُهُ؟

يقولُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّها لا تَبْرَأُ ذِمَّتُهُ، وسيُعَذَّبُ؛ لأنَّ الرجُلَ ماتَ وهو لا يُزَكِّي، فيُعَذَّبُ على ذلِكَ، والذي أخْرَجَ الزكاةَ بعد موتِهِ هم الورَثَةُ، أما هو فلم يُرِدْ أن يتَعَبَّدَ لله بإخْراجِهَا، فلا تُجْزِئُ عنه.

وهذه نقطَةٌ يجِبُ أن تكونَ كالخِنْجَرِ في الصَّدْرِ بالنسبةِ للذين يمْنَعونَ الزكاةَ، فلا يَقُلْ: مالُ الزكاةِ إذا مِتُّ أخْرَجَه الورَثَةُ. فهذا لا ينْفَعُه عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه ماتَ وهو لا يُريدُ إخْراجَهَا.

ولكن هل يَلْزَمُ الورَثَةَ إخْراجُها لأنها حَقٌّ للغَيرِ؟

الجواب: الظاهر نَعَمْ يلْزَمُهم إخْراجُها؛ لأنَّها حقٌّ للغيرِ، ويَحْتَمِلُ ألَّا يَلْزَمَهم إخْراجُها، يقولون: هذا الرجُلُ قد باءَ بإِثْمِهَا، ولَا علينا بِهَا، نحنُ لنا الغُنْمُ وعليهِ الغُرمُ.

وهذه المسألةُ يجِبُ أن يَنْتَبِهَ لها أهلُ الأموالِ؛ أنَّهم إذا مَنَعوُا الزكاة وماتُوا ثم أخْرَجَهَا الورَثَةُ من بعدِهِمْ، فإنها لا تبرأُ بذلِكَ ذِمَمُهُمْ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الثالث:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نَبيِّنا مُحَمَّدٍ، خَاتِمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أَجْمعين، **أمَّا بعدُ:**

فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:٦٤].

(يَحْذَرُ) أي: يَخَافُ، ويكونُ على حَذَرٍ. و(المنافقون) هم فِئَةٌ خَرَجَتْ حِينَ انْتَصَرَ المسلمون في غَزْوة بَدْرٍ، التي سَمَّاها اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يَوْمَ الفُرْقانِ، وكانتْ هذه الغَزْوةُ في رَمَضانَ في السَّنَةِ الثانيةِ من الهِجْرةِ، وهذهِ الغَزْوةُ المُباركةُ انتصَرَ فيها المُسْلِمُونَ انتصارًا بَاهِرًا، وقُتِلَ فيها من كُبراءِ قُرَيشٍ وصَنَادِيدِهم ما أَذَلَّ اللهُ به قُرَيشًا.

وإنَّني بهذه المُناسبةِ أَوَدُّ من أخواني المسلمين أن يكونوا على صِلةٍ بحياةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وغزواتِه وتاريخِه؛ حتى يَزْدادَ بذلك إيمانُهم، وتَزْدادَ بذلك مَحبَّتُهم للرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ.

وإنه لَيُؤْسِفُنِي أنْ يَكونَ كَثِيرٌ مِن المسلمين لا يَعْرِفون عن حياةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ إلا النَّذْرَ القليلَ، أو ما يَتعَلَّقُ بعباداتِهم إن أدركوا ذلك، مع أنَّ مَعْرِفةَ غَزَواتِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ تُكْسِبُ الإنسانَ تَخَلُّقًا بأخلاقِ النبيِّ ﷺ التي قالَ اللهُ عنها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

لما انتصَرَ المسلمون في هذهِ الغَزْوةِ المباركةِ -غَزْوةِ بَدْرٍ- ظَهَرَ المُنافقون، وهم فِئةٌ ثالثةٌ؛ لأنَّ الناسَ ثَلاثُ فِئَاتٍ: فئةُ المؤمنين الخُلَّص، وفئةُ الكافرين الخُلَّص، وفئةُ المنافقين.

وهذه الفئاتُ ذكرَها اللهُ تعالى في أَوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ، فبَدَأَ بالمؤمنين الخُلَّص، ثم بالكافرين الخُلَّص، ثم بالمنافقين، وصار الكلامُ في المنافقين بعدَ الكلامِ في المؤمنين والكافرين؛ لطولِ الكلامِ عليهم؛ لأن المنافقين يحتاجُ الإنسانُ أن يَعْرِفَهم تمامًا من أجلِ أنْ يَحْذَرَهم، ويَخافَ منهم.

أَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ سُورةً كاملةً في المنافقين، قالَ فيها: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤]، وجملةُ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ جملةٌ اسميةٌ مُرَكَّبةٌ من مُبْتدأٍ وخَبَرٍ، طَرَفاها مَعْرِفتانِ، ومثلُ هذا يُعَدُّ حَصْرًا، كأنه قال: لا عَدُوَّ لكم أيها المؤمنون إلا المُنافقون. وصَدَقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّ المنافق أَعْدَى من الكافرِ الخَالِصِ، فالكافرُ الخَالِصُ الذي يُعْلِنُ أنه كَافِرٌ تَعْرِفُه، ولا تَغْتَرُّ به، ولكنَّ البلاءَ كلَّ البلاءِ فيمَن يقولُ: إنه معكَ، وهو عليكَ، وهم المنافقون.

ولهذا قالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]، هذا الكلامُ بظاهِرِه إسلامٌ، يقولون: نَشْهَدُ إنك لَرسولُ اللهِ. ويُؤكِّدون هذا بثلاثةِ مُؤَكِّدات: بالشَّهادةِ، وبـ(إِنَّ)، وباللامِ. ولكنِ اسْمَع إلى رَدِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عليهم: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾. سواءٌ بسواءٍ، عَدْلٌ بعَدْلٍ؛ يَشْهَدُ إنَّ المنافقين لكاذبون. جملةٌ مُؤَكَّدة بثلاثة مُؤَكِّدات: الشَّهادةِ وإنَّ واللامِ.

ثم ذكَرَ أحوالَهم، ومن جُملةِ ذلكَ قولُه: ﴿۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾، إذا رأيتَ المنافق أَعْجَبَكَ جِسْمُه وهَيْئَتُه، وتقولُ: هذا الرجلُ المُخْلِصُ المؤمنُ؛ لأنَّ سِيماه سِيما المؤمن، فيُعْجِبُك بظاهِرِه. ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾؛

لأن لديهم بيانًا وفصاحةً، حتـى يكادوا أن يَقْلِبـوا الباطلَ حقًّا، والحـقَّ بَاطِلًا؛ بما عندَهم من الفصاحةِ.

﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾ تسمع لهم؛ لأنه قَـوْلٌ فَصِيحٌ، إذا سَمِعَه الإنسانُ قال: هذا المُؤْمِنُ حقًّا، لكن ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ﴾، والخُشُبُ المُسَنَّدة لا خَيْرَ فيها؛ لأنها ليسـتْ قائمةً بنفسِها، إنما هي مُسَنَّدة، ولولا الجِـدارُ الذي أُسْنِدَت إليه ما استقامتْ.

ووصَفَهم بالخُشُبِ؛ لأنَّ الخُشُبَ صُلْبَةٌ لا يَدْخُلها شيءٌ؛ ولذلك يقولُ الناسُ حتى اليوم: فُلانٌ خَشَبة. أي: ما يَفْقَه، ولا يَفْهَم، ويَعْتَمِدُ على غَيْرِه.

﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: يَظُنون أنَّ كلَّ صيحةٍ -أي محاربتهم- عليهم؛ لأنهم أَذِلَّاءُ خائفون، يخافون أن يُفْضَحوا، ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾. ولهذا فضَحَهم اللهُ تعالى في سُورةِ التَّوبةِ فَضِيحةً يَكادُ القَارِئُ يَعْرِفُهم بأعيانِهم من فَضِيحَتِهم.

وقد سَمَّـى بعضُ السَّلَف سُورةَ التـوبةِ بسُورةِ الفاضحةِ؛ لأنها فَضَحَت المنافقين تمامًا، ومن ذلكَ الآيةُ التي بينَ أيدينا: ﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾. والسـورةُ تَنْزِلُ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ، العَالِمِ بما في القلوبِ، العَالم بالخَفِيَّاتِ، الذي لا يَخْفَى عليه شَيْءٌ في الأرضِ، ولا في السماءِ.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴾، مهما أَخْفَيْتُم، ومهما أَسْرَرْتُم بما عندَكم من الكُفرِ، فاللهُ تعالى مُخْرِجُه ومُبَيِّنُه ويَفْضَحُكم به.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة:٦٥]

قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ جاءَ في الآثارِ أنهم كانوا يَتحدَّثون فيما بَيْنَهم فيقولونَ: ما رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنا هؤلاء -ويَعْنونَ بذلك النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وأصحابَه- أرْغَبَ بُطُونًا -أي: أَكْثَرَ أَكْلًا- ولا أَكْذَبَ أَلْسُنًا -أي أنَّهم يَكْذِبونَ كَثِيرًا- ولا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ[1]. فوَصَفُوهم بهذه بهذه الأُمورِ الثلاثةِ: كثرةِ الأَكْلِ، وكَذِبِ الأَلْسنةِ، والجُبْنِ عندَ اللِّقاءِ.

وواللهِ إن هذه الأوصافَ لَتَنْطَبِقُ تمامًا على المنافقين، فهم كما قالَ المَثَلُ: رَمَتْنِي بدَائِهَا وَانْسَلَّتْ[2]. فهذا يَنْطَبِقُ تمامًا على المنافقين.

وكانوا يقولون: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧] ويقولون: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨].

وقولُهم: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ (حتى) هنا للتعليلِ، وليستْ للغايةِ، والمعنى: لا تُنْفِقوا عليهم كي يَنْفَضُّوا عن رسولِ الله ﷺ. والذي نفسي بيَدِه لن يَنْفَضَّ أصحابُ الرسولِ عنه، حتى وَلَوْ ماتوا دُونَه. وهذا ما كانَ.

فعندَما جاء مَندوبُ قُريشٍ في صُلحِ الحُدَيْبيةِ وقال: أَرَى حولَك أَوْباشًا يُوشِكُ أن يَنْصرِفُوا عنكَ. قال له أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: امْصُصْ بَظْرَ اللَّاتِ، أنحن نَفِرُّ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٩، رقم ١٠٠٤٤)، والطبري (١٤/ ٣٣٣).
(٢) انظر جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (١/ ٤٧٥).

عنه ونَتْرُكُهُ؟[1] واللات: صَنَمٌ لقُريشٍ، وبَظْرُها: فَرْجُها، يَسْتهزِئُ به ويَسْخَرُ. وهكذا الشجاعةُ، أَيَتْرُكونَ رسولَ اللهِ ﷺ ويَفِرُّون؟ وهكذا نحن -إنْ شاءَ اللهُ- لنْ نَتْرُكَ سُنَّةَ رسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ونسألُ اللهَ أن يُثَبِّتَنا عليها.

ثم أتى الخَبَرُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أنهم كانوا يقولون هذا الكلامَ: ما رأينا مثل قُـرَّائِنا هؤلاء أَرْغَبَ بُطونًا ولا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، ولا أَجْبَنَ عندَ اللقاءِ. ويقولونَ: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾. ويقولون: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾. قالوا كلَّ هذا وهم يَظُنون أن الأمرَ لن يَصِلَ إلى رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، ولم يعلموا أنَّ عَالِمَ السِّرِّ والعلانيةِ رَبَّ العالمين يَعْلَمُ، وسيُنَزِّلُ فيهم ما يَفْضَحُهم.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ أي: كنا نَسْتهزِئُ ونَسْخَرُ على وجهِ الخَوْضِ، حتى نَقْطَعَ عنا الطَّريقَ؛ لأنَّ الناسَ فيما سَبَقَ يُسافرون على الإبلِ، وعلى الأَرْجُلِ، فيقولون: نتَحَدَّثُ هذا الحديثَ حتى نَنْسَى مَشَقَّةَ الطريقِ، ويَنْقطِعَ عنا الطريقُ بسُرعةٍ.

فقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: أَتَسْتهزئونَ باللهِ وآياتِه ورسولِه؟! وهذا الاستفهامُ للإنكارِ والتَّوبيخِ، أي: لو اسْتَهْزأتَ بأيِّ شيءٍ ما كانَ لكَ أنْ تَسْتهزِئَ باللهِ وآياتِه ورسولِه.

قال تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة:٦٦].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الكتاب رقم (٢٧٣١).

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ وتقولوا: إن هذا خَوْضٌ ولَعِبٌ، وإننا نَتَحَدَّثُ حديثَ الرَّكْبِ لنَقْطَعَ به عنا الطَّرِيقَ، ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بأنْ يَمُنَّ اللهُ عليهم بالإيمانِ الحقِّ، ويعفوَ عمّا وقَعَ منهم، ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

من فوائدِ الآياتِ:

الفائدة الأولى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلَمُ ما يُخْفي العبدُ، ويعلم أيَّ شيءٍ يَعْمَلُه، فلو عَمِلتَ شيئًا في حُجْرةٍ مُغْلقةٍ فسَوْفَ يَعْلَمُه اللهُ، واسْمَعْ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق:١٦] أي: ما تُفكِّرُ فيه في صَدْرِكَ يَعْلَمُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

الفائدةُ الثانيةُ: شِدَّةُ خَوفِ المنافقين؛ لقولِه: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، ولقد ضَرَبَ اللهُ لهم مَثَلًا في البقرةِ فقال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة:١٩]، فهم لا يَتحمَّلون ويخافون، بل أَشَدُّ الناسِ خوفًا من الفضيحةِ هو المُنافِقُ، ولذلك يُنافِقُ، فتَجِدُه يُظْهِرُ أنه مُسلِمٌ، وهو كافرٌ، وأنه صادق وهو كَاذِبٌ، وأنه أَمِينٌ وهو خَائِنٌ، وأنه وَفِيٌّ بالعهدِ وهو غَادِرٌ.

الفائدةُ الثالثةُ: تَهديدُ هؤلاءِ المنافقين؛ لقولِه: ﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾، أي: مهما أَخْفَيْتُم فسَيُظْهِرُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ. نَعوذُ باللهِ من الفَضيحةِ!

الفائدةُ الرابعةُ: أنَّ هؤلاء يَدَّعونَ أنهم يَتكلَّمون في عِرْضِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه

وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وأصحابِه على وَجْهِ الخَوْضِ واللَّعِبِ، لا على وَجْهِ الاعتقادِ، ولكنهم والله كاذبون، إنما يقولون هذا اعتقادًا منهم.

الفائدةُ الخامسةُ: أن المنافق يَسْخَرُ من أهلِ الدِّينِ، واسمع قولَهم: ما رأينا مِثْلَ قُرَّائِنا هؤلاء. والقَارِئُ غيرُ الفَقِيهِ، ويُشبِهُ هذا ما يَقولُه بعضُ الناسِ اليومَ في أهلِ العِلْمِ وطَلَبَةِ العِلْمِ: هؤلاء المُطوّعة. يقولون هذا تحقيرًا لهم، فهؤلاء حَقَّروا النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وقالوا: إنهم قُرَّاء؛ أي: لا يعرفون إلا القِراءةَ فَقَـط، وليسَ عندَهم عِلْمٌ، ولكنهم واللهِ كاذبون فيما قالوا، بل القُرَّاء فُقهاءُ.

واعلَمْ أنَّ القارئ غيرُ الفَقيهِ، وأنَّ الفقيهَ غَيْرُ القارئ، فالقارئُ هو الذي يَحْفَظُ النُّصوصَ، لكن لا يَعْرِفُ معناها، أو يَعْرِفُ معناها ولكن لا يُطَبِّقُها.

وما أكْثَرَ الذين يَعرِفـونَ النصوصَ ولا يُطَبِّـقونها، وما أكثرَ الذين يَقْرَءُونها ولا يَفْقُهونَها.

ولهذا نقول: احْذَروا أن تكونوا من هؤلاءِ الذين يَقرءونَ ولا يَفْقهونَ، فتَجِدُ الإنسانَ قارئًا حافظًا لأحاديثَ كثيرةٍ، ولكنه ليسَ بفَقيهٍ، كما جاءَ في الحديثِ: «**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**»[1].

وقالَ ابنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ بِكُم إِذَا كَثُرَ قُرَّاؤُكُمْ وَقَلَّ فُقَهاؤُكُمْ[2].

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، رقم (٣٦٦٠)، والترمذي، أبواب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، رقم (٢٦٥٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم (١/ ١٣٦)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٥٢، رقم ٣٧١٥٦)، والشاشي (٢/ ٩٠، رقم ٦١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٦١، رقم ٦٩٥١).

وما أكثر هؤلاء اليوم الذين يَقْرءونَ ولا يَفْقهونَ، والعِلْمُ يَحْتاجُ إلى عِلْمٍ وفَهْمٍ وعَقْلٍ وتَرْبيةٍ. فأنت إذا ملأتَ رأسَ الطالبِ عِلْمًا دونَ فَهْمٍ فلن يَستفِيدَ شيئًا، ولو مَلأْتَه عِلْمًا وفَهْمًا دونَ تَرْبيةٍ فلن يَستفِيدَ أيضًا، فعليكم -يا طلبةَ العلم- بتربيةِ الخَلْقِ التربية النافعة على مُقْتضى عُلومِكم، وعليكم أن تَضعوا العِلْمَ في مَوضِعِه، وعليكم أن تَنْظروا ماذا يَترَتَّبُ على العِلْمِ، فقد يَتَرَتَّبُ شيءٌ تظنونه مَصْلَحةً، وهو مَفْسدةٌ عظيمةٌ.

انظروا إلى أميرِ المؤمنين عُمر بنِ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كيف ساسَ الرَّعِيَّةَ بالحِكْمةِ، كانَ الطلاقُ الثلاثُ في عهدِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وعهدِ أبي بَكْرٍ وسنتين من خِلافة عُمر واحدةً. أي أنَّ الرجل إذا قال لزَوْجَتِه: أنتِ طَالِقٌ، أنتِ طَالِقٌ، أنتِ طَالِقٌ. فإنها تُحْسَبُ واحدةً في العهودِ الثلاثةِ: في عهدين تامَّين، وفي بعضِ الثالثِ؛ في عهدِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وأبي بكر، وسنتين من خِلافة عُمر.

وكان ذلك سواء أراد الزوجُ التوكيد، أو أراد التأسيس، وحتى لو أراد التأسيس، وأراد بالطلقةِ الثانيةِ غيرَ الأولى، وبالثالثةِ غيرَ الثانيةِ، فهي واحدةٌ؛ لأنه لا مَعْنى لكونِك تُطَلِّقُ المُطَلَّقَة، فهي إذ قلت: أنتِ طَالِقٌ. صارتَ مُطَلَّقةً، فكيف تُوقِعُ عليها الطلقةَ الثانيةَ؟ وأيضًا إذا طَلَّقْتَ الثانيةَ فقد طَلَّقْتَها لغيرِ عِدَّتِها، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١].

ولكن هذه الصيغة -أي قول الإنسان لزوجته: أنتِ طالقٌ، أنتِ طالقٌ، أنتِ طالقٌ- مُحَرَّمَةٌ على الإنسانِ أن يَقُولَها. حتى إنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ

قال لرَجُلٍ قال ذلكَ: «أَيُلْعَبُ بِكِتَابِ اللهِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ»[١]. حتى اسْتُؤْذِنَ النبيُّ ﷺ في قَتْلِ هذا الرَّجُلِ، مما يَدُلُّ على شِدَّةِ التَّحْرِيمِ في قولِ الإنسانِ لامرأتِه: أنتِ طَالِقٌ، أنتِ طالقٌ، أنتِ طالقٌ. فلماذا يَستعجِلُ الإنسانُ شيئًا جعَلَ اللهُ له فيه سَعَةً.

فلما كَثُرَ الطلاقُ الثلاثُ في عهدِ عُمر، وكانَ من سِياستِه الحكيمةِ أنْ يَسْلُكَ كلَّ طَرِيقٍ يَكونُ فيه رَدْعُ الناسِ، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَرَى النَّاسَ قَدِ اسْتَعْجَلُوا في أَمْرٍ كَانَتْ لَهم فيهِ أَنَاةٌ -يعني تُؤَدَةً وسَعَةً- فلو أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ. فأمضاه عليهم[٢].

ويُرِيدُ بالاستعجالِ: أن يَقولَ الإنسانُ لزَوجتِه: أنتِ طَالِقٌ. فقد طُلِّقت واحدةً، فإذا قالَ بعدَ مُدَّةٍ: أنتِ طَالِقٌ. فقد طُلِّقتِ الثانيةَ، فإذا قالَ بعدَ مُدَّةٍ: أنتِ طَالِقٌ. فقد طُلِّقَتِ الثَّالثةَ. فكانَ لهم في ذلك سَعَةٌ؛ لأنه ربما يَنْدَمُ في الطلقةِ الأولى، ويُبْقِي الزَّوجةَ.

يقولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَرَى النَّاسَ قَدِ اسْتَعْجَلُوا في أَمْرٍ كَانَتْ لَهم فيهِ أَنَاةٌ -يعني تُؤَدَةً وسَعَةً- فلو أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ. فأمضاه عليهم.

فكان الرجل إذا قال لزوجتِه: أنتِ طالقٌ، أنتِ طالقٌ، أنتِ طالقٌ. لا يَرُدُّها عليه، بل يَمْنَعُه من استرجاعِها، يُخَوِّفُه بذلك كي لا يَعودَ لهذا الأمرِ مِن تَكْرارِ الطلاقِ؛ لأنَّ الرجل إذا عَرَفَ أنه إذا قال لزوجتِه: أنتِ طالقٌ، أنتِ طالقٌ، أنتِ طالقٌ. مُنِعَ من الرُّجوعِ إليها، فما عادَ إلى الطلاقِ ثَلاثًا أبدًا. فقَلَّ الطلاقُ الثلاثُ بِناءً على أنَّ عُمَرَ أمْضاهُ.

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الطلاق، باب الثلاث المجموعة وما فيه من التغليظ، رقم (٣٤٠١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث، رقم (١٤٧٢).

ولو قال قائلٌ: كيفَ يَمْنَعُ عُمَرُ صَاحِبَ الحقِّ مِن الأَخْذِ بحَقِّه؟

قلنا: مَنَعَه تربيةً للناسِ، حتى لا يَعودَ لمثلِ هذا، وقد حَدَثَ هذا فعلًا.

وفي وَقْتِنا الحاضرِ -مع الأسفِ الشديدِ- بدَأَ الناسُ يَتَوَسَّعونَ في هذه المسألةِ، ويأتي الرَّجُلُ لبَيْتِهِ، ويقولُ لزوجتِه: هل أَعْدَدْتِ الشَّايَ؟ فتقولُ: وَضَعْتُ الماءَ على النارِ، وسوف يَكونُ مُعَدًّا بعدَ قليلٍ. فيقول: إذن لم تفعلي، أنتِ طالقٌ ثلاثًا! وهكذا يُطَلِّقُ لهذا السببِ التافِهِ، مع أنَّ الشايَ سوف يُقَدَّمُ له بعد قليلٍ، فهل مثلُ هذا الرجلِ يُرْحَمُ، ونَجْعَلُ طلاقَه هذا واحدًا فقط؟!

يَجِبُ على طُلَّابِ العِلْمِ أن يُلاحِظُوا هذه المسألةَ، ولو كان الناسُ لا يقعون في هذا النوعِ من الطلاقِ إلا مَرَّةً أو مرتين أو ثلاثًا لأَفْتَيْنَا بأَنَّ الطلاقَ ثلاثًا هو واحدٌ، لكن إذا تكاثر الناسُ، وتساهلوا في أمرِ الطلاقِ الثلاثِ لأَدْنَى سببٍ، فيَنْبَغِي أنْ تَتَّفِقَ الكلمةُ والفُتْيا على أن يُمْنَعَ هذا الرجلُ من الرجوعِ إلى زوجته، وإذا كانَ لا بُدَّ وجَبَ على المفتي أن يَشُقَّ عليه، فلا يُعْطِيهِ جوابَ المسألةِ من أولِ مَرَّةٍ على وَجْهٍ سَهْلٍ؛ فيأتي الرجل هكذا بسُهولةٍ فيقولُ: طَلَّقْتُ امرأتي ثلاثًا مَرَّةً واحدةً، فيقولُ المفتي: الطلاقُ الثلاثُ واحدٌ. وينتهي الأمرُ. بل يَتْرُكُ المُسْتَفْتِي حتى يَرَى نُجومَ الضُّحَى كما يَقولُ العَوَامُّ. ويُضْرَبُ المَثَلُ بنُجومِ الضُّحَى لاستحالةِ رُؤْيتِها في الضحى، ولكنْ مبالغةً في تعظيمِ المسألةِ، وبيانِ شِدَّتِها وخَطَرِها؛ حتى لا يَعودَ الإنسانُ مَرَّةً أخرى.

على كلِّ حالٍ هذه مسألةٌ تحتاجُ إلى بَحْثٍ طويلٍ، ولكني أَرَدْتُ من طَلَبةِ العلمِ أن يُراعوا أَمْرَ تربيةِ الناسِ على الوَجْهِ الذي يُرْضِي اللهَ ورَسُولَه.

الفائدةُ السادسة: في هـذا دَلِيلٌ على أنَّ المُسْتـهزِئَ باللهِ، أو بآيـاتِ اللهِ، أو برَسُولِ اللهِ كَافِرٌ، وأنه لا يُقْبَلُ منه الرُّجوعُ؛ لأنه مُستهزِئٌ. فلو فَـرَضْنا أنَّ إنسانًا يَسْتـهزِئ مازحًا باللهِ عَزَّوَجَلَّ أو بآياتِه، أو برسـولِه، وقال: إنَّما قلـتُ هذا مازحًا لا جَادًّا. فنقولُ له: أنتَ كَافِرٌ، حتى لو كُنتَ تَمْزَحُ، ولم تَقْصِدْ الِاستهزاءَ، ولكنك إذا استهزأتَ فأنتَ كافِرٌ، سواءٌ كُنتَ جادًّا أم هازلًا. فإذا قُلْنا بكُفْرِه فهل تُقْبَلُ توبتُه أو لا؟ للعُلماءِ قولانِ:

القولُ الأول: أَنَّ تَوْبَتَه لا تُقْبَلُ، على الأقلِّ لا تُقْبَلُ ظاهرًا، بمعنى أننا نَقْتُلُه، ولو قال: أَشْهَدُ باللهِ أنَّ له الكمالَ المُطْلَقَ لله، وأنَّ آياتِه أكملُ الآياتِ، وأنَّ رسولَه صَادِقٌ، وإنما قلتُ ذلك على سَبيلِ الاستهزاءِ. قلنا: اقْطَع عُنُقَه، ولا تُبالِ، ولو تَابَ. هذا قولُ كثيرٍ من الفقهاءِ، وهو المشهورُ من مَذْهبِ الإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندَ أصحابِه؛ أنَّ السَّابَّ لا تُقْبَلُ توبتُه، بل تُقْطَعُ رَأْسُه، وإنْ كانَ صادقًا في رُجوعِه وتَوْبَتِه، فحَسابُه عندَ اللهِ يومَ القيامةِ، لكن في الدنيا لا بُدَّ أن نَقْتُلَه.

وهذا القولُ يَنْبَغِي أنْ يُؤْخَذَ به في هذا الزمانِ؛ لأنَّ في زَمَانِنا اليومَ وُجِدَ كَثِيرٌ من الناسِ يَسْخَرونَ باللهِ وآياتِه ورسولِه، يَفْعلون ذلك تَصريحًا أو تَلْميحًا، ولا يُمْكِنُ أن يَبْقَى لهؤلاءِ مقامٌ في الدنيا، بل يَجِـبُ أن يُقْتَلوا، حتى لو أعلنوا تَوْبتَهم، ونقولُ للمُستهزِئِ: الحـمدُ للهِ، الآنَ نُزِيلُكَ من الدنيا لنَسْلَمَ منك، ويَتَأَدَّبَ بِكَ غـيرُك، وحسابُك على اللهِ.

وقال بعضُ العلماءِ: إنَّ السابَّ إذا تابَ، تابَ اللهُ عليه؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]، ولقولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في المُنافِقِينَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ

وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦]، ولقولِه تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾.

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ أي بالتَّوْبَةِ، يَتوبون فنَتُوبُ عليهم، ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ لم تَتُبْ، هذا القولُ من حيثُ النَّظَرُ لا شَكَّ أنه أَصَحُّ، وأنَّ المنافق والمُسْتهزِئَ تُقْبَلُ تَوْبتُه، ويُرْفَعُ عنه القَتْلُ. لكن إذا رَأَى وَلِيُّ الأَمْرِ -السلطانُ أو القاضي- أن يُقْتَلَ هذا بكلِّ حالٍ قُتِلَ، وإذا صَحَّتِ تَوْبَتُه رَفَعَ اللهُ عنه العذابَ في الآخرةِ، ولكن في الدنيا لا بُدَّ أن يُقْتَلَ.

واختارَ شَيْخُ الإسلامِ ابن تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولًا وَسطًا جَيِّدًا، قال: أَمَّا مَن سَبَّ الرسولَ فيُقْتَلُ، ولو تَابَ، لكنْ تُقْبَلُ توبتُه، فيُغسَّلُ ويُكَفَّنُ ويُصَلَّى عليه ويُدْفَن معَ الناسِ، ولكنْ يُقْتَلُ. وأَمَّا مَن سَبَّ اللهَ تعالى وتابَ فإنه لا يُقْتَلُ، وتَصِحُّ تَوْبَتُهُ[1].

ولَعَلَّ البعضَ يقول: أَيَكونُ سَبُّ الرسولِ أعظمَ من سَبِّ اللهِ؟

والجوابُ: لا، ليسَ أعْظَمَ، لكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بحُكْمِه ورحمتِه أَخْبَرَ أنه عافٍ عن حَقِّه، إذا تابَ العبدُ إليه وَاتَّبَعَ الحَقَّ. وإن الرسولَ الآن مَيِّت، ونحن نأْخُذُ بالثأرِ لرَسُولِنا صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ ونَقْتُلُ مَن سَبَّه، ونقولُ: تَوْبَتُك مقبولةٌ، نُغَسِّلكَ ونُكَفِّنُكَ ونُصَلِّي عليكَ، ونَدْفِنُكَ مع المُسلِمِينَ.

خِتامًا أُحَذِّرُ الإنسانَ من النِّفاقِ، والنفاقُ مَحَلُّه القَلْبُ؛ لأن المنافق ظَاهِرًا أفعالُه الصِّحَّة، لكنَّ قلبَه خبيثٌ مُنْطوٍ على الكفرِ. وأُحَذِّر إخواني من النفاق العَقَدِيِّ والعَمَلِيِّ.

(١) انظر الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص:٣٠٠-٣١٠).

فأما بالنسبةِ للنِّفاقِ العَقَدِيِّ فنَحْمَدُ اللهَ أنَّ الإنسانَ يَعرِفُ إيمانَه باللهِ عَزَّوَجَلَّ ولكن الخَوْف من النفاقِ العَمَليِّ، والنفاقُ العملي له أمثلةٌ عديدةٌ؛ منها:

الكَذِبُ: فالكذبُ من النِّفاقِ، قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ**...»[1]. فمَن كَـذَبَ في حديثِه فهو على خَصْلةٍ مـن النِّفاقِ، والعياذُ باللهِ، سواءٌ كانَ جادًّا أم هازلًا، حتـى لو كَذَبَ ليُضْحِكَ الناسَ، فإنه دَاخِلٌ في الحـديثِ، وقد جاءَ فيه الوعيدُ الخاصُّ: «**وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ**»[2].

وقد سَمِعْتُ بعضَ العوامِّ يقولون: الكَذِبُ نوعانِ: أبيضُ وأسودُ، إن كان الكذب يَسْتلزِمُ ظُلمًا لمن لا يَحِلُّ ظُلْمُه -والظلمُ حَرَامٌ على كلِّ حالٍ- فهو حَرَامٌ، وهذا هو الأَسْودُ. وإن لم يَستلزِمْ ظُلمًا فهو حَلالٌ، وهذا هو الأبيضُ. أرأيتم ذلك التَّقْسِيمَ الرائع! نعم يكونُ رائعًا لو كانَ صوابًا. لكنْ هذا كُلُّه كَذِبٌ، والكَذِبُ كلُّه أَسْودُ، ليسَ فيه أبيضُ ولا غَيْرُه.

فيقولون: سُبحانَ اللهِ، أليسَ الكَذِبُ يجوزُ في الإِصْلاحِ بينَ الناسِ؟ ويجوزُ في الحَرْبِ، فيَجوزُ الكَذِبُ على العَدُوِّ؟ ويجوزُ في حديثِ الرجلِ لامرأتِه لتأليفِ قَلْبِها؟ أليسَ هذا كلُّه كَذِبًا أبيضَ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ رخَّص في الكذبِ في الحَرْبِ، وفي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٥، رقم ٢٠٠٥٨)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم (٤٩٩٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (٢٣١٥) وقال: حسن.

الإصلاحِ بينَ الناسِ، وأنْ تُحَدِّثَ المرأةُ زَوْجَها، وَيُحَدِّثها زَوْجُها[(١)]؟

قلنا: لكنَّ استنباطَ هذا الحُكْمِ استنادًا إلى هذا الحديثِ غيرُ صَحيحٍ؛ فإنَّ المرادَ بالكذبِ في الحديثِ هو التَّوْريةُ، وليسَ الكَذِبَ الصريحَ، والتوريةُ تُسَمَّى كَذِبًا، كما قال إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا طَلَبَ الناسُ منه الشفاعة يومَ القيامةِ قال: إني قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاثَ كَذْباتٍ[(٢)].

وهو لم يَكْذِبْ، لكنْ ورَّى، فالمرادُ بالكَذِبِ في الحديثِ التَّوريةُ.

وإذا كَذَبَ الإنسانُ في الحربِ فلا بُدَّ أن يُؤَوِّل، فيكونُ الظاهرُ للمُخاطَبِ خِلافَ ما في قَلْبِه، وما في قَلْبِه مُوافقًا للواقعِ، فيكونُ إذن ما في قلبِه مخالفًا للظاهرِ، ولكنَّ ما في قلبِه مُوافِقٌ للواقعِ، قالوا: هذا كَذِبٌ؛ لأن المُخاطَبَ يَفْهَمُ شيئًا غيرَ الذي في قَلْبِكَ، والتوريةُ جَائِزَةٌ إذا كان فيها مَصْلَحَةٌ.

أما الإِصْلاحُ بينَ الناسِ، فكأنْ تَذْهَبَ إلى رَجُلٍ بينَه وبينَ شَخْصٍ آخَرَ عَداوةٌ، فتقولُ: يا فُلان، ما مُشكلتُك مع فلانٍ؟ فيقول مثلًا: قال عَنِّي كلامًا كذا وكذا. فتقول: أبدًا، ما قال هذا. وأنتَ تعرف أنه قال، ولكنك تتأَوَّلُ لتُصْلِحَ ما بينَه وبينَه. فكأنكَ تقولُ: ما قال هذا بحَضْرَتِكَ، أو: ما قالَ هذا قبلَ عَشَرَةِ أيَّامٍ. وهو قالَه قبلَ يَوْمَيْنِ، فكلُّ هذا يَصْلُحُ أن تَنْوِيَهُ، وهو في الظَّاهِرِ الذي يَعْتَقِدُه المخاطب كَذِبٌ، لكن حَسَبَ الواقعِ لا يُعَدُّ كَذِبًا؛ فالمُخَاطَبُ يَظُنُّ أنه لم يَسُبَّهُ أبدًا، وأنتَ تُرِيدُ أنه لم يَسُبَّه في حالٍ من الأحوالِ.

---

(١) أخرجه كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين رقم (٤٩٢١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، رقم (٤٧١٢).

أتى رَجُل إلى الإمامِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُٱللَّهُ وهو إمامُ أَهْلِ السُّنةِ، يَسْأَلُه: أين المَرْوَزِيُّ؟ والمَرْوزِيُّ من أصحابِ الإمامِ أحمدَ، وهو طالبٌ من الطَّلَبةِ، وكانَ المَرْوزِيُّ حَاضِرًا، فقال الإمامُ أحمدُ: ليسَ المَرْوزِيُّ هاهنا، وما يَصْنَعُ المروزيُّ هاهنا. فرَجَعَ الرَّجُلُ[1]. ويَقْصِدُ الإمامُ أحمدُ بقولِه: هاهنا. أي في يَدِه. وهذا صحيحٌ، فالمَرْوزِيُّ ليسَ في يَدِهِ، ولكنه في المَجْلِسِ، وهذا يُسَمَّى تَأْوِيلًا، والتأويلُ أنْ يُرِيدَ الإنسانُ بلَفْظِه ما يُخَالِفُ ظَاهِرَه.

ثم حديثُ المرأةِ زوجَها، وحديثُ الرَّجُلِ زَوْجَه، هذا أيضًا المرادُ به التأويل، ولا يَصِحُّ إلا في حالٍ يَكونُ التأويلُ فيها أَصْلَحَ. أرأيتم لو كانَ الرَّجُلُ يَكْذِبُ على زوجتِه، ويقولُ: سَأَفْعَلُ كذا، سأجْلِبُ لكِ كذا وكذا من الحُلِيِّ والثِّيابِ والزِّينةِ، سأُحْضِرُ لكِ خَادِمًا، سَأَشْتَرِي لك سيارةً جميلةً، ولكنه يَكْذِبُ عليها. فهذا كَذِب، وعَاقِبَتُه سَيِّئَةٌ، ولن تُصَدِّقَه المرأةُ بعدَ ذلك، ويكونُ في قَلبِها عليه شيءٌ إذا كانَ كَذِبًا حقًّا.

كذلك الرَّجُلُ يقولُ لزوجتِه: لقد خَرَجْتِ إلى السُّوقِ، خَرَجْتِ ولم آذَنْ لكِ؟ فتقول: أبدًا، ما خَرَجْتُ. وهي تَكْذِبُ عليه، وهذا لا يَجوزُ، هذا كَذِبٌ. والرجل إذا عَلِم أن زوجتَه تَخْرُجُ ازداد بُغْضُه لها، ولكن الكذب على المرأةِ يجوز بالتأويلِ كما بَيَّنَّا سَابِقًا.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

---

(١) انظر إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ١٥١).

الدرس الرابع:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونَستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفُسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنَا، مَنْ يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يُضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُهُ ورسولهُ، صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وأصحابهِ، ومنْ تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أما بعدُ:**

فقد قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٧١].

ونتناولُ بما يسرَ اللهُ تعالى تفسيرَ قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١] لنقارن بينه وبينَ قولِه: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٦٧].

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ أسألُ الله تعالى بأسمائهِ العليا وصفاتهِ العليا أن يجعلَني وإياكُم منهمْ، اللهمَّ اجعلنا منَ المؤمنينَ والمؤمناتِ، وثبتنا على ذلكَ إلى المماتِ يا ربَّ العالمينَ، واجعلنا نَلقاكَ بهِ، إنكَ أكرمُ الأكرمينَ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ فهذه ستُّ صفاتٍ.

قولهُ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ يعني أن المؤمنَ وليُّ أخيهِ، يألمُ لآلامهِ، ويفرحُ بفرحهِ، ويحزنُ بحزنهِ، وهوَ وليُّهُ في الرخاءِ والشدةِ، ولهذا قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ

عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا». ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ[1].

فاللَّبِنَاتُ على الأرضِ ليستْ متماسكةً، ولا يَتكونُ منها بناءٌ، لكنْ إذا بنيتَ بعضَها فوقَ بعضٍ تماسكتْ وقامَ البناءُ، أما قبلَ ذلكَ فلا بناءَ، فالمؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضُه بعضًا.

قالَ: «ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ» فالواحدُ منكمْ إذا شبكَ بينَ أصابعهِ فإنهُ لا يمكنُ أن يجيءَ واحدٌ ويُطلِقُها إلا بصعوبةٍ، لكن إذا جعلَها بدونِ تشبيكٍ فإنهُ يسهلُ التفريقُ.

فالمؤمنونَ بعضهمْ أولياءُ بعضٍ، ومنَ الولايةِ فيما بينهمُ الوصفُ الثاني: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي أنهم بعضُهم يأمرُ أخاهُ بالمعروفِ.

والمعروفُ: ما جاءَ بِهِ الشرعُ، فما جاءَ بِهِ الشرعُ أمرًا فهوَ المعروفُ: الصلاةُ، والزكاةُ، والصومُ، والحجُّ، وبرُّ الوالدينِ، وصلةُ الرحمِ، والصدقُ، والإحسانُ، والنصحُ، والأمانةُ، وأشياءُ كثيرةٌ، فيأمرُ المؤمنونَ بعضُهم بعضًا بالمعروفِ.

ولكنْ هلِ الأمرُ يكونُ بالعنفِ والشدةِ، أو بالرفقِ واللينِ؟

الجوابُ: الثاني؛ لأن هذا أقربُ إلى حصولِ المقصودِ، فلو أمرتَ إنسانًا بالمعروفِ الذي لا إشكالَ فيهِ بعنفٍ ما قَبِلَ منكَ، لكن باللينِ والرفقِ، والقبولِ مرةً، والصبرِ على ما عندَه من إضاعةٍ مرةً أُخرى؛ يحصلُ المقصودُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، رقم (٦٠٢٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم (٢٥٨٥).

الوصفُ الثالثُ: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فما هوَ المنكرُ؟ هـلِ المنكرُ ما أنكرهُ الإنسانُ بنفسِه، أو ما أنكرَهُ الشرعُ؟

الجوابُ: الثاني: ما أَنكرَهُ الشرعُ، ولو أَننا قُلنا: إن المنكرَ كلُّ ما يُنكرهُ الإنسانُ بنفسِه ما صحَّ، ولكانتِ الدنيا فَوضى، فكانَ كلُّ إنسانٍ يُنكرُ شيئًا بنفسه لم يكنْ وردَ عليهِ، فيقولُ: هذا منكرٌ.

قولهُ: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذا الوصفُ الرابعُ، يعني يأتونَ بها مستقيمةً تامةً، في وقتها، ومعَ الجماعةِ فيمنْ تجبُ عليهِ الجماعةُ، وتامةً بأركانها وواجباتها وشُروطِها. ومنْ إقامةِ الصلاةِ -أيها الإخوةُ- ما يُخلُّ به كثيرٌ منَ المسلمينَ اليومَ ألا وهوَ الطمأنينةُ، والطمأنينةُ تعني التأنيَ في الركوعِ والسجودِ والقيامِ والقعودِ، فتشاهدُ الآنَ في المسجدِ الحـرامِ أقوامًا لا يَطمئنـونَ، وتعلمُ علمًا يقينًا أنهم لـم يَطمـئنُّوا، وهؤلاءِ لو صَلَّوا ألفَ مرةٍ ما قَبِلَ اللهُ منهم.

وأذكرُ لكمْ حديثًا[١] عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ يبينُ هذا: دخلَ رجلٌ المسجدَ فصلى صلاةً لم يطمئنَّ فيها، ثمَّ جاءَ فسلمَ على النبيِّ ﷺ فقالَ لهُ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، والرجلُ صلى، فقامَ وركعَ وسجدَ، لكنهُ لم يطمئنَّ، فرجعَ الرجلُ وصلى ولكنْ كصلاتِهِ الأولى لم يطمئنَّ، فجاءَ إلى النبيِّ ﷺ فسلمَ عليهِ وردَّ عليـهِ السلامَ وقالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، فرجـعَ وصلى على حالهِ الأولى، فجاءَ إلى النبـيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وسلمَ عليهِ، فقالَ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، رقم (٦٢٥١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب: اقرأ ما تيسر معك من القرآن، رقم (٣٩٧).

«**ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، فهذا صلى ثلاثَ مـراتٍ ولم يقبلِ اللهُ منهُ، فنفى الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صلاته وقالَ: «**لَمْ تُصَلِّ**».

فحينئذٍ عرَفَ الرجلُ أنه مفتقرٌ إلى البيانِ والعلمِ أشدَّ افتقارٍ، وسيكونُ للتعليمِ في قلبِهِ الآنَ أكبرُ الأثرِ؛ لأن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لو علَّمَهُ أولَ مرةٍ ما وصلَ لهُ الأثرُ الذي يُرددُهُ فيه ثلاثَ مـراتٍ ويقولُ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**». فقالَ الرجلُ: «والذي بَعَثَكَ بِالحَقِّ» اللهُ أكبرُ! رجلٌ مسلمٌ لم يتعلمْ، وما عندهُ شهادةُ بكالوريوس، قالَ: والذي بعثكَ بالحقِّ، ولم يقلْ: واللهِ، حتى يكونَ مذعنًا مقرًّا بأن ما يقولُه الرسولُ فهو حقٌّ. قالَ: والذي بعثَكَ بالحقِّ لا أُحسنُ غيرَ هذا، فعَلِّمْنِي. فهوَ جاهلٌ، فقالَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ**».

وقد يقولُ قائلٌ: كيفَ يقولُ: أسبغِ الوضوءَ والرجلُ ما ندري هلْ أخلَّ بهِ أو لا؟

فالجوابُ: أن النبيَّ ﷺ مِن جودِه وكرمِه أنهُ إذا سئلَ عنِ الشيءِ يَذكرُه وما يحتاجُ إليهِ السائلُ. أرأيتمْ أنهُ مرةً قيلَ لهُ: هلْ نتوضأُ بماءِ البحرِ؟ فقالَ في البحرِ: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الحِلُّ مَيْتَتُهُ**»[1] وهو ما سُئلَ عنْ ميتةِ البحرِ، لكنْ يَعلمُ أن هذا السائلَ سوفَ يحتاجُ إلى البيانِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، رقم (٨٣)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور، رقم (٦٩)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب ماء البحر، رقم (٥٩)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء بماء البحر، رقم (٣٨٦).

المهمُّ أنَّ الرسولَ قالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاتِكَ كُلِّهَا».

وأنا أرَى في هذا المسجدِ الحرامِ، وفي غيرِه أيضًا، مَن لا يطمئنونَ في صلاتهم، فيقالَ لهؤلاءِ: إنكم ما صَليتمْ، كما قالَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للرجلِ: «ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ».

والمؤمنُ إذا رأى أخاهُ على هذهِ الحالِ فإنهُ يَأمرُه أن يطمئنَّ.

قولهُ: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني: يعطونَ المالَ الذي أوجبَ اللهُ عليهِمْ في الزكاةِ، فيُعطونهَا إلى أهلِهَا.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي سيُدخلُهم في رحمتِهِ كما قالَ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٧]، وهنا قال: ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وكانَ المتوقعُ أن يقالَ: إن اللهَ غفورٌ رحيمٌ؛ لأن ذكرَ الرحمةِ يَقتضي أن يذكرَ الاسمَ الذي يكونُ بهِ الرحمةُ، لكنهُ قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. ونظيرُ ذلكَ تمامًا قولُ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، ولم يقلْ: وإن تغفرْ لهم فإنكَ أنتَ الغفورُ الرحيمُ.

فلا بدَّ أن نعرفَ السببَ؛ لأن القرآنَ في أعلى ما يكونُ منَ البلاغةِ، ولا بدَّ أن يكونَ متناسبًا، فما هوَ السببُ؟

أقولُ: السببُ -واللهُ أعلمُ- أن اللهَ إذا ذَكرَ عقوبةَ الظالمِ ورحمةَ القائمِ بأمرِ اللهِ يَذكرُ العزَّ والحكمةَ، وإن ذكرَ المغفرةِ وحدَها ذكرُ الرحمةِ؛ لأن كونهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعذبُ هؤلاءِ ويغفرُ لهؤلاء فمن مقتضى عزتِهِ وحِكمتِه، ففي المنافقينَ قالَ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة:٦٨]، وذكرَ في المؤمنينَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فكانَ المناسب أن يذكرَ العزَّ والحكمةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

وفي قولِ عِيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨] فبمُقتَضى عِزتِك وحِكمتِكَ عَذبتَ هؤلاءِ وغفرتَ لهؤلاءِ. هذا ما أعلمُ، والله أعلمُ. فقابلْ بينَ هذهِ الأوصافِ.

مِنْ فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الفائدةُ الأولى: مِن صفاتِ المؤمنينَ أنهم يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عنِ المنكرِ؛ لإقامةِ دينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ والاجتماعِ على كلمتهِ.

الفائدةُ الثانيةُ: أن مِن صفاتِ المؤمنينَ إقامةَ الصلاةِ، وإيتاءَ الزكاةِ، فمنْ رأى من نفسِه كسلًا في إقامةِ الصلاةِ فليعلمْ أن إيمانَه ناقصٌ وأن فيهِ شبهًا منَ المنافقينَ؛ لأن المنافقينَ همُ الذينَ إذا قاموا إلى الصلاةِ قاموا كسالى، وهمُ الذينَ تَثقلُ عليهمُ الصلواتُ كلُّها، وقد قالَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ أَثْقَلَ صَلاةٍ عَلَى المُنَافِقِينَ صَلاةُ العِشَاءِ وَصَلاةُ الفَجْرِ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة، وبيان التشديد في التخلف عنها، رقم (٦٥١).

الفائدةُ الثالثةُ: أن منْ خصالِ المؤمنـينَ إيتاءَ الزكاةِ؛ أي إعطاءَها لمستحقِّـها كاملة بلا نقـصٍ، فإذا رأيتَ مِن نفسكَ شُحًّا في إيتاءِ الزكاةِ فاعلمْ أنكَ ناقـصُ الإيمانِ؛ لأن المؤمنينَ مِن صفاتهمْ إيتاءَ الزكاةِ.

الفائدةُ الرابعةُ: أن مِن صفاتِ المؤمنِ طاعـةَ اللهِ ورسولهِ في كـلِّ ما أمـرَ بهِ أو نهى عنهُ، فإذا رأيتَ مِن نفسِكَ التقصيرَ في طاعةِ اللهِ ورسولهِ فاعلمْ أنكَ ناقصُ الإيمانِ.

وبهذهِ المناسبةِ أودُّ أنْ أقولَ: إن الإنسانَ الموفَّقَ يُمكنهُ أن يجعلَ من كلِّ عملٍ طاعةً للهِ ولرسولهِ، فمثلًا كلنا نَتسحرُ في أيامِ الصيامِ ونأكلُ ونشربُ لنتقوى بهِ على الصيامِ، ولكنْ يَنبغي لنا أن نَستشعرَ بأننا نتسحرُ امتثالًا لأمرِ الرسولِ ﷺ؛ حيثُ قالَ: «**تَسَحَّرُوا**»[1]، واقتداءً بهِ حيثُ كان يتسحرُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفصلًا بينَ صيامِنا وصيامِ الكفارِ منَ اليهودِ والنصارى؛ فإن أكلةَ السحورِ هيَ الفصلُ ما بينَ صيامِنا وصيامِ أهلِ الكتابِ[2].

الفائدةُ الخامسةُ: أن طاعةَ الرسولِ ﷺ من طاعةِ اللهِ؛ لقولهِ: ﴿**وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ**﴾، وقد قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في آيةٍ أخـرى: ﴿**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ**﴾ [النساء:٨٠].

الفائدةُ السادسةُ: علوُّ شأنِ المؤمنـينَ؛ لقولهِ: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ**﴾؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب، رقم (١٩٢٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل السحور، رقم (١٠٩٥).

(٢) أخرج مسلم: كتاب الصيام، باب فضل السحور، رقم (١٠٩٦) عن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: «**فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الكِتَابِ، أَكْلَةُ السَّحَرِ**».

(أولاء) اسمُ إشارةٍ للبعيدِ، وإنما أشارَ إليهمْ بإشارة البعيدِ معَ قربِ الكلامِ فيهمْ؛ إشارةً إلى علوِّ مرتبتِهم؛ كما قالَ تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة:١-٢]، والكتابُ المتحدَّثُ عنهُ قريبٌ، لكنه أشارَ إليهِ بإشارةِ البعيدِ تنبيهًا على علوِّ مرتبتِهِ.

إذنْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أشارَ إليهمْ بإشارةِ البعيدِ تنبيهًا على علوِّ مرتبتهمْ، وقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة:١١].

الفائدة السابعةُ: أن المؤمنينَ المتصفينَ بهذهِ الصفةِ همُ المستحقونَ للرحمةِ؛ لقولهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾، والسينُ هنا في سيرحمُهم وفي غيرِها يقولُ العلماءُ: إنها تدلُّ على تحققِ الأمرِ، يعني إذا قلتَ: سأقومُ فهو أوكدُ مِن قولكَ: أقومُ، فهي تدلُّ على تحققِ هذا الأمرِ.

الفائدةُ الثامنةُ: إثباتُ العزةِ للهِ؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾. وللهِ العزةُ جميعًا؛ عزةُ القَدْرِ، وعزةُ القهرِ، وعزةُ الامتناعِ.

فالعزةُ ثلاثةُ أنواعٍ: عزةُ القدرِ، وعزةُ القهرِ، وعزةُ الامتناعِ، وكلُّها ثابتةٌ للهِ.

ولما قالَ المنافقونَ: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨] يريدونَ بالأعزِّ أنفسَهم، وبالأذلِّ الرسولَ ﷺ، فجعلوا أنفسَهم أعزاءَ، بل همْ أعز، وجعلوا النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وأصحابَه الأذلاءَ، ولكن قالَ اللهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨] ولم يقلْ: إنَّ اللهَ أعزُّ منهمْ؛ إشارةً إلى أن المنافقينَ لا عزةَ لهم، فالمنافقُ دائمًا مخذولٌ لا عزةَ لهُ.

ويَدُلُّكَ لهذا أنهُ رجلٌ مخادعٌ، ليسَ عندهُ تصريحٌ بما في قلبِه، ولكنهُ يستعملُ النفاقَ والعياذُ باللهِ.

إذنْ إثباتُ العزةِ للهِ منَ الآيةِ الكريمةِ، وكذلكَ الحكمة، فاللهُ تعالى لهُ العزةُ ولهُ الحكمةُ.

والحكيمُ ليسَ معناها الحكمة فقطْ، ولكنْ معناها الحكمةُ والحكمُ أيضًا، فاللهُ الحكمُ ولهُ الحكمةُ عَزَّوَجَلَّ، لهُ الحكمُ في خلقهِ قضاءً وقدرًا، ولهُ الحكمُ في خلقهِ شرعًا ونظامًا، فاللهُ تعالى وحدهُ هوَ الحاكمُ الذي يحكمُ في العبادِ وبينَ العبادِ.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتهِ تتمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبينا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ.



الدرس الخامس:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٧].

قولُه: ﴿وَمِنْهُم مَّن﴾ أي: مِنَ المنافِقِينَ، ولهذا تُسَمَّى سورَةُ التوبَةِ الفاضِحَةَ؛ لأنها فَضَحَتِ المنافِقينَ، وهتكَتْ أستارَهُم، وبيَّنَتْ أحوالَهُمْ، ﴿مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا﴾ أي: منهم الذين عاهَدُوا اللهَ، والعَهْدُ هو: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا﴾ أي: أعطَانَا.

واعلَمْ أن هذِهِ الكلِمَةَ تُمَدُّ وتُقْصَرُ: آتى، وأَتى. فآتَى بمَعْنَى أعطَى، وأَتى بمَعْنَى جاءَ، فقولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١] بمَعْنَى جاءَ أمرُ اللهِ، وقولُهُ هنَا: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ أي: أعطَانَا.

قال: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فعاهَدُوا اللهَ على أمْرَيْنِ: بعِوَضٍ ومعَوَّضٍ، العِوَضُ في قولِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾،

والمعَوَّضُ في قولِهِ: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، وإن شئتَ فَقُلْ: المعَـوَّضُ ﴿لَـئِنْ ءَاتَـٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾، والعِوَضُ: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

فهنا ثلاثَةُ أشياءُ: واحِدٌ مِنَ اللهِ، واثنانِ منـهم. الذي مِنَ اللهِ قولُهُ: ﴿لَـئِنْ ءَاتَـٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾، والَّذي منْهُم: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، فهذا العَهْدُ جمَعَ بين ثلاثَةِ أشياءَ: إيتاءِ اللهِ مِنْ فضلِهِ، والصَّدَقَةِ، والصلاةِ.

قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَـٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة:٧٦] قدْ وقَعَ الشَّرْطُ الذي مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فقَدْ أعطاهُمُ اللهُ من فَضْلِهِ، ولكنهم لم يُوفُوا بما عاهَدُوا اللهَ عليهِ، فقالَ اللهُ عنْـهُم: ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾، وهذا مقابِلُ قـولِهِ: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾، وقولِهِ: ﴿وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ مقابِلُ ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، إذا نقَضُوا العهْدَ لم يُوفُوا بما عاهَدُوا اللهَ عليهِ.

قال تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة:٧٧] هذا الجَـزاءُ والعياذ باللهِ، وقوله: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ أي: جعَلَ عاقِبَةَ أمرِهِمْ نِفَاقًا في قُلوبِهِمْ.

والنِّفاقُ هو: إظهارُ الخيرِ وإبطانُ الشَّرِّ، أي: يُظْهِرُ الإنسانُ الخـيرَ، ويبطِنُ الشَّرَّ، وهذا هو بالمَعْنَى العامِّ، وهو مأخُوذٌ من نَفَقِ اليَرْبُوعِ، والنَّفق: هُو الجُحْر الذي يختَبِئُ فيه اليربوعُ، وله بابٌ، فيحفِرُ نَفقًا في الأرض، ويجعَلُ في طرفِ النَّفَقِ قشْرَةً رقيقَةً لا تَتبَيَّنُ، لكنه يسهُلُ عليه إذا ألجَأَهُ أحدٌ إليها أن يضرِبَهُ برأسِهِ حتى يخرُجَ، وفي هذا خِداعٌ؛ لأن الناس لا يَرَوْن هذه القشْرَةَ، فهذا هو أصلُ النِّفَاقِ.

إذن النِّفاقُ بالمَعْنَى العام هو إظهارُ الخَيرِ وإبطانُ الشَّرِّ، ولذلك كان الكَذِبُ

من صِفاتِ المنافِقينَ، أي: يُعْتَبَرُ نِفَاقًا؛ لأن الذي حدَّثَك أظهَرَ أنه قَدْ صدَقَك وهو قدْ كَذَبَكَ.

أمَّا بالمعْنى الخاصِّ: فالنِّفاقُ إظهارُ الإسلامِ وإبطانُ الكُفْرِ، وهذا هو المرادُ بالمنافِقِينَ في هذه السورةِ، وقد ظَهَرَ حينَ انتَصَرَ المسلمونَ في غَزوةِ بدْرٍ؛ لأنه قَبْلَ انتصارِ المسلِمِينَ كان الناسُ ما بينَ مؤمِنٍ وكافِرٍ، والكافرُ يعْلِنُ ويصرِّحُ بأنه كافِرٌ ولا يُبالِي، لكِنْ لما انتَصَرَ المسلِمُونَ في بَدْرٍ خافَ هؤلاءِ المنافِقُونَ أن يُقْتَلُوا إذا أظهَرُوا كُفْرهم، فصارُوا منافِقِينَ يُظْهِرُونَ أنهم مسلِمُون وهم كافِرونَ.

والنِّفاقُ أعظَمُ مِنَ الكُفْرِ؛ لأن الكافِرَ عداوتُهُ صريحَةٌ، يعلِنُ لك أنه كافِرٌ، وتعْرِفُهُ وتحذَرُ منه، لكِنَّ المنافِقَ يُظْهِرُ أنه أخوكَ، وأنه مُسْلِمٌ، ولا تأمَنْ لَهُ، فقد يأخُذُ أسْرارَكَ ويعْطِيهَا لعَدُوِّكَ؛ لأنه منافِقٌ، فصارَت مَضَرَّةُ المنافِقِينَ على الإسْلامِ أشدَّ من مضَرَّةِ الكافِرينَ؛ لأن الكافِرَ معْلِنٌ لكُفْرِهِ، والمسلِمُ يستَعِدُّ له، ويحذَرُ منْهُ ويعرِفُهُ، لكنَّ البلاءَ كلَّ البلاءِ هو في النِّفاقِ، أجارَنَا اللهُ وإياكُمْ منْه.

قال تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ هذا النِّفاقُ يستَمِرُّ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾، أي: إلى المَماتِ، أي: أنَّهُمْ ظَلُّوا على نِفَاقِهِمْ إلى أن ماتُوا، والسَّبَبُ كما قالَ تعالى: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾.

فقولهُم: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يتَضَمَّنُ شَيئينِ: معاهَدَةً معَ اللهِ، وخَبَرًا.

أما المعاهَدَةُ فَهِي أنَّهم جعَلُوا عِوَضًا ومَعَوَّضًا بينَ طَرَفَيْنِ.

وأما الكَذِبُ فقَـولُهُمْ: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فإنَّهُم كذَبُـوا في ذلِكَ، والظاهِرُ -والله أعلم- أنهم لم يكونُوا صادِقِينَ في الأصلِ في هذه المعاهَدَةِ، أي: فَلَمْ يفكِّرُوا أن يكونوا مِنَ الصالِحِينَ، ولا أن يتَصَدَّقُوا، ولكنَّهم أظهَرُوا ذلِكَ نِفَاقًا.

على كل حالٍ نأخُـذُ من هذِهِ الآيةِ فائدَةً، هي: كَرَاهَـةُ النَّذْرِ، وهو أن يُلْزِمَ الإنسانُ نَفْسَهُ طاعَةً للهِ، سواء كانَتْ بِعِوَضٍ، أو بغَيْرِ عِوَضٍ. ومثالُ النَّذْرِ: أن يقولَ: للهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أن أصُومَ الاثنين والخميسَ من كُلِّ أسبوعٍ. هذا نَذْرٌ يجِبُ الوفاءُ بِهِ، فإن لم يفعَلْ فليستَعِدَّ لهذا الجَزاءِ والعقوبَةِ، وهو أن يُعْقِبَهُ الله نِفَاقًا في قلْبِهِ إلى يومِ لقائِهِ والعياذُ باللهِ.

وهذا النَّذْرُ يسَمَّى نذْرًا مطْلَقًا، وهو أن يقولَ: لله علي نَذْرٌ أن أصومَ الاثنـين والخميسَ مِنْ كلِّ أسبوعٍ. فإذا قالَ ذلك لَزِمَهُ أن يصومَ كما قالَ، ودليلُ ذلك قولُهُ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ»[(١)].

فهناكَ نَذْرٌ معلَّـقٌ كما في هذِهِ الآيَةِ، والنَّذْرُ المعلَّـقُ أن يقولَ: لَئِنْ أغْنانِي اللهُ لأتَصَدَّقَـنَّ كلَّ شهْرٍ بألفِ ريالٍ. فهذا نَذْرٌ معلَّقٌ بالغِنَـى، كما نَذَرَ المنافِقونَ هنَا: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة:٧٥].

ومن ذلك أنَّ بعْضَ الناسِ إذَا أَيِسَ مِنَ الشيءِ، واستَبْعَدَ وقُوعَهُ، نَذَرَ عليه، فرجُلٌ عنْدَهُ مريضٌ مَرَضًا شدِيدًا مُزْمِنًا، فقال: لئن شَفَى اللهُ مَرِيضِي لأتصدَّقَنَّ بألفِ ريالٍ، فهذا نَذْرٌ معلَّقٌ بشفاءِ المريضِ. فإذا شَفَى اللهُ مَريضَهُ لَزِمَهُ أن يتَصَدَّقَ؛ لأنه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، رقم (٦٦٩٦).

عاهَدَ اللهَ، فيلزَمُه أن يَفِيَ بما عاهَدَ الله عليهِ، فإن لم يفْعَلْ فلْيَرْتَقِبْ هذا الجزاءَ والعُقوبَةَ، وهو أن الله يُعقِبُهُ نِفَاقًا في قلْبِهِ إلى يوم يلْقَاهُ.

نَرَى بعضَ الناسِ يسلُكُ هذا المسْلَكَ، إذا كان عِندَهُ مريضٌ قالَ: إذا شَفَى اللهُ مريضِي لأفْعَلَنَّ كذا وكذا، أو يمْرَضُ هو ويقولُ: لَئِنْ شفَانِي اللهُ من المَرضِ لأفعَلَنَّ كذا وكذا، وهذَا نَهى عنْهُ النبيُّ ﷺ. ولا يُعْقَلُ أن ينْهَى النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ عما فِيه خيرٌ لهُمْ، إنما ينهَاهُم عما فيه شَرٌّ لهُمْ. فقالَ عن النَّذْر: «**إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ**»[1]. وصدَقَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثم قال: «**وَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ قَضَاءً**».

وهذا فيمَنْ نذَرَ على حُصولِ شيءٍ محبُوبٍ، ولا يظُنُّ الإنسانُ أنه إذا نَذَرَ أَتَى اللهَ تعالى بِمَا أَحبَّ، فقَدْ يأتِي اللهُ بِهِ، وقَدْ لا يأتِي. وكذلِكَ إذا نَذَرَ وهو مَريضٌ نَذْرًا على الشِّفاءِ، فلا يظُنَّ أن هذا النَّذْرَ يرْفَعُ الموتَ، فإذا كانَ اللهُ قدْ أرادَ أن يمُوتَ فإنه يمُوتُ، وإن نَذَرَ، ولهذا قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَلَا يَرُدُّ قَضَاءً، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**».

وهذا فيمَنْ نَذَرَ أن يتَصَدَّقَ؛ لأن بعضَ الناسِ بَخِيلٌ، لا يتَصَدَّقُ إلا إذا نَذَرَ؛ لأن نفْسَهُ تأبَى أن يتَصدَّقَ، فينْذِرُ مِنْ أجلِ أن يتَصَدَّقَ، يقولُ الرسولُ ﷺ: «**وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**». فهذَا التعليلُ من رَسولِ اللهِ ﷺ يُبيِّنُ أن النَّذْرَ قِسمانِ: قِسْم يريدُ الإنسانُ بِهِ أن يحمِلَ نفْسَهُ على الخَيْرِ، وقِسْمٌ آخرُ يريدُ الإنسانُ بِهِ أن يدْفَعَ اللهُ عنه الشَّرَّ. فبَيَّنَ أن النَّذْرَ لا يرُدُّ قضاءً، وإنما يُسْتَخْرَجُ به مِنَ البخيلِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب إلقاء العبد النذر إلى القدر، رقم (٦٢٣٤)، ومسلم: كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئا، رقم (١٦٣٩).

إذن ما دامَ رَسولُ اللهِ ﷺ وهو أنصَحُ الناسِ للخَلْقِ، نَهى عن النَّذْرِ، فلا يجبُ أن نفْعَلَ.

نجدُ كثيرًا مِنَ الشبابِ يقْرأُ اللُّغَةَ الإنجليزِيَّةَ وهي عليه عسِيرَةٌ، فيرْسُبُ فيها، كلَّما اختُبِرَ رسَبَ فيها، فيقولُ: للهِ عَلَيَّ نَذْرٌ إن نَجَحْتُ في مادَّةِ اللُّغةِ الإنجليزِيَّةِ أن أصومَ عشَرَةَ أيامٍ مِنْ كلِّ شهْرٍ. ثم نَجَحَ، ولكنَّ النَّذْرَ لم يكُنْ سَبَبًا لنجاحِهِ؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ قال: «**إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ**». وقالَ: «**إِنَّهُ لَا يَرُدُّ قَضَاءً**». وصَدَقَ النَّبيُّ ﷺ. فالَّذِي ينْذِرُ على فِعْلٍ مَرْغوبٍ، أو تَرْكِ مرْهُوبٍ، كأنه يقولُ: إن اللهَ لا يتَفَضَّلُ إلا إذا نَذَرْتُ لَهُ، هذا مَعْنى كلامِهِ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يتفَضَّلُ على الإنسانِ بفَضْلِهِ وكَرَمِهِ.

أقول: هذَا الرَّجُـلُ الذي نَذَرَ على النَّجاحِ في مادَّةِ اللُّغةِ الإنجليزِيَّةِ نجَحَ، فليَزَمُه أن يَصُومَ من كلِّ شهْرٍ عشَرَةَ أيامٍ ولا بُدَّ، ونحن نتَصَوَّرُ أن هذا الشَّخْصَ سيكونُ نادِمًا، ويقول: لَيْتَنِي لم أَنْذِرْ. ولن يكونَ رَحْبَ الصَّدْرِ، ولهذا تجِدُهُ يطرُقُ بابَ كلِّ عالِمٍ، لعَلَّهُ يتخَلَّصُ من هذَا النَّذْرِ، ولكن عليه أن يَفِيَ بنَذْرِهِ؛ لأنه عاهَدَ اللهَ، وأَوْفَى الله لَهُ بعَهْدِهِ.

فلا بُدَّ أن تَتُوبَ إلى اللهِ، وتأَمَّلْ كيفَ يُخرِجُ النَّذْرُ صاحِبَهُ حتى يضطرَّهُ إلى أن يتَلَمَّسَ الرُّخْصَ، أو إلى أن يمتَنِعَ، وحينئذٍ يكونُ الخطرُ عليهِ أن يُصابَ بما ذكَرَهُ الله هنا: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾.

ومع هذا كُلِّه نَجِدُ كَثِيرًا مَنَ الناسِ يُصِرُّ إلا أن يَنْذِرَ، فيكونُ هذا الَّذِي أصرَّ مخالِفًا للنَّبيِّ ﷺ في نَهيِهِ وإرشادِهِ، ويكون قدْ كلَّفَ نفْسَهُ ما يَحتَمِلُ أَلَّا يطِيقَهُ.

وهذه أَدِلَّتُنَا، فالواجِبُ على كلِّ مسلِمٍ أن يُبْلِغَ أخَاهُ بألا ينْذِرَ علَى شيءٍ، وأن يسألَ اللهَ مِنْ فضلِهِ إن كانَ مُعْدَمًا، وأن يسألَ اللهَ الشِّفاءَ إن كانَ مَرِيضًا، أمَّا النَّذْرُ، فإنه كما قالَ نَبِيُّنَا ﷺ، وهو الصادِقُ المصدوقُ، البَرُّ الناصِحُ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ». فالبَلاغُ واجبٌ على كلِّ من بَلَغَه عِلْمُ هذَا، والعُلماءُ ورَثَةُ الأنْبياءِ، يُبَلِّغُونَ عبادَ اللهِ رسالاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ هنا قَدْ يقولُ قائلٌ: كيف ينْهَى النَّبيُّ ﷺ عن النَّذْرِ، مع أن اللهَ مدَحَ الذين يُوفونَ بالنَّذْرِ؟ فقالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٧-٨]؟

وهذه الشُّبْهَةُ تَرِدُ كثيرًا، ولكنَّها سهْلَةُ الجوابِ على مَنْ آتاهُ اللهُ تعالى عِلْمًا وفَهْمًا، فنقولُ: لا مصادمَةَ ولا تَعارُضَ بينَ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وما صَحَّ عَنْ رسولِهِ ﷺ؛ لأن الكلَّ حقٌّ، والحَقُّ لا يتَناقَضُ ولا يتَعارَضُ، ولكن نَجْمَعُ بينَهُما بقَليلٍ مِنَ التأمُّلِ، فهذِهِ الآيةُ مدَحَتِ الَّذِين يُوفونَ بالنَّذْرِ، ولم تمدَحِ الناذِرِينَ، والنَّبِيُّ ﷺ حينما نَهَى فإنما نَهَى عنِ النَّذْرِ، وفرقٌ بين الناذِرِ وبينَ الموفِي بالنَّذْرِ.

فمثلًا هناكَ إنسانٌ نذَرَ أن يصُومَ لله يومَيِ الاثنين والخَميسِ، فوَفَّى، فهَذَا يُمْدَحُ على وفائِهِ، لكن لا يُمْدَحُ على أصلِ النَّذْرِ، فتبَيَّنَ الآن أن بَيْنَ الآيةِ والحدِيثِ فَرْقًا واضحًا، هذا أمْرٌ.

وهناك أمرٌ آخرٌ، فنَحْنُ لا نُسَلِّمُ أن المرادَ بالنَّذْرِ في الآيَةِ هو النَّذْرُ الذي نَهَى عنه الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأن النَّذْرَ في القُرآنِ الكريمِ يرادُ بِهِ الواجِبُ، أي: ما أوجَبَهُ

اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والدَّليلُ قولُهُ تعالى في سورَةِ الحَجِّ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩]، فهنا الحُجَّاجُ لم ينْذِرُوا الحجَّ، لكن لما كانَ الحجُّ يجبُ الوفاءُ به سمَّاهُ اللهُ نذرًا، وعلى هذا فقولُه: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان:٧] أي: يوفُونَ بِمَا أوجَبَ اللهُ عليهِمْ؛ لأنهم إذَا شرَعُوا بما أوجَبَ اللهُ عليهِمْ كأنَّهم نَذَرُوهُ.

فصارَ الجمْعُ بين الآيةِ والحديثِ من وجْهَيْنِ:

الأول: أن الحدِيثَ نَهَى عَنِ النَّذْرِ ابتِداءً، والآيةُ في وفاءِ النَّذْرِ الَّذِي نـذَرَهُ الإنسانُ على نفْسِهِ.

الثاني: ألَّا نُسَلِّمَ أن المرادَ بالنَّذْرِ هو إلزامُ الإنسانِ نَفْسَهُ بشيءٍ لم يُلْزِمْهُ اللهُ، وإنَّما المرادُ بالنَّذْرِ: الواجِبُ.

ويحسُنُ بنا هُنا أن نُبيِّنَ أن النذْرَ على أقسامٍ كما ذَكَرَهُ العلماءُ، وكما دَلَّتْ عليه السُّنَّةُ:

القسمُ الأوَّلُ: النَّذْرُ الَّذِي لم يُعَيَّنْ فيه شيءٌ، وهو النَّذْرُ المطلَقُ، مثلُ أن يقول إنسانٌ: للهِ عَلَيَّ نَذْرٌ. ولم يُعَيِّنْ صيامًا ولا صلاةً ولا صدَقَةً ولا حَجًّا ولا عمْـرَةً، بل قال: لله عَلَيَّ نذْرٌ. فهذَا يجِبُ عليه كفَّارَةُ يمِينٍ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «**كَفَّارَةُ النَّذْرِ** إذَا لَمْ يُسَمِّ **كَفَّارَةُ يَمِينٍ**»(١).

وكفارَةُ اليَمِينِ أربعةُ أشياءَ:

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة:٨٩].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب النذر، باب في كفارة النذر، رقم (١٦٤٥).

أولها: إطْعَامُ عشَرَةِ مساكِينَ. ولكَ في إطعامِهِمْ وجْهانِ:

الوجْهُ الأَوَّلُ: أن تُطْعِمَهُم الطعامَ.

والوجْهُ الثَّانِي: أن تدْعُوَهُم إلى طعَامٍ.

أما إذَا أَرَدْتَ إعطَاءَهُم الطعامَ فأعْطِ كلَّ واحدٍ من الأرزِّ كيلُو، فيكونُ الجمِيعُ عَشَرَة كيلوات، ويحْسُنُ أن تجعَلَ معه ما يؤدِمُه، إمَّا لحمًا أو سَمَكًا، أو غير ذلك مما يؤدِمُه، حتى يكون مستَسَاغَ الأكلِ. أو أن تصنَعَ طعَامًا -غداءً أو عَشاءً- وتدْعُو عشَرَةً، ولا بد أن يكونُوا فُقراءَ.

ثانيها: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾، أي: تَكْسُوهُمْ بما يُعَدُّ كسْوَةً عُرْفًا، والكسوَةُ هي ما يلبَسُهُ أهلُ البلَدِ، فهنا مثلًا في البلاد السعودِيَّةِ يلبَسُونَ القمِيصَ والسِّرْوالَ والغُتْرَةَ، وفي بلادٍ أخرَى يلْبَسُونَ البنطلونَ؛ لأن الله تعالى قالَ: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾، وأطْلَقَ ولم يُقَيِّدْهَا بشَيْءٍ.

ثالِثُها: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، وتحرِيرُ رَقَبةٍ أي: تُعْتِقُ عَبْدًا. وهنَا إشكالٌ، كيفَ يجعَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ هذِهِ الأشياءَ -الإطعامَ والكِسْوَةَ والعِتْقَ- وبينها فرْقٌ كَبيرٌ؟ وكيف يجعَلُ بعْضَها بَدَلًا عن بعضٍ؟

نقول: قد يكونُ من بابِ الحَثِّ على إعتَاقِ الرِّقابِ، أو أنَّ انتهاكَ حُرْمَةِ اليمِينِ تحتاجُ إلى فِدْيَةٍ كبيرَةٍ؛ لأن انتهاكَ حُرْمَةِ اليمِينِ ليسَ بالهَيِّنِ؛ أن تحلِفَ بالله عَلَى شيءٍ، ثم تنْتَهِكُ هذِهِ الحرْمَةَ، والقَسَمُ ليس بالأمْرِ الهيِّنِ، ولذلِكَ لا يصِحُّ القَسَمُ إلا باللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فلذلِكَ كانَ حقُّهُ أصْلًا أن يفْدِي الإنسانُ نفْسَهُ برَقَبَةٍ، لكن تَسْهِيلًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ جعَلَ بدَلَ الرَّقَبَةِ إطعامَ عشرَةِ مساكِينَ، أو كِسْوتَهُم.

ولهذا بدأ اللهُ بالأسهَلِ وهو الإطعامُ، ثُمَّ الكِسْوة، ثم العِتْق، وأنت مخيَّرٌ بينَ هذه الثلاثَةِ.

رابعها: فإن لَمْ تَجِدْ ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾، فإن لم يكُنْ عنْدَكَ إطعامٌ، ولَا كِسْوَةٌ، ولا ثَمَنُ رقبَةٍ، فإنك تصومُ ثلاثة أيامٍ متتابِعَةٍ أو متفرِّقَةٍ، فأنتَ بالخيارِ، فإن شِئْتَ تابَعْتَ، وإن شِئتَ فرَّقْتَ، لكن في قِراءَةِ عبد اللهِ بنِ مسعْودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **(فَصِيَامُ ثلاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ)**[1] وأَقَلُّ أحوالِ القراءَةِ أن تكونَ كالحدِيثِ؛ لأنَّ القارِئَ يرْوِيها عنِ الرَّسولِ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ولهذا يجِبُ التَّتابُعُ في هذِهِ الأيامِ الثلاثَةِ.

والمتَتابِعَةُ ضدُّ المتفرِّقَةِ، وكثيرٌ من العامَّةِ يظنُّونَ أن كفارَةَ اليمِينِ هي الصِّيامُ، ولكن هذَا غيرُ صحِيحٍ، فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ يكون إذا تعذَّرَ الإطعامُ والكِسْوَةِ، وإذا استَطَعتَ الإطعامَ والكسوةَ فالإطعامُ أحسنُ.

لذلك وجَـبَ على من عَلِمَ هذا أن يبلِّغَ هؤلاءِ العامَّـةَ، الذين يعتقدُونَ أنه ليس عنْدَهُم كفَّارةُ يمِينٍ إلا صيام ثلاثة أيَّامٍ؛ أنَّهم يُخيَّرُونَ بين ثلاثَةِ أشياءَ: الإطعامِ والكِسْوَةِ والعتْقِ، فإن لم يجِدُوا فالصِّيامُ.

القِسْمُ الثاني: نَذْرُ الطاعَةِ، من صلاةٍ أو صَدَقَةٍ أو صيَّامٍ أو حجٍّ أو عُمْرَةٍ أو بِرِّ الوالِدَيْنِ أو صِلَةِ رَحِمٍ، المهِمُّ أن ينْـذِرَ الإنسانُ نَذْرَ طاعَـةٍ، وهذا عليه أن يوَفِّيَ بِهِ وجُوبًا. ومثاله: رجلٌ قالَ: للهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أن أتَصدَّقَ اليومَ بعـشَرَةِ دراهِمَ. فهذا نذْرُ طاعَةٍ، وهي الصدَقَةُ بعَشَرَةِ دراهِمَ، فيلْزَمُهُ الآن أن يتَصدَّقَ بعشَرَةِ دراهِمَ في هذا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٥٦٦، رقم ١٢٥٠٤)، وعبد الرزاق في المصنف (٨/ ٥١٣، رقم ١٦١٠٢).

اليوم خاصَّة؛ لأنه عيَّنَهُ، فإن لم يفعَلْ، فأنا أخْشَى أن يحُلَّ به قولُهُ تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ [التوبة:٧٧]، ودليلُ وجوبِ الوفاءِ بنَذْرِ الطاعَةِ قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ»[١].

القسم الثالث: نَذْرُ المعصِيَةِ، مثالُ ذلك: رجلٌ قال: واللهِ لأغتَابَنَّ فُلانًا اليومَ. والغِيبَةُ فسَّرَها النبيُّ ﷺ بأنها: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»[٢]. سواءٌ كان ذلِكَ في عَيْبٍ خِلْقِيٍّ، أو عَيْبٍ خُلُقِيٍّ، حتى لو قلتَ: فُلانٌ قصيرٌ. تريدُ أن تَهْزَأَ منْهُ، وهو غيرُ حاضِرٍ، فهي غِيبَةٌ. أو قلت: فلانٌ سَرِيعُ الغضَبِ أحمْقُ. وهو غيرُ حاضِرٍ، فهذه غِيبَةٌ، فإذا عِبْتَهُ في خَلْقِهِ أو خُلُقِهِ أو دِينِهِ أو معاملَتِهِ فهذه هي الغِيبَةُ إذا كان غيرَ حاضِرٍ، فإن كانَ حاضِرًا فليستْ غِيبَةً لكنَّها سَبٌّ.

فهناك فَرْقٌ بين الغِيبَةِ والسَّبِّ، والعوامُ لا يُفَرِّقُونَ بينَهُما، فيجعَلُونَ الغِيبَةُ هي السَّبَّ، وهذا غيرُ صحيحٍ، فالسَّبُّ يكونُ وَجْهًا لوجْهٍ، والغيبَةُ تكونُ في غِيابِ المذْمُومِ؛ ولهذا سُمِّيَتْ غِيبَةً؛ لأنها قَدْحٌ في الإنسانِ في غَيْبَتِهِ. ولهذا مَثَّلَ اللهُ الغِيبَةَ برَجُلٍ يأكُلُ لحْمَ أخيهِ مَيْتًا؛ لأن الميِّتَ بمَنْزِلَةِ الغائبِ، لا يستَطِيعُ الدِّفَاعَ عنْ نفْسِهِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات:١٢]، والجوابُ: لا نُحِبُّ، فإذا كُنْتَ تكرَهُ أن تأكُلَ لحمَ أخيكَ مَيْتًا فاكْرَهْ أن تغتَابَهُ. ثم إن الغالِبَ أن الإنسانَ إذا تسَلَّطَ على عبادِ اللهِ فاغتَابَهُم، سلَّطَ اللهُ عليهِ مَنْ يغتَابُهُ، فتكونُ العُقوبَةُ حاضِرَةً.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، رقم (٦٦٩٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، رقم (٢٥٨٩).

فإذا قُلْنَا: نذَرَ رجُلٌ أن يغتَابَ أخاهُ في هذا اليـومِ. فهَذْا النَّذْرُ نَذْرُ معْصِيَةٍ، ولا يجوزُ الوفاءُ به؛ والدَّليلُ قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ»[1]، ولأَنَّه لو جازَ الوفاءُ بنَذْرِ المعصِيَةِ لكان هذَا وسيلَةً إلى انتهاكِ المحَرَّماتِ بالنَّذْرِ، فماذا يصنَعُ؟

اختلفَ العلماءُ، فمِنْهُم من قال: يلزمُهُ أن يكفِّرَ كفارَةَ يمِينٍ. ومنهم من قالَ: لا يلْزَمُهُ شيءٌ. والصَّحيحُ أنه يلْزَمُه أن يكَفِّرَ كفارَةَ يمِينٍ؛ لأن هذا نذْرٌ ولم يُوفِ، فيَلْزَمُهُ أن يكفِّرَ كفارَةَ يَمِينٍ.

القِسْمُ الرابعُ: نَذْرُ المباحِ، وهو أن يَنْذِرَ نَذْرًا معَيَّنًا، لكنَّهُ مباحٌ، والنذْرُ المعيَّنُ المباحُ مثلُ أن يقولَ: للهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أن أَلْبَسَ اليومَ ثَوْبِي. ويُعَيِّنُ الثوبَ، ولنَفرِضْ أن له ثَوْبًا أسودَ، وثوبًا أبيضَ، فقال: للهِ علَّي نَذر أن أَلْبَسَ اليوم ثَوبِي الأبيضَ. فهذا نَذْر مُباحٌ، وليس نَذْرَ طاعَةٍ.

يقولُ أهلُ العِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إن هذَا القِسْمَ مِنَ النَّذْرِ يخيَّرُ الإنسانُ فيه بينَ فِعْلِهِ وكفَّارَةِ اليَمِينِ، فيجْعَلونَ حُكْمَهُ حكمَ اليَمِينِ تمامًا، فهذا نذْرٌ، لكنَّه اختارَ أن يلبَسَ الأسودَ، وهذا يجوزُ؛ لأنه يَمِينٌ، لكنه يكَفِّرُ، وإن لَبِسَ الأبيضَ الَّذِي نَذَرَهُ فلا شيءَ عليهِ، وإن لم يلْبَسْهُ فعليهِ كفَّارَةُ يمِينٍ. إذن هذا النَّذْرُ حكْمُهُ حكمُ اليَمِينِ، والضابِطُ فيهِ أن يَنْذِرَ الإنسانُ شَيْئًا مباحًا، فحُكْمُهُ حكمُ اليمِينِ تمامًا، أي: يخَيَّرُ الإنسانُ بينَ فعْلِهِ وكفارَةِ اليمِينِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، رقم (٦٦٩٦).

القِسْمُ الخامِسُ: هو نَذْرُ اللَّجاجِ والغَضَبِ، كما يسمِّيهِ العُلماءُ، وهو: أن يقْصِدَ بنَذْرِهِ الحَمْلَ على الشيءِ، أو المنْعَ مِنَ الشيءِ. مثالُ ذلِكَ أن يقولَ: واللهِ إن لم أَزُرْ فُلانًا اليومَ فلِلَّهِ عَلَيَّ نذْرٌ أن أصومَ شهْرَيْنِ. فهنا الآن نَذَرَ صيامَ شهْرَيْنِ نذرًا مُعَلَّقًا بالزِّيارَةِ، ومرادُ الناذِرِ هنا هُوَ أنْ يحمِلَ نفْسَهُ على زِيارَتِهِ، فيكونُ هذَا حُكْمُهُ حكمَ اليَمِينِ؛ لأنه أرادَ به التوكيدَ، وعلى هَذَا فإنْ زارَهُ في اليومِ فلا شَيءَ عليهِ، وإن لم يزُرْهُ فعلَيْهِ كفارَةُ يَمِينٍ.

ونرجعُ إلى أصلِ المسألَةِ فنقول: هل عقْدُ النذْرِ جائزٌ أو مكْروهٌ أو محرَّمٌ؟

فنقول: هو دائرٌ بينَ الأمرينِ؛ إما الكراهَة وإما التَّحْريم؛ لأن النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ نهـى عنْه، وبيَّنَ عِلَّةَ النَّهْي بأن النَّذْرَ لا يأتِي بخَـيْرٍ، ولا يَرُدُّ قضاءً.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس السادس:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قالَ تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة:٨٤].

قولُهُ تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم ﴾ الضَّميرُ يعودُ عَلَى المنافِقِينَ، والخِطابُ للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والخطابُ الموَجَّهُ للرَّسولِ ﷺ إذا لم يَدُلَّ الدَّليلُ على أنه خاصٌّ بِهِ فهو عامٌّ له وللأُمَّةِ.

قوله: ﴿مَّاتَ أَبَدًا﴾ أي: أبَدًا لا تُصَلِّ عليهِ، وكانَ النَّبِيُّ ﷺ يصَلِّي على مَوْتَى المنافِقِينَ أوَّلًا؛ لأنه يعامِلُ المنافِقِينَ معامَلَةَ المسلِمِينَ، ولذلِكَ لم يقتُلْهُمْ، مع أنَّه يعْلَمُ بعْضَهُم بعينِهِ، ولم يقتُلْهُم حتى استؤذِنَ في قتْلِهِمْ فقالَ: «**دَعْهُ، لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1]، لأنَ المنافِقَ من أحسَنِ الناسِ لِسَانًا أمامَ الناسِ، فتجِدُهُ يلْقَى المسلِمَ فيُرَحِّبُ به ويبَجِّلُهُ ويعظِّمُهُ، وهو يوَدُّ أن يَعَضَّهُ بأنيابِهِ، لكنه حسنُ الأسلوبِ، فإذا كانَ هذَا يتظاهرُ بالإسلامِ فلا يَلِيقُ بِنَا أن نقتُلَهُ؛ لأن القلوبَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون:٦]، رقم (٤٩٠٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، رقم (٢٥٨٤).

لا يعلَمُـها إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ومن أظْهَرَ لنَا خَـيْرًا حَمَلْنَاهُ عليه، ما لم تَقُمِ الأدِلَّـةُ على خلافِ ذلِكَ.

إذن كانَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يصَلِّي عَلَى موتَى المنافِقِينَ، فنَهاهُ اللهُ فقالَ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾، وأكَّدَ هذا النَّهْيَ بالأبَدِيَّةِ.

قال: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ وكان مِنْ عادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أنه إذَا دَفَنَ الميِّتَ وقَفَ عليهِ، وقال: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ واسْأَلُوا له التَّثْبِيتَ؛ فإنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**»[1]، فنَهَاهُ أن يقُومَ عَلَى قـبْرِهِ؛ والسَّبَبُ: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، أي: خارِجُونَ عن طاعَـةِ الله، فَهُمْ ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بقُلوبِهِـمْ، ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ بأعْمالِهِمْ، فلا يُطِيعُونَ الله، فماتُوا على الفِسْـقِ والكُفْرِ.

ومن فوائد هذه الآية:

الفائدةُ الأُولَى: أن الموتَى مِنَ المسلِمِـينَ يُصَلَّى عليهِمْ، وهو كذلك، والصَّلاةُ على جِنازَةِ المسلِمِ فرْضُ كفايَةٍ، إذا قامَ بها مَنْ يكْفِي سقَطَ عَنِ الباقِينَ، وإذا صُلِّيَ عليها أوَّلَ مَرَّةٍ فجَمِيعُ المشتَرِكِينَ في هذه الصلاةِ يكونُونَ قَدْ أدَّوْا فَرْضًا، وهو فَرْضُ الكفايَةِ.

إذنِ المسلِمُ يُصَلَّى عليه وُجُوبًا؛ لأن هذا من حَقِّ المسلِمِ على أخيهِ، وقَدْ قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ**

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف، رقم (٣٢٢١).

أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»(١).

أي أنَّ أيَّ إنسانٍ قامَ على جنازَتِهِ أربعونَ رَجُلًا، وهم يقولونَ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارحَمْهُ. إلى آخِرِ الدُّعاءِ، فإنَّ اللهَ يُشَفِّعُهم فيه، فيَغْفِرُ له ويَرْحَمُهُ. هكذا قالَ النَّبيُّ ﷺ، لكنه اشْتَرَطَ شَرْطًا ثَقِيلًا، وهو أَلَّا يُشْرِكُوا باللهِ شيئًا، لا شِرْكًا أصغَرَ، ولا شِرْكًا أكبرَ.

فليس هناكَ من يخْلُو من ذلِكَ إلا النادِرُ، فنجِدُ من يقولُ في حَلِفِهِ: والنَّبِيِّ لا أفعَلُ كذا وكذا. فمِثْلُ هذا لا يدْخُلُ في هذَا الحدِيثِ، فلا تَنْفَعُ الميِّتَ شفاعَتُهُ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قَيَّدَ فقالَ: **«لا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا»**. ولا تَظُنُّوا أنَّ الإخلاصَ سَهْلٌ، بل هو أصعبُ مَا يكونُ على الإنسانِ، قالَ بعضُ السَّلَفِ: ما جاهَدْتُ نَفْسِي علَى شَيْءٍ مجاهَدَتَها على الإخْلاصِ.

إذنِ الصَّلاةُ على المسلِمِ واجِبَةٌ، وعلى الكافِرِ حرامٌ، وعلى المنافِقِ الذي نعْلَمُ نِفاقَهُ حرامٌ. ولكن إذا قُدِّمَ رَجُلٌ ماتَ للصلاةِ عليهِ، وهو لا يُصَلِّي، ونعرفُ أنه لا يصَلِّي، لا فِي المسجِدِ ولا في البَيتِ، فإنَّ الصلاةَ عليهِ تَحْرُمُ، حتى لو صَلَّى عليهِ جَميعُ الخَلْقِ، فلا تَنْفَعُهُ هذه الصلاةُ. ويجب:

أَوَّلًا: أن يُخاطَبَ الناسُ فيُقالَ: لا تُصَلُّوا على فُلانٍ.

ثانيًا: بالنِّسْبَةِ له لَنْ ينتَفِعَ بهذَا لأنه كافِرٌ، والكافِرُ لا ينتَفِعُ بشيءٍ مِنَ الأعمالِ الصالحَةِ، لا من فِعْلِ غيرِهِ، ولا من فِعْلِ نفْسِهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم (٩٤٨).

ولكن إذا كُنْتَ تعلَمُ أن الميِّتَ لا يصَلِّي في المسجِدِ، لكنَّكَ لا تَدْرِي هل هُو يُصَلِّي في بيتِهِ أو لا، ورُبَّمَا قيل لك: إنه لا يصلي في البيت، لكنك لم تتيقَّن، فصَلِّ عليه بالشَّرْطِ، تقولُ: اللَّهُمَّ إن كانَ مؤمِنًا فاغْفِرْ له وارْحَمْه.

واللهُ تعالى يعلَمُ المؤمِنَ وغيرَ المؤمِنِ، فإن كان مُؤمِنًا شفَّعَكَ فيهِ إذا كُنْتَ لا تُشْرِكُ باللهِ شيئًا، وإن كان غيرَ مؤمنٍ فأنتَ قد بَرِئْتَ منْهُ.

فإذا قال قائل: هَلْ يجوزُ الاستِثناءُ في الدُّعاءِ؟

قلنا له: نَعَمْ، يجوزُ الاستثناءُ في الدُّعاءِ، والدَّليلُ أنَّ اللهَ تعالى قالَ في آيَةِ المُلاعَنَةِ بينَ الزَّوْجِ والزوجَةِ: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور:٦-١٠] ووَجْهُ الدَّلالَةِ أن الزَّوْجَ يقولُ: إن لعنَةَ اللهِ عليهِ إن كانَ مِنَ الكاذِبِينَ. وهذَا دعاءٌ لكنَّه مقيَّدٌ، وكذلِكَ الزوجَةُ تقولُ: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور:٩]، إذن الاستِثْنَاءُ في الدُّعاءِ جائزٌ.

لكن هل يجوزُ لقائلٍ أن يقولَ: اللَّهُمَّ إن كُنْتُ أذنَبْتُ فاغْفِرْ لي، وذلك إذا كان قد عَمِلَ عمَلًا وهو يشكُّ هل هو جائزٌ أو لا؟

نقول: لا مانِعَ في ذلك في عملٍ بعينِه، أما أن يُطْلِقَ فلا؛ لأنه ما مِنْ إنسانٍ إلا وقَدْ أخطَأَ.

الفائدَةُ الثانيةُ: فيها دَليلٌ على تحْرِيمِ الصلاةِ على مَنْ علِمْنَا نِفَاقَهُ، فإذا عَرَفْنَا

أن هذَا الرجُلَ يأتِي إلى أهلِ الخيرِ ويصانِعُهم، ويُثْنِي على أهلِ الخيرِ والطاعَةِ، لكنَّه مِنْ خَلْفِهِمْ يظاهِرُ الكفَّارَ على المسلمينَ، ويُوالي الكُفَّارَ ويُعادِي المسلِمِينَ، ويقول لأصحابِهِ مِنَ الكفَّارِ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤] أي: بالمسْلِمِينَ، فهذا معلومُ النِّفاقِ، لا يجوزُ أن نُصَلِّيَ عليهِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾.

الفائدَةُ الثالِثَةُ: فيهَا مشروعِيَّةُ القيامِ على القَبْرِ؛ لقولِهِ في المنافِقِينَ: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾، فيُفِيدُ هذا أنَّ المؤمنينَ يُقامُ على قُبورِهِمْ، لكن لا يُقَامُ على قُبورِهِمْ بأن تُذْبَحَ الذَّبائِحُ عندَ القَبْرِ، أو تُدْفَعَ الدراهِمُ صدَقَـةً، أو أن يُقْرَأَ القُرآنَ؛ لأنه لو كانَ المرادُ بذلِكَ ما ذُكِرَ لكانَ أوَّلَ مَن يعمَلُ بذلِكَ الرسولُ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، ولكنَّه كان يمُرُّ على القَبْرِ فيَقِفُ ويقولُ: «**استَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ واسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتُ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**»[١].

إذن إذا تَمَّ دفْنُ الميِّتِ فإننا نقِفُ عليه ونقولُ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ اغفِرْ له، اللَّهُمَّ اغفِرْ لهُ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ، اللهم ثَبِّتْهُ. ثم نَنْصَرِفُ، ولا يصِلُ بغيرِ هذَا أبدًا، لا قراءة قرآنٍ، ولا صدَقَة، ولا ذبائح؛ لأنه لو كانَ هذا هو الحَقَّ لكانَ أوَّلَ من يعْمَلُ بِهِ الرَّسولُ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وأصحابُهُ، وهم لَمْ يعمَلُوا بذلِكَ، وإذا كانُوا لم يعمَلُوا به فليسَ بحَقٍّ، وماذا بعدَ الحقِّ إلَّا الضلالُ، ولهذا قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف، رقم (٣٢٢١).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧).

الفائدَةُ الرابِعَةُ: فيها بيانُ عُلُوِّ الشَّريعَةِ، وأنها شَرِيعَةٌ مبنِيَّةٌ على المصالِحِ، ودَرْءِ المفاسِدِ؛ لأن اللهَ لما نَهى عنِ الصلاةِ على المنافِقِينَ والقيامِ على قُبورِهِمْ علَّلَ هذا، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾[التوبة:٨٤]، فَكُلُّ حكمٍ في الشريعَةِ لا بُدَّ له مِنْ حكْمَةٍ، لكن لا يلزمُ أن نعلَمَ هذِهِ الحكْمَةَ، قد نعلمَهُا وقد لا نعلَمُها، لكنَّنَا نؤمِنُ بالله تعالى، وأن جميعَ مَا حَكَمَ بِهِ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإنه لِحكْمَةٍ بالِغَةٍ، علِمَهَا من علِمَهَا، وجَهِلَها من جَهِلَهَا.

فإذا قالَ قائلٌ: لماذا كانَ الظُّهْرُ أربعًا، وكانَ المغْرِبُ ثلاثًا، والفَجْرُ اثنتَيْنِ؟ نقولُ: اللهُ أعلَمُ، إن عَلِمْنَا الحِكْمَةَ فهذا فضْلٌ مِنَ اللهِ، وإن لم نَعْلَمْ فعلَينَا التَّسْلِيمُ. أو قالَ: لماذا لم تكُنِ الظُّهْرُ سِتًّا، أو المغربُ خمسًا، أو الفَجْرُ أربعًا؟ قلنا: كلُّ هذا وارِدٌ، لكن كونَ الظُّهْرِ أَرْبعًا، والفجرَ اثْنَتَيْنِ، فهذا أمرُهُ إلى اللهِ. لكننا نعْلَمُ أن المغرِبَ ثلاثٌ لأنها وِتْرُ النهارِ.

فلو قالَ قائلٌ: الوِتْرُ سبْعٌ أيضًا وخمسٌ، فلماذا خُصَّتْ بثلاثٍ؟ قلنا: اللهُ أعلَمُ، قد نعْلَمُ هذا وقد لا نَعْلَمُهُ.

وأنا أُوصِيكُمْ أن تعْلَمُوا أن جميعَ ما أمَرَ اللهُ به أو نَهى عنْه، فإنه لِحكْمَةٍ بالِغَةٍ، لكن قد نَعْلَمُها وقَدْ لا نَعْلَمُها.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

الدرس السابع:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:٩١].

ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفْيَ الحَرَجِ عن ثلاثَةِ أصنافٍ مِنَ المعْذُورِينَ:

الصِّنْف الأوَّل: الضُّعفاء الذينَ عُذْرُهم قائمٌ مستَمِرٌّ غالِبًا.

والثاني: المَرْضَى الذين عُذْرُهم طارِئٌ.

والثالثُ: الفُقَراءُ الَّذِينَ لا يجِدُونَ أمْوالًا يَسْتَعِينونَ بها على الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ.

وهذِهِ القاعَدَةُ مِنْ كتابِ اللهِ -وهِيَ إسقَاطُ الواجباتِ عَنِ المعْذُورِينَ- هِيَ في الحَقيقَةِ مِنْ أصلِ دِينِ الإسلامِ؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦]، ويقولُ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»[1]، فهذِهِ قاعِدَةُ الإسْلامِ التي يدُورُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ...، رقم (١٣٣٧).

عليهَا الإسلامُ، والإسلامُ في الحقِيقَةِ كما أنه يُسْرٌ في جَميعِ ما شَرَعَه، فإنه أيضًا يقْتَضِي التَّيْسِيرَ عندَ حُلولِ الطوارِئ التي تَقْتَضِي التَّيْسِيرَ، وللهِ الحَمْدُ والمِنَّةُ.

ولكن -يا إخوانَنَا- يجِبُ علينا أن نَعْرِفَ أن هذِهِ الآيَةَ نَفَى اللهُ فيها الجُناحَ أو الحَرَجَ بشَرْطِ إذا نَصَحُوا لله ورَسولِهِ، أي: إذا كانُوا ناصِحِينَ مُخْلِصِينَ للهِ ورَسولِهِ، ولَوْلا العُذْرُ لقامُوا بما يجِبُ عليهِمْ، ولذلك تجِدُهُم- مع هذَا العُذْرِ وفواتِ القِيامِ بالواجِبِ- محزُونِينَ غيرَ مَسْرُورِينَ بذلك.

إذن مجَرَّدُ العُذْرِ الذي يُسقِطُ الواجباتِ في الدِّينِ ليسَ وَحْدَهُ مُوجِبًا لارتِفَاعِ الحَرَجِ عن الانسانِ حتى يكونَ الإنسانُ ناصِحًا للهِ ورَسولِهِ، بمعنى أنَّه لولَا هذَا العُذْرُ لكانَ قائمًا بما يجِبُ عليهِ. وما أكثرَ الَّذِينَ يَغْفُلُونَ عن هذا الشَّرْطِ مِنَّا حينَ يقَعُ لهم مِنَ العُذْرِ ما يُسْقِطُ عنهم الواجباتِ، ولكنَّنَا لا نَنْتَبِه لهذا الشَّرْطِ الذي اشْتَرَطَهُ اللهُ وهو: النَّصِيحَةُ لله ورسولِهِ.

فالَّذِي أدْعُو نَفْسِي وإيَّاكُم إليهِ أن نعرِفَ أنَّه عِنْدَمَا تَحْدُثُ لنا مِثْل هذه الأعْذارِ الَّتِي لا نستطيعُ القيامَ فيهَا بالواجِبِ؛ نعرف أنه يجِبُ علينا أن نَسْتَشْعِرَ أنَّه لا بُدَّ من أن يكونَ الإنسانُ ناصِحًا لله ورَسولِهِ، شاعِرًا بنَفْسِهِ أنه لَوْلَا العُذْرُ لكانَ قائمًا بما أوْجَبَ اللهُ عليهِ ورَسولُهُ.

أما قولُهُ تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾، فقد اتَّخَذَها الفُقَهاءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قاعِدَةً في كثيرٍ مِنَ المسائلِ، لا سِيَّما الولايات والتَّصَرُّفات للغيرِ، فقَالُوا مثلًا: إنَّ الوَلِيَّ إذَا تَصَرَّفَ في مالِ الصَّبِيِّ محْسِنًا في تَصَرُّفِهِ يرَى أن ذلِكَ هو طريقُ الإحسانِ، ثمَّ تَبَيَّنَ له أنَّه أخطأَ في هذا التَّصَرُّفِ؛ فإنه لا ضَمانَ عليهِ ولا إثْم.

فلْنَفْرِضْ أن هذا الرَّجُلَ كانَ وَلِيًّا على يَتيمٍ، وكان مِنْ جملَةِ مالِ اليَتِيم عَقارٌ، ورأى الوَلِيُّ أن المصلحَةَ تقْتَضِي بيعَ العقارِ، فباعَ العقارَ، ثُمَّ ارتَفَعَتِ العقاراتُ بعد ذلِكَ، فإن ذلكَ الوَلِيَّ ليسَ عليه إثمٌ، وليس عليه ضمانٌ في تَصَرُّفِهِ ذلك، لأنه حينَ التَّصَرُّفِ كان مُحْسِنًا، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومثلُ ذلِكَ أيضًا: الرَّجُلُ يُزَوِّجُ ابنتَهُ شخصًا رَضِيَهُ في دِينِه وخُلُقِهِ، ثم بعدَ ذلِكَ ينْقَلِبُ هذا الشخصُ ويكونُ سَيِّئًا في دِينِهِ وخُلُقِهِ، فتِجِدُ الرَّجُلَ يندَمُ ويقولُ: لو أنِّي لَمْ أُزَوِّجْه! وتقَعُ في نَفسِهِ حسْرَةٌ، ولكنه لا يُحاسَبُ على ذلك، ولا ينْبَغِي أن يَحْزَنَ أو ينْدَمَ؛ لأنَّه حينَ تَزْوِيجِهَا به كان محسِنًا، و﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾، وعِلْمُ الغَيْبِ والمستَقْبَلِ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكن يجِبُ على الإنسانِ أنْ يتحَرَّى في تَزْويجِ موليته تحَرِّيًا كامِلًا، وإذا كنَّا قبلَ سنواتٍ نقولُ: إنَّ الإنسانَ إذا خُطِبَتْ منْهُ موليته يجِبُ أن يتحَرَى مرَّةً واحدةً، فإننا الآن نقولُ: يجِبُ أن يتحَرَّى عشرَ مراتٍ أو أكثرَ؛ لأن الأمورَ تَغيَّرَتْ، ولأن الظواهِرَ الآن تخدَعُ الإنسانَ، فكم من إنسانٍ تُحْسِنُ الظَّنَّ بِهِ لكونِهِ من قَبيلَةٍ معرُوفَةٍ بالالتِزام والتَّدَيُّنِ والتحَفُّظِ، فإذا هو على عكسِ ما كان عليه أهلُهُ، فتَجِدُهُ من أهلِ الفُجورِ والفِسْقِ وشُرْبِ الخُمور وتَرْكِ الصلاةِ وغير ذلك.

لهذا يجبُ علينا -أيُّها المسلِمُونَ- أن نختَارَ لمولياتنا اللاتي ولَّانا اللهُ عليهنَّ مَن نَراهُ أكملَ في دِينِهِ وخُلُقِه، وأن نتَحَرَّزَ تحَرُّزًا كامِلًا في هذا الوقتِ الَّذي أصبَحَ فيه الأمرُ كما تشاهِدُونَ عندما تتَفَكَّرُونَ في أحوالِ المجتَمَعِ.

ويندرِجُ تحتَ هذه القاعِدَةِ العَظِيمَةِ: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ كثيرٌ مِنْ حوادِثِ السيَّاراتِ أحيانًا، فيتَصَرَّفُ السائقُ في السيارةِ تَصَرُّفًا يَرَى أنه أحسنُ ما يكونُ وأقـرَبُ ما يكونُ إلى السلامَـةِ، ويكونُ الأمـرُ بالعكْسِ، فَفِي مثلِ هذَا لو حَدَثَ حادِثٌ وماتَ مَعَهُ أحدٌ فإنه لا يَضْمَنُهُ بِدِيَةٍ ولا يجِبُ عليه به كفَّارَةٌ.

لنَفْرِضَ أن شَخْصًا يسيرُ في الطَّريقِ، وقابَلَتْهُ سيارَةٌ في الاتجاه المخالِفِ، فَعَدَلَ عنْها، يريدُ السلامَـةَ، ويَرَى أن العُدُولَ عنها أسْلَمُ وأضمَـنُ، ثم بهذا الانحرافِ يحصُلُ له حادثٌ؛ إما انْقلابٌ أو غيرُهُ، ثم يموتُ مَعَه أناسٌ، فإنه ليسَ عليه ضمانٌ بِدِيَةٍ، وليسَ عليه كفَّارَةٌ أيضًا؛ لأنَّ هذا القائدَ الذِي يقودُ هذِهِ السيَّارَةَ وُلِّيَ عليهِمْ بمُقْتَضَى رُكوبِهِمْ معه، والوَلِيُّ إذا تصَرَّفَ تَصَرُّفًا يَرَى أنه الأحسنُ فإنه لا ضَمانَ عليهِ فِيمَا نتَجَ من هذا التَّصَرُّفِ، لأن اللهَ يقولُ: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

بِخلافِ مَا لوِ انْحَرَفَتِ السيَّارَةُ لتَتَفادَى الخطَرَ، ثم صَدَمتَ أحْدًا، أوِ انْقَلَبَتِ السيَّارَةُ على أحدٍ، فإنك تَضْمَـنُ هذا الشخصَ؛ لأن هذا الشخصَ ليسَ رَاكِبًا في السيَّارَةِ، وليس لكَ ولايَةٌ عليهِ، وإنَّما ماتَ بسببِ تَصَرُّفِكَ أنت، وهو ليس مِنَ الرُّكَّابِ، فيجِبُ أن نُفَرِّقَ بينَ هذه المسألَةِ وتلك؛ لأنَّ لكلٍّ مِنْهُما حُكْمًا، والسببُ فيهِمَا مختَلِفٌ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

الدرس الثامن:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ، وأُصَلِّي وأسَلِّمُ على نَبِيِّنا محمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المتَّقِينَ، وعلى آله وأصحابه ومَنْ تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أما بعدُ:

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة:٩٤].

ونظيرُ هذه الآيةِ: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].

فهاتانِ الآيتانِ أو إحْدَاهُما تُكْتَبُ على بعضِ المنشآتِ، أو المتاجِرِ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، فتُوضَعُ الآيةُ في غيرِ مَوضِعِهَا؛ لأن هاتَيْنِ الآيتَيْنِ في المنافِقِينَ، وهما تهديدٌ، وليستا ثناءً، ولا وَعْدًا، بل هما وعيدٌ، فكيف نَكْتُبُهما على المتاجِرِ وعلى المنشآتِ على وجْه الثَّناءِ؟! هذا عكْسُ ما أرادَ اللهُ بهذِهِ الآيةِ.

ثانيًا: في الآيتَيْنِ محذُورٌ آخَرُ، وهو أنه لا يُمْكِنُ أن يَرَى الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَمَلَنا الآن.

ولذلك نَرْجُو من إخوانِنَا الذين كتبُوا على متاجِرِهم، أو على منشآتِهم: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أن يَمْحُوها مِنْ هذه المتاجِرِ والمنشآتِ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

الدرس التاسع:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال الله تَعالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣].

قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ قَالَ اللهُ تَعالَى لِلنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾، وَالمرادُ بِالصَّدَقة هُنَا الزَّكَاةُ.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ منَ الذُّنوبِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قَالَ: «**وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ**»[1].

قَوْلُهُ: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ يَعْني: تنمِّي أَخْلاقهم؛ لِأَنَّ باذلَ المالِ يُلحَقُ بِالكرماءِ، ومانعَ المالِ يُلحَقُ بِالبُخلاءِ، وَلَا شَكَّ أنَّ الكرمَ زكاةٌ.

ومنْ زَكاةِ الصَّدَقَةِ أنَّ المتصدقَ يَجِدُ انشراحًا عظيمًا فِي صَدْرِهِ لَا يَعْلمهُ إِلَّا مَنْ تَصَدَّقَ، حَتَّى إِنَّه رُبَّمَا يَتَمنَّى أَن عندهُ جَمِيع مَاله حَتَّى يَتَصدقَ بِهِ؛ منْ شدَّة مَا يَجد مِنِ انشراحِ الصدرِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: ادعُ لَهُم، ولقدِ امتثلَ النَّبِـيُّ -صَلَوات اللهِ وَسَلَامه علَيْه- هَذَا الأمرَ، فكَانَ النَّاسُ يَأْتونه بِالصَّدقات فيقُولُ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ**»[1].

فَإذَا أَعْطاك شَخْص زَكَاة أَوْ صَدَقة تَطَوع، فَقُل لَه: صَلَّى اللهُ عَلَيْك، وأَخْلَف عَلَيْك، وَجَعَل فِي مَالِك بَرَكةً.

بعضُ الفُقَرَاءِ إِذَا أَعْطَيْته مَا تَيَسر مِنَ المالِ قَالَ: قليلٌ! وتَجِدُ قَلبهُ مَمْلوءًا علَيْك، وَهَذَا قَد أُوتِيَ الشحَّ، وكَانَ يَنْبَغِي لَه أَنْ يَدعوَ لِهَذَا المتصدِّقِ، وَرُبما إِذَا دَعا يَعطف عَلَيْهِ المتصدِّق فيَزيد فِي الصَّدَقَة.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب صلاة الإمام، ودعائه لصاحب الصدقة، رقم (١٤٩٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقته، رقم (١٠٧٨).

الدرس العاشر:

إِنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أَنْ لا إلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بعدُ:**

فقد قالَ اللهُ تعالى في آخِر سُورَة التَّوْبَة: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

والمقصودُ بالرَّسُولِ هنا هُوَ النبيُّ مُحَمَّد ﷺ.

قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منكم، لَيْسَ أجنبيًّا عنكم، تعرفونه، وتعرفون أمانَتَه، وتعرفون صِدقه، وتعرفون نُصحه، حتَّى كانَ مُحَمَّدٌ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قبل أَنْ يُوحى إليه يُسمَّى عند قُرَيْش الأمينَ والصادِقَ، وبعد أن جاء الوحي صار عندهم الكذَّاب، الساحِر، الكاهِن، المجنون، الشاعر، والعِيَاذُ باللهِ، فالهوى يُعمي ويُصِمُّ.

كيف تَصِفُونه أولًا بالأوصاف الحَميدة، ثمَّ لما جاءكم بالحقِّ أشركتُم به، ووصفتُموه بالأوصاف الذميمة؟!

ومِن المعلوم أَنَّ الرَّسُول مِن النفس وسوف يَنصح لمن كانَ منهم؛ لأنَّهم بمنزلة النفس منه، ولهذا قال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، ﴿عَزِيزٌ﴾ بمعنى: شاقٌّ، ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: شَقَّ عليكم، فكل ما يَشُقُّ عَلَى الأُمَّة فإنَّه شاقٌّ عَلَى الرَّسُول ﷺ.

وسآتيكم بأمثلة:

المثال الأوَّل: قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُم بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ**»(١)، أو «**مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ**»(٢). فهنا مَنَعَه مِن أمرِهم وإلزامهم بالسواك خوفُ المشَقَّة.

المثال الثاني: قال ﷺ وقد تأخَّر ذاتَ ليلة عن صَلَاة العِشَاء، حتَّى مضى عامَّة اللَّيْل: «**إِنَّهُ لَوَقْتُهَا لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي**»(٣). إذن كانَ ﷺ يُراعي أحوال الأُمة.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات:٧]، أي: لَشَقَّ عليكم؛ لأنَّ الصَّحَابَة يطلُبون مِن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمورًا لِعُلُوِّ هِمَّتِهم، وحُبِّهم للخير، ولكن الرَّسُول ﷺ لا يُطيعهم؛ لأنَّه يعلم أنَّه لو أطاعهم لَشَقَّ عليهم ذلك.

وانظر إِلَى قضية عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ العاصِ، قال: أُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنِّي أَقُولُ: وَاللهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ، وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ، فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قُلْتُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، قال: «**فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ**»، قُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «**فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ**»، قُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «**فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا، فَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ أَفْضَلُ الصِّيَامِ**». فَقُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ

---

(١) أخرجه البخاري تعليقا: كتاب الصوم، باب سواك الرطب واليابس للصائم.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة، رقم (٨٨٧)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب السواك، رقم (٢٥٢).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب وقت العشاء وتأخيرها، رقم (٦٣٨).

أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ**»[(١)].

وفي حديثٍ آخر: «**أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا**»[(٢)].

فما مَكَّنَهُ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِن أَنْ يَصُومَ النهارَ ويقوم اللَّيْل.

المثال الثالث: جاء ثلاثةُ نَفَرٍ يسألون أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ: كيف كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يعمل في السِّرِّ؟ يعني: في الأمر الَّذِي لا يَعْرِفُه النَّاسُ، فأَخْبَرَتِ النِّسَاءُ هَؤُلاءِ النفرَ أنَّه كانَ يفعل كذا ويفعل كذا، قَالُوا: والله هَذَا عملٌ قليل، لكن يقولون: الرَّسُول ﷺ قَدْ غفَرَ اللهُ له ما تقدَّم مِن ذَنْبه وما تأَخَّرَ، أما نَحْنُ فلا يَكْفِينا هذا، فقال أحدهم: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فبلغ ذلك النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقال: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[(٣)]، كل هَذَا مِنْ أَجْلِ أَلَّا يَشُقَّ عَلَى الأُمة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب صوم الدهر، رقم (١٩٧٦)، ومسلم: كتاب الصيام باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، رقم (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب من نام عند السحر، رقم (١١٣١)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا، رقم (١١٥٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه واشتغال من عجز عن المؤن بالصيام، رقم (١٤٠١).

المثال الرابع: قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ بينَ الظُّهْرِ وَالعصر، وَبَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ فِي غَيْرِ خَوْفٍ وَلَا مَطَرٍ»، وعِندمَا سُئِلَ ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أَرَادَ أَلَّا يُحْرِجَ أُمَّتَهُ»[1]. ومعنى يُحرجها أي: يُوقِعها فِي الحَرَج، يعني: أَنَّ الجَمع إذا كانَ عَلَى الإِنْسَان مَشَقَّة فِي تَرْكِه فليَجْمَعْ، وأَمَّا إذا لم تكُن مَشَقَّة، فلا يَجْمَع، ولهذا جاز الجَمعُ للمَرَضِ ولو كُنت فِي البَلد، وجاز الجَمْعُ للمَطَر، ولو كنت فِي البلد، وجاء الجَمع للرِّيحِ الشديدة الباردة، ولو كُنت فِي الحَضَر، كل ذلك مِنْ أَجْلِ أَلَّا يَشُقَّ عَلَى الأُمة.

إذن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: أَنَّه يَشُقُّ عليه ما شَقَّ عليكم، وله أمثلة كثيرة.

قوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو أحرصُ النَّاس عَلَى النَّاس، أي: عَلَى المُؤْمِنِينَ به، فهو حريصٌ علينا؛ يدلنا عَلَى الخير، ويأمُرُنا به، ويحُثُّنا عليه، ويُبَيِّن فَضْلَهُ، ويُبَيِّن الشَّرَّ، ويُحذِّرُنا منه، ويُبَيِّن سُوء عاقِبَتِه، وكُلُّ هَذَا مِنْ أَجْلِ أن تَسْتَقِيمَ عبادتُنا، وأن تَسْتَقِيمَ أخلاقُنا، وأن تَسْتَقِيمَ مُعاملاتنا، وأَنْ يَستقيمَ منهجُنا وسُلوكنا؛ وذلك مِن حِرص النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ثم قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يعني أَنَّه يرحم المُؤْمِنِينَ، ولا سِيَّما الضُّعفاءُ منهم، كاليتامى والفقراء، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. والرأفة رحمةٌ فِي رِقة، وعلى هذا فالرأفة أخصُّ من الرحمة، فكلُّ رأفةٍ رحمةٌ، وليس كل رحمةٍ رأفةً.

ولو أردتم أن تعرفوا الفرق قلنا: إِنْسَان أراد أَنْ يُداوِيَ شخصًا، فداواه لكن

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع، باب الجمع بين الصلاتين في الحضر، رقم (٧٠٥).

بِشِدَّة، فمثلًا يَبُطُّ الجـرحَ بِشِدَّة، ويأتي بالدواء الحارِّ يَضَعُه فِي الجـرح، فهَذِهِ رحمـة لا شكَّ؛ لأنَّه دَاوَاهُ.

طبيبٌ آخَرُ يأتي بِرِفْـقٍ وبِلِينٍ، ويقول للمريض: هَذَا سهلٌ، وليس فيه إِلَّا كَوَخْزَةِ شوكة. ثمَّ يحاول أَنْ يأتيَ بالأدوية الباردة، فكلاهما راحِم، لكنَّ الثَّانيَ رَأَف بالمريض، والأول فيه رحمةٌ بلا رأفةٍ.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩].

قوله: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ فِي ظاهِرِها تَحتمل أَنْ تَكُونَ فِعلًا مُضارِعًا حُذِفت منه إحدى التاءين، والأصلُ: فإِنْ تَتَوَلَّوا، لكن آخر الآية يدل عَلَى أنها فِعل ماضٍ، وأنه لا حَذْفَ فيها، وهذا هُوَ الصَّحيح، فمعنى ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: أعرَضوا.

قوله: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني: فَوِّض أمرَك إِلَى الله، وقل: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾. ومعنى: حَسبي، أي: كافِيَّ، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق:٣].

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبودَ حَقٌّ إِلَّا هُوَ عَزَّوَجَلَّ.

فإِنْ قالَ قائلٌ: هَذِهِ الآية تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الحَسْب هُوَ الله وحده، وإنما دلَّت عَلَى ذلك لأنَّ المبتدأ فيها مَعرفة، والخبر مَعرفة، وإذا كانَ المبتدأ مَعرفةً والخبر مَعرفة، دَلَّ ذلك عَلَى الحَصر، أي: حسبيَ اللهُ وَحْدَهُ لا غيْرَ، وإذا قرَّرنا هَذَا فما الجَمع بينه وبين قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤]؟

فالجواب: أنَّ قولَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لَيْسَ معطوفًا عَلَى لفظِ الجلالة، يعني: لَيْسَ المعنى: حَسْبُكَ اللهُ، وحَسْبُكَ مَن اتَّبَعَك مِن المُؤْمِنِينَ، وإنما هُوَ معطوف عَلَى الكاف فِي قوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي: حسْبُك اللهُ، وحَسْبُ مَن اتَّبعك مِن المُؤْمِنِينَ، فيَتَعَيَّنُ هذا؛ لأنَّ الحَسْبَ -وهو الكافي- لا يكون إِلَّا لله وَحْدَهُ عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود حَقٌّ إِلَّا هُوَ، وهَذِهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيد، ومَن كانَت آخِرَ كلامِه مِن الدُّنيا دَخَل الجنَّة.

ومعنى هَذِهِ الكلمة العظيمة: لا معبُود حَقٌّ إِلَّا هُو، وعلى هذا، فخَبَر (لا) محذوف، وتقديره: حقٌّ، وتكون (إلا) أداة استثناء، و(هو) بَدَلٌ مِن الخَبر المحذوف.

قالَ بعضُ العُلَماء: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ التقديرُ: لا إله موجودٌ إِلَّا هو. وهَذَا التقرير لَيْسَ بصحيح؛ لأنك لو قُلت: لا إلهَ موجودٌ إِلَّا اللهُ. كَذَّبَكَ الواقع، فهناك آلهةٌ تُعبَد مِن دون الله، ولهذا قالَ الكفَّار فِي حقِّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص:٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص:٨٨].

ولو قلنا: لا إله موجودٌ إِلَّا الله. لكانت كل هَذِهِ الأصنام هِيَ الله، وهذا لا شَكَّ أنَّه خطأ، ولذلك الَّذِينَ قَدَّرُوا أَنَّ الخَبر (موجودٌ) هَؤُلاءِ لو تأمَّلُوا ماذا يترتب عَلَى هَذَا التقدير لَفَرُّوا منه فِرَارَهُم مِن الأَسَد.

إذن التقديرُ الصَّحيح: لا إله حَقٌّ إِلَّا الله، وما عَدَا الله عَزَّوَجَلَّ فهو باطل.

واستمع إِلَى قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

واعلمْ أَنَّ الإله هُوَ المعبودُ حُبًّا له، وتَعظيمًا له، فأنت تعبُد الله محبَّةً فيه عَزَّوَجَلَّ وخوفًا منه، وتعظيمًا له، وبتعظيمك إياه تَتْرُكَ محارِمَهُ، وبِمَحَبَّتِك إياهُ تفعل أوامِرَهُ، والشَّرع كُلُّه أوامِرُ ونَواهٍ، فالأوامرُ مَبْنَاها عَلَى المَحبَّة، فأُصلِّي لأنالَ محبَّة الله، وأُزكي لأنالَ محبَّة الله، والإنسانُ يَترك الزِّنَا خوفًا مِن الله، وتعظيما له. ولهذا كانَ مبنى العِبادة عَلَى هذين الأمرين: الحُبّ، والتعظيم، فبالحُبِّ يكون فِعل الأوامر، وبالتعظيم يكون تركُ النَّواهي.

قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فِي هَذِهِ الجملة حَصْرٌ، يعني: تخصيص الحُكم بشيءٍ مُعَيَّن لا يَتَعَدَّاهُ إِلَى غَيْرِه، فـ(على) حرفُ جَرٍّ، وحَرْفُ الجَرِّ لا بُدَّ له مِن عامِلٍ يتعلَّقُ به، وتسمعون فِي الإعراب: الجارُّ والمجرُور مُتَعَلِّقٌ بكذا، فـ(على) حرفُ جَرٍّ، وعامله: ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ قُدِّم المعمولُ هنا عَلَى العامل، وتقديمُ المعمول عَلَى العامِلِ يُفيد الحَصْرَ.

انظُر إِلَى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ معناها: لا نَعْبُد إِلَّا إياك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] معناها: لا نستعينُ إِلَّا إيَّاك.

إذن ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: لا أتوكَّلُ إِلَّا عَلَى الله.

قالَ العُلَماء: التوكُّل: صِدقُ الاعتماد عَلَى الله فِي جَلْبِ المنافع، ودَفْعِ المَضارِّ، مَعَ الثقة باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وبعضهم قال: التوكُّل: تفويضُ الأمرِ إِلَى الله تفويضًا مُطلَقًا. وهذا أجمعُ وأَخْصَرُ أَنْ تُفوِّض أمرَك إِلَى الله، كما قالَ مُؤمِنُ آلِ فِرْعَوْن: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر:٤٤]، فالتوكُّل أن تُفوِّض أمرَك إِلَى الله فِي كل

شيء، فتتوكَّل عَلَى الله فِي كل شيء، حتَّى فِي أكلِك وشُربك، فلو لا أَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَسَّرَ لك ما حَصَّلْتَ هذا، فِي لِباسِك، وفِي زواجِك، وفِي تَحْصِيلك العِلمَ، ففوِّض أمرَك إِلَى الله.

ولكن هل يَلزم مِن التوكُّل أَلَّا نفعلَ الأسباب؟

الجواب: لا، تَوَكَّلْ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ وافعَلِ الأسبابَ، لكن لا تعتمد عَلَى السبب؛ لأَنَّه قد يوجدُ السببُ ويتخلَّف المُسبَّب.

وسَيِّدُ المتوكِّلين هو الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ، كانَ يفعل الأسبابَ الواقِيَة مِن الضَّرر، وكانَ إذا غَـزَا لَبِسَ الدِّرع -والدِّرع قميـصٌ مِن حديد- لِئَلَّا تَصِلَ السِّهام إليـه -صلوات الله وسلامه عليه- ولما كانت غزوةُ أُحد ظاهَرَ بَيْنَ دِرْعَيْنِ[1] -يعني: لَبِسَ دِرعين- كُلُّ هَذَا تَقْوِيَةً للسبب المانع مِن وُصول السِّهام إليه.

ولهذا لو قالَ قائل: والله أنا أجلِسُ بالبيت، وإن كانَ اللهُ يرزقنـي فسيأتيني الرِّزق، ولا يَبيع ولا يشتري، ولا يَعمل أبدًا، فلا يكون هَذَا مُتَوَكِّلًا عَلَى الله، بل هَذَا مُتواكِل وليس مُتوكِّلًا عَلَى الله.

نقول: افعل السبب، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥].

رَجُل آخَرُ قال: والله أنا أُحب الذُّرية، وإن كانَ الله قَدَّرَ لي ذُرِّيَّة فسيأتون. قيل له: تَزَوَّج. قال: لا ما أتزوَّج، لماذا أتزوَّج؟ إن كانَ الله سيُعطيني ذُرِّيَّة فسيأتون!!

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في لبس الدروع، رقم (٢٥٩٠)، وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب السلاح، رقم (٢٨٠٦).

فنقول له: لا بُدَّ أن تفعلَ الأسباب، فكلُّ إِنْسَان لا بُدَّ أَنْ يفعلَ السبب، وإلا فإنَّه غيرُ صادِق فِي توكُّله؛ لأنَّ الله تعالى حكيمٌ جعل للمُسَبَّبات أسبابًا؛ مِنْ أَجْلِ أن ترتَبِط الأشياءُ بأسبابها، وهذا مِن حِكمة الله عَزَّوَجَلَّ.

أما إذا وصلَ الأمرُ إِلَى العَجز، فحينئذٍ لم يَبْـقَ عليك إِلَّا التوكُّل، يعني: إذا عَجَزْتَ عن الأسباب فحينئذٍ لم يَبْقَ إِلَّا التفويضُ المُطْلَقُ، وهو الاعتماد عَلَى الله تعالى اعتمادًا مُطْلَقًا، وسَيُيَسِّرُ الله لك الخير.

يُقال: إنَّ رجُلًا كانَ فِي بَرِّيَّة، وكان نازلًا قريبًا مِن بِئر، ليس فيها ماء، وكُلَّ يوم يرى حَيَّةً تخرُج مِن البئر، وتَنْصِبُ ظَهرَها كأنَّها عُود، فيأتي الطائِرُ، ويقع عليها، يظنُّها عُودًا، ثمَّ تَبْلَعُه، فنظر إِلَى هَذِهِ الحَيَّة، وإذا هِيَ عَمْيَاءُ، اللهُ أكبرُ! لما كانت عمياءَ لا تستطيع أن تأتيَ بالرِّزق بِنفْسِها، قَدَّرَ اللهُ لها أَنْ يأتِيَها رزقُها فِي مكانها.

وفي الحَدِيث عنِ النَّبِـيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ؛ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[1]. معنـى «**تَغْدُو**» أي: تَذهب فِي الغَداة، أي الصَّباح، «**خِمَاصًا**» خالِيَةَ البُطون، و«**تَرُوحُ**» تأتي فِي الرَّوَاح فِي آخِر النهار، «**بِطَانًا**» أي: مُمتلئة البُطون؛ لأنَّ الطيور ما تبقى فِي أَوْكَارِها وتقول: الرزقُ يأتيني، بل تَطِير فِي الأرض تبتغي الرزقَ، فيَرْزُقها الله عَزَّوَجَلَّ.

فعليك أن تعتَمِد فِي أُمورِك كُلِّها عَلَى الله مَعَ فِعل الأسباب الَّتِي أُمِرت بها شرعًا، أو عَلِمتها قَدَرًا؛ لأنَّ الأسباب إما أن تُعْلَم بالشَّرع، وإما أن تُعْلَمَ بالقَدَر،

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم (٢٣٤٤)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، رقم (٤١٦٤)، وقال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

فمثلًا: الأدويـةُ مِن أسباب الشفاء، فمِن الأدوِيَـة ما علمناه بطريق الشَّرع، ومِن الأدوية ما عَلِمناه بطريق القَدَرِ، أي: بالتجارب، فبالتجارب نعرف أن هَذَا دواءٌ لهذا المرض، فمِن الأدوية الَّتِي عُرفت بالشَّرع العَسَل، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

وكذلك الكَمْأَةُ مَذْكُورة فِي السُّنَّة، قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ**»[١]، أي: تُداوَى بها العَيْنُ.

ومِن ذلك أيضًا الحِجامة، ومِن ذلك الكَيُّ، فهَذِهِ مذكورة فِي القُرْآن والسنّة.

وهناك أشياءُ مِن الأدوية ما ذُكرت فِي القُرْآن والسُّنة، لكن عُلِمت بالتجارِب، وأكثرُ الأدوية الَّتِي بين أيدي النَّاس الآن كلها عُلمت بالتجارِب، تولَّاها أناسٌ حتَّى فَهِمُوها وعلِموها.

والكَمْأَةُ هِيَ المذكورة فِي قول الشاعر[٢]:

ولَقَدْ جَنَيْتُـكَ أَكْمُـؤًا وعَسَـاقِلًا ... وَلَقَدْ نَهَيْتُـكَ عَـنْ بَنَـاتِ الأَوْبَـرِ

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ ربُّ العَرش العظيم،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة:٥٧]، رقم (٤٤٧٨)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب فضل الكمأة ومداواة العين بها، رقم (٢٠٤٩).

(٢) البيت في شرح الكافية الشافية، لابن مالك (١/ ٣٢٥) بلا نسبة.

والعَرش هنا (أل) فيه للعَهْدِ الذِّهنـي، فكلُّ مؤمن يَتلو القُرْآن إذا قيـل: العَرش؛ عرَف أَنَّه عَرْشُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذِي استوى عليه.

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾ أضافَ الرُّبوبية إِلَى العَرْشِ لِعَظَمَـةِ العَرش، ولأن العَرش أعظمُ المخلوقات الَّتِي نعلمُها، فالسماواتُ والأرض أعظمُ مِن الإِنْسَان: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، والعَرشُ أكبرُ بكثير مِن السماوات والأرض، ولهذا جاء فِي الحَدِيث: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ**». الله أكبر! حَلْقَةُ دِرْعٍ أُلقِيَت فِي فَلاة مِن الأرض، فلاةٍ واسِعَةٍ، ماذا تكون نِسبة هَذِهِ الحلقة للفلاة؟ لا شيء «**وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَةِ**»[1]. يعني: أَنَّه أعظمُ بكثيرٍ مِن الكُرسي.

وهذا يدلُّ عَلَى عَظمة الخالق؛ لأنَّ عَظَمَةَ المخلوق تَدُلُّ عَلَى عظمة الخالق.

بقي أَنْ يقال: هَذَا العرشُ مُحيط بالمخلوقات، وعليه استوى الرَّحْمَنُ عَزَّوَجَلَّ كما قالَ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] أي: عـلا عَلَى العرش جَلَّوَعَلَا عُلُوًّا يَلِيق بجلالِه، ولا يجوز أن نسأل: كيـف استوى عَلَى العَرش، ويحرُم علينا أن نسأل هذا: كيفَ استوى؟ بل علينا أن نُؤمنَ بأنه استوى بمعنى: عَلَا عَلَى العَرش، لكن لَيْسَ لنا أن نقول: كيف استوى؟

كانَ مالِكُ بنُ أنسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمامَ دار الهِجرةِ -أي إمام المَدِينَة- وله مذهب مشهور، وهو أحد المذاهب الأربعةِ، كانَ جالسًا مَعَ أصحابه، فقال له رجل: يا أبا عبدِ اللهِ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى، لا يسأل عن المعنى، بل يسأل

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٧، رقم ٣٦١).

عن الكيفيَّةِ، فأطَرَقَ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ برأسه حتَّى علاه الرُّحَضاءُ -قالَ العُلَماء: الرُّحَضاء يعني العَرَق الشديد- وذلك لِشِدَّةِ ما وَرَدَ عَلَى قلبه مِن هَذَا السُّؤال -نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعاملنا بِعَفْوِه- انظر إِلَى مَن عرَف اللهَ عَزَّوَجَلَّ حَقَّ المعرفة، كيف تأثَّر مِن هَذَا السُّؤال! وكثيرٌ مِن النَّاس الآن يسأل مِثل هَذَا السُّؤال، أو ما هُوَ أَشَدُّ، وكأَنَّه يشربُ ماءً باردًا لا يُبالي. نَسْأَلُ اللهَ العافية.

فرفَعَ رأسهُ وقال له: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعةٌ، وما أُرَاكَ إِلَّا مبتدعًا»، ثُمَّ أَمَرَ به فأُخْرِجَ من مسجدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ[1]. رضي اللهُ عن مالِك وإخوانه مِن الأئمَّة الَّذِينَ يَقْدرُون اللهَ حقَّ قَدْرِه.

فالاستواء غير مجهول، وضد المجهول المعلوم، يعني: الاستواءُ معلومٌ، وكلٌّ يَعرف معنى استوى عَلَى كذا، أي: علا عليه، قالَ الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٢-١٣]، ومعنى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: تَعْلُوا عليها، وقال تعالى لنوح: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨].

إذن استوى عَلَى العرش يعني: علا عليه، هَذَا معناه فِي اللُّغَة العَرَبِيَّة الَّتِي نزل بها القُرآن الكريم، كما قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

---

(١) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٥١٥)، عن الإمام مالك بإسناد جوده الحافظ في الفتح (٤٠٧/١٣).

﴿ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، وفي اللُّغَة العَرَبيَّة لا يمكن أَنْ يَكُونَ استوى عَلَى كذا بمعنى استولى عليه، لكن مَن تلطَّخت قلوبُهم بالتعطيل قَالُوا: استوى عَلَى العرش، أي: استولى عليه، نَسْأَلُ اللهَ العافية.

لو كانَ استوى عَلَى العرش بمعنى: استولى عليه، لكان اللهُ مُستويًا عَلَى الأرض؛ لأَنَّه مُستولٍ عليها، ولا أحدَ يُمكن أَنْ يَتَفَوَّهَ بقوله: إِنَّ الله استوى عَلَى الأرض، ولو كانَ معنى استوى عَلَى العرش استولى عليه، لكان العَرش قَبْلَ استواء الله عليه مِلكًا لغير الله، وهل أحدٌ يقول بهذا!

ومعنى الكيف غير معقولٍ أي: لا يمكن أن نُدْرِكَهُ بعقُولنا، فعُقُولُنا أقصَرُ مِن أَنْ تُدرِكَ كيفية صفاتِ الله، وإذا كانَ البَصَر -وهو عُضو مِن الحَواسِّ- لا يُدرك اللهَ عَزَّوَجَلَّ فكيف بالعقل؟! يعني: لا يمكن لإِنْسَان أَنْ يُدْرِكَ بِعَقْلِه كيف استوى الله عَلَى العرش أبدًا.

ومعنى الإيمان به واجب أي: الإيمان بالاستواء واجبٌ؛ لأَنَّ الله ذَكَرَهُ فِي القُرْآن، وكُلُّ ما ذكره الله فِي القُرْآن فإِنَّه واجبُ التصديقُ به، والإيمانُ به.

ومعنى السُّؤال عنه بِدْعَة -وهذا مَحَطُّ الفائدة بالنِّسْبَة لما سأقول- أَنَّ السُّؤال عن كيفية صفاتِ الله مِن البدع؛ لسببين:

السبب الأَوَّل: أَنَّ الصَّحَابَة لم يسألوا عنه الرَّسُول ﷺ وهُم أحرصُ النَّاس عَلَى معرفة صفات الله عَزَّوَجَلَّ، فما سألوا عن ذلك، وما قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كيف استوى.

ثُمَّ إنهم لو قَالُوا: كيف استوى؛ فسيُوجِّهُون السُّؤال إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي هُوَ أعلمُ الخَلق بصفات الله، ومع وجود هَذَا المقتضي لم يسألوا عن الكيفيَّة، فهذا أَحَدُ الوجهين فِي قوله: السُّؤال عنه بِدْعَة.

وجهٌ آخَرُ: السُّؤالُ عن كيفيته مِن دَيْدَنِ أهلِ البِدَع؛ لأنَّ الواحد من أهل البِدَع يأتي للإنسانِ من أهل السُّنَّة المُثْبِتِينَ للصفات فيقول: أنت تُثبت لله يَدًا، فكيف اليَدُ؟ لأجل أَنْ يُحرج السُّنِّيَّ، يقول: استوى عَلَى العرش، كيف استوى، لأَجْل الإحراج.

قالَ بعضُ العُلَماء: إذا قالَ لك الجَهْمِيُّ: إِنَّ اللهَ ينزل إِلَى السَّماء الدُّنيا حين يبقى ثُلث اللَّيْل الآخِر[1]، فكيف ينزل؟ فقل له: إنَّ رسول الله ﷺ أخبرنا أَنَّه يَنزل، ولم يُخبرنا كيف يَنزل. وهذا الجواب مُسْكِت.

وقال آخَرُون: إذا قالَ لك المُعَطِّل: كيف صِفته؟ فقل له: كيف ذاتُه؟ فهو لا يستطيع أَنْ يُكَيِّفَ الذات، والصِّفَاتُ فرعٌ عن الذات.

وأهلُ السُّنَّةِ إذا سألهم الجَهْمِيُّ، أو المُعتزلي، أو أيُّ مُعَطِّل عن كيفية صِفة من صفات الله، وقالوا: كيف هُوَ بذاته؟ فسوف يقول: لا أُحِيط بهذا عِلمًا. فنقول: إذا كنتَ لا تُحيط بذاته عِلمًا، فلن تُحيط بصفاته علمًا؛ لأنَّ القول فِي الصِّفَات فرعٌ عن القول فِي الذَّات، وهذا -والحمد لله- أمرٌ واضح، وأنت إذا أثبتَّ لله ما أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ مِن الصِّفَات مَعَ استشعارك لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، علِمتَ أن الله تعالى كُلُّ صِفة وَصَفَ بها نفسَهُ وجب عليك إثباتُها ولكن بدُونِ تمثيلٍ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





سورة يونس

الدرس الأول:

إن الحمدَ للهِ نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، منْ يهدهِ اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسولهُ، صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وأصحابهِ، ومنْ تَبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس:٣].

قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾: الربُّ هوَ الذي خلقَ السماواتِ والأرضَ، ولم يخلقْها أحدٌ منَ الناسِ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يخلقَ مثلَها أبدًا، بل قدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ يأمرنا ربُّنا عَزَّوَجَلَّ أن نستمعَ لهذا المثلِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣].

فكلُّ ما يُدعى من دونِ اللهِ من أصنامٍ وأوثانٍ وملائكةٍ وأولياءَ وأنبياءَ وغيرِهم؛ كلُّهم لوِ اجتمعُوا لن يخلقوا ذبابًا، الذبابُ الذي هوَ من أحقرِ المخلوقاتِ وأذلِّها، لن يخلقوا مثلَه ولوِ اجتمعوا لهُ، كما أنهُ لو اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن

يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِه ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج:٧٣]، سبحان الله!

قال العلماءُ في تفسيرِ الآيةِ: يعني أن الذبابَ لو سَلبَ من هذهِ الآلهةِ شيئًا وُضعَ عليها لتقديسِها ما استطاعتْ هذهِ الآلهةُ أن تستنقذَ حقَّها منْ هذا الذبابِ، سبحانَ اللهِ! ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

أقولُ -يا إخواني-: إن اللهَ تعالى هوَ الذي خلقَ السماواتِ والأرضَ، ولا يستطيع أحدٌ أن يخلقَها، كما أن اللهَ تعالى هوَ الذي خلقَنا، ولنْ يستطيعَ أحدٌ أن يخلقَنَا، بلِ اللهُ هوَ الخالقُ.

وانظرْ آيةً سَمعَهَا جُبَيْرُ بنُ مُطْعِم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكانَ مِن أَسرى بدرٍ؛ فقدْ كانَ مشركًا فأُسرَ معَ أسرى بدرٍ، قالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٧] قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ(١).

ومعنى ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ النفيُ، يعني أن هؤلاءِ لم يُخلقوا من غيرِ شيءٍ، وليسوا همُ الذينَ خلقُوا أنفسَهم، وهؤلاءِ أيضًا لم يَخلقوا السماواتِ والأرضَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، رقم (٤٨٥٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في المغرب، رقم (٤٦٣).

يقول: «كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ» ووقرَ الإيمانُ في قلبِه؛ لأن هذهِ حجةٌ عقليةٌ لا أحدَ يُنكرها، قالَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾؟ الجوابُ: لا؛ لأنهم قبلَ أن يُوجدوا عدمٌ، والعدمُ ليسَ موجودًا فضلًا عن أن يوجِدَ.

إذنْ مَن الخالقُ لهمْ؟ اللهُ، السماواتُ والأرضُ هل خلقُوها؟ لا، إذنْ مَن خلقَها؟ اللهُ هوَ الذي خلقَها، ولهذا قالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، هذه الأيامُ الستةُ هيَ: الأحدُ، والاثنانِ، والثلاثاءُ، والأربعاءُ، والخميسُ، والجمعةُ، ومعلومٌ أن هذهِ الأيامَ المحددةَ بطلوعِ الشمسِ وغروبِها لم تكنِ الشمسُ موجودةً، لكن بمقدارِ هذهِ الأيامِ الستةِ.

قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، ونسألُ أولًا: ما هوَ العرشُ؟ ثم ما معنى استوى على العرشِ؟ نسألُ عنِ الأمرينِ.

فنبدأُ أولًا بالعرشِ: العرشُ مخلوقٌ عظيمٌ، هوَ أعظمُ المخلوقاتِ التي نعلمُها؛ لأن النبيَّ ﷺ قال فيما رُويَ عنهُ: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ**» اللهُ أكبرُ، ما السماواتُ السبعُ والأرَضونُ السبعُ على سَعتِها وعظمتِها في الكرسيِّ إلا كحلقةٍ أُلقيتْ في فلاةٍ منَ الأرضِ، والحلقةُ هيَ حلقةُ المِغفَرِ، وحلقةُ الدرعِ صغيرةٌ، فما نسبةُ حلقةٍ تُلقيها في فلاةٍ منَ الأرضِ الواسعةِ إلى الأرضِ؟ لا شيءَ. قالَ: «**وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَةِ**»[1] اللهُ أكبرُ! مخلوقاتٌ عظيمةٌ واسعةٌ، لا تحيطُ بها العقولُ، ولولا الأخبار الواردةُ ما استطعنَا أن ندركَها. هذا هوَ العرشُ.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٦، رقم ٣٦١).

إذنْ ما معنى استوَى على العرشِ؟

نقولُ: القرآنُ نزلَ باللغةِ العربيةِ، والدَّليلُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ ولسان الرسول عربي ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:٥٨].

فالقرآنُ نزلَ باللغةِ العربيةِ، وفي اللغةِ العربيةِ ما معنى استوى على كذا؟

نَنظر؛ قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨]، فمعنى استويتَ أنتَ ومن معكَ على الفلكِ أي: علوتَ عليهِ.

وقالَ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ فمعنى تَستووا على ظهورِها: تَعلُوا عليها ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٢-١٣] أي: إذا علوتُم عليهِ.

فخذْهَا قاعدةً عربيةً قرآنيةً سلفيةً: كلما أتتْكَ (استوى) مُعدَّاةً بـ(على) فهيَ بمعنى (علا).

فاستوى على العرشِ بمعنى علَا عليهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علوًّا يليقُ بجلالِه وعظمتِه، ليسَ كعلوِّ المخلوقِ على المخلوقِ، ولكن علوٌّ يليقُ بجلالِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ولكنْ في هذا الاستــواءِ -وهوَ العلوُّ- هل يجــوزُ أن نقولَ: إن علوَّ الله على عرشِه كعلوِّ الإنسانِ على الفلكِ؟

الجوابُ: حرامٌ ولا يجـوزُ؛ لأن اللهَ تعالى يقـولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ولأن علوَّ الإنسانِ على الفلكِ عُلوُّ افتقارٍ، فلو غَرِقَ الفلكُ لغرقَ الإنسانُ، وعلوُّ الربِّ على العرشِ علوُّ عظمةٍ وسلطانٍ، فهوَ علوٌّ حقيقـيٌّ لكن لعظمتِه وسلطانِه استوى على عرشِه بعدَ خلقِ السماواتِ والأرضِ؛ ليتبينَ بذلكَ كمالُ صفاتِه تَبَارَكَوَتَعَالَى.

إذنْ لو قالَ قائلٌ: أنتَ إذا أثبتَّ أن اللهَ استوى على العرشِ يعني علا عليهِ فقدْ مَثلتَهُ باستواء الإنسانِ على الفلكِ؟

قلنا: لا، أقولُ: (لا) مرتينِ أو ثلاثا أو عشرًا حتـى أصمَّ أُذنَهُ، أقولُ: لا، أنا أُومنُ بذلكَ، وأومنُ بقولِ اللهِ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وأومنُ بأن الفرقَ بين الخالقِ والمخلوقِ فرقٌ عظيمٌ، فاستواءُ المخلوقِ على الفلكِ مثلًا استواءُ حاجةٍ وافتقارٍ، واستواءُ الربِّ على العرشِ استواءُ كمالٍ، وعظمةٍ وسلطانٍ، فبينهما فرقٌ.

فإن قالَ قائلٌ: لا تمثلِ استواءَ اللهِ على العرشِ باستواءِ الإنسانِ على الفلكِ، لكن صفْ لي هذا العلوَّ؟

قلنا: لا أَصِفُه لكَ؛ لأن اللهَ أخبرنَا أنهُ استوى على عرشِه ولم يَصِفْهُ لنا، وهذهِ أمورٌ غيبيةٌ يُقتصرُ فيها على ما جاءَ بِهِ النصُّ، فلا نصفُه، ولا نقولُ: كيفَ استوى، ولا يحلُّ لكَ أن تتصورَ بنفسِك كيفيةً معينةً، ولا يجوزُ.

ولو قالَ لكَ قائلٌ: استوى البدويُّ على رَحْلِ بعيرِه، فهلْ تتصورُ كيفَ استوى أو لا؟

نقولُ: نعمْ تتصورُ كغيرِه منَ الناسِ، لكن الربُّ عَزَّوَجَلَّ ليسَ استواؤُه على عرشِه كاستواءِ المخلوقِ.

فإذا سألنا: كيفَ استوى قلنَا: لا يجوزُ أن نقولَ: كيفَ استوى؛ لأن اللهَ أخبرَنا أنهُ استَوى، ولم يخبرْنَا كيفَ استوى.

وانظرْ إلى كلامِ السلفِ في هذا: سُئلَ الإمامُ مالكٌ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إمامُ دارِ الهجرةِ، وأحدُ أئمةِ المسلمينَ الأربعةِ- سئلَ: الرحمنُ على العرشِ استوى؟ سألَهُ سائلٌ قد يكونُ مريدًا للحقِّ أو مريدًا للتشويشِ، ما نَدري، قالَ لهُ: يا أبا عبدِ اللهِ، الرحمنُ على العرشِ استوى، كيفَ استوى؟ أتدرونَ ماذا حصلَ لمالكٍ؟ أطرقَ برأسِه؛ خَفضَ الرأسَ، وجعلَ يتصببُ عرقًا لشدةِ تعظيمِهِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، رضي الله عنه وأرضاهُ، وجعلنَا وإياكمْ ممن يكونُ معهُ في جناتِ النعيمِ، فهوَ سؤالٌ عظيمٌ، فلعظمَةِ هذا السؤالِ جعلَ يتصببُ عرقًا.

ثم ألهمَهُ اللهُ أن يقولَ ما قالَهُ سلفُه: «يا هَذَا، الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ بهِ واجبٌ، والسؤالُ عنهُ بدعةٌ»[1].

ومعنى قولِه: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ» أن الاستواءَ معلومٌ في اللغةِ العربيةِ، ولا يُسألُ عنهُ. والكيفُ يعني كيفَ استَوى وعلى أيِّ صفةٍ هذا غيرُ معقولٍ، بمعنى أنهُ لا تدركُه عقولُنا، وما لا تُدركُه عقولُنا لا يجوزُ أن نسألَ عنهُ؛ لأن السؤالَ عما لم يُدركْه العقلُ منَ التنطعِ في دينِ اللهِ؛ وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥).

وسَلَّمَ: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المتَنَطِّعُونَ**»[١].

قالَ: «والإيمانُ بهِ واجبٌ» أي: بالاستواءِ على المعنى المعلومِ، وليسَ على معنًى محرفٍ مبدلٍ، وهوَ العلوُّ.

قالَ: «والسؤالُ عنهُ بدعةٌ، وما أُراكَ إلا مبتدعًا» تفرسَ فيهِ أن الرجلَ مبتدعٌ، ثم أمرَ أن يُخرجَ منَ المسجدِ لئلا يَفتنَ الناسَ بهذهِ الأسئلةِ التي لا تَحلُّ.

وقولُه: «السؤالُ عنهُ بدعةٌ» في هذا إشارةٌ إلى مسألةٍ هامةٍ؛ أُلقيها على أسماعِ إخوانِنا طلابِ العلمِ الحريصينَ على إثباتِ صفاتِ اللهِ، وهيَ: أن ما لم يَسألْ عنهُ الصحابةُ منْ صفاتِ اللهِ، أو مِن أمورِ اليومِ الآخِرِ، فليسَ لنا الحقُّ أن نسألَ عنهُ؛ لأن مَن سبقَ منَ الصحابةِ همْ خيرُ الناسِ -كلِّ الناسِ- من آدمَ إلى يومِ القيامةِ.

قالَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[٢].

فهلِ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سألوا: كيفَ استوى اللهُ على العرشِ؟

الجوابُ: لا واللهِ ما سَألُوا، معَ أنهمْ أحرصُ منا على معرفةِ اللهِ وأسمائِه وصفاتِه، ومعَ أن المسؤولَ أعلمُ منا لو وُجهَ إليهِ السؤالُ، فالمسؤولُ هوَ الرسولُ ﷺ، فمعَ وجودِ المقتضِي، وعدمِ المانعِ، ولم يكنْ ذلكَ؛ عُلم أنهُ ليسَ من دينِ اللهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٦٥١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

أيها الشبابُ، أيها الحريصُ على إثباتِ العقيدةِ، ليسَ من دينِ اللهِ أن تتمحلَ، وأن تتنطعَ، وأن تتعمقَ في السؤالِ عن شيءٍ من صفاتِ اللهِ لم يَسأَلْ عنهُ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أبدًا.

ولهذا أمثلةٌ كثيرةٌ تَردُ علينا فيها أسئلةٌ، مثلًا قالَ قائلٌ: «**خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ**»(١) قال: هـلِ اللهُ يَشَمُّ، فهذا السؤالُ رديءٌ وليسَ بطيبٍ.

فالقائلُ: «**خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ**» هوَ الرسـولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والصحابةُ ليسَ منهمْ واحدٌ رفعَ لسانَه بمثلِ هذا السؤالِ، فلْيَسَعْكَ ما وَسِعَهُم، قلْ: «**خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ**»، ولا تقلْ: هوَ يَشَمُّ أو ما يَشَمُّ، وربما يأتي واحدٌ بعدَ ذلكَ ويسألُ: هلْ لهُ أنفٌ أم ما له أنفٌ؟ نسألُ اللهَ العافيةَ! فاتقوا اللهَ، واحترموا صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

أيضًا لما رأى الرسولُ ﷺ الحرصَ على الطاعةِ قالَ: «**عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنَ الأَعْمَالِ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**»(٢)، فهل رَفعَ واحدٌ منَ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لسانَه يقولُ: يا رسولَ اللهِ، هلِ اللهُ يملُّ؟

أبدًا، ومَن عندَه شيءٌ فليتفضلْ بهِ، فما أحدٌ قالَ هذا، فيأتي خلَفٌ منَ الناسِ الآنَ يقولُ: هلِ اللهُ يملُّ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب ما يذكر في المسك، رقم (٥٩٢٧)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، رقم (١١٥١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، رقم (٧٨٢).

يا أخي، يَسَعُكَ ما وَسِعَ الصحابةَ، هداكَ اللهُ، قلْ كما قالَ الرسـولُ ﷺ، وافهمْ مرادَ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ وهو أن الإنسانَ يُيسرُ على نفسِه ولا يُتْعِبُها؛ فإن اللهَ لا يملُّ حتى يملَّ الإنسانُ، فمهما عَمِلْتَ منَ الأعمالِ فاللهُ تعالى يُثيبكَ عليهِ، ولا يملُّ من إثابتِه إياكَ.

أقولُ: هذانِ مثالانِ، والأمثلةُ كثـيرةٌ، لكنِ المقصـودُ أن ما لم يَسأَلْ عنهُ الصحابةُ من صفاتِ اللهِ أو منْ أمرِ اليومِ الآخِرِ فالواجبُ علينا ألا نسألَ عنه.

ولهذا قالَ الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السؤالُ عنهُ بدعةٌ»؛ لأن الصحابةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم يَسألوا عنهُ.

واستواءُ اللهِ على العرشِ لا يعني استواءَ الافتقارِ والحاجةِ، بلِ استواءَ العظمةِ وكمالِ السلطانِ، فجاء قـومٌ حرَّفوا الكلمَ عن مواضِـعه وقالُوا: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يعني استَولى على العرشِ، قالَ: معنى استوَى: استولى، وليسَ معناهُ: علا؛ لأن العلوَّ في زعمِهم ممتنعٌ عنِ اللهِ.

وابنُ آدمَ مسكينٌ، فاليهودُ قيلَ لهمْ: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨] فقالُوا: حنطةٌ. نَبغي طعامًا، لا نريدُ أن يَحطَّ اللهُ عنا آثامَنا؛ لأن معنى أن يقولُوا: حطةٌ، يعني رَبنَا احططْ عنا آثامَنا، لكنهمْ قالوا: لا، نحنُ نريدُ الطعامَ، فقطْ هاتِ حنطةً.

قالَ السلفُ: زيادةُ اللامِ في (استوى) كزيادةِ النـونِ في (حطة)، فهذا المثلُ صحيحٌ، لكنِ اختلفَ الموضوعُ.

إخوانَنا، لو سألْنَا أقلَّ الناسِ علمًا وقلنَا: استوى على العرشِ بمعنى استولى على العرشِ بعدَ خلقِ السماواتِ، فلمنْ يكونُ العرشُ قبلَ هذا؟ فكلٌّ واحدٍ يعرفُ أن معنى أن اللهَ استولى على العرشِ بعدَ أن خلقَ السماواتِ أنهُ قبلَ ذلكَ كانَ لغيرِه! فهذا مُقتضى هذا التفسيرِ.

أيضًا الاستيلاءُ لا يكونُ إلا مِن مغالبةٍ في الغالبِ، فمَن الذي غالبَ اللهَ حتى ظَفرَ اللهُ بهِ واستولى على عرشِه! هلْ أحدٌ فعلَ ذلكَ! هذا بمجردِ ما يتصورُه الإنسانُ يكتفي بردِّه وأنهُ باطلٌ، إن اللهَ استولى على العرشِ وعلى جميعِ المخلوقاتِ استواءً لا سبقَ قبلَه؛ لأن مُلكَه من حين خَلَقَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لكنِ استوى على العرشِ بمعنى علا عليهِ، ولا إشكالَ في ذلكَ.

ولهذا هؤلاءِ الذينَ أنكـروا علوَّ اللهِ إذا مَدُّوا أيديَهم إلى اللهِ يسألونَهُ، فإنهم يمدونَها إلى السماءِ، وهمْ يقولونَ: ليسَ فوقَ العالـم ولا يمـينَ العالَـم، ولا شمالَ العالـمِ ولا تحتَ العالـمِ، فأينَ هوَ على كلامِهم؟ عدمٌ. بذلكَ يتبينُ بطلانُ هذا القولِ بمقتضَى الفطرةِ.

وقالَ معاويةُ بنُ الحكمِ: كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّئبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ -أراد أن يعتقها لأن الحسنات يذهـبن السيئات- قَالَ: «**ائْتِنِـي بِهَا**» فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «**أَيْنَ اللهُ؟**». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ -وهي جارية أنثـى لم تتعلمْ ولـم تدرسْ لكن هذا شيء فطريٌّ-

قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(١).

وكانَ العربُ لهم آلهةٌ تُعبدُ في الأرضِ وإلهٌ في السماءِ؛ كما قالَ النبيُّ ﷺ لحُصينٍ؛ أبي عمرانَ بنِ حصينٍ: «يَا حُصَيْنُ، كَمْ تَعْبُدُ اليَوْمَ إِلَهًا؟». قَالَ: سَبْعَةً؛ سِتَّةً فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟». قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ(٢). فهذا شائعٌ عندَ العربِ، وهذهِ الجاريةُ قد عاشتْ بينَ العربِ.

فأثبتَ لها الإيمانَ حينَ أقرتْ بأن اللهَ في السماءِ، ألم تعلموا أن هؤلاءِ الذينَ يقولونَ: إن اللهَ ليسَ على العرشِ يَرونَ أنه لا يجوزُ: أينَ اللهُ، معَ أن محمدًا رسولَ اللهِ سَألَ بهِ!

لكنْ يجبُ يا إخواني أن نعلمَ أن اللهَ تعالى فوقَ كلِّ شيءٍ، ولا يحيطُ بهِ شيءٌ من مخلوقاتِهِ؛ لأنَّ ما فوقَ المخلوقاتِ فضاءٌ، وليسَ فيهِ شيءٌ، فالربُّ عَزَّوَجَلَّ فوقَ المخلوقاتِ، ليسَ شيءٌ يحاذِيه ولا شيءٌ يَعلو عليهِ، بل هوَ فوقَ كلِّ شيءٍ جَلَّوَعَلَا.

ولا يُمكنُكَ يا أخي أن تتصورَ عظمةَ اللهِ، كيفَ يُمكنُ أن تتصورَ عظمةَ اللهِ وقدْ قالَ الربُّ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، باب، رقم (٣٤٨٣).

فلا تحاولْ أن تتصورَ عظمةَ الخالقِ؛ فإن أيَّ شيءٍ قدَّرتَهُ في ذهنِكَ فاللهُ تعالى فوقَ ذلكَ، لكن عليكَ أن تؤمنَ بما وصفَ اللهُ به نفسَه، وبما وصفَهُ به رسولُه ﷺ من غيرِ تحريفٍ، ولا تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، فهذهِ عقيدةُ أهلِ السنةِ والجماعةِ، وقِسْ على هذهِ المسألةِ جميعَ الصفاتِ.

فلا تسألْ عنِ الكيفيةِ، ولا تتعمقْ، ولا تتنطعْ، ولو قالَ قائلٌ مثلًا: هلْ للهِ يدانِ أو لا؟ قلنَا: له يَدانِ، والدَّليلُ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤].

واليهودُ أصحابُ مالٍ وأصحابُ طمعٍ، لما لم يُعطهمُ اللهُ تعالى ما يريدونَ منَ المالِ قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ بخيلٌ، فقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

ولهذا اعلموا أن كلَّ يهوديٍّ هوَ أبخلُ عبادِ الله، ولا يمكنُ أن يَبذلَ اليهوديُّ درهمًا إلا وهوَ يعرفُ أنه سَيخلُفُه دينارٌ، ولا تقلِ: اليهودُ الآنَ يتسلحونَ ويشترونَ السلاحَ بأغلى الثمنِ، فلا يمكنُ أن يبذلَ اليهوديُّ درهمًا إلا وهوَ يرجو منْ ورائِه دينارًا؛ لأنهُ أبخلُ عبادِ اللهِ، قالَ اللهُ: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، وهو عَزَّوَجَلَّ يغني منْ يشاءُ ويُفقرُ من يشاءُ لحكمةٍ.

وفي الحديثِ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يَصْلُحُ لَهُ إِلَّا الغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الفَقْرُ، وَلَوْ بَسَطْتُ لَهُ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ**»[1].

وكثيرٌ منَ الناسِ يكونُ مستقيمًا، ثم إذا أغناهُ اللهُ بَطِرَ، واستكبرَ على عبادةِ اللهِ،

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٣٠٧، رقم ٢٣١).

وذهبَ يتجولُ في بلادِ أوربا أو غيرِها، وفسدَ خلُقُه ودينُه، ومنَ الناسِ العكس؛ يغنيـهِ الله عَزَّوَجَلَّ وهوَ مستقيمٌ في حالِ الغنى، فإذا افتقرَ جزِعَ منَ اللهِ وارتدَّ، وفي هذا يقـولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ متـطرفٌ؛ على طَـرَفٍ ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ﴾ واستأنسَ وقـامَ بالعبادةِ ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج:١١]. نسألُ اللهَ الثبات.

فالمهمُّ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أثبتَ لنفسِه يدينِ، وقالَ عَزَّوَجَلَّ منكرًا على إبليسَ الذي أبى أن يسجدَ لآدمَ: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥].

فعلينَا أن نؤمنَ بأن للهِ يدينِ. ولكن لا يجـوزُ أن نقولَ: إن يديِ اللهِ كأيدي المخلوقينَ، والدَّليلُ على أنهُ لا يجوزُ قولُه تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١]. وهذهِ الآيةُ من أجملِ الآياتِ، وقالَ تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] أنهُ لا نِدَّ لهُ.

وفي بقيةِ الصفاتِ كلِّها إن كنتَ تريدُ السلامةَ، وإن كنتَ تريدُ العلمَ، وإن كنتَ تريدُ الحكمةَ، وإن كنتَ تريدُ النجاةَ منَ النارِ، وإن كنتَ تريدُ أن تكونَ منَ الفرقةِ الناجيةِ فعليكَ بمذهبِ السلفِ الصالحِ؛ أهلِ السنةِ والجماعةِ، وهذهِ طريقُهم؛ يُثبتونَ ما أثبتَهُ اللهُ لنفسِه من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ، ولا يتعرضُ آخرُهم لما لمْ يتعرضْ لهُ أوَّلُهم؛ لأن الأولَ خيرٌ منَ الآخِرِ، وما سكتَ عنهُ الأولُ فنحنُ أولى بالسكوتِ عنهُ.

فيجبُ أن تُقرروا عقيدتكم على مذهبِ السلفِ، وأن تَدَعُوا مذهبَ الخلفِ، ومذهبُ السلفِ قاعدتُه إثباتُ ما أثبتَهُ اللهُ لنفسِه، أو أثبتَهُ لهُ رسولُه، والبراءةُ منَ

التحريفِ، والتعطيلِ، والتكييفِ، والتمثيلِ، فهذا أهمُّ شيءٍ -واللهِ- عندِي.

فإذا قالَ إنسانٌ: المرادُ باليدِ القوةُ والنعمةُ قلنا: خطأٌ، المرادُ باليدِ ما يُفهمُ منها في لغةِ العربِ، لكننا لا نريدُ أنها يدٌ كأيدينا، حاشَا وكلا، فكما أن للهِ تعالى ذاتًا لا تُشبهُ الذواتِ، فلهُ صفاتٌ لا تشبهُ الصفاتِ. وهذهِ القاعدةُ نرجو اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن نموتَ عليها، وألا يُزيغَ قلوبَنا بعدَ إذ هدَانا، وأن يهديَ مَن ضلَّ عنها؛ فإنهُ وليُّ ذلكَ والقادرُ عليهِ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الثاني:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على نبيِّنا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النبيين وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأَصْحَابِهِ، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٥-٦].

جعل: بمعنى صَيَّرَ. واعْلَم أَنَّ (جعل) تأتي في اللغةِ العربيةِ على مَعْنَيَيْنِ: المَعْنَى الأول (أوجد)، والثاني بمعنَى (صيَّر).

فمن الأول قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، أي أَوْجَدَهما، وعلامة التي تكون بمعنى (أَوْجَدَ) أو بمعنى (خَلَقَ) أنها لا تَتَعَدَّى إلا إلى مَفْعولٍ واحدٍ، والتي بمعنى (صيَّر) أمثلتُها كثيرةٌ، كما في هذه الآيةِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ وعلامتُها أن تَنْصِبَ أكثرَ مِن مَفْعولٍ، وهنا نَصَبَتْ مَفْعولينِ: الأول (الشَّمْس) والثاني (ضياء).

والشمسُ مَعْروفة، وهي هذا الجِرْمُ العَظِيمُ الذي إذا تَأَمَّلَه الإنسانُ وجد أنه من أكبرِ آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كم بينَنا وبينَ هذا الجِرْمِ من المسافاتِ البعيدةِ الشاسعةِ ومعَ ذلك يَصِلُ ضِياؤُه وحرارتُه إلى الأرضِ، وفي أيام الصيف تكادُ الأرضُ تحترقُ من الحرارةِ. ولو أنه لو اجْتَمَعَت جميعُ مُوَلِّداتِ الأَرْضِ وطَاقَاتها وجُعِلَت في مكانٍ فإنه لا يَصِلُ مَدَى حرارتها إلى مكانٍ بعيدٍ، بل إلى مكانٍ مَحْدودٍ، أما هذه الشمسُ

التي خَلَقَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ فإنَّ حَرارَتَها تَصِلُ إلى الأرضِ وبينَها وبينَ الأرضِ من السِّنين ما لا يَعْلَمُه إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وقولُه: ﴿ضِيَآءً﴾ الضياءُ هو النورُ بحَرارةٍ، وضَوْءُ الشمس مُشتمِلٌ على هذين الأمرين: الأول النور، والثاني الحرارة، ولذلك كم يَحْصُل بطُلوعِ الشمسِ من تَوْفيرٍ على الخلقِ بالنِّسْبةِ لاستهلاكِ الضَّوْءِ، فإذا قَدَّرْنا أن قصرًا فيه خَمْسُ مئة مِصْباحٍ ثم طَلَعَتِ الشمسُ، فكلُّ هذه المصابيحُ تُطْفَأُ، ويَتوفَّرُ شيءٌ كثيرٌ، كذلك إذا قَدَّرْنا أن بيتًا في أيامِ الشتاءِ يَسْتهلِكُ كثيرًا من الطاقةِ من أجلِ تَدْفِئَةِ هذا البيتِ، فإنه إذا طَلَعَتِ الشمسُ تَوَفَّرَ شيءٌ كثيرٌ من هذا الاستهلاكِ.

إذن الضياءُ هو النورُ معَ الحرارةِ، وهذا هو ما تَتَميَّزُ به الشمسُ.

أما القَمَرُ فقال: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ يعني: وجَعَلَ القَمَرَ نُورًا، لكنه لا حَرارةَ فيه؛ وذلك لأنَّ القَمَرَ يَكْتَسِبُ نُورَه من الشمسِ، وإلا فإنه مُظْلِمٌ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ [الاسراء:١٢]، فهو جِرْمٌ مُظْلِمٌ، لا يُضِيءُ منه إلا ما قَابَلَ الشمسَ، ولهذا إذا كانَ قَرِيبًا من الشمسِ، كان المُضِيءُ منه صَغِيرًا، وكُلَّما بَعُدَ من الشمسِ كُلَّما اتَّسَعَ نُورُه، فإذا تَمَّت المُقابَلَةُ بينَه وبينَ الشمسِ، امْتَلأَ نُورًا، وذلك في زَمَنِ الإبدارِ، فالقمر نورٌ وليسَ ضِيَاءً.

وفي قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ:١٣] إشارةٌ إلى الشمسِ.

قوله: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أيْ: قَدَّرَ القَمَرَ مَنازِلَ يَنْزِلُها مَنْزِلَةً مَنْزِلَةً، ولهذا تَراهُ الليلةَ في منزلةٍ غَيْرِ المَنْزِلةِ السابقةِ، وهكذا يَنْزِلُ مَنْزِلةً مَنْزِلَةً بتَقْديرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قالَ تعالى:

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس:٣٩]، والعُرجون هو عِذْقُ النَّخْلَةِ، إذا تَقادَمَ عَهْدُه انْطَوَى، وهكذا يكونُ القَمَرُ ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾.

هنا يَقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ لماذا؟ قال: ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾، أي: لِتَعْلَموا من مَنازِلِ القَمَرِ عَدَدَ السنين، ولتعلموا الحسابَ الذي تُجْرُونه بينكم في تَوقيتِ آجالِ الديون والاستئجار وغيرِ ذلك. فهذه هي الحِكْمةُ من تَقْديرِ القمر مَنازِلَ.

إذن المرجع في التوقيتِ وتحديدِ الآجالِ وما أشْبَهَ ذلك هو القَمرُ، هذا هو المرجِعُ، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩]، مَواقِيتُ لعُمومِ النَّاسِ، الكَافِرِ والمؤمنِ والعربيِّ وغيرِ العربيِّ.

هذه الأَهِلَّةُ جَعَلَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَواقِيتَ للناسِ، وقالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة:٣٦]، إلى آخِرِه، وقد أَجْمَعَ المُفَسِّرونَ على أنَّ المرادَ بهذهِ الأَشْهُرِ الأشهرُ العربية، وهي: مُحَرَّم وصَفَر ورَبِيعٌ الأَوَّلُ، ورَبِيعٌ الآخِرُ، وجُمادى الأُولَى، وجُمادَى الآخِرَة، ورَجَب وشَعْبان ورَمَضان، وشَوَّال وذو القَعْدة وذو الحِجَّة، باتِّفاقِ المُفَسِّرين.

وحينَئذٍ نَتبيَّن أن التوقيتَ بغيرِ هذه الأهلة مُخالِفٌ لما وضَعَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الأهلة له، فالذين يُوَقِّتون بالشهورِ الإفرنجية مخالفون لما وَضَعَه اللهُ تعالى للعِبادِ يُقَدِّرون به مواقيتهم، ويُحَدِّدونَ به آجالَهم.

وما طرأ هذا التوقيتُ -أعني التوقيت بالأشهر الإفرنجية- إلا بعدَ أن استعمر

الكافرُ بِلادَ المسلمين، فلما استعمر بلادَ المسلمين وكانت الغَلَبَةُ له فإنه من المعلوم أنه سينقُل الناسَ من تَارِيخِهم الذي وُلِدوا عليه إلى تاريخ هذا الكافرِ؛ حتى تَتِمَّ له السيطرةُ، ولهذا لا تجد لهذه الشهور الإفرنجية أَصْلًا تَعْتَمِدُ عليه، فمنها ما يكونُ ثمانيةً وعشرين يومًا، ومنها ما يَزِيدُ على ثلاثين يَوْمًا بدُونِ أيِّ سَبَبٍ.

ولهذا طَالَبَ بعضُ الناسِ من الكَفَرةِ أن يَجْعَلوا هذه الشهور على ثلاثين يَوْمًا كلها، وإذا احتيج إلى زيادةٍ في الوقت فإنهم يزيدون أَحَد الشهور يومًا أو ينقصونه يومًا، ولكن نَظَرًا لأنهم دَرَجوا على التوقيتِ المعهودِ الآن قالوا: لا نَقْبَلُ هذا الاقتراحَ، مع أن هذا الاقتراحَ أَقْرَبُ إلى المعقولِ من هذه الأَشْهُرِ المُخْتلِفَةِ، لكن هؤلاء الكفرة يحافظون على تَاريخِهم، ويَرَوْنَ أن العُدولَ عنه يَعْنِي إِذْلالهم، والمسلمونَ المساكين لما استعمَرَهم الكفَّارُ ووَضَعوا تاريخَهم -أي تاريخ الكفار- بَدَلًا عن التاريخِ العربيِّ، انصاع هؤلاء المغمورونَ إلى هذا، وكان عليهم أن يُعارِضُوا أشدَّ المعارضة.

تاريخنا المبنيُّ على أَعْظَمِ مُناسبةٍ في الإسلام يُهْدَرُ ويُلْغَى! لقد بُنِيَ هذا التاريخ الإسلامي على الهِجْرة التي بها تكونت الدولةُ الإسلاميةُ، وبها صار للدولةِ الإسلاميةِ إمامٌ يُسَيِّرُها ويُوَجِّهُها ويأمرها وينهاها.

ونعلم جميعًا أن النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وهو في مَكَّةَ لم يكن الحُكْمُ إليه، ولكن كان إلى قُريشٍ، ولكن مع الأسفِ أن بعضَ البسطاء السُّفهاءِ في هذه البلاد السعودية ذهَبَ يُؤَرِّخُ بالتاريخِ الإفرنجي، معَ أن الدولةَ -حَفِظَها الله ووقاها الشُّرورَ- قد نَصَّت على أن التاريخ الرسميَّ لهذه الدولةِ هو التاريخُ الهجريُّ، هكذا بنظامِ الملك، فيأتي أولئك السُّفهاء المغمورون المغرورون بالثقافةِ الغربيةِ ويُحَوِّلون التاريخَ إلى التاريخِ الإفرنجي.

ولذلك تَجِدُ كثيرًا من المحلات إذا أَعْطوكَ فَاتورةَ الشراء، تجد التاريخ بالإفرنجيِّ، سُبحان الله! أنت في دولة تاريخُها الرَّسْمِيُّ تاريخٌ هِجْرِيٌّ، وتجعل التاريخَ نَصْرانِيًّا، ثم إنَّ أكثرنا نحن هنا في بلادنا لا نعرف التاريخ الإفرنجي النصراني، إنما نعرف التاريخ الهجري، فهل معنى ذلك أن هؤلاء يريدون أن يحوِّلوا الشعبَ السُّعوديَّ من تاريخِه المَجيدِ المبنيِّ على الهجرة إلى هذا التاريخِ الموهوم؟ سبحان الله! لكن المشكل ضَعْف الشَّخْصية في الإنسانِ حتى لا يَعْتَزَّ بشَخْصيتِه الإسلاميةِ.

يا أخي، أنت مُسْلِمٌ، تاريخُكَ إسلاميٌّ، تاريخٌ مبني على أعظم مناسبةٍ، مَبْنِيٌّ على تَكَوُّن الدولةِ الإسلاميةِ، فكيف تأتي إلى هذا التاريخِ الإفرنجي الوَهْمِيِّ؛ لأنه مَبْنِيٌّ على غيرِ شيءٍ.

فإن قال قائلٌ: كلامُكَ هذا مَرْدودٌ بالقرآنِ والضبط والواقع، أما القرآنُ فإنَّ اللهَ يقول: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعٗا﴾ [الكهف:٢٥] وقال: إن التسع الزائدةَ هي زيادةُ السنوات الهجرية على الميلادية، فنقول: ما شاءَ اللهُ على هذا الاستنباطِ العظيمِ الذي لا يَصِلُ إليه أذكى الناسِ، ولكن لا يَصِلُ إليه إلا أَبْلَدُ الناسِ، هل اللهُ عَزَّوَجَلَّ أشار بقوله: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعٗا﴾ إلى الفرق بينَ السَّنةِ القَمَريةِ والسنة الشمسية؟ مَن يَستطِيعُ أن يَشْهَدَ على اللهِ أنه أراد هذا؟ لا يَستطِيعُ أَحَدٌ أن يَشْهَدَ، ولو شَهِدَ لكان كَاذِبًا، من أين له هذا الدَّليلُ؟

ولكن الله عَزَّوَجَلَّ أراد أن يُؤَكِّدَ المُدَّةَ التي مَكَثوا فيها -أعني أصحابَ الكهفِ- فقال: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعٗا﴾ [الكهف:٢٥]، فيكون

الجميعُ ثَلاثَ مئةٍ وتِسْعَ سَنواتٍ، ولا يمكن أن يكونَ في القرآنِ الكريمِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٩] ثم تأتي هذه الآيةُ تشير إلى الفرق بين السنة الهلالية والسنة الشمسية، فهذا غيرُ مُمْكِنٍ.

والقَائِلُ بأنَّ هذا هو المَقْصـودُ شاهدٌ على اللهِ بما لا يَعْلَمُ، وسيُسْأل عن هذه الشهادة يومَ القيامةِ.

أما قولُهم: إن هذه الأشهر الإفرنجيةَ أَضْبَطُ؛ لأنها تُسايِرُ الزمنَ والفُصولَ.

فنقولُ: الحمدُ للهِ، هناك ما هو أَحْسَنُ منها وأَدَقُّ منها، وقد جاء في القرآنِ، ألا وهو البروج، فأَرِّخ بالبروج اثْنَي عشر بُرْجًا، أَشَارَ اللهُ إليها في القرآنِ الكريمِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١]، أَرِّخ بالبروج ونقول: نعم، أنت لم تُخالِـف، ولسنا نحتاج إلى موافقةِ التـوقيتِ للفُصولِ إلا في حالِ الزراعةِ، فالمزارعون يحتاجون إلى هذا، والمزارعون يكفي أن نقول لهم هذه البروج: الحَمَل والثَّور والجوزاء والسَّرَطان والأسد والسُّنبلة والميزان والعقرب والقوس والجَدْي، فهذه البروج ثلاثةٌ للصيف، وثلاثةٌ للخريف، وثلاثةٌ للشتاء، وثلاثةٌ للربيع، وهي مُنْضَبِطةٌ تمامًا، ومَبْنية على علاماتٍ، وهي النجومُ.

ثم أَدْهَى من ذلك أن يَحْتَفِلَ بعضُ المسلمـين بأعيادِ رأسِ السَّنةِ الميلادية، ويُعَظِّمونها ويُبَجِّلونها، وهي مُقْترنةٌ بمُناسبةٍ دِينيةٍ عندَ النصارى، ألا وهي مِيلاد المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيكون الاحتفالُ برأسِ السنةِ الميلادية معَ مُناسبةِ مِيلادِ المسيحِ فيه فَرَحٌ بشَعائِرَ دِينيَّةٍ، والفَرَحُ بشَعَائِرِ الكُفْرِ إن سلِم مِن فَرَحٍ

بها من الكُفْرِ، فهو كما قالَ ابنُ القَيِّم في كتابِه (أَحْكَامِ أَهْلِ الذمة)[١]: وأما التهنئة بشعائر الكُفْرِ المُخْتَصَّة به فحَرَامٌ بالاتفاقِ، مثل أن يُهَنِّئَهم بأعيادِهم وصَوْمِهم فيقولُ: عيدٌ مُبارَكٌ عَلَيْكَ أو تهنأ بهذا العيدِ، ونَحو ذلك، فهذا إنْ سَلِمَ قَائِلُه من الكُفْرِ فهو من المُحَرَّماتِ، وهو بمَنْزِلةِ أن يُهَنِّئَه بسُجودِه للصَّليبِ، بل ذلك أَعْظَمُ إثمًا عندَ اللهِ وأشد مَقْتًا من التهنئةِ بشُرْبِ الخَمْرِ وقَتْلِ النَّفْسِ وارتكابِ الفَرْجِ الحَرَامِ ونحو ذلك.

فالمسألةُ خَطِيرةٌ يا إخواني، فيَحْرُمُ على الإنسان أن يَحْتَفِلَ بعيدِ الميلاد إن كان مسلمًا، ويَحْرُمُ عليه أن يهنئهم بهذا العيدِ إن كانَ مُسْلِمًا، ويحرم عليه أن يرد تهنئتهم إذا هنؤونا به إن كان مُسلمًا.

سبحان الله! هل نهنئهم بعيدٍ يُعْتَبَرُ من الشعائرِ الدِّينية؟! وهل هذا إلا رِضًا بالكفر؟! لكن غالب مَن يهنِّئونهم لا يَقْصِدون تَعْظِيمَ دِينِهم أو شعائرهم وإنما يقصدون المُجاملةَ، وهذا غَلَطٌ، فإذا قال: أنا أُجامِلُهم لأنهم يُجامِلُونني فيهنِّئونني بعيدِ الفِطْرِ وعيدِ الأَضْحَى. قلنا: الحمدُ للهِ، إذا هنؤونا بعيدِ الأَضْحَى وعِيدِ الفِطْرِ فقد هنؤونا بعيدٍ شَرْعِيٍّ جَعَلَهُ اللهُ للعِبادِ، وكان المفروض عليهم أن يكونَ عيدُ الأضحى وعيدُ الفِطْر عيدينِ لهم؛ لأنهم يَجِبُ عليهم أن يُسْلِموا، لكننا إذا هنأناهم بعيدِ الميلاد هَنأناهم بعيدٍ لم يَجْعَلْه اللهُ عِيدًا، فهذا العيدُ الميلادي ليسَ له أَصْلٌ في التَّاريخِ، وليسَ له أصلٌ في الشريعةِ، فعِيسَى بنُ مَرْيَمَ لم يأمرهم بإقامةِ هذا العيدِ، فهو إِمَّا أن يكونَ مما أَدْخَلُوه في شَريعةِ المسيحِ بِدْعَةً وضلالةً، وإما أنه شَرْعِيٌّ مَشروعٌ في شريعةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لكنه نُسِخَ بالشريعةِ الإسلاميةِ، فهو لا أَصْلَ له

---

(١) أحكام أهل الذمة، لابن القيم (١/ ٤٤١).

على أيِّ تقديرٍ، لأننا إن قلنا: إنه من بِدَعِ النصارى وليسَ من شَريعتِهم فهو ضلالةٌ، وإن قلنا: إنه من شَريعَتِهم فهو مَنْسوخٌ، والتَّعَبُّدُ للهِ تعالى بدِينٍ مَنْسوخٍ ضَلالةٌ، فهو ضَلالةٌ على كلِّ تَقْديرٍ، وإذا كانَ ضَلالةً فكيف يَلِيقُ بي وأنا مسلم أن أُهَنِّئَهم به!

وقد أَجَبْتُ عن كونِهم يهنِّئوننا بعيدِنا ولا نهنئهم بعيدِهم بأنَّ عِيدَنا شَرْعِيٌّ بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وعيدَهم ليسَ بشَرْعِيٍّ؛ لأنه إما مَوْضوعٌ في شَرِيعتِهم أو مَنْسوخٌ بشَريعَتِنا، فلا وَجْهَ له على كلِّ تَقْدِيرٍ.

ولقد شاع في هذه الأَيَّام وقبلَ هذه الأيامِ أوهامٌ وخَيالاتٌ لا يُصَدِّق بها إلا مَن سَمِعَ بها، ولا يُصَدَّق أن تَقَعَ من عَاقِلٍ، فَضْلًا عن مُؤمنٍ، إلا مَن سَمِعَ بها، يقولون: الألفية الثالثة كما يَزْعُمون سيَحْدُثُ فيها أشياءُ وأشياءُ، تَتَساقَطُ الطائراتُ من الجَوِّ، وتَتَصادَمُ بَعْضُها معَ بَعْضٍ؛ لأن ضَبْطَ الوقتِ في الكمبيوتر مُنْتهٍ عندَ آخِرِ دَقيقةٍ من عامِ أَلْفَيْنِ، وإذا سَقَطَ الكمبيوتر فمعناه ألا تَشْتغل المكائنُ المَبْنية على الكمبيوتر، إذن لا تَطِيرُ الطائرةُ ولا تشتغل ماكينةُ كهرباء وما أَشْبَهَ ذلك.

هذه خيالاتٌ عَجِيبةٌ، أنا أَتَعجَّبُ لهؤلاء القومِ الذين بَلَغُوا ما بَلَغوا في الصنائعِ والمُخْترعاتِ، ثم يَنْتَكِسونَ على رُؤُوسِهم إلى خَيالاتِ الصِّبْيانِ، ويَتأَهَّبون لهذه الألفيةِ لأشياءَ عظيمةٍ يَتوَقَّعُونها، فيُرِيدون أن يَنْزِلَ المسيحُ عِيسَى بنُ مَرْيَم وما أَشْبَهَ ذلك من الأشياءِ التي ليسَ لهم بها عِلْمٌ.

ونحن على التقدير البعيد لو وَافَقْناهم على بُطلانِ الكمبيوتر في زَمَنٍ مُعَيَّنٍ حَدَّدوه هم، فإننا لا نُوافِقُهم على أُمورٍ من فِعْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يَعْلَمُونها، ولا يَجوزُ أن نُصَدِّقهم بما سَيَحْدُثُ وهو مِن فِعْلِ اللهِ، ومع ذلك يا إخواني تُعْلِنُ إذاعةُ لندن أمسِ

بأنه لم يَكُن شيءٌ من ذلك، لا سَقَطَت طائراتٌ ولا سَكَتَ الكمبيوتر، حتى الدولة الشيوعيةُ الكافرةُ الصينُ لم تَتَوَقَّفْ طَائِرَاتها دقيقةً واحدةً، وهي كافرةٌ؛ لأنَّ هذه أَوْهامٌ وخَيالاتٌ.

والعَجَبُ أنَّ بعضَ المسلمين يُتابعُ هؤلاء، الله أكبر! ألم يُعْطِكم اللهُ العُقول؟ ألم يَقُل عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

والله لو أنَّ الإنسانَ عندَه إيمانٌ قَـوِيٌّ في هذه الآيةِ ما يُصَـدِّقُ ما يقالُ في المستقبل، ولا يُصَدِّقُ أيضًا ما تَكْتُبُه بعضُ الصُّحُف عن الأبراجِ.

وهكذا كلُّ هذه أوهام، فالحمدُ للهِ الدِّينُ الإسلاميُّ حَذَّرَنا من هذه الأوهامِ حتى نَبْقَـى مُطْمَئِنِّينَ نَحْكُمُ بالشَّرْعِ المُؤَيَّدِ بالعَقْلِ، لكن قَـدَرُ الله وما شاءَ فَعَلَ، ضَعْفُ الشخصيةِ هو الذي أَوْجَبَ ذلك، ألم تَعْلَموا أن الدين الإسلاميَّ لما كان في عَهْدِه الزاهر صارت أُمَّةُ العَجَمِ -أي الذين لا يتكلمون بالعربية- عَرَبًا، فاضطروا إلى تَعَلُّم العربيةِ، بل كان من أولئك القوم مَن كان إمامًا في اللغة، فهذا الفيروزابادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَصْلُه فارسيٌّ، ومع ذلك أَلَّفَ القاموسَ المُحِيطَ الذي كانَ مَرْجِعَ الناسِ إلى اليومِ في اللُّغةِ العَرَبيَّةِ.

وذلك لأنَّ الضَّعِيفَ دَائِمًا يُقَلِّدُ القَوِيَّ، ولما كانت القُوَّةُ للإسلامِ صارتِ اللُّغةُ العربيةُ هي السائدةَ وصارَ الناسُ يضطرون إلى تعلمها.

والعكسُ بالعكسِ الآنَ؛ صار الإنسان إذا تعلَّم حروف اللُّغة الإنجليزية، فَضْلًا عن تركيبِها وكلماتها افتخر، وبعضُ الصِّبيان الذين يتعلَّمون اللغة الإنجليزيَّة يقول لوالده إذا أراد أن يسلِّم: باي باي؛ لأن باي باي لغة القوم الذين لهم من

السيطرةِ ما لهم، ونحن ضُعفاء، إلى هذا الحدِّ يا جماعة! حتى الصبيان لا يقولون: مع السلامة، في أمان الله، السلام عليكم، بل يقولون: باي باي! الله المستعان؛ لأن أباه علمه والطفل يعيش على ما علمه أبوه.

المهم أنا أقول: يجبُ علينا أن نَعتزَّ بدينِنا؛ لأن العِزَّة للهِ ولرَسولِه وللمؤمنين، وألا نكون أَذْنابًا وراءَ هؤلاءِ في أمرٍ ليسَ لنا منه فائدةٌ، أما تَقْلِيدُهم في الصنائعِ وما أَوْدَعَ اللهُ في الأرضِ مِن مَنَافِعَ، فهذا لا يُنْكَرُ، ويُحَثُّ عليه، ويقال: سابقوا في هذا مع إقامةِ دينِكم.

أسألُ اللهَ تعالى أن يُعِيدَ لهذه الأمةِ مجْدَها وأن يُعَرِّفَها بنفسِها حتى تَنْزِلَ المنزلةَ اللائقةَ بها.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ ألم تَعْلَموا أن بعضَ الناسِ يحـدد لكَ اليوم من الشهر بـما يراه من مَنازِلِ القَمرِ، التربيع الأول والثاني والثالث والرابع إلى آخِرِه، يقول لك: الليلة ليلة السابع من الشهرِ، وهو لـم يَعْرِف متى دَخَلَ؛ لأنه شاهَدَ القَمرَ وعَرَفَ مَنْزِلَتَه، فيُحَدِّدُ لكَ اليومَ بالضبطِ بِناءً على هذه المنازِلِ، حتى الصغار والكبار والذكور والإناث يَعْرِفون هذا.

قوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما خلَقَ اللهُ الشمسَ والقمرَ وقَدَّره مَنازِلَ إلا بالحقِّ، وضِدُّه الباطل.

وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

قوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفصِّل؛ أي: يُمَيِّز بينها، فهذه آيةٌ للرحمةِ، وهذه آيةٌ للحكمةِ، وهذه آيةٌ للسلطانِ، وهذه آيةٌ للقُوةِ، وما أَشْبَهَ ذلك.

فالزَّلازِلُ في الأرضِ والفيضاناتُ والعواصفُ آيةٌ من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، تَدُلُّ على العظمةِ والقوة والسلطان والجبروت، وحُصولُ الغيثِ والنِّعم آيةٌ على الرحمةِ والرَّأْفةِ والفَضْلِ والإحسانِ، فالله تعالى يُفَصِّلُ الآياتِ، وكلُّ أَثَرٍ مما خَلَقَ اللهُ يَدُلُّ على آيةٍ من آياتِه، قالَ الشاعِرُ(1):

فيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإلَـهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦].

هذه الجملةُ مُؤَكَّدة بمُؤَكِّدينِ: (إن) ولام التوكيد.

واختلافُ الليلِ والنهارِ يكون في الطول والقِصَرِ، قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج:٦١]، فمَن يَستطِيعُ أن يَزِيدَ دَقِيقةً واحدةً في الليلِ؟ واللهِ لا يَستطيعُ الخلقُ كلُّهم أن يزيدوا دقيقةً واحدةً، أو يَنْقُصوا دقيقةً واحدةً، بل ذلك إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

إذن من أنواعِ اختلافِ الليلِ والنهارِ الطُّولُ والقِصَرُ، ومنها الحَرُّ والبَرْدُ،

---

(1) البيت لمحمود الوراق، كما في ترتيب الأمالي الخميسية، للشجري (١/ ٤٤، رقم ١٤٤).

فاللَّيْلُ أَبْرَدُ، وأَبْرَدُ الليلِ الفَجْرُ، وأبردُ النهارِ العَصْرُ، ولهذا قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»[1]، البَرْدانِ يعني الفَجْرَ والعَصْرَ.

ومِن اختلافِ الليلِ والنهارِ اختلافهما في العِزِّ والذُّل، فتجد هؤلاء القوم بينما كانوا أعزَّاء أقوياء بأموالهم وسلطانهم وأبنائهم إذا بالأمر يَنْعَكِسُ من العِزِّ إلى الذُّلِّ، ومن الأبناءِ إلى فَقْدِ الأبناءِ، ومن الغِنَى إلى الفقر، أو بالعكس، فهذا من اختلافِ الليلِ والنهارِ.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ يخاطب المؤمنين ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ الله أكبر! ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

فهذه تسليةٌ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُسَلِّي المؤمنين الذين أُصِيبوا في أُحُدٍ، فالمسلمون في أُحُدٍ أصيبوا باستشهادِ سَبْعِينَ رَجُلًا، ولا شَكَّ أن هذا أَصابَهم وأَغَمَّهم، فقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠] هذه تسليةٌ.

واسمع لتسليةٍ أُخْرَى أعلى منها: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ [النساء:١٠٤] يعني: لا تَضْعُفوا في ابتغاءِ الكُفَّارِ لقتالهم ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء:١٠٤]، فلا تَظُنَّ أنك إذا جُرِحْت فأصابَك الألمُ أنَّ الكافر إذا جُرِحَ يكونُ الجُرْحُ عليه بَرْدًا وسَلامًا، أَبَدًا: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٧٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الفجر والعصر، رقم (٦٣٥).

تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤]، وهنا ظَهَرَ الفَـرْقُ، فأنتم أيها المؤمنون ترجون الجنةَ، وهؤلاء لا يرجون شيئًا إطلاقًا، بل الفخر والخُيَلاء.

ولهذا لما حَصَلَ للمسلمين ما حَصَلَ في أُحُدٍ قام أبو سُفْيان يَسْأَلُ: أَفِيكُمْ مُحَمَّدٌ؟ فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُجِيبُوهُ». ثُمَّ قَالَ: أَفِيكُمْ مُحَمَّدٌ؟ فَلَمْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفِيكُمْ مُحَمَّدٌ؟ الثَّالِثَةَ فَلَمْ يُجِيبُوهُ، فَقَالَ: أَفِيكُمُ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ فَلَمْ يُجِيبُوهُ، فَقَالَ: أَفِيكُمِ ابْنُ أَبِي قُحافَةَ؟ فَلَمْ يُجِيبُوهُ، حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: أَفِيكُمُ ابْنُ الخَطَّابِ؟ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَلَمْ يُجِيبُوهُ، فقَالَ: أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُمْ، فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللهِ، هَا هُوَ ذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَأَنَا أَحْيَاءٌ، وَلَكَ مِنَّا يَوْمُ سوءٍ.

ولا شَكَّ أنَّ هَجْرَ مَن يتكَلَّمُ من الرؤساء إِذْلالٌ له؛ لأن أبا سفيان سيعلم أنهم موجودون، فإذا علِم أنهم موجودون ولم يكلموه ازداد ذِلَّةً وحَسْرةً، وهذا من حِكْمةِ النبيِّ ﷺ.

ولما افْتَخَرَ بشَعائِرِ الكُفْرِ وقال: اعْلُ هُبَلُ. وهُبَلُ اسمٌ لصَنَمٍ يَعْبدونَه، قال: «أَجِيبُوهُ»، فما كان فيه إِذْلالُ الدينِ والشريعةِ لا يُمْكِنُ السُّكوتُ عنه، قال: «أَجِيبُوهُ»، قالوا: مَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُ أَعَلَى وَأَجَلُّ»[1]، إذا كنتَ تَفْتخِرُ بصَنَمِكَ فنحن نَفْتَخِرُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، فاللهُ أعلى وأَجَلُّ.

ومن اختلافِ الليلِ والنَّهارِ الاختلافُ في الرَّخاءِ والشِّدةِ العامةِ والخاصةِ، فأحيانًا تكـونُ الأيامُ رَخاءً عيشًا طَـيِّبًا آمِنًا، وأَحْيانًا تكونُ بالعَكْسِ، عُمـومًا

(١) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب السير، باب التعبئة، رقم (٨٥٨١).

أو خُصوصًا، وأحيانًا تكون في بعضِ الأيامِ مَسْرورًا مُنْبَسِطًا، وأحيانًا بالعكسِ، وفي ذلكَ يَقولُ الشاعِرُ[1]:

فَيَــوْمٌ عَلَيْنَــا وَيَــوْمٌ لَنَــا وَيَــوْمٌ نُســاءُ وَيَــوْمٌ نُسَــرّ

أعداؤنا يَعْلُون علينا يومًا، ويومًا نعلو عليهم، ويومٌ نُسَاءُ ويَوْمٌ نُسَرُّ، وهذه من حِكْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يَكونَ الإنسانُ يَتَقَلَّبُ بينَ هذا وهذا، حتى يَصْبِرَ على ما يُؤذِيه، فينال درجةَ الصابرين ويَشْكُر على ما يُرْضِيه فينال درجةَ الشاكرين.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ أيضًا فيما خَلَقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في السماواتِ والأرضِ من الاتفاقِ والتباينِ آيات لقومٍ يَتَّقون.

انظر ماذا خَلَقَ اللهُ في الأرضِ؟ أنواع وأجناس من المخلوقات، من بني آدم وغيرهم، من السباع والهوامِّ وغيرها، فتجد العَجَب العُجابَ، وانظر إلى النملِ؛ فهو من أصغرِ المخلوقات، وفيهِ عجائبُ، فالنملةُ إذا اختارت المكانَ لتَحْفِرَ فيه جُحْرًا لها، لا تأتي إلى المطمئنِّ منَ الأرضِ والمنخفِض، بل تختارُ العاليَ؛ خَوْفًا من الأمطارِ؛ لأن العَالي يزول عنه المَطَرُ، وإذا أخذت الحَبَّ لتَدَّخِرَه لوقتٍ لا تَستطيع الخروجَ من جُحْرِها -حيث تأخُذُ حَبًّا تُدْخِلُه الجُحر في زَمَنِ الشتاءِ لأنها لا تستطيع أن تخرجَ من البردِ، وباطن الأرضِ أدفأُ لها- فإنها تختار الحَبَّ الذي تريد أن تدخره ولكنها تأكُل رءوس الحبِّ؛ حتى لا ينبُت فيفسد عليها، وإذا جاء المَطَرُ الكثير ونزل البَلَل على حُبوبِها فإنها تخرج به إلى الشمسِ حتى يَنْشَفَ وترجعه، وهذا من آياتِ اللهِ.

---

(١) البيت للنمر بن تولب، كما في كتاب سيبويه (١/ ٨٦).

ذكر ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِه (مِفْتاح دَارِ السعادةِ)[1] قال: وَلَقَد أخبر بعضُ العارفين أنه شَاهد مِنْهُنَّ يَوْمًا عجبا، قَالَ: رأيت نملةً جَاءَت إلى شِقِّ جَرَادَةٍ فزاولته فَلم تُطِق حَمْلَه من الأرضِ، فَذَهَبت غيرَ بعيدٍ، ثمَّ جَاءَت مَعهَا بِجَمَاعَةٍ من النَّمْلِ. قَالَ: فَرفعتُ ذَلِك الشِّقَّ من الأرضِ، فَلَمَّا وَصَلَتِ النَّمْلَةُ برفقتِها إلى مَكَانِه دارت حولَه ودُرْنَ مَعَهَا، فَلم يَجِدْنَ شَيْئًا، فرَجَعْنَ، فَوَضَعْتُه، ثمَّ جَاءَت فَصادَفَتْه، فزَاولَتْه، فَلم تُطِقْ رَفْعَه، فَذَهَبت غيرَ بَعِيدٍ ثمَّ جَاءَت بِهِنَّ، فَرَفعتُه، فدُرْنَ حولَ مَكَانِه، فَلم يَجِدْنَ شَيْئًا، فَذَهَبتُ فَوَضَعتُه، فَعَادَت، فَجَاءَت بِهِنَّ فَرَفَعتُه، فدُرْنَ حولَ المَكَانِ فَلَمَّا لم يَجِدْنَ شَيْئًا تحلَّقنَ حَلْقَةً وجعلنَ تِلْكَ النملةَ فِي وَسَطِهَا، ثمَّ تحاملنَ عَلَيْهَا فقَطَّعْنها عُضْوًا عُضْوًا وَأَنا أَنْظُر.

فهذه عجائب، فجعلوا جزاءَها القتلَ وقَطَّعنها تقطيعًا، يقولُ: حَكَيْتُ ذلك لشيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فقال: نَعَم هكذا الكَذِب مَمْقوتٌ حتى عندَ الحَشَراتِ. سبحان الله!

قال اللهُ تعالى في مُناظرةِ ومُحاوَرةِ مُوسَى معَ فِرْعونَ، لما قال فِرْعونَ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٤٩]، قال موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي جَعَلَه على خَلْقٍ لائِقٍ به ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

اللهم اجعلنا من المُتبَصِّرينَ بآياتِك، المُعْتَبِرينَ بها، واجْعَلْهَا هِدايةً لنا إلى اليَقينِ الذي لا شَكَّ معه، وإلى الإيمانِ الذي لا كُفْرَ معَه، وإلى الإخلاصِ الذي لا شِرْكَ معَه، وإلى الاتِّباعِ الذي لا ابْتِداعَ معَه، إنك على كلِّ شيءٍ قَديرٌ.

---

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١/ ٢٤٣).

الدرس الثالث:

الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمَامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأَصْحابِهِ، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بعدُ:**

قال سُبْحانَه: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦].

وجاءت مثل هَذِهِ الآيةِ فِي كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي سُورَة آلِ عِمْران: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [آل عمران:١٩٠]، أي: لأَصْحابِ العُقولِ الَّذِين يَتَدَبَّرون آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حتَّى يَصِلوا بها إِلَى الحالِ الَّتِي وَصَفَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٩١]، فِي كلِّ حالٍ يَذْكرونَ اللهَ بقُلوبِهم، ويَذْكُرون اللهَ بألسنتِهم، ويَذْكُرونَ اللهَ تَعَالَى بجَوارِحِهم، فهَؤُلاءِ هم الَّذِينَ يَنْتفِعونَ بالآياتِ.

فِفِي خَلْقِ السماواتِ والأرضِ آياتٌ؛ هَذِهِ السماواتُ العظيمةُ العاليةُ الشديدةُ القَوِيَّةُ فيها آياتٌ عَظِيمةٌ، ففيها الشَّمْسُ والقمرُ والنُّجومُ وغَيْرُها مِمَّا لا نَعْلَمُه، فكلُّ هَذَا من آياتِ اللهِ. وانظر إِلَى الشَّمْسِ، هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي تَطْلُعُ من المَشْرِقِ وتَغْرُبُ من المَغْرِبِ، لا يَستطِيعُ أَحَدٌ أن يُوجِّهَها عَلَى العَكْسِ من هذا، ولا يُمْكِنُ لأَحَدٍ أن يَرُدَّها من المَغْرِب إِلَى المشرق، ولهذا ذكَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الَّذِي حاجَّ إبراهيمَ فِي رَبِّه أَنَّ إبراهيمَ قال له: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ فماذا كانَ الجواب؟ ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

القَمَرُ قَدَّرَه اللهُ مَنازِلَ حتَّى نَعرِفَ به عَدَدَ السِّنينَ والحِساب، فتَجِدُه يَنْزِلُ كلَّ ليلةٍ مَنْزِلةً تَخْتَلِفُ عن المَنْزلةِ الأخرى، فبينما تَراه عندَ الغروبِ فِي المَغْرِب، إذا به عندَ الغُروبِ فِي المَشْرِقِ، فهو عندَ الإِبْدَارِ -يعني إذا تم له أربعةَ عشرَ يومًا- يكونُ عندَ الغُروبِ فِي المَشْرِقِ، ويختلف أيضًا عن هيئته فِي المَغْرِبِ، وعندَ الهلالِ تَجِدُه فِي المَغْرِبِ، لكنه صَغِيرٌ، وعندَ نِصْفِ الشهرِ تَجِدُه فِي المَشْرِقِ عندَ الغُروبِ، لكنه كَبِيرٌ قَد امْتَلأَ نُورًا، والَّذِي يَسْتَطِيعُ أن يَمْلأَ هَذَا الهِلالَ نُورًا هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهو الَّذِي يَستطِيعُ أن يُقَدِّرَه مَنَازِلَ.

إذن فِي خَلْقِ السماواتِ فِي نُجومِها، وشَمْسِها، وقَمَرِها، وفِي نفسِ السماواتِ آياتٌ عَظِيمةٌ، يقولُ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢] أي: قوية، ولهذا قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] أي: بقُوَّةٍ.

والأرضُ أيضًا فيها آياتٌ، وفِي خلق الأرضِ آياتٌ عَظِيمةٌ، ففيها البِحارُ، والأنهارُ، والأَوْدِيةُ، والأَحْجارُ، والجِبالُ، والسُّهول، وغيرُ ذلك من مَخْلوقاتِ اللهِ، وفيها المَعادِنُ، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد:٤]، فتَجِدُ هَذِهِ القطعة جَارةً للقِطْعةِ الأُخْرَى، وتَخْتَلِفُ عنها اخْتِلافًا كَثِيرًا، فهَذَا حَدِيدٌ، وهذا رَصاصٌ، وهذا ذَهَبٌ، وهذه فِضَّة، وهذه مَعادن لا نَعْلَمُها. إذن فيها آياتٌ عظيمةٌ؛ كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:٢٠].

وهل المرادُ اختلافُ اللَّيْلِ والنهارِ فِي الحَرِّ والبَرْدِ، أم فِي الطُّولِ والقِصَرِ، أم فيما يَحْدُثُ فيهما من الحَوادِثِ، أم فِي الجَمِيعِ؟

سنعطيكم قاعدةً، وهي: إذا جاء نصٌّ في القُرْآنُ أو السُّنةُ يَحْتَمِلُ مَعانِيَ مُتَعَدِّدةً، وليس بينَها مُنافاةٌ، ولا مُرَجِّحَ لأَحدها عَلَى الأُخْرَى، فإنَّه يَشْمَلُ الجَمِيعَ.

إذن اختلافُ اللَّيْلِ والنهارِ يكون فِي الطُّولِ والقِصَر، فبينما يكونُ اللَّيْلُ أَطْوَلَ ما يكونُ إذا به يَرْجِعُ، ويكونُ أَقْصَرَ ما يَكونُ، وكذلك فِي النَّهارِ، فهذا فيه عِبَرٌ، فالله سبحانه هو الَّذِي يأتي باللَّيْل إذا ذَهَبَ النهارُ، وهو الَّذِي يأتي بالنهار إذا ذَهَبَ اللَّيْلُ، ولا يَستطِيعُ أَحَدٌ أن يَفْعَلَ ذلكَ، قالَ الله تَعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ الجواب: لا أحد، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ الجواب: لا أحد، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢].

إذن اختلافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ طُولًا وقِصَرًا من آياتِ اللهِ، وكذلك اختلافُهما حَرًّا وبَرْدًا من آياتِ اللهِ، فبينما يكونُ الجوُّ فِي يوم من الأَيَّامِ حَارًّا، وَهِجًا، يَكادُ يقولُ الإِنْسَان: حولي نَارٌ قد أُوقِدَتْ، إذا به يكونُ بَارِدًا شَدِيدَ البُرودةِ كأنَّه فِي ثَلَّاجةٍ، فيَجْمُد الماءُ فِي بعضِ الليالي، فالَّذِي جعَلَ هَذَا الاختلافَ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ سُبْحَانَ اللهِ! فتَجِدُ الجوَّ كُلَّه شديدَ البُرودَةِ كأنَّك في ثلَّاجَةٍ، وتَجِدُه فِي شِدَّةِ الحرارةِ كأن نِيرانًا قد أُوقِدَت حَوْلَك، ويَمُرُّ بك وَهَجُها.

كذلك أيضًا اختلافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ فيما فيهما من الحَوادِثِ، وهذا أَعْظَمُ وأَعْظَمُ، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، بينما تَجِدُ هَذَا فِي غِنًى وَاسِعٍ إذا به يَعودُ فَقِيرًا، وبينَما تَرَى هَذَا فَقِيرًا إذا به يَعودُ غَنِيًّا، وبينَما ترى هَذَا عَزِيزًا إذا به يكونُ ذَلِيلًا، وبينما تَرَى هَذَا ذَلِيلًا إذا به يكونُ عَزِيزًا، وبينما ترى هَذَا مَالِكًا إذا به يكونُ مَمْلوكًا، فالَّذِي يُقَدِّرُ هَذِهِ الحَوَادِثَ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ففيها آياتٌ، وفِيها عِبَرٌ.

والآن لو أن الإِنْسَانَ فَكَّـرَ فِي التاريخِ، وفَكَّـرَ فِي أُمَمٍ عَظِـيمةٍ بَادَتْ وكأنَّها لـم تَكُنْ، فمَثَلًا عادٌ استكـبروا في الأرض ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥] أين ذهبوا؟ هلكوا عن آخِـرِهم، وسَلَّطَ اللهُ عليهم الرِّيحَ اللَّطِـيفة السَّهْلَةَ فأَهْلَكَتْهم ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥]، ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:٢٠]، هَذَا من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

إذن هناك أمم عظيمة فكِّر فيها كَيْفَ بَادَتْ وكَيْفَ هَلَكَت وكيف لـم تَكُنْ شَيْئًا مَذْكورا، وانظر إِلَى عَصْرِكَ الآن، أَلَسْتُم أَدْرَكْتُم أُناسًا مَعَكم عَلَى ظَهْرِ الأرضِ يَأْكُلون كما تأكلون، ويَشْرَبون كما تَشْرَبون، ويَلْبَسون كما تَلْبَسون، ويَتَمَتَّعون كما تَتَمَتَّعون، فأين هم؟ تحت التراب، ذَهَبوا كأن لم يكونوا شَيْئًا مَذْكُورًا، والإِنْسَانُ الآنَ قبلَ وِلادَتِه لم يَكُنْ شيئًا مَذْكورًا، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، وبعدَ مَوتِه يكونُ مَذْكورًا، يعني: كأَنَّه لم يَكُنْ عَلَى الأرضِ، لكنه يُذكَر، فالإِنْسَانُ قبلَ وِلادَتِهِ لا تَستطِيعُ أن تَتحَدَّثَ عنه، لكن بعدَ مَوْتِه تَستطِيعُ أن تَتَحَدَّثَ، وفي هَذَا يقولُ الشاعِرُ الحَكِيمُ(١):

بَيْنَـا يُـرَى الإِنْسَـانُ فِيهَـا مُخْـبِرًا   حتَّـى يُـرَى خَـبَرًا مِـنَ الأَخْبَـارِ

فالآن نَحْنُ أحياءٌ نُخبِرُ عَمَّن مَضَى، وسيأتي اليومُ الَّذِي نكونُ خَبَرًا يُخْبَر عَنَّا، يقال: فُلَانٌ كانَ فِي هَذَا المَكانِ، كانَ يَقولُ كذا، كانَ يَفْعَلُ كذا، وليسَ بشيءٍ، ذَهَبَ إِلَى الآخرةِ.

---

(١) البيت لأبي الحسن التهامي، انظر تاريخ دمشق (٤٣/ ٢٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ هَذِهِ الآية تحتاج إِلَى تفكير، فنَحْنُ نَقْرَأُ القُرْآنَ، لكننا لا نُفكِّرُ فِي المَعْنَى، ولذلك تَنْقُصُنا كَثِيرٌ من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لأنَّنا لا نُفكِّرُ، بينَما الصَّحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا لا يَتجاوَزُون عَشْرَ آياتٍ حتَّى يَتَعَلَّموها وما فيها من العِلْمِ والعَمَل، قَالُوا: فتَعَلَّمْنَا القُرْآنَ والعِلْمَ والعَمَلَ جَمِيعًا[١].

وأَكْثَرُنَا اليومَ يَقْرَأُ القُرْآنَ للثوابِ فَقَطْ، أو للتَّبَرُّكِ به، ولا شَكَّ أن هَذَا قَصْدٌ حَسَنٌ، لكن يَجِبُ أن يُضافَ إليه شيءٌ آخَرُ، وهو التَّدَبُّر، ثمَّ الاتِّعاظُ والتَّذَكُّر، ولهذا قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، فلا بُدَّ من تَدَبُّرٍ، ولا بُدَّ مِن اتِّعاظٍ وتَذَكُّرٍ؛ حتَّى نَنْتَفِعَ.

ثم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ أي: يَتَّقونَ اللهَ. وتَقْوَى اللهِ أُوجِزُها لكم بكَلِمتينِ: اتِّقاءُ ما يُوجِبُ العِقابَ والعَذَابَ.

فمثلًا رَجُلٌ لا يُصَلِّي مَعَ الجماعة، فليس بمُتَّقٍ؛ لأنَّه عَرَّضَ نَفْسَه للعُقوبةِ، ورَجُلٌ يَزْنِي -والعِيَاذُ باللهِ- فليس بمُتَّقٍ؛ لأنَّه لم يَتَّقِ العُقوبةَ.

فإذن التقوى: أن يَتَّخِذ الإنسانُ وِقايةً من عُقوبةِ اللهِ وعَذَابه، وتكونُ بفِعْلِ الأَوَامِرِ واجتنابِ النَّواهِي، فلا بُدَّ مِن فِعْلِ الأوامِرِ واجتنابِ النواهي، فمَن أَخَلَّ بالأَوَامِرِ اخْتَلَّتْ تَقْواهُ، ومَن انْتَهَكَ شَيْئًا من المُحَرَّماتِ اخْتَلَّتْ تَقْواهُ، ولكنْ -الحمدُ للهِ- البابُ مَفْتوحٌ للتَّوْبةِ، فتُبْ إِلَى اللهِ، وأنتَ إذا تُبْتَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فإنَّه سَيَتُوبُ عليكَ إذا كانتِ التَّوْبَةُ نَصُوحًا، ولو كَبُرَ الذَّنْبُ وعَظُمَ. واستمِعْ لقولِ اللهِ

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠).

عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يعني: لا يُشْرِكون، ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]، أي: تَابَ من الشِّرْكِ، وقَتْلِ النَّفْسِ، والزِّنَى، وهَذِهِ من أَعْظَمِ المُحَرَّماتِ، فهي عُدْوانٌ فِي حَقِّ اللهِ، وعُدْوانٌ فِي حَقِّ عِبادِ اللهِ بالقتل، وعُدْوانٌ عَلَى أعراضِ النَّاسِ بالزِّنَى، ومع هَذَا -مَعَ كِبَرِ هَذِهِ الذُّنوبِ- إذا تَابَ الإِنْسَانُ: ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٧٠].

ولا يَخْلُو الإِنْسَانُ من تَقْصِيرٍ، ولا يَخْلُو من خَطَأٍ، ونَسْتَغْفِرُ اللهَ ونَتوبُ إليه، فتُبْ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وارْجِعْ عن المعاصي، وأَبْدِلْهَا بالطَّاعاتِ، وحَافِظْ عَلَى الطَّاعاتِ فلا تُهْمِلْها، وأَبْشِرْ بالخَيْرِ، والتَّوْبَةُ مَفْتوحٌ بَابُها إلا في حالَيْنِ:

الحال الأُولى: إِذَا حَضَرَ الأَجَلُ فلا تَوْبَةَ.

والحالُ الثَّانيةُ: إذا طَلَعَتِ الشَّمْسُ من مَغْرِبِها، وذلكَ فِي آخِرِ الدُّنيا، فلا تَوْبَةَ.

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، فهذا ما له تَوْبَةٌ.

ويَدُلُّ لذلك قِصَّةُ فِرْعَوْنَ، ففِرْعَوْنُ لما أَدْرَكَه الغَرَقُ آمَنَ، ولكن لم يَنْفَعْه الإيمانُ؛ لأَنَّه وَصَلَ إِلَى المَوْتِ، ولهذا قِيلَ له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١].

كذلك إذا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِها، فإنَّ النَّاسَ إذا رَأَوْهَا آمَنُوا أجمعون،

ولكن يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

قال سُبْحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس:٧-٨].

هنا أربعة أَوْصافٌ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ هَذِهِ الأوصاف الأربعة يَسْتَحِقُّ مَن اتَّصَفَ بها ما ذَكَرَهُ اللهُ تَعالَى في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

فقولُه: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يعني: لا يُؤْمِنونَ بلِقاءِ اللهِ؛ لأَنَّ مَن آمَن بالشَّيْءِ رَجاهُ، لكن هم لا يُؤْمِنونَ بلِقاءِ اللهِ، مثل الَّذِينَ يُنْكِرونَ البَعْثَ ويقولونَ: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، ويَقولون: ﴿ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥]، وكأَنَّه قِيلَ لهم: إن آباءَكم سيُبْعثونَ فِي الدُّنيا، والخَبَرُ عن البَعْثِ إنَّما يكونُ فِي الآخرةِ بعدَ أن يَموتَ النَّاسُ، لكن هَؤُلاءِ يُجادِلونَ بالباطلِ؛ لِيُدْحِضوا به الحَقَّ.

ولهذا أَقولُ: صَحِّحْ عَقِيدَتَكَ يا أَخِي، واعْلَمْ أَنَّك ستُلاقِي رَبَّكَ، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] لا بُدَّ، حتَّى إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَهُ تَرْجُمانٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلا يَرى شَيْئًا قُدَّامَهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ

فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[1]. لا بُدَّ من مُلاقاةِ اللهِ، اللهُ أَكْبَرُ! فَاسْتَعِدَّ لهذا اللقاءِ، وبماذا تجيب ربك.

قولُه تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾، رَضُوا بِها بَدَلًا عن الآخرةِ، ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ اسْتَقَرُّوا ورَأَوْا أنها هِيَ قَرَارُهم، وأنه لا بَعْثَ، وما أكثرَ الَّذِينَ يَرْضَوْنَ بالحياةِ الدُّنيا اليومَ، ويَطْمَئِنونَ بها، ولكنهم لا يَرْجُونَ لقاءَ اللهِ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾، أي: غافلون عن آياتِ اللهِ، أي: عن وَحْيِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ، وعن مَخْلوقاتِه الَّتِي أُمِروا أن يَتَفَكَّروا فيها.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي: بسَبَبِ كَسْبِهِم.

ويُستفادُ من قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أن هناك مأوًى بعدَ القَبْرِ، وأن القُبُور ليستِ النِّهايةَ، فهناك ما بعدَ القُبُورِ؛ إما جَنَّةٌ، وإما نَارٌ.

وبهذا نَعْرِفُ خَطَأَ الكلمةِ المشهورةِ عندَ النَّاسِ، وهي قَوْلُهم فِي المَيِّتِ: انْتَقَلَ إِلَى مَثْواهُ الأخيرِ، فهَذِهِ كَلِمةٌ خَطِيرةٌ، فلو كانَ الإِنْسَانُ يُرِيدُ مَدْلُولَها، لكانَ لَازِمه إنكار البَعْثِ؛ لأنك إذا جعلت القَبْرَ هُوَ المَثْوَى الأخيرَ، فمعناه لا بَعْثَ.

وكَثِيرٌ من النَّاسِ اليومَ يَأْخذونَ الكَلِماتِ عَلَى عِلَّاتها، ولا يُفكِّرونَ فِي المَعْنَى، وهذا غَلَطٌ، فالمَثْوَى الأَخِيرُ هُوَ إِمَّا الجنَّةُ وإِمَّا النَّارُ، أما القَبْرُ فإنَّه مَعْبَرٌ يَعْبُرُ النَّاسُ منه إِلَى البَعْثِ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، رقم (٦٥٣٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، رقم (١٠١٦).

وهناك قِصَّةٌ تَقولُ: إنَّ رَجُـلًا كانَ يَقْرَأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢] فسَمِعَه أَعْرابِيٌّ فقالَ: واللهِ إنَّ وراءَ هَذِهِ القُبُورِ لحياة؛ لأنَّ الزائرَ لَيْسَ بمُقِيم(١). انظر فَهْم الأَعْرَابِيِّ، فالأعرابُ أَحْيانًا يَأْتُون بفَهْمٍ يَغِيبُ عن كثيرٍ من النَّاسِ، فالزائرُ يَنْزِلُ عندَ صَاحِبِهِ مُدَّةً، ثَمَّ يَرْجِـعُ إِلَى بَلَدِهِ، وهنا سَمَّى اللهُ تَعَالَى الدَّفْنَ زِيارَةً، فقالَ: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾. إذن المقابر محَلُّ زِيارَةٍ، ولا بُدَّ مِن بَعْثٍ. والأعرابُ أَحْيانًا يَأْتونَ بأشياءَ تَدُلُّ عَلَى سَلامةِ فَهْمِ الرَّجُلِ العَرَبِيِّ.

وهناك قِصَّةٌ أيضًا ثانية: سَمِعَ أَعْرابِيٌّ رَجُلًا يَقْـرَأُ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨] واللهُ غَفُـور رَحِيمٌ، فَقَالَ الأَعْـرَابِيُّ: أَعِدِ الآيَةَ، فأَعَـادَهَا، وهو يَقْرَأُ بغَـيرِ المُصْحَفِ، فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، قَالَ: أَعِدْها، ما قَبِلَ الأعرابيُّ بفِطْرَتِه أنْ يَقولَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: اقْطَعُوا أَيْدِيَهما ثُمَّ يقولَ: واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ؛ لأنَّ المَغْفِرَةَ والرحمةَ تَقْتَـضِي رَفْعَ العُقوبةِ عنهـما، فقَرَأَها الرَّجُلُ المَرَّةَ الثَّالثَةَ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨] فقال: الآن أصبـتَ، عَزَّ وحَكَم فقَطَـعَ، ولو غَفَرَ ورَحِمَ ما قَطَعَ(٢). سُبْحَانَ اللهِ!

نَسْتفيد من هَذَا أنَّ خِتامَ الآياتِ يكونُ مُناسِبًا لما ذُكِرَ قَبْلَها.

يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ هَذِهِ الباءُ

---

(١) انظر المحرر الوجيز لابن عطية (٥/ ٥١٨)، ونظم الدرر للبقاعي (٢٢/ ٢٢٧).

(٢) انظر البحر المحيط (٤/ ٢٥٥)، والتحرير والتنوير (٢/ ٢٨١).

عندَ أهلِ العربيةِ تُسَمَّى بَاءَ السَّببيةِ، يعني أنَّ مَأْوَاهم النَّارُ بسَبَبِ كَسْبِهم، كما أنَّ الإيمانَ والعملَ الصَّالِحَ سَبَبٌ لدُخولِ الجنَّةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكهف:١٠٧].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس:٩].

لما ذكَرَ حَالَ المُعْرِضِينَ بَيَّنَ حالَ المُقْبِلِينَ إِلَى اللهِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا منهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: آمَنُوا بما يَجِبُ الإيمانُ به، ولا أَحَدَ أَبْيَنُ تَفْسِيرًا ولا أَصْدَقُ تَفْسِيرًا من تَفْسِيرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، حَيْثُ فَسَّرَ الإيمانَ بأن تُؤْمِنَ باللهِ، ومَلَائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّه، كما جاء في سؤالِ جِبْرِيل له ﷺ[1]. فإذا قيل: ما الإيمان؟ فنقول بأصدق التفاسير وأحسنها وأوثقها، تفسير النَّبِيِّ ﷺ وقد سَأَلَهُ جِبْرِيلُ: ما الإيمان؟ قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

قولُه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعني عَمِلُوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ، والأعمالُ الصَّالِحاتُ هي كلُّ ما أَمَرَ اللهُ به، لكن لا بُدَّ أن يَتَضَمَّن ذلك شَيْئَيْنِ:

الأَوَّل: الإِخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

والثَّاني: المُتابَعَةُ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو، رقم (٩).

فمَنْ عَمِلَ عَمَلًا بِرِيَاءٍ، فلا يَكونُ عَمَلُه صالحًا؛ لأنَّ الرِّياءَ شِرْكٌ، قالَ اللهُ تَعالَى فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١)، ولهذا كانَ الإسرارُ بالعِبادةِ أَفْضَلَ من الجَهْرِ بها، إلَّا إذا تَضَمَّنَ الجهرُ بها فَائِدَةً، فيكونُ الجَهْرُ أَفْضَلَ، وإلا فالأَصْلُ أَنَّ إِسْرارَ العِبادةِ أفضلُ ما لم يَتَضَمَّنْ مَصْلَحَةً، فإن تَضَمَّنَ مَصْلحةً كرَجُلٍ مَثَلًا تَصدَّقَ، وأظْهَرَ صَدَقَتَهُ مِن أَجْلِ أَنْ يَقْتَدِيَ النَّاسُ به، فهَذِهِ مَصْلَحَةٌ، ولهذا امْتَدَحَ اللهُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ سِرًّا وعَلَانِيَةً.

إذن العَمَلُ الصَّالِحُ لا بُدَّ فيه من الإِخْلاصِ، ولا بُدَّ فيه من المُتابَعَةِ للنبيِّ ﷺ، فمَن عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عليهِ أَمْرُ اللهِ ورَسُولِه صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فهو مَرْدُودٌ(٢)، مهما كانَ من الاجتهادِ، ومَهْمَا كانَ من رِقَّةِ القَلْبِ، ومهما كانَ من خُشوعِ القَلْبِ، ومهما كانَ من بُكاءِ العَيْنِ، فالعَمَلُ إذا لم يكن عَلَى سُنةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فهو مَرْدُودٌ لا يُقْبَلُ، حتَّى لو أنَّ الإِنْسَان بكَى وخَشَعَ قَلْبُه، ولَانَ قلبُه، فإن هَذَا من الابتلاءِ إذا كانَ العَمَلُ لَيْسَ عَلَى أَمْرِ اللهِ ورسولِه ﷺ.

وقولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ أي: يُوَفِّقُهم للعَمَلِ الصَّالِحِ، ﴿بِإِيمَنِهِمْ﴾ أي: بِسَبَبِ الإيمانِ؛ لأنَّه كُلَّما ازدادَ إيمانُ الإِنْسَانِ ازْدَادَ عَمَلًا صَالحًا وهِدَايَةً.

ولهذا يَسْأَلُ كَثِيرٌ من الطَّلَبة ويقول: تُشْكِلُ عليَّ بَعْضُ الأُمورِ فِي العِلْمِ، وأَنْسَى، فما هُوَ الطَّرِيقُ إِلَى حِفْظِ العِلْمِ، والتَّوَسُّعِ فيه؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

الجواب: الطريق إلى ذلك هو الإيمان، فكُلَّما كانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ إيمانًا باللهِ وأَقْوَى كانَ أَكْثَرَ هِدَايَةً، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧].

قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ تأمَّلِ العلاقة في قَوْلِه: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾، فالعلاقة أن الهدايةَ هِدَايتانِ: هدايةٌ فِي الدُّنيا، وهدايةٌ فِي الآخرة، فمَن اهتدى فِي الدُّنيا لطريق الله، هُدِيَ فِي الآخرة لطريق الجنَّة، ولهذا قال: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾. جعلني اللهُ وإياكم من هؤلاء، إنه عَلَى كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ.

قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

قولُه: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ أي: فِي الجنَّة، يعني شأنهم وأَمْرهم ﴿سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ يعني أنَّهم يُلْهَمُونَ التَّسْبيحَ كما يُلْهَمون النَّفَس، فدَائِمًا يُسَبِّحونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ويَحْمَدُونَ اللهَ، ويَتَلَذَّذونَ بذلك الذِّكْرِ؛ لأَنَّهم أُلهِموا إِيَّاهُ.

قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ يعني أن بَعْضَهم يُحَيِّي بَعْضًا بالسلامِ، يعني: بالسلامةِ من كلِّ نَقْصٍ، ومِن كُلِّ عَيْبٍ، ومِن كُلِّ تَكْدِيرٍ؛ لأَنَّ أهلَ الجنَّةِ كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨]. فلا يَتْعَبُ الإِنْسَانُ تَعَبًا فِكْرِيًّا ولا تَعَبًا جِسْمِيًّا، ولا يُخرَج منها، ولا يَمْرَضُ، ولا يَجُوعُ، ولا يموتُ، بل لا يَنامُ، فمَن كانَ فِي الجنَّةِ لا يَنامُ.

ولَعَلَّكَ تَسْأَلُ: لماذا لا يَنامُ، فالنَّوْمُ لنا رَاحَةٌ، والذي لا يَنامُ في الدنيا يقالُ: إنه مُتْعَبٌ، مَرِيضٌ، فكيفَ لا يَنامُ أهلُ الجَنَّةِ؟!

نقولُ: نعم لا ينامون؛ لأنَّهم لو ناموا لحُرِموا لَذَّةَ النَّعِيمِ حالَ نَوْمِهم، ونَعِيمُ الجنَّةِ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ، ولأن النومَ إنَّما يَحْتَاجُ إليه الإِنْسَانُ فِي الدُّنيا من أَجْلِ نَقْضِ التَّعَبِ السَّابِقِ، وتجدد القُوَّة للاحِقِ، ولهذا كُلَّما كانَ الإِنْسَانُ أتعبَ كانَ إِلَى النومِ أَشْوَقَ. فأَهْلُ الجنَّةِ مُبَرَّءُونَ من كلِّ نَقْصٍ، ولهذا قالَ: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس:٩]، النَّعيم القَلْبِيِّ والنَّعِيمِ البَدَنِيِّ.

فِي الدُّنيا قد يُنَعَّم الإِنْسَانُ فِي قَلْبِه وبَدَنِه إذا مَنَّ اللهُ عليه، فنِعِمَّا المالُ الصَّالِح للرَّجُلِ الصَّالِحِ[1]، وقد يُنَعَّمُ فِي بَدَنِهِ ولا يُنَعَّمُ فِي قَلْبِهِ، فكَثِيرٌ منَ النَّاسِ عندَهم أموالٌ كَثِيرةٌ لا يُحْصِيهَا إِلَّا اللهُ، وقُصورٌ، وسَيَّاراتٌ فَخْمةٌ، وبَنُونَ، وزَوْجاتٌ، لَكِنْ قَلْبُه فِي نَكَدٍ دَائِمٍ، لا يَنْتَفِعُ بهذا النَّعيمِ.

وكم مِن إِنْسَانٍ لَيسَ عندَه مالٌ، ولا أَهْلٌ، ولا بَنُونَ، لكنه مُنَعَّمُ القَلْبِ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وطَاعَتِهِ، فهذا أَكْثَرُ سُرورًا من الأَوَّلِ، ولهذا قالَ بعضُ السَّلَفِ: لو يَعْلَمُ المُلوكُ وأبناءُ المُلوكِ ما نَحْنُ فيه من النعيمِ، لجَالَدُونَا عَلَيْهِ بالسُّيوفِ[2]. ولا أَحَدَ أَطْيَبُ قَلْبًا، ولا أَنْعَمُ بَالًا من المُؤْمِنِ التَّقِيِّ، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]، لم يَقُل: فَلَنُكَثِّرَنَّ مَالَهُ

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٢، رقم ١٧٨٣٥)، والحاكم (٢/ ٣، رقم ١٣٠) وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) انظر البداية والنهاية (١٣/ ٥٠١)، وتاريخ دمشق (٣/ ٣٠٦، ٣٦٦)، وقائل ذلك هو إبراهيم بن أدهم.

وَوَلَدَهُ، بل قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ فهو في سُرورِ القَلْبِ دائِمًا.

وجَنَّةُ الخُلْدِ -جَعَلَنِي اللهُ وإِيَّاكم فيها بمَنِّه وكَرَمِه- جَنَّةُ نَعِيمٍ؛ نعيمِ قَلْبٍ ونَعِيمِ بَدَنٍ، فَهُم دَائِمًا فِي سُرورٍ.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يَخْتِمُونَ كلَّ ما يَحْصُلُ بالحَمْدِ، إنْ أَكَلوا حَمِدُوا، وإن شَرِبوا حَمِدُوا، وإن بَاشَرُوا أَهْلِيهم حَمِدُوا، وكلُّ شيءٍ يَخْتِمُونَه بـ(الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمين).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس:١١].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ يعني أنَّ النَّاس مُقَصِّرون وهم يُسارِعُونَ إِلَى الشَّرِّ، ويَتَباطَؤُونَ فِي الخَيْرِ، ولو أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عجَّل لهم الشَّرَّ كما يَسْتعجِلُونَ الخيرَ، لَهَلَكُوا، لكنه عَزَّ وَجَلَّ حَلِيمٌ يَحْلُمُ عَلَى العِبادِ، ويُمْهِلُهم، كما قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي النُّونِيَّةِ[1]:

وَهُوَ الحَلِيمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ

وصدَق رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ إنَّ اللهَ لو يُؤاخِذُ النَّاسَ بما كَسَبوا ما تَرَكَ عَلَى ظَهْرِها من دابَّةٍ، ولهذا قالَ: ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، فهَؤُلاءِ الَّذِينَ لا يَرْجونَ لِقاءَ اللهِ يَذَرُهم اللهُ، ويَتْرُكُهم فِي طُغْيانِهم ويَمُدُّهم، ولكن هَذَا اسْتِدْراجٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حتَّى إذا أَخَذَهُم لم يُفْلِتْهم، كما قالَ

(١) انظر نونية ابن القيم (ص:٢٠٧).

النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»[1]، وتَلَا قَوْلَه تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ [هود:١٠٢-١٠٣].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ إذا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ بمَرَضٍ، أو بعَاهَةٍ، أو بفَقْدِ أَوْلادٍ، أو بفَقْرٍ... إلخ، فكلمة ضُرٌّ عامَّةٌ، وهي كُلُّ ما يُتَضَرَّرُ به.

وإلى أَيْنَ يَفْزَعُ الإنسانُ إذا أصابه الضُّرُّ؟ إِلَى اللهِ، ولهذا قال: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ والإِنْسَانُ إما عَلَى الجَنْبِ، وإما قَائِمٌ، وإما قَاعِدٌ، إذن دعانا فِي جَمِيعِ الأحوالِ، ويَدْعُو اللهَ تَعَالَى أن يَكْشِفَ الضُّرَّ.

ولكن هل إذا كَشَفَ ضُرَّهُ شكر؟

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ! إذا كَشَفَ اللهُ ضُرَّهُ، فكانَ مَرِيضًا فشفاهُ اللهُ، فَقِيرًا فأغناهُ اللهُ، مُعْدِمًا فِي الأولاد فرَزَقَهُ اللهُ ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]، رقم (٤٤٠٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣).

وفي هَذَا إشارةٌ إِلَى أَنَّه يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أن يَشْكُرَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ عَلَى نِعَمِهِ، وذَكَرَ لنا النَّبيُّ ﷺ قِصَّةَ ثَلاثَةِ رِجَالٍ، أَحَدُهم شَكَرَ اللهَ فَأَبْقَى عليه النِّعْمةَ، والثَّاني والثَّالثُ لم يَشْكُرَا اللهَ، فلم تَدُم النِّعْمةُ، هَؤُلاءِ الثَّلاثة: أَبْرَصُ، وأَقْرَعُ، وأَعْمَى، كلُّهم فيهم عَيْبٌ فِي أَجْسَامِهِم، كُلُّهم فُقراءُ، فبَعَثَ اللهُ إليهم مَلَكًا عَلَى هَيْئَةِ إِنْسَانٍ، وسأَلَ الأبرصَ: أيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إليك؟ قال: أَحبُّ إِلَيَّ لَوْنٌ حَسَنٌ، وجِلْدٌ حَسَنٌ، حتَّى يَذْهَبَ عَنِّي هَذَا المَرَضُ الَّذِي يَقْذَرُنِي النَّاسُ فيه، فمَسَحَهُ، فأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا، وجِلْدًا حَسَنًا، إذن ذَهَبَت العَاهةُ من بَدَنِه. ثم قالَ له: أيُّ المالِ أَحبُّ إليك؟ قال: الإِبِلُ، فأُعْطِيَ ناقةً عُشَرَاءَ، فوَلَدَتْ، ونُتِجَت، وصار له وَادٍ من الإِبِلِ.

ثُمَّ أَتَى الأَقْرَعَ، والأَقْرَعُ هُوَ الَّذِي لَيْسَ عَلَى رَأْسِهِ شَعَرٌ، فقال له: أيُّ شيءٍ أَحَبُّ إليكَ؟ قال: شَعَرٌ حَسَنٌ، ويَذْهَبُ عَنِّي مَا يَقْذَرُنِي النَّاسُ به، فمَسَحَهُ، فأُعطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، ثمَّ قالَ له: أيُّ المالِ أَحبُّ إليكَ؟ قال: البقَرُ، فأُعْطِيَ بَقَرَةً حامِلًا، فأَنْتَجَت، وصار له وادٍ من البَقَرِ، سُبْحَانَ اللهِ!

وأَتَى الأَعْمَى، وقال له: أيُّ شيءٍ أَحبُّ إليكَ؟ فقال: أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فأُبْصِرَ به النَّاسَ. انظر الفَرْق بينَ سُؤالِ هَذَا وسُؤالِ هذا، الاثنان السَّابقانِ طَلَبَا شَيْئًا حَسَنًا، لا أنْ يَرُدَّ اللهُ حَالَهما إِلَى الحَالِ الأُولَى، والأعمى ما طَلَبَ إِلَّا مِقْدار الحَاجَةِ، فقال: أن يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي فأُبْصِرَ به النَّاسَ. فَقَطْ، ما يُرِيدُ إِلَّا هذا، فما قالَ: يُعْطِينِي عَيْنًا حَسَنَةً، وأَهْدَابًا حَسَنَةً، وحَاجِبًا حَسَنًا، ولكن قال: أن يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فأُبْصِرَ به النَّاسَ، وهذا يَدُلُّ عَلَى قَناعةِ الرَّجُلِ.

فَقَالَ له: أيُّ المالِ أَحبُّ إليكَ؟ قال: الغَنَمُ. لم يَطْلُبِ الإبلَ ولا البَقَر، قال: الغَنَم. رَجُلٌ يُرِيدُ الكَفَافَ، فأُعطِيَ شَاةً، فبَارَكَ اللهُ فيها، وكان له وادٍ من الغَنَمِ.

الآن كلُّ واحـدٍ من هَؤُلاءِ أُعْطِيَ النِّعْمَةَ الَّتِـي تَمَنَّاهَا، الأبرصُ أُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا، وجِلْدًا حَسَنًا، ومالًا، والأَقْرَعُ كذلك، والأَعْمَى كذلكَ. وأَرَادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يَبْتَلِيَهم مَرَّةً أُخْرَى، فأَرْسَلَ إليهم المَلَكَ فِي صُورةِ إِنْسَانٍ فَقِيرٍ وعَابِرِ سَبِيلٍ، فأَتَى أَوَّلًا الأَبْرَصَ، وقال له: إِنِّي رَجُلٌ فَقِيرٌ، وابنُ سَبِيلٍ قد انْقَطَعَتْ بي الحِبَالُ فِي سَفَرِي، يعني الأَسْبابَ، فلا بَلَاغَ لي اليومَ إِلَّا باللهِ، ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بالذي أَعْطَاكَ الجِلْدَ الحَسَنَ، واللَّوْنَ الحَسَنَ، والمَالَ، أَسْأَلُكَ بَعِيرًا، أَتَمَتَّعُ به فِي سَفَرِي. ولكنَّه أَنْكَرَ النِّعْمَةَ، وقال: إِنِّي وَرِثْتُ هَذَا المَالَ كَابِرًا عن كَابِرٍ، فقال له المَلَكُ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى ما كُنْتَ.

ثُمَّ أَتَى الرَّجُلَ الثَّانِيَ، وهو الأَقْرَعُ، وقالَ له مِثْلَما قالَ للأَوَّلِ، فرَدَّ عليه مِثْلَما رَدَّ عليه الأَوَّلُ، فقال له المَلَكُ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى ما كُنْتَ.

ثُمَّ أَتَى إِلَى الثَّالِثِ القَنُوعِ الهَادِئِ، فقال له: إِنِّي فَقِيرٌ وابنُ سَبِيلٍ، قدِ انْقَطَعَت بي الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فلا بَلَاغَ لي اليومَ إِلَّا باللهِ، ثُمَّ بِكَ، وكنتُ أَعْرِفُكَ أَعْمَى، فرَدَّ اللهُ إليكَ بَصَرَكَ، فَقِيرًا فأَغْنَاكَ اللهُ، قال: نَعَمْ، كُنْتُ أَعْمَى فرَدَّ اللهُ عَلَيَّ بَصَرِي، وكنتُ فَقِيرًا فأَعْطَانِي اللهُ المَالَ. فاعترفَ بالنِّعمةِ، ثُمَّ قالَ له: هَذه الغَنَمُ بينَ يَدَيْكَ، خُذْ مَا شِئْتَ ودَعْ مَا شِئْتَ، فواللهِ لا أَجْهَدُكَ اليومَ بشَيْءٍ أَخَذْتَهُ للهِ، يعني: ما أَشُقُّ عَلَيْكَ لا بمِنَّةٍ ولا بأَذًى فِي شيءٍ أَخَـذْتَهُ للهِ عَزَّوَجَلَّ. فقالَ له المَلَكُ: أَمسِكْ عليكَ مَالَكَ، ما نَبْغِي شَيْئًا، فلَقَدْ رَضِيَ اللهُ عنك، وسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ[1]. اللهُ أَكْبَرُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٢٧٧)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٤).

فانْظُرْ يا أخي كيف كانت نَتِيجة شُكْرِ النِّعْمةِ، وكُفرِها؟! الإِنْسَانُ الَّذِي لا يَشْكُرُ النِّعْمةَ إن بَقِيَت النِّعْمةُ فهو اسْتِدْرَاجٌ، وإن زَالَتْ فهو عَدْلٌ؛ لأنَّ اللهَ قالَ لنا: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

فأنت إذا رأيتَ اللهَ قد أَدرَّ عليكَ النِّعْمةَ، وأنت مُقِيمٌ عَلَى مَعاصِيهِ، فاعْلَمْ أن ذلك اسْتِدْرَاجٌ، فلا تَأْمَنْ مَكْرَ اللهِ، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، فانتبهْ لنفْسِكَ، وإذا رأيتَ أنَّ اللهَ أَنْعَمَ عليك، وأَنْعَمَ عليكَ مَرَّةً أخرى بالشُّكْرِ، فَاحْمَدِ اللهَ، وازْدَدْ من ذلك، فإنَّ شُكْرَ النِّعْمةِ تَزِيدُ به النِّعَمُ.

فإذا وَفَّقَكَ اللهُ للشُّكْرِ فهَذَا التوفيقُ نِعْمةٌ، وكم من أُناسٍ حُرِموا الشُّكْرَ والعِيَاذُ باللهِ، فإذا أَنْعَمَ اللهُ عليكَ بالشُّكْرِ، فهي نِعْمةٌ تَحْتاجُ إِلَى شُكْرٍ آخرَ، فإن شكرتَ فيكون ذلك نعمةً أيضًا وتحتاج إِلَى شُكْرٍ ثَالِثٍ، فإنْ شَكَرْتَ فهو نِعْمَةٌ، وتحتاج إِلَى شُكْرٍ رَابعٍ، ولهذا قيل[1]:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

وَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمرُ

إذن الشُّكْرُ عَلَى النِّعَمِ نِعْمَةٌ تَحْتاجُ إِلَى شُكْرٍ آخَرَ، والشُّكْرُ الثَّاني يَحْتاجُ إِلَى شُكْرٍ ثَالِثٍ... وهَلُمَّ جَرًّا، فما عَلَى الإِنْسَانِ إِلَّا أَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَكَ «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[2].

وصَلَّى اللهُ وسَلَّم وبَارَكَ على سَيِّدنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ.

---

(١) انظر شعب الإيمان للبيهقي (٦/ ٢٣٨)، وتاريخ دمشق (٥/ ١٩٠)، والأبيات لمحمود الوراق.
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٦).

الدرس الرابع:

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ، خَاتَمِ النَبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه أجمعين، أَمَّا بَعْدُ:

فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩].

هذه الآيةُ الكريمةُ نزلت تَسْلِيَةً للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ حتى لا يُهْلِكَ نَفْسَه لعَدَمِ إيمانِ الناسِ؛ كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢]؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ يَحْزَنُ ويَضِيقُ صَدْرُه إذا لم يُؤْمِنِ الناسُ؛ شفقةً عليهم، لا لأَنَّه لم يَتِمَّ قَوْلُه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ومع ذلك قد نَقولُ: إنه يَحْزَنُ كذلك لأنه لم يَتِمَّ قولُه، فإنه مَبْعوثٌ إلى الناسِ فيَجِبُ عليهم أن يُؤْمِنوا بهِ.

وهذهِ الآيةُ كقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:١٠٧]، فالمؤمنُ عليه أنْ يَدْعُوَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بقَدْرِ ما يَسْتطِيعُ، وعلى الوَجْهِ الذي أمَرَ اللهُ به في قولِه تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، فقولُه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي: إلى شَريعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الشريعةَ هي السَّبيلُ المُوصِلُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولأنَّ الشريعةَ هي السبيلُ الذي وضَعَه اللهُ لعِبادِه بالحكمةِ.

والحكمةُ عندَ أهلِ العِلْمِ هي تنزيلُ الأشياءِ مَنازِلَها اللائقةَ بها.

والموعظةُ الحَسَنةُ: ذِكْرُ ما يُرَقِّق القُلوب ويُدْنِيها من شَريعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ أي: المُخاصَمَةُ بالتي هي أحَسَن، ولم يَقُل: بالمجادلةِ الحسنةِ؛ لأنَّ المُجادَلَ لا يَكْفيهِ الحَسَنُ، بل لا يَرُدُّه إلا الأَحْسَنُ، وهذا من بَلاغةِ القرآنِ الكريمِ، فالدعوةُ دعوةٌ مُطْلَقَةٌ، والموعظةُ لا بُدَّ أن تكون حسنةً، والموعظةُ الحسنة هي ما وافقتِ الشَّريعةَ؛ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]

قولُه تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ أي: أحْسَنُ من جهة اللفظِ والبلاغةِ، وأحسنُ من جِهة الإقناعِ والإفحامِ، ودَحْضِ حُجَّةِ الخَصْمِ؛ بحيثُ تكونُ المجادلةُ من جِهة البلاغةِ والبيانِ والقُوة أحسنَ من خَصْمِك، وكم أَثَّرَ البيانُ تأثيرًا بالغًا أشَدَّ من تأثيرِ السُّيوفِ؛ ولهذا جاءَ في الحديثِ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»[1].

كذلك أيضًا أحسن في إيرادِ الحُجَجِ وتقويةِ الأدلة وإبطال حُجَّة الخَصْمِ؛ لأنه لا بُدَّ لكلِّ مُجادِلٍ من شيئين: الأوَّل: دَحْض حُجَّةِ الخَصْمِ. والثاني: إِثْبات حُجَّة المُجادِل، فتُقَوِّي حُجَّتَكَ وتُوهِنُ حُجَّةَ خَصْمِك.

ولهذا نَنْهَى إخوانَنا الذين يجادلون بغيرِ عِلْمٍ عن المجادلة، ولو كانوا يجادلون لإثباتِ الحقِّ؛ لأنه إذا لم يَكُنْ لديهم عِلْمٌ فإنهم سَوْفَ يَفْشَلون، وحينَئذٍ تكونُ النَّتيجةُ إذلالَ الإسلامِ. فلو أرادَ نَصْرانيٌّ أن يُجادِلَكَ، وليسَ عندَك حُجَّةٌ تُقابِلُ حُجَّةَ هذا النَّصْرانِيِّ لقيل: إن هذا هزيمةٌ للإسلامِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٤٨٥١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٩).

وأعني بالنصراني مَن يَدَّعِي أنه مَسيحِيٌّ، فالنَّصارى الآن يقولون: إنهم مَسِيحيونَ نسبةً إلى المَسيحِ عيسى بن مَرْيَم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذه النِّسبةُ غيرُ صَحِيحةٍ؛ لأنهم كفروا به، ولم يؤمنوا، وهم أبعدُ الناسِ عن شَريعةِ عيسى، لكن أرادوا أن يُغَطُّوا الشيءَ السَّيِّئَ بوَجْهٍ حَسَنٍ، حتى يكونَ لهم نوعٌ من الصِّبْغَةِ الدِّينيةِ، فسَمَّوا أنفُسَهم بالمسيحيين. ونحن نقول: نحن أحقُّ بعيسى منهم، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ حين قَدِمَ المدينة، ووجَدَ اليهودَ يَصُومونَ يومَ العاشِرِ من مُحَرَّمٍ، فسألهم: لم تَصومونَ يومَ العاشِرِ من مُحَرَّمٍ؟ قالوا: هذا يَوْمٌ نَجَّى اللهُ فيهِ مُوسَى وقَوْمَه، وأَهْلَكَ فِرْعونَ وقَوْمَه، فنحن نَصُومُه. فقال النبيُّ ﷺ: «**نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ**»[1]. وهو بذلك يُخاطِبُ اليهودَ الذين يَدَّعون أنهم مُتَّبعون لِمُوسَى.

ونحن الآن نُخاطِبُ النصارى فنقول: نحن أحقُّ بعِيسَى منكم، أنتم كَذَّبْتم عيسى، فقد بَشَّرَكم بمُحَمَّدٍ، وقلتم لما جاء مُحَمَّدٌ: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦]. لقد كَذَّبْتُم عِيسَى، وسيَنْزِلُ عيسى في يومٍ من الأيامِ، ويَكْسِرُ الصَّلِيبَ الذي يَعْبُدُه هؤلاء، ويَقْتُلُ الخِنْزِيرَ الذي يأكُلُه هؤلاء، ولا يَقْبَلُ إلا الإسلامَ، فلا يَقْبَلُ الجِزْيةَ أبدًا، بل لا بُدَّ أن تُسْلِمَ.

فأقول: إذا أَرَدْتَ أن تُجادِلَ نَصْرانيًّا فلا بُدَّ أن يكونَ لديك عِلْمٌ بما هو عليه من البَاطِلِ والضلالِ والسَّفَهِ قبلَ كلِّ شيءٍ، وأن يكونَ لديك عِلْمٌ بما لديك من شَريعةِ اللهِ؛ لتستطيعَ بذلك دَحْضَ حُجَّتِهِ، وإثباتَ حُجَّتِكَ. أما أن تَنْزِلَ لمُجادلةِ نصرانيٍّ، ودحْض ما هو عليه من البَاطِلِ، لتُحاجِجَهُ بحَقٍّ، وأنت لا تَعْرِفُ الحَقَّ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب إتيان اليهود النبي ﷺ، حين قدم المدينة، رقم (٣٩٤٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم (١١٣٠).

فهذا غَلَطٌ، بل ستكونُ هزيمة لك، بل للإسلامِ الذي تَدِينُ به. ولهذا نحن نقول، بل نحن نرى أنه لا يَجُوزُ للمُسْلِمِ أن يُسافِرَ إلى بلادِ الكُفْرِ إلا بشُروطٍ ثلاثةٍ:

الأول: أن يكونَ لديه عِلْمٌ يَدْفَعُ به الشُّبُهاتِ؛ لأنَّ النَّصرانِيَّ سيُـورِدُ عليه شُبُهاتٍ.

الثاني: أن يكونَ لديه دِينٌ يَمْنَعُه من الشهواتِ؛ لأنَّ بلادَ الكُفْرِ يَفْعَلُ فيها كلُّ إنسانٍ ما شاءَ: يَزْنِي، ويَلُوطُ، ويَشْرَبُ الخَمْرَ، فلا بُدَّ أن يَكونَ عندَك دِينٌ يَحْمِيك من هذهِ الشهواتِ، فإن كان دِينُكَ رقيقًا فلا تُمَزِّقْه، وابْقَ في بلادِ الإسلامِ.

الثالث: أن يَكونَ هناك حَاجَةٌ للسَّفَرِ إلى بلادِ الكُفْرِ؛ حاجةٌ دِينيَّة، أو دُنْيويَّة، كرَجُلٍ تَاجِرٍ يذهب ليَجْلِبَ البضائع، أو إنسانٍ يُرِيدُ أن يَتخَصَّصَ في عُلومٍ ليست مَوْجودةً في البلادِ الإسلاميةِ، وإلا فَلْيَبْقَ في بلدِه حمايةً لدينِه وإبقاءً عليه.

ولهذا لو تَأَمَّلْتَ مَن ذهبوا إلى بلادِ الكفر لوجدتَ كثيرًا منهم قد زاغَ، فمنهم مَن يَستمِرُّ في زَيغِه، ومنهم من إذا قدم إلى البلادِ الإسلاميةِ أَوْرَدَ الشُّبهات التي حَصَلَت له على أهلِ العلمِ حتى يَحُلُّوها له.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، قول الله للرسولِ: ﴿أَفَأَنتَ﴾ استفهامٌ بمعنَى النَّفْيِ، أي: لا تُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مُؤْمنين، فالقُلوبُ بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ، ولو شاءَ اللهُ لآمَنَ كلُّ الناسِ، ولكن لو فُرِضَ أن الناسَ آمَنوا كُلهم لكانت الحِكْمةُ أن يَكْفُرَ بعضُهم ويُؤْمِنَ بَعْضٌ، فالحِكْمةُ أنْ يَكْفُرَ البعضُ ويُؤْمِنَ البَعْضُ، بعضُ الناسِ يَظُنُّ أنَّ الحِكْمةَ أنْ يُؤْمِنَ الناسُ جميعًا، وهذا ليسَ بصحيحٍ، فالحِكْمة أن يُؤْمِنَ بَعْضٌ ويَكْفُرَ بَعْضٌ، وسنشرح ذلك إن شاء الله.

ويَجِبُ أن نَعْلَمَ أنَّ الكَافِرِينَ من بَنِـي آدَمَ أكثرُ من المؤمنين، ففي الحـديثِ الصَّحيحِ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أنه قالَ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ». بَعْثُ النارِ: يعني الذين هم من أهلِ النارِ.

قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في نُونِيَّتِه[1]:

يَـا سِـلْعَةَ الـرَّحْمَنِ لَـيْسَ يَنَالُـها ... فِي الأَلْفِ إِلَّا وَاحِـدٌ لَا اثْنَـانِ

يعني بسِلْعةِ الرحمنِ الجَنَّةَ، اللهم اجعلنا من أهلها يا رَبَّ العالمين.

فلَمَّا حَدَّث النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ بهذا الحَديثِ عَظُم ذلك على الصَّحَابَةِ، فقالوا: يَا رَسُولَ الله، أَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ؟ فقال صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «أَبْشِرُوا».

وهذه عادة النبيِّ -صلوات الله وسلامه عليه- أن يُقابِلَ الإنسانَ عندَ الخوفِ بالبِشَارة، وكان إذا اشتد قِتالٌ أو غيرُ قِتالٍ قال: «أَبْشِرُوا». وهكذا ينبغي للمُسْلِمِ أن يَسْلُكَ طريقَ التفاؤلِ وإحسانِ الظَّنِّ بربِّه عَزَّوَجَلَّ، واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِه به.

قال لهم: «أَبْشِرُوا؛ فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا». يأجوجُ ومأجوجُ من بَنِي آدَمَ من البَشَرِ، لكنهم قوم مُفْسدون في الأرض. فاستبشر الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهَدَأَتْ طَبِيعَتُهم. وقال: «وَالَّذِي نَفْسِـي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُـو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ

(١) نونية ابن القيم (ص:٣٥٤).

أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّر الصحابةُ، فَقَالَ: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فكَبَّروا، فَقَالَ: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فكَبَّروا[1].

فمِن الحِكْمةِ أن يَنْقَسِمَ الخلقُ إلى كافرٍ ومُؤْمِن، وليسَ من الحكمةِ أن يكون الخَلْقُ كلهم مؤمنين، واسْتمِع إلى قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، ولولا الكُفْرُ ما عُرِفَ الإيمانُ، فلو كان الناس كلُّهم مؤمنين ما عُرِفَ الإيمان؛ لأن الشيءَ لا يُعْرَفُ إلا بضِدِّه، ولولا الجوعُ ما عُرِفَ الشِّبَع، ولولا الفَقْرُ ما عُرِفَ الغِنَى، ولولا القُبْحُ ما عُرِفَ الحُسْنُ، ولولا الدَّمامةُ ما عُرِفَ الجمالُ، وهكذا.

فحِكمةُ الله تَقتضِي أن يكون هناك مُؤْمِنٌ وكافِرٌ، ولولا الكُفْرُ ما استقام الجِهَادُ، ولولا الفِسْقُ ما استقام الأَمْرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المُنْكَرِ، وهَلُمَّ جَرًّا.

وفي هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ إثباتُ أنَّ أفعالَ الخَلْقِ بمشيئةِ اللهِ، فحَرَكَتُكَ بمَشيئةِ اللهِ، وسُكونُكَ بمشيئةِ اللهِ، وإيمانُكَ بمشيئةِ اللهِ، وكُفْرُ الكافرِ بمشيئةِ اللهِ، وكلُّ شيءٍ بمشيئةِ اللهِ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، فانظروا إلى قولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾، وقولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. ذكَرَ المشيئةَ مرَّتين، فكلُّ حَرَكَةٍ منكَ أو سُكونٍ فإنه بمشيئةِ اللهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢).

ولذلك لا يُعْقَلُ إطلاقًا أن يَتَصَرَّفَ الإنسانُ بنَفْسِه على وَجْهٍ مُستقِلٍّ دونَ مشيئةِ اللهِ؛ لأن تَصرُّفَه لو كان باستقلالٍ منه لكان في ملْكِ اللهِ ما لا يُرِيدُ، ولكانَ معَ اللهِ خَالِقٌ.

ولهذا سُمِّيَتِ القَدَرية الذين يقولون: إن أفعال الإنسان مخلوقةٌ للإنسانِ، وهو مستقِلٌّ بها، ولا عَلاقةَ لمشيئةِ اللهِ بها، سُمُّوا مَجُوسَ هذه الأمة؛ لأنهم أثبتوا للحوادث خَالِقَيْنِ.

إذن كلُّ شيءٍ بمَشيئةِ اللهِ، إن صَلَّيْتَ فبمَشيئةِ اللهِ، وإن تَكاسَلْتَ عن الصلاةِ فبمَشيئةِ اللهِ، وإن زَكَّيْتَ فبمشيئةِ اللهِ، وإن بَخِلْتَ فبمشيئةِ اللهِ، وإن أَحْسَنْتَ الخُلق فبمشيئةِ اللهِ، وإن ضاقت نَفْسُك، وساء الخُلق فبمشيئة الله.

حينَئذٍ يأتي العاصي الفاسِقُ المارد، فيَزْنِي في الصَّباح، ويَشْرَبُ الخَمْرَ في المساءِ، ويَقْتُلُ النَّفْسَ في وسَطَ النهارِ، وإذا اعْتَرَضْنا عليه قال: هذا بمشيئةِ اللهِ، ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يَشَأْ لم يَكُن، أتلومونني على شيءٍ شَاءَه اللهُ عَلَيَّ؟!

وهنا يكونُ الإشكالُ، فقد يأتي المُجْرِمُ فيقولُ: كيف تَلُومونني على شيءٍ شاءَه اللهُ، ليس بيدي حِيلةٌ، فهذا بمشيئةِ اللهِ.

لكنَّ الإجابةَ حَاضِرَةٌ، ولا حِيرةَ في الأمرِ، نحن نقولُ كما قالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما يُؤْثَرُ عنه؛ أنه رُفِعَ إليه سَارِقٌ، والسارق هو الذي يَأْخُذُ المالَ من حِرْزِه على وَجْهِ الاختفاءِ. أي: مِن مَكانٍ مُغْلَقٍ على وَجْهِ الاختفاءِ، فأمَرَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقَطْعِ يَدِهِ؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، فقال: يا أميرَ المؤمنين، واللهِ ما سَرَقْتُ إلا بمشيئةِ اللهِ. يُرِيدُ بذلكَ أن يَرْتَفِعَ الحدُّ عنه،

وألَّا تُقْطعَ يَدُه، فقال عُمَرُ: ونحن لا نَقْطَعُكَ إلا بمشيئةِ اللهِ! فَاقْطَعُوها[١].

وهذه حُجَّةٌ من عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مع أنه يَعْلَمُ أننا نَقْطَعُ بمشيئةِ اللهِ وبشَرْعِ اللهِ، والسارقُ يَسْرِقُ بالمشيئةِ لا بالشَّرْعِ؛ لأن السَّرِقةَ حرامٌ.

إذن نقول لهذا الذي احْتَجَّ علينا بالقَدَرِ أو بالمَشيئةِ: هل تَشْعُر حين فعلتَ هذه المعصيةَ أن أحدًا أكْرَهَكَ عليها، أو أنَّكَ فعلتَها باختيارِك؟ فسوف يقولُ: باختيارِه. فلهذا لو أُكْرِهَ على المَعْصيةِ لم يَتَرَتَّب عليه الحُكْم، حتى لو أُكْرِهَ الإنسانُ على أن يقول كَلِمةَ الكُفْر، أو يَفْعَلَ فِعْلَ الكُفر وهو مُكْرَهٌ، فليسَ بكافرٍ، لكن الفعل الاختياري للإنسانِ هو الذي لا يَشْعُر فيه بأنَّ أحدًا أكـرهه، فكلٌّ يَعرِف أنه يَتحَرَّك بإرادتِه، ويَسْكُتُ ويَسْكُنُ بإرادتِه، ولا أحَد يُكْـرِهُه، لكن إذا وقَعَ الشيءُ عَلِمْنا أنه واقعٌ بمَشيئةِ الله، أما قَبْلَ أن يقَعَ فما ندري ما شاءَ الله عَزَّوَجَلَّ، فلا حُجَّةَ للإنسانِ بقَدَرِ اللهِ.

واسْمَعْ قـولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾، فرَدَّ اللهُ عليهم بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، ولو كان في القَدَرِ حُجَّةٌ لهؤلاءِ ما أذاقَهم اللهُ بأسَه، وأنت الآن تَشْعُرُ من نفسِك أنك تَذْهَبُ إلى البيتِ باختيارك، وتأتي إلى المَسْجِدِ باختيارك، وتأكُـلُ باختيارك، وتشرب باختيارك، وتُمْسِكُ عن الأكل والشربِ باختيارِك، ولا مُكْرِهَ لك. لكن لنعلم أنك إذا أردتَ شيئًا ووقَعَ فإنَّ اللهَ قد شاءَه بلا شَكٍّ.

---

(١) انظر الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٢/ ٤٩٧-٤٩٨).

وفي هذه الآيةِ دَليلٌ على أن الإنسانَ لا يَحِلُّ له أن يُكْرِهَ الناسَ على الإيمانِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة:٢٥٦]، ولهـذا نحن نُقاتِلُ الكُفَّارَ على أن يُسْلِموا، أو يَبْذُلوا الجِزْيَةَ عن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرونَ فلا نُقاتِلهم، بل نقول: ابْقَوْا على دِينِكم؛ لأنه لا إِكْراهَ في الدِّينِ. ونحن إذا فَرَضْنَا الجِزْيةَ عليهم أَذْلَلْناهم، وصارَ الحُكْمُ والكَلِمَةُ للمُسلِمِينَ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الخامس:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال تَعالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٧].

قَوْلُهُ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ الخطابُ يَعود إِلَى الرَّسُولِ ﷺ.

قوْلُه: ﴿بِضُرٍّ﴾ المرادُ بِه: مَا يَضُرُّ الإِنْسَانَ فِي بدنهِ أَوْ عقلهِ أَوْ فِكْرِهِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَهُو عامٌّ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ (ضُرّ) نَكِرَة فِي سِيَاق الشَّرطِ، وَالنَّكِرةُ فِي سِيَاقِ الشرطِ تُفِيدُ العمومَ، أَيْ: إِذَا أَرَادَكَ اللهُ بِأيِّ ضُرٍّ كَانَ.

قَوْلُهُ: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، أَي: فَلا مُزِيلَ لَهُ إِلَّا هُوَ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّهُ الَّذِي بِيَدِهِ الأَمْرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ أَيْ: إِذا أَرادكَ اللهُ بِخَيرٍ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكن لِأَحد أَن يَردَّ هَذَا الخيرَ أبدًا؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لعبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣، رقم ٢٦٦٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، بابٌ، رقم (٢٥١٦).

قَوْلُهُ: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ أَيْ: بِالخيرِ.

قَوْلُهُ: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أَيْ: مَـن يَشَاءُ أَنْ يُصـيبَهُ مِن عِبَادهِ أَصابـهُ، ولَا رَادَّ لِمَشيئتهِ.

وَاعْلَم أنَّ اللهَ تَعَالَى يُقرِنُ دائمًا أَفْعاله بِمَشِيئتِهِ، مِثْل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧]، وقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦]، ومَا أَشْبه ذلك، ولكنَّ هَذِهِ المَشِيئةَ مَقْرونة بِالحكمةِ، فَلَا يَشَاءُ شَيئًا تَقْتَضي الحكمةُ عَدمَهُ، وَلَا يَعدم شَيئًا تَقْتضي الحكمةُ وُجُودهُ. وَيَدلُّ لِذَلك قَولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورةِ الإِنْسَانِ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، فَأَفادَ خَتْمُ الآيةِ بِهـذينِ الاسمينِ الكَريمينِ -العَلِيمِ والحكيمِ- أَنَّ مَشِيئته تَعَالَى تَابعةٌ لِحِكْمتهِ.

فمنِ اقتَضَتِ الحكمةُ هِدَايتَه هَدَاه، ومنِ اقتَضَتِ الحكمةُ إِضْلَاله أَضَله، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [مُحَمَّد:١٧].

فَإِذَا عَلِمَ اللهُ مِنْ قَلبِ العبدِ أَنَّه أَهل لِلهدَاية هَدَاهُ، وإِذَا عَلِم أَنَّهُ أَهل للزَّيْغ والضَّلالِ أَزَاغه وأَضَله.

قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أَيْ: ذُو المَغْفِرةِ للذُّنوبِ، وَالرَّحمة الَّتِي يَحْصل بِهَا المطلوبُ.

وهَذِهِ الآيةُ خِطَابٌ للنَّبيِّ ﷺ، وإِذَا كَانتْ خطابًا لِلنَّبي ﷺ دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ لَا يَسْتطيعُ أَنْ يَدفعَ الضررَ عَن نَفْسهِ، فهُوَ نَفْسه

لَوْ أَرَادهُ اللهُ بِضُرٍّ لَم يَسْتطع أَن يَكْشفه، وَإِذَا كَانَ لَا يَسْتطِيعُ أَنْ يَكشفَ الضُّرَّ عَن نَفْسه إِذَا أَرَادهُ اللهُ بِهِ، فَلَا يُمكن أَن يَسْتطِيعَ أَنْ يَدفعَ الضَّرَر عَنْ غَيْرِهِ مِن بَابِ أَوْلَى.

وَبِهَذَا تَنْقطِع آمالُ كُلِّ الوَاهمِينَ الَّذِينَ يَظُنـونَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَضر أَوْ يَنفع، فَتَجدهمْ يَتَّجهون إِلَى قَبْره، وَيدْعونهُ مُبَاشرةً: يَا رَسولَ اللهِ، افْعَلْ كَذَا، يَا رسولَ اللهِ، افْعَلْ كَذَا! وَهَذَا شركٌ أكبرُ مُخْرِجٌ عنِ الملةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ دعَا ميتًا بِدفعِ ضَرَر أَوْ جَلب نَفْع فَقَد اتَّخذهُ إِلهًا وربًّا، وَخَسِرَ الدُّنيا وَالآخِرةَ، وتَوَهَّم فِي اللهِ مَا لَا يَلِيق بهِ، وَلَوْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ حيًّا لَكَان يُحارِبُ هَذَا وأَمْثَالَهُ ويُقَاتله؛ لِأَنَّهُ مُشْرِكٌ. فَاحذَرْ أَنْ تَدعوَ مَعَ اللهِ إِلهًا آخرَ.

فقد قال اللهُ تَعَالَى لِرَسولهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: خَزَائنُ رِزقهِ ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ﴾ [الأنعام:٥٠]. وقال تعالى لِنَبيِّه: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴿٢١﴾ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغٗا﴾ [الجن:٢١-٢٣] و(إِلَّا) هُنا بِمَعنى: لَكن، فَإِن هَذِهِ الآياتِ وَأَمْثَالها تَقْطع طَمَع كُلِّ إِنْسَانٍ يَظُن أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ يَدْفَعُ عنْهُ الضَّررَ، أَوْ يَجْلِب لَهُ النَّفعَ.

فَإِنْ قِيلَ: مَا الَّذِي يَنْفَعنا ويَدْفعُ الضَّررَ عَنَّا بالنِّسْبَةِ لِرَسولِ اللهِ ﷺ؟

قُلْنَا: هُوَ الإِيمانُ بِهِ، وَاتباعهُ ظَاهِرًا وبَاطنًا، وأَلَّا نَتَقدمَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وأَلَّا نُحدِثَ فِي دِينه مَا لَيْسَ مِنه، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَنْفعنَا الله بِهِ؛ أَنْ نَتبع دِينَهُ، وأَنْ نتأَسَّى بِهِ، وأَنْ نَكُونَ مُتخلِّقِينَ بِآدابِ القُرْآنِ، وَأَمَّا أَنْ نَدْعوهُ أَوْ نَرجوهُ بِكَشْف الضَّررِ، أَوْ جَلبِ النفعِ، فَإِنَّ هَذَا لَنْ يَنْفَعنَا، بَلْ هُوَ يَضرُّنَا؛ لِأَنَّهُ شِرْكٌ وَالعِيَاذُ بِاللهِ.

وَلَقَدْ قَالَ رجلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ عِدْلًا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[1]، فقَرَن مَشِيئَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ بِمَشيئةِ اللهِ بِحَرْفٍ يَقْتَضِي التَّسْويةَ، وهِيَ كَلِمَةُ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ. فكَيف بِمَن يَقُولُ: مَا شِئت يَا رسولَ اللهِ لَا مَا شَاءتِ الأقدارُ! نَسْأَلُ اللهَ العافيةَ فَإِنْ هَذَا لا شَكَّ أَنَّه شِركٌ أَكبَرُ مُخْرِجٌ عَنِ الملةِ. وَقَدْ قِيلَ مِثْلُ هَذَا فِي مَمْدوحٍ مِن أَجْل أَنْ يُعطيَ هَدِيةً أو مكافأةً، فقَال لَه المادحُ:

مَا شِئْتَ لَا مَـا شَـاءَتِ الأَقْـدَارُ ... فَـاحْكُمْ فَأَنْـتَ الوَاحِـدُ القَهَّـارُ

يَقُولُ لِبَشَرٍ لَا يَملِك لِنَفسِه وَلَا لِغَيْره ضرًّا وَلا نَفعًا، إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ.

وإِذَا قَالَ قائلٌ: القصائدَ الَّتِي فِيها مَدْحٌ لِرَسولِ اللهِ ﷺ أَتُنكرُ أَمْ لَا تُنْكَر؟

فالجَوَابُ: هَذَا الأمرُ فِيهِ تَفْصيل: إِذَا لَم يَكن فِيها غُلُوٌّ فَإِنَّها تُقرُّ وَتُحمَد؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَهلٌ للثَّناءِ وَلِلمدْحِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ فِيهَا غُلو فَإِنَّها مَذْمومة، وَلَا يُمْكن أَنْ تُقبلَ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الأحوالِ، حَتَّى وإِنْ كَانَ قَائِلُها فِيما يَبْدُو منْ حَالهِ حَسَنَ القصدِ، فَإِنَّها لَنْ تُقبل أبدًا.

فَإِنْ قِيلَ: لَو أَنَّ أحدًا امتَدَحَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ: إِنَّ اللهَ خَلَق السَّماواتِ والأرضَ والبشرَ، وكُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَجلِ الرَّسُولِ ﷺ فَماذا نَقُول؟

قُلْنَا: هَذَا كذبٌ وغُلو فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَوْ قَالَ: إِنَّ اللهَ خلقَ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ نُورٍ، قُلْنَا: هَذَا كذبٌ، وهَذَا غُلُو فِي رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، وإِذَا

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، رقم ١٨٣٩).

كَانَ الرَّسُولُ ﷺ أُمرَ أَنْ يَقُولَ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [فصلت:٦]، فمِنْ أيِّ شَيْءٍ خُلقْنَا نَحْنُ؟ خُلِقنَا مِنْ طِينٍ، خُلقنَا مِنْ نُطْفَةٍ، وَالنَّبيُّ ﷺ فِي العوارضِ البَشريَّة كَغَيْره منَ البَشر، حَتَّى إنَّه يَنسى كَما يَنسى النَّاس.

فقَدْ صَلَّى الرَّسُولُ ﷺ ذَاتَ مرَّةٍ، وسلَّم فِي الرباعيَّةِ مِن رَكْعَتَين؛ ظنًّا مِنْه أَنَّهُ صَلَّى أَرْبعًا، ولَما سَلم تَقَدم رَجلٌ فَقَال: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنسيتَ أَمْ قُصِرَتِ الصَّلَاةُ؟ فقالَ: «**لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تَقْصُرْ**»، فنَسِيَ أَنَّهُ نَسِيَ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: «**لَمْ أَنْسَ**»، وهُو نَاسٍ، فَقَال الرَّجلُ: بَلى قَدْ نَسِيتَ، وَهَكَذا الصَّراحةُ، فيَجِب أَنْ تكونَ صَرِيحًا وإِنْ كَانَ قبيلُك أَعْلَم مِنْك وَأَفْضَل مِنْك.

لِمَاذَا جَزمَ الصَّحابيُّ بأَنَّه نَسِيَ مَعَ أَنَّه قَالَ فِي الأوَّلِ: أَنَسيت أَمْ قُصِرت الصَّلَاةُ؟ لِأَنَّهُ لما نَفَى أَنْ تَكونَ قُصِرت، فَقَد تَبين أَنَّها بَاقِية عَلَى أَنَّها أَرْبع، وَحِينئذٍ يَكونُ قَد نَسِيَ، فَقَالَ: بَلى قَد نَسِيتَ، وَلَمَّا رأَى النَّبيُّ ﷺ عزيمةَ الرَّجلِ قَالَ للصحابَةِ: «**أَكَما يَقُولُ ذُو اليَدَيْنِ؟**» فَقَالُوا: نَعَمْ، فتقدَّم إِلى مَكَانه وأَتَمَّ صَلَاته، ثُمَّ سَلَّم، ثُمَّ سَجَد سَجْدتين، ثُمَّ سَلَّم[1].

والحكمةُ مِنْ هَذَا أَنَّ هَذَا السُّجُودَ عنْ زِيَادةٍ، وكُل سُجُود سَهْو عنْ زِيَادة، فَإِنَّهُ يَكون بَعْدَ السَّلام؛ لِئَلَّا تَجْتمع فِي الصَّلَاةِ زِيَادتانِ: الزِّيَادةُ الَّتِي وَقَعت سَهوًا، وزِيَادةُ السُّجُودِ، فكَانتِ الحكمةُ أَنْ يَكونَ السُّجُودُ عَن زيادةٍ بعدَ السلامِ.

فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ بشَرٌ يَعْـتريه منَ العوَارِض مَا يَعْتري

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣).

البَشَرَ منَ المرضِ، وَالجوعِ، وَالعطشِ، وَالحرِّ، والبردِ، بَلْ إِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَمْرَض كَمَا يُوعكُ الرَّجلانِ منَّا، يَعْني: يُشَدَّدُ عَلَيْه فِي المرضِ لِيَنالَ أَعْلى دَرَجةِ الصَّابرينَ، وإِنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَمْلِك لِأَحد نفعًا وَلَا ضرًّا، ولَوْ كَانَ يَمْلكُ شَيئًا منْ ذَلكَ لهَدَى عمَّه أَبَا طَالبٍ الَّذِي أَحْسنَ إِلَيهِ، ودَافعَ عَنْهُ، ولكنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَسْتطيعُ أَنْ يَنفعَ أحدًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا كَانَ لَا يَنفع أحَدًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ، فَنَرْجع فِي جَلْبِ النَّفع وَدَفْعِ الضَّرر بِالإقبالِ عَلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وألا تتخذَ دُونَهُ وليًّا، فهو وليُّكَ، ونِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصيرُ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





سورة هود

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعـمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْـلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشْـهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فقد قصَّ اللهُ علينَا في هذه السُّورَةِ العَظِيمَةِ ممَّا جَرَى للأنبياءِ -عليهم الصلاة والسلام- مع أقْـوامِهِمْ، وأن أولئكَ الأقوامَ انْقَسَمُـوا إلى فَرِيقَيْنِ: مِنْـهُم مَن قَبِلَ ما جاءتْ بِهِ الرُّسُلُ فآمَنَ وأذْعَنَ وانقادَ، فكانَتْ عاقِبَتُهُ النَّجاةَ في الدُّنيا والآخِرَةِ، ومنْـهُم من كانَ عَلَى العَكْسِ من ذَلِكَ؛ كذَّبَ بالخَبَرِ، واستكْبَرَ عن الأمرِ فكانَتْ عاقِبَتُهُ الهلاكَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ.

ولما ذَكَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قِصَّةَ قومِ لُوطٍ قالَ: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣]، وهذا كقولِهِ تعالى في سُورَةِ محمَّدٍ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾ [محمد:١٠].

ومِثْلُ هذِه الآياتِ، وهذِه القِصَصِ العظِيمَةِ يَقُصُّها اللهُ علينَا ويُخْبِرُنا بِها لتكونَ لنا عِبْرَةً نعتبِرُ بها إن كنَّا مِنْ أُولِي الألبابِ، كما قالَ اللهُ تعالى في سُورَةِ يوسفَ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

فيا أَيُّها المسلِمُونَ في أقطارِ المَعْمُورَةِ إنِّني أُحَذِّرُكم من مخالَفَةِ أمرِ اللهِ ورسولِهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أن يَحُلَّ بكُمْ ما حَلَّ بالأُمَمِ قبلَكُمْ، فإنَّ اللهَ تَعَالَى ليسَ بينَهُ وبينَ خَلْقِهِ نَسَبٌ، وليسَ بينَهُ وبينَهُمْ محاباةٌ، إنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يَعْبأُ بالإنسانِ إذا خالَفَ أمْـرَهُ أيًّا كان جِنْسُه وأيًّا كانَتْ قَوْمِيَّتُهُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

فهذا أَبُو لهَبٍ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ أنْزَلَ اللهُ فيهِ سورَةً هي عَارٌ عليه وخِزْيٌ إلى يومِ القيامَةِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد:١-٥].

فلا يَظُنُّ أحدٌ أنه إنْ كانَ مِنَ العَرَبِ أو إنْ كانَ مِنْ آلِ النَّبِـيِّ ﷺ، إنْ صَحَّ النَّسَبُ إلى النَّبِـيِّ ﷺ في زَمَنِنَا هذَا، لا يظُنَّ أحدٌ أنه بذلِكَ ينْجُو مِنَ النارِ ما دامَ مُسْتَكْبِرًا، وما دامَ مُعْرِضًا عن طاعَةِ اللهِ ورسولِهِ، ولا يظُنُّ أحدٌ أنَّ مَنْ لم يكُنْ مِنَ العَرَبِ ممن أخْلَصُوا دِينَهُم للهِ واتَّبعُوا رسولَ الله ﷺ أنه بعيدٌ مِنْ رحمَةِ اللهِ؛ فإنَّ سلمانَ الفارِسِيَّ وبِلالًا الحَبَشِيَّ كانا منْ غيرِ العَرَبِ، ومع ذلكَ فَقَدْ قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**سَلْمانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ**»[1].

فالإسلامُ عَقِيدَةٌ وعمَلٌ، وليسَ مُجَرَّدَ عقيدَةٍ كما يقولُهُ مَن يقُوله مِنَ الناسِ في هذَا العصْرِ حينَما يُرَكِّزُونَ على العقيدَةِ ويدَعُونَ العَمَلَ؛ فإن هذا ليسَ بشيءٍ، بل إنَّ الإسلامَ عَقِيدَةٌ وعَمَلٌ، إيمانٌ وقَبُولٌ وإذْعَانٌ.

---

(١) أخرجه الطبراني (٦/ ٢١٢، رقم ٦٠٤٠)، والحاكم (٣/ ٦٩١، رقم ٦٥٤١).

فالعقيدَةُ لا تُغنِي شيئًا إذا لم يكُنْ للإنسانِ عَمَل، واقرؤوا إن شِئتُمْ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

اللهَ اللهَ أيها المسلِمُونَ، اللهَ اللهَ أيها المسْلِمُونَ، اللهَ اللهَ أيها المسلِمُونَ، إنِّي أدْعُو نَفْسِي وإياكُمْ أن تَلْتزِمُوا بطاعَةِ اللهِ ورَسولِهِ وألا تَغُرَّكُم هذِهِ الدِّعاياتُ الخَبيثَةُ، وألا تَغُرَّكُم قوَّةُ أعدائكُم في صِناعَاتِهِمْ وفي اقتِصَادِيَّاتِهِمْ وفي غيرِ ذلِكَ مما بَهَرَ عُقُولَ كثيرٍ مِنَ الناسِ حتى ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا، وظَنُّوا أن التَّقَدُّمَ بالانسلاخِ من دِينِ الإسلامِ وبالانْسِلاخِ من الأخْلاقِ الفاضِلَةِ، وذَهَبُوا يلْهَثُونَ وراء أولئكِ تِبَاعًا يقْتَضُونَ بِهِمْ في مسالِكِهْم وربما في عقَائدِهِمْ.

فاحذَرُوا أيها المسلِمُونَ واعتبَرُوا بما قصَّ اللهُ علينا مِنْ نبأِ مَنْ قَبْلَنا، وكيف كانَ عاقِبَةُ المكذِّبِينَ المعْرِضِينَ عن طاعَةِ اللهِ.

وأَسْأَلُ اللهَ تعالى أن يَهَبَ لنَا ولكُمْ رحْمَـةً من لَدُنْهُ، وألا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بعدَ إذ هَدَانَا، وأن يجْعَلَنَا هُداةً مُهْتَدِينَ، وأن يجعَلَنَا قادَةً مصْلِحينَ، وأن يُصْلِحَ ولاةَ أمورِ المسلِمِينَ صَغِيرِهِمْ وكَبِيرِهِمْ؛ إنه جوَادٌ كَرِيمٌ.





سورة إبراهيم

الدرس الأول:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بعدُ:**

فقد قالَ تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

هَذِه السورةُ العظِيمَةُ ابتَدَأها اللهُ تعالى بثلاثَةِ أحْرُفٍ مِنَ الحروفِ الهجائيَّةِ، وهِيَ: ﴿الٓر﴾. وقد اختَلَفَ العلماءُ في هذه الحُروفِ الهِجَائيَّةِ التي ابتَدَأ اللهُ بها بَعْضَ السورِ في كِتابِهِ، وأصحُّ الأقوالِ فِيهَا أنها ليسَ لها مَعنًى ذاتِيٌّ، ولكِنْ لها معنًى رَمْزِي.

أما قولُنَا: إنها ليس لها مَعنًى ذاتيّ؛ فلأنَّ هذِهِ الحروفَ حُرُوفٌ هِجَائيةٌ ليس لها دَلالَةٌ في حَدِّ ذاتِهَا بمُقْتَضَى اللُّغَةِ العربيةِ، والقرآنُ الكريمُ نزَلَ باللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، فإذا كانَتْ هذِهِ الحروفُ لا تَدُلُّ على معنى ذاتِيٍّ بمُقْتَضى اللُّغَةِ العربية، فإنها كذلِكَ لا تَدُلُّ على مَعْنًى ذاتِيٍّ بحسَبِ ما ذَكَرَ اللهُ تعالى منْ أن هَذَا القرآنَ نَزَلَ بلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ.

وهذا الذي ذَكَرْنَاهُ هو قولُ مجاهِدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو إمامُ التَّابِعِينَ في التفْسِيرِ[(١)].

ولكنَّ بعضَ أهلِ العِلْمِ ذكر أن لها مَعنًى ذاتيًا، وأنَّها تُشِيرُ إلى أمورٍ وحوادِثَ، وكلُّ هذا من القَولِ على اللهِ بلا عِلْمٍ، ولا يجوزُ لأحدٍ اعتمادُهُ؛ لأنه لا يُمْكِنُ أن يشْهَدَ إنسانٌ عَلَى اللهِ بأنه أرادَ بِهَا معنًى محددًا.

ويَرَى بعض العُلماءِ مَسْلكًا ثالِثًا، وهو أن يُقَالَ في هَذهِ الحُروفِ الهِجائية التي ابتَدَأَ اللهُ بِهَا كتابه: اللهُ أعلَمُ بما أرادَ بذلِكَ. ولكِنَّ القولَ الَّذِي أشَرْنَا إليه وهُو القولُ الأوَّلُ هو القَوْلُ الراجِحُ؛ لأن هذا هو مَقْصِدُ اللسانِ العَرَبِيِّ الذي أنْزَلَ اللهُ به القُرآنَ، ولكن مع ذلِكَ لها مَعْنًى تَرْمي إليه، وهو ما ذَكَرَهُ شيخُ الإسلامِ[(٢)] وغيرِه ممن سَبَقَهُ أن في هذِهِ الحُروفِ إشارَةً إلى أن هذا القُرآنَ الَّذِي أعْجزَ فَصَحاءَ العربِ عن أن يأتُوا بشَيْءٍ مثله لم يَنْزِلْ بأحْرُفٍ غَرِيبَةٍ عن لُغَتِهِمْ، بل هو نازِلٌ بالأحرُفِ التي تتكونُ منْها اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ، ومع ذلك أعْجزَ العَربَ جميعًا، بل إنه مُعْجِزٌ لجميعِ الخَلْقِ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨].

وأَيَّدُوا رَأيهم هذَا بأنَّكَ لا تكادُ تجدُ سورَةٌ مُفْتَتَحَةٌ بهذِهِ الأحرفِ إلا وَجَدْتَ بعدَهَا ذِكرَ القرآنِ الكريمِ، أو ذِكْرَ ما هُو من خَصائصِ القرآنِ مِنَ الأفكارِ الغَيْبيَّةِ. وهذا الَّذِي ذَهَبُوا إليه لا شكَّ أنه مَعْنًى عَظِيمٌ، وأنه لا يَبْعُدُ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أرادَ أن يُشِير إليهِ، واللهُ تعالى أعْلَمُ بما أرادَ في كِتَابِهِ.

---

(١) أخرج الطبري في التفسير (١/ ٢٠٨) عن مجاهد أنه قال: فواتح السور كلها ق و ص و حم و طسم و الر وغير ذلك، هجاء موضوع.

(٢) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٧/ ٤٢٠).

وأما قَولُهُ تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلۡنَـٰهُ إِلَيۡكَ﴾، فَهُو يدُلُّ على أنَّ هذا الكتابَ، القرآنَ العَظِيمَ، مُنْزَلٌ مِنْ عندِ اللهِ، وأنه كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه إن كانَ نازِلًا مِنْ عندِهِ وهو كلامٌ لا يقُومُ بذاتِهِ، دَلَّ عَلَى أنه كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه كلامُهُ تعالى لَفْظًا ومَعنًى، وقد ذهبَ بعضُ الناسِ إلى القَوْلِ بأنَّ القُرآنَ ليسَ كلام اللهِ لَفظًا، ولكنه كلامُهُ مَعْنًى، وذهبُوا إلى أن الكلامَ هُو المَعْنى القائمُ بنَفْسِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأن هذِهِ الحروفَ عبارةٌ عن كلامِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واستَدَلُّوا بشِعْرٍ باطِلٍ لا يصِحُّ، وهو للأخطلِ الشاعِرِ النَّصْرانِيِّ المعروفِ[1]:

إنَّ الكَـلَامَ لَفِـي الفُـؤادِ وَإنَّـمَا جُعِـلَ اللِّسَـانُ عَـلَى الفُـؤادِ دَلِـيلَا

ولكن هذَا لا يُمْكِنُ أبدًا أن يُستَدَلَّ بِهِ؛ لأنه كلامٌ غيرُ معقولٍ، فإن الكلامَ هو ما كانَ باللِّسانِ، ولا يُطْلَقُ الكلامُ على ما في النَّفْسِ إلا مُقَيَّدًا؛ كَما في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة:٨].

إذن فالقرآنُ كلامُ اللهِ؛ لَفْظُهُ ومَعناهُ، تكَلَّمَ به حَقِيقَةً، وأنزلَهُ على رسولِهِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواسطَةِ جِبْريلَ الأمِينِ.

وقوله تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ﴾ كتابٌ بمَعْنى مكتوبٍ؛ لأن القُرآنَ قدْ كُتِبَ في اللَّوحِ المحفوظِ، وهو أيضًا قدْ كُتِبَ في الصُّحُفِ التي في أيْدِي الملائكَةِ؛ كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١-١٦]، وهو كذلِكَ أيضًا مكتوبٌ في المصاحِفِ التي بينَ أيْدِي البَشَرِ، يكتبُونَهُ ويَحْفُظونَهُ في صُدُورِهِمْ، ويقرؤونَهُ قيامًا وقعُودًا وعلى جُنُوبِهِمْ.

---

(١) انظر: البيان والتبيين (١/ ٢١٨).

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: لتُخرِجَ بهذَا القرآنِ الَّذي نَزَلَ عليكَ الناسَ جَميعًا مِنَ الظُّلماتِ إلى النُّورِ، وذلِكَ إذا تمسَّكُوا بهذَا القرآنِ الكريمِ؛ أخْرَجَهُم من ظُلُماتِ الجَهْلِ، ومن ظُلُماتِ الغَيِّ، ومن ظُلماتِ الطُّغْيانِ إلى نورِ العِلْم وإلى نورِ الرَّشَدِ وإلى نور العَدْلِ.

ولا شكَّ أن هذَا القرآنَ لمن تمسَّكَ به سوفَ يهدِيهِ إلى هذا الَّذِي ذكَرَهُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وكذلك أيضًا يُخرِجُ الناسَ مِنْ ظُلماتِ القُلوبِ إلى نُورِهَا؛ فإنَّ القُلوبَ تُظْلِمُ بالمعاصِي وتُنارُ بالطاعَةِ التي هِيَ امتثالُ ما جاءَ في هذا القُرآنِ الكريم. ولهذا لا تَجِدُ أحدًا أنْعَمَ بالًا، وأنورَ قَلْبًا، وأسفرَ وَجْهًا ممن تمسَّكَ بهذَا القرآنِ الكريمِ.

ولكنَّ إِخْراجَ النَّبيِّ ﷺ الناسَ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ ليس إلا مجرَّد سببٍ فقط لا تأثيرَ له في ذلِكَ إلا تأثيرُ السببِ في مُسَبَّبِه، ولهذا قيَّدَ اللهُ تعالى هذا الإخراج بقولِهِ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، ولو كانَ إخراجُ النَّبيِّ ﷺ للناسِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بتأثيرٍ ذَاتِيٍّ لاستطاعَ النبيُّ ﷺ أن يُخرِجَ عمَّه أبا طالِبٍ من الظلماتِ إلى النُّورِ، ولكنه لم يستَطِعْ ذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يُرِدْه ولم يأْذَنْ به، ولهذا قَيَّدَ قولَهُ: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

نَسْتَفِيدُ من هذِه النُّقْطَةِ بالذات أنه إذا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ وهُوَ المعلِّمُ الأوَّلُ لهذه الأُمَّةِ، وهو القائدُ الأعظم المتْبُوعُ، لا يستَطِيعُ أن يُخرِجَ أحدًا مِنَ الظُّلماتِ إلى النورِ إلا بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ غيرَهُ أيضًا من بابِ أوْلى وأحْرى، فإنك مَهْما حاوَلْتَ

أن تَهدِيَ أحدًا والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لم يأْذَنْ بِهدَايتِهِ، فإنه لا يمكِن أن يهتَدِيَ، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

إلا أنَّنَا مأمورونَ بفِعْلِ أسبابِ الهدَايَةِ التي يهتَدِي بها الخَلْقُ؛ بدَعْوتِهم إلى اللهِ تعالى على بَصيرَةٍ، وأمْرِهم بالمعْرُوفِ، ونَهْيِهم عنِ المنْكَرِ، حتى تستَقِيمَ الملَّةُ، وتَصْلحَ الأمَّةُ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلِيُّ التَّوفِيقِ، ونسألُ اللهَ أن يَجْعَلَنَا جَميعًا من الهُداةِ المهتَدِينَ، ومن القادَةِ المصلْحِينَ، إنه جوَادٌ كريمٌ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الثاني:

إن الحمدَ للهِ نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، منْ يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسولهُ، صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وأصحابهِ، ومنْ تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، أمَّا بعد:

فقد قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ [إبراهيم:٢٧-٣١].

قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾. هذهِ الآيةُ نزلتْ في فتنةِ القبرِ، والقبرُ فيهِ فتنةٌ عظيمةٌ، وأخبرَ النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أننا نُفتنُ في قبورِنا مثلَ أو قريبًا من فتنةِ المسيحِ الدجالِ[1]، يعني فتنةً عظيمةً، نسألُ اللهَ أن يثبتَنا وإياكمْ.

فإذا دُفنَ الميتُ ثم تَولى عنهُ أصحابُهُ -حتى إنهُ لَيسمعُ قَرعَ نعالِهم[2]- أتاهُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (١٣٧٢)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ذكر عذاب القبر في صلاة الخسوف، رقم (٩٠٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال، رقم (١٣٣٨)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم (٢٨٧٠).

ملكانِ فيُجلسانِه ويَسألانِه عن ثلاثةِ أصولٍ: مَن ربُّك؟ ما دِينُك؟ منْ نَبيُّك؟ ثلاثةُ أشياءَ، فكلُّ ميتٍ يُدفنُ يُسألُ عن هذهِ الأشياءِ الثلاثةِ التي أَلَفَ فيها شيخُ الإسلامِ محمدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالةً سماها (الأصولَ الثلاثةَ).

يقالُ: مَن ربُّك؟ فيثبتُ اللهُ الذينَ آمَنُوا بالقولِ الثابتِ، فيقولُ المؤمنُ: ربيَ اللهُ، وهذا الجوابُ صحيحٌ. ما دِينُكَ؟ قالَ: دينيَ الإسلامُ، وهذا الجوابُ صحيحٌ. مَن نبيُّكَ؟ محمدٌ. والجوابُ صحيحٌ. إذن أجابَ جوابًا صوابًا صحيحًا.

أما المنافقُ -والعياذُ باللهِ- فإذا سُئلَ: مَن ربُّكَ؟ قالَ: هاهْ هاهْ، كأنما يتذكرُ شيئًا فاتهُ أو نَسيَهُ، يُفكرُ وفي النهايةِ يقولُ: هاه هاه لا أدرِي، سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا فقلتُه. أَجارَنَا اللهُ وإياكُم منَ النفاقِ، يقولُ: سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا فقلتُه؛ لأنهُ لم يَصِلِ الإيمانُ إلى قلبِه، فالإيمانُ في اللسانِ فقطْ، وفي الآذانِ فقطْ. فيُضربُ بِمِرْزَبَةٍ من حديدٍ؛ جاءَ في بعضِ الأحاديثِ أنهُ لوِ اجتمعَ عليها أهلُ منًى ما أَقَلُّوها مِن عِظَمِها[1]، والعياذُ باللهِ! فيصيحُ صيحةً يَسمعُها كلُّ شيءٍ إلا الثقلانِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

هذا التثبيتُ أخبرَ النبيُّ ﷺ أن المؤمنَ يَثبتُ والمنافقَ لا يثبتُ، فحاولْ أن تُطهرَ قلبَكَ منَ النفاقِ، وليسَ النفاقُ -يا إخواني- أن تكفرَ باللهِ، فالنفاقُ خصالٌ كثيرةٌ، فإذا رأيتَ مِن نفسِكَ أنكَ عندَ الصلاةِ تكونُ كسلانَ فاعلمْ أن فيكَ شعبةً منَ النفاقِ؛ لأن المنافقينَ همُ الذينَ إذا قَامُوا إلى الصلاةِ قاموا كسالى، وإذا رأيتَ أنكَ تَكذبُ في الحديثِ فاعلمْ أن فيكَ شعبةً منَ النفاقِ؛ لأن آيةَ المنافقِ ثلاثٌ؛ منها:

---

(١) أخرجه البيهقي في إثبات عذاب القبر (١/ ٨٢، رقم ١٠٥).

إذا حدَّثَ كذَبَ[١]، وإذا رأيتَ نفسَكَ تَعِدُ وتُخلفُ الميعادَ فاعلمْ أن فيكَ شعبةً منَ النفاقِ. واحذرْ أن تَعظُمَ هذهِ الخَصلةُ حتى يُطبعَ على قلبِكَ والعياذُ باللهِ، فطَهِّرْ نَفسَكَ مِنَ النفاقِ كلِّه عمليِّه وعقَدِيِّهِ، حتى تَسلمَ من شرِّه. أعاذَنَا اللهُ وإياكُمْ منَ النفاقِ.

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ المَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: **«اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ»**[٢].

فتقول: اللهمَّ اغفرْ لهُ، اللهمَّ اغفرْ لهُ، اللهمَّ اغفرْ لهُ، اللهمَّ ثبتْهُ، اللهمَّ ثبته، اللهمَّ ثبتْهُ؛ لأن النبيَّ ﷺ كانَ إذا دَعَا يدعُو ثلاثًا[٣].

وبعضُ الناسِ يبتدعُ عندَ دفنِ الميتِ وبعدَ دفنِهِ بِدعًا ما أنزلَ اللهُ بها منْ سلطانٍ؛ سَمِعنَا أن بعضَ الناسِ عندَ دفنِ الميتِ ينزلُ في القبرِ ويؤذنُ ويقيمُ الصلاةَ، فهذهِ بدعةٌ، وما ثبتتْ عنِ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإذا كانتْ بدعةً فقدْ قالَ النبيُّ ﷺ: **«كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**[٤]. فيجبُ الكفُّ عنها، وأن نفعلَ بمَوتَانَا ما كانَ الناسُ يَفعلونَهُ في عهدِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ.

كذلكَ بعدَ الدفنِ بعضُ الناسِ إذا فرغَ منْ دفنِ الميتِ جعلَ يقرأُ الفاتحةَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف، رقم (٣٢٢١).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

أو غيرها منَ السورِ، وهذا أيضًا خلافُ السنةِ؛ لأن النبيَّ ﷺ لم يأمرْ إلا بالاستغفار لهُ وسؤال اللهِ التثبيتَ، ولم يأمرْ بِسِوَى ذلكَ، ولم يقلْ: اقرءُوا عندَ قَبرِه بالفاتحةِ ولا بآيةِ الكرسيِّ ولا غيرِهما.

ولهذا يجبُ علينا -أيها الإخوةُ- أن نصنعَ بموتانا كما كانَ الصحابةُ يصنعونَ بموتَاهُم، وألا نبتدعَ في دينِ اللهِ ما ليسَ منهُ، والسنةُ الواحدةُ خيرٌ من ألفِ بدعةٍ، والاقتصارُ على الواردِ هوَ الأكثرُ ثوابًا وفضلًا.

نسألُ اللهَ أن يَرزقَنَا وإياكمُ التمسكَ بدينِه والوفاةَ عليهِ، إنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

قولُه: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الخطابُ هنا هلْ هوَ للرسولِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أو لكلِّ مَن يتوجَّهُ إليهِ الخطابُ؟

الجوابُ: منَ المعلومِ أن الخطاباتِ الموجَّهَةَ بهذهِ الصورةِ تنقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

القسمُ الأولُ: ما دلَّ الدَّليلُ على أنهُ عامٌّ للنبيِّ ﷺ ولأمتِه.

والقسمُ الثاني: ما دلَّ الدَّليلُ على أنهُ خاصٌّ بالرسولِ ﷺ.

والقسمُ الثالثُ: ما كانَ مُحتَمِلا لهذا أو هذَا.

وأما الأولُ فمثلُ قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، فتجدُ أن الخطابَ صُدِّرَ أولًا بقولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، وهذا النداءُ نداءٌ خاصٌّ بالرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكنهُ قالَ: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، ولم يقلْ: إذا طُلقتِ

النساءُ، وهذا يدلُّ على أن هذَا الخطابَ عامٌّ للرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وللأمة.

أما القسمُ الثاني الخاصُّ بالرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فمثلُ قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:١-٢]؛ فإن هذا الخطابَ خاصٌّ بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ.

وأما المُحتمِلُ فآياتٌ كثيرةٌ؛ منها هذهِ الآيةُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾، فالمرادُ ألم تَرَ يا محمدُ، أو: ألم ترَ أيها المخاطبُ، فيحتمِلُ هذا وهذا.

وإذا احتملتِ الآيةُ معنيينِ؛ أحدُهما أعمُّ منَ الآخرِ، فالواجبُ حملُها على العمومِ؛ لأن حملَها على العمومِ يتناولُ الخاصَّ وغيرَه، وإذا حملنَاهَا على الخصوصِ صارتْ دلالتُها أقلَّ مِن دلالتِها على العمومِ.

واعلمْ أن الحكمَ الموجَّه إلى الرسولِ ﷺ يشملُهُ ويشملُ الأُمةَ، فهذا هوَ الأصلُ؛ أن كلَّ حكمٍ شرعيٍّ فعلَهُ النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو وَجَّهَ إليهِ الخطابَ، فإنهُ عامٌّ لهُ وللأُمةِ، إلا ما دلَّ الدَّليلُ على خصوصِه.

ولهذا نجدُ بعضَ العلماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إذا عجزُوا عنِ الجمعِ بينَ العمومِ والخصوصِ قالُوا: هذا خاصٌّ بالرسولِ ﷺ، فتجدهُم يُثبتونَ خصائصَ كثيرةً للرسولِ ﷺ معَ أن الأصلَ عدمُ الخصوصيةِ.

ولتوضيحِ ذلكَ نقولُ: إذا وردَ نصٌّ في حكمٍ منَ الأحكامِ الشرعيةِ، سواءٌ كانَ مِن قولِ الرسولِ أو فِعلِه، فإنهُ يكونُ عامًّا لهُ وللأمةِ، فهذا هوَ الأصلُ، ودليلُ هذا

الأصلِ الأصيلِ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

فالأصلُ أن كلَّ حكمٍ ثبتَ للرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فهوَ لهُ وللأمةِ، إلا إذا دلَّ الدَّليلُ على أنهُ خاصٌّ بهِ.

وعلى هذا فأيُّ إنسانٍ يقولُ: هذا الحكمُ خاصٌّ بالرسولِ نقولُ لهُ: أينَ الدَّليلُ؟

ويدلُّ لهذا الأصلِ الأصيلِ ما أشرتُ إليهِ في قولِه تَعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، ويدلُّ لذلكَ أيضًا قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب:٣٧].

ووجهُ الدلالةِ أن تزويجَ زينبَ بنتِ جحشٍ كانَ خاصًّا للرسولِ ﷺ، وكانتِ امرأة زيدٍ الذي هوَ مولَى رسولِ اللهِ ﷺ وهوَ ابنُه الذي تبناهُ مِن قَبلِ أن يَبطلَ التبني في الإسلامِ. فلما قضَى زيدٌ منها وطرًا وطلقَها زَوَّجَها اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نبيَّه محمدًا ﷺ؛ ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾، ولم يقلْ: لكَيْ لا يكونَ عليكَ حرجٌ، مع أن الخطابَ في الأولِ كانَ للرسولِ ﷺ، ولكنهُ قالَ: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾، فدلَّ ذلكَ على أن الحكمَ الذي يثبتُ للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ثابتٌ لهُ ولأُمتِهِ.

ولما أرادَ اللهُ الخصوصَ قالَ: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ يعني وأحللْنا لكَ امرأةً مؤمنةً ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

فلما كانَ هذا الحكمُ خاصًّا بالرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بيَّنَ اللهُ ذلكَ، وهذا الحكمُ الخاصُّ هوَ أنهُ إذا جاءتِ امرأةٌ إلى الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقالتْ: وهبتُ نفسي لكَ يا رسولَ اللهِ، ثم قالَ: قبِلتُ؛ صحَّ عقدُ النكاحِ بالهبةِ المجردةِ المحضةِ، بدونِ عوضٍ، وأما غيرُ الرسولِ فإنهُ لا يصحُّ، فلو جاءتِ امرأةٌ تُهدي نفسَها إلى شخصٍ وقالَ: قَبلتُ فإنهُ لا حكمَ لهذا إطلاقًا، ولا يصحُّ.

ولهذا اختلفَ العلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ لو أن إنسانًا تزوجَ امرأةً واشترطَ عليها ألَّا يعطيَها مهرًا، وهوَ الصَّداقُ الذي يعطيهِ الرجلُ المرأةَ في مقابلِ النكاحِ، فهلْ هذا النكاحُ صحيحٌ، أو لا؟ أو هوَ صحيحٌ دونَ الشرطِ؟

في هذا خلافٌ بينَ العلماءِ؛ فمنهمْ مَن يقولُ: إن النكاحَ غيرُ صحيحٍ؛ لأنهُ إذا اشترطَ عليهَا أن لا مهرَ لها صارَ النكاحُ هبةً، ونكاحُ الهبةِ خاصٌّ بالرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ.

ومنهمْ مَن يقولُ: النكاحُ صحيحٌ، والشرطُ غيرُ صحيحٍ. وعلى هذا القولِ يجبُ أن يعطيَهَا مهرَ مِثلِها.

على كل حالٍ النكاحُ بالهبةِ خاصٌّ بالرسولِ ﷺ؛ لأن اللهَ نصَّ عليهِ.

وأضربُ لكَ مثلًا فيما اختلفَ فيهِ الناسُ؛ ثبتَ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أنهُ قالَ: «**إِذَا أَتَيْتُمُ الغَائِطَ فَلا تَسْتَقْبِلُوا القِبْلَةَ وَلا تَسْتَدْبِرُوهَا، وَلَكِنْ شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا**»(١) يعني إذا أرادَ الإنسانُ أن يقضيَ حاجتَه فإنهُ لا يجوزُ أن يستقبلَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قبلة أهل المدينة وأهل الشأم والمشرق، رقم (٣٩٤)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٤)

يستقبلَ القبلةَ، ولا أن يَستدبرَها، سواءٌ في البولِ أو الغائطِ، «**وَلَكِنْ شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا**» وهذا خطابٌ لأهلِ المدينةِ ومَن شابَهَهُم ممن تكونُ قبلتُه جنوبًا أو شمالًا، يُشرِّق أو يُغربُ.

قالَ ابنُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «رَقِيتُ عَلَى بَيْتِ أُخْتِي حَفْصَةَ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاعِدًا لِحَاجَتِهِ، مُسْتَقْبِلَ الشَّامِ، مُسْتَدْبِرَ القِبْلَةِ»[1].

وهذا الحديثُ معَ الذي قبلَه بينهُما تعارضٌ؛ فمِن ثمَّ قالَ بعضُ العلماءِ: إن استدبارَ القبلةِ خاصٌّ بالرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ؛ لأن الحديثَ الأولَ «**إِذَا أَتَيْتُمُ الغَائِطَ فَلا تَسْتَقْبِلُوا القِبْلَةَ وَلا تَسْتَدْبِرُوهَا، وَلَكِنْ شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا**» عامٌّ، وهذا خاصٌّ، فيكونُ هذا خاصًّا بالرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ.

فيقالُ: أينَ الدَّليلُ على الخصوصيةِ؟ لأن العامَّ يجوزُ تخصيصُه، فلننظرْ إلى الحالِ التي يَفترقُ فيها العامُّ وهذا الخاصُّ فنجدُ أن الحالَ هوَ أن الإنسانَ إذا كانَ في البنيانِ فإنهُ يجوزُ أن يستدبرَ القبلةَ، ولكنْ لا يجوزُ أن يستقبلَها. ومِن ثَمَّ أُنبِّهُ إخوانَنا الذينَ مَراحيضُهم متجهةٌ إلى القبلةِ في الحماماتِ أنهُ يجبُ عليهمْ أن يصرفُوها، ويكسِروا هذا المقعدَ ويصرفُوه إلى وجهٍ آخرَ إذا كانوا إذا جلسُوا عليهِ يستقبلونَ القبلةَ؛ لأن استقبالَ القبلةِ حالَ البولِ أوِ الغائطِ حرامٌ في الفضاءِ والبنيانِ؛ إذِ التخصيصُ في الاستدبارِ فقطْ، ويبقى الاستقبالُ على عمومِهِ.

وحينئذٍ عليكَ -يا أخِي- أن تنتبهَ لهذا؛ قد يقولُ أنا أستطيعُ أن أجلسَ على

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب التبرز في البيوت، رقم (١٤٨)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٦).

هذا لكنْ أنحرفُ يمينًا وشمالًا، فنقولُ: نعمْ أنتَ ربما تكونُ منتبهًا لهذا، وتستطيعُ ذلكَ، ولكن هلْ هذا الحمامُ أو المرحاضُ لا يستعملُه إلا أنتَ؟ سيقولُ: لا يستعملُه غيري. وأيضًا هوَ لن يَبقى مخلدًا، ولن يَبقى في هذا البيتِ، فقد يبيعُ البيتَ مثلًا، وإذا ماتَ وخَلَفَهُ مَن خَلَفَهُ صارُوا يستقبلونَ القبلةَ بالبولِ أوِ الغائطِ، فيقعونَ فيما نهى عنهُ الرسولُ ﷺ، لكن إذا كسرَهُ اليومَ وحرَّفَ وجهَه إلى غيرِ القبلةِ سلِمَ منَ الإثمِ، وسلِمَ مِن أن يكونَ مَن بعدَه يأثمُ بسببِه. والحمدُ للهِ الكلفةُ قد لا تتجاوزُ خمسَ مئةِ ريالٍ مثلًا، ولو تجاوزتْ ما يهمُّ؛ لأنهُ ينجو بذلكَ منَ الإثمِ، ويُنجي غيرَه منَ الإثمِ، ويسلَم منهُ بعدَ موتِه.

قولُه: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ نعمةُ اللهِ تعالى هيَ إفضالُه على العبدِ بالصحةِ والعافيةِ، والعقلِ، والمالِ والبنينَ، والأمنِ، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]، فلا يستطيعُ الإنسانُ أن يحصيَ نعمةَ اللهِ، إن نعمةً واحدةً لو أردتَ أن تُحصيَها لعجزتَ، فانظرْ إلى النفَسِ، فالنفَسُ الآنَ يخرجُ منكَ بسهولةٍ ولا تشعرُ بهِ، ولا تتكلفُ له عناءً، لكن لو انحبسَ يوما منَ الأيامِ لتعبَ الإنسانُ تعبا عظيمًا، وانظرْ إلى مَنِ ابتلاهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بضيقِ النفسِ ماذا يعانونَ منَ النفَسِ صعودًا ونزولًا، فيعانونَ شيئًا كثيرًا، وأنتَ يصعدُ منكَ النفسُ وينزلُ بكلِّ سهولةٍ، فهذهِ نعمةٌ لا تستطيعُ أن تحصيَهَا، فضلًا عن نعمةِ البصرِ، ونعمةِ السمعِ، ونعمةِ الكلامِ، ونعمةِ العافيةِ، والعقلِ، وغيرِ ذلكَ.

فنعمةُ اللهِ يجبُ على العبدِ أن يشكرَها، وبماذا يكونُ الشكرُ؟

إن اللهَ تعالى فسرَ الشكرَ لنا في القرآنِ العظيمِ؛ قالَ النبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ

لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»[١] وصدقَ الرسولُ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، وإن اللهَ أمرَ المؤمنينَ بما أمرَ بهِ المرسلينَ فقالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، وقالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢].

فلننظرْ ونوازنْ بينَ الآيتينِ: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هذا للرسلِ، وللمؤمنينَ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، وفي الرسلِ قالَ: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، وفي المؤمنينَ قالَ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾.

إذنْ عَرفنَا أن الشكرَ هوَ العملُ الصالحُ، وهذا تفسيرٌ للقرآنِ بالقرآنِ، فالشكرُ هوَ العملُ الصالحُ، فعلى هذا نقولُ: كلُّ مَن لم يعملْ صالحًا فإنهُ لم يشكرْ نعمةَ اللهِ، وكلما بَعُدَ الإنسانُ عنِ العملِ الصالحِ بعُدَ عن شكرِ نعمةِ اللهِ، وكلما كانَ أقومَ للهِ بالعملِ الصالحِ كان أشكرَ لنعمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فالذينَ بَدلُوا نعمةَ اللهِ كفرًا هُم الذينَ قابلُوا النعمةَ بالمعصيةِ.

لهذا -يا أخي- فكرْ في نفسِكَ، فقمْ بطاعةِ اللهِ معَ هذهِ النعمةِ العظيمةِ، ولا سيما في بلادِنا، وللهِ الحمدُ، بلاد الخيرِ والأمنِ والطمأنينةِ، فهلْ أنتَ قمتَ بشكرِ هذهِ النعمةِ؟ انظرْ، ألا تستحِي منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يُسبغَ عليكَ النعمَ ظاهرةً وباطنةً وأنتَ تبارزُه بالمعصيةِ!

واللهِ لو أنَّ واحدًا منَ البشرِ أعطاكَ درهمًا لرأيتَ معصيتَه سوءَ أدبٍ معهُ، فكيفَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ! اللهمَّ ارزقنَا شكرَ نعمتِكَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (١٠١٥).

قولُه تعالـى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ أي: قابَلُـوا النعمَ بالمعاصي ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ أي جعلُوها سكنًا لهم، وهـؤلاءِ همْ قادةُ الكفرِ والضلالِ، وهمُ الذينَ أحلُّوا قومَهم دارَ البوارِ، وهيَ جهنمُ والعياذُ باللهِ.

وقادةُ الأممِ صنفانِ منَ الناسِ: أحدُهما: العلماءُ، والثاني: الأمراءُ.

فهم قادةُ الأممِ، فإذا يسرَ اللهُ للأمةِ علماءَ أجلَّاءَ ربانيينَ يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عنِ المنكرِ، ويدعونَ إلى الخيرِ، ويبينونَ للناسِ ما أَنزلَ اللهُ إليهمْ، فهذا عنوانُ السعادةِ، وإذا كانَ الأمرُ بالعكسِ فهذا عنـوانُ الشقاءِ، وإذا يَسرَ اللهُ للأمةِ أمراءَ يحملونَهُم على القيامِ بشريعةِ اللهِ، وينفذُون فيهمْ أحكامَ شريعةِ اللهِ؛ كان هذَا عنوانًا على السعادةِ.

وإذا كانَ الأمـرُ بالعكسِ قيَّضَ للأممِ حكامًا يحـكمونَ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ، ويأمـرونَ بالمنكرِ، وينهونَ عنِ المعروفِ، ويسعونَ في الأرضِ فسادًا، وصارَ ذلكَ عنوانَ الشقاءِ على الأممِ.

لذلكَ نقولُ: إن معنَى قولِه: ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ يشيرُ إلى قادةِ الأممِ، والقادةُ كما ذكرتُ صنفانِ منَ الناسِ: الأولُ: العلماءُ، والثاني: الأمراءُ، فهؤلاءِ همُ القادةُ، وهؤلاءِ الذينَ إذا أرادَ اللهُ في الأمةِ خيرًا صارُوا صلاحًا وفلاحًا على أُممهم، فكمْ مِن إنسانٍ يكونُ في قومٍ مستقيمينَ على دينِ اللهِ، وعلى سنةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ ثم ينبغُ فيهمْ نابغةُ شرٍّ مبتدِعٍ، سليطِ اللسانِ، قويِّ البيانِ، فيُحدثُ فيهمْ بدعةً في دينِ اللهِ، والعامةُ كما ترونَ يتبعونَ العلماءَ، فيكونُ هذا العالِمُ المبتدعُ شؤمًا على قومِه، فيُحلُّهمْ دارَ البوارِ.

وكَمْ من أمةٍ يكون فيها الأميرُ متهاونًا في أمرِ اللهِ، حاكمًا بغيرِ شريعةِ اللهِ، فيحلُّ قومَه دارَ البوارِ.

فالواجبُ على العلماءِ أن يكونُوا قادةً في الخيرِ والصلاحِ وبيانِ الحقِّ، وألا تأخذَهُم في اللهِ لومةُ لائمٍ، والواجبُ عليهمْ أيضًا أن يكونُوا حكماءَ في معاملةِ الخلقِ والدعوةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا أن يكونُوا سفهاءَ يريدونَ ما لا يُمكنُ أن يكونَ. ومن طَلَبَ المحالَ وقعَ في المحالِ.

فيجبُ على العلماءِ أن يكونُوا دعاةً إلى الخيرِ، لكن بالحكمةِ وبالموعظةِ الحسنةِ، وبتنزيلِ الناسِ منازلَهم، حتى يتبينَ الحقُّ، وتكونَ الدعوةُ دعوةَ خيرٍ وإصلاحٍ، لا دعوةَ عنفٍ وشقاقٍ وتمزيقٍ للأمةِ وتفريقٍ لشملِها؛ فإن هذهِ الدعوةَ وإن كانَ صاحبُها قد يريدُ بها خيرًا، إلا أنها تنعكسُ وتكونُ شرًّا للأمةِ.

فالواجبُ على الداعيةِ أن ينظرَ لأيِّ شيءٍ يَدعُو، والواجبُ على الداعيةِ أن ينظرَ كيفَ يدعُو، والواجبُ على الداعيةِ أن يسلكَ سبيلَ السلفِ الصالحِ في الهدوءِ والاستقرارِ والطمأنينةِ، وعدمِ إثارةِ العامةِ، حتى يحصلَ لهُ مقصودُه، أما أن تكونَ الدعوةُ بالعنفِ والشدةِ وإرادةِ ما لا يمكنُ أن يكونَ؛ فهذا لا شكَّ أنهُ يكونُ مخالفًا للحكمةِ التي يكونُ الداعيةُ عليهَا، والتي أمرَ اللهُ بها في قولِه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

ومَن تدبرَ حالَ الشعوبِ سابقًا ولاحقًا؛ عرَفَ كيفَ تكونُ نتيجةُ الدعوةِ الهوجاءِ، التي ليسَ فيها إلا الإثارةُ، فتكونُ النتيجةُ سيئةً، ولا يحصلُ للداعي مطلوبُه، بل سيكونُ الأمرُ عكسيًّا، وربما يصلُ الأمرُ إلى التلاحمِ بالقتالِ بينَ الولاةِ

وبينَ رعيتِهم، وهذا أمرٌ لا أحتاجُ أن أضعَ فيهِ النقطَ على الحروفِ؛ لأنكم تعرفونَ مثلما أعرفُ، وربما تعرفونَ أكثرَ مما أعرفُ؛ أن الأمراءَ يجبُ عليهِمْ أن يحكمُوا في عبادِ اللهِ بشريعةِ اللهِ؛ لأنهمْ همْ منفذونَ، وهمْ كغيرِهم عبادٌ للهِ، يجبُ أن يخضعُوا لأحكامِ اللهِ، وألا يُقَدِّمُوا على حكمِ اللهِ تعالى حكمَ أيِّ إنسانٍ منَ البشرِ، وليعلمُوا أن القوانينَ مهما كانَ واضعُوها منَ الذكاءِ والفطنةِ ومعرفةِ أحوالِ الناسِ؛ فإنها قاصرةٌ بلا شكٍّ؛ لأنها وضْعُ بشرٍ لا يمكنُ أن يحيطَ علما بالناسِ في جميعِ الأماكنِ، فالشعوبُ تختلفُ، ومصالحُها تختلفُ، وأحوالُها تختلفُ، فإذا قدرنَا أن رجلًا ذكيًّا مخلصًا لوطنِه وضعَ قانونًا مناسبًا فيما يَدَّعي فهوَ ليسَ مناسبًا في جميعِ البلدانِ وفي بقيةِ الأوطانِ، فالشعوبُ تختلفُ.

ثم إذا قُدرَ أن هذا القانونَ مصلحٌ لهذا الوطنِ في هذا الزمانِ، فهل يمكنُ أن يبقَى هذا القانونُ مصلحًا للأمةِ إلى يومِ القيامةِ؟ أبدًا لا يمكنُ، ولهذا نجدُ الأذكياءَ مِن واضعي القوانينِ ومنَ الحكامِ يحافظونَ على القوانينِ معَ علمِهم بأنها لا تصلحُ للشعوبِ؛ لئلا تحصلَ الفوضَى والاضطرابُ في زعمِهم، لكن لو رَجعُوا إلى حكمِ اللهِ ورسولِه لوجدُوا الطمأنينةَ والاتفاقَ والسلامَ.

إذنْ لا يُمكنُ أن تَصلحَ هذهِ القوانينُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، ولا يمكنُ أن تَصلحَ لجميعِ الأممِ، ولا يُمكنُ أن يَصلحَ الخلقُ إلا بما وَضَعَه الخالقُ عَزَّوَجَلَّ وشرعَه لعبادِهِ، مهما كانَ الأمرُ.

ولكنِ انتبهْ أن الناسَ يختلفونَ في تطبيقِ الشريعةِ، وفي فهمِ الشريعةِ، وفي حكمِ الشريعةِ، يختلفونَ اختلافًا كثيرًا، فقدْ يَفهمُ بعضُ الناسِ النصَّ القرآني أو النبويَّ على

معنًى، ويفهمُهُ الآخرونَ على معنًى آخرَ، فيحصلُ الاختلافُ، ولكن لدينا ميزانٌ يجبُ علينا الرجوعُ لهُ عندَ الاختلافِ، وهو ما أشارَ اللهُ إليهِ في قولِه: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:١٠]، وفي قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩]. فيجب الرجوعُ إلى الكتابِ والسنةِ بقدرِ الإمكانِ.

قولُه: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ جهنمُ محلُّها منَ الإعرابِ مما قبلَها بدلٌ أو عطفُ بيانٍ لقولِه: ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾؛ يعني كأن قائلًا يقولُ: ما هيَ دارُ البوارِ؟ قالَ: جهنمُ.

وجهنمُ اسمٌ من أسماءِ النارِ، أعاذنَا اللهُ وإياكُم منهَا.

قولُه: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يحترقونَ بها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ أي بئسَ القرارُ جهنمُ، وبئسَ القرارُ المستقَر بهِ.

وصدقَ ربُّنا عَزَّوَجَلَّ أن نارَ جهنم لَبئسَ القرارُ. وأصنافُ العذابِ في نارِ جهنمَ مذكورةٌ على وجهِ التفصيلِ أحيانًا، والإجمالِ أحيانًا في الكتابِ والسنةِ، ولقدْ أخبرَنَا رسولُ اللهِ ﷺ أن أهونَ أهلِ النارِ عذابًا مَن عليهِ نعلانِ مِن نارٍ يَغلي منهُما دماغُه[1] -والعياذُ باللهِ- من شدةِ الحرارةِ.

ونسبةُ الدماغِ إلى القدمينِ نسبةُ أعلى شيءٍ إلى أنزلِ شيءٍ، فالقدمانِ أنزلُ شيءٍ، والدماغُ أعلى شيءٍ، فإذا كانَ الدماغُ يغلي من حرارةِ هاتينِ النعلينِ، فبقيةُ الجسمِ أشدُّ غليانًا، نسألُ اللهَ أن ينجيَنا وإياكُم منَ النارِ. ولهذا قالَ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابًا، رقم (٢١٢).

قولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أي جعلُوا للهِ نُظراءَ ومساوينَ في العبادةِ، فقالُوا: هذا إلهُكم فاعبدُوه، يعني غيرَ اللهِ ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾. وهلِ الأندادُ هنا هيَ الأصنامُ، أو هيَ أعمُّ، تعمُّ كلَّ شيءٍ جُعلَ مساويًا للهِ؟

الجوابُ: الثاني، حتى العلماءُ الذينَ يُضلونَ الناسَ عن سبيلِ اللهِ همْ في الحقيقةِ كالأصنامِ؛ ألم ترَ إلى قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة:٣١]، فاتخذُوا أحبارَهُمُ العلماءَ ورهبانَهُم العبَّادَ أربابًا منْ دونِ اللهِ؛ أي آلهةً من دونِ اللهِ.

قالَ عديُّ بنُ حاتمٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ. قال: «**أَجَلْ وَلَكِنْ يُحِلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيَسْتَحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللهُ فَيُحَرِّمُونَهُ، فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ**»(١).

فالأندادُ لا تختصُّ بالأصنامِ المعبودةِ، فحتى مَن يُطاعُ في معصيةِ اللهِ يعتبرُ نِدًّا للهِ؛ لأنكَ جعلتَه حاكمًا كما جعلتَ اللهَ حاكمًا.

ولهذا نقولُ: الأندادُ أشملُ وأعمُّ منَ الأصنامِ التي تُعبدُ مِن دونِ اللهِ؛ إذ إنها تشملُ كلَّ ما اتخذَ إلها معبودًا من دونِ اللهِ، ولو بطاعتِه في معصيةِ اللهِ.

قولُه: ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي ليضلُّوا الناسَ عن سبيلِ اللهِ ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ تمتعُوا بما أعطاكُم اللهُ مِن صحةٍ وعقلٍ ومالٍ وبنينَ وغيرِ ذلكَ، فإن مصيرَكُم إلى النارِ.

وما أقلَّ هذا المتاعَ بالنسبةِ ليومِ القيامـةِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥).

وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧]، هذا المتاع -يا إخواني- شبهَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢]، الأنعام: البهائمُ، والبهيمةُ ليسَ لها هَمٌّ إلا أنْ تملأَ بطنَها وتنالَ شهوتَها، فهذا هُمُّها، وهؤلاءِ الكفارُ نفسُ البهائمِ لا يريدونَ إلا إشباعَ بطونِهم وغرائزِهم، ولا يَهتمونَ بالآخرةِ، بل يُكذبون بها أو يُنكرُونَها، أو يُقرونَ بها ولا يَعملون لها، فهمْ يتمتعونَ كما تتمتعُ الأنعامُ والنارُ مثوًى لهم، ثم إنهمْ بالنسبةِ لحالِهم أسوأُ منَ الأنعامِ، والدَّليلُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩].

ولذلكَ نقولُ: الكفارُ شرُّ مخلوقاتِ اللهِ، قالَ تَعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال:٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦].

ولذلكَ لو قيلَ لكَ: مَن شرُّ الخلقِ؟ فقلِ: الكفارَ مِن يهودَ ونصارَى ومشركينَ وبوذيينَ وشيوعيينَ وغيرِهم، فهمْ شرُّ الخلقِ، وأشرُّ من كلِّ ذي شرٍّ في كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ العالم بأحوالِ خلقِهم، أعاذنا اللهُ وإياكُم منَ الكفرِ.

والعجبُ أن هؤلاءِ الكفارَ الذينَ همْ شرُّ الخلائقِ؛ العجبُ أنهم عندَ قومٍ هم في القمةِ، ولكنهمْ في القمةِ عندَ مَن نَكسَ اللهُ قلبَه وعقلَه، وإلا فالذي يتأملُ يجدُ أن كلَّ ما يتمتعُ بهِ هؤلاءِ مِن نعيمِ الدنيا فإنهُ إنما يكونُ كتمتعِ البهائمِ تمامًا ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

وإن شخصًا مصيرُه إلى النارِ لن يُجديَه تمتعُه شيئًا، وما أسرعَ ما يزولُ هذا التمتعُ؛ إما بسلبِه ممن بَقيَ، وإما بموتِ المتمتعِ عما بقيَ ولا بدَّ.

ثم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يعني مُرهم أن يقيموا الصلاةَ، ومعنى إقامةِ الصلاةِ أن يأتيَ بها مستقيًا على الوجهِ الذي أمرَ اللهُ بهِ ورسولُه، فيحافظُ على شروطِها وأركانِها وواجباتِها ومكملاتِها.

والصلاةُ خيرُ موضوعٍ، والصلاةُ أفضلُ أعمالِ البدنِ، وهيَ أوكدُ أركانِ الإسلامِ بعدَ الشهادتينِ؛ بعدَ شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأن محمدًا رسولُ اللهِ، وهيَ روضةٌ مِن رياضِ الأعمالِ الصالحةِ؛ لأنها تشتملُ على عباداتٍ متنوعةٍ قوليةٍ وفعليةٍ وقلبيةٍ، ولذلكَ كانتِ الصلاةُ قُرةَ عينِ محمدٍ ﷺ، وهيَ أيضًا قرةُ عيونِ المؤمنينَ؛ إذ لا أسعدَ ولا أكملَ مِن كونِ الإنسانِ يقفُ بينَ يدي اللهِ يناجيه ربَّه بكلامِهِ؛ إذا قالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله: حمدَني عبدِي، وإذا قالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قالَ اللهُ: أثنى عليَّ عبدِي، وإذا قالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قالَ: مجدَني عبدِي، وإذا قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قالَ اللهُ: هذا بيني وبينَ عبدِي، ولعبدِي ما سألَ، فإذا قالَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قالَ اللهُ: هذا لعبدي ولعبدِي ما سألَ(١).

أسألُ اللهَ تعالى أن يهدينَي وإياكُم صراطَهُ المستقيمَ، وأن يجعلَنا منَ الذينِ آمنوا باللهِ ورسولِه، ومنْ دعاةِ الحقِّ وأنصارِه، إنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

والحمدُ لله الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلم على نبينَا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبِه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٥).

الدرس الثالث:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفسِنا ومِنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومَن يضلِلْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، أما بعد:

فقد قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

هُنا قدَّمَ إبراهيمُ الخليلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ محبةَ اللهِ على محبةِ النفسِ، وابتلاهُ اللهُ تعالى ببلاءٍ عظيمٍ؛ ببلاءٍ لا يقومُ بمثلِه إلا مَن كانَ مثلَه؛ ابتلاهُ اللهُ تعالى فأمرَه أن يذبحَ ابنَه، وحيدَه، الذي ليسَ لهُ سواهُ، وأتاهُ على حينِ كِبرٍ، فذكرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورةِ الصافاتِ أنهُ قالَ لابنِه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢] انظرْ إلى اللطفِ في المقالِ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾، وإبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يقلْ لهُ: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ ليشاورَه؛ لأنهُ سوفَ ينفذُ فيهِ أمرُ الربِّ عَزَّوَجَلَّ لكنهُ قالَ: انظرْ ماذا ترى ليختبرَ هذا الابنَ، فقالَ الابنُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ مقابلَ قولِه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، قالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

والأمرُ أنهُ رأى في المنامِ أنهُ يذبحُه، ولا يمكنُ أن يذبحَ ابنَه إلا بأمرِ اللهِ؛ لأن الابنَ منَ النفوسِ المحرمةِ، ولأن ذبحَ الابنِ مِن أكبرِ الظلمِ؛ لأنهُ قطيعةُ رحمٍ، ولا يمكنُ أن يَري اللهُ عَزَّوَجَلَّ نبيَّه إبراهيمَ أنهُ يذبحُ ابنَه إلا وهوَ قدْ أمرَ بذلكَ، ولهذا

فَهِمَ هذا الابنُ أن رؤيا المنامِ أنهُ يذبحُه أنهُ أمرٌ؛ لأنهُ لا يمكنُ أن يَرى النبيُّ رؤيَا إلا وقدْ أُمر بها؛ لأن رؤيَا الأنبياءِ حقٌّ ووحيٌ.

قالَ: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ انتبهْ للغةِ العربيةِ؛ إن السينَ إذا دخلتْ على الفعلِ المضارعِ فإنها تعني أنهُ مؤكَّدٌ عنْ قربٍ، أي ستجدُ على الفورِ، ولكنِ الولدُ لم يعتمدْ على نفسِه، بل قالَ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ففوضَ الأمرَ إلى ربِّ العزةِ والجلالِ، وأنهُ لا يمكنُ أن يصبرَ على هذا البلاءِ العظيمِ إلا بمشيئةِ اللهِ.

ويجبُ على كلِّ إنسانٍ أرادَ أن يفعلَ فعلًا مستقبلًا أن يقولَ: إن شاءَ اللهُ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤]؛ لأن النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّمَ لما سألتْهُ قريشٌ عن خبرِ ذي القرنينِ قالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أُخْبِرُكُمْ غدًا**» اعتمادًا على أن اللهَ سيوحِي إليهِ بذلكَ، فبقيَ خمسَ عشْرةَ ليلةً لم ينزلْ عليهِ الوحيُ؛ ابتلاءً منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإظهارًا لصدقِ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأنهُ لو كانَ كاذبًا لوفَّى بما وعدَ بهِ قريشًا حتى لا يقولُوا: إنهُ كاذبٌ، فلما تأخرَ الوحيُ خمسَ عشرةَ ليلةً ونزلَ الوحيُ في قصةِ ذي القرنينِ وأصحابِ الكهفِ عُلِمَ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ وأنهُ لم يأتِ بشيءٍ مِن عندِه، فقالَ اللهُ لهُ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1].

فاقرنْ -يا أخي- كلَّ شيءٍ مستقبلٍ بمشيئةِ اللهِ، ولا تعتمدْ على نفسِك، فكمْ من إنسانٍ خانَهُ الأمرُ.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٧/ ٥٩٢).

وهناكَ قصةٌ أخرَى معَ نبـيٍّ منَ الأنبياءِ عزمَ على فعلٍ وتحـدثَ عنهُ وأكدَهُ باليمينِ، لكن لم يقلْ: إن شاءَ اللهُ، وهوَ سليمانُ بنُ داودَ الذي جمعَ اللهُ لهُ بينَ النبوةِ والمُلكِ، كانَ عندَهُ نساءٌ كثيرات، فقالَ: «**لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً كُلُّهَا تَأْتِي بِفَارِسٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»، هكذَا قالَ لمحبتِه للجهادِ في سبيلِ اللهِ، «**فَقَالَ لَهُ المَلَكُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ**» اعتمادًا على ما في نفسِه منَ العزيمةِ، «**فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، فَجَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ**» قال النبيُّ ﷺ: «**وَايْمُ الَّذِي نَفْسُ مُحَـمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَجَـاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ**»[1]، اللهُ أكبرُ!

إذنْ -يا إخواني- نأخذُ مِن هذا درسًا؛ ألا نقولَ لشيءٍ: نفعلُه في المستقبلِ إلا مقرونًا بمشيئةِ اللهِ، حتى لا نُخذلَ، ومنْ أجلِ أن تُيسرَ لنا الأمورُ، فكلما أردتمْ أن تتحدثُوا عن شيءٍ مستقبلٍ فاقرنُوه بمشيئةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لفائدتينِ عظيمتينِ: الفائدةِ الأولى: أن تُيسرَ لكمُ الأمورُ، والفائدةُ الثانيةُ: ألا تحنثُوا.

نعودُ إلى إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قالَ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ وقدِ استجابَ اللهُ دعاءَه فقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧].

وقالَ تَعالَى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:١-٣].

استجابَ اللهُ دعاءَه، حتى إن الأشجارَ وهيَ جمادٌ تكونُ آمنةً في مكةَ، فلا يجوزُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد، رقم (٢٨١٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).

للإنسانِ وهوَ بمكةَ أن يقطعَ ورقةً مِن شجرةٍ، ولا يجوزُ للإنسانِ أن يقتلَ صيدًا في مكةَ، ولو كانَ غيرَ مُحرِمٍ فإنهُ لا يجوزُ أن يقتلَ صيدًا في مكةَ.

وكذا لا يجـوزُ أن يقطعَ شجرةً في منًى؛ لأنها حرامٌ، وكذا لا يجـوزُ أن يقطعَ شجرةً في مزدلفةَ؛ لأنها حرامٌ. ويجـوز أن يقطعَ شجرةً في عرفةَ؛ لأنها مِنَ الحـلِّ، وليستْ منَ الحرمِ.

وهلْ يجوزُ أن يقطعَ شجرةً في عرفةَ وهوَ محرمٌ؟

أقولُ: يجوزُ أن يقطعَ شجرةً في عرفةَ؛ لأن عرفةَ مِنَ الحِلِّ، والأشجارُ ليستْ متعلقةً بالإحرامِ، إنما الأشجارُ متعلقةٌ بالمكانِ، وما دخلتْ في الإحرامِ، ولهذا يجوزُ للمحرمِ أن يقطعَ شجرةً في عرفةَ، ولا يجوزُ أن يقطعَ في مزدلِفةَ أو منًى؛ لأن عرفةَ منَ الحلِّ، ومزدلفةَ ومنًى منَ الحرمِ.

قالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ يعني: أبعِدنِي عنْ عبادةِ الأصنامِ أنا وبنيَّ، وعبادةُ الأصنامِ أن يعبدَ الإنسانُ أحدًا دونَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فكلُّ مَن عبدَ أحـدًا دونَ اللهِ فركـعَ لهُ أو سجدَ لهُ، أوِ استغاثَ بِهِ عنـدَ الشدائدِ، أوِ استعانَ بِهِ عندَ الضعفِ، فإنهُ عابدٌ للأصنامِ.

وأقصُّ عليكمْ نبأً عجيبًا: في الجاهليةِ إذا نزلَ الإنسانُ أرضًا جمعَ أربعةَ أحجارٍ، واختارَ أحسنَها ليكونَ ربًّا لهُ، والثلاثةُ الباقيةُ تكونُ مناصبَ للقِدرِ يطبخُ عليهِ، فصارَ معبودُهُ الذي يعبدُه مِن جنسِ الذي جعلَه مناصبَ للقِدرِ. وهذهِ قصةٌ غريبةٌ، فحجرٌ لقَطَهُ بالأرضِ يعبدُه ويدعُوه.

ومنهمْ مَن يعجنُ منَ التمرِ عجينةً على صورةِ تمثالٍ ويعبدُها، وإذا جاعَ أكلَها، فصارَ المعبـودُ مأكولًا، وهذا جهلٌ يا إخـواني. إذنْ فكلُّ ما عُبدَ مِن دونِ اللهِ فهوَ صنمٌ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الرابع:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٧].

يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: إنه قالَ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ والبَلَدُ المشَارُ إليه هو مكَّةُ، والمقصودُ أن يكونَ آمنًا هو ومَنْ فيهِ أيضًا.

فهذا البَلَدُ آمِنٌ لا يُحمَلُ فيهِ سِلاحٌ إلا إذا دَعَتِ الحاجَةُ إليهِ، ولو أنَّ رجلًا زَنى في بَلَدٍ آخرَ ثم جاءَ إلى مَكَّةَ فإننا لا نُقيمُ عليهِ الحَدَّ؛ لأن البلدَ آمِنٌ، ولكننا نُضَيِّقُ عليه فَلا يُؤاكَلُ، ولا يُشارَب، ولا يُبايَع، ولا يُشْتَرَى مِنْهُ، حتى تَضِيقَ عليهِ الأرضُ بِمَا رحُبَتْ، ثم بعدَ ذلِكَ يخْرُجُ، وحينئذ نُقيمُ عليه الحَدَّ.

أما مَن فَعَلَ ما يوجِبُ الحدَّ في هذَا البَلَدِ، فإنه يُقامُ عليه الحَدُّ؛ لأنه انتهَكَ حرْمَةَ

البلَدِ، فلم يكُنْ لِهذَا المنتَهِكِ لحُرْمَـةِ البَلَدِ حرمَةٌ، فالزَّانِي في مكَّةَ يُقامُ عليهِ الحَدُّ، والسارقُ يقامُ عليه الحَدُّ، والقاتِلُ يقامُ عليه الحَدُّ، يعْنِي: يقامُ عليهِ القِصاصُ.

إن هذا البلَدَ آمِنٌ، حتَّى الصُّيودُ آمنَةٌ فيه، فلو أرادَ الإنسانُ أن يَقْتُلَ عُصْفُورًا في هذَا البلدِ لكانَ ذلك حَرامًا عليه، ولو أرادَ أن يَقْتُلَ حمامَةً لكانَ حرامًا، ولو قتل عُصْفورًا أو حمامَةً، فإنها حَرامٌ أكلُهَا لأنها مَيْتَة؛ لأنه لم يؤذَنْ في قَتْلِهَا شَرْعا، فلا تَحِلّ.

لكن يجـوزُ فيه قتْلُ الحيَّةِ؛ لقولِ النَّبِـيِّ ﷺ: **«خَمْسٌ فَوَاسِقُ، يُقْتَلْنَ فِي الحِلِّ وَالحَرَمِ: الحَيَّةُ، وَالغُرَابُ الأَبْقَعُ، وَالفَأْرَةُ، وَالكَلْبُ العقُورُ، وَالحُدَيَّا»**[1].

وكذلك يجوزُ قتلُ العَقْرَبِ في الحرَمِ، وبهذا يتبَيَّنُ عِظَمُ حُرْمَةِ الآدَمِيِّ عندَ اللهِ؛ أن الشيءَ الذي يكونُ بمكانٍ محترَمٍ إذا كانَ يؤذِي بَنِي آدَم، فإنه يُقتَلُ كما جاءَ في هذا الحدِيثِ.

أما الجَرادُ فإنه آمِنٌ، ولهذا لا يجوزُ أن نتعَمَّدَ قَتْلَ الجَرادِ الَّذِي نَرَاهُ عَلَى أبوابِ الحَرَمِ، وإذا رَأينا صَبِيًّا يلاحِقُ جَرادَهُ قلنا: خَلِّه، ونَنْهَاهُ عنْ ذلك؛ لأن الجرادَ صَيْدٌ مباحٌ، ولا يجوزُ قَتْلُه في الحَرِمِ -أي: في مكةَ- وكلِّ ما كانَ داخِلَ حُدودِ الحَرَمِ.

وأما الشَّجَرُ فنَوعانِ: نوعٌ غَرَسَهُ الآدَمِيُّ كالنَّخْيلِ والأعنابِ وغيرِها مما غَرَسَهُ الآدَمِيُّ، فهذا للآدَمِيِّ، له أن يقْطَعَهُ، ونوع آخَرُ أَنْبَتَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بدونِ فِعلِ آدَمِيٍّ، فهَذَا يحرُمُ قَطعُهُ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: **«لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ»**[2]، فلو وَجَدْنَا شجرةً في

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم، رقم (١١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتائب الحج، باب فضل الحرم، رقم (١٥٨٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، رقم (٣٣٦٨).

الطريقِ كلُّهَا شوكٌ، فإنه لا يجوزُ قَطْعُها؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ**»، وهذا نَصٌّ صريحٌ.

فإن **قال قائل**: أفلا يجوزُ أن نَقِيسَهُ على الفواسِقِ الخمس؟

قُلْنَا: لا يجوزُ؛ لأنه قِياسٌ في مُصَادَمَةِ النَّصِّ، فيكون قياسًا فاسدًا، فكلُّ قياسٍ جاءَ مخالِفًا للنَّصِّ، فهو قياسٌ فاسدٌ مردودٌ.

كما أن هذه الخَمْسَ الفواسِقَ تُهاجِمُ بنَفْسِهَا، والشوكُ لا يُهاجِمُ، بل مَن جاء إليه تَأَذَّى به، ومَنْ لم يَجِئ إليه فَهُو سالمٌ مِنْهُ، فبينَهُما فرْقٌ، لذا امتَنَعَ القياسُ من وَجْهَيْنِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنه في مُصَادَمَةِ النَّصِّ، وكلُّ قياسٍ في مصادَمَةِ النَّصِّ فهو فاسِدٌ.

والوجه الثاني: ظهورُ الفَرْقِ بأنّه لا يُهَاجِمُ، وهذه الخَمْسُ الفواسِقُ تهاجِمُ.

ونظيرُ ذلكَ في القياسِ الفاسِدِ قياسُ بعضِ العلماءِ تَزْويج المرأةِ نَفْسَها بدونِ وَلِيٍّ قياسًا على أنها تَبِيعَ ما لها بدونِ إذْنِ الوَلِيِّ، يقول: المرأة الرشيدَة البالِغَةُ العاقِلَةُ لها أن تُزَوِّجَ نفْسَها بدونِ وَلِيٍّ؛ لأنها عاقِلَةٌ رشيدَةٌ يجوزُ لها أن تَبِيعَ ما لها بِلَا إذنِ الوَلِيِّ، فإذا كان يجوزُ أن تَبِيعَ ما لهَا، فلهَا أن تُزَوِّجَ نفسها. فَقَاسَ التَّزْويجَ على البَيْعِ.

فنقول: هذا قياسٌ غيرُ صحيحٍ؛ أوَّلًا: لأنه في مصادَمَةِ النَّصِّ، والنصُّ في القُرآنِ والسُّنَّةِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٢]، ولولَا أن عَضْلَ الوَلِيِّ مؤثِّرٌ لم يكن هناكَ نَهي عنه.

أما في السُّنَّةِ فقد قالَ النبيُّ ﷺ: «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ»[(١)]، وقال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ، فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ، فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ»[(٢)]، فيكـون هذا القياسُ فاسدًا لمصادَمَتِه النَّصَّ.

وأمَّا الفرقُ فظاهِر جِدًّا؛ لأن المرأةَ تُستَمالُ بسُرْعَةٍ فيما يتعلَّقُ بالشهوةِ الجِنْسِيَّةِ، فيخدَعُها الإنسانُ، وربما تخْـتارُ شخصًا لا خيرَ فيهِ، لكنه أَعْجَبَـهَا جمالُ صورَتِهِ فاختَارَتْهُ، فاحتاجَتْ إلى وَلِيٍّ يعرِفُ الأمورَ، ويعرِفُ الكفءَ ويزوِّجهُ.

لكن في المال لا يَهُمُّهَا أن يَشْتَرِي المالَ فلان، أو فلان، فلذلكَ كان هناك ثِقَةٌ فيها.

على كلِّ حالٍ، هذا أقوله استِطْرادًا؛ لأنه لا يجوزُ أن يُقاسَ شيءٌ على آخر مع وُجودِ النصِّ المفرِّقِ، والنصُّ لا يُفرِّقُ بين شَيئينِ إلا وبَينَهُما فرْقٌ؛ عَلِمَهُ مَن عَلِمَهُ، وجهِلَهُ مَنْ جِهَلَهُ.

فهذا البلدُ -أعني مكة- له خصائصُ كَثِيرَةٌ: منها ما دَعَا بِهِ إبراهيمُ ﷺ وهو أن يكونَ هـذا البَلَدُ آمِنًا، ومنها أنه يجِـبُ على كلِّ مِسْلِمٍ أن يتَوَجَّـه إليه حاجًّا أو معتَمِرًا، وغيره من البلاد لا يَجِبُ.

قالَ إبراهِيمُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب في الولي، رقم (٢٠٨٥)، والترمذي: أبواب النكاح، باب ما جاء لا نكاح إلا بولي، رقم (١١٠١).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب في الولي، رقم (٢٠٨٣)، والترمذي: كتاب النكاح، بعد باب ما جاء لَا نكاح إلا بولي، رقم (١١٠٢)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب لَا نكاح إلا بولي، رقم (١٨٧٩).

وإبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خَلِيلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإمامُ الحُنَفاءِ، ومع ذلك يقولُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ خافَ إبراهيمُ أن يَعبُدَ الأصنامَ فَدَعَا رَبَّهُ أن يجنِّبَهُ عبادَةَ الأصنامِ، وهذا يدُلُّ على عِظَمِ عبادَةِ الأصنامِ؛ لأنه لا أحدَ أضَل في الدِّينِ، ولا أسْفَه في العقْلِ ممن يَعْبُدُ غيرَ اللهِ، والدَّليلُ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في السَّفَهِ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]، وقولُهُ في الضَّلالِ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥].

فكلُّ من دَعَا غيرَ اللهِ فإن هَذَا المدْعُوَّ لا يمكِنُ أن يَسْتَجِيبَ للدَّاعِي، ولو بَقِيَ يدْعُو إلى يومِ القيامَـةِ، ولا أحدَ أضَل في الدِّينِ من هَذَا، ولذلك نَرَى أن مِن أَسْفَهِ الخَلْقِ عُقُولًا، وأَضَلِّهم دِينًا أولئك الذين يأْتُونَ إلى قَبْرِ فُلانٍ أو فلانٍ ويقول أحدهم: يا فُلانُ أعْطِنِي. والمرأةُ تَأْتِي إلى القَبْرِ وتقولُ: يا سيِّد فلان إني لا أحْمَلُ فاجْعَلْنِي أحمَلُ. تقول هذا لجُثَّةٍ هامِدَة ربما تكونُ الدِّيدانُ قد أكَلَتْهَا كُلَّها إلا عَجْبَ الذَّنَبِ؛ لأن عَجْبَ الذنَبِ باقٍ لا تأكُلُهُ الأرضُ، فتأتِي إلى جثَّةٍ هامِدَةٍ تدْعُوها أن تأْتِيَ لها بولَدٍ، أو تكون امـرأة لا يأتِيهَا إلا إناثٌ، وهي تريدُ ذَكـرًا، فتأتي إلى السيِّدِ فلانٍ تقـولُ: يا سيِّدُ، لا أَلِدُ إلا إناثًا، فَهَبْ لي مِن لَدُنك ذَكَرًا. فهذا ضلالٌ وسَفَهٌ.

والمؤسِفُ المحزِنُ أن هذا يوجَدُ في بعضِ البلادِ الإسلامِيَّةِ، مع أن الصحْوَةَ الإسلامية -والحمد لله- موجودَةٌ، لكن تَجِدُ كثيرًا ممن عِنْدَهُ الصحْوَة ليسَ لهُمْ هَمٌّ إلا الكلامُ في التَّكْفِيرُ، وهذا كافِرٌ، وهذا غيرُ كافِرٍ، وهذا الحاكِمُ كافِرٌ، وهذا الحاكِمُ فاسِقٌ، وهذا الحاكم صالِحٌ، وهذا فاسِدٌ، لكن الشِّرْكَ الأكبرَ الموجودَ في مجْتَمَعاتِهِمْ لا يتكَلَّمُونَ فِيهِ وهو أعْظَمُ.

فالشِّرْكُ الأكبرُ لا يختَلِفُ فيه اثنان، ومع ذلِكَ هُمْ ساكِتُونَ، والعوامُّ هوامٌّ يَجُرُّ بعضُهم بعضًا، فتَجِدُهُ إذا أرادَ أن يذْهَبَ إلى هذا القَبْرِ يذهَبُ متجمِّلًا متطَيِّبًا، لأنه يريدُ أن يَصِلَ إلى حضْرَةِ السيِّد فلان، فيَتَجَمَّلُ ويتَطَيَّبُ، وإذا راحَ إلى المسجِدِ ذهَبَ بثوبِ العَمَلِ ورائحتُه مُنْتِنَةٌ، وربما يؤذِي المصَلِّينَ، فهذا الرجُلُ يعَظِّم القَبْرَ أكثرَ مِن تَعْظيمِ المسجِدِ.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: رَجُلٌ أَتَى إِلَى قَبرٍ يدَّعي أَنَّه وَلِي للهِ عَزَّوَجَلَّ وَجعل يَقُول: يَا سيِّدي، أَنا شَاب، أُرِيد الزَّواج، دبِّرْ لِي زَوجةً مَا نَقول فِي هَذَا؟

قُلْنَا: هَذَا سَفِيه فِي عَقله، ضالٌّ فِي دِينِه، مُشْرِك بربِّهِ، دَعَا مَعَ اللهِ إلهًا آخَر؛ لِأَنَّهُ أَتى إِنْسَانًا مَيِّتًا جمادًا، نُزِعت مْنهُ الرُّوحُ، وسَأَله حَاجتَهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]، فَلَا أَحد أَضَلُّ مِن هَذَا.

تَسألُ شَخصًا لَا يُمْكن أَنْ يَستجيبَ لَكَ إِلَى يوم القِيامةِ، كَما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤]، فهَذَا الخبرُ جَاء مِنَ الله جَلَّوَعَلَا.

فَهَؤُلاءِ الَّذِينَ يَذْهبون إِلَى قُبُورِ الَّذِينَ يَزْعمون أَنَّهمْ أَوْلياء يَدْعُونهم وَيَسْتغيثون بِهِم، سُفَهاء فِي عُقُولهم، ضَالُّون فِي دِينِهم، مُشْرِكون بربِّهم عَزَّوَجَلَّ.

فَيَجبُ عَلَى أَهلِ العلم إِذَا رَأَوا مِثلَ هَؤُلاءِ العَوامِّ، أَنْ يَنْصحوهمْ بِرِفقٍ وَلِينٍ وبيانٍ، وسوفَ يتبعونكمْ إِلَّا مَن شَابَ عَلَى ذَلك، فَالكبارُ صَعب رُجُوعهم إِلَّا بِإِذنِ

اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَكنَّ الشبابَ رُجُوعهمْ سَهلٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ ﷺ وَهو أَحْكم الخلقِ؛ قَالَ فِي المقاتِلِينَ: «اقْتُلُوا شُيُوخَ الْمُشْرِكِينَ وَاسْتَبْقُوا شَرْخَهُمْ»[(١)] يَعْني شَبَابهم؛ لِأَنَّ الشَّيخَ يَصْعب أَنْ يَرجعَ عَما كَانَ عَلَيْهِ، والشَّباب لَيِّنٌ، طَرِيٌّ، يَرْجع بِسُرعة، فَبِمجرد مَا تَقُول لَه: هَذَا غَير صَحِيح، وَيَدخل عَقلهُ، يَرْجع، وَهَذَا شَيْءٌ مُجرَّب.

وَلِهَذَا كَانَ بعضُ الشبابِ المثقفِ يُنكر مَا كَانَ عَلَيه آباؤُه مِن مِثل هَذَا الضَّلالِ، وهَذِهِ الخرافاتِ، وهَذِهِ الأكذوباتِ، وهَكَذا يَجب عَلَى الشبابِ أَنْ يُحكِّمَ عَقْله فِيما بَيْنَ يَديْه منَ الطرقِ والمللِ؛ حَتَّى يَعرفَ أَنَّ أفضلَ الطُّرقِ والمِللِ، هُوَ ما كَانَ عليهِ الرَّسُولُ ﷺ وأصحابهُ.

فَعَلَيْنا أَن نَرجع إِلَى العُقول، ونَرْجع لِلشَّريعةِ، والشَّريعة لَا يُمْكن أَبدًا أَنْ تَأتِيَ بِمَا يُخالفُ العقولَ السَّليمةَ، ويَدل عَلَى هَذَا أَنَّ اللهَ دَائِمًا يَقُولُ فِي الكُفَّارِ: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾. إِذَنِ الشَّريعةُ مُرْتبطةٌ بِالعقلِ الصريحِ السَّليمِ.

شَيْخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيةَ رَحِمَهُٱللَّهُ مِن أَهدى النَّاسِ سبيلًا، ولَيْس بمعصومٍ، فنَحْنُ لا نَدَّعي العِصمةَ لِأَحد منَ البشرِ إِلَّا الرَّسُول ﷺ، لَكنَّ الرجلَ رَحِمَهُٱللَّهُ لَه كُتب عَظيمة، تَزِيدُ الإِنْسَانَ إيمانًا وتوحيدًا، وإخلاصًا، ومَعرفةً للهُدَى منَ الضلالِ، وأَحُثُّ إِخوانَنا المُسْلِمِينَ أَنْ يقرؤُوا كُتبه، وأَنْ يَسْتَمْسكوا بِغَرْزه.

فَابنُ تَيْمِيةَ لَه كِتاب اسْمهُ (دَرْءُ تَعارضِ العقلِ الصَّريحِ للنَّقلِ الصَّحِيحِ) درءُ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٠، رقم ٢٠٤٩٣)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في قتل النساء، رقم (٢٦٧٠)، والترمذي: أبواب السير، باب ما جاء في النزول على الحكم، رقم (١٥٨٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

بِمَعنى: دَفْع، يَعْني: لَا يُمْكن أبدًا أَنْ يَتَعارَضَ العقلُ الصريحُ مَعَ النقلِ الصَّحِيحِ، فَدَعونا منَ النُّقولِ الكَاذبةِ التي تَأْتي بِها يُخَالف العُقولَ، لَكن النَّقل الصَّحِيحَ لَا يُمْكن أَنْ يُخَالفَهُ العقلُ الصريحُ، أبدًا، وهوَ كتابٌ عَظيمٌ يُسَمى اختصارًا (العَقْل وَالنَّقْل).

فإنْ قِيلَ: هَل يَجوز أَن أَطلب منْ شَخصٍ أَنْ يَدعوَ لِي وهُو حيٌّ؟

فالجَوَابُ: أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ ذكر أنه يدخل الجنةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، وبيَّنَ صفاتِهِمْ فقالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»[1].

قوله: «**وَلَا يَسْتَرْقُونَ**» يَعني: لَا يَطْلبون مِنْ أَحدٍ أن يَقْرَأَ عَلَيْهم؛ لِئَلَّا تَتَعلق قُلُوبُهم بِهِ، فأَنت إِذَا قُلت لِشَخصٍ تَرجُـو أَنَّهُ مُجابُ الدَّعوة: ادعُ اللهَ لِي، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَعلقَ قلبكَ بِهِ، ورُبَّما تَعْتمد عَلَى دُعَائه وَلَا تَدْعو، تَقُول: إِنَّ فلانًا وكَّلته يَدعو لِي. ثُمَّ إِنَّ بَعضَ النَّاسِ إِذَا جِئتَ لَه وَقُلْتَ: يَا فُلانُ، ادْعُ اللهَ لِي، أَرْجوكَ الدُّعاءَ، انْتَفَخَ، وصارَ كبرَ الجملِ، وغدًا يكونُ كبرَ الجبلِ، فَإِذَا خِفْنَا منْ هَذِهِ المَفْسَدَةِ فَلَا يَليق بِنَا أَنْ نَطلبَ الدُّعَاءَ مِن أحدٍ، وامْتَثِلْ أمرَ ربِّكَ، حيثُ قَالَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: مَا تَقول فِي قَولِ النَّبِيِّ ﷺ لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ: «**لَا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ**»[2]؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره، رقم (٥٧٠٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢١٨).

(٢) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٩٨)، والترمذي: أبواب الدعوات، رقم (٣٥٦٢)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب فضل دعاء الحج، رقم (٢٨٩٤).

قُلْنَا: هَذَا حديثٌ لَا يَصِحُّ.

فَإِنْ قِيلَ: مَا تَقول فِيما ثَبت فِي (الصَّحِيحينِ) أنَّ رجلًا دَخلَ المسجدَ يَومَ الجُمُعَةِ، والنَّبِيُّ ﷺ يَخطبُ، فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعْتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا. فَالأموالُ الَّتِي هَلكت هِيَ الزُّروعُ والمواشِي، وقد هَلَكت لِقلةِ المطرِ، فَرفعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَيْه وَرَفَع النَّاسُ أَيْدِيَهم معه وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا**» ثَلاث مرَّاتٍ، قَالَ أنسُ بْنُ مَالكٍ: «مَا نَرى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلا قَزَعَةً»، السحابُ الَّذِي يُغَطِّي الجوَّ، والقزعة: قِطْعة سَحَابٍ، «وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلا دَارٍ»، سَلْعٌ: جَبل فِي المَدِينَةِ، يَأْتِي مِن قِبلهِ السَّحابُ. «**فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ**» يَعني صِغيرةً «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا وَضَعَهَا حَتَّى ثَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ ﷺ»، فهَذَا يَدُلُّ عَلَى قدرةِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ وعَلَى سَماعه لِلدُّعاءِ، وعَلَى صِحةِ نُبوةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنَّ اللهَ استجابَ دُعَاءَهُ عَلَى وَفْقِ مَا دَعَا بِهِ.

وبقيَ المطرُ عَلَى المَدِينَةِ أُسْبُوعًا كَامِلًا، والمطرُ يَنزل ليلًا ونهارًا، والأوديةُ تَمْشِي، حَتَّى إِنَّ وادي قَنَاة -وهُو مَعْروفٌ الآنَ بالمَدِينَةِ- مَشى شهرًا كاملًا.

وفِي الجُمُعَة الثانيةِ جَاءَ الرَّجلُ أو غَيْرُهُ، وَقَالَ: «تَهدَّمَ البِناءُ وَغرِقَ المَالُ»، الزُّروعُ غَرقتْ منَ الأمطارِ، والبناءُ تهدَّم، «فَادْعُ اللهَ أَنْ يُمْسِكَهَا عَنَّا»، ولكنَّ النَّبِيَّ ﷺ وهُوَ أَحْكَمُ الخلقِ لَم يقلْ: اللَّهُمَّ أَمسِكْهَا، بل قالَ: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا**»، فَدعا بِشيءٍ يَنفع وَلَا يَضر، قَالَ الرَّاوِي: «فَجَعَلَ لَا يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ إِلَّا انْفَرَجَتْ» بِقُدرة اللهِ، فكَما سَخَّرَ اللهُ الرِّيحَ لِسُليمانَ تَحْمله ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا

شَهْرٌ﴾ [سبأ:١٢] سخَّرَ اللهُ ذَلك اليومَ السَّحابةَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ، فكَان يَأْتمرُ بأمرِ الرَّسُولِ ﷺ.

وَأَيْضًا الرَّسُولُ ﷺ مَا أمرَ السحابَ، بلْ سألَ اللهَ: «**اللَّهُمَّ حَوالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا**» فانفرَجتِ السحُبُ، وصَارت عَلَى يَمينِ المَدِينَة وَشِمالها، سُبْحانَ اللهِ! وخرَجَ النَّاسُ يَمْشونَ فِي الشَّمْسِ(١).

إِذَنْ لَو قَالَ قَائلٌ: كَيف تَقولُ لَا تسألْ أحدًا يَدعو لَك، وهَذَا الرَّجل سَأَلَ؟

فالجَوابُ: هَذَا الرجلُ لَمْ يَسأل لِنَفسه شَيئًا، وإِنَّما سأَل لمصلحة المُسْلِمِينَ، وهُنَاكَ فَرقٌ بين مَن يَسْأَلُ الرَّجل لِمَصْلحة نَفْسه، وَمَنْ يَسأل لِمَصْلحة الآخَرِين، ولَا نُنْكر أَنْ يَأْتِيَ إِنْسَانٌ وَيَقُول لِمَنْ يُرجَى صَلاحُهُ: ادعُ اللهَ أَنْ يُغيثَ المُسْلِمِينَ، ادعُ اللهَ أَنْ يَرفعَ عَنهمْ.

قال تَعالَى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦].

قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الأَصْنَامِ.

قَوْلُهُ: ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ يَعْنِي: أَنَّ كثيرًا منَ النَّاسِ ضلَّ بِها، وصدَق إبراهيمُ الخليلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فالأَصْنام أضلَّتْ كثيرًا منَ النَّاسِ؛ أضلتِ اليَهُودَ، والنَّصارَى، وَالمشركِينَ، وَالبُوذِيينَ، وأَضلَّت أُممًا كثيرةً.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

ومن صفَاتِ الخليلِ إِبْرَاهـيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اللِّين، ويَدل عَلَى هَذَا مُحَاورة إِبْراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَ أَبِيهِ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢].

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ هَذَا تَلَطُّفٌ ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ خِطاب لَطِيف جدًّا، كَقَولِ اللهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣].

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣] تَلَطُّف، وَلَمْ يَقُلْ: أَنَا عَالِمٌ وَأَنْتَ جَاهِلٌ، فلَو قَالَ لَه ذَلك لَأَثاره، لَكنهُ قَالَ: ﴿جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ وَهَذَا صِدقٌ؛ لِأَنَّهُ رَسولٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأبوهُ مُشْرِكٌ.

قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم:٤٤-٤٥] تأمَّل، قالَ: ﴿عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: عَذابٌ منْ شَديدِ العقابِ؛ لِأَنَّ المقامَ مَقامُ تَلطُّف واستجداءٍ.

فَكَانَ جَـوابَ الأبِ: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم:٤٦] كَلَامٌ لَيِّنٌ مِن إِبْرَاهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقَابَل بِهَذَا الكَلَام الجافي مِنْ أَبِيهِ.

قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: أَأَنْتَ رَاغِبٌ، فَبَدأَ بِإِنْكارِ الرَّغبةِ قَبلَ الإنكارِ عَلَى الرَّاغـبِ ﴿عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بِالحِجَارَةِ ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ اتْرُكْني زمنًا طويلًا.

فقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]، وعَدَه أَنْ يَستغفرَ، وَقَالَ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١] فاستَغْفَر لَهُ، ولكنَّ اللهَ لَمْ يُقرَّ إِبْراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلَى ذَلك، وهُو نَفْسهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَم يَسْتمر فِي الاسْتِغفارِ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٣-١١٤].

هُنا قَالَ إبراهيمُ: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: تَبِعني عَلَى التَّوحيدِ، وعلَى الرِّسالةِ، وعلَى الشَّريعةِ، الَّتي جِئتُ بِها.

وَلِذَلك أَقْوى صِلةٍ بَينَ النَّاسِ هِيَ صِلةُ الدينِ، فانظُرْ إِلَى نُوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وَعَده اللهُ تَعَالَى أَنْ يُنجِيَهُ وَأَهلَهُ، وَلَمَّا جَاءَ الطوفانُ غَرِقَ الابنُ، فَقَالَ نُوح: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود:٤٥] فَقَالَ اللهُ لَهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦]، فَاستكَانَ نُوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وَقَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٧].

ثم قالَ ﷺ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعنِي أخرجنَ عنِ الطريقِ المستقيمِ كثيرًا منَ الناسِ ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهذا يدلُّ على لينِ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنه يتكلمُ عن مكةَ والبلدِ الأمينِ،

يقـولُ: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ولكـنْ هذهِ الآيةُ رجاءٌ مِن إبراهـيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهذا الرجـاءُ الذي رجاهُ إبراهيمُ هلِ النصـوصُ تدلُّ على أن كلَّ معصيةٍ مقابلَةٌ بالمغفرةِ والرحمةِ؟

نقولُ: لا، هناكَ نصوصٌ تدلُّ على أن منَ المعاصي ما يحـتاجُ إلى توبةٍ، ومنَ المعاصي ما قدْ يغفرُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، قالَ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

فهناكَ ذنوبٌ ليسَ فيها مغفرةٌ، وهـيَ الشركُ، فالشركُ لا يُغفرُ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

اللهمَّ إنا نسألُكَ إخلاصًا لا شِركَ معهُ، وإيمانًا لا كفرَ معهُ، ويقينًا لا شكَّ معهُ، واتباعًا لا ابتداعَ معهُ.

ثم قالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ (من) هذهِ معناهَا التبعيضُ، يعني بعضَ الذريةِ، وهيَ هاجرُ وابنُها إسماعيلُ، وإسماعيلُ أبو العربِ، وبقيةُ ذريةِ إبراهيمَ في الشامِ، وأتى بهما إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى هذا المكانِ بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأسكنَهُما ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾، والآنَ مكةُ لا تجـدونَ فيها زروعًا ونخيلًا وأعنابًا كسائرِ البلادِ الأخرى، فهيَ أرضٌ ما فيها هذَا.

قولُه: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يعني الكعبةَ، وجعلَ عندَهما سِقاءً فيهِ ماءٌ، وجعلَ جرابًا فيهِ تمرٌ، وذَهبَ، فقالتْ لهُ هاجرُ، وهيَ سُرِّيتُهُ: إلى مَن تَكِلُنا؟ يعني أن هذا الطعام سينـفدُ والماءُ كذلكَ ينـفدُ. قالتْ: إلى مَن تكِلُنا؟ قالَ: إلى اللهِ، فقالـتْ: رضيتُ باللهِ.

ونفدَ التمرُ، ونفدَ الماءُ، وجاعتِ الأمُّ هاجرُ، وبالطبعِ الأمُّ إذا جاعتْ سوفَ ينقُصُ اللبنُ، وإذا نقصَ اللبنُ جاعَ الولدُ، فنقصَ اللبنُ وجاعَ الولدُ، وضاقتْ عليها الأرضُ، لكنهَا واثقةٌ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وجعلَ الولدُ يصيحُ منَ الجوعِ، وليسَ حولها أحدٌ، فنظرتْ إلى أدنى جبلٍ لها فإذا هوَ الصفَا، فذهبتْ إلى الصفَا وصعِدتْ تتسمعُ لعلَّ أحدًا حولَها، فما سمعتْ، ونظرتْ إلى جبلٍ آخرَ مقابلٍ لهُ وهوَ المروةُ، ومرتْ أثناءَ طريقِها منَ الصفَا إلى المروةِ بوادٍ هوَ مجرى الأمطارِ، والعادةُ أن مجـرى الأمطارِ يكونُ نازلًا عنِ الأرضِ، فلما نزلتِ الواديَ أسرعـتْ إسراعًا شديدًا لئلا يغيبَ عنـها طفلُها، وركضتْ ركضًا شديدًا، ثم لما صعِدتْ مشتْ إلى المروةِ تستمعُ لعلهَا تجدُ مَن يكونُ حولَها.

وتأملْ -يا أخي- لو حالُك حالُها؛ ليسَ عندَها أحدٌ، وابنُها يتلوَّى منَ الجوعِ، فهيَ حالٌ لا يتصورُها الإنسانُ في الواقعِ، فنحنُ هنا ما نتصورُها لأننا في شِبعٍ ورِيٍّ، وحولَنا أُمةٌ، لكنْ هيَ ليسَ عندَها أحدٌ.

صعِدتْ على المروةِ تتسـمعُ فما وجدتْ أحدًا، ونزلـتْ ثانيةً وثالثةً ورابعةً وخامسةً وسادسةً وسابعةً، ولما أكملتِ السبعَ أحستْ بصوتٍ، فقالتْ: أغِثْ إن كانَ عندَكَ خيرٌ. وإذا هوَ جبريلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نزلَ بأمرِ اللهِ فضربَ بعقِبه حتـى

نبعَ الماءُ، اللهُ أكبرُ! ليسَ هناكَ جرافاتٌ ولا حفاراتٌ، ولكنهُ أمرُ ربِّ الأرضِ والسماواتِ، ضربَ فنبعَ الماءُ، ففرحتْ بهِ أمُّ إسماعيلَ فرحًا شديدًا، ومِن شدةِ فرحِها بهِ وشفقتِها على الماءِ جعلتْ تحوطُه وتحجرهُ؛ لئلا يسيحَ يمينًا وشمالًا، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ لَكَانَتْ عَيْنًا مَعِينًا**»[1].

ولكنْ -يا أخِي- ما ظنُّك لو كانتْ زمزمُ نهرًا يجرِي، لو كانَ ذلكَ لكانَ فيها مشقةٌ على الناسِ، فأينَ يطوفونَ، وأينَ يصلونَ، لكنْ مِن حكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنها جعلتْ تحوطُ الماءَ حتى ينحصرَ في مكانٍ معينٍ.

وبهذا يتبينُ لكَ الحكمةُ والسرُّ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢١٦]، فصارَ تَحويطُها للماءِ خيرًا، فبقيَ في مكانِه وانتفعَ الناسُ بهِ.

وهذهِ الأرضُ في ذلكَ الوقتِ لم يكنْ حولَها أحدٌ، وكانَ حولَها أناسٌ منْ جُرهُمَ؛ قبيلةٍ معروفةٍ، فرأوُا الطيورَ تأوِي إلى هذَا المكانِ لأجلِ أن تشربَ الماءَ، فتعجبُوا، قالُوا: هذهِ أرضٌ مَا حولَها ماءٌ، والطيورُ لا يمكنُ أن تأوِي إلا إلى ماءٍ، فجعلُوا يتتبعونَ فوجدُوا هاجرَ وابنَها إسماعيلَ، فاستأذنُوا منها أن ينزلُوا حولَها، وكانتْ تحبُّ أن يكونَ عندَها أحدٌ، لكنِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أرادَ أن يرفعَ مِن شأنِها، وإلا فطبيعةُ البشرِ أن تكونَ هيَ التي تطلبُ منهمْ أن يجلسُوا للإيناسِ، لكنِ اللهُ تعالى أنطقَهُم أن يستأذنُوا منها أن يَنزلوا عندَها؛ إعزازًا لها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المساقاة، باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه، رقم (٢٣٦٨).

استأذنُوا منها أن يَنزلُوا فأذنتْ لهمْ، ونزلُوا، ومنْ ذلكَ الوقتِ ومكةُ -والحمدُ للهِ- منزلٌ ومأوى مباركٌ آمنٌ.

فائدةٌ: بعضُ الناسِ يقولُ كلمةً أُحبُّ أن أعلقَ عليـهَا، يقولُ: سِتنَا هَاجَرُ، يعني سيدتنا.

فنقولُ: نسمِّيها باسمِها الذي جاءَ في الحديثِ، ولسنَا نحنُ أشدَّ تكريمًا لها منْ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ؛ لأنها جدةُ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكنها جدةٌ بعيدةٌ، فما قالَ: سيدتُنا هاجرُ، وإنما قالَ: هاجرُ أمُّ إسماعيلَ، لكنْ جاءَ التسويدُ للنساءِ ممنْ يقدسونَ النساءَ، ويقدموهُنَّ على الرجـالِ، وهمْ دولُ الكفرِ وأذنابُهم، وإلا فإن الرجـالَ مقدمُونَ على النساءِ، فالرجالُ قوامونَ على النساءِ، والرجالُ همْ أهلُ الكرمِ، وأهلُ المجدِ، وأهلُ العزِّ، وأهلُ القولِ الفصلِ، وأهلُ الجهادِ، والنساءُ لا شكَّ أن لهنَّ وظيفةً منْ أشرفِ الوظائفِ، وهيَ رعايةُ البيتِ، ومَن في البيتِ، والرجلُ راعٍ في أهلِه، ومسؤولٌ عن رعيتِه، لكن هؤلاءِ الكفارُ يقدسونَ النساءَ.

على كلِّ حالٍ كثيرٌ منَ الناسِ لا يقدرونَ الأمورَ ولا يعرفونَ ما يرادُ بهم، فكثيرٌ منَ الناسِ كالكبشِ يجـرُّ إلى المذبحِ يمشِي ولا يقولُ: لا، لذلكَ أرجُو منْ إخواني المسلمينَ أن ينتبهُوا لمكرِ الكفارِ وكيدِهم؛ فإن لهمْ مكرًا عظيـمًا وكيدًا عظيمًا، وأن ينظرُوا إلى طريقِ سلفِ الأمةِ؛ الخلفاءِ الراشدينَ الصحابةِ، والتابعينَ لهم بإحسانٍ، وينظر طريقَ الرسلِ.

إن النبيَّ ﷺ قالَ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**»(١) والمرادُ بالناسِ كلُّ بني آدمَ مِن أولِهم أولهِم إلى يومِ القيامةِ، فخيرُ الناسِ قرنُ الرسولِ؛ الصحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فهمْ خيرُهم، فإذا كانُوا همْ خيرُ الناسِ فليسَ منَ الخيرِ أن نأخذَ بطريقِ غيرِهم، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فإذا كنتَ -يا أخي المسلمُ- تريدُ رضَا اللهِ -وأسألُ اللهَ تعالى أن يَرضى عني وعنكمْ- إذا كنتَ تريدُ رضَا اللهِ حقيقةً فاتبعِ المهاجرينَ والأنصارَ بإحسانٍ حتى تدخلَ في قولِه تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

فأنزِلُوا الناسَ منازلَهم؛ الرجالَ بمنازلِهم، والنساءَ بمنازلِهن، ولا يمكنُ أبدًا لأحدٍ أن يغيرَ الفطرةَ التي فطرَ اللهُ الناسَ عليها أبدًا.. فمَن للشدائدِ من بنِي آدمَ؛ الرجالُ أمِ النساءُ؟ نقولُ: الرجالُ ولا شكَّ في هذا، والنساءُ لهنَّ وظائفُ، والرجالُ لهمْ وظائفُ، أعتقدُ أن الرجلَ لو أرادَ أن يقومَ بعملِ البيتِ فإنهُ ما يعرفُ أن يطبخَ، ولو جئت بواحدٍ عبقريٍّ ومعه دكتوراه عشر مراتٍ وطلبت منهُ أن يطبخَ فما يعرفُ أن يطبخَ ويُعد القهوةَ.

فلا يجوزُ إطلاقًا أن نجعلَ المرأةَ في مصافِّ الرجالِ، وغيرُ المسلمينَ جعلُوها فوقَ الرجالِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٦٥١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لم يذكرْ إبراهيمُ سِوى إقامةِ الصلاةِ؛ لأن الإنسانَ إذا أقامَ الصلاةَ فهو لما سِواها أقومُ.

ولهذا أخبركُم -أيها الإخوةُ- أن أولَ ما تحاسبونَ عليهِ هيَ الصلاةُ، فإن صلَحتْ صلَحَ باقي العملِ، وإن فسدتْ فسدَ باقي العملِ.

ولهذا قالَ إبراهيمُ: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهذا دليلٌ واضحٌ على أن الصلاةَ أهمُّ الأعمالِ البدنيةِ التي تصلحُ بها الأمورُ، فإذا صلحتِ الصلاةُ صلحَ كلُّ شيءٍ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] فجعلَهَا كأنها رجلٌ، وتنهَى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ لأن الإنسانَ إذا صلحتْ صلاتُه صلحتْ سائرُ أعمالِه.

ولهذا صحَّ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أن مَن تركَ الصلاةَ فهوَ كافرٌ، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ**»[1]، وقال: «**إِنَّ العَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»[2].

عدمُ الاطمئنانِ في الصلاةِ:

فإذا صلَّى رجلٌ، ولكنهُ كان يسرعُ في الركوعِ والسجودِ، فإنهُ لم يصلِّ، فالرجلُ توضأَ وجاءَ إلى المسجدِ وكبَّرَ ولكنهُ جعلَ يُسرعُ في الركوعِ والسجودِ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم (٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢١)، والنسائي: كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، رقم (٤٦٣)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، رقم (١٠٧٩).

فنقولُ: إنه لم يصلِّ؛ لأنهُ لم يطمئنَّ، والدَّليلُ[(١)]: دخلَ رجلٌ المسجدَ والرسولُ ﷺ معَ أصحابِه فصلى صلاةً ينقرُها نقرًا، ولم يطمئنَّ فيها، فجاءَ فسلمَ على الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وردَّ عليه الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ السلامَ؛ لأنهُ يجبُ أن يردَّ السلامَ، فقالَ لهُ: «ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فرجعَ الرجلُ وصلى كصلاتِه الأولى بدونِ طمأنينةٍ، وجاءَ وسلمَ وردَّ عليهِ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» سبحانَ الله! فرجعَ الرجلُ وصلى، ثم رجعَ وسلمَ على الرسولِ ﷺ وردَّ عليهِ السلامُ وقالَ لهُ: «ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». ثلاثَ مراتٍ يُصلي ويقالُ لهُ: لم تصلِّ. فقالَ الرجلُ: «والذِي بعثَكَ بالحقِّ ما أُحسنُ غيرَ هذا، فعَلِّمْني» اللهُ أكبرُ! هذا رجلٌ كما رأيتُم حالُه جاهلٌ، ما يَعرفُ كيفَ يُصلي، لكنهُ اختارَ أن يقولَ: «والذِي بعثكَ بالحقِّ»، دونَ أن يقولَ: واللهِ لا أحسنُ غيرَها؛ إشارةً منهُ أنه سيلتزمُ بما قالَ لأنهُ بُعِث بالحقِّ.

فلما قالَ: «والذِي بعثَكَ بالحقِّ ما أُحسِنُ غيرَ هذا فعلِّمْني» جاءَ وقتُ التعليمِ، فحينما اضطرَّ هذا الرجلُ إلى العلمِ ولما اشتاقَ إليهِ غايةَ الاشتياقِ علَّمهُ. ولو أن الرسولَ علَّمَه مِن أولِ مرةٍ فلنْ يكونَ قبولُه للعلمِ وتركيزُه في نفسِه مثلما ردَّدَهُ ثلاثَ مراتٍ، وهذهِ من حكمةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، فجعلَهُ يصلي صلاةً غيرَ مقبولةٍ من أجلِ أن يكونَ مشتاقًا تمامَ الاشتياقِ إلى التعليمِ، ومعرفةِ الحقِّ، فعلَّمَه؛ قالَ لهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ» يعني كمَّلَه وأتمَّهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، رقم (٦٢٥١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب: اقرأ ما تيسر معك من القرآن، رقم (٣٩٧).

والوضوءُ: أولًا: يَنوي، والنيةُ محلُّها القلبُ، ويُسمي، ويَغسلُ كفيهِ ثلاثَ مراتٍ، ويتمضمضُ ويستنشقُ ثلاثَ مراتٍ بثلاثِ غَرفاتٍ، ويغسلُ جميعَ وجهِه ثلاثَ مراتٍ، ويغسلُ يديهِ مِن أطرافِ الأصابعِ إلى المرفقينِ كلَّ واحدةٍ ثلاثَ مراتٍ، يبدأُ باليمنَى ثم اليسرَى، ويمسحُ رأسَه مرةً واحدةً، ومنهُ الأذنانِ، فيُدخِلُ سباحتَيه -والسبَّاحةُ: ما بينَ الإبهامِ والوسطَى- في أذنيهِ ويمسحُ بالإبهامِ ظاهرَ الأذنينِ مرةً واحدةً، ثم يغسلُ رجليهِ إلى الكعبينِ، ثلاثَ مراتٍ، كل واحدةٍ ثلاثَ مراتٍ، يبدأُ باليمينِ قبلَ اليسارِ.

والثلاثُ ليستْ واجبةً، ولكنها سنةٌ، والواجبُ واحدةٌ.

وإنما جعلَ الرأسَ مسحًا ولم يكنْ غسلًا، تخفيفًا على الأمةِ، فلو أن الإنسانَ عندَه شعرٌ كبيرٌ وقلنَا: يلزمُك أن تغسلَهُ، وغسَلَه في الشتاءِ البارِدِ، فسيكونُ أذًى عظيمٌ للإنسانِ، وربما يَمرضُ، فمِن رحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن جعلَ طهارةَ الرأسِ بالمسحِ. وأيضًا المسحُ لم يكررْ؛ لأنه لو كررَ لزادَ الماءُ فيهِ وحصلَ أذًى.

ولهذا القاعدةِ: كلُّ ممسوحٍ فإنهُ يُكرَهُ تكرارُ مسحِه. فالعمامةُ تُمسحُ ويُكرهُ تَكرارُ مسحِها، والجبيرةُ على جُرحٍ تُمَسَحُ، ويُكرهُ تكرارُ مسحِها، والجوربُ يُمسحُ، ويُكرهُ تكرارُ مسحِه، وكلُّ ممسوحٍ فإنهُ يُكـره تَكرارُ مسحِه، وهذِهِ قاعدةٌ مفيدةٌ لطالبِ العلمِ.

فهذا إسباغُ الوضوءِ الذي قالَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لهذا الرجلِ: «**إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ فَأَسْبغِ الوُضُوءَ**»، فإذا فرغتَ منَ الوضوءِ فقلْ: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ،**

وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ». وثوابُه أن الإنسانَ إذا قالَه فإنهُ تفتحُ لهُ أبوابُ الجنةِ الثمانيةُ يدخلُ مِن أيِّها شاءَ[١]. اللهمَّ اجعلنَا منهمْ يا ربَّ العالمينَ.

والحكمةُ في أنهُ يَختمُ الوضوءَ بهذا الذكرِ أن الوضوءَ تطهيرٌ، لكنهُ طهارةٌ حسيةٌ، و«أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأشهدُ أن محمدًا رسولُ اللهِ» تطهيرٌ لكنها طهارة معنويةٌ، فأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ تطهيرٌ منَ الشركِ، وأشهدُ أن محمدًا رسولُ اللهِ تطهيرٌ منَ البدعةِ؛ لأن الرسولَ ﷺ متبوعٌ فلا يجوزُ لأحدٍ أن يحدِثَ في دينِه ما ليسَ منهُ.

قالَ النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ فَأَسْبغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ**» فيستقبلُ القبلةَ ويتجهُ إلى الكعبةِ، فإذا كنتَ تشاهدُ الكعبةَ فالواجبُ أن تتجهَ إلى عينِ الكعبةِ، فلا بدَّ من إصابةِ العينِ، وإذا كنتَ بعيدًا فتتجهُ إلى الجهةِ، ولهذا قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ لأهلِ المدينةِ: «**مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ قِبْلَةٌ**»[٢]، وأهلُ المدينةِ يتجهونَ إلى الجنوبِ، إذنْ فالأمرُ واسعٌ، فالبعيدُ منَ الكعبةِ يتجهُ إلى الجهةِ حتى وإن لم يُصبْ عينَها؛ لأن إصابةَ عينِ الكعبةِ معَ البعدِ متعذرةٌ، ولا يمكنُ.

وهذا مِن سعةِ رحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكنِ استقبالُ القبلةِ -يا إخواني- يسقطُ في مواضعَ:

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الطهارة، باب ما يقال بعد الوضوء، رقم (٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء أن ما بين المشرق والمغرب قبلة، رقم (٣٤٢)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب القبلة، رقم (١٠١١).

الأولُ: عندَ العجزِ، فإذا عجزَ الإنسانُ عنِ استقبالِ القبلةِ، كرجلٍ مريضٍ وجهُه إلى غيرِ القبلةِ، وليسَ عندَه أحدٌ يوجهُه، فلا يتركِ الصلاةَ حتى يجدَ منْ يوجِّهه، ولكنْ يصلِّي ولو كانَ وجهُه إلى غيرِ القبلةِ.

الثاني: يسقطُ استقبالُ القبلةِ في حالِ الخوفِ، مثلًا لحِقَه سبعٌ، والسبعُ يأكلُ البشرَ، واضطرَّ إلى أن يتجهَ إلى غيرِ القبلةِ، فيجوزُ أن يتجهَ إلى غيرِ القبلةِ، فلا نقولُ: استقبلِ القبلةَ ولو أكلَكَ السبُعُ، ولكن يُصلي وهوَ غيرُ مستقبلٍ القبلةَ؛ لأنهُ خائفٌ على نفسِه، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، وإذا كانَ هوَ الذي يقولُ لنا عَزَّوَجَلَّ ولهُ المنةُ والفضلُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فلا يمكنُ أن يُلزمَنَا بما نقتلُ بهِ أنفسَنا.

الثالثُ: صلاةُ النافلةِ في السفرِ، ففي صلاةِ النافلةِ في السفرِ يجوزُ أن تتجهَ حيثُ كانَ وجهُك، ولو كانَ وجهُك إلى غيرِ القبلةِ، فالإنسانُ المتنفلُ على راحلتِه، أو سيارتِه، أو طائرتِه، أو مركبِه، إذا أرادَ أن يتنفلَ والقبلةُ وراءَه، فلا نقولُ: لا بدَّ أن تحرفَ البعيرَ، أو تحرفَ السيارةَ، بل نقولُ: صلِّ ولو كانتِ القبلةُ وراءَك؛ لأن إمامَ المتقينَ وسيدَ المرسلينَ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ كان يُصلي على راحلتِه النافلةَ حيثما توجهتْ بهِ.

إذنْ هذا فرقٌ بينَ النافلةِ والفرضِ، وخُففَ في النفلِ تشجيعًا للأمةِ على زيادةِ الخيرِ، وعلى التنفلِ في العبادةِ.

وقدْ يبدُو أن هذا الأمرَ غريبٌ على البعضِ أن الإنسانَ يتنفلُ في السفرِ على راحلتِه، والقبلةُ وراءَه، فنقولُ: تجوزُ صلاتُه، والدَّليلُ أن النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى

آلِهِ وسَلَّمَ كان يصلي النافلةَ على راحلتِه حيثما توجهتْ بهِ[1].

إذنْ يسقطُ استقبالُ القبلةِ في ثلاثةِ مواضعَ: الأولُ: عندَ العجزِ، والثاني: الخوف، والثالثُ: النافلةُ في السفرِ، أما الأولُ والثاني فإنهُ حتى في الفريضةِ يسقطُ عنكَ الاستقبالُ.

قالَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ**» يعني قلِ: اللهُ أكبرُ، فهذهِ تُسمى تكبيرةَ الإحرامِ؛ لأن الإنسانَ إذا قالَ: اللهُ أكبرُ يريدُ الصلاةَ دخلَ واقفًا بينَ يدي اللهِ عَزَّوَجَلَّ، واللهُ تعالى قِبل وجهِه في السماءِ، كما قالَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ المُصَلِّيَ يُنَاجِي رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ بِمَا يُنَاجِي رَبَّهُ**»[2]، واللهُ تعالى قِبل وجهِه لكنهُ في السماءِ.

وتكبيرةُ الإحرامِ ركنٌ، فلا بدَّ أن يقولَ الإنسانُ: اللهُ أكبرُ، ولو قالَ الإنسانُ: اللهُ أجلُّ فلا يجزئُ؛ لأن النبيَّ ﷺ قالَ للرجلِ: «كبِّر» يعني قلِ: اللهُ أكبرُ، وكانَ النبيُّ ﷺ يستفتحُ الصلاةَ بالتكبيرِ.

قالَ: «**ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ**» أيَّ قرآنٍ، فافرضْ أن هذا الرجلَ ما يعرفُ الفاتحةَ، لكن يعرفُ: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا**

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب تقصير الصلاة، باب صلاة التطوع على الدابة وحيثما توجهت به، رقم (١٠٩٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر حيث توجهت، رقم (٧٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٦٧).

وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٨٦] فإنهُ يقرأُ هذهِ الآيةَ؛ لأن الرسولَ ﷺ قالَ: «اقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ». وهذا لا يعرفُ إلا هذهِ الآيةَ، لكن يجبُ أن يتعلمَ الفاتحةَ؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»[1]، يعني مَن صَلَّى ولم يقرأْ بفاتحةِ الكتابِ وهوَ قادرٌ فلا صلاةَ لهُ.

قالَ: «ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا» والركوعُ هوَ انحناءُ الظهرِ بحيثُ يمكنُ للإنسانِ أن يَمسَّ ركبتيهِ بيديهِ، فيركعُ حتى يطمئنَّ راكعًا، ويقولُ في الركوعِ: «سبحانَ ربيَ العظيم»؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة:٧٤]، قالَ النبيُّ ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»[2].

إذن أنبهُكُم إذا ركعتُم وقلتُم: «سبحانَ ربيَ العظيمِ» أن تستحضِرُوا شيئينِ:

الأولُ: أمْرَ اللهِ تعالى في قولِه: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

الثاني: أمْرَ النبيِّ ﷺ أن نجعلَ ذلكَ في ركوعِنا.

إذنْ لا بدَّ إذا ركعَ الإنسانُ أن يقولَ: «سبحانَ ربيَ العظيمِ».

قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ قَائِمًا» ويقولُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، رقم (٧٥٦). ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وأنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٤).

(٢) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الركوع والسجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيه، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم (٨٨٧).

إذا رفعَ: «سمِعَ اللهُ لَمن حمِدَهُ» إن كانَ إمامًا أو منفردًا، أما المأمومُ فلا يقولُ: سمعَ اللهُ لمنْ حمدَهُ؛ لأن إمامَ الأمةِ وقائدَها ومعلِّمَها رسولَ اللهِ ﷺ قالَ في الإمامِ: «**إِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا**» ومعنى كبِّروا: قولُوا: اللهُ أكبرُ «**وإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ**»[1].

فإذا كانَ الرسولُ يقولُ هكذا، فهل نقولُ نحنُ: سمعَ اللهُ لمن حمدَهُ كما قالَ الإمامُ! فلم يقلْ: قولُوا: سمعَ اللهُ لمن حمدَهُ، ولم يقلْ: قولُوا مثلما يقولُ، وإنما قالَ: «**قُولُوا: رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ**»، هكذا قالَ.

ثم قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا**». والسجودُ على سبعةِ أعضاءٍ، بينَها الرسولُ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ: عَلَى الجَبْهَةِ -وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ- وَاليَدَيْنِ، وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَأَطْرَافِ القَدَمَيْنِ**»[2].

فلا بدَّ أن يكونَ السجودُ على هذهِ الأعضاءِ، ومَن سجدَ ورفعَ أنفَه عنِ الأرضِ فلا يصحُّ سجودُه.

ومنْ سجدَ ورفعَ إحدى رجليهِ، فلا يصحُّ.

ومنْ سجدَ ورفعَ إحدَى يديهِ ووضعَها على صدرِه، فلا يجوزُ؛ لأن النبيَّ ﷺ بيَّنَ لنا فقالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ: عَلَى الجَبْهَةِ -وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ- وَاليَدَيْنِ، وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَأَطْرَافِ القَدَمَيْنِ**».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب إيجاب التكبير، وافتتاح الصلاة، رقم (٧٣٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن مبادرة الإمام بالتكبير وغيره، رقم (٤١٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب السجود على الأنف، رقم (٨١٢)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود، والنهي عن كف الشعر والثوب وعقص الرأس في الصلاة، رقم (٤٩٠).

ونقولُ في السجودِ: «سبحانَ ربيَ الأعلى»؛ لأن النبيَّ ﷺ لما نزلَ قولُه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى:١] قال: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**»[١].

ومعنى الأعلى: العلوُّ، يعني أنهُ تعالى فوقَ كلِّ شيءٍ، ولهذا جاءتِ (الأعلى) اسمَ تفضيلٍ محذوف المفضَّلِ عليهِ، يعني الأعلى علوًّا مطلقًا، فهوَ فوقَ كلِّ شيءٍ، ولذلكَ أنتَ تدعُو وتقولُ: يا اللهُ وتعتقدُ أن اللهَ في السماءِ، ولكنْ يجبُ أن تعلمَ أن السماءَ والأرضَ وكلَّ شيءٍ مفتقرٌ إلى اللهِ، وأن اللهَ تعالى غنيٌّ عنْ كلِّ شيءٍ، فليسَ معنَى كونِه فوقَ السماءِ أو فوقَ كلِّ شيءٍ أن السماءَ تُقلُّه، لا واللهِ، فهوَ مستغنٍ عنْ كلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ محتاجٌ إلى اللهِ، واللهُ غنيٌّ عنْ كلِّ شيءٍ. فـ(الأعلى) إذنْ معناهُ العلوُّ وأنهُ فوقَ كلِّ شيءٍ.

وانظرْ إلى الجاريةِ المملوكةِ -أمَةٌ تباعُ وتشترى- البعيدةُ عنِ العلمِ، لكنها على الفطرةِ، جاءَ سيدُها معاويةُ بنُ الحكمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأخبرَ النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه غضبَ يومًا منَ الأيامِ على هذهِ الجاريةِ وصكَّها، والواحدُ إذا غضبَ ربما يفقدُ شعورَه، وأرادَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ينجوَ مِن ذلكَ بإعتاقِها، قالَ: كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّئْبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ -يعتقها كفارة لما صنع بها- فقال له النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ائْتِنِي بِهَا**» فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «**أَيْنَ اللهُ؟**».

---

(١) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الركوع والسجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيه، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم (٨٨٧).

قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. يعني ليس هناكَ آلهةٌ في الأرضِ، فالجاريةُ ما قالتْ: إلهي في المكانِ الفلانيِّ، فلما قالَ: «أَيْنَ اللهُ؟» قالتْ: في السماءِ، فعلمَ بذلكَ النبيُّ ﷺ أنها مؤمنةٌ، فقالَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(١).

وهذا أمرٌ لا يحتاجُ إلى بحثٍ كبيرٍ؛ لأنهُ أمرٌ مفطورٌ عليهِ الناسُ، فكلُّ إنسانٍ يقولُ: يا اللهُ، ينصرفُ قلبُه إلى السماءِ.

ثم قالَ ﷺ: «ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاتِكَ كُلِّهَا».

والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلم على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ.



---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).



سورة الحجر

الدرس الأول:

إن الحمدَ للهِ نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، منْ يهدهِ اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسولهُ، صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وأصحابهِ، ومنْ تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أما بعد:**

فقد قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧].

والسبعُ المثاني فسرَها أعلمُ الخلقِ بكلامِ اللهِ؛ محمدٌ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ بأنها هيَ الفاتحةُ؛ لأن الفاتحةَ سبعُ آياتٍ، أولُها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والثانيةُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والثالثةُ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، والرابعةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، والخامسةُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، والسادسةُ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، والسابعةُ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فهذهِ سبعُ آياتٍ.

والبسملةُ ليستْ منَ الفاتحةِ، ولهذا لو تركَ الإنسانُ البسملةَ متعمدًا لم تبطلْ صلاتُه؛ لأن البسملةَ ليستْ منَ الفاتحةِ.

والدَّليلُ على أنها ليستْ منَ الفاتحةِ ما ثبتَ في الحديثِ الصَّحيحِ عن أبي هريرةَ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قالَ فيما يرويهِ عنِ اللهِ أنهُ قالَ جَلَّ وَعَلَا: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[1]. ولم يذكرِ اللهُ جَلَّ وَعَلَا البسملةَ، فدلَّ هذا على أنها ليستْ منها، منها، وهذا هوَ القولُ الراجحُ من أقوالِ أهلِ العلمِ.

إذنِ السبعُ المثاني هيَ الفاتحةُ، وسميتِ السبعَ المثانيَ لأنها سبعُ آياتٍ.

فضائلُ سورةِ الفاتحةِ:

الفضيلةُ الأولى: هذهِ السورةُ لها شأنٌ عظيمٌ، ويدلُّ على عظمِ شأنِها أن مَن لم يقرأْها فلا صلاةَ لهُ، يعني لو صليتَ وقرأتَ سورةَ البقرةِ في صلاتِك ولم تقرأِ الفاتحةَ فصلاتُك باطلةٌ؛ لأن النبيَّ ﷺ قالَ: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**»[2]، وعلى هذا تكونُ قراءةُ الفاتحةِ ركنًا في الصلاةِ في كلِّ ركعةٍ، والدَّليلُ على أنها واجبةٌ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، رقم (٧٥٦). ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وأنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٤).

في كلِّ ركعةٍ وأنها ركنٌ في كلِّ ركعةٍ حديثُ أبي هريرةَ في الصَّحيحينِ[١]؛ في الرجلِ الذي دخلَ المسجدَ وصَلى: دخلَ رجلٌ المسجدَ وصلى، لكنهُ صلى صلاةً لا يطمئنُّ فيها، فيَعجَلُ في الركوعِ والسجودِ ولا يطمئنُّ، ثم جاءَ الرجلُ وسلمَ على الرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فردَّ عليهِ السلامَ لكنهُ قالَ لهُ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**». يعني لم تصلِّ الصلاةَ الشرعيةَ التي تَبرأُ بها ذمتُك، فرجعَ الرجلُ وصلى لكنْ كصلاتِهِ الأولى، ثم عادَ وسلمَ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فردَّ عليهِ السلامَ وقالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**» ونقول في قوله: «**فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**» كما قلنا في الأولِ؛ يعني لم تصلِّ صلاةً شرعيةً تبرأُ بها الذمةُ، فذهبَ وصلى امتثالًا لأمرِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ المرةَ الثالثةَ، ثم جاءَ فسلمَ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فردَّ عليهِ السلامَ وقالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**». فلو رجعَ وصَلى لصلى أربعَ مـراتٍ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، والذي بعثكَ بالحقِّ لا أُحسنُ غـيرَ هذا فعلِّمني.

فالرجلُ راغبٌ في أنْ يطلبَ العلمَ، فعلمَهُ معلمُ الناسِ الخيرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقالَ لهُ: «**إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا** -أو قال: **حَتَّى تَطْمَئِنَّ قَائِمًا- ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاتِكَ كُلِّهَا**».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، رقم (٦٢٥١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب: اقرأ ما تيسر معك من القرآن، رقم (٣٩٧).

إذنْ لا بدَّ أن تقرأَ في الركعةِ الثانيةِ كما قرأتَ في الركعةِ الأولى، فقراءةُ الفاتحةِ ركنٌ من أركانِ الصلاةِ، ولا صلاةَ لمن لمْ يقرأْ بفاتحةِ الكتابِ، حتى صلاة الجنازةِ إذا لم تقرأْ فيها بفاتحةِ الكتابِ فلا تكونُ صحيحةً.

الفضيلةُ الثانيةُ: أنها أعظمُ سورةٍ في كتابِ اللهِ؛ لأن الفاتحةَ مشتملةٌ على جميعِ معاني القرآنِ على سبيلِ الإجمالِ، ولهذا كثيرٌ منا يعرفُ أنها تُسمى اسمًا آخرَ غيرَ فاتحةِ الكتابِ، وهوَ أمُّ القرآنِ؛ لأن جميعَ معاني القرآنِ فيها، فهيَ أعظمُ سورةٍ في كتابِ اللهِ.

الفضيلةُ الثالثةُ: أنها إذا قُرئتْ على المرضَى شفاهمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بإذنِ اللهِ، والدَّليلُ أن النبيَّ ﷺ بعثَ سريةً فنزلُوا على قومٍ ضيوفًا ولكنِ القومُ لم يَقوموا بواجبِ الضيافةِ، فتنحَّى الصحابةُ ناحيةً، فقدَّرَ اللهُ على سيدِ هؤلاءِ القومِ الذينَ لم يَقومُوا بواجبِ الضيافةِ أن لدغتْهُ عقربٌ، معَ أن الضيافةَ معروفةٌ عندَ العربِ، وموروثةٌ عن إبراهيمَ الخليلِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والعربُ مِن ذريةِ إبراهيمَ؛ لأن أباهُم إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ. قدَّرَ اللهُ على سيدِهم أن لدغتْهُ عقربٌ، وكانتْ شديدةً، فطلبُوا أحدًا يقرأُ على هذا السيدِ، فقالَ بعضُهم: لعلَّ هؤلاءِ القومِ الذينَ نزلُوا بكمْ فيهمْ مَن يقرأُ، فجاءُوا إلى الصحابةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وقالُوا: هلْ فيكُم مِن راقٍ؛ فإن سيدَهُم قدْ لُدغَ، قالوا: نعمْ لكننَا لا نَرقيكُم إلا أن تجعلُوا لنا جُعلًا، يعني عِوضًا؛ لأن هؤلاءِ القومَ لم يَقوموا بضيافتِهم، ولو قامُوا بضيافتِهم لكانَ الصحابةُ أكرمَ منهمْ ولقرَؤُوا على سيدِهم مجانًا، لكنْ نظرًا إلى أنهمْ لم يَقوموا بواجبِ الضيافةِ قالُوا: لن نقرأَ على صاحبِكُم إلا بجُعلٍ.

قالوا: نعطيكُم قطيعًا منَ الغنمِ فداءً لسيدِهم، فذهبَ أحدُ القومِ مِنَ الصحابةِ وجعلَ يقرأُ على هذا الرجلِ سورةَ الفاتحةِ، فقامَ هذا الملدوغُ كأنما نُشِطَ من عقالٍ، ومعنى نُشطَ مِن عقالٍ: كأنهُ بعيرٌ أُطلقَ عقالُه، فقامَ يَمشي سليمًا، فأخذُوا الجُعل، ثم إنهمْ أَشكلَ عليهمُ الأمرُ هل يحِلُّ لهمْ هذا الجُعلُ، فتوقفُوا حتى بلغُوا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وأخبرُوه الخبرَ وأن الأمرَ قدْ أَشكلَ عليهمْ، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا**».

اللهمَّ صلِّ وسلمْ على معلمِ الخيرِ، يعني خذُوا واجعلُوا لي سهمًا، والرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليسَ محتاجًا إلى ذلكَ اللحمِ، ولكن ليُطيبَ قلوبَهم؛ لأنه منَ المعلومِ أن طِيبَ النفسِ بالشيءِ الذي تراهُ أبلغُ من طِيبها منَ الشيءِ الذي تسمعُ بهِ، ولهذا جاءَ في الحديثِ: «**لَيْسَ الخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ**»[1].

وقدْ قالَ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ للرجلِ الذي قرأَ الفاتحةَ على اللديغِ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟**»[2]. وهذا زيادةُ توكيدٍ؛ أنهُ إذا قرئَ على المريضِ بسورةِ الفاتحةِ لأي مرضٍ فإن اللهَ تعالى يَشفيهِ إن كانَ اللهُ قد قدرَ لهُ الشفاءَ، فقراءةُ الفاتحةِ سببٌ للشفاءِ، لكنِ الأسبابُ قد يكونُ لها موانعُ، ولهذا ينبغي على الإنسانِ أن يقرأَ على المرضَى بهذهِ السورةِ؛ لقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟**».

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، رقم (٢٢٠١).

إذنْ من فضائلِ هذهِ السورةِ أنها يُرقى بها المرضَى؛ فيُقرأُ على المرضَى بها فيُشفونَ بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الفضيلةُ الرابعةُ، وهيَ من أعظمِ الفوائدِ في نظرِي: أن الإنسانَ إذا قرأَ بها في الصلاةِ فإن اللهَ تعالى يناجِيه؛ فيردُّ عليهِ آيةً آيةً، ففي الحديثِ: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[1]. فهذهِ غنيمةٌ، أسأَلُكُم باللهِ لو كنتُم تحبونَ شخصًا من بني آدمَ أتفرحونَ بأن تناجُوهُ؟

نقول: نعمْ، فكلُّ إنسانٍ يحبُّ شخصًا فإنهُ يحبُّ أن يكونَ بينَه وبينَه مناجاةٌ ومحادثةٌ ومكالمةٌ، وأحبُّ شيءٍ إلى قلوبِنا، ونسأَلُ اللهَ أن يثبتنَا حتى نلقَاهُ، هوَ ربُّ العالمينَ عَزَّوَجَلَّ.

ومعنى «**أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**» يعني كررَ المدحَ والحمدَ.

وقولُه: «**وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي**» لأن في ذلك اليومِ يظهرُ المجدُ والعظمةُ، وتزولُ كلُّ عظمةٍ لأي أحدٍ، قالَ تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٥).

ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر:١٥-١٦] المالكُ والمملوكُ، والملكُ والرعيةُ، والرؤساءُ والمرؤوسونَ، فكلٌّ بارزٌ، ولا يخفى على اللهِ منهمْ شيءٌ، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] ينادِي عَزَّوَجَلَّ: لمنِ الملكُ اليومَ؟ فلا يجيبُ أحدٌ، فكلُّ الناسِ سواءٌ، ويحشرونَ إلى اللهِ حفاةً عراةً غُرلًا[1]، كلٌّ بانفرادِه، فلا أبَ ولا أمَّ ولا أخَ ولا عمَّ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧].

فتذكرْ يا أَخي هذهِ الحالَ قَرُبَ الزمنُ أو بَعُدَ، وكلما بَعُدَ الزمنُ مِنَ الدنيا فإنهُ قريبٌ؛ كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى:١٧].

ففي هذا اليومِ يزولُ كلُّ مجدٍ، وكلُّ عزٍّ، وكلُّ ملكٍ، وكلُّ سلطانٍ، ويبقَى ذلكَ للهِ الواحدِ القهارِ، يسألُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فلا يجيبُهُ أحدٌ، فيجيبُ نفسَه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

إذن يومُ الدينِ هوَ يومُ المجدِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا يكونُ جوابُ الربِّ عَزَّوَجَلَّ إذا قالَ المصَلي: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يكونُ الجوابُ: «**مَجَّدَنِي عَبْدِي**»؛ لأنهُ في هذا اليومِ يظهرُ المجدُ والعظمةُ.

فإذا قرأَها الإنسانُ وهوَ يصَلي يحصلُ فيها مناجاةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وألذُّ مناجاةٍ بينَ الإنسانِ وغيرِه مناجاتُه لربِّه عَزَّوَجَلَّ.

أما قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ فالمرادُ بِهِ كلامُ اللهِ الذي بينَ أيدينَا نقرؤُه منَ المصاحفِ، ونتلُوه منَ الصدورِ، وهو بينَنا وللهِ الحمدُ محفوظٌ منذُ أُنزلَ على محمدٍ

---

(١) أي غير مختونين.

رسولِ اللهِ ﷺ وإلى أن يأذنَ اللهُ تعالى بخرابِ هذا العالمِ، والذي تكفلَ بحفظِهِ هوَ اللهُ الذي أنزلَهُ، ولنْ يستطيعَ أحدٌ أن ينالَهُ بسوءٍ مهما عَظُمَ بيانُه، ومهما عظُمتْ فصاحتُه، فمهمَا قويَ سلطانُه فلن يستطيعَ أن يمسَّ هذا القرآنَ بسوءٍ؛ لأن الذِي تكفلَ بحفظِهِ هوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

ولهذا قالَ العلماءُ: مَن أنكرَ حرفًا منَ القرآنِ مُجمَعًا عليهِ بينَ القراءِ، ولو حرفَ عطفٍ، ولو ضميرًا، فإنهُ يكونُ كافرًا؛ لأنه مُكذبٌ لإجماعِ المسلمينَ، ولأنهُ متحدٍّ لقولِ ربِّ العالمينَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، أما بعضُ الحروفِ التي اختلفَ فيها القراءُ الذين حملُوا القرآنَ فعلى حسبِ ما جاءَ في القراءاتِ؛ لأن بعضَ القراءاتِ قد يكونُ فيها حذفُ حرفٍ، وبعضُ القراءاتِ يكونُ فيها إثباتُه، لكن هذا مِن حفظِ اللهِ لهذا القرآنِ؛ لأن الذينَ نَقلُوا القرآنَ إلينَا همُ أئمةُ هذا الشأنِ، وهمُ الذينَ أعطَوهُ الأمةَ نقيًّا ذكيًّا مقدسًا، فالذينَ نقلُوه عنْ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ همُ الصحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وهمْ -أعني الصحابةَ- خيرُ الناسِ منذُ خُلقَ آدمُ إلى أن تقومَ الساعةُ؛ لقولِ الصادقِ المصدوقِ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[1].

فخيرُ الناسِ منذُ خُلقَ آدمُ إلى قيامِ الساعةِ همْ أصحابُ الرسولِ ﷺ، ومَن طعنَ في أصحابِ الرسولِ ﷺ فقدْ طعنَ في الرسولِ ﷺ، وقدْ طعنَ في الكتابِ والسنةِ، وقد طعنَ في حكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الصحابةَ همُ الذينَ حملُوا إلينَا الشريعةَ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٦٥١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

فإذا طعنَ طاعنٌ فيهمْ فهذا طعنٌ في الشريعةِ؛ لأن الشريعةَ إذا كانتْ لا تُتلقى إلا مِن قومٍ متهمينَ في دينِهم وأمانتِهم، فمَنْ يثقُ بالشريعةِ؟!

فهذا طعنٌ بالشريعةِ؛ لأن مَن نقلَ الشريعةَ إلينا همُ الصحابةُ، فإذا طعنَ فيهمْ فكيفَ نثقُ بالشريعةِ!

أيضًا هوَ طعنٌ برسولِ اللهِ ﷺ؛ لأن أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ الذينَ اختارَهُمُ اللهُ لصحبةِ نبيهِ ولإقامةِ دينِه همْ أهلُ الهمم، ومنَ المعلومِ أن المرءَ على دينِ خليلِه[1]، فإذا أردتَ أن تعرفَ شخصًا وأن تعرفَ قيمتَه وثقتَه فإنكَ تسألُ عن قرنائِه، فإذا كانَ قرناؤُه قرناءَ سَوءٍ فإنهُ يكونُ سيئًا، وإذا كانَ قرناؤُه قرناءَ صلاحٍ كانَ هو أيضًا صالحًا، ويقولُ الشاعرُ[2]:

عنِ المرءِ لا تسألْ وسلْ عنْ قرينِه ... فكلُّ قرينٍ بالمقارِنِ يَقتدِي

فالطعنُ في الصحابةِ طعنٌ في رسولِ اللهِ ﷺ وطعنٌ في حِكمةِ اللهِ؛ وذلكَ أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اختارَ لصحبةِ نبيهِ، وهوَ أفضلُ الرسلِ وأفضلُ البشرِ قومًا يُتهمونَ بما يَقدحُ في عدالتِهم، فهذا ينافي الحكمةَ؛ أن يختارَ اللهُ لهذا الرسولِ الذي هوَ خاتمُ النبيينَ وأفضلُ المرسلينَ وأفضلُ البشرِ عندَ اللهِ قومًا يصحبونَهُ، ويجاهدونَ معَهُ، ويقاتلونَ نصرةً لدينِه، وهمْ متهمونَ بما يَقدحُ في عدالتِهم، فهذا طعنٌ في حكمةِ اللهِ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ أحكمُ منْ أن يختارَ لنبيِّه مَن يُتهمُ بما ينافِي العدالةَ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٣)، والترمذي: أبواب الزهد، باب، رقم (٢٣٧٨).

(٢) ديوان طرفة بن العبد (ص:٣٢).

إن القرآنَ العظيمَ لَمْ يستطعْ أحدٌ أن يُحرفَهُ، وكلُّ إنسانٍ يحاولُ أن يُحرفَه لفظًا أو معنًى؛ فإن اللهَ يقدِّرُ لهُ منْ علماءِ المسلمينَ مَن يردُّ محاولتَه في نحرِه، وطالِعُوا كتبَ الخلافِ بينَ الناسِ تجدوا ما يُثلجُ الصدورَ، ويُطمئنُ القلوبَ، أنهُ ما مِن مُبطلٍ أرادَ أن يحرفَ كلامَ اللهِ عنْ مرادِ اللهِ إلا قيَّدَ اللهُ لهُ مِن علماءِ الأمةِ مَن يردُّ كيدَهُ في نحرِه، ويبطِلُ حجتَهُ، وهذا شيءٌ يعرفُهُ مَن طالعَ كتبَ الخلافِ والمناقشةِ بينَ العلماءِ، فلنْ يستطيعَ أحدٌ أن يحـاولَ، ولو حاولَ قُيِّد لهُ مَن يردُّ كيدَه في نحرِه؛ لأن هذا القرآنَ عظيمٌ محفوظٌ، قالَ تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

وواللهِ إنها لآيةٌ عظيمةٌ، فلو أننا عَقَلنَا لوجدنَا كلَّ مُشكِلٍ حَلهُ في القرآنِ، فوالله لوْ أعطانَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فهمًا في الكتابِ وذِهنًا صافيًا لوجدنَا حَلَّ كلِّ مشكلةٍ في القرآنِ العظيمِ؛ لأن اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، وكلمةُ ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ عامةٌ، فكلُّ شيءٍ مِن مسائلِ الدينِ والدنيا تُشكِلُ فحَلُّها في القرآنِ، لكنْ أينَ صاحبُ الفهمِ؟! فيقرأُ بعضُ الناسِ آيةً فيستنبطُ منها منَ الفوائدِ ما شاءَ اللهُ عشْرَ فوائدَ، وبعضُهم لا يستخرجُ إلا فائدةً واحدةً، والسببُ أن الناسَ يختلفونَ في الفهمِ اختلافًا عظيمًا.

ولهذا لما خاضَ الناسُ في عهدِ أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الخلافةِ هلِ النبيُّ ﷺ أوصَى أن تكونَ الخلافةُ بعدَه لعليِّ بنِ أبي طالبٍ سألُوا عليًّا، وعليٌّ مِن أوثقِ الصحابةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ومِن أفضلِ الصحابةِ، بلْ هوَ رابعُ هذهِ الأمةِ في الأفضليةِ؛ لأن أفضلَ هذهِ الأمةِ بعدَ نبيِّها أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، إذنْ هوَ رابعُ هذهِ الأمةِ في الأفضليةِ، قالَ لهُ أبو جُحيفةَ: «هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللهِ؟». يعني مِن أمرِ الخلافةِ.

واستمعْ لقولِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ؛ لأن عليَّ بنَ أبي طالبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يريدُ الحقَّ أينما كانَ، ولا تأخذُهُ في الحقِّ لومةُ لائمٍ، وليسَ يدعُو الناسَ لتقديسِ نفسِه والغلوِّ فيهِ، بلْ هوَ أبعدُ الناسِ عن هذا، قالَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لا وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ». أقسمُ باللهِ الذي برأَ النسَمةَ، يعني خلقَ الحيوانَ وفيهِ الروح، وفلقَ الحبةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام:٩٥] «مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ» وهذهِ مِنةٌ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يعطيَ الإنسانَ فهمًا في الكتابِ «وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ». قَالَ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: «العَقْلُ، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَلَّا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»(١)، فهذا الذِي في الصحيفةِ.

والشاهدُ مِن هـذا الأثرِ: «إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ» فإن هـذا بحرٌ لا ساحلَ لهُ، والناسُ يختلفونَ في فهمِ القرآنِ كثيرًا كما أشرنَا إليهِ آنفًا، فالقرآنُ الكريمُ تبيانٌ لكلِّ شيءٍ لا شكَّ فيهِ.

لكنْ قدْ يقولُ قائلٌ: هلْ في القرآنِ بيانُ عددِ الصلواتِ؟ وهلْ في القرآنِ بيانٌ أن الظهرَ أربعٌ، والعصرَ أربعٌ، والعشاءَ أربعٌ، والمغـربَ ثلاثٌ، والفجرَ اثنتانِ؟ فكيفَ يكونُ القرآنُ تبيانًا لكل شيءٍ وهذهِ الأمورُ الضروريةُ غيرُ موجودةٍ فيهِ؟

فنقولُ: هذا موجـودٌ في القرآنِ في عـدةِ آياتٍ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران:٣١]، ونحن إذا اتبعنَا الرسولَ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ علمنَا أن الصلواتِ خمسٌ، وأن الظهرَ أربعٌ، والعصرَ أربعٌ، والعشاءَ أربعٌ، والمغربَ ثلاثٌ، والفجرَ اثنتانِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، رقم (٣٠٤٧).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة:١٩].

إذنْ فما جاءَ بالسنةِ فقدْ أبانَ اللهُ في كتابِه أنهُ حقٌّ، والقرآنُ تبيانٌ لكل شيءٍ، وهناكَ أشياءُ لم تأتِ بالسنةِ، ولم تأتِ بالقرآنِ، ونقولُ: إن القرآنَ بينَها، وهيَ الأمورُ الحادثةُ المستجدَّةُ في المعاملاتِ وفي المجتمعاتِ، وقد لا تكونُ معروفةً في العهدِ الأولِ، فنقولُ: إن بيانَها موجودٌ في القرآنِ، فإن قيلَ: كيفَ تكونُ موجودةً في القرآنِ وهيَ لم تحدثْ إلا أخيرًا؟

قلنَا: القرآنُ لهُ عموماتٌ يدخلُ فيها كلُّ فردٍ يوجدُ إلى يومِ القيامةِ، ولهُ معانٍ وأوصافٌ علقتْ بها الأحكامُ الشرعيةُ، فما ثبتَ فيهِ هذا الوصفُ أو هذا المعنى ثبتَ فيهِ هذا الحكمُ، وهوَ مَا يُعرفُ عندَ علماءِ الأصولِ بالقياسِ، ولا يُمكنُ أن تجدَ مسألةً في الدنيَا تحدثُ إلا وفي القرآنِ بيانُها؛ إما بنصِّها، أو بالعمومِ، أو بالإشارةِ، أو بالمفهومِ الأولويِّ، أو المخالفِ، أو غيرِ ذلكَ، فلا بدَّ أن يكونَ في القرآنِ، لكنْ قد يَنقصُنا العلمُ، وقد ينقصُنَا الفهمُ، وقدْ تنقصنَا التقوى؛ ونقصُ التقوى أكبرُ حائلٍ بينَ الإنسانِ وبينَ التوفيقِ. نسألُ اللهَ أن يرزقنَا وإياكُم التوفيقَ.

إذنِ القرآنُ تبيانٌ لكلِّ شيءٍ؛ جاءَ أعرابيٌّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ» واستشكلَ الأمرَ، وحقيقةً الأمرُ مُشكِلٌ؛ فبعضُ

الناسِ إذا جاءَ ابنُه بلونِه لكنه مخالفٌ لهُ في بعضِ الأوصافِ أَلقى الشيطانُ في قلبِهِ شُبهًا؛ فهذا الأعرابيُّ لا نقولُ: إنهُ مثلًا حصلَ لهُ شُبهةٌ في امراتِه، فما نستطيعُ أن نجزمَ، لكنْ لعلَّهُ يريدُ منَ النبيِّ ﷺ أن يحُلَّ مشكلةً، فقالَ لهُ الرسولُ ﷺ: «**هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟**» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**مَا أَلْوَانُهَا؟**» قَالَ: حُمْرٌ. قَالَ: «**هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟**». والأورقُ الذي لونُه بينَ السوادِ والبياضِ، يُشبِهُ الوَرِقَ وهو الفضةُ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**فَأَنَّى ذَلِكَ؟**» مِن أينَ جاءَهُ الأورقُ فألوانُها حمرٌ «قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ» جداتُه أو واحدٌ منَ الإبلِ البعيدةِ كانَ أورقَ فنزَعَهُ هذا العِرقُ، فالأعرابيُّ مؤمنٌ بذلكَ؛ بأن هذا الأورقَ نزعَهُ عِرقٌ. قَالَ: «**فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ**»[1]، لم يقلْ أكثرَ مِن ذلكَ، فعادَ الأعرابيُّ مطمئنًّا تمامَ الطمأنينةِ.

إذنْ هذا يدلُّ على أنَّ القياسَ ثابتٌ شرعًا، وأن نظيرَ الشيءِ لهُ حكمُ الشيءِ، وهذهِ الشريعةُ -وللهِ الحمدُ- ما فيها تناقضٌ، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، أمَا وهوَ مِن عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ اللطيفِ الخبيرِ فلن يكونَ فيهِ اختلافٌ أبدًا، أسألُ اللهَ أن يرزقَنِي وإياكمُ الإيمانَ ويثبتَهُ في قلوبِنا.

ويُذكرُ أن بعضَ العلماءِ منَ المعاصرينَ كانَ في مطعمٍ في بلادٍ منَ البلادِ الأوربيةِ، وكانَ إلى جانبِه -وتعرفونَ أن المطعمَ يجمعُ الغثَّ والسمينَ- رجلٌ كافرٌ منْ أحبارِ النصارَى، وهذا العالِمُ كانَ رجلًا عالمًا مشهورًا كبيرًا حتى في البلادِ الأوربيةِ، فقالَ هذا الحَبرُ منَ النصارَى يريدُ أن يُعجزَ هذا العالمَ مِن علماءِ المسلمينَ؛ قالَ: إن قرآنَكم تبيانٌ لكلِّ شيءٍ؟ قالَ: نعمِ القرآنُ تبيانٌ لكلِّ شيءٍ. فقالَ هذا الرجلُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، رقم (٥٣٠٥)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، وغيرها بوضع الحمل، رقم (١٥٠٠).

الذي يريدُ أن يتحدَّى: أينَ في القرآنِ كيفَ يُصنعُ هذا الطعام -الإدامُ[١] والخبزُ وما أشبهَ ذلكَ-؟ فقالَ الرجلُ العالمُ منْ علماءِ المسلمينَ: هذا موجودٌ في القرآنِ. فتعجبَ الرجلُ كيفَ هوَ موجودٌ؟! فدعا الرجلُ العالِمُ الإسلاميُّ صاحبَ المطعمِ وقالَ: كيفَ صنعتَ هذا؟ وجعلَ صاحبُ المطعمِ يشرحُ لهُ، فقالَ: هكذا دَلَّنا القرآنُ؛ لأن اللهَ قالَ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

فأيُّ شيءٍ يُعجزُنا فإننَا نسألُ أهلَ العلمِ بهِ، فإذا قيلَ: كيفَ يصنعُ هذا الشيءُ؟ فإذا دعوتُ المهندسَ والصانعَ وقلتُ: كيفَ تصنعُ هذا؟ فحينئذٍ أعرفُ.

والمهمُّ أن القرآنَ الكريمَ تبيانٌ لكلِّ شيءٍ، قالَ تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]، فلا يهتدِي بالقرآنِ إلا مَن هداهُ اللهُ، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ [المائدة:١٦]، أما مَن زاغَ قلبُه فإنهُ ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥]، ولم يصلْ إليهِ منْ معنَى القرآنِ شيءٌ، ولن يعثرَ على أسرارِه وحِكمِه.

على كلِّ حالٍ فإن الحديثَ عن هذا الأمرِ حديثٌ طويلٌ، وهو حقيقةً ممتعٌ؛ لأننا واللهِ نحبُّ القرآنَ، ونسألُ اللهَ أن يثبتَنَا على ذلكَ، وهوَ قائدُنا إلى رضوانِ اللهِ والجنةِ، نسألُ اللهَ تعالى أن يجعلَنَا وإياكُم ممن يتلُونَه حقَّ تلاوتِه لفظًا ومعنًى، وعقيدةً وعملًا. إنهُ جوَادٌ كريمٌ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

---

(١) الإدام والأُدم: ما يؤكل مع الخبز أي شيء كان. النهاية (أدم).



سورة النحل

الدرس الأول:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فإنَّ الله تعالى يُعَدِّدُ في سورَةِ النَّحْلِ أصنَافًا كثيرَةً مِنْ أنواعِ النِّعَمِ، ولهذا سمَّاها بعضُ السَّلَفِ (سورَةَ النِّعَمِ) لما فيهَا مِنَ النِّعَمِ الظاهِرَةِ والباطِنَةِ في الدِّينِ والدُّنْيا، وختَمَها اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ببيانِ حالِ إبراهِيمَ الخليلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين قالَ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل:١٢٠-١٢٢].

إبراهيمُ هو خَلِيلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ كَما قالَ اللهُ تعالى في كِتابِهِ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]. والخليلُ: مَعْناهُ الحَبِيبُ الذي بَلَغَ غايَةَ الحُبِّ، ولهذا كانَتِ الخُلَّةُ أعظَمُ من المحبَّةِ، وبهذا نَعْرِفُ أن من قالَ: إبراهِيمُ خليلُ الله، ومحمَّدٌ حبيبُ الله، ومُوسَى كَلِيمُ اللهِ. نَعْرِفُ أنه قَدْ قصَّر في حَقِّ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ؛ لأن محمَّدًا خليلُ اللهِ، والخليلُ أعْلَى مِنَ الحبيبِ، وقد ثبتَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنه قالَ: «**إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا**،

كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»[1].

وهؤلاء الذين نَسْمَعُهم دَائمًا يقُولـونَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ ويَصِفونَهُ بأنه الحَبِيبُ أو حَبِيبُ اللهِ، نقول: إِنَّكُمْ قَدْ قصرتم باركَ الله فيكم وهَدَاكم، فمُحَمَّدٌ ﷺ خليلُ اللهِ كما أن إبراهِيمَ خَليلُ الله أيضًا، وهذا الذي ذَكَرْنَاهُ هو الذي ذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ عن نفسه فقال: «إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا».

وإنما اتَّخَذَ اللهُ إبراهِيمَ خَلِيلًا؛ لأنه كان بنِعْمَةِ الله عليه، ومِنَّتِهِ، وتوفِيقِه له كان أهلًا لذلك، فإنَّ اللهَ تعالى امتَحَنَهُ بمِحَنٍ عظيمَةٍ حتى أخلَصَ قلْبَه للهِ.

ومن جملَةِ ما امتَحَنَهُ به أنَّه أمرَهُ بذَبْحِ ابنهِ إسماعِيلَ، وكان إسماعِيلُ أوَّلَ ولَدِهِ، وقد أتاهُ على كِبَرٍ، ولما بَلَغَ معَه السَّعْي وكان يمْشِي معَه، والإنسان إذا كان وَلَدُهُ قد بَلَغَ السَّعْيَ فليس طِفْلًا لا يُعبأ بِهِ، وليسَ كَبِيرًا انفَصَل عنْه، فإنَّ قَلْبَه يكونُ أشدَّ ما يكونُ به تَعَلُّقًا، ولهذا قال: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ [الصافات:١٠٢]، فابتَلاهُ اللهُ تعالى بهذا البلاءِ العَظِيمِ، حيثُ أمَرَهُ بأن يَذْبَحَ هذا الابنَ الذي ليسَ له غَيْرُهُ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في قِصَّتِهِ في سورة الصافاتِ: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات:١٠١-١٠٢]، وفي سورَةِ الصافَّاتِ قال: ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾، وفي سُورَتَي الذَّارِياتِ والحِجْرِ: ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر:٥٣، الذاريات:٢٨]،

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٥٣٢).

مما يدُلُّ على أن الغلامَينِ ليسا غُلامًا واحدًا، فالغلامُ العَلِيمُ هو إسحاقُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولم يَبْتَلِ اللهُ إبراهيمَ بذَبْحِهِ، وأما الغلامُ الحلِيمُ فإنه إسماعيلُ، وهو الَّذي ابْتَلَى اللهُ إبراهيمَ بالأمر بِذَبْحِهِ.

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾، وهذا الأمْرُ: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ ليس مشاورةً مِنْ إبراهِيمَ لابنِهِ إسماعيلَ، فإبراهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سوفَ يُنفِّذُ ما أمَرَ اللهُ بِهِ، ولكنه اختبارٌ لابنِهِ؛ لِيَنْظُرَ ماذا يكون جوابُ هذا الابنِ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ما أعْظَمَ هذا الجوابِ مِن الابنِ! ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولم يَجْزِمْ بكونِهِ مِنَ الصابرينَ، بل علَّقَ ذلِكَ بمشيئةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يكونُ له حالٌ عندَ نُزولِ البَلاءِ تَتَغَيَّرُ عن حالِهِ قبلَ نُزولِهِ، ولهذا قالَ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾، أي: استَسْلَمَ الأبُ وابنُه جَمِيعًا، أَسْلَمَا: الألِفُ ألِفُ التَّثْنِيَةِ، يعني: أسلَمَ إبراهيمُ وابنُهُ، واستَسْلَمَا لأمرِ اللهِ، ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: تَلَّ إبراهِيمُ ابنَهُ على جَبِينِهِ لأجلِ أن يَذْبَحَهُ، وإنما تَلَّه على الجَبينِ لئَلَّا ينظُرَ إلى وجْه ابنِهِ وهو يذْبَحُهُ، ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الصافات:١٠٣-١٠٤].

قولُهُ تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، زعم بعضُ المفَسِّرينَ أن الواو هنا زائدَةٌ إعْرَابًا، وليس كما زَعَمَ، وإنما هي مَعْطُوفَةٌ على جواب الشرطِ الَّذِي هو (لما)، يعْنِي: فلَمَّا أسلَمَا وتلَّه للجَبينِ جاءَ الفَرَجُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ للأبِ وابنِهِ، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾، فتكونُ هنا الجملَةُ معطوفَةً على جوابِ الشَّرْطِ، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ أي: يا إبراهِيمُ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

فلهذه المِحْنَةِ العظِيمَةِ ولغيرِهَا أيضًا مما امتَحَنَ اللهُ بِهِ إبراهيمَ الخَليلَ، صار إبراهِيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خَليلًا للهِ عَزَّوَجَلَّ.

ومن المحَنِ التي مَرَّتْ به أنه لما كَسَّرَ أصنامَ قومِه سِوَى كبيرِ الأصنام عزَمُوا على أن يحرِّقُوه بالنَّارِ، وفِعلًا جمَعُوا الحطَبَ وأضرَمُوا النيرانَ العظِيمَةَ وألْقَوْهُ في هذه النَّارِ، ولكن ربَّ النارِ جَلَّوَعَلَا الذي يقولُ للشيءِ: كُن فيكون، قال لهذِهِ النار: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، فكانَتِ النَّارُ المحرِقَةُ بردًا وسَلامًا على إبراهيمَ؛ لأن كلَّ شيءٍ يكونُ بأمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

وقد زَعَم بعضُ المفسِّرينَ أن النارَ في جميعِ أقطارِ الدُّنْيا صارَتْ في ذلِكَ اليومَ بارِدَةً، ولكن هذا ليس بصحيحٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا﴾، ومن المعْرُوفِ عند علماءِ النَّحْو أن النَّكِرَةَ إذا بُنِيَتْ على الضَمِّ عند النداءِ صارَتْ نكِرَةً مقْصودَةً، بمنزلَةِ المعرِفَةِ والعَلَمِ، وعلى هذا فيكونُ الخطابُ للنارِ المخصُوصَةِ التي أُلْقِي فيها إبراهِيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، قال بعضُ أهلِ العِلْمِ: لَولَا أنَّ اللهَ قالَ: ﴿وَسَلَٰمًا﴾، لكانَتْ بَرْدًا تُهْلِكُهُ من شِدَّةِ بُرودَتِها، ولكنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا قالَ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

في هذه القِصَّةِ عِبَرٌ عظِيمَةٌ تَدُلُّ على كَمالِ إبراهِيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وعلى كَمالِ صَبْرِهِ في ذاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قالَ الله لنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣]. ولهذا كانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْلَى النَّاسِ بإبراهِيمَ الذي ادَّعَى اليهودُ أنهم أولياؤُهُ، وادَّعَى النَّصارَى

أنهم أولياؤُهُ، فقالَ اللهُ تعالى مُكَذِّبهم: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

وفي هذه السورَةِ الكريمَةِ أمرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نَبيَّهُ محمدًا ﷺ وهو إمامُ الدُّعاةِ إلى اللهِ مِن هذِه الأُمَّـةِ، أمَرَهُ أن يَدْعُوَ إلى سبيلِ رَبِّهِ على ثلاثِ مراحِلَ: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، هذه ثلاثُ مراحِلَ، فيُدْعَى من لم يُجادِلْ ومَنْ لم يَسْتكْبِرْ بالحِكمَةِ لبيانِ الحَقِّ والصَّوابِ بدونِ أن يُلَحَّ عليهِ، أو تُقْرَنَ دَعوتُهُ بمَوعِظَةٍ؛ لأن مثلَ هذا سَوفَ ينْقادُ إلى الحِكْمَةِ بمُجَرَّدِ الدَّعْوَةِ إليه، فإن كان عندَهُ نوعٌ من التَّرَدُّدِ وعدَمِ التنفيذِ والقَبولِ فإنه يُدْعَى بالموعِظَةِ الحسنَةِ، التـي تَدْخُلُ قلْبَهُ وتُبَيِّنُ لَهُ الحقَّ ويتَّعِـظُ بذلك، فإن لم يمْتَثِلْ بهـذا وجادَلَ، فإنه يجِبُ أن يجادَلَ بالَّتِي هِي أحسنُ، ومَعْنى ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: التي هِي أحسَنُ في صِيغَةِ الدَّعْوَةِ، وفي بَيانِ طَريقِ الدَّعْوَةِ أيضًا؛ لأنه ليس مَعْنَى ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أن تَدْعُوه بِرِفْقٍ فقط، ولكن بِرِفْقٍ وبِبيانِ طُرُقِ الحقِّ على وجْهٍ يكونُ أحسنَ وأَبْيَنَ حتى يَقْبَلَ الحَقَّ.

ولكن إذا كان ظالمًا فَقَدْ ذكَـرَ اللهُ مرتَبَةً رابِعَةً وهـي قولُهُ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]، فمَنْ كان ظالمًا معانِدًا غيرَ قابِلٍ للحَقِّ ولا مقْتَنِعٍ بِهِ، فإن له مَرتَبَةً رابِعَةً، وهي: أن يُعامَلَ بما تَقْتَضِيهِ حالُهُ حسبَ ما وَجَّهَتْ إليه شَريعَةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

الدرس الثاني:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمـينَ، وأُصلي وأُسلِّم عَلَى نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النبيِّـين، وإمامِ المتَّقينَ، وعلى آلِه وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بعدُ**:

فقد قال الله تَعَالَى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

الخطاب فِي قوله: ﴿ ٱدۡعُ ﴾ للرَّسُول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، وقيل: إن الخطابَ لكلِّ مَن يصِحُّ أن يَتوَجَّهَ إليه الخطابُ، يعني النَّبِي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وغيره؛ لأنَّ القُرْآن نزلَ للأُمَّة جميعًا، فإذا قالَ الله: ﴿ ٱدۡعُ ﴾ فالخطاب لكل مؤمنٍ أن يدعوَ إِلَى الله.

واعلمْ أن الخطاب الموجَّه بمثل هَذِهِ الصيغةِ يَنقسم إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ:

القسم الأَوَّل: أن يكون فِي السياقِ ما يدلُّ عَلَى العمومِ.

والقسم الثَّاني: أن يكون دليلًا عَلَى الخصوصِ.

والقسم الثَّالث: أَلَّا يكونَ فيه دليل عَلَى الخصوصِ أو عَلَى العموم.

مثال الأَوَّل: قول الله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطَّلاق:١]، فهنا وجَّه الخطابَ أَوَّلًا إِلَى الرَّسُـول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، ثمَّ قال: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾، والخطابُ هنا للعمومِ، بدليل الجمعِ، وعلى هَذَا فيكون الخطاب الموجَّه للرَّسُـول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له وللأُمَّة بالنصِّ.

والثَّاني: أن يكون هناك دليلٌ عَلَى الخصوص، فهنا يَختصُّ الحكمُ بالرَّسُول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، ومثاله قوله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة:٦٧]، ومثل قولِه تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ [الشرح:١-٢] إِلَى آخرِ السُّورةِ. فهذا يَختصُّ بالرَّسُول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

القسم الثَّالث: ما يكون لا دليلَ فيه للخصوص أو العموم، مثل هَذِهِ الآية الكريمة: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾، فهل الخطاب موجَّه للرَّسُول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وحده أو لكل مَن يصحُّ خِطابُه؟

عَلَى قولينِ. واعلمْ أن الخلافَ شَبيه باللَّفظي فِي هَذِهِ المسألة؛ لأنَّ الَّذِينَ يقولون: إنه خاصٌّ بالرَّسُول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقولون: إن أُمته يَشمَلها الحكمُ باعتبار الأُسوة؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾ [الأحزاب:٢١].

فإذا قالَ قائل: ما الأصل: الخصوصيَّة أمِ العمومُ؟

قلنا: الأصلُ: العمومُ، ولهذا لما أراد الله عَزَّوَجَلَّ الخصوصيَّة نصَّ عليها فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأحزاب:٥٠].

والدَّلِيل عَلَى الخصوصِ قولُه: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ يعني أباح الله له أن يتزوَّج بالهبة.

إذن هَذَا يدلُّ عَلَى أَنَّه إذا لم يدلَّ دليلٌ عَلَى أن الحكمَ خاصٌّ بالرَّسُول وجبَ التعميمُ، وخذها قاعدةً: كل حُكمٍ ثَبَتَ للرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فهو ثابتٌ للأُمَّة إِلَّا بدليلٍ.

وعلى هَذَا فنقول: إن قوله تَعَالَى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يشمل الرَّسُول ﷺ وغيره.

قوله: ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ سبيل الله تَعَالَى: شَرْعُـه؛ لأَنَّه طريق يُوصل إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، ولأن الله تَعَالَى هُوَ الَّذِي شَرَعَـه، فيكون الشَّرعُ مضافًا إِلَى الله من وجهينِ: الوجه الأول أَنَّه موصل إِلَى الله، والوجه الثَّاني: أَنَّه هُوَ الَّذِي شَرَعَه لعبادِه وبيَّنه لهم حتَّى يصلوا إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ.

وإذا تأمَّلنا كلمةَ (سبيل) وجدنا أنها تُضاف أحيانًا إِلَى الله كما فِي هَـذِهِ الآية، وأحيانًا تضاف إِلَى الْمُؤْمِنِينَ كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥] فأضاف السبيل هنا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، فكيف نجمع بين الآيتينِ: مرَّة يُضاف إِلَى اللهِ، ومرةً يُضاف إِلَى الْمُؤْمِنِينَ؟

نقول: الجمع بينهما سهل، أُضيف إِلَى الْمُؤْمِنِينَ لأَنَّهم هم السالكونَ له، وأُضيف إِلَى الله لأَنَّه شَرَعه وهو مُوصِل إليه. ومثل ذلك كلمة الصراط، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣]، وقال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٦-٧] فمرةً أضافَ الصراط إِلَى اللهِ، ومرةً أضاف الصراط إِلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أنعمَ اللهُ عليهم، فكيف نجمع؟

نقول: أُضيف إِلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أنعمَ اللهُ عليهم لأَنَّهم هم الَّذِينَ سَلَكوه، وأُضيف إِلَى الله لأَنَّه شَرَعَه والموصل إليه.

وفي قوله: ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ دليل عَلَى وجوبِ الإخلاصِ؛ وذلك لأَنَّ بعض الدُّعاة لهم إراداتٌ من النَّاس، فهناك من يدعو إِلَى سبيل الله لكن انتقامًا من المدعوِّ أوِ انتصارًا لرأيِه، فهَذَا الَّذِي يدعو انتقامًا من المدعوِّ أو انتصارًا لرأيه لا يكون داعيًا إِلَى سبيلِ اللهِ. ويوجد أُناس الآن يدعون إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لكن يريدون أن ينصروا قولهم، ولذلك يَصعُب عليهم جدًّا أن يَتَرَاجَعوا عنه، ولو كانَ خِلاف الحقِّ؛ لأَنَّهم يريدون أن يكون الكلامُ لهم أو السُّلطة فِي الرأيِ لهم، وهذا لا شَكَّ مُجانِب للإخلاصِ تمامًا، فهَذَا يدعو إِلَى الهوى وليس يدعو إِلَى الهدى. وهناك إِنْسَان آخر يدعو انتقامًا من الشخص، فهَذَا أيضًا غلط.

فالواجب أن تدعو إِلَى سبيل اللهِ لإصلاحِ عبادِ اللهِ، وليس انتقامًا منهم، ولا انتصارًا لرأيك، ولكن لإصلاحهم، وإذا كانَ كذلك -أي لإصلاح الخلق- فسوف يَسلُك الإِنْسَان أقربَ الطرقِ إِلَى حصولِ المقصودِ.

وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ يَتبيَّنُ أَنَّه لا بُدَّ من العلمِ؛ وذلك أنه لا بُدَّ أن تعلمَ أنَّ ما تدعو إليه من شرعِ اللهِ، فتعلم أولًا ثمَّ ادعُ ثانيًا، أما أن تدعوَ إِلَى سبيلِ اللهِ وأنت لا تعلمُ سبيلَ اللهِ، فهذا لا يمكِن.

ولهذا قالَ الله تَعَالَى فِي آيةٍ أخرى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:١٠٨]: عَلَى علمٍ.

فلا بد أن يكون الإِنْسَان عالمًا بما يدعو إليه، وأنه حقٌّ، ومن شَريعة اللهِ،

أما مجرَّد أن يَنقدِحَ فِي ذِهنه أن هَذَا حقٌّ بدون دليلٍ شرعيٍّ، فإنَّه لا يجوز أن يتكلم؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

والشاهد من هَذِهِ الآية عَلَى تحريمِ الدعوةِ إِلَى اللهِ بدونِ علمٍ قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فلا بُدَّ أن يكون الإِنْسَان عالمًا بالشَّرعِ، فلو رأيتَ إِنسَانًا يُصَلِّي ولكنه لا يطمئنُّ فِي صلاتِه، فمثلًا يقول: سمع الله لمَن حمِده ربَّنا ولك الحمدُ، ثمَّ فورًا يسجد بدون أن يطمئنَّ، فهل يصح أن تقول له: إن صلاتك باطلة بدون علم؟

الجواب: لا يصحُّ؛ لأنَّه كيف تدعو إِلَى شيءٍ لا تدري عنه، لكن إذا كنت تعلمُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قالَ للذي كانَ يُصَلِّي ولكنه لا يطمئنُّ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»(١)، فحينئذٍ يكون عندك دليل، ويمكن أن تدعوَ إِلَى الله.

ولا بُدَّ أيضًا أن يكون الداعي عالمًا بحالِ المدعوِّ، وإلَّا فلا يجوز أن يتكلمَ، فلا بُدَّ أن تكون عالمًا بحال المدعو وأنه يَحتاج إِلَى دعوةٍ، وهل هو ممَّن عنده علمٌ أو ممن لَيْسَ عنده علم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، رقم (٦٢٥١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب: اقرأ ما تيسر معك من القُرآن، رقم (٣٩٧).

ودليل هَذَا قول النَّبي ﷺ لمُعاذٍ وقد بَعَثَه إِلَى أهل اليمنِ، قال: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ**»[١] فأخبره بحالهم من أجلِ أن يعرفَ كيـف يُخاطب هؤلاءِ؛ لأنَّ خطاب العالمِ لَيْسَ كخطابِ الجاهِل، ففي خطاب العالمِ لا بُدَّ أن يكون عندك قُدرة عَلَى مُجادلته؛ إذ إن العالمَ الَّذِي كانَ عَلَى باطلٍ لا يمكن أن يقبلَ أو يستقبلَ الدعوة بسهولةٍ؛ لأنَّ عنده علمًا، فتجده عندما تدعوه للحقِّ يجادل لإبطال الحقِّ وإحقاقِ الباطلِ الَّذِي كانَ عليه.

فلو أنك أردتَ أن تدعوَ نصرانيًّا إِلَى الدينِ الإسلاميِّ فإنك تحتاج أن تعرف أنَّه نصرانيٌّ، وأن عقيدته التثليث مثلًا، يقول: إن الله ثالث ثلاثة، فيُحتاج أن تعرفَ كيـف تردُّ عليه فيما لو احتجَّ عليك بباطلٍ، وإلَّا هُزمت، وهزيمةُ الداعـي إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ الذي بنى دعوتَه عَلَى غير علمٍ مصيبةٌ، ليست مصيبة عليه وحدَه، بل مصيبة عَلَى ما يدعو إليه من الدينِ، فلا بُدَّ أن تكونَ عالمًا بحالِ المدعوِّ.

وانظروا إِلَى قصة الرجل الَّذِي دخل والنبـي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ يخطب يوم الجُمُعَة فجلس، فهل دعاه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى أن يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ قبل أن يعلم حاله، أو لم يدعُه حتَّى عِلم بحاله؟

الجواب: لم يَدْعُهُ حتَّى عِلِم بحاله، ووجهُ ذلك أن الرجل لما دخل جلس، فقال له: «**أَصَلَّيْتَ؟**» قال: لا. قالَ: «**قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب من جاء والإمام يخطب صلى ركعتين خفيفتين، رقم (٩٣١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب التحية والإمام يخطب، رقم (٨٧٥).

ولو وجدتَ إِنْسَانًا يأكل فِي رَمَضَان فِي المَدِينَة النبويَّة فلا أُنكِر عليه من أوَّل الأمرِ؛ حتَّى أقول: أمسافر أنت؟ أو: أنت ممَّن يحِل له الفطرُ؟ لكن لو وجدت شخصًا من أهل البلد أعرِف أنه من أهل البلد، وأنه لا عُذرَ له فِي الفطر، فحينئذٍ أُنكِر عليه، وأُذكِّره لعله نسيَ.

وعجبًا من بعض العامَّة، يقولون: إذا رأيتَ إِنْسَانًا يأكل فِي رَمَضَان فلا تذكِّره؛ لأنَّ الرَّسُول ﷺ قال: «**مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ، فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ**»[1]. فما دام أن الله أطعمَه وسقاهُ فلا تَحرِمْه، ولا تقطعْ رِزقَه، بل دعْه يأكل يشرب! وهذا غلطٌ، فالواجب أن يذكِّر المؤمنُ أخاهُ؛ لأنَّ النَّبِي ﷺ لَمَّا سها فِي صلاتِه قال: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي**»[2].

فيجب عَلَى المؤمنِ أن يذكِّر أخاه، وهذا من باب التعاونِ عَلَى البرِّ والتقوى، أما قولُه: هَذَا رزق ساقه الله إليه، فدعْه يأكل ويشرب، فهَذَا غلط.

إذن قلنا: لا بُدَّ أن يكون الداعي عالمًا بما يدعو إليه، وثانيًا: أن يكون عالمًا بحالِ المدعوِّ؛ ليكونَ عَلَى بَصيرةٍ.

وكيف يدعو؟

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. هَذِهِ ثلاثة أوصاف للدعوةِ. وهل هِيَ أوصاف مُقترِنة، أو أوصاف مُرتَّبَة؟ يعني

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الصائم إذا أكل أو شرب ناسيًا، رقم (١٩٣٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب أكل النَّاسي وشربه وجماعه لا يفطر، رقم (١١٥٥).

(٢) أخرجه البخاري الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٤٠١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢).

هل بعضها فِي حالٍ وبعضها فِي حالٍ، أو هِيَ مُقْتَرِنة؛ يعني تدعو بحكمةٍ وموعظةٍ ومجادلةٍ؟

الجواب: الحال يقتضي أن تكون مُرَتَّبةً: أولًا بالحكمةِ ببيانِ الحقِّ، ودليلُه من الكِتَابِ والسُّنَّة، واعلمْ أنني أحب لكل داعيةٍ أن يقرِن دعوتَه بالدَّلِيل: أولًا: لبراءةِ الذمَّة، وثانيًا: ليطمئنَّ المدعوُّ؛ لأنَّ المدعوَّ إذا قيل له: هَذَا حرام، أو هَذَا واجب لِقَوْلِهِ تَعَالَى، أو لقول الرَّسُول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، فإنه يطمئنُّ بلا شَكٍّ، ويكون له حُجَّة عند الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا أمكنك أن تذكُرَ الدَّلِيلَ للمدعوِّ كانَ هَذَا خيرًا؛ لَمَا فيه من إبراءِ الذِّمَّة، وثانيًا: اطمئنان المدعوِّ، فهذا الرجل لَيْسَ عنده ردٌّ للدعوةِ، وليس عنده مجادلة، فيكفي أن تدعوه بالحكمة.

واعلمْ أن الحكمة كما قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]، فلو رأيتَ رجلًا يَستغيث بصاحبِ قبرٍ: يا سيدي، يا مولايَ، يا وليَّ اللهِ، أَغِثني، مثلًا، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، يستغيث بصاحبِ القَبرِ، ونَحْنُ نعلم أن الاستغاثة بصاحبِ القَبْر شِرك أكبرُ مُخرِج مِنَ المِلَّة، فهذا الَّذِي يستغيث بصاحب القَبْر نقول: لو متَّ عَلَى هَذَا لكنتَ من أصحابِ النَّارِ المخلَّدين فيها؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

فإذا رأيتَ رجلًا يستغيث بالقَبْر فإنك لا تأتي فورًا وتقول: أنت كافر، أنت مشرِك، قد حرَّم الله عليك الجنَّة، ولا يجوز أن تقول هكذا، وإن كانَ واقع الحال هُوَ ما ذكرتَ، لكن لا يجوزُ، فاذكرْ له الحقَّ، والحقُّ مُطابِق تمامًا للفِطرة، وقُلْ: يا أخي.

وقد يقول قائل: هل تقول لهذا الَّذِي يَستغيث بالقَبْر: يا أخي تعالَ استغِثْ باللهِ، أو لا تقول: يا أخي؟

فالجواب: يصحُّ أن تقولَ له: يا أخي، فعلى كل حالٍ هَذَا الرجلُ الَّذِي يستغيث بالقَبْرِ لا تظنَّ أنَّه يستغيث به وهو يعتقد أنَّه شِرك مُخرِج عن الإسلامِ، هَذَا إذا كانَ ينتسب للإسلام، فإذن يصح أن تقول: يا أخي باعتبار أنَّه يرى نفسه مسلمًا، وإن شئتَ فقلْ: يا أخي باعتبارٍ آخرَ، وهو باعتبار ما سيكون.

وإن شئتَ فقل: يا رجل -وتَسلَم من هَذِهِ الإشكالات- استغث بالله عَزَّوَجَلَّ كما قالَ الله تَعَالَى لنبيه ﷺ وأصحابه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩]، فالاستجابة مرتَّبة عَلَى الاستغاثةِ، والفاء تدل عَلَى الترتيب والتعقيب، فاستغِثْ باللهِ حتَّى يستجيبَ لك، وربُّك عَلَى كل شيء قدير، وهذا المخلوق الَّذِي أنت الآن تستغيثُ به هُوَ ميت هامِد، وربما تكون الأرضُ أكلتْه ولم يبقَ من جسدِه إلا عَجْبُ الذَّنَبِ[1]، ولا يَنفَعُك.

ثمَّ ترغِّبه فِي التَّوْحِيد. فهَذَا يَقبَل.

ولا يَقبَل إذا قلتَ: أنت مُشرِك، وهذا شِرك، ومَن أشركَ باللهِ حُرِّم عَلَى الجَنَّة، فالَّذِي وبَّخْتَه وأنكرتَ عليه بشدَّة لا يَقبَل فِي الغالبِ، لكن مَن أتيته بلطفٍ وموعظةٍ حَسَنةٍ قَبِل.

والموعظةُ الحسنةُ هل هِيَ بالصِّيغة أو بالكيفيَّة؟ بمعنى هل أنت تَسُوق له الأدلة من الكِتَاب والسُّنَّة عَلَى وجهٍ يقنع أو بالكيفيَّة؟

---

(١) العجْب بالسكون: العظم الذي في أسفل الصلب عند العجز. النهاية (عجب).

الجواب: بالأمرينِ جميعًا؛ بكيفيَّة السياق، وبأقرب ما يمكن أن يقتنعَ به، حتَّى لو ضربتَ له الأمثالَ، فافعلْ، فالله عَزَّوَجَلَّ يضرب الأمثال للَّذِينَ يَدْعون من دون الله، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت:٤١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ [الرعد:١٤] فالَّذِي يريد أن يشرب من الماء من النهرِ ويقول بيديه باسطَ يديه فإنه لا يبقى شيء من الماء في يده.

إذن هَؤُلاءِ الَّذِينَ يدْعـون من دون الله لا يستجيبون لهم إطلاقًا؛ لأنَّ هَذَا الَّذِي يريد أن يشربَ وقد بسطَ كفَّيه لا يمكن أن ينال ماءً.

المرتبة الثَّالثة إذا دعوناه بالحكمة ولم يفعلْ، وبالموعظةِ الحسنة ولم يفعلْ، فإننا نأتي إِلَى المجادلة؛ لأنَّ الَّذِي لا يَقبَل بالموعظةِ فسوف يُجادِل، فنجادله لكن بالتي هِيَ أحسنُ، وأقربُ طريقٍ يُوصِل إِلَى الحقِّ اتبعْه.

وأنا الآن أذكر مجادلةً وقعتْ بين إبراهيمَ الخليلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبين رجلٍ مشركٍ متمرِّدٍ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ﴾ الرجل: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] فإذا كانَ ربُّك يحيي ويميت فأنا أحيـي وأميت، إذنْ أنا ربٌّ كربِّكَ، فقال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨] فجادله بالتي هِيَ أحسنُ، جادله بأمر لا يتمكَّن من الردِّ عليه فيه، ولهذا قالَ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فِي الأوَّل ردَّ عَلَى إبراهـيمَ لما قالَ إبراهـيم: ربي الَّذِي يحيـي ويميت

فجادَلَ وقالَ: أنا أُحيي وأُميت، وهل هَذِهِ دعوى منه أَنَّه يحيي ويميت، أو أنه مُنزَّل عَلَى حال من الأحوال؟

الجواب: الظاهر أنَّه منزل عَلَى حال من الأحوال، وهُوَ أنه يُؤتَى إليه بالرجلِ الَّذِي استحقَّ القتل فلا يقتله، ويدَّعي أن هَذَا إحياء، وهو لَيْسَ إحياءً فِي الواقع، فالرجل حيٌّ من قبلُ، أو يُؤتَى إليه بالرجل لا يستحِق القتلَ فيقتله، فيقول: هَذَا إماتة، وهذا غير صحيحٍ، فهَذَا لَيْسَ إماتةً، لكنه فِعل سببٍ يَقتضي الموت، ولو شاء الله ألا يموتَ هَذَا الَّذِي قتل لم يمتْ، ألم تعلموا أن الدَّجَّال يأتيه الرجل الشابُّ ويقول: أَشهَد أنك الدَّجَّال الَّذِي أَخْبَرَنا عنك رسولُ اللهِ، فيقطعه قطعتينِ، ويمشي بينهما، ثمَّ يدعوه فيقوم يَتَهَلَّل وجهُه[1]، فمَن الَّذِي أحياهُ؟ الله عَزَّوَجَلَّ.

فالمهمُّ هَذَا الرجل قالَ بعض العُلَمَاء: إنه أراد بقولِه: أنا أُحيي وأُميت أنَّه يُؤتَى إليه بالرجلِ لا يستحقُّ القتلَ فيقتله، وادعى أن هَذَا إماتة، ويُؤتَى إليه بالرجل يستحقُّ القتلَ فيرفع عنه القتلَ، وادعى أن هَذَا إحياء، وقيل: إن هَذِهِ دعوى منه وليس يريد أن ينزلها عَلَى حال من الأحوال، يعني ادعى أنَّه يحيي ويميت، وعلى كلٍّ فإبراهيم عَدَلَ عن هَذَا الَّذِي يمكن أن يكون جدلًا إِلَى أمرٍ لا يمكن أن يتخلصَ منه، وهو أن الله يأتي بالشَّمْس من المشرق فأتِ بها من المَغْرِب، فلا يمكن أن يدعي أَنَّه يأتي بها من المَغْرِب؛ لأنَّ هَذَا أمر معلوم بالبداهةِ ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

ولهذا ينبغي للمجادِل أن يَسلُكَ أقربَ الطريقِ لإفحامِ الخَصم، ولا يتابعه؛

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم (٢٩٣٧).

لأَنَّه ربما إذا تابعتَه صعِد بك جبلًا لا تستطيع رُقِيَّه، لكن ائتِ بأمرٍ لا يتخلَّص منه، واعدِلْ عن جوابِه الَّذِي أراد الشُّبهة فيه حتَّى تقضيَ عليه نهائيًّا.

إذن حالنا بالنِّسْبَة لدعوة النَّاس تنقسم إِلَى ثلاثة أقسام:

الأول: الدعوة بالحكمة، **والثَّاني**: إذا لم يقتنع فإننا نعظه بترغيبه وترهيبه، **والثَّالث**: المجادلة، فإذا جادل فإننا نجادل بالتي هِيَ أحسنُ.

وهناك أمر رابعٌ لم يُذكَرْ فِي هَذِهِ الآيةِ، وهو إذا كانَ ظالمًا، فإذا كانَ ظالمًا فإننا نجالده ولا نُجادله؛ لِقَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦] فهَؤُلاءِ لا نجادلهم بالتي هِيَ أحسن، بل نجالدهم بالسيف؛ لأنَّهم معاندونَ.

فصارت الأقسام إذن أربعةً، ثلاثة ذُكرت فِي آيةٍ واحدةٍ، والرَّابع فِي آيةٍ أخرى.

نسأل الله تَعَالَى أن يجعلنا وإياكم من دُعاة الحقِّ وأنصاره، وأن يهب لنا منه رحمةً، إنه هُوَ الوهاب.

وإنني أدعو إخواني الداعينَ إِلَى اللهِ أن يَستعملوا الأسهلَ والأيسرَ، ولهذا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ: «**بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا**»(١). فكل شيءٍ يُرَغِّب النَّاسَ فِي الحقِّ اتبعْه، فأنت عَلَى خير.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (١٧٣٢).



سورة الإسراء

الدرس الأول:

بِسْمِ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى إِمَامِ المُتَّقِينَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد ابْتَدَأَ اللهُ سُورةَ الإسراءِ بقولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١] يُنزِّهُ رَبُّنَا عَزَّوَجَلَّ نفسَه عن كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ به لِأَنَّ معنى التسبيحِ التنزيهُ عن كُلِّ مَا لَا يليقُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، فأنت إِذَا قُلْتَ: سُبْحَانَ اللهِ. فالمعنى أنك نَزَّهْتَه عن كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ به جَلَّوَعَلَا؛ نَزَّهْتَه عن النقصِ، ونَزَّهْتَه عن العيبِ، ونَزَّهْتَه عن التعبِ، ونَزَّهْتَه عن كُلِّ نقصٍ.

وأكثرُ المُسْلِمِينَ يَقْرَؤُونَ (سُبْحَانَ اللهِ) ولكنهم لَا يعرفون مَعْنَاهَا، ولَكِنِ اعْلَمْ أَنَّ مَعْنَى التسبيحِ هُوَ التنزيهُ عن كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ من نقصٍ أو عيبٍ.

فَنَزَّهَ نفسَه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عن كُلِّ نقصٍ وعيبٍ فِي قولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾.

والإسراءُ بِمَعْنَى السيرِ لَيْلًا؛ كما قَالَ القائل[1]:

---

(١) هَذَا عجز بيت قاله خالد بن الوليد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كما فِي اللسان، مادة: سواء، وصدر البيت:

خِمْسًا إِذَا سارَ بِهِ الجِبْسُ بَكَى ....

.... عِنْدَ الصَّباحِ يَحْمَدُ القَومُ السُّرَى

أي: سيرَهُمْ لَيْلًا.

والمرادُ ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ محمدٌ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ.

واعْلَمْ أَنَّ وصفَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ بالعبوديةِ أشرفُ أَوْصَافِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنه عَبْدٌ ورسولٌ كُلِّفَ بالرسالةِ وَهِيَ من أشقِّ مَا يكونُ، وَمَعَ ذَلِكَ صَبَرَ وصَابَرَ واحْتَسَبَ حَتَّى أَظْهَرَهُ اللهُ، وللهِ الحمدُ.

وَقَدْ وَصَفَ اللهُ نَبِيَّهُ بعبدِه فِي عدةِ مواضعَ: منها عندَ إنزالِ القرآنِ فَقَالَ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١] وَفِي مقامِ التَّحدِّي فقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣] وَفِي مقامِ الرِّفْعَةِ والعلوِّ فَقَالَ جَلَّوَعَلَا فِي سورةِ النجمِ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠] وذلك لِأَنَّ العبوديةَ أشرفُ وصفٍ للإنسانِ، وَفِي هَذَا يقولُ العاشقُ فِي معشوقَتِهِ(١):

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهَا ... فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

لا تَدْعُنِي: يَعْنِي لَا تُكَلِّمْنِي، وَلَا تَقُلْ: يا فلانُ، إِلَّا بيا عَبْدَها، فَإِذَا قَدَّرْنَا أَنَّ اسمَ مَعْشُوقَتِه مريمُ فَنَدْعُوه ونقولُ: يا عبدَ مريمَ؛ لِأَنَّهُ -كما يقولُ- أشرفُ أسمائِه.

واعْلَمْ أَنَّ العبوديةَ نوعان: عامةٌ وخاصةٌ، فالعامةُ هِيَ عبوديةُ القدرِ، أي أَنَّ كُلَّ مخلوقٍ عَبْدٌ للهِ تَعَالَى من حيثُ القدرُ، فيقدِّرُ عَلَيْهِ مَا شَاءَ وَلَا يمكنُ أَنْ يتخلفَ

(١) البيت فِي نفح الطيب، للتلمساني (٢/ ١٩٣) بلا نسبة.

أَحَدٌ عما قَدَّرَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وعَلَى هَذَا فالكافرون عبادٌ للهِ قَدَرًا، يفعلُ بهم مَا شَاءَ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا يمكنُ أَنْ يُمانِعُوا.

واسْمَعْ إِلَى قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٤] إِذَا بلغت: يَعْنِي الروحَ، والحلقومَ: هَذَا مَجْرَى النفسِ، لِأَنَّ الروحَ تَصْعَدُ عندَ الموتِ مِنْ أسفلِ الإنسانِ إِلَى أعلَى بَدَنِه حَتَّى تخرجَ من فوقُ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة:٨٥-٨٧] لَا يمكنُ هَذَا، لَا يمكنُ لأيِّ إنسانٍ مهما بَلَغَ مِنَ القوةِ ومهما بَلَغَ مِنَ الجنودِ ومهما بَلَغَ مِنَ العتادِ أَن يَرُدَّ رُوحَه إِذَا بَلَغَتِ الحلقومَ.

إِذَنِ العبوديةُ القدريةُ عامةٌ لِكُلِّ الخلقِ، سَوَاءٌ كَانُوا مُؤْمِنِينَ أو كَافِرِينَ، وَاسْمَعْ قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] أي: ذليلًا حقيرًا أمامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الثانية: العبوديةُ الخاصةُ، وَهِيَ العبوديةُ الشرعيةُ، بِمَعْنَى أَنْ يَكُونَ الإنسانُ مُتَعَبِّدًا للهِ تَعَالَى بشريعَتِه، وَهَذِهِ خاصةٌ بالمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَخْلَصَهُم اللهُ عَزَّوَجَلَّ لعبادَتِه، وعَلَى هَذَا فالكافرُ بِهَذَا المَعْنَى لَيْسَ عَبْدًا للهِ؛ لِأَنَّ الكافرَ مُعَانِدٌ لا يَقْبَلُ أَنْ يَتَعَبَّدَ للهِ أَبَدًا.

وَهَذِهِ العبوديةُ الخاصةُ تنقسمُ أيضًا إِلَى قِسْمَيْنِ: عبوديةٍ خاصةٍ عامةٍ للمؤمنين جَمِيعًا، وعبوديةٍ أخصَّ وَهِيَ عبوديةُ الرسلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ.

فأَخَصُّ العبوديةِ الخاصةِ هِيَ عبوديةُ الرسلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ؛ لِأَنَّ أَعْبَاءَ الرسالةِ وأَتْعَابَ الرسالةِ ومَشَقَّةَ الرسالةِ لَيْسَتْ بالأمرِ الهَيِّنِ، وانظُرْ إِلَى قولِ

اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان:٢٣] ثُمَّ قَالَ بعدها: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان:٢٤] معناه أَنَّهُ سيكونُ عَلَيْكَ أَذًى، وسيكونُ عَلَيْكَ تَعَبٌ، فاصبرْ لِهَذَا، فسيكونُ عَلَيْكَ أَذًى وتَعَبٌ بإنزالِ هَذَا القرآنِ عَلَيْكَ فاصْبِرْ، وَلَمْ يقل اللهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ فَاشْكُرْ نِعْمَةَ اللهِ، بل قَالَ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ إشارةً إِلَى أَنَّهُ سَيَلْقَى مِنَ الأَذَى بالقولِ وبالفعلِ فلْيَصْبِرْ.

ولَقَدْ صَبَرَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فَقَدْ كَانَ ساجدًا عندَ الكعبةِ وَكَانَ حَوْلَهُ مَلأٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ بعضُهُمْ لبعضٍ: ألا ينتدبُ أَحَدٌ منكم ويَأْتِي بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فلانٍ -والسَّلَى: الدَّمُ والفَرْثُ والأشياءُ المستقذَرةُ- فيضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ؟ فانتدبَ أَشْقَاهَا -والعياذُ باللهِ- وذَهَبَ وأَتَى بِسَلَى الجزورِ بِدَمِها وفَرْثِها ووَضَعَه عَلَى محمدٍ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وَهُوَ ساجدٌ، حَتَّى جَاءَت ابنتُه فاطمةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وأَزَالَتْ هَذَا عَنْ ظَهْرِه[1]، أتجدون أَذِيَّةً فَوْقَ هَذِهِ؟ عندَ بيتِ اللهِ الآمنِ الَّذِي لو جَاءَه أعرابيٌّ لَكَانَ آمِنًا عندَ الكعبةِ، لَكِنَّ محمدًا صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ لم يكنْ آمِنًا عندَ الكعبةِ مِنْ أَجْلِ عِنَادِ قريشٍ، ولَكِنَّه صَبَرَ، لِأَنَّهُ عَبْدٌ للهِ بالمعنى الحقيقيِّ.

نعودُ إِلَى الآيةِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء:١] ليلًا: لَيْسَ فِي الآيةِ بيانٌ فِي أيِّ سَنَةٍ، لِأَنَّ المقصودَ القضيةُ لَا زَمَنُها، ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ مسيرةَ شهرين أو شهرٍ فِي ليلةٍ واحدةٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

وقولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يَعْنِي بذلك مسجدَ الكعبةِ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أَتَاهُ المَلَكُ وَهُوَ نائمٌ فِي الحِجْرِ[١].

ومِنَ الأخطاءِ الشائعةِ قولُهم في حجرُ إسماعيلَ: إن إسماعيلَ هُوَ الَّذِي وَضَعَ هَذَا الحجرَ، لَكِنَّ القولَ بأنه حجرُ إسماعيلَ كَذِبٌ، مَا هُوَ حجر إسماعيلَ وَلَا عَلِمَ به إسماعيلُ، وسَبَبُ هَذَا الحجرِ أَنَّ قريشًا لما هُدِمَت الكعبةُ أَرَادَت أَنْ تَبْنِيَها، فَنَقَصَت النفقةُ، ولم يكنْ عِنْدَهم ما يَكْفِي مِنَ المالِ، فَتَشَاوَرُا فيما بينهم: ماذا نعملُ؟ فقالوا: نَقْطَعُ مِنَ الكعبةِ جَانِبًا ونَدَعُ جَانِبًا، لَكِن أي الجوانبِ أحقُّ أَن يُقطَعَ: الجانبُ الَّذِي فِيهِ الحَجَرُ الأسودُ أو الجانبُ المخالفُ[٢]؟ لَا شَكَّ أَنَّهُ المخالفُ، فَاقْتَطَعُوا هَذَا وحَجَرُوه مِنْ أَجْلِ أَنْ يطوفَ الناسُ مِنْ وَرَائِهِ، وبَقِيَ هَكَذَا.

وَقَدْ حَدَّثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ يومًا مِنَ الأيام زَوْجَه الصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ أحبَّ نِسَائِه إليه عائشةَ أُمَّ المؤْمِنِينَ فَقَالَ: «**لَوْلَا أَنَّ النَّاسَ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يُقَوِّي عَلَى بِنَائِهِ، لَكُنْتُ أَدْخَلْتُ فِيهِ مِنَ الحِجْرِ خَمْسَ أَذْرُعٍ، وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ، وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ**»[٣]، ولَكِنْ مَنَعَه مِنْ هَذَا أَنَّ قُرَيشًا كانوا حَدِيثِي عَهْدٍ بكفرٍ، ولو غُيِّرَتِ الكعبةُ عما كَانَتْ عَلَيْهِ لَصَارَ فِي ذَلِكَ فتنةٌ ولَارْتَدَّ بَعْضُ الناسِ عَنِ الدينِ كما ارْتَدَّ بَعْضُ الناسِ حِينَ غُيِّرَتِ القبلةُ، فتركها النَّبِيُّ ﷺ دَرْءًا للفتنةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، رقم (٣٨٨٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب فضل الكعبة وبنيانها، رقم (١٥٨٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم (١٣٣٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من ترك بعض الاختيار، مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا في أشد منه، رقم (١٢٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم (١٣٣٣).

وَكَانَ ذَلِكَ -والحمدُ للهِ- هُوَ المناسبَ تمَامًا، أرأيتم لو بُنِيَت عَلَى قواعدِ إبراهيمَ وَكَانَ لها بابانِ لاصقانِ بالأرضِ يدخلُ الناسُ من بابٍ ويخرجونَ من بابٍ، وكُلّها مسقوفةٌ، ماذا يَحْصُلُ مَعَ جهلِ الناسِ اليومَ؟ يحصُلُ الموتُ، ولكَانَ الناسُ يَتزَاحَمُونَ عَلَى دُخُولِها مِنْ هَذَا البابِ لِيَخْرُجُوا من البابِ الآخرِ، مَعَ كَوْنِها مسقوفةً والأنفاسُ تتصاعدُ والأجسامُ تَزْدَحِمُ، ويَهْلِكُ الناسُ، لَكِنْ بَقِيَت -والحمدُ للهِ- عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ وَصَارَ لها الآنَ بَابَانِ، وهما بَابَا الحجرِ، والناس يدخلون ويخرجون بِدُونِ مَشَقَّةٍ وبِدُونِ تَعَبٍ.

وفي عهدِ عبدِ اللهِ بْنِ الزُّبيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين كَانَ خليفةً عَلَى الحجازِ، وأَمِنَ الناسُ، ورَسَخَ الإيمانُ فِي قلوبِهم، أَرَادَ أَن يُحقِّقَ مَا قَالَه النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فَهَدَمَ الكعبةَ وبَنَاهَا عَلَى قواعدِ إبراهيمَ، فأَدْخَلَ مَا كَانَ منها مِنَ الحِجْرِ، ولما حَصَلَت فتنةُ الحَجَّاجِ -وَهُوَ أَمِيرٌ لبَنِي أُمَيَّةَ- واسْتَوْلَى عَلَى مكةَ هَدَمَ الكعبةَ الَّتِي بَنَاهَا عبدُ اللهِ بْنُ الزبيرِ، وأَعَادَهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ.

ولما تَوَلَّى هَارُونُ الرشيدُ أَرَادَ أَنْ يُعِيدَهَا عَلَى قواعدِ إبراهيمَ، فاسْتَشَارَ الإمامَ مَالِكًا رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَالَ له الإمامُ مالكٌ: نَشَدْتُكَ اللهَ يَا أَمِيرَ المُؤمنِينَ أَلَّا تجْعَلَ هَذَا البَيْتَ أُلْعُوبَةً للملوكِ، لَا يَشَاءُ أَحَدٌ إِلَّا نَقَضَه وبَنَاه، فتذهبُ هَيْبَتُه من صُدُور النَّاسِ[1]. وتُرِكَتْ حَتَّى الآنَ، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَزِيدَها شَرَفًا وتعظيمًا.

إِذَنْ، قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي مِنَ مسجد الكعبة، وَقَدْ جَاءَ

(١) انظر شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، لأبي الطيب الفاسي (١/ ١٣٦)، وتاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، لابن الضياء (ص:١١٢).

فِي بَعْضِ الرواياتِ أَنَّهُ أُسْرِيَ به مِنْ بَيْتِ أُمِّ هَانِئٍ[1]، والجمعُ بينهما كما قَالَ الحافظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] أَنَّهُ كَانَ فِي أولِ الليلِ نائمًا هُنَاكَ ثُمَّ انتقلَ إِلَى الحِجْرِ ونَامَ فِيهِ وأُسْرِيَ به مِنَ الحِجْرِ إِلَى المسجدِ الأقصى الَّذِي نَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُنْقِذَه مِنْ بَرَاثِنِ اليهودِ حَتَّى يحُلَّه المُسْلِمُونَ بإِذْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وما ذَلِكَ عَلَى اللهِ بعزيزٍ.

أُسْرِيَ بِهِ فِي ليلةٍ إِلَى المسجدِ الأقصى واجْتَمَعَ بالأنبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأَشْرَفُهم إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكُلُّهم ائْتَمُّوا بمحمدٍ ﷺ.

ورسولُ اللهِ محمدٌ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ آخِرُهم، وَمَعَ ذَلِكَ تَقَدَّمَهم فِي الصلاةِ؛ لِأَنَّهُ أفضلُهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، حَتَّى إِنَّ اللهَ أَخَذَ عَلَى النَّبِيِّينَ ميثاقًا غليظًا أَنَّهُ إِنْ بُعِثَ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لما مَعَهُمْ لَيُؤْمِنُنَّ به ولَيَنْصُرُنَّهُ، فَأَعْطَاه اللهُ الميثاقَ عَلَى هَذَا، وَلِهَذَا لو أَنَّ الأنبياءَ وُجِدُوا فِي عهدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ لَكَانُوا مِنْ أَصْحَابِه، ولَكَانُوا أَتْبَاعًا لَهُ؛ لِأَنَّهُ إمامُهم وأشرفُهم صَلَوَاتُ اللهِ وسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

اللَّهُمَّ أَدْخِلْنَا فِي شفاعةِ نَبِيِّنَا، اللَّهُمَّ أَدْخِلْنَا فِي شفاعةِ نَبِيِّنَا، اللَّهُمَّ أَدْخِلْنَا فِي شفاعةِ نَبِيِّنَا.

ثم عَرَجَ به جبريلُ الأمينُ، وَهُوَ أشرفُ الملائكةِ، وأمينُ اللهِ عَلَى وَحْيِه، وواسِطَتُه بينه وبين رُسُلِه، عَرَجَ به إِلَى السماواتِ، فصَارَ يَعْرُجُ به سَمَاءً سَمَاءً إِلَى السابعةِ، ورَأَى بَعْضَ الرسلِ فِي السماواتِ، فَكَانَ يسلمُ عَلَيْهِمْ فيَرُدُّونَ عَلَيْهِ، يردون

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل السجود، رقم (٨٠٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٧/ ٢٠٤).

السلامَ ويقولونَ: «**مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ**»، إِلَّا إبراهيمَ قال: «**مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ**»؛ لِأَنَّ إبراهيمَ أبوه، كلهم يَشْهَدُون للنبيِّ ﷺ بالنبوةِ والصلاحِ، وواللهِ إنا لنشهدُ بذلك؛ أَنَّهُ نبيُّ اللهِ ورسولُ اللهِ وأصلحُ عبادِ اللهِ.

وَفِي هَـذِهِ الليلةِ فَـرَضَ اللهُ عَلَيْهِ الصلاةَ، فلم تُفْـرَضِ الزكاةُ وَلَا الصيامُ وَلَا الحجُّ، بل فُرِضَتِ الصلاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنَ اللهِ إِلَى رسولِه بِدُونِ واسطةٍ، وَفِي أَعْلَى مكانٍ عَلِمْنَا وَصَلَه البشرُ، وَفِي أشرفِ ليلةٍ كَانَتْ للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، انظُرْ كيفَ فُرِضَتِ الصلاةُ مِنَ اللهِ إِلَى الرَّسُولِ مباشرةً! ثَانِيًا: فِي أَعْلَى مكانٍ وَصَلَه البشرُ فيما نعلمُ، ثَالِثًا: فِي أشرفِ ليلةٍ للرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ.

وفُرِضَتْ خَمْسِينَ صلاةً فِي اليومِ والليلةِ، فما كَانَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ إِلَّا أَنَّهُ رَضِيَ واسْتَسْلَم.

وهنا يَصْدُقُ قولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾؛ اسْتَسْلَم لِأَنَّهُ عَبْدٌ ورَضِيَ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيْهِ وعَلَى أُمَّتِه خمسون صلاةً، اللهُ أكبرُ! حكمةٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ولما نَزَلَ مَـرَّ بموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وَكَانَ موسى قَدْ عَالَجَ بَنِـي إسرائيلَ، وبَنُو إسرائيلَ مِنْ أَشَدِّ بني آدمَ عُتُوًّا واستكبارًا، وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَرَى مَعَايِبَهم فارْجِعْ إِلَى كتابِ (إغاثةِ اللهفانِ) لابْنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَجِدِ العَجَبَ العُجَابَ مِنْ هَذِهِ الأمةِ الغَضَبِيَّةِ اليهوديةِ.

موسى قد عَالَجَ بني إسرائيلَ ورَأَى من عِنَادِهِمْ واستكبارِهم، فلما مَرَّ النبيُّ ﷺ بِمُوسَى أَلْقَى اللهُ عَلَى لسانِ موسى أَنْ يسأَلَ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**بِمَ أُمِرْتَ؟ قَالَ:**

أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ»، فقال موسى: «**إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ**». فرجع النَّبِيُّ ﷺ بمشورةِ موسى إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّ اللهَ فوقَ كُلِّ شَيْءٍ، رَجَعَ إِلَى اللهِ وسأله التخفيفَ فوَضَعَ عنه إِلَى أَنِ اسْتَقَرَّت الفريضةُ عَلَى خمسِ صلواتٍ[1]، لكنها والحمدُ للهِ خَمْسٌ عن خمسين، بِمَعْنَى أَنَّنَا إِذَا صَلَّيْنَا خَمْسَ صلواتٍ فكأنما صَلَّيْنَا خمسين صلاةً، لَيْسَ من بابِ أَنَّ الحسنةَ بعَشْرِ أمثالِها؛ لِأَنَّ هَذَا فِي كُلِّ العملِ الصالحِ الحسنةُ بعَشْرِ أمثالِها، لَكِنْ مِنْ بَابِ أَنَّا كَأَنَّا صَلَّيْنَا خمسين بالفعلِ.

فمثلًا صلاةُ الفجرِ عَشْرٌ، فَإِذَا صَلَّيْنَاها فكأنما صَلَّيْنَا عَشْرَ مَرَّاتٍ، فهن خمسٌ بالفعلِ وخمسون فِي الميزانِ.

ثم نَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ ولما أَصْبَحَ حَدَّثَ الناسَ بِهَذَا الحديثِ؛ لِأَنَّهُ مأمورٌ أَن يُبَلِّغَ، فاتخذت قريشٌ مِنْ هَذَا فرصةً لِتَكْذِيبِه، وقالوا: هَذَا محمدٌ يقولُ: إِنَّهُ وَصَلَ بيتَ المقدسِ ورَجَعَ فِي ليلةٍ، وَنَحْنُ لَا نفعلُ ذَلِكَ إِلَّا فِي شهرين، هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كاذبٌ.

فاتخذوا مِنْ هَذَا فرصةً لِأَنَّ العدوَّ يتخذُ فرصةً مِنْ كُلِّ مَا يريدُ أَن يكيدَ بِهِ، وذَهَبُوا إِلَى أَبِي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لأَنَّهُمْ يعلمونَ أَنَّ أخصَّ الناسِ به أبو بكرٍ، وقالوا له: إِنَّ صاحبَك يقولُ كذا، فَقَالَ: إِنْ كَانَ قد قَالَ ذَلِكَ فَهُوَ صادقٌ. فاللَّهُمَّ ارْضَ عَنْهُ، ومِنْ ذَلِكَ اليومِ سُمِّيَ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، اللَّهُمَّ أَرِنَا وَجْهَه فِي جناتِ النعيمِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، رقم (٣٦٧٤).

انتهت القضيةُ، وهنا نَسْأَلُ: هل للمعراجِ وقتٌ معلومٌ أو لا؟

الجواب: لَيْسَ لَهُ وقتٌ معلومٌ فِي السَّنَةِ وَلَا فِي الليلةِ وَلَا فِي الشهرِ، وَلِهَذَا اختلف المؤرخون: هل هُوَ قَبْلَ الهجرةِ بثلاثِ سنين، أو بسنةٍ ونصفٍ، أو بستةِ أشهرٍ، إِلَى أقوالٍ متعددةٍ؛ لِأَنَّ الناسَ فيما قَبْلُ كانوا أُمِّيِّينَ لَا يَعْتَنُونَ بِهَذِهِ الأمورِ، فلِذَلِكَ لم تكنِ الليلةُ معلومةً وَلَا الشهرُ معلومًا وَلَا السَّنَةُ معلومةً.

وبذلك نعرِفُ جهلَ كثيرٍ مِنَ الناسِ اليومَ حيثُ يقيمون احتفالًا ليلةَ السابعِ والعشرينَ مِنْ رَجَبٍ يَدَّعُونَ أنها ليلةُ المعراجِ، فيقيمون احتفالًا ويقيمون عطلةً فِي بَعْضِ البلادِ عَلَى غَيْرِ أساسٍ.

والمعراجُ أقربُ مَا يكونُ للصِّحَّةِ -وَلَا نستطيعُ أَنْ نجزِمَ- أَنَّهُ فِي ربيعِ الأولِ، لَا فِي رجبٍ، لَكِنِ اعْتَادَ الناسُ أنه كان فِي رجبٍ، فيقيمون الاحتفالَ، ومشَوا عَلَى هَذَا، لَكِنْ بِدُونِ بَيِّنَةٍ.

فالاحتفالُ ليلةَ سَبْعٍ وعشرينَ بالمعراجِ لَا أساسَ لَهُ دينًا وَلَا أساسَ لَهُ تاريخيًّا، لَا هَذَا وَلَا هَذَا، والصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمْ يُقِيمُوا عيدًا للمعراجِ، فما بَالُنَا نَحْنُ الخالفون المخالفون فِي كثيرٍ مِنَ الأمورِ، مَا بَالُنَا نَحْنُ نقيمُ احتفالًا لأمرٍ لَا نعلمُ أَنَّهُ وَاقِعٌ فِي هَذِهِ الليلةِ، ونعلمُ أَنَّ الصحابةَ لم يقيموه! ولَكِنْ هذا من الجهلِ واستغلالِ عقولِ البسطاءِ مِنَ الناسِ، وإلهائِهم عما كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يقوموا به مِنَ العباداتِ الصَّحيحةِ، فصاروا يُطَبِّلُونَ ويُزَمِّرُونَ ويجعلونَ أعيادًا فِي غَيْرِ مناسبةٍ.

والمسجدُ الأقصى قَدْ بَارَكَ اللهُ حَوْلَهُ لِأَنَّ أكثرَ أنبياءِ بني إسرائيلَ فِي ذَلِكَ المكانِ، وَهَذِهِ بركةٌ؛ أَن يوجدَ فِي الأمكنةِ أنبياء أو رُسُل، وَبَعْدَ محمدٍ ﷺ وُجد فِي

الأمكنةِ علماء؛ لِأَنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، فبَارَكَ اللهُ حَوْلَهُ بما جَعَلَ فِيهِ مِنَ النبواتِ والرسالاتِ، وَهَذِهِ أعظمُ مِنْ بَرَكَةِ الثمارِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي: لِنُرِيَ النَّبِـيَّ ﷺ مِنْ آياتِنَا، و(مِـن) هنا للتبعيضِ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تعرفَ أَنَّ (مِن) للتبعيـضِ فاجعلْ مَكَانَها (بعض) فإنِ استقامَ الكلامُ فهِيَ للتبعيضِ، إِذَنْ ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي بَعْضَ آياتِنَا.

وَقَدْ رَأَى النَّبِـيُّ ﷺ مِنْ آياتِ اللهِ الكبرى؛ كما قَالَ عَزَّوَجَلَّ فِي سورةِ النجمِ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨] رَأَى آياتٍ عظيمةً، لو لا أَنَّ اللهَ تَعَالَى ثَبَّتَه مَا ثَبَتَ، فيَرَى ملكوتَ السماواتِ، ويَرَى الأنبياءَ، ويَرَى سِدْرَةَ المنتهى، ويَرَى أشياءَ مَا يستطيعُ الإنسانُ أَنْ يتصورَها، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَرَاها واقعًا، لَكِنَّ اللهَ ثَبَّتَه.

واعْلَمْ أَنَّ سورةَ النجمِ أَوَّلُها فِي المعـراجِ، وسورة الإسراءِ أَوَّلُها فِي الإسراءِ، وبينهما فـرقٌ، فالإسراءُ انتقالٌ مِنْ مَكَّـةَ إِلَى بيتِ المقدسِ والمعراجُ انتقالٌ مِنْ عَالَمِ الأرضِ إِلَى عَالَمِ السماءِ.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي سـورةِ النجمِ: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٦-١٨] البصرُ مَا زَاغَ، يَعْنِـي مَا رَأَى الشَّيْءَ عَلَى خلافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ مَا تجاوزَ الأمرَ الَّذِي أُمِرَ أَنْ يَنْظُرَ إليه مِنَ الهيبةِ والعظمةِ فِي ذَلِكَ المكانِ.

بَعْضُ الناسِ الآنَ إِذَا دَخَلَ البيتَ قَامَ يُقَلِّبُ بصرَه فِي السقفِ، وفِي الجدارِ، وفِي الفراشِ، وفِي البابِ، وَهَذَا قد يقالُ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الأدبِ، فالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ مُتَأَدِّبًا غايةَ التَّأَدُّبِ حِينَ رَأَى تِلْكَ الآياتِ العظيمةَ.

قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ الضميرُ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾ يعودُ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ السميع لكلِّ صوتٍ؛ قوْلًا كَانَ أو غَيْرَ قَوْلٍ، البصير لكلِّ مَرْئِيٍّ، فَقَدْ أَحَاطَ بكُلِّ شَيْءٍ سَمْعًا وبصرًا عَزَّوَجَلَّ.

فإِيَّاكَ أَنْ تُسْمِعَ رَبَّكَ مَا لَا يَرْضَى منك، وإياك أَنْ تُرِي رَبَّكَ مَا لا يَرْضَى منك؛ لِأَنَّهُ سميعٌ بأقوالِك، بصيرٌ بأفعالِك، عليمٌ بأحوالِك. نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعَامِلَنا جميعًا بعَفْوِه، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قدير.

وَهَذَا مَا أَرَدْتُ أَنْ أذكُرَه فيما يتعلقُ بِهَذِهِ الآيةِ الكريمةِ، وكلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يُحِيطُ أَحَدٌ به، فمهما بَلَغَ المفسرون مِنَ العلمِ والذكاءِ والاستنباطِ فلن يَبْلُغُوا كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولِذَلِكَ إِذَا راجعتَ كتبَ التَّفْسِيرِ ومشاربَ العلماءِ وَأَنَّ كُلَّ واحدٍ منهم أَخَذَ بناحيةٍ؛ عَلِمْتَ عظمةَ القرآنِ الكريمِ، وَأَنَّهُ لَا أَحَدَ يُدْرِكُ غايةَ هَذَا الكتابِ العزيزِ، وَهَذَا ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

وصلى الله وسلَّم عَلَى نبينا مُحَمَّد، خاتم النبيين، وإمامِ المتقينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ.



الدرس الثاني:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، بلغَ الرسالةَ، وأدى الأمانةَ، ونصحَ الأمةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَن تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وأسألُه تَبَارَكَوَتَعَالَى أن يُميتَنا وإياكُم على ملتِه، وأن يحشرَنا في زمرتِه، إنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:١٢-١٧].

قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ اعلمْ أنَّ (جعلَ) يتعدَّى أحيانًا إلى مفعولٍ واحدٍ، ويتعدَّى أحيانًا إلى مفعولينِ، فإن تعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ فإنهُ يكونُ بمعنَى (خلَقَ)، وإن تعدَّى إلى مفعولينِ فإنهُ يكونُ بمعنى (صيَّر).

فمِنَ الأولِ قولُه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]. فإن (جعلَ) مُتعدٍّ إلى مفعولٍ واحدٍ، فيكونُ بمعنَى (خلقَ).

ومنَ الثاني ما نحنُ فيهِ من هذهِ الآيةِ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾، فـ(جعلَ) هنا متعدٍّ إلى مفعولينِ: الأولُ: الليلُ والنهارُ، والثاني: آيتينِ، وتكونُ بمعنَى (صيَّر).

ومنْ ذلكَ أيضًا قولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]، فـ(جعل) هنا بمعنى (صيَّر) وليسَ بمعنَى (خلقَ) كما قالتْهُ الجهميَّةُ أهلُ التعطيلِ.

إذنِ المعنى: صيَّرنَا الليلَ والنهارَ آيتينِ، أي: علامتينِ مِن آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ التي يتبينُ بها كمالُ قدرتِه وسلطانِه وحكمتِه ورحمته؛ لأن جميعَ المخلوقاتِ كلها آياتٌ تدلُّ على خالِقها عَزَّوَجَلَّ وعلى ما لَهُ منَ الحكمةِ والعلمِ والقدرةِ، ويقولُ الشاعرُ[1]:

فيَا عَجَبًا كَيفَ يُعصَى الإلَهُ ... أمْ كيفَ يَجحدُهُ الجاحدُ

وفي كُلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ ... تدلُّ على أنهُ واحدُ

ففي الليلِ والنهارِ آياتٌ من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وجعلَ اللهُ الليلَ والنهارَ نفسَهما آيتينِ.

قولُه تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ آيةُ الليلِ هنَا القمرُ؛ لأنهُ لا يتبينُ ولا يكونُ سلطانُه إلا في غيابِ الشمسِ، أما معَ وجودِ الشمسِ فلا سلطانَ لهُ ولا نورَ لهُ، ولهذا قالَ: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ وهيَ الشمسُ.

ولذلكَ كانَ نورُ القمرِ مُستفادًا مِن نورِ الشمسِ، وانظرْ إليهِ في أولِ الشهرِ وفي آخرِ الشهرِ كيفَ يكونُ نورُه ضعيفًا؛ لأنهُ يَقربُ منَ الشمسِ، فتضعفُ المقابلةُ، فإذا ضعفتِ المقابلةُ قلَّ النورُ، وانظرْ إليهِ في وسطِ الشهرِ تجدُ أنهُ ممتلئٌ نورًا؛ لأنهُ

(١) من شعر أبي العتاهية. الأغاني (٤/ ٣٩).

يكونُ مُقابِلًا للشمسِ تمامَ المقابلةِ، فتتسلطُ أضواءُ الشمسِ على جِرمِ القمرِ، فيمتلئُ نُورًا، وذلكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ؛ كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يس:٣٨-٣٩]. العُرجونُ يعني عِذْقَ النخلةِ القديمَ الملتويَ، لهذا يكونُ القمرُ مُقوسًا.

جعلَ اللهُ الليلَ والنهارَ آيتينِ، فمحونَا آيةَ الليلِ وجعلنَا آيةَ النهارِ مبصرةً لماذا؟ وما الحكمةُ؟ قالَ: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أن تَطلبُوا الفضلَ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وذلكَ حينَ تكونُ آيةُ النهارِ وحينَ يبدُو النهارُ فإن الناسَ يَبدءُونَ بفضلِ الله عَزَّوَجَلَّ بطلبِ الرزقِ كلٌّ بما يتيسَّر.

ومنْ نعمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن اللهَ جعلَ للناسِ رغباتٍ مختلفةً حتى تتمَّ الأمورُ؛ لأنهُ لوِ اتفقتْ رغبةُ الناسِ على عملٍ معينٍ لتعطلتْ بقيةُ الأعمالِ، لكن تجدُ هذا يحبُّ الزراعةَ، وآخرُ يحبُّ التجارةَ، وآخرُ يحبُّ الوظيفةَ في شيءٍ معينٍ. وفي الدراسةِ هذا يريدُ كليةَ الشريعةِ، وهذا كليةَ الحـديثِ، وهذا كليةَ الآدابِ.. إلى آخرِه؛ حتى تتمَّ بِنيةُ المجتمعِ.

قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣٢].

قولُه: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ هذا إذا كانَ آية النهارِ، وقولُه: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ في آيةِ الليلِ؛ لأننا نعلمُ أن عددَ السنينَ والحسابَ بالقمرِ؛ بالأشهرِ الهلاليةِ.

واعلمْ أن الأشهرَ في كتابِ اللهِ يومَ خلقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ هيَ الأشهرُ الهلاليةُ، وهيَ التي جعلَها اللهُ مواقيتَ للناسِ والحجِّ؛ كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ كلِّ الناسِ؛ المسلمينَ وغيرِ المسلمينَ، ﴿وَٱلْحَجِّ﴾ أيضًا؛ فهيَ مواقيتُ للحجِّ.

وقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة:٣٦].

والاثنا عشرَ هيَ المحرمُ، صفرٌ، ربيعٌ الأولُ، ربيعٌ الثاني، جُمادَى الأولى، جمادى الثانيةُ، رجبٌ، شعبانُ، رمضانُ، شوالٌ، ذو القَعدةِ، ذو الحجةِ، والجميعُ اثنا عشرَ شهرًا، منها أربعةٌ حُرمٌ، وهيَ ذُو القِعدةِ، وذو الحجةِ، والمحرمُ، ورجبٌ.

وهذهِ الأشهرُ هيَ التي وضعَها اللهُ للناسِ، ولكن معَ طولِ الزمنِ تغيرَ الحالُ ورَجَعُوا إلى مواقيتَ مقيدةٍ بحوادثَ أو مُلوكٍ أو ما أشبهَ ذلكَ مما يَعرفُهُ الناسُ منَ الأشهرِ الإفرنجيةِ، وهذهِ الأشهرُ الإفرنجيةُ لم تكنْ معروفةً في المسلمينَ إلا حينَ استعمرَ الكفارُ بلادَ الإسلامِ، وإلا فكانَ المسلمونَ إلى وقتٍ قريبٍ لا يعرفونَ التاريخَ إلا بالأشهرِ الهلاليةِ، ولكنْ معَ الأسفِ لما استعمرَ الكفارُ جزءًا كبيرًا مِن بلادِ الإسلامِ غيرُوا أشياءَ كثيرةً في الأفكارِ والعقائدِ والعاداتِ وغيرِها، ومنها التاريخُ.

أعودُ فأقولُ: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ بآيةِ الليلِ؛ يعني القمرَ؛ لأنهُ هوَ الذي بهِ يُعلمُ عدد السنينَ والحسَاب.

قولُه: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ كلُّ شيءٍ مفصلٌ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ معلومٌ عندَ اللهِ، فما مِن شيءٍ صغيرٍ أو كبيرٍ، أو قليلٍ أو كثيرٍ، في زمنٍ غابرٍ أو في زمنٍ باقٍ،

إلا وهوَ مُفصلٌ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فكلُّ شيءٍ فصلنَاهُ تَفصيلًا أي تفصيلًا تامًّا.

قولُه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ كذلكَ أيضًا كلُّ إنسانٍ أُلزِمَ طائره في عنقِهِ، والطائرُ هوَ العملُ، فكلُّ إنسانٍ ألزَمَهُ اللهُ بعملِه؛ إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

قولُه: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ هذهِ الأعمالُ التي يَعملُها الإنسانُ والتي أُلزمَ بها إذا كانَ يومُ القيامةِ أُخرجتْ، ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ أي يجدُه ﴿مَنشُورًا﴾ أي مفتوحًا غيرَ مغلقٍ، ويقالُ لهُ: اقرأِ الكتابَ.

واعلمْ يا أخي أن كلَّ كلمةٍ تقولُها، أو كلَّ فعلٍ تقومُ بهِ فإنهُ مكتوبٌ عليكَ، أو مكتوبٌ لكَ، حسبَ العملِ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ كلَّ إنسانٍ ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ يعني ونحنُ نعلمُ ما توسوسُ بهِ -أي ما تحدثُهُ بهِ- نفسُه الأحاديثَ، فإياكَ إياكَ أن تحدثَ نفسَك بشيءٍ لا يرضَاهُ اللهُ ورسولُه، قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] وهلِ المرادُ قربُ اللهِ بذاتِه أو بملائكتِهِ؟

الجوابُ: المرادُ قربُه بملائكتِهِ في هذهِ الآيةِ، وإلا فإن قولَه تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:١٨٦] المرادُ بذلكَ قربُهُ عَزَّوَجَلَّ بنفسِه، معَ كونِهِ فوقَ كلِّ شيءٍ؛ لأن اللهَ محيطٌ بكلِّ شيءٍ عَزَّوَجَلَّ، أما في هذهِ الآيةِ فالصَّحيحُ أن المرادَ بذلكَ قربُهُ بملائكتِه، بدليلِ قولِهِ: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧].

وحبلُ الوريدُ في العنقِ، وهوَ ما يُسمَّى عندَ الناسِ بالأوداجِ.

قالَ: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ وكَّلَ اللهُ تعالى على عملِ الإنسانِ مَلكينِ كريمينِ يكتبانِ كلَّ ما يقولُ، ويكتبانِ كلَّ ما يفعلُ، عنِ اليمينِ وعنِ الشمالِ قَعيدٌ.

قالَ: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق:١٨] ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾ أيّ قولٍ كانَ ﴿إِلَّا لَدَيۡهِ﴾ أي عندَه ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ أيِ الملَكُ الذي وكَّلَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بحفظِ أعمالِ بني آدمَ.

أخي المسلمُ، لو كانَ عندكَ مسجل يسجلُ كلَّ ما تتلفظُ بهِ لملأتَ الدنيَا أشرطةً مما يكتبُ، وهكذا يوم القيامةِ تجدُ هذا الذي كنتَ تعملُه قولا أو فعلًا مكتوبًا في كتبٍ: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ أي: رقيبٌ حاضرٌ لا يغيبُ عنِ الإنسانِ ويكتبُ هذا العملَ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ أُعطي هذا الكتابَ منشورًا مفتوحًا تَسهلُ قراءتُه، وقيلَ لهُ: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾.

قالَ بعضُ السلفِ: «يَا ابْنَ آدَمَ، أَنْصَفَكَ مَنْ خَلَقَكَ، جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ»[1].

وهذا صحيحٌ، فمعناهُ أن مِن كمالِ الإنصافِ وكمالِ العدلِ أن يقالَ للإنسانِ: هذا كتابُكَ اقرأْهُ أنتَ بنفسِكَ وحاسبْ نفسَك، فأيهمَا أقربُ للعدلِ والإنصافِ: أن تُعطَى كتابَك الذي كُتبَ عليكَ، والذي لا تُنكرُ شيئًا منهُ، ويقالُ: اقرأهُ أنتَ وحاسِبْ نفسَكَ، أو أن يقالَ لكَ: عليكَ مِنَ السيئاتِ كذا وكذَا وكذَا؟

---

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٥٤٥، رقم ١٥٦٣).

الجوابُ: الأولُ: أن تُعطَى كتابَكَ وتقرأَ بنفسِكَ ما عَمِلتَ ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

قولُه: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾:

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ يعني مَنِ استقامَ على دينِ اللهِ فإنما يهتدي لنفسِه؛ لأنهُ سيجدُ ثوابَ الحسنةِ الواحدةِ بعشرِ أمثالِها إلى سبعِ مِئةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ وسيجدُ نفسَهُ يومَ القيامةِ خاسرًا؛ إذ إن عمُرَهُ كلَّهُ فاتَهُ بلا فائدةٍ.

ولهذا يجبُ -أيها الإخوةُ- أن نعتبرَ ما هُوَ عمرُ الإنسانِ حقيقةً؛ هل هوَ دورانُ الليلِ والنهارِ عليهِ حتى يبلغَ سنينَ كثيرةً، أو أن عمرَ الإنسانِ حقيقةً ما أمضاهُ في طاعةِ اللهِ؟

الجوابُ: الثاني بلا شكٍّ، فعمرُكَ حقيقةً ما أَمضيتَهُ في طاعةِ ربكَ، أما الباقي فهوَ إما أن يكونَ عليكَ، وإما أن يكونَ خسارةً لا لكَ ولا عليكَ.

قالَ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ لا تزرُ أي: لا تحملُ نفسٌ وازرةٌ إثمَ الأخرى، يعني أن الآثامَ إنما تكونُ على فاعلِها، لا على غيرِها.

فلو قالَ قائلٌ لشخصٍ: يا فلانُ، افعلْ هذهِ المعصيةَ؟ قالَ: واللهِ إني خائفٌ منَ الآثامِ، قالَ: الإثمُ عليَّ أنا، فهذا لا ينفعُ، ولا يَصحُّ؛ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ [العنكبوت:١٢]، فقالَ اللهُ عن هذا: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٢-١٣].

إذنْ -أيها الإخوةُ- كلُّ إنسانٍ يأثمُ بإثمِه، ولا يأثمُ إنسانٌ بإثمِ آخَرَ.

فإن قالَ قائلٌ: أليسَ قدْ ثبتَ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أن مَن سنَّ في الإسلامِ سنَّةً سيئةً فعليهِ وزرُها ووِزرُ مَن عملَ بها إلى يومِ القيامةِ[1]؟

فالجوابُ: بلى صحَّ ذلكَ؛ لأن ذلكَ الرجلَ الذي سنَّ هذهِ السننَ السيئةَ عاملٌ، وهؤلاءِ الذينَ اتبعُوه إنما فعلُوه حينما رَأَوا هذا فاعلًا، فيكونُ هوَ السببَ في ضلالِ هؤلاءِ، فيكونُ عليهِ منَ الإثمِ مثلُ أوزارِهم من غيرِ أن يَنقصَ من أوزارهِمْ شيئًا، إذنْ هوَ العاملُ، فمن سنَّ في الإسلامِ سنَّةً سيئةً فقدْ أسسَ عملًا سيئًا يَقتدِي بهِ عبادُ اللهِ، فيكونُ في الحقيقةِ هوَ العاملَ.

فرأينَا في هذهِ الآيةِ أن نقولَ: الدَّالُّ على السيئةِ عاملٌ، وسانُّ السيئةِ عاملٌ، فيكونُ إثمُ عملِه عليهِ.

قولُه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، يعني لن نعذبَ أحدًا إلا بعدَ بعثِ الرسولِ فيهمْ يبيِّنُ لهمْ آياتِ اللهِ، فإذا كفَرُوا بعدَ ذلكَ حَقَّ عليهِمُ العذابُ.

وفي ذلكَ كمالُ عدلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وكمالُ رحمتِهِ، فلا يمكنُ أن يُعذِّبَ أمةً إلا إذا أرسلَ إليهَا رسولًا، فإن كفرتْ برسولِها فحينئذٍ وإلا فَلا يمكنُ أن يعذبَ أحدًا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، رقم (١٠١٧).

وانظرْ إلى قولِهِ تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥]، يعني أرسلَ اللهُ الرسلَ مبشرينَ ومنذرينَ لئلا يحتجَّ الناسُ على اللهِ فيقولُوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه:١٣٤].

وفي هذَا أكبرُ دليلٍ على العذرِ بالجهلِ، في أصولِ الدينِ وفي فروعِ الدينِ، فالجاهلُ غيرُ مؤاخَذٍ؛ لأن اللهَ أعدلُ العادلينَ، وأكرمُ الأكرمينَ، وأرحمُ الراحمينَ، فلو يُؤاخذُ الناسَ بما كسَبُوا مِن دونِ أن يُرسلَ إليهمْ رسولًا لكانَ للناسِ حجةٌ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا أحدَ أحبُّ إليهِ العذرُ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكنْ يجبُ أن نعلمَ أننا إذا قلنَا: العذرُ بالجهلِ فإنما إذا لم يكنْ هناكَ تفريطٌ، أما إذا كانَ هنالكَ تفريطٌ بأن ذُكرَ لهُ الحقُّ ولكنهُ أصرَّ على خلافِه، فإنهُ لا يُعذرُ؛ لأن مَن ذُكرَ لهُ الحقُّ وهوَ على ضلالٍ فإنه يجبُ عليهِ إذا لم يقتنعْ بما قيلَ لهُ أن يبحثَ عنِ الحقِّ، وأما أن يُصرَّ على ما هوَ عليهِ منَ الباطلِ فهذا ليسَ لهُ، وهذا ليسَ جهلًا بعذرٍ لهُ.

لكن لنفرضْ أن إنسانًا عاشَ بينَ أممٍ لا تعرفُ الحقَّ، وماتَ على ذلكَ، فهذا معذورٌ، إلا أنهُ إذا كانَ يومُ القيامةِ فإن اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يختبرُهم ويمتحنُهُم بأوامرَ لا نعلمُ ما هيَ، فمَن أطاعَ دخلَ الجنةَ، ومن عصَى دخلَ النارَ.

قولُه: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ الإرادةُ هنا كونيةٌ وليستْ شرعيةً.

يعني إذا شاءَ اللهُ تعالى أن يُهلكَ قريةً أمرَ مُترفِيهَا أمرًا كونيًّا ففسقُوا فيها؛ لأن اللهَ لا يأمرُ أمرًا شرعيًّا بالفسقِ، لكنهُ يأمرُ بذلكَ أمرًا كونيًّا؛ لأن كلَّ ما حدثَ

منَ المخلوقِ مِن فسوقٍ وطاعةٍ فإنهُ بإرادةِ اللهِ الكونيةِ، وبأمرِ اللهِ الكونيِّ، لا يخرجُ عن مُلكِه شيءٌ، فالشرُّ حصلَ منَ الإنسانِ بإرادةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والمعصيةُ حصلتْ منَ الإنسانِ بإرادةِ اللهِ وبأمرِ اللهِ الكونيِّ.

فقولُه: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي أمرًا كونيًّا، ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ أي خَرجُوا عنِ الطاعةِ.

والمترفُ: المنعَّمُ بالمالِ والبنينَ، وبالمنازلِ وبالمراكبِ؛ فالفسقُ أقربُ إلى المترفينَ مِن غيرِهمْ، ولذلكَ تجدونَ أعداءَ الرسلِ همُ الملأُ والأشرافُ، فالذينَ لهمُ الشرفُ والسيادةُ همُ الذينَ يعاندونَ الرسلَ، ويردونَ دعوتَهم، فيأمرُ اللهُ أولًا المترفينَ فيفسقُونَ في القريةِ، قالَ تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ وانظُروا إلى الواقعِ الآنَ، فأكثرُ الناسِ فسوقًا المترفونَ بلا شكٍّ، فهؤلاءِ همُ الذينَ يكونونَ سببًا للدمارِ، وسببًا للبلاءِ، وسببا للشرِّ، وسببًا للخوفِ، وسببًا للجوعِ؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أيِ العذابُ ﴿فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ كاملًا لا يَبقَى منهَا شيءٌ.

نسألُ اللهَ أن يسلمنَا وإياكُم مِن عذابِهِ وعقوبتِه، وأن يهديَ ضالَّنا، ويثبتَ مهتدينَا، إنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

قولُهُ: ﴿وَكَمْ﴾ كَمْ تُفِيدُ التَّكثِيرَ، أي: كَثِيرٌ مِنَ الأُمَمِ أهلَكَهُم اللهُ تعالى بعدَ نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهو أَوَّلُ رَسُولٍ بعثَهُ اللهُ تعالى إلى أَهْلِ الأَرْضِ.

وهؤلاءِ الأُمَمُ أهلَكَهُم اللهُ تعالى بسببِ خُروجِهِمْ عن طاعَةِ اللهِ، وتكْذِيبِهِمْ لرُسُلِهِ، فأهلَكَهُم اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ولم يُبَالِ بِهِمْ، على الرغْمِ مِنْ قوَّتِهِمْ وشِدَّتِهِمْ.

فالإنسانُ في نَفْسِهِ وقُوَّتِهِ يظُنُّ أن لنْ يَقْدِرَ عليه أحَدٌ؛ لأنه في عُنْفوانِ شَبابِهِ وقوَّتِهِ وكِبريائِهِ وغَطْرَسَتِهِ، فيقولُ: لا أَحَدَ يَقْدِرُ عَلَيَّ، فأعْمَلُ ما شِئتُ، ومنه قولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن قومِ عادٍ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فرَدَّ اللهُ عليهِمْ بقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥].

فقَومُ عادٍ قالَ لهُمْ نَبِيُّهُمْ هودٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء:١٢٨]، يعني: أنَّهم يبْنُونَ بكُلِّ رِيعٍ من البُنيانِ ما يكونُ آيَةً وعلامَةً على قُوتِهِمْ وقُدْرَتِهِمْ، وقالَ تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:١٢٩]، فتَبْعُدونَ عن المَوتِ، وتَظُنُّونَ أن هذَا البُنيانَ وهذه المصانِعَ تُخَلِّدُونَ فيها ولا تموتونَ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:١٣١-١٣٤]، ويقولونَ لِما جاءَ بِهِ مِنَ الحقِّ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٣٧].

وما أشْبَهَ الليلَةَ بالبارِحَةِ، فإنَّ كثيرًا مِنَ المسلمِينَ اليومَ على هذه الحالِ التي أخْبَرَ اللهُ تعالى بها عنْ عادٍ؛ فإنَّ كَثِيرًا من المسلِمِينَ اليومَ يُوعَظونَ، ولكِنَّهُم يقُولونَ بلسانِ الحالِ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء:١٣٦]، يقولونَ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾، ونحنُ نُريدُ خُلُقَ العَصْرِيين، نريدُ أن نَتَّبِعَ المادَّةَ، نريدُ أن نتَّخِذَ المقامَ، نريدُ أن نتَّخِذَ القُوَّةَ، وهذا قولُ أهلِ العَذابِ إذا لم يَرْجِعُوا إلى دِينِ اللهِ، ولم يرْجِعُوا إلى ما جاءَ به خاتَمُ النَّبِيِّينَ محمَّدٌ ﷺ.

وأُهْلِكَ هـؤلاءِ القومُ الذين افتَخَرُوا بقُـوَّتِهِمْ، وقالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أهلَكَهُم اللهُ تعالى بألطَفِ الأشياءِ، أهلَكَهُم اللهُ تعالى بالرِّيحِ، فأرسَلَ عليهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ، قالَ تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤١-٤٢].

واليـوم نسْمَعُ عن تدْمِـيرِ هذه الرِّياحِ للقُرَى، ويحـدُثُ بها مِنَ الفَيضانَات العَظِيمَةِ؛ التي تُهلِكُ الحَرثَ والنَّسْلَ، وكثيرٌ مِنَ الناسِ يقولونَ: إن هذا فِعْلُ الطَّبِيعَةِ، ولا ينْسُبونَ هذا الأمـرَ إلى قُدْرَةِ الخالِقِ جَلَّ وَعَلَا، وما أَشْبَهَهُم بمَنْ يقولُ اللهُ فيهِمْ: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور:٤٤-٤٥].

فالواجِبُ علينَا أن نَنْتَفِعَ، ونَتَّعِـظَ بآياتِ اللهِ الكونِيَّةِ والشَّرعِيَّةِ، حتى نسمَعَ ما يُقَالُ ونَرَى ما يحدُثُ، ونتَّعِظَ به، ونَزدادَ بِه قُربًا إلى رَبِّنَا، وتمسُّكًا بدِينِنَا.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الثالث:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ، وأُصلِّي وأُسلِّم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النَّبِيِّينَ وإمام المتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَعَالَى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء:١٦].

قَوْلُهُ: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ ﴾ نا: ضَميرٌ، ولَكِنَّها هُنا ضَمير جَمع، وَالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يُضِيفُ الضَّمائر إِلَيْه تَعْظيمًا لِنَفسه، وَلِأَنَّه العظيمُ الَّذِي لَا أَعْظم مِنهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

قوله: ﴿قَرْيَةً﴾ المرادُ بِالقريةِ هُنَا المَدِينَةُ، وَإِنْ كَبُرَتْ، والبلد الصَّغِير، ودَلِيل هَذَا قَولُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ [مُحَمَّد:١٣]، فَسمَّى اللهَ مَكَّةَ قَرْيةً وَهِي مَدِينةٌ لَا شَكَّ.

وأَمْرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يَنْقَسمُ إِلَى قِسْمينِ: أمرٌ شَرْعيٌّ، وأمرٌ كونيٌّ، فَأَمْرُهُ الكَوْنِيُّ هُوَ مَا يَتَعلَّق بتدْبِيره ومَخْلُوقاته، وَأَمْره الشَّرْعِيُّ مَا يَتَعلق بِشَرائعهِ؛ أَحْكامِهِ الشَّرْعِيَّة.

وَأَمرُ اللهِ هُنا أمرٌ كَوْنِيٌّ؛ لِأَنَّ اللهَ لَا يَأْمُر بِالفاحشةِ، وَلَا يُمْكن أَنْ يَكونَ أَمرًا شَرعيًّا، لِأَنَّ المعْنَى سَيَكُون: أَمْرناهم أَنْ يَفْسقوا فَفَسقوا، واللهُ تَعَالَى لَا يَأمر بِالفاحشةِ أَوِ الفسقِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل:٩٠].

وَإِذَا قُلْنَا: إِن ﴿أَمَرْنَا﴾ أَيْ: أمـرًا كونيًّا، لَزِمَ أَنْ نَقـولَ: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ ﴾ إِرَادَةٌ كونيَّةٌ، فَتكون هُنَا الإِرَادة كَونيَّة وَالأَمْر كَونِيًّا، وَهَذَا هُوَ المتَعَيِّنُ فِي الآيةِ الكريمةِ.

وَأَمَّا منْ قَالَ: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بِالطَّاعةِ ﴿فَفَسَقُواْ﴾، فَهَذَا فِيهِ نَظرٌ، فمَعْنَاهُ إِذَا أَرادَ اللهُ أَنْ يُهْـلِكَ القَرْيَةَ أَمرهَا بِالعِبَادَةِ مِن أَجْلِ أَنْ تفسـقَ فيُهْلِكَهَا، وهَذَا يُنافِي الحِكْمَةَ، ولَكنَّ اللهَ يَأْمرهم أمرًا كونيًّا، فَيُخَالفونَ أمرَ اللهِ، وحِينَئِذٍ يَحق عَلَيْها القولُ فتُدَمَّر.

فالأمرُ نَوْعَانِ: كَـونيّ وشرعيّ، والإرادةُ نَوْعانِ: كـونيَّةٌ وشرْعيَّةٌ، والفرقُ بَيْنَهُمَا:

أَوَّلًا: الإرادةُ الكَوْنِيَّةُ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ فِيها مُـرَادُ اللهِ، وَلَا يُمْكنُ أَنْ يَتَخلفَ، وتَتَعلق بِها يُحِـبهُ اللهُ وَمَا لَا يُحِـبه اللهُ، فَكل مَا فِي الكَوْنِ فَهو مُـرَاد اللهِ تَعَالَى كَوْنًا. والإرادةُ الكَوْنِيَّةُ تَتَعلقُ بِالمخلوقاتِ، ويَتَعين وقُوعُ مُرَادِ اللهِ فِيهَا؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا فِي الكونِ فَهو مُرَادُ اللهِ تَعَالَى كَونًا، فَالخيرُ مُرادٌ للهِ، والشَّر مُرادٌ للهِ كَونًا، والهدايةُ مُرَادةٌ للهِ، وَالإِضْلالُ مُرادٌ للهِ، لَكنْ إرادة كونيَّة، لَا شَرْعيَّة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُـرِدْ أَن يُضِـلَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٥] هَذِهِ إِرَادةٌ كَـونيَّةٌ؛ لِأَنَّهُ قَسَّمَ المرادَ إِلى قِسْمـينِ: مُراد هِدَايته، ومُرَاد إِضْلَاله.

وقَوْلُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٧] هَذِهِ إِرَادةٌ شَرْعيَّةٌ ولَيْستْ كَوْنيَّةً؛ لِأَنَّ اللهَ لو أَرَاد أَنْ يَتـوبَ عَلَيْنَا كونًا لتَابَ عَلَى كُلِّ النَّاسِ، لَكنه يُريدُ منْ عِبادِهِ أَنْ يُحِبُّوا أَنْ يَتوبَ عَلَيْهم، وَهَذَا حَثٌّ لَنَا عَلَى التَّوبةِ إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِكَونِ اللهِ تَعَالَى يُحِبُّهَا.

والأمرُ أَيْضًا يَنْقسمُ إِلَى قِسمينِ: كَوْنيٍّ وَشَرْعِيٍّ.

فالأمرُ الكَوْنِيُّ: هُوَ مَا يَتعلق بِالتَّكوين وَالخَلْق، ولَا بُدَّ فِيهِ مِن وُقُوعِ المأمورِ.

والأمرُ الشَّرْعِيُّ: هُوَ مَا يتعلق بِالتَّشريع، والأَمْرِ والنهي، وهَذَا قَد يَقع فِيهِ ذَلك وقَدْ لَا يَقعُ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل:٩٠]، المرادُ بِالأمرِ هُنا الأمرُ الشَّرْعِيُّ؛ لِأَنَّهُ لَو كَانَ المرادُ الأمرَ الكَوْنِيَّ لَوقعَ، ولكنَّه أَمرٌ شَرعيٌّ.

فقَوْلُهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨] هَذَا أَمْرٌ شَرْعيٌّ أَيْضًا.

وقولهُ تَعالَى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨] أمر شَرْعيٌّ.

وَقَوْلُهُ تعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]؟ هَذَا أمرٌ كَوْنِيٌّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥] أَمْرٌ كَوْنِيٌّ.

فَإِنْ قِيلَ: مَا الفرقُ بينَ الأمرِ الكَوْنِيِّ وَالشَّرْعِيِّ مِن حَيثُ الوقوعُ؟

قُلْنَا: الأمرُ الكَوْنِيُّ لا بُدَّ فِيهِ مِن وُقُوع المرادِ، ولَا رَادَّ لقَضاءِ اللهِ، وإِذَا أرادَ شَيئًا فلَا بُدَّ أَنْ يَكونَ، أَمَّا الأمرُ الشَّرْعِيُّ فَقَد يَكونُ وقدْ لَا يكونُ.

وفِي هَذِهِ الآيةِ ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ سببَ هَلاكِ القُرى هُوَ فِسْقُ المُتْرَفِينَ.

والمترَفُ هُـوَ مَن أَنْعم اللهُ عَلَيْه بالغِنَـى، والأمنِ، والصِّحةِ؛ وَلِهَـذَا جاءَ فِي الحديثِ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**»[1]، فغَالبُ ما يُفسِدُ القَرَى بالفسقِ همْ هَؤُلاءِ المُتْرَفُونُ، التالفونَ، وأكثرُ مَا يَكون إِيمانًا الفُقَرَاءُ؛ وَلهَذَا عَامَّةُ أَهْلِ الجنَّةِ منَ الفُقَرَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ أَقربُ إِلَى الانْقِيادِ، وأَقْربُ إِلى الطاعةِ.

وَلِهَذَا تَجدونَ المكذبينَ لِلرُّسلِ هُم هَؤُلاءِ المُتْرَفُونَ، وهُمُ الَّذِين يَفْسُقُونَ، وهُم سببُ هلاكِ القُرَى.

قَوْلُهُ: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أَيْ: قَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِالعذابِ ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ عنْ آخرِهَا، كَما فَعَلَ اللهُ تَعَالَى فِي الأممِ السَّابقةِ، مثل قَوْمِ عادٍ، فقد اسْتكْبروا فِي الأرضِ، وَقَالَوا: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]؛ فَلَيْسَ أَحدٌ أَشَدُّ منَّا قوةً، فَأَهْلكهم اللهُ بِأَلطفِ الأشياءِ، وهيَ الرِّيحُ اللَّطيفةُ، النَّسيمُ العليلُ، حيثُ جعلهُ اللهُ عاصفًا عَلَى عادٍ، فدمَّرهمْ تَدميرًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥].

وفِرعونُ افْتخرَ عَلَى قَومـهِ فَقَالَ: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف:٥١]، فأُهْلِكَ بالماءِ الَّذِي مِن جِنْسِ الأنهارِ، أُهْلِكَ بما كَانَ يَفْتَخِرُ بهِ.

كَذَلِكَ المُتْرَفُون فِي كُلِّ زَمانٍ ومكانٍ، الَّذِين يَفْسُقُون فِي الأرضِ، همْ أَسباب هلاكِ ودمارِ الأممِ، فَيَتحولُ الأمنُ إِلى خوفٍ، والغنَى إِلى فقرٍ، والشبعُ إِلى جوعٍ؛ بسببِ فسقِ المترفينَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب: لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم (٦٤١٢).

وَيَجِبُ عَلَى المتْرَفِينَ مُلَاحظةُ النِّعَمِ أَكْثرُ مِما يَجِبُ عَلَى الفُقَرَاءِ؛ لِأَنَّ نِعم اللهِ عَزَّوَجَلَّ قَد تَكونُ اسْتِدْرَاجًا وَإِمْلاءً منَ اللهِ، حَتَّى إذَا تَمادَى الإِنْسَانُ وطغَى، أُخِذَ عَلَى غِرةٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف:٩٦-٩٧]. والنائمُ لَا بُدَّ أَنْ يكونَ آمنًا؛ لِأَنَّ الخائفَ لَا ينامُ، ولَا بُدَّ أَنْ يكونَ شَبْعَان؛ لِأَنَّ الجائعَ لَا ينامُ يَطلبُ الرزقَ، فهَؤُلاءِ نَائمونَ، ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨] لَا يَعملون للهِ، ويَلْعبونَ، فِي اللَّيْلِ نِيامٌ، وفِي النَّهار لعبٌ، ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾، ومِن هُنا يَكون البلاءُ، أَنْ يَأمنَ الإِنْسَانُ مكرَ اللهِ، وذَلك بِأَنْ يَكونَ مُقيمًا عَلَى مَعْصيته، واللهُ يُدِرُّ علَيْهِ النعمَ، فَإِنَّ هَذَا مكرٌ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، واللهُ تَعَالَى يَمْكُر بمنْ يَمكرُ بِشَريعتِهِ ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

فالآمنُ لمكرِ الله يَظنُّ أَنَّه رابحٌ ويَعْصِي، وهوَ يُنْعَمُ علَيْه، لَكِنه فِي الحقيقةِ خاسرٌ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

الدرس الرابع:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتَّقِينَ، ولا عُدوانَ إلَّا على الظالمينَ، وأشهد أنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحده لا شريك له، إله الأوَّلين والآخِرينَ، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابِه ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣] أي قضى قضاءً شرعيًّا، ولهذا فسَّره بعضُ السلَف بقولِهِ: أَمَرَ وَوَصَّى، وذلك أن قضاءَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ينقسم إلى قِسمينِ:

الأول: قَضَاءٌ قَدَرِيٌّ.

والثَّاني: قضاءٌ شَرعِيٌّ.

أما القضاء القدريُّ فيتعلَّق بما قدَّره الله من خيرٍ وشرٍّ، وطاعةٍ ومعصيةٍ، وفسادٍ وصلاحٍ، وغير ذلك.

والثَّاني: القضاءُ الشرعيُّ، ويتعلَّـق بما أحبَّه وأمر به عَزَّوَجَلَّ من أعمالٍ صالحةٍ؛ فعلًا للمأمورِ وتركًا للمحظورِ.

مثال الأول الَّذِي هـو القضاء القدريُّ قـولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٤].

فالقضاء هنا قضاء قـدريٌّ؛ لأن الإفسادَ في الأرض والعُلُوَّ في الأرض ليس محبـوبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ حتَّى يقضي به شرعًا، ولكنه قضاء قَدَري، أي أن الله قدَّر على بني إسرائيلَ ما ذُكِر: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾.

والمثال الثَّاني، وهو القضاء الشرعي، قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي قضاء شرعيًّا.

والفرق بينهما:

أولًا: أن القضاء القدريَّ لا بُدَّ من وُقُوعِهِ، يعني إذا قضى اللهُ أمرًا فلا بُدَّ أن يقعَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٤٧]، أي قضى أمرًا قضاءً قدريًّا، فالقضاء القدريُّ لا بُدَّ أن يكونَ.

ثانيًا: القضاء القدريُّ يكون فيما يُحِبُّه اللهُ وما لا يُحِبُّه الله، أي أن الله يَقضي قَدَرًا بأمرٍ يحبُّه وبأمرٍ لا يُحبه.

أما القضاء الشرعيُّ فإنه لا يَلزَم منه وجودُ المَقضِيِّ، فقد يَتَخَلَّف. فهذا فرقٌ، ولا يكون إلا فيما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ.

فلننظرْ لَمَّا قضى اللهُ على بني إسرائيلَ أن يُفسِدُوا في الأرضِ مرَّتينِ، هل وقع هذا أو لا؟

نقول: ما وقَع فقد وقعَ، وما لم يَقَعْ فسيكونُ.

قال تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، فهل يَلزَمُ من هـذا القضاء أن يَعبُدَ النَّاسُ كلُّهم ربَّهم؟ نقول: لا، ولو كان قضاءً قَدرِيًّا لَوَجَبَ أن يكون.

أيضًا القضاء القَدَرِيُّ يكون فيما يحـبُّه اللهُ وما لا يحـبُّه؛ فما لا يحبُّه كقولِه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤]. وما يحبُّه اللهُ عَزَّوَجَلَّ فهو ما قَضاه على عبادِهِ المؤمنينَ من فعلِ الطاعاتِ.

قال تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ هذا المقضيُّ ألَّا نعبدَ أحدًا سوى الله عَزَّوَجَلَّ، فلا نعبد مَلَكًا مُقَرَّبًا، ولا نبيًّا مُرسَلًا، ولا نعبُد شَمسًا ولا قمرًا ولا دَهرًا، ولا غيرَ ذلك من مخلوقاتِ اللهِ، فلا نعبُد إلا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فمَن عبدَ غيرَ اللهِ فهو مُشرِكٌ ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، وهو مشرك حتَّى لو صلَّى وصامَ وحجَّ واعتمرَ.

وعلى هذا فمَن ذهَب إلى القبورِ يقولُ: يا سيِّدي فلان أَغِثني، يا سيدي فلان ائْتِني بولدٍ، يا سيدي فلان زَوِّجْني مثلًا، مَن فعل هذا فهو مُشرِك شِركًا أكبرَ، لا يَقبلُ اللهُ منه يومَ القِيَامَةِ صَرفًا ولا عَدلًا، بل مأواه النارُ.

وهذا مع الأسفِ الشديدِ موجودٌ في بعضِ البلادِ الإسلاميَّة، يذهبون إلى قبرِ فلانٍ أو فلانٍ، سواء كان من آلِ البيتِ أو من غيرِ آلِ البيتِ، يدعون صاحبَ القبرِ ويستغيثون به، ويَرجُون مَنفعتَه ويخافون مَضَرَّتَه، ويُعلِّقون آمالَهم به دون اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ثمَّ يقولون: إننا مُسلِمونَ، ثمَّ يأتون إلى مَكَّة لِيَحُجُّوا، وهم ما داموا على هذه العقيدةِ فإنه لا يَحِلُّ لهم أن يَقربُوا المسجدَ الحرامَ؛ لقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨]، فإذا أَتَوْا إلى المسجدِ الحرامِ وهم على هذه العقيدةِ فإنهم يَأثَمُون من وجهينِ:

الوجهُ الأولُ: أنَّهم ارتكَبوا ما نهَى اللهُ عنه، من قُربانهم المسجدَ الحرامَ.

والوجه الثَّاني: أنَّهم تَعَبَّدوا للهِ عبادةً لا تُقبَل منهم، فهم كالمستهزئينَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

إننا نحذِّر مَن يَلْجَؤُون إلى أهلِ القبورِ، ونبيِّن لهم أن صاحبَ القبرِ جُثَّة هامدة، لعل الأرضَ قد أكلتْه وصارَ رَميمًا، وأنه لا يَنفَع أحدًا، وأنه كما قال الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

إن أصحابَ القبورِ يُمَوَّهُ عليهم، ويقال: هَؤُلاءِ من أولياءِ اللهِ، وقد قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

ونحن نسأل: أولًا: هل ثَبَتَ أن صاحبَ القبرِ هذا من أولياءِ اللهِ؟

وما يُدرِينا لعلَّه من أعـداءِ اللهِ، ومَن كان يرضَى أن يعبدَه النَّاسُ فليسَ من أولياءِ اللهِ، فإذا كان صاحبُ القبرِ يَرضَى أن يقدِّسه النَّاسُ كما يتقرَّبون إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فإنه من رُؤُوسِ الشياطين، ومن رؤوس الطواغيتِ، وليسَ من أولياءِ اللهِ، بل هو من أعداءِ اللهِ، ومَن كان له كلِمة وهو يرى النَّاس يشركون ويستطيع أن يمنَعَهُم، أو يبيِّن لهم، ولم يفعلْ؛ فليس من أولياءِ اللهِ. فهذه واحدةٌ لا بُدَّ منها يا إخواني؛ أن يَثبُتَ عندنا أن هذا من أولياءِ اللهِ، وقد يكونُ دون هذا خَرْطُ القَتَاد[1]، ولا يستطيع أحدٌ أن يُثبِت أنَّه من أولياء الله.

كذلك أيضًا قد يكون مُسَمًّى من أولياءِ اللهِ ولكن هذا القـبرُ ليس قبرَه، كما يقال عن رأس الحُسَين بنِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّه موجود في العراقِ، وموجود في الشامِ، وموجود في مِصْرَ، فيكون هذا الرجلُ له ثلاثةُ رُؤُوسٍ، سبحان الخالق العليم! رأس في العراق، ورأس في الشام، ورأس في مصر، ولا ندري ربما يكون بِلاد أخرى فيها رُؤُوس كثيرة للحسينِ بنِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) الخَرْطُ: قَشْرُكَ الوَرَقَ عن الشجرة اجتذابًا بكَفِّك، والقَتَاد: شجر له شوك أمثال الإبر. وهو مثل يضرب للأمر دونه مانع ولا يوصل إليه إلا بشدة. انظر مجمع الأمثال (١/ ٢٦٥).

وكل هذا دَجَل، ونعلم أن رأس الحسينِ بنِ عليٍّ لا يُدرَى مكانها الآن؛ لأَنَّه وقع قتله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حال فتنةٍ، وحال اضطرابٍ، فلا يُدرى، ولا يستطيع أحدٌ أن يحلِفَ باللهِ أن هذا محَلُّ رأسِ الحسينِ، وإنْ حَلَفَ فنعلَم أنَّه ليسَ بصادقٍ؛ لأنَّه ليس هناك دليلٌ تاريخيٌّ واقعيٌّ، فالمسألةُ وقعتْ في فتنةٍ عظيمةٍ، وقبرُ الحسينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليسَ بالهيِّن.

وكيف يمكِن أن يُقال: إن الرأس حُمل إلى البلدِ الفلانيِّ والبلد الفلانيِّ، ونحن نعلَم أن أحدَ الأمرينِ خطأ بلا شكٍّ؛ لأنَّ الحسينَ ليس له إلا رأسٌ واحدٌ.

ثم إذا قلنا: إن إحدى الثلاثِ هي رأسُه، فمَن يقول: إن هذا مَكان الرأسِ، ومع ذلك يأتي النَّاس إليه ويستغيثون به، ويسألونه حاجاتِهم، نسأل الله العافيةَ.

فلو أن أحدًا وقف على قبرِ مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ رسولِ اللهِ أشرفِ البشرِ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ودعا مُحَمَّدًا فإننا نقول: هو مُشرِك باللهِ شِركًا أكبرَ يُخرِجه من المِلَّة، ومُحَمَّد رسولُ اللهِ لو كان حيًّا لقاتَل هذا واستباحَ دمَه ومالَه؛ لأن مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ إنَّما بُعِثَ لتحقيقِ عبادةِ اللهِ وحدَه لا شَريك له، حتَّى إن رجلًا قال له: ما شاءَ اللهُ وشِئْتَ. فأنكرَ عليه وقال: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟**» أي: نظيرًا؛ لأنَّه قرن بين مشيئة الله ومشيئة مُحَمَّد ﷺ بالواوِ «**بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[1].

هذا وهو لم يقلْ قولًا بعيدًا؛ لأنَّه لا شَكَّ أن للنبيِّ ﷺ مَشيئةً، ولكن مشيئة الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تابعةٌ لمشيئةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، لكني ضربتُ هذا مَثَلًا لإنكارِ النبيِّ ﷺ الشركَ في هذه الكلمةِ الَّتي قد

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (ص:٢٧٤)، رقم (٧٨٣).

تكون قريبةً، فكيف يأتي رجل ويقف على قبر النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ ويقول: يا رسولَ اللهِ، أدعوك بكذا وكذا! الله أكبر! واللهِ لو كان مُحَمَّد رسول اللهِ حيًّا لقاتَلَ هذا الرجلَ، بل لَقَتَلَهُ؛ لأَنَّه مُشرِكٌ، والنبي ﷺ جاء لمحاربةِ الشركِ وأهلِه.

إذن لا نسأل الرَّسُول، حتَّى رسول الله ﷺ أعظم النَّاس جاهًا عند الله، ونحن نعلمُ أن هذا قبرُه يقينًا، لا نَقِف عند قبرِه ونقول: يا رسولَ اللهِ، اقضِ حوائجنا، يا رسول الله أَغِثنا.

إن الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -الَّذِينَ هم خيرُ القرونِ- لم يَتَوَسَّلُوا بالنبيِّ ﷺ بعد موتِه، ولا ليدعوَ الله لهم فيَسقيهم. وقد أُصيب النَّاسُ في عهد أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجَدْبٍ وقحطٍ؛ جدب في الأرضِ وقحط في السَّماءِ، فالمطرُ لم ينزلْ، والأرضُ لم تُنْبِتْ، واستسقَوا في المدينةِ عند قبرِ النبيِّ ﷺ أي عند مكان القبرِ، وليس عند القبرِ مباشرةً، فما قالوا: يا رسولَ اللهِ، ادعُ الله يُغيثنا، ولا قالوا: نسألُك اللَّهُمَّ بجاهِ مُحَمَّدٍ أن تُغيثَنا، ولا قالوا: اللَّهُمَّ إنا نسألُك بذاتِ مُحَمَّدٍ أن تُغيثَنا، بل قال عمرُ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا» أي نتوسَّل إليك بدعائِه؛ لأنهم يأتون إليه ويقولونَ: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ يُغيثنا. وحتى في حياتِه لا يقولون: يا رسولَ اللهِ أَغِثْنا، بل: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ يُغيثنا. فيتوسلون بدعائِه «وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»[1] وهو العباسُ بن عبد المطلبِ، ثمَّ يقوم العباسُ فيدعو الله، لا يدعو مُحَمَّدًا ولا غيره من البشرِ.

(١) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب سؤال النَّاس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم (١٠١٠).

فمن يقول: أنا أدعو هذا القبرَ لأنَّه من أولياءِ اللهِ، وأولياءُ اللهِ لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنون. فإننا نقول له ونطالبُه: أَثْبِتْ أن هذا قبرُه، هذا واحد، وإذا ثَبَتَ فإننا نقول: أثبِت أنَّه من أولياءِ اللهِ، والولايةُ ليست هيِّنة، فأولياء الله هم الَّذِينَ جَمَعُوا بين وصفينِ؛ الإيمان الَّذِي لا يخالطه كفرٌ، والتقوَى الَّتي لا يخالطها فِسق، فالكافرُ ليس من أولياءِ اللهِ، والفاسقُ ليس من أولياءِ اللهِ.

أقول: نطالب أوَّلًا -يا إخواننا- بإثبات أن هذا قبر فلانٍ، ثمَّ نطالب ثانيًا بإثبات أنَّه من أولياء اللهِ، وإذا ثبت هذا قلنا: هذا الرجلُ نرجو أن يكونَ ممن لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنونَ، ولا نَجزِم أيضًا؛ لأننا لا نَجزِم لأحدٍ بعينِه أنَّه من أهل الجنةِ، إلا بنصٍّ من الكتابِ والسنَّة، لكن نرجو اللهَ للمُحسِن أن يكون من المؤمنينَ الَّذِينَ لهم الجنةُ.

وبعد هذا هل لنا الحقُّ في أن ندعوَ هذا لأنَّه من أولياءِ اللهِ؟

أقول: لا، ليس لنا الحقُّ؛ لأن وِلايته لنفسِه لا تَنْفَعُنا، إنَّما تنفع نفسَه فقط، أما نحن فلا تنفعنا ولايته.

ولو قال قائل: إنَّه لا يدعو صاحبَ القبرِ، يعني لا يقول مباشرةً: يا فلانُ أَغِثني، يا فلانُ ارْزُقْنِي، يا فلانُ ما عندي ولدٌ، هاتِ ولدًا لي، ولكن يقول: يا فلانُ استغفِرْ لي، ادعُ اللهَ لي بالمغفرةِ، يا فلان اشفَعْ لي عند اللهِ. فهل نوافقه على هذا أو لا؟

أقول: لا نوافقه أبدًا؛ لأن الميتَ إذا مات انقطعَ عَمَلُه كما ثبتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ،**

أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[١].

فهذا الميتُ انقطعَ عملُه الآنَ، ولا يمكِن أن يعملَ لك ولا لنفسِه، حتَّى رسول الله ﷺ في قبرِه لا يمكن أن يستغفرَ لك، ولا يمكن أن يشفعَ لك، فإذا كان يوم القِيَامَة وجاء وقتُ الشفاعةِ استأذنَ الرَّسُول ﷺ من ربه أن يشفعَ، ولم يتقدمْ للشفاعةِ بدون إذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا يمكن لأحدٍ أن يشفعَ عند الله إلا بإذنِه، ولو كان أكرم خلقه عليه.

فإذا قال: إنَّما أطلُب من هذا الميتِ أن يستغفرَ لي، وأن يدعوَ اللهَ لي بالمغفرةِ، وأن يشفعَ لي.

قلنا: هذا غلطٌ، وضلالٌ، وسَفَه، فالميتُ الآن لا يُمكِن أن يعمل، فقدِ انقطعَ عملُه، ولا يمكِن أن يشفعَ، فالشفاعةُ لا تكونُ إلا في وَقتها، وبإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإذا قال قائل: أليس قد ثَبَتَ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أنَّه قال: **«مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»**[٢]؟

فالجوابُ: بلى ثبتَ هذا، لكن شَفَّعهم اللهُ فيه بدعائهم له وهم أحياءٌ يَعملون ويتكلمون وينطِقون، فهم -أعني الَّذِينَ يُصَلون على هذا الميتِ المسلِم- يقولون: اللَّهُمَّ اغفِرْ له وارحمْه، وهم يَتَمَكَّنُونَ من ذلك؛ أي من قولِ: اللَّهُمَّ اغفر له، إذن هم أحياءٌ يعملون فيقولون: اللَّهُمَّ اغفر له.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم (٩٤٨).

وإذا وقف على جنازةِ الرجـلِ المسلمِ أربعونَ رجلًا يدعـون الله عَزَّوَجَلَّ فالله تَعَالَى أكرمُ الأكرمينَ يُشَفِّعُهُمْ فيه، فيَغفِر لهذا الميتِ بدعاءِ هَؤُلاءِ الأربعينَ.

وهناك فرقٌ بين ميتٍ وحيٍّ، فهؤلاء أحياءٌ يسألون اللهَ أن يغفرَ لهذا الميتِ، ويجيب الله دعاءَهم.

ولهذا قال العلماء: يَنبغي أن يختارَ النَّاس للصلاةِ على الجنائزِ أكثرَ المساجدِ جمعًا؛ لأنهم أقربُ إلى قبولِ شَفاعتهم، فإذا قدَّرنا أن في المسجد مِئتينِ، وكان فيهم أربعونَ صالحونَ تمَّت الشفاعةُ؛ لأن الرَّسُول ﷺ يقول: «**إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**». وكلما كثُر العددُ صار الحصولُ على أربعينَ رَجُلًا لا يُشرِكون باللهِ شيئًا أقرب.

وانظر إلى قولِ النبيِّ ﷺ: «**فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا**»، فهذا الشرطُ -يا إخواني- تَظنـون أنَّه سهلٌ، ولكنه صعـبٌ، فانتفاءُ الشركِ عن الإنسانِ صَعب جدًّا، حتَّـى قال بعض السلَف: ما جاهـدتُ نفسي على شيءٍ مُجاهَدَتَها على الإخلاصِ. يعني أن الإخلاصَ شديدٌ وصعبٌ.

فرسول الله ﷺ اشترطَ عددًا ووصفا؛ العددُ: أربعونَ. والوصفُ: لا يشركون بالله شيئًا، يعني يَعملون وهم مُخلِصون.

وقوله صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ**» يُفهَم منه أن غير المسلمِ لو شفَع له أهلُ السَّماواتِ والأرضِ ما نَفَعَتْه الشفاعةُ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في المشركين: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

فإذا قُدمتِ الجـنازةُ والميتُ مشركٌ أو كافـر، وصلى عليه أناسٌ، ولو كانـوا

مُخلِصين لله عَزَّوَجَلَّ، ولو كانوا أربعَ مئةٍ، فإن هذه الشفاعة لا تَنفعه؛ لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ اشترطَ في المشفوعِ له أن يكون مُسلمًا، واشترطَ في الشافِعِ عددًا ووصفًا قد ذكرتُه.

فإذا قال قائل: قد يُقَدَّمُ لي شخصٌ لأصليَ عليه، ونحن لا ندري أمسلمٌ هو أم لا؛ لأن هذا يقعُ في بلادِ المبتدِعة الَّذِينَ في بِدَعِهم ما يُوصِل إلى الكفرِ، فقد يُقَدَّم المبتدِعُ لِيُصَلَّى عليه، والمسلمونَ شاكُّون في كونِ بِدعته مكفِّرةً أو غير مكفرةٍ، فيبقى الإنسان في حَيرة؛ أيصلي أم ينصرف، فماذا يعمل؟

قلنا: هناك شيء يمكِن أن يتخلصَ به، وهو أن يعلِّق الدعاءَ بالشرطِ؛ فيقول: اللَّهُمَّ إن كان هذا مؤمنًا فاغفِرْ له وارحمْه. والله عَزَّوَجَلَّ يعلَم أنَّه مؤمنٌ أو غير مؤمنٍ؛ إذن عَلِّقِ الدعاءَ بالشرطِ فقل: اللَّهُمَّ إن كان مؤمنًا فاغفِرْ له وارحمْه، والرب عَزَّوَجَلَّ يعلَم المؤمنَ منَ الكافِرِ، والمُصلِحَ منَ المُفْسِدِ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: هل يصِح أن نُعلِّق الدعاءَ بالشرطِ؟

فالجواب: نعم، يصحُّ أن نعلقَ الدعـاءَ بالشرطِ، وقد جاء ذلك في الكتابِ والسُّنة؛ أما الكتاب فقد ذكرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هذا في قضيةِ المتلاعِنينِ؛ وهو أن الرجل إذا قال لزوجتِه: إنَّها زنتْ فإنهما يحضُران إلى القاضي، ويقال للرجل: اشهدْ بالله أربع مراتٍ أنَّها زنتْ، وفي الخامسةِ قل: إن لعنة اللهِ عليه إن كان منَ الكاذبينَ. فهذا دعاء معلَّق بشرطٍ: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي على هذا الزَّوْج ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النور:٧]، وهي تقول: إن غَضَبَ اللهِ عليها إن كان من الصادقينَ؛ فعُلِّقَ الدعاءُ بالشرطِ. هذا ما جاء في القُرآن.

وما جاء في السُّنة ففي الاستخارةِ، فالإنسان إذا همَّ بأمرٍ، ولا سيَّما الأمر الجَلَل الهامّ، وتَرَدَّدَ، فإنه يَلجأ في تعيينِ الأصلحِ إلى اللهِ، فيُصلي ركعتينِ، ويدعو بالدعاءِ المشهورِ، وفي هذا الدعاء: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي** -أَوْ قَالَ: **عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ**- **فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي**»[1]. فهذا دعاء معلق بعلمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فصحَّ بهذا أن الرجلَ إذا قُدمتْ له جنازةٌ يشك في إسلامها فإنه يعلِّق الدعاء، فيقول: اللَّهُمَّ إن كان مؤمنًا فاغفِرْ له وارحمْه.

ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيخِهِ شيخِ الإسلامِ أحمدَ بنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.. وهما الشيخانِ اللذانِ أُوصي كل مسلمٍ بقراءةِ مُؤلَّفَاتِهما؛ وأشهد باللهِ أن تصنيفهما خيرُ ما صُنِّفَ في مسألةِ العقيدةِ، فمَن أراد العقيدةَ الصافيةَ فعليه بكتبِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ، وتلميذِه ابنِ القَيِّم، فإن الإنسان إذا قَـرَأَهما علِم أن هذا هو الحقُّ؛ لأن ما يَذكـرانه في العقيدةِ مُدَعَّم بالأدلَّة السمعيَّة والأدلَّة العَقليَّة، ولم أجِـدْ إلى الآن كتبًا أنفعَ ولا أبلغَ ولا أصحَّ من كتبِ هذين الرجلينِ، أسأل الله أن يَجْزِيَهُما عن أُمةِ الإسلامِ خيرَ الجزاءِ.

أقول: إن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في كتابه (إعلام المُوَقِّعينَ) -وهو كتاب يَنبغي للقاضي أن يَقرَأه؛ لأنَّه كتابٌ مبنيٌّ على كتابٍ كَتَبَه عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لأبي موسى الأَشْعَرِيِّ في القضاءِ، وهو كتاب عظيم- ذكر أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: كان يشكل عليَّ أحيانًا حالُ من أُصلي عليه الجنائزَ، هل هو مُؤمن أو منافِق؟ فرأيت

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، رقم (٦٣٨٢).

رسولَ اللهِ ﷺ في المنام فسألتُه عن مسائلَ عديدةٍ منها هذه المسألة، فقال: يا أحمدُ، الشَّرطَ الشَّرطَ، أو قال: عَلِّقِ الدُّعاءَ بالشرطِ[1].

وهذه الرؤيا لولا أن الأدلَّة دلَّت على صِدقها، وهو جواز تعليقِ الدعاءِ بالشرطِ، لقلنا: لا تُقبَل. ولذلك لو جاءنا أحد من المتصوِّفة وقال: إنَّه رأى الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال له كذا وكذا، كما يزعُم بعضهم أنَّه رأى الرَّسُول وتحدث معه إما اللَّيْل كله أو ساعة من الليل، فهذا لا نَقبَل منه.

ولذلك لا تظنُّوا أن هذا يكون فيه فتحُ بابٍ لِلمَرائي الكاذبةِ الَّتي يَدَّعيها مَن يدعيها؛ لأننا نقول: كل شيءٍ يكون به بِدعة فليس بصحيحٍ أبدًا، ولا يمكِن، فقد يدَّعي هذا أن الرَّسُول ﷺ لا يَتَمَثَّل به الشيطانُ، وأنه رأى الرَّسُول، فنحتاج إلى أمرينِ:

الأمر الأول: إثبات كون هذا الرجلِ صادقًا؛ لأن بعض النَّاس -ولا سيَّما أهل البدع- يَسهُل عليهم جدًّا أن يَكذِبوا على الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلا بُدَّ أن نعرفَ حال هذا الرجلِ المدَّعي.

الأمر الثَّاني: لا بُدَّ أن يكونَ مَن رآه مُطابِقًا تمامًا لوصفِ الرَّسُولِ ﷺ، بمعنى أننا نقرأُ الكتبَ وننظرُ هل الشبهُ الَّذِي رآه هذا النائمُ مطابِقٌ في الوصفِ لأوصاف مُحَمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ ﷺ أو لا.

فإذا كان غيرَ مطابقٍ فهذا كذِب، فبعضهم يصفُ النبيَّ ﷺ بأبعد ما يكون

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٣٠٠).

عن صفةِ الرَّسُولِ، فنعلم أن هذا كذِب، ولو وقعَ في نفسِه أنَّه الرَّسُول؛ لأنَّه لا بُدَّ أن تكون الرؤيا مطابقةً للواقعِ، وإلا فليسَ الرَّسُول ﷺ.

المهمُّ أن رُؤيَا شيخِ الإسلامِ ابن تَيمية لولا أنَّنا نجِد في القُرآنِ والسنةِ ما يدلُّ على أن هذا -أعني الشرط في الدعاءِ- صحيحٌ؛ لَرَدَدْنَاها، وقلنا: لا يمكِن، لكن ما دمنا وَجَدْنا أنَّ الكتابَ والسُّنَّة دلَّا على جوازِ الاشتراطِ في الدعاء فالأمرُ محتمِلٌ.

على كلِّ حالٍ نحن نقولُ: إنَّ المشركينَ مَهما بَلَغوا في التقوى ظاهرًا لا تُقبَل أعمالُهم، ولا يدخلون الجنةَ؛ لقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

إذن ذَكَرنا أنَّ القَضاءَ في قولِه تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ قضاء شرعيٌّ، وبيَّنت القاعدةَ؛ أنَّه إذا كان القضاء مُتعَلِّقًا بما يحبه اللهُ فهو شرعيٌّ، والقضاءُ الشرعيُّ قد يكون وقد لا يكون، فليس كل عبادِ اللهِ لا يعبدون إلا الله، ولو كان القضاءُ كونيًّا قدريًّا لوجبَ أن يعبده النَّاس كلهم، لكنه قضاءٌ شرعي؛ مَن شاء فعل ومن شاء لم يفعلْ. فقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يعني لا تعبدوا معه غيره قضاءً شرعيًّا.

بعد أن بيَّن حقه جَلَّوَعَلَا ثَنَّى بذِكر حق الوالدينِ فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، والوالدانِ هما الأمُّ والأبُ، والأمُّ أحقُّ بِحُسن الصحبةِ من الأبِ؛ كما جاء ذلك في الحديث[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب: من أحق النَّاس بحسن الصحبة، رقم (٥٩٧١)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم (٢٥٤٨).

ويَبقَى إشكالٌ، وهو أنَّه ليس في الآيةِ حـقُّ مَن هو أحـقُّ مِنَ الوالدينَ، وهو الرَّسُول ﷺ، فما ذُكِرَ، مع أن حَقَّهُ مُقَدَّمٌ على الوالدينِ.

فنقول: لا تمكِن عبادة الله إلا بقضاءِ حقِّ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ؛ لأن العبادة لا بُدَّ لقبولها من شرطـينِ: أحدهما: الإخلاص لله، والثَّاني: المتابعة لرسولِ الله ﷺ، ولا تمكِن المتابعةُ إلا بقضاءِ حقِّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وعلى هذا فيكون حق الرَّسُول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ ضمنَ حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون مذكورًا في الآية ضمنًا.

وبعد حقِّ رسولِ اللهِ ﷺ حقُّ الوالدينِ، فحقهما على أولادهما أعظمُ الحقوقِ بعد حقِّ اللهِ ورسولِه، ولهذا لو أمركَ والداكَ بأمرٍ هو معصيةٌ لله ورسولِه حَرُمَ عليك طاعتهما فيه؛ لأنَّه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالقِ.

وإني أُوصيكم أيها الإخوة بتدبُّر هذه الحقوقِ الَّتي ذَكَرَها الله تَعَالَى في هذه الآيةِ تَدَبُّرًا كاملًا، ثمَّ بالعمل بهذه الحقوقِ، قال تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال:٢١]. فقولوا: سمِعنا وأطعنا، واعملوا بهذه الحقوقِ، حتَّى تكونوا من الفائزينَ.

أسأل الله أن يجعلني وإياكم من هؤلاءِ، وأن يُعِينَنا على ذِكرِه وشُكره وحُسن عبادته.

والحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

الدرس الخامس:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال تَعالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ القَضاءُ هُنا هُوَ القضاءُ الشَّرْعِيُّ، أَيْ: قَضَى رَبُّكَ شَرْعًا أَلا تَعبدوا إِلَّا إِيَّاهُ.

والقضاءُ يَنْقسمُ إلَى قِسْمينِ: قضاءٌ كونيٌّ، وقضاءٌ شرعيٌّ.

فَالقضاءُ الكَوْنِيُّ لا بُدَّ فِيهِ مِن وُقُوعِ المَقْضِيِّ، ويَتَعلق بِمَا يُحِبُّهُ اللهُ ومَا لَا يُحبه، ومنْ ذَلك قَولهُ تَعالَى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥]، ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ قضاءً كَوْنِيًّا.

ومنْ ذَلك أَيْضًا قَولهُ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤]، ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قضاءً كونيًا؛ لِأَنَّهُ تَعالَى لا يَقْضِي شرعًا بالفساد أبدًا، بَل هُوَ يَنْهَى عن الفَسَادِ، ولَا يُحِبُّ الفَسَادَ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ قضاءً شرعيًّا بالإجماعِ، أَيْ: قَضى ربُّك شرعًا ألا تَعبدوا إِلَّا إِيَّاه؛ لِأَنَّهُ لو قَضى ذَلك كَوْنًا مَا بَقِي أحَـد مُشركًا، ولَكان كُلُّ النَّاسِ يَعْبدونَ اللهَ وحدهُ، لَكنَّه قَضى شرعًا، أَيْ: أَمَرَ عبادَهُ أَلا يَعْبدوا إِلَّا إِيَّاه، فلَا يَعْبدونَ مَلَكًا، ولَا رَسولًا، ولا وليًّا، ولا شمسًا، ولا قمرًا، ولا كوكبًا، ولا شَجرًا، ولَا حجرًا، فلا نَعبدُ إِلَّا مَن خلقنَا عَزَّوَجَلَّ، وَلهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١].

وهُنَا يَرِدُ سُؤالٌ: مَعْلُومٌ أَنَّ حقَّ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أعظمُ منْ حقِّ الوَالدينَ؛ وَلهَذَا يَجِبُ أَنْ نفديَه بِأَنْفسنا، وَأَبْنَائنا، وأُمَّهاتنَا، وآبائنَا، وجميعِ الخلقِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فأينَ حَقهُ؟

الجَوابُ: هُوَ فِي ضِمنِ قولهِ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ لِأَنَّهُ لَا يُمكن أَنْ تَعبدَ اللهَ إِلَّا بِشَريعتهِ، وشَريعتهِ جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ، إِذَنْ فَحقُّ اللهِ مُتضمنٌ لِحَقِّ الرَّسُولِ ﷺ، وجْهُ ذلكَ أَنَّ العِبَادَةَ لَا تتمُّ إِلَّا بِإِخلاصٍ للهِ ومتابعةٍ لِرسولِ اللهِ ﷺ.

إِذَنْ قولهُ تَعَالَـى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ مُتضمـنٌ لِشَهادةِ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَـمَّدًا رسولُ اللهِ، فَأَركانُ الإِسْلامِ هِي: شهادةُ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وأَنَّ مُحَـمَّدًا رسولُ اللهِ، وإِقامُ الصَّلَاةِ، وإِيتاءُ الزَّكَاةِ، وصومُ رَمَضَانَ، وحجُّ البيتِ، فشهادةُ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ واحدٌ؛ لِأَنَّهمَا مُتضمِّنانِ، فَلَا يُمكن لِلعِبَادَةِ أَنْ تَصحَّ إِلَّا بالإخلاصِ للهِ وَالمتابعةِ لِرَسولِ اللهِ ﷺ.

إِذَنْ أَمَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ جَمِـيعَ الخلقِ أَنْ يَقومُوا بحقهِ وَحقِّ رَسـولهِ ﷺ؛ وذلكَ بِعِبَادته وَحْده، فَلَو عَبَدَ الإِنْسَانُ مُحَمَّدًا رَسولَ اللهِ ﷺ لكان مُشْركًا، فَمن قَالَ: مُحَمَّدٌ

سيدِي، مُحَمَّدٌ أَشْرف منِّي، سأَتَذَلل لَه، وأَركع لَه، وَأَسجد لهُ، فهَذَا شِرك، ومُحَمَّدٌ ﷺ أبْعَدُ النَّاسِ عنِ الشِّركِ، وأبغضُ الأعمالِ إِلَيْه الشركُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الوالدانِ هُمَا: الأمُّ والأبُ، والمعنَى: أَحْسِنُوا بِهما إحسانًا.

ومُعَاملةُ الإِنْسَانِ والدَيْه عَلَى ثَلَاثةِ أَقسامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: إساءةٌ.

القِسْمُ الثَّانِي: إِحْسانٌ.

القِسْمُ الثَّالِث: مَوقف سَلبيٌّ لَا إِسَاءة ولا إحسان.

فالواجبُ عَلَى الأبناءِ الإِحسانُ، فإِذَا أساءَ فَقد عَقَّ، وإِذَا لم يُحْسِنْ وَلَمْ يُسِئْ فقدْ عَقَّ، وإِذَا أحسنَ فقدْ بَرَّ.

وقدْ ثبتَ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قالَ: «**أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ**»، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ**»[1]، فذَكَر العقوقَ بعدَ الشِّركِ، وفِي الآيةِ ذِكرُ الإحسانِ بَعْدَ العِبَادَةِ.

فيجبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يُحْسِنَ إلى وَالِدَيهِ بالقولِ، والفعلِ، وكُلِّ مَا يَكُونُ إحسانًا، فَلا يَكْفِي أَنْ يُعْطِيَهُمَا المالَ الَّذِي يُنْفِقُ منهُ عَلَيْهما، ولَا يَكتَفي بأنْ يُلِينَ لَهما القولَ، فَلَا بُدَّ منَ البرِّ بِجَميع أَنْواعِهِ، وَلَا بُدَّ مِنَ الإِحسانِ بِجَميعِ أَنْواعهِ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، رقم (٢٥١١)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٨٧).

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: لَو أَمرهُ والداهُ بِمَعْصيةِ اللهِ أَيُطِيعهما؟

قُلْنَا: لَا يُطِيعهما، وَلَكن يُدَارِيهَا، وَيَنْصحهما، حَتَّى يقْتنعا، وَلَكن لَو أَصرَّا عَلَى أَنْ يفعلَ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَن يُطِيعهما، فَلَا يَخْشَى الابنُ منْ دُعاءِ الأبِ علَيْه؛ لِأَنَّ الَّذِي يُجِيبُ الدُّعَاءَ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ودُعَاءُ الأبِ عَلَى ولدِهِ لِقِيامه بِطَاعةِ الله ظُلْم، واللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى:٤٠]، ولَا يُمْكِن أَن يُجِيبَ الأبَ.

مثاله: رَجُلٌ أمَره أبَوَاه بِطلاق زَوْجته بِسَبب الغَيرةِ؛ وَكَانتِ الزَّوجةُ مُلْتَزِمَةً، والرَّجُلُ يُحِبُّها ويُكْرِمُها، فقَال الزَّوج: لَا أُطَلقها، فَيَجوز أَن يَعصيَ وَالدَيْه ولَا يُطلق زَوْجتهُ، بَلْ يَحْـرُمُ عَلَى الأمِّ والأبِ أَنْ يَأمرا وَلَدهما بِطَلاقِ الزوجـةِ. وَمَا أَمْرُهمَا بِطَلاق الزَّوجـةِ إِلَّا كَفِعل السَّحَرَةِ الَّذِينَ يُفَرِّقُونَ بِسِحرهم بَيْنَ المرءِ وزَوْجـه، وَنَقولُ: حَرامٌ عَلَى الأبِ وَعَلى الأمِّ أنْ يَأمرَا الولدَ بِطَلاقِ الزَّوجةِ، والولدُ لَا يَلزمهُ أَنْ يُطيعَهُمَا.

فإِنْ قَالَ: إذَا لمْ أُطَلقِ الزَّوجةَ غَضِبَا عَلَيَّ، وجعَل كلٌّ منهما يدعو عليَّ؟

قُلْنَا: فَلْيَغضبا، وليَدْعُـوَا؛ لِأَنَّ المَدْعُـوَّ وهُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لا يحـب الظالمين وَلَا يُجِيبهُمْ.

سُئِلَ الإمامُ أَحمدُ بنُ حَنبلَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِمامُ أهلِ السُّنَّةِ عنْ رَجُلٍ أَمَرَهُ أبوهُ أَنْ يُطلقَ زَوْجتهُ، فَجاءَ الابنُ يَستفتِي الإمامَ أَحْمدَ بنَ حنبلَ، فقالَ: لَا تُطَلِّقْها. فَما دَام لَيْسَ بِها نَقصٌ فِي شَرَفها وَلَا دِينِها، فَلا تُطَلِّقها.

فَأَوْرد علَيْهِ السَّائل، قالَ: يَا أَبَا عبدِ اللهِ، أَلَيْسَ ابنُ عُمَرَ أَمرهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُطَلِّقَ

زَوْجتهُ[1]؟ لِأَنَّ عُمَر أَمرَ عبدَ اللهِ أَنْ يُطَلِّقُها، وهَذَا إيرادٌ بالسُّنَّة، فقالَ لَهُ الإمامُ أحمدُ كَلِمَة تَدفع هَذَا الإيرادَ، قالَ: هَلْ أَبُوكَ عُمَرُ؟

كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ أَقْنَعَتِ الرجلَ، فَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يُمْكِن أَنْ يَأمرَ ابنَهُ بِطَلَاقِ امْرَأته لِغَرض شَخصيٍّ أبدًا، بَلْ لِأَمْرٍ قَد يَكُون عُمَرُ اطَّلَعَ علَيْه وعبدُ اللهِ لَمْ يَطَّلع عَلَيْه.

فإِذَا قَالَ الوَالدانِ لابْنِهما: لَا تكُنْ مَعَ هَؤُلاءِ المُلْتَزمينَ، ولَا تكنْ دَائمًا فِي المكتبةِ، ولَا تَصُمِ الاثنينِ والخميسَ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهلْ يَلزمهُ أَنْ يُطِيعَهما؟

لَا يَلْزمه أَنْ يُطيعَهما؛ لِأَنَّ التِزَامه لَا يَضُرهما، وعَدمَ التِزَامه لَيْسَ إحسانًا إليهما، وَاللهُ تَعَالَى إِنَّما أَمَر بالإحسانِ، فأيُّ فائدةٍ لهُما إِذَا لَم يَكنِ الولدُ مُلتزمًا؟ لا فائدةَ، بَلْ إذَا كَانَ مُلْتزمًا فهوَ الفائدةُ؛ لِأَنَّهُ «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[2]، فَكُلَّما صَلُحَ الأبناءُ فَهم مَصْلحة لِلْوالدينِ فِي الحياةِ وَفِي المماتِ.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾.

(مَا) مُؤكدةٌ؛ لِأَنَّ جَميع الحُروف الزَّوائد يُؤتَى بِها للتَّوْكيدِ، والمعْنَى: إِذَا بَلَغَ أَحدُهما أَوْ كِلَاهمَا الكِبَرَ ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾؛ لِأَنَّ الإنْسَانَ إِذَا بَلَغَ الكِبَرُ صَارَ ثَقِيلًا عَلَى العائلةِ، وصارَ شَبِيهًا بِالصبيِّ، فيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في بر الوالدين، رقم (٥١٣٨)، والترمذي: أبواب الطلاق، باب ما جاء في الرجل يسأله أبوه أن يطلق زوجته، رقم (١١٨٩)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب الرجل يأمره أبوه بطلاق امرأته، رقم (٢٠٨٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾، أَيْ: لَا تَتَضجَّر، فَقَد يَكُونُ الأَبُ شَيخًا كَبِيرًا، وذَاكرتهُ العَقليَّة ضَعِيفةٌ، فَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتضجَّرَ مِنْ هَذَا، والواجبُ أَنْ يَصْبِرَ.

قَوْلُهُ: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾أَيْ: حسنًا ليِّنًا، شارحًا لصدرَيْهما.

قَوْلُهُ: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ الذُّلّ ضِدُّه العزُّ، والعزيزُ دائمًا مُتعَالٍ، مُترفعٌ كَالطُّيـور، فَقَالَ: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ أَيْ: لَا تتعَالَ ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ يَعني: ارْحَمِ الوالدَيْنِ إِذَا بَلغَا هَذِهِ السِّنَّ.

قَوْلُهُ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

تَذكَّر حِينَما كُنت فِي المهدِ تَتَألم أمُّك لألمكَ، وتَسْهر لِسَهركَ، وتُنَظِّفُك مِنَ البولِ والغائطِ والقَيْءِ، وتَأْتي بِالثِّيابِ لِتُلْبسكَ إيَّاها، وَتَذَكَّر أَباكَ يَجوبُ الفيافِيَ، ويَطْرق الأبوابَ لِلرزقِ مِنْ أَجل أَنْ يقومَ بِكِفايتكَ، فَتعب الأمِّ والأبِ عَلَى أولادهمَا تَعبًا لَا يُدْركه إِلَّا مَن آتَاهُ الله أولادًا.

تَذَكَّر حِينَما كُنت لَا تملِك لِنفسك نَفعًا ولَا ضرًّا، فمَن قَام بِتَرْبيتكَ جِسميًّا وعقليًّا وذهنيًّا؟ إنهما الوَالدانِ بِأَمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وبمَا جَعلَ اللهُ فِي قُلُوبِهما منَ الرَّحمـة، فيجبُ عَلَيْنا القِيام بِحَقِّ الوالدينِ كَما أَمَرنَا اللهُ تَعَالَى.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس السادس:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعـمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْـلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشـهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فقد قالَ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ إلى قَولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٣-٣٩]. في هـذه الآياتِ الكريمـةِ وصايا عظِيمَة.

قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ والقَضاءُ هنا قَضَاءٌ شَرْعِـيٌّ، وليسَ قضاءً كَوْنِيًّا قَدَرِيًّا، وذلك أن قضاءَ الله ينْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: قَضَاءٍ كَوْنِيٍّ وقضاءٍ شَرْعِيٍّ.

فأما القضاءُ الكَوْنِيُّ فإنه لا بُدَّ فيه مِنْ نُفوذِ المقْضِيِّ عَلَى مَنِ القَضاءُ عليهِ، ومِنْه قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٤٧]؛ إذا قضى أمـرًا أي: قَضاهُ قَضَاءً كونيًّا قَدَرِيًّا فإنما يقولُ له: كُنْ فيكونُ، ولا بُدَّ أن يقعَ.

مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤]، فإن هَذَا قضاءٌ كَوْنِيٌّ قَدَرِيٌّ.

أما القضاءُ الشَّرْعِيُّ فإن المقْضِيَّ عليهِ قد يُنَفِّذُ ما قُضِي عليهِ بهِ وقد لا يُنَفِّذُهُ، مثلُ هذه الآيـةِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، فإنَّه لو كان قَضَاءً كَوْنِيًّا قدَرِيًّا ما أَشْرَكَ أحدٌ باللهِ شيئًا، ولكنه قضاءٌ شَرْعِيٌّ قد ينفِّذُهُ المقْضِيُّ عليه وقد لا يُنَفِّذُهُ.

في هذِه الآياتِ الكريمَةِ قَضَى اللهُ تعالى على عبادِه قَضاءً شَرْعِيًّا، عَهِدَ به إليهِمْ، ووصَّاهُمْ بِهِ.

أوَّلًا: الحقُّ الأعْظَمُ والأَوْلَى مِنْ كلِّ حَقٍّ، وهو حَقُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يَعْبُدَ معَ اللهِ غيرَهُ، لا مَلَكًا مُقَرَّبًا، ولا نَبيًّا مُرْسَلًا، ولا طَبيعَةً، ولا قَمرًا، ولا نُجُومًا، ولا شَمْسًا، ولا غير ذلك، فالعبادَةُ للهِ وحْدَهُ.

هذا هو الحقُّ الأوَّلُ والأَوْلَى والأَوْجَبُ من جميعِ الحقوقِ، ويدْخُل فيه حَقُّ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو المبَيِّنُ للطُّرُقِ التي يُعبَدُ اللهُ بِها، فلهذَا كان حقُّ رسولِ الله ﷺ دَاخِلًا فِي حَقِّ اللهِ، ولهذا جَعَلَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ شهادَةَ أن لَا إلهَ إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ؛ جَعَلَها رُكْنًا واحدًا حينَ عَدَّ أركانَ الإسلامِ في قَولِهِ -فيما ثَبَتَ عنْه في الصَّحِيحينِ مِنْ حديثِ ابن عُمَرَ-: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»(١).

وبهذا ينْدَفِعُ الإشكالُ الذي يورِدُه من يُورِدُهُ من الناس فيقولُ: لم يُذْكَرْ في هذِه الآياتِ حقُّ رسولِ اللهِ ﷺ مع أن حقَّ رسولِ اللهِ ﷺ أعظَمُ علينا من حَقِّ الوالِدَيْنِ.

فيقالُ في الجوابِ عنْه: إن حَقَّ رسولِ اللهِ ﷺ داخِلٌ في حَقِّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الحقُّ الثَّاني: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ حقُّ الوالِدَيْنِ وهمَا البشرانِ اللَّذانِ هُما سَبَبُ وجُودِكَ، فلولَا أبوكَ وأمُّكَ ما وُجِدْتَ، فهُمَا سببُ وُجُودِكَ، وهما اللذان يُغَذِّيانِكَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ**» رقم (٨)، ومسلم: كتاب الإيمان باب أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم (١٦).

فِي حالِ الطفولَةِ، بل وفي حالِ الحَمْلِ فإن الجَنينَ في بطنِ أمِّـه يتغَذَّى مِنْ دَمِ أمِّـه بواسِطَةِ حبْلِ السُّرَّةِ الموصولِ بالرَّحِمِ، وذلك بتَقْدِيرِ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ.

قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ يعنـي: أمَرَ أنْ نُحسِنَ إلى الوالِدَينِ الأب والأم، وكذلك الجَدُّ والجَدَّةُ، وأبو الجَدِّ وأبو الجَدَّةِ، وأم الجدَّةِ، وإن عَلَوْا، ولكنَّ أحقَّهم بذلِكَ هما الوالدانِ الأب والأم.

وقولُهُ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ خَرَجَ به أمرانِ:

الأمرُ الأوَّلُ: الإساءَةُ إلى الوَالِدَيْنِ، **والأمرُ الثَّانِي**: أن يكونَ مَوقِفُ الإنسانِ مِنْ والِدَيْهِ موقِفًا سَلْبِيًّا؛ لا إساءة فيهِ ولا إحسان.

فالواجبُ عليـكَ أيها المسلِمُ أن تُحْسِنَ إلى والِدَيْكَ، تحسِنَ إليهِمَا بالقَوْلِ، وتحسِنَ إليهِمَا بالفِعْلِ، وتُحْسِنَ إليهما بِبَذْلِ المالِ، وتقولَ لهُما قَولًا كَرِيمًا، وتَبْذُلَ لهما مِنَ المالِ ما تَقُومُ بِهِ حاجاتُهما وكَمالُها، وكذلك تُحسِنَ إليهما بالبِدَنِ بالخِدْمَةِ التي تَليقُ بهِمَا.

ثم قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾، (إنْ) هـذه شرطِيَّةٌ مؤكَّـدٌ فيها الشَّرْطُ بـ(ما) الزائدةِ إعْـرَابًا، وأصلُ ذلِكَ (إنْ ما).

قال: ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ وأُكد الفِعْلُ بنونِ التَّوكيدِ لأجلِ أن يَتبَيَّنَ أنه إذا بَلَغَ الوالِدَانِ الكِبَرَ عندَ الإنسانِ، وبلوغِ الكِبَرِ في الغالِبِ يكونُ معَه ضِيقُ النَّفْسِ، ويكون مَعَهُ الثِّقَلُ، ويكون مَعه الحاجَـةُ الشدِيدَةُ إلى الخِدْمَـةِ، وحينئذٍ يَضْجَرُ الولَدُ من ذلِكَ، فبـيَّنَ اللهُ في هذِهِ الحـال أنهما إذا بَلَغَا الكِـبَرَ عنْدَك أيها الولدُ ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾،

أفٍّ بمَعْنَى: أَتَضَجَّرُ، يعنِـي لا تَتَضَجَّرْ منْهُما، ولكِنِ اصبِرْ على ما يحصُلُ لكَ مِنَ الأذَى والمشَقَّةِ ببُلُوغِهِما الكِبرَ.

ولما كانت هذه الحالُ سَبَبًا لضَجَرِ الإنسانِ، وعَدَمِ تحمُّلِهِ الصبرَ على والِدَيْهِ، نَصَّ اللهُ عليهَا، وإلا فإن الحُكْمَ عامٌّ حتى فِيمَا إذا لـم يَبْلُغَا الكِبَرَ، فإنَّه لا يجوزُ للمَرْءِ أن يتَضَجَّرَ مِنْ والِدَيهِ.

واعلم يا أخِي المسلِم أن بِرَّ الوالِدَيْنِ فيه مصَالِحُ عظيمَةٌ في الدنيا والآخِرَةِ، أما مصالِح الدُّنْيا فإنَّ الغالِبَ أن مَنْ ضرَبَ والِدَيْهِ ضَرَبَه أولادُه، وأما في الآخِرَةِ فإنَّ في بِرِّ الوالِدَيْنِ ثَوابًا عظيمًا، وقَدْ ورَدَ في الحديث قِصَّة الثلاثَةِ نَفَرِ الَّذِين آواهُم الليلُ إلى غار: «خَرَجَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ فَأَصَابَهُمُ المَطَرُ، فَدَخَلُوا فِي غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ادْعُوا اللهَ بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنِّي كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَرْعَى، ثُمَّ أَجِيءُ فَأَحْلُبُ فَأَجِيءُ بِالحِلابِ، فَآتِي بِهِ أَبَوَيَّ فَيَشْرَبَانِ، ثُمَّ أَسْقِـي الصِّبْيَةَ وَأَهْلِي وَامْرَأَتِي، فَاحْتَبَسْتُ لَيْلَةً، فَجِئْتُ فَإِذَا هُمَا نَائِمَانِ، قَالَ: فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمَا، حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، قَالَ: فَفُرِجَ عَنْهُمْ، وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُحِبُّ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ عَمِّي كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ النِّسَاءَ، فَقَالَتْ: لا تَنَالُ ذَلِكَ مِنْهَا حَتَّى تُعْطِيَهَا مِئَةَ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ فِيهَا حَتَّى جَمَعْتُهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: اتَّقِ اللهَ وَلا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ وَتَرَكْتُهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً،

قَالَ: فَفَرَجَ عَنْهُمُ الثُّلُثَيْنِ، وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقٍ مِنْ ذُرَةٍ فَأَعْطَيْتُهُ، وَأَبَى ذَاكَ أَنْ يَأْخُذَ، فَعَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ، حَتَّى اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ أَعْطِنِي حَقِّي، فَقُلْتُ: انْطَلِقْ إِلَى تِلْكَ البَقَرِ وَرَاعِيهَا فَإِنَّهَا لَكَ، فَقَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ بِي؟ قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ وَلَكِنَّهَا لَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا، فَكُشِفَ عَنْهُمْ»[1].

في هذا الحدِيثِ دَلِيلٌ على أنَّ بِرَّ الوالِدَيْنِ سببٌ لتَفْرِيجِ الكُرُباتِ والإغاثَةِ مِنَ الشدائِدِ، وهذا هُو ما نُريدُ أن يكونَ الإنسانُ قائمًا بِه، ليُيَسِّرُ اللهُ لَهُ الأمورَ ويفَرِّجَ الكُروبَ.

قال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، قولًا حَسَنًا ليس فيهِ فظاظَةٌ وليسَ فيهِ جَفافٌ.

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ قولٌ كريمٌ ينبَسِطَانِ بِه وتَنْشَرِحُ لَهُ صُدُورُهما، ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ دليلٌ على أنه يجِبُ أن يتذَكَّرَ الإنسانُ حالَ صِغَرِهِ، حين كان لا يمْلِكُ لنفسِهِ نَفْعًا ولا ضَرًّا، فقامَ أبوه وأُمُّه بتَرْبِيَتِهِ حتى كَبِرَ، فنسأَلُ اللهَ تعالى أن يجعَلَنَا جَمِيعًا ممن قامُوا ببِرِّ والِدِيهِمْ.

اللَّهُمَّ ارْحَمْهما كما رَبَّيَانَا صِغارًا، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لهُما، اللَّهُمَّ أَسْكِنْهُما جناتِ النَّعِيمِ برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضي، رقم (٢٢١٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، رقم (٢٧٤٣).

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس السابع:

إن الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفسِنا، ومنْ سيئاتِ أعمالِنَا، مَن يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومَن يضلِلْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، وخليلُه وأمينُه على وحيِه، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تَبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أما بعدُ:**

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ

ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:٢٣-٣٨].

وهذه حقوقٌ عظيمةٌ، ابتدأَهَا اللهُ تعالى بحقِّه الذي هوَ أعظمُ الحقوقِ على الإطلاقِ فقالَ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، والقضاءُ هنا قضاء شرعيٌّ بمعنى الأمرِ، أي أمرَ ألا تعبدُوا إلا إياهُ أمرًا مقضيًّا شرعًا لا بدَّ منهُ لكلِّ مخلوقٍ. وهذا الذي قضاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على عبادِهِ هوَ الذي أرسلَ بهِ جميعَ رسلِه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وهذا هوَ الحقُّ الأولُ في هذهِ الآياتِ الكريمةِ.

واعلمْ أن القضاءَ ينقسمُ إلى قسمينِ: قضاءٌ كونيٌّ وقضاءٌ شرعيٌّ، والفرقُ بينهما منْ وجهينِ:

الوجهُ الأولُ: أن القضاءَ الكونيَّ لا بدَّ فيه منْ وقوعِ المقضِيِّ، ولا يمكنُ أن يتخلفَ أبدًا، وأما القضاءُ الشرعيُّ فقدْ يقومُ بهِ المقضِي عليهمْ وقد لا يقومونَ بهِ.

والوجهُ الثاني: أن القضاءَ الكونيَّ يكونُ في الأمورِ المحبوبةِ إلى اللهِ، ويكونُ في الأمورِ المكروهةِ إليهِ، وأما القضاءُ الشرعيُّ فلا يكونُ إلا في الأمورِ المحبوبةِ إليهِ.

إذنْ قَضى أي شرعَ، ولنأتِ بأمثلةٍ:

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ:١٤] منَ القضاءِ الكونيِّ؛ لأن مَعنى ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي قدَّرنا عليهِ الموتَ، والذي قضى اللهُ عليهِ الموتَ هوَ سليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي أعطاهُ

اللهُ تعالى مُلكًا لا ينبغِي لأحدٍ مِن بعدِه، والذي أكلَ عصَاه التي يَتكِئُ عليها دابةُ الأرضِ، وهيَ أخسُّ الدوابِّ، وهيَ الأَرَضَةُ، أكلتِ العصَا فسقطَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ميتًا.

وقالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤]، فهذا مـنَ القضاءِ الكـونيِّ؛ لأن اللهَ تعالـى لا يُمكنُ أن يأمرَ بالفسادِ.

إذنِ القضاءُ الذي يتعلقُ فيما يحبُّه اللهُ ويكرهُه ولا بدَّ مِن وقوعِهِ هوَ الكونيُّ، والقضاءُ الذي قـد يقعُ منَ المقضيِّ عليهِ وقدْ لا يقعُ وهوَ مما يحبُّهُ اللهُ هوَ القضاءُ الشرعيُّ.

قولُه تعالـى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: ألا تَتذلَّلُوا إلا للهِ وحـدَه بالعبادةِ، والعبادةُ قالَ عنها شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه اللهُ ويرضاهُ[1]، فكل ما يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ فهوَ عبادةٌ؛ كالطهارةِ والصلاةِ والزكاةِ والصيامِ، والحجِّ والعمرةِ، وبرِّ الوالدينِ، وصلةِ الأرحامِ، والصدقِ والإحسانِ، وغيرِ ذلكَ، فهذا كلُّه عبادةٌ.

وقولُه: ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: لا تعبدْ إلا ربَّكَ، وضدُّ ذلكَ مَن عبدَ غيرَ اللهِ، فالذينَ يسجدونَ لأصنامٍ لم يعبدُوا اللهَ، والذينَ يسجدونَ للقبورِ لم يَعبدُوا اللهَ، والذينَ يأتونَ إلى القبورِ يستغيثونَ بها لم يَعبدوا اللهَ، وحتى لو صَلَّوا وصامُوا وهمْ يصلونَ لقبرٍ، ويسألونَ صاحبَ القبرِ أن يدفعَ عنهمُ الضررَ، ويجلِبَ لهمُ النفعَ، فإن هؤلاءِ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

مشركونَ باللهِ شركًا أكبرَ خارجونَ بهِ عن دينِ الإسلامِ، حرَّمَ اللهُ عليهمُ الجنةَ، ومأواهُمُ النارُ وما للظالمينَ من أنصارٍ.

فهذا الأمرُ الذي وقعَ فيهِ بعضُ المسلمينَ إما جهلًا وإما تقليدًا هذا شركٌ أكبرُ، فإذا جاءَ إلى صاحبِ القبرِ وقالَ: يا سيدِي فلان أنقِذْنِي مما أنا فيهِ منَ الشدةِ، فإننا نقولُ لهُ: هذا مشركٌ شركًا أكبرَ مخرجًا عنِ الملةِ، وموجبًا للخلودِ في نارِ جهنمَ، وموجبًا لحرمانِ دخولِ الجنةِ.

وهذا الرجلُ بعدَ أن يَدعُو هذا الدعاءَ يذهبُ إلى المسجدِ ويصلي للهِ، فهلْ يكونُ مشركًا، أو نقولُ: إن صلاتَه هذهِ أنقذَتْهُ منَ الشركِ؟

الجوابُ عندي: يكونُ مشركًا، وصلاتُه هذهِ لم تُنقذْهُ منَ الشركِ، ولنْ تُقبلَ منهُ، إلا إذا تابَ إلى اللهِ مما صنعَ منْ الِاستغاثةِ بالأمواتِ، والاستعانةِ بهِمْ، والاستعاذةِ بهم، فحينئذٍ ينجُو منَ الشركِ، وإلا فإن كلَّ ما عملَهُ المشركُ مِن عملٍ كما قالَ حكمُ العليِّ الكبيرِ فيهِ، حيثُ يقولُ: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

وهذهِ المسألةُ خطيرةٌ جدًّا، فنسمعُ أنهُ يوجدُ في البلادِ الإسلاميةِ مَن يترددُ إلى القبورِ التي يزعمونَ أن أصحابَها أولياء للهِ، ويستغيثونَ بهم عندَ الشدائدِ، ويرونَ أن قولَهم: يا فلانُ أغثنِي أبلغُ مِن قولِهم: يا ربَّ العالمينَ أَغثني، أعوذُ باللهِ! جثثٌ هامدةٌ لا تملكُ لنفسِها نفعًا ولا ضَرًّا مفتقرةٌ إلى مَن يَدعو اللهَ لها؛ كيفَ يمكنُ أن تنفعَ؟!

واستمعْ إلى حكمِ اللهِ العليِّ الكبيرِ في هؤلاءِ وأمثالِهم، حيثُ قالَ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وهذا الاستفهامُ صادرٌ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكلِّ إنسانٍ، فلا أحدَ أضلُّ من هذا؛ ممن يَدعو مِن دونِ اللهِ منْ لا يستجيبُ لهُ إلى يومِ القيامةِ، ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥] لا يسمعونَ دُعاءَهُم ولا يستجيبونَ لهمْ، ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦] فالمدعُوونَ الذينَ يَتولَّاهُم هؤلاءِ ويَدعُونهم؛ إذا كانَ يومُ القيامةِ كانَ المدعوونَ لهؤلاءِ الداعينَ أعداء، وكانوا بعبادتِهم كافرينَ.

قالَ تَعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦].

أمَّا حكمُ اللهِ في هؤلاءِ المدعوِّينَ فقد قالَ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣]، والقِطميرُ: الغلافُ الذي يكونُ على نواةِ التمرِ؛ بذرُ النخلِ، وهوَ مَثلٌ يُضربُ للشيءِ الحقيرِ. وفي النواةِ أيضًا الفتيلُ، وهو الخيطُ الذي في الشقِّ، والنقيرُ: نُقرةٌ في ظهرِ النواةِ، ومنهُ يخرجُ السرُّ الذي يكونُ بهِ نباتُ النواةِ.

نعودُ إلى بيانِ حكمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في هؤلاءِ المدعوينَ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ على الفرض والتقدير ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٣-١٤] يعني لا يُنبِّئُكَ مثلُ خبيرٍ بهذا، وهوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

إذنْ عبادةُ غيرِ اللهِ سَفَهٌ في العقولِ، وضلالٌ في الدينِ، فكلُّ إنسانٍ دَعا غيرَ اللهِ فهوَ سفيهٌ في عقلِه، ضالٌّ في دينِه.

فإذا كانَ الرجلُ صاحبُ القبرِ منَ الأولياءِ، وقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]، فهؤلاءِ الذينَ حَكَمَ اللهُ لهمْ بانتفاءِ الخوفِ والحزنِ أليسُوا أهلًا لئن يُدعَوْا؟

الجوابُ: لا؛ لأننا أولًا نسألُ: هلْ هذا الذي زعمَ هؤلاءِ أنهُ فلانُ بنُ فلانٍ وأنهُ وليٌّ للهِ، هل هوَ صحيحٌ أن هذا قبرُهُ؛ لأنهُ أحيانًا يقالُ: هذا قبرُ فلانٍ، ولم يثبتْ، هذهِ واحدةٌ.

ثم إذا ثبتَ فهذا الرجلُ هل عُرفَ بالإيمانِ والتقوى حتى يكونَ منْ أولياءِ اللهِ، أم عُرفَ بتقديسِ نفسِه ودعوةِ الناسِ إلى تقديسِ نفسِه؟ لا بد أن يُنظرَ، ثم إذا ثبتَ أنهُ مِن الأولياءِ هلْ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: فادعُوا أوليائِي فإنهمْ يجيبونَكُم؟ أبدًا. إذنْ لا حجةَ في هذهِ الآيةِ.

ولو قالَ قائلٌ: إنهُ يدعو هذا وسيلةً إلى اللهِ.

قلنَا: هذا كذبٌ مِن وجهينِ:

الوجهُ الأولُ: أن الوسيلةَ نفسَها لا تُدعَى، وهؤلاءِ يدعونَ صاحبَ القبرِ.

الوجهُ الثاني: أن الوسيلةَ المذكورةَ في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥] المرادُ بها ما يُوصلُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنهُ

قالَ: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، ولا يوصلُ إلى اللهِ إلا طريقُ اللهِ الذي شرَعَهُ للعبادِ، وهوَ الصراطُ المستقيمُ، فهذهِ هيَ الوسيلةُ، فأيُّ طريقٍ تتجهُ إليهِ لتصلَ إلى اللهِ فإنكَ ستجدُه مسدودًا، إلا الطريقَ الذي شرعَهُ اللهُ للعبادِ.

فالوسيلةُ هنا ليستْ هيَ الشخصَ الذي يُدعى مِن دونِ اللهِ، إنما الوسيلةُ هيَ الشريعةُ التي تُوصِلُكَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ اللهَ قالَ: (ابتغوا) أي: اطلبُوا الوسيلةَ إليهِ.

على كلِّ حالٍ لا نحبُّ أن نطيلَ في هذا؛ لأنهُ أمرٌ واضحٌ وللهِ الحمدُ، ولولا أن اللهَ أعمى بصائرَ أقوامٍ، أو وجدُوا آباءَهُم على أمةٍ وقالُوا: إنا على آثارِهِم مهتدونَ؛ ما كانَ هناكَ نزاعٌ.

قولُه: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ يعني: وأَحسِنُوا بالوالدينِ إحسانًا، وعلى هذا فتكونُ (إحسانًا) مصدرًا عاملُها محذوفٌ، أي: وأَحسِنُوا بالوالدينِ إحسانًا.

فإن قالَ قائلٌ: فالحقوقُ ثلاثةٌ: حقُّ اللهِ، وحقُّ الرسولِ، وحقُّ مَن سِوى الرسولِ منَ المخلوقينَ، فأينَ حقُّ الرسولِ؟ فما ذُكرَ في الآيةِ؛ قالَ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ثم قال: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾؟

قلنَا: لا يمكنُ أن تُحقَّقَ العبادةُ إلا بالقيامِ بحقِّ الرسولِ، وعلى هذا فيكونُ حقُّ الرسولِ داخلًا في حقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ العبادةَ شَرطُها أمرانِ: الإخلاصُ للهِ، والثاني: المتابعةُ لرسولِ اللهِ ﷺ، فلو أن إنسانًا أخلصَ للهِ ولكن بدونِ متابعةٍ فلا يكونُ عابدًا للهِ، فالإنسانُ إذا أخلصَ للهِ إخلاصًا تامًّا، لا يقصدُ رياءً ولا سمعةً، ولكنه على غيرِ شريعةِ اللهِ، يعني على غيرِ ما جاءَ بِهِ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنهُ لا يكونُ

عابدًا للهِ وعملُه مردودٌ، مهما تابَ ومهما أخلصَ، والدَّليلُ على هذا قولُهُ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»، أي مردودٌ عليهِ، واللفظُ الثاني: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[1] إذن يكون حقُّ الرسولِ ﷺ داخلًا في حقِّ اللهِ، ثم بالوالدينِ إحسانًا.

ولوْ تأملتُمُ الشريعةَ والأعمالَ لوجدتُم هذا الترتيبَ: أولا حقُّ اللهِ، ثم حقُّ الرسولِ، ثم الحقُّ الثالثُ حسبَ المناسبةِ، ففي التحياتِ للهِ أولُ ما ذُكر فِيها حقُّ اللهِ، ثم «السلامُ عليكَ أيها النبيُّ» حقُّ الرسولِ، ثم حقُّ الإنسانِ أولًا، ثم حقُّ سائرِ المؤمنينَ: «السلامُ علينَا وعلى عبادِ اللهِ الصالحينَ».

فصارَ حقُّ اللهِ مقدمًّا على حقِّ النفسِ، وحقُّ الرسولِ مقدمًا على حقِّ النفسِ، ولكنهُ بعدَ حقِّ اللهِ، والثالثُ حقُّنا، والرابعُ حقُّ غيرِنا من عبادِ اللهِ الصالحينَ.

وفي صلاةِ الجنازةِ أولُ ما نكبرُ نقرأُ الفاتحةَ، وهيَ للهِ، وفي التكبيرةِ الثانيةِ الصلاةُ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وهيَ حقُّ الرسولِ، وفي الثالثةِ الدعاءُ لنا؛ لكلِّ حيٍّ منا، وأولُ ما يدخلُ فيها ذلكَ الإنسانُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا**»[2] ثم بعدُ الدعاءُ للميتِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت، رقم (٣٢٠١)، والترمذي: أبواب الجنائز، باب ما يقول في الصلاة على الميت، رقم (١٠٢٤)، والنسائي في الكبرى (٩/ ٣٩٦، رقم ١٠٨٥٢)، وابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في الدعاء في الصلاة على الجنازة، رقم (١٤٩٨).

والمهمُّ -أيها الإخوةُ- أن تجعلُوا حقَّ اللهِ فوقَ كلِّ حقٍّ، ثم حقّ الرسولِ ﷺ، ثم الحقّ المناسب، وهذا على حسبِ ما تقتضيهِ الحالُ.

فلو قالَ قائلٌ: منْ حقِّ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن نمدحَهُ ونثنيَ عليهِ.

قلنَا: نعمْ حقٌّ أن نُثنيَ على الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ونذكرَ ما أعطاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ منَ الخصالِ الحميدةِ والشمائلِ المفيدةِ، ولكنْ لا نتعدَّى حدَّنا بالغلوِّ فيهِ؛ لأن غلوَّنا فيهِ عنوانٌ على أننَا لم نَنْقَدْ لشريعتِه؛ فإن النبيَّ ﷺ نفسَه يُنكرُ الغلوَّ فيهِ ويقولُ: «**فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(١)، فالغلوُّ الزائدُ ليسَ مِن حقِّ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بلْ مَن غَلَا فيهِ فإنهُ منتقِصٌ حقَّه؛ لأن أعظمَ حقوقِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن نطيعَهُ فيما أمرَ، وأن ننتهيَ عما نَهى عنهُ، فإن خلافَ ذلكَ ليسَ مِنِ احترامِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا مِن تشريفِهِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ.

وهذهِ نقطةٌ يجبُ على كلِّ مؤمنٍ أن يَعرِفَها، وألا يَتعدَّى فيها حدودَ اللهِ، واستمعْ إلى قولِ اللهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١]، فنهانا اللهُ أن نتقدمَ بينَ يدي اللهِ ورسولِهِ بكلِّ أمرٍ، فلا نوجبُ ما لا يوجبُه اللهُ، ولا نُحرِّمُ ما لم يحرمْهُ اللهُ، ولا نبيحُ ما لم يبحهُ اللهُ، بل نكونُ تابعينَ لأمرِ اللهِ ورسولِه، بل حتى رفعَ الصوتِ فوقَ صوتِه ولو بالحقِّ محرمٌ؛ لأن اللهَ قالَ بعدَ الآيةِ نفسِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ يعني كراهة أن تحبط أعمالكم ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم:١٦]، رقم (٣٤٤٥).

لما نزلتْ هذهِ الآيةُ كانَ ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَهْوَرِيَّ الصوتِ، فانحبَس في بيتِه يبكِي، ففقدَهُ النبيُّ ﷺ؛ لأن مِن هدي الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه يتفقدُ أصحابَه: لماذا تخلفَ فلانٌ؟ لماذا لم يحضرْ فلانٌ؟ لأن هذا مِن تمامِ الرعايةِ، ورسولُ اللهِ ﷺ هوَ راعي أمتِه، جزاهُ اللهُ خيرًا وصَلَّى اللهُ وسلمَ عليهِ، فلما سألَ عنهُ أخبرُوه أنهُ يَخشَى أن يكونَ مِن أهلِ النارِ، فقالَ: «**بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»[1].

وقالَ لهُ ﷺ: «**يَا ثَابِتُ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا وَتُقْتَلَ شَهِيدًا وَتَدْخُلَ الجَنَّةِ**»[2].

اللهمَّ صلِّ وسلمْ على رسولِ اللهِ، بشارةٌ عظيمةٌ وقعتْ بهذا الرجلِ الذي كانَ في قلبِه أشدُّ الخوفِ مِن أن يُحبطَ عملُهُ وهوَ لا يشعرُ، والعامةُ يقولونَ في أمثالِهِمْ: «منْ خافَ سَلِمَ». فانظرْ يا أخي كيفَ تكونُ عاقبةُ المتقينَ، فهذا الرجلُ جاءَهُ ثلاثُ بشاراتٍ، ولهذا يجبُ علينا نحنُ الآنَ أن نشهدَ بأن ثابتَ بنَ قيسِ بنِ شماسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدخلُ الجنةَ، ونحنُ بعدَهُ بالقرنِ الرابعَ عشرَ؛ لأن النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ شهِدَ لهُ بذلكَ، وفعلًا عاشَ الرجلُ حميدًا، وقتلَ شهيدًا، والثالثةُ نشهدُ بها أنهُ يدخلُ الجنةَ.

والعجبُ مِن هذا الرجلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهُ أوصَى بعدَ موتِه وبعدَ أن دُفنَ، ونُفذتْ وصيتُه، ولا يعلمُ أحدٌ نُفذتْ وصيتُه بعدَ موتِه غيرُ ثابتِ بنِ قيسِ بنِ شماسٍ، يعني لو الإنسان ماتَ وراَهُ صديقُه في المنامِ؛ لأنهُ لما قُتلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وقعةِ اليمامةِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة، رقم (٣٦١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله، رقم (١١٩).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٦/ ١٢٥، رقم ٧١٦٧).

مرَّ بِهِ أحدُ الجنودِ فأخذَ درعَه -والدرعُ هوَ لباسٌ من حديد؛ حِلق، يلبسُه المقاتلُ ليتقيَ بِهِ السهامَ- وكانَ منزلُ هذا الرجلِ في أقصى المعسكرِ، فوضعَه تحتَ بُرمةٍ -والبرمةُ قِدرٌ من خزفٍ، أي مِن طينٍ محمًى أو فخارٍ- فرآهُ صاحبٌ لهُ في المنامِ وقالَ لهُ: إن أحدَ الجنودِ مرَّ بِهِ وأخذَ درعَهُ ووضعَهُ تحتَ برمةٍ في أقصى العسكرِ، وحولَهُ فرسٌ يَستنُّ، يعني أعطاهُ أمارتينِ: أولا: تحتَ البرمةِ، وثانيا: حولَهُ الفرسُ.

فذهبَ الرجلُ وأخبرَ القائدَ خالدَ بنَ الوليدِ الخبرَ، وذهبُوا إلى المكانِ ووجدُوا الدرعَ تحتَ البُرمةِ وحولَهُ الفرسُ الذي يَستَنُّ، ورفعوا الأمرَ إلى أبي بكرٍ الصديقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأنفذَ وصيةَ ثابتِ بنِ قيسِ بنِ شماسٍ[1].

لنرجعِ الآنَ إلى المقصودِ، وهوَ أن قولَه تَعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ يشملُ حقَّ اللهِ وحقَّ الرسولِ؛ لأنهُ لا تُمكنُ العبادةُ إلا بأداءِ حقِّ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ أن تَعملَ بشريعتِه، ولنْ تعملَ بشريعتِه إلا وأنتَ تؤمنُ بأنهُ رسولُ اللهِ؛ إذ لو كانَ ليسَ رسولَ اللهِ ما عمِلتَ بشريعتِه، وإذا علمتَ أنهُ رسولُ اللهِ فإنكَ سوفَ تصدِّقُ بكلِّ ما أخبرَ بِهِ، وهذا هوَ حقيقةُ شهادةِ أن محمدًا رسولُ اللهِ.

أما الحقُّ الثالثُ -وقد ذكرنَا حقينِ: حقَّ اللهِ وحقَّ الرسولِ ﷺ- فحقُّ الوالدينِ، وأعظمُ الناسِ حقًّا عليكَ غيرَ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هوَ الوالدانِ: الأمُّ تحملُكَ في بطنِها كُرهًا وتضعُك كُرهًا، تحملُك وَهنًا؛ أي ضَعفًا، على وهنٍ؛ أي على ضعفٍ، فتتعبُ وتمرضُ ويشقُّ عليها الأمرُ، فتبقى أحيانًا في نومٍ عميقٍ وأحيانًا في

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ٧٠، رقم ١٣٢٠).

كسلٍ، وتفقدُ كثيرًا منْ أعمالِها من أجلِ حملِها، ثم بعدَ الحملِ الحضانةُ والرعايةُ، وتميطُ الأذى والقذرَ بيدَيها عنْ طفلِها، وتحملُه على فخِذيها لترضِعَه مِن ثَديَيْها، وتسهرُ إذا سهِرَ، وتتألمُ إذا تألَمَ.

وإذا رزقكُمُ اللهُ -أيها الشبابُ- أولادًا فستعلمونَ كيفَ عِظمُ حقِّ الوالدِ الأبِ، فهو يجلِبُ لكَ الرزقَ، ويكسُوكَ، ويداويكَ إذا مَرِضتَ، ويتعبُ لراحتِكَ، وفوقَ ذلكِ كلِّه التربيةُ الحسنةُ التي وجَّهَ إليها ربُّ العالمينَ ورسولُ ربِّ العالمينَ، حيثُ جعلَ الرجلَ راعيًا في أهلِه ومسؤولًا عن رعيتِه، وحثَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على القيامِ بواجبِ الأمانةِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال:٢٧-٢٨].

إذنِ الوالدانِ لا أحدَ منَ البشرِ ما عدا الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أعظمُ حقًّا على الإنسانِ منهُما، فيجبُ على الإنسانِ أن يُحسنَ إلى والديهِ.

قولُه تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ الإحسانُ يشملُ الإحسانَ بالقولِ، أو بالفعلِ، أو بالمالِ، أو بأي شيءٍ، أي: كلّ ما يعدُّ إحسانًا. ووجهُ الدلالةِ منَ الآيةِ على أن المرادَ كلُّ ما يُعد إحسانًا: أن اللهَ لم يخصَّ إحسانًا دونَ إحسانٍ، وهذهِ قاعدةٌ مفيدةٌ: إذا جاءتِ النصوصُ مطلقةً ولم تُقيَّدْ في موضعٍ آخَرَ فإنها تكونُ شاملةً.

إذنْ أي إحسانٍ منْ قولٍ أو فعلٍ أو مالٍ أو غيرِ ذلكَ فإنهُ داخلٌ في الآيةِ الكريمةِ.

والأشياءُ ثلاثةُ أقسامٍ: إحسانٌ، وإساءةٌ، ولا إحسان ولا إساءة، فالإنسانُ

إما أن يحسنَ إليكَ، مثلَ: أعطاكَ رجلٌ عشَرةَ دراهمَ، فيقالُ: هذا أحسنَ، فإذا أخذَ منكَ عشَرةَ دراهمَ غصبًا فقدْ أساءَ. وشخصٌ ثالثٌ لا أعطاكَ ولا أخذَ منكَ، فهذا لا أساءَ ولا أحسنَ.

والإنسانُ مأمورٌ أن يحسنَ، فلو قيلَ لشخصٍ: يا فلانُ، بَرَّ والدِيكَ، اتقِ اللهَ، فقالَ: واللهِ ما أسأتُ إليهما؛ لا أخذتُ مِن مالِهما ولا انتهرتُهما، ولا ضربتُهما، لكنهُ لم يبذلْ لهما شيئًا، فإنهُ يكونُ ما امتثلَ أمرَ اللهِ.

وعلى هذا فإن كانَ لكَ والدانِ، وكانَ منَ العادةِ أن تُهدي إليهما في المناسباتِ؛ كمناسبةِ الزواجِ، ومناسبةِ الأعيادِ، وما أشبهَ ذلكَ، ولم تفعلْ، فإنكَ لم تقمْ بما أمرَكَ اللهُ بهِ.

فلا بدَّ منَ الإحسانِ بالقولِ، بأن تُلينَ القولَ لهما وترققَه، وكذلكَ بالفعلِ بأن تخدُمَهما وتطيعَ أمرَهُما، وكذلكَ بالمالِ فتطيعهما في كلِّ ما يحتاجانِ إليهِ وكلِّ ما يطلبانِهِ منكَ بلا ضررٍ لا عليكَ ولا عليهما، فتعطيهما منَ المالِ ما يَطلبانِه مما تقدرُ عليهِ وليسَ عليكَ فيه ضررٌ ولا عليهما ضررٌ، فهذهِ هيَ القيودُ، فلو طلبَ منكَ مالًا وأنتَ ليسَ عندَكَ شيءٌ، أي: ألزمَكَ أن تستقرضَ لتعطيَه، فلا يلزمُكَ، ولو طلبَ منكَ مالًا قدرُه عشَرَةُ آلافِ ريالٍ، وأنتَ مالُكَ يكفيكَ أنتَ وزوجتَكَ وأولادَكَ، ولا تستطيعُ أن تعطيَه مطلوبَهُ، وهوَ في النفقةِ قادرٌ أن ينفقَ على نفسِه بدونِ تقصيرٍ، فلا يلزمُكَ أن تعطيَه.

ولو طلبَ منكَ أبوكَ مالًا ليشتريَ بهِ دُخَانًا يشربُه فلا يلزمُكَ أن تعطيَهُ؛ فهذا ضررٌ عليهِ ومعصيةٌ أيضًا، فلا يَلزمُكَ، لكنْ لو قالَ: إما أن تعطيَني وإما أن أدعوَ اللهَ

عليكَ بالليلِ والنهارِ، فبعضُ الناسِ يهددُ بدعاءِ اللهِ، يقولُ: إما أن تفعلَ وإلا واللهِ لأدعونَّ اللهَ عليكَ ليلًا ونهارًا؟

نقولُ: إذا كنتَ أنتَ غيرَ ظالمٍ فقلِ: ادعُ اللهَ وثِقْ بأنكَ إذا لم تكنْ ظالمًا فإن دعاءَهُ للهِ عليكَ يُعتبرُ ظلمًا، فهذَا إنسانٌ يَدعو عليكَ بغيرِ حقٍّ فيكونُ ظالمًا، واللهُ عَزَّوَجَلَّ لا يجيبُ الظالمَ أبدًا، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:٢١]، فإذا كنتَ على حقٍّ فإن دعَا عليكَ أبوكَ أو أمُّكَ فليسَ عليكَ شيءٌ.

وأضربُ مثلًا يسيرًا: رجلٌ عندَهُ زوجةٌ صالحةٌ قد أرضتْهُ، ولكنْ نظرًا إلى أنهُ يحبُّها غارَتْ أمُّ الزوجِ وقالتْ لهُ: طلقْ هذهِ المرأةَ، إما أنا وإما هيَ، وليسَ هناكَ خيارٌ، قالَ: يا أُمَّهْ هذه زوجتِي، أمُّ أولادِي، لا يُقدَحُ في دِينِهَا ولا في خُلُقِهَا، قدْ قامتْ بالواجبِ، كيفَ أُطلقُهَا! قالت لهُ: أبدًا طلِّقْهَا.

نقولُ: لا يجبُ أن يطلقَهَا.

فقالتِ الأمُّ للولدِ: واللهِ لأدعونَّ عليكَ في آخرِ الليلِ كلَّ ليلةٍ، فيقولُ: اتقِ اللهَ، المرأةُ هلْ تقدحينَ في دينِهَا أو خُلقِها؟ لكنهَا أصرَّتْ إلا أن تدعوَ اللهَ عليهَا، فدعتْ، فإنها لا يُستجابُ لها؛ لأنها ظالمةٌ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:٢١].

سألَ الإمامَ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلٌ وقالَ: يا أبا عبدِ اللهِ، إن أبي أمرَني أن أطلقَ زوجتِي. فقالَ لهُ الإمامُ: هلْ تعيبُ عليهَا في خُلقٍ أو دينٍ؟ قالَ: لا. فقالَ: لَا تُطِعْهُ. قالَ: يا أبا عبدِ اللهِ، كيفَ لا أطيعُه وعمرُ لما أَمرَ ابنَه عبدَ اللهِ أن يُطلقَ امرأتَهُ أمرَهُ النبيُّ ﷺ أن يطيعَ أباهُ عمرَ ويطلقَهَا؟

وهذا إيرادٌ منَ السائلِ، وهذهِ مسألةٌ أرجُو من طلابِ العلمِ إذا أَشكلَ عليهِمْ شيءٌ في كلامِ مَن تكلمَ مِنَ العلماءِ أن يُوردوا عليهِ ما كانَ عندَهم من الإشكالاتِ حتى يزولَ ما في صدُورِهم مِن وجهٍ، ولعلَّ هذا العالِمَ نسيَ أو لمْ يَطلعْ على هذا فيستفيد، إلا أنهُ يكـونُ بأدبٍ واحترامٍ للعالِم، ولا يعاملُ العالـمَ كأنهُ طالبُ علمٍ مثله ويسألُه بغيرِ أدبٍ، فربما تأخذهُ العزةُ بالإثمِ. فالمهمُّ أن إيرادَ الأدلةِ على منْ تكلمَ بشيءٍ أشكلَ عليكَ أمرٌ محمودٌ، لكن يكونُ بأدبٍ؛ لأن الرجوعَ إلى الحقِّ أمرٌ مطلوبٌ.

لكنِ الإمامُ أحمدُ قالَ كلمةً لو وُزنتْ بجبالِ الذهبِ لرَجَحتْ بها، قالَ لهُ: وهلْ أبوكَ عمرُ؟! والإمامُ أحمدُ يدرِي أن أباهُ ليسَ عمرَ، وأن الرجلَ يعرفُ أن أباهُ ليسَ عمرَ، لكنِ المعنى هلْ أن أباكَ أمرَكَ بسببٍ مثلِ السببِ الذي أمرَ عمرُ ابنَهُ أن يطلقَ امرأتَهُ من أجلِهِ؟ وهلْ يُتهمُ عمرُ بأنهُ يريدُ التفريقَ بينَ ابنِه وزوجتِهِ! لا واللهِ لا يُتهمُ. فهذا الرجـلُ الذي أمرَ ابنَهُ أن يُطلـقَ زوجتَهُ ما ندرِي لعلَّهُ حملَهُ الحـسدُ أو الغيرَةُ.

فعلى على كلِّ حالٍ إذا طلبَ الوالدانِ شيئًا في تنفيذِهِ ضررٌ على الابنِ، وليسَ لهما فيهِ مصلحةٌ، ولا في تركِه مضرةٌ، فإنهُ لا يجبُ على الولدِ طاعتُهما في ذلكَ، ولكنْ يجبُ عليهِ مداراتُهما وتطييبُ قلوبِهما حتى يحصلَ لهُ المقصودُ معَ رضَا الوالدينِ.

أسألُ اللهَ تعالى أن يوفقنَا وإياكُم لرضاهُ ورضَا رسولِه ورضَا الوالدينِ، إنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.



سورة الكهف

الدرس الأول:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، وأمينُه على وحيِه، وخيرتُه مِن خلقِه، صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أما بعدُ**:

فقد قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:١٠٧-١١٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بقلوبِهم إيمانًا لا كفرَ معهُ، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحِهم، جوارحِ القولِ، وهوَ اللسانُ، وجوارحِ الفعلِ، وهيَ الأركانُ. والعملُ الصالحُ لا يكونُ صالحًا إلا إذا اجتمعَ فيهِ الإخلاصُ والمتابعةُ.

فهؤلاءِ ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ والمعروفُ أن (كانَ) فعلٌ ماضٍ، ولكنِ المعنى ليسَ: كانتْ لهمْ في الأولِ والآنَ ما هيَ لهمْ، بل كانَ تأتي أحيانًا لتحقيقِ مدلولِ خبرِها.

وانتبهْ لهذهِ القاعدةِ: (كانَ) تأتي لتحقيقِ مدلولِ خبرِها، قالَ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦] فليسَ المعنى: كانَ قديمًا والآنَ غير غفورٍ رحيمٍ، لكنْ (كان) هنا لتحقيقِ مدلولِ الخبرِ، والخبرُ هنا (غفورًا رحيمًا)، أي لتحقيقِ الرحمةِ والمغفرةِ.

إذنْ في قولِه: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ ليسَ المعنى: كانتْ فيما مضَى والآنَ لا، بلْ (كان) تأتي لتحقيقِ مدلولِ الخبرِ، فالمعنى أنهُ منَ المؤكدِ التأكيد التامّ أن لهمْ جناتِ الفردوسِ نزلًا.

وفي قولِه: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ هنا قالَ: (جنات)، وأحيانًا تجدونَ في القرآنِ (جنةً) وأحيانًا (جناتٍ)، وليسَ بينهما تناقضٌ، فـ(جنة) باعتبارِ الجنسِ، و(جنات) باعتبارِ النوعِ.

وقدْ ذكرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورةِ الرحمنِ أربعةَ أصنافٍ فقالَ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢].

وفي السُّنةِ قالَ النبيُّ ﷺ: «**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا**»[1].

إذن (جنات) جُمِعتْ هنا باعتبارِ الأنواعِ، وأُفردتْ باعتبارِ الجنسِ.

قولُه: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ أي ضيافةً، ونعمَ الضيافةُ، اللهمَّ اجعلنَا ممن يُضافونَ بذلكَ. وهذه الضيافة إلى متَى؟ الضيفُ المعروفُ أنهُ يأخذُ ضيافتَه ويمشِي، فهلِ الجنةُ نزلٌ يتمتعُ بها الإنسانُ ثم يتركُها؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، رقم (٤٨٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رقم (١٨٠).

نقولُ: لا، خالدينَ فيها إلى أبدِ الآبدينَ.

وفي القرآنِ الكريمِ كثيرٌ منَ الآياتِ فيها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، فمَنْ دخلَها ينعمُ ولا يَبؤُسُ، ويَصِحُّ فلا يمرضُ، ويَشِبُّ فلا يَهرَمُ، ويبقَى فلا يفنَى، بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلا مَوْتَ»[1].

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ هذا مِن تمامِ النعيمِ، أن كلَّ واحدٍ منهمْ لا يطلبُ تحولًا مِن نعيمِه الذي هوَ فيهِ؛ لأنهُ لا يرى أن أحدًا أنعمَ منهُ، فلا يطلبُ التحولَ ولا تَطمَحُ نفسُه إلى شيءٍ آخرَ، فهوَ قانعٌ بما هوَ فيهِ منَ النعيمِ، لا يريدُ أن يتحولَ عنهُ.

وهذا -يا إخواني- مِن تمامِ النعيمِ في الدنيَا لنا، فمثلًا: بيتٌ شعبيٌّ منهارٌ إلا قليلًا، وإلى جانبِه قصرٌ مُنيفٌ شامخٌ، فتكونُ نفسُ صاحبِ البيتِ طامحةً إلى القصرِ، فيقولُ: لمنْ هذا القصرُ، لكنْ في الجنةِ لا أحدَ يطمحُ إلى منازلِ غيرِه: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، ولا يرَى أحدٌ منهمْ أن أحدًا من أهلِ الجنةِ أنعمُ منهُ، وهذا مِن تمامِ النعيمِ.

قالَ تعالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ سبحانَ اللهِ العظيمِ! لو كانَ البحرُ مِدادًا لكلماتِ اللهِ، يعني مثلَ الحِبرِ يُغمسُ فيهِ رأسُ القلمِ ويكتبُ، لو كانَ البحرُ كلُّه مدادًا لكلماتِ اللهِ، يعني حبرًا يكتبُ بهِ، ما نفدتْ كلماتُ اللهِ؛ لأن اللهَ عَزَّوَجَلَّ حيٌّ لا يموتُ، باقٍ لا يفنَى،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [مريم:٣٩]، رقم (٤٧٣٠)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٩).

فكلماتُه دائمًا؛ لأنهُ هوَ المدبرُ، وهو الذي يقولُ للشيءِ: كنْ فيكونُ، وهوَ المحيي، وهوَ المميتُ، وهوَ الرزاقُ، فلا يمكنُ أن تنفَدَ كلماتُه.

وفي آيةٍ أخرى قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ لا إلهَ إلا اللهُ! ما نفِدَتْ كلماتُ اللهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

و(أقلامٌ) خبرُ (أن)، واسمُها (ما) الموصولة، فـ(ما) هنا بمعنَى (الذي)، يعني: ولو أن الذي في الأرضِ منَ الأشجارِ أقلامٌ. فصارَ (ما) اسمَ (أن) و(أقلام) خَبرَها.

وفي هذهِ الآيةِ الكريمةِ وفي غيرِها منَ الآياتِ الكثيرةِ دليلٌ على أن اللهَ تعالى يتكلمُ، ولكن هلْ كلامُه مسموعٌ أو كلامُهُ معنًى قائمٌ في نفسِه لا يُسمَعُ؟

نقولُ: كلامُه مسموعٌ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنْ موسَى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]. والنداءُ صوتٌ عالٍ للبعيدِ، والتناجِي صوتٌ دونَه للقريبِ.

ثمَّ انظرِ المحاورةَ بينَ اللهِ وبينَ رسلِه، بل بينَه وبينَ غيرِ الرسلِ؛ قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنْ موسى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ [طه:٦٩].

وقالَ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات:١٥-١٧].

ثم قالَ في الآيةِ الثانيةِ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ

أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:٢٥-٣٤]، فقال الله له: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ [طه:٣٦-٣٧]، وموسى يسمعُ هذا الكلامَ.

والنبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حينَ عُرجَ بهِ إلى السماءِ ناداهُ اللهُ تعالى وفرَض عليهِ الصلواتِ، وهوَ يسمعُ كلامَه، فكلامُ اللهِ تعالى كلامٌ مسموعٌ، بصوتٍ وبحرفٍ، وهذا هوَ الكمالُ في الواقعِ.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «**يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا آدَمُ، يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا، وَيَشِيبُ الوَلِيدُ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ**». فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ -أَوْ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ- وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «**ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «**شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»(١).

الشاهدُ من هذا الحديثِ قولُه: «**فَيُنَادَى بِصَوْتٍ**».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ [الحج:٢]، رقم (٤٧٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسع مِئة وتسعة وتسعين، رقم (٢٢٢).

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ هذهِ صيغةٌ حصريةٌ، وإذا أردنَا أن نحولَها إلى صيغةٍ حصريةٍ أخرى قلنَا: ما أنا إلا بشرٌ مثلُكُم.

ومحمدٌ رسولُ اللهِ بشرٌ مثلُنا، يجوعُ ويعطشُ، ويأكلُ ويشربُ، ويبردُ، ويتحرزُ منَ العدوِّ؛ فإذا قاتلَ لبِس الدرعَ، وفي أُحدٍ لبسَ درعينِ[1]، فهوَ بشرٌ مثلُنا يحتاجُ إلى الأكلِ والشربِ وإخراجِهما، ويعرقُ، ويبردُ، ويمرضُ، بل إنهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يمرضُ كما يمرضُ الرجلانِ منا[2]، يعني يُشدَّدُ عليهِ في المرضِ؛ فيشددُ عليهِ -وهوَ الرسولُ- مِن أجلِ أن ينالَ أعلى درجاتِ الصبرِ، والصبرُ مقامٌ عظيمٌ رفيعٌ لا يُنالُ إلا بوجودِ أسبابِه.

فالإنسانُ الذي يأكلُ ويشربُ وصحيحٌ دائمًا وفرِحٌ، فإنهُ ليسَ عندَه ما يدعو للصبرِ، لكن إذا أُصيبَ الإنسانُ بالأمراضِ والبلايا فإنهُ يصبرُ.

والنبيُّ ﷺ حقَّقَ أنواعَ الصبرِ كلَّها، وحقَّقَ أعلى المقاماتِ، فصَبرَ على طاعةِ اللهِ، فكانَ يقومُ الليلَ حتى تتورَّمَ قدماهُ[3]، ومَن يَصبرُ على هذَا!

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في لبس الدروع، رقم (٢٥٩٠)، وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب السلاح، رقم (٢٨٠٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، رقم (٥٦٤٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، رقم (٢٥٧١).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ الليل حتى ترم قدماه، رقم (١١٣٠)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٨١٩).

قامَ معهُ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وناهيكَ بهِ حرصًا على الطاعةِ، قامَ معَ النبيِّ ﷺ ليلةً للتهجُّدِ، وقرأَ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقرأَ وقرأَ، فتعِبَ ابنُ مسعودٍ، وهوَ شابٌّ، أشبُّ منَ الرسولِ ﷺ، قالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ». قالوا: وَمَا هَمَمْتَ؟ قَالَ: «هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ وَأَذَرَ النَّبِيَّ ﷺ»[1]، وهذا يدلُّ على كمالِ صبرِه على طاعةِ اللهِ.

وحققَ أنواعَ الصبرِ عن معصيةِ اللهِ، فيصابُ بالمصائبِ العظيمةِ ولا يتسخطُ، فأصيبَ بعمِّه حمزةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في أُحدٍ وبأصحابِه وصبرَ غايةَ الصبرِ.

وأصيبَ بولدِهِ إبراهيمَ الذِي توفَّاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولهُ ستةَ عشرَ شهرًا، حتى كانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ ونفسُ صبيِّه تفيضُ: «**إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[2]. فلم يتسخطْ لا بقلبِه ولا بقولِه ولا بفعلِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

أيضًا الصبرُ على الأقدارِ، وأعلى أنواعِ الصبرِ صبرُه على أقدارِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ.

إذنْ هوَ بشرٌ مثلُنا لكنهُ يفوقُنا في شيءٍ وهوَ أنهُ يوحَى إليهِ، وهنا الفارقُ العظيمُ، وهوَ الوحيُ؛ قالَ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهذهِ الكلمةُ تتضمنُ شهادةَ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأن محمدًا رسولُ اللهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب طول القيام في صلاة الليل، رقم (١١٣٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «**إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ**»، رقم (١٣٠٣)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، رقم (٢٣١٥).

فالرسولُ بشرٌ يمتازُ بهذا الوحيِ العظيمِ الذي أوحاهُ اللهُ إليهِ بالإخلاصِ والتوحيدِ.

والرسولُ ﷺ ينسَى، قالَ تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ [الأعلى:٦-٧]، وقال تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦]، وفي قراءةٍ: (أو ننسئها)[١]، لكن على القراءةِ التي في المصحفِ: ﴿أَوۡ نُنسِهَا﴾.

وهوَ نفسُه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ»[٢].

فهوَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ينسَى لأنهُ بشرٌ، وينبهُهُ الناسُ، وقد صلَّى يومًا صلاةَ الظهرِ أوِ العصرِ ركعتينِ وسلمَ، فلما سلمَ قامَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُنقبضًا إلى خشبةٍ في قِبلةِ المسجدِ واتَّكأَ عليها كأنهُ غضبانُ، على خلافِ العادةِ، فتعجبَ الصحابةُ، لكن معَ سهولةِ خُلُقِه وحسنِه وتواضعِه، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ، كانَ لهُ الهيبةُ العظيمةُ، وكانَ في الصحابةِ أبو بكرٍ وعمرُ، وهما أخصُّ أصحابِه بهِ، يقولُ أبو هريرةَ: فهابَا أن يُكلماهُ، فما كلماهُ؛ لأنهُ أُلقيَتِ المهابةُ في قلوبِ الناسِ، وفي القومِ رجلٌ يبدُو أن النبيَّ ﷺ كانَ يداعبُه يقولُ لهُ: ذو اليدينِ؛ لأن في يدَيه طُولًا، فكأنَّ الرسولَ ﷺ يداعبُه ويقولُ: يا ذا اليدينِ أو ما أشبهَ ذلكَ، ومنْ أجلِ هذا قالَ: يا رسولَ اللهِ، أنسِيتَ أم قَصُرتِ الصلاةُ.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٦٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٤٠١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة، رقم (٥٧٢).

وهذا الكلامُ منهُ لو يأتِ المتكلمونَ -أجمعهم- ما وجدُوا مثلَ هذا الحصرِ: «أَنَسِيتَ أَمْ قَصُرَتِ الصَّلاةُ؟» فهناكَ قسمٌ ثالثٌ لكنْ ما يمكنُ أن يقعَ منَ الرسولِ، وهوَ أن يكـونَ تعمَّدَ السلامَ قبلَ أن يُتِمَّ الصلاةَ. والقصرُ ممكنٌ لأن الزمـنَ زمنُ تشريعٍ، والنسيانُ ممكنٌ لأن الرسولَ بشرٌ، لكنهُ قالَ: «**لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تُقْصَرْ**». فذكرَ أمرًا نسيَ فيهِ وذكرَ أمرًا قطعَ فيهِ، فقولُه: «**لمْ تُقْصَرْ**» هذا قطعيٌّ، فإذا انتفَى القصرُ تعيَّنَ النسيانُ، فقالَ لهُ ذو اليدينِ: «بلى قدْ نَسِيتَ». فالآنَ صارَ عندَه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أمرانِ: ظنُّ نفسِه، والثاني يقينُ ذي اليدينِ، فحينئذٍ سألَ الناسَ قالَ: «**أَكَمَا يَقُولُ ذُو اليَدَيْنِ؟**». فَقَالُوا: نَعَمْ، فَتَقَدَّمَ فَصَلَّى مَا تَرَكَ[1].

إذنِ النسيانُ واردٌ، وليسَ صفةَ نقصٍ، بل هذا منْ طبيعةِ البشرِ، ولهذا قالَ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ**».

وهلِ النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعلمُ الغيبَ؟

الجوابُ: لا يعلمُ الغيبَ، أمرَهُ ربُّه عَزَّوَجَلَّ أن يعلنَ للملأِ أنهُ لا يعلمُ الغيبَ فقالَ تعالـى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام:٥٠]، كأنهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقـولُ: أنا لا أعلمُ الغيبَ، لكن ما أُوحيَ إليَّ سأبلغُه، وسأعملُ بهِ، أما ما لم يوحَ إليّ فلا أعلمُ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣).

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

إذن هو لا يعلمُ الغيبَ إلا ما أوحاهُ اللهُ إليه، فما أوحاهُ اللهُ إليه فإنهُ يعلمُه؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦-٢٧]. يعني فإنه يعلمه بالغيبِ الذي أرادَ عَزَّوَجَلَّ ويسلُكُ مِن بينِ يديهِ ومِن خلفِه رصدًا.

وهل يَملِكُ لنفسِه نفعًا أو ضرًّا؟

الجوابُ: لا، ما يُمكِنُ يَنفعُ نفسَه، والدَّليلُ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وهلْ يملِكُ لنا نحنُ نفعًا أو ضرًّا؟

الجوابُ: لا يَملِكُ لنا نفعًا ولا ضرًّا، وقدْ أمرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يعلنَ ذلكَ لأمتِه، فقالَ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن:٢١-٢٣] يعني لكنْ بلاغًا منَ اللهِ؛ أُبلِّغُ رسالةَ ربي، أما أن يَملِكَ لكمُ الضرَّ والرشدَ فلا يملكُ.

ولـمَّا نزلتْ هـذهِ الآيةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] دعا النبيُّ -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ- عشيرتَه الأقربينَ وناداهُم بأسمائِهم: «**لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»، حتى قالَ لابنتِه فاطمةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ، سَلِينِي**

بِمَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[١].

وهذا يقولُه لابنتِه التي قالَ عَنها: «فَإِنَّمَا هِيَ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُرِيبُنِي مَا أَرَابَهَا»[٢].

إذنِ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بشرٌ لكنْ أوحَى اللهُ إليهِ بهذهِ الرسالةِ العظيمةِ، حتى كانَ قائدَ الأمةِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ، وحتى سُدَّتِ الأبوابُ الموصلةُ إلى اللهِ إلا مِن طريقِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فليسَ هناكَ بابٌ تَصِلُ منهُ إلى اللهِ إلا بابَ النبيِّ ﷺ، يعني إلا الشَّريعةَ التي جاءَ بها الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأيُّ إنسانٍ يَسلُكُ طريقةً أو مَنهجًا يَرى بهِ الوصولَ إلى اللهِ غيرَ طريقِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومنهجِه، فإنهُ لن يَفرَحَ بالوصولِ إلى اللهِ، قالَ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، وفي رواية: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[٣].

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وما أقربَ لقاءَ اللهِ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ [العنكبوت:٥]، فلا بدَّ من لقاءِ اللهِ، وقالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، فلا بدَّ أن تُلاقيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ولا بدَّ أن يحاسبَكَ، لكنْ مَن نُوقِشَ الحِسابَ عُذِّبَ أو هَلَكَ، ومَن حُوسِبَ حِسابًا يسيرًا نجا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ [الشعراء:٢١٤ - ٢١٥]، رقم (٤٧٧١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب ذب الرجل عن ابنته في الغيرة والإنصاف، رقم (٥٢٣٠)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام، رقم (٢٤٤٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

قالَ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ يعني يرجُو اللقاءَ الذِي بهِ السعادةُ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ فبيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنهُ لا يُمكِنُ أن يصلَ الإنسانُ إلى لقاءِ اللهِ على الوجهِ الذي يَسعَدُ بهِ إلا إذا عمِلَ عملًا صالحًا ولم يشركْ بعبادةِ اللهِ أحدًا.

إن النبيَّ ﷺ أكَّدَ معنى العبوديةِ وأكدَ أنهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يمكنُ أن يشاركَ في جنابِ الربوبيَّةِ، قالَ لهُ رجلٌ: ما شاءَ اللهُ وشئتَ -ومعناهُ الشيءُ يقعُ بمشيئةِ اللهِ ومشيئتِكَ يا محمدُ- فقالَ لهُ الرسولُ ﷺ: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا**» وهذا الاستفهامُ استفهامُ إنكارٍ، وهوَ جديرٌ بالإنكارِ، إن محمدًا رسولَ اللهِ ﷺ عبدٌ وليسَ لهُ مشاركةٌ في الربوبيةِ «**بلْ ما شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[1]، فالأمرُ أمرُ اللهِ، والأمرُ إلى اللهِ، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٢٣].

أخي المسلمُ، صححِ العقيدةَ، واعلمْ أنكَ إذا لم تَبنِ عملَكَ على عقيدةٍ سليمةٍ فإنهُ هدرٌ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

ولا شكَّ أن النبيَّ ﷺ أعطاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ منَ المناقبِ والشرفِ ما لم يعطِ أحدًا منَ الخلقِ فيما نعلمُ، لكنْ لا يعني ذلكَ أن نجعلَه شريكًا للهِ في النفعِ والضررِ، وعلمِ الغيبِ، وتدبيرِ الكونِ، وما أشبهَ ذلكَ، فهوَ بشرٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وجميعُ خصائصِ البشريةِ تنطبقُ عليهِ، لكنهُ يمتازُ عنِ البشرِ بالوحيِ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، فمنْ كانَ يريدُ تعظيمَ الرسولِ، ومنْ كانَ يدَّعي محبةَ الرسولِ، ومنْ كانَ يُجلُّ الرسولَ ﷺ فليتمسكْ بسنتِه، مِن غيرِ غلوٍّ ولا تفريطٍ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (ص:٢٧٤)، رقم (٧٨٣).

إن النبيَّ ﷺ نهى عنِ الغلوِّ فيهِ، ونهى أن نَغلُوَ فيهِ كما غلتِ النصارَى في المسيحِ ابنِ مريمَ؛ لأنهُ يعلمُ أن الغلوَّ فيهِ يعني الإعراضَ عنِ اللهِ؛ لأن الإنسانَ إذا غَلا في الرسولِ فقدْ جعلَ الرسولَ هوَ محطَّ الغاياتِ، وهوَ الملاذَ، وهوَ المرجعَ في الأمورِ كلِّها، وهذا يعنِي الغفلةَ عنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والغفلةُ عنِ اللهِ تعني هدمَ الرسالةِ، فإذا كنتَ صادقًا في محبتِك للرسولِ وتعظيمِك للرسولِ فتأدبْ معهُ، ولا تُحدثْ في دينِه ما ليسَ منهُ، ولا تَغْلُ فيهِ غلوًّا نهى عنهُ هوَ نفسُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بل تأدَّبْ معهُ، وكنْ له تابعًا، وكنْ مقدِّمًا لقولِه على قولِ كلِّ بشرٍ، حتى تكونَ معظِّمًا للرسولِ، موقِّرًا لهُ، أما الغلُوُّ فيهِ فهذا لا يَزيدُك منَ اللهِ إلا بُعدًا، ولا يَزيدُك منْ رسولِ اللهِ إلا بُغضًا؛ فإنَّ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أبعدُ الناسِ عنِ الغلوِّ فيهِ.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلم على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه.



الدرس الثاني:

الحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعُوذُ باللهِ مِن شُرورِ أنفُسِنَا، ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لهُ، أشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لهُ، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبْدُهُ ورسولُهُ، وخَلِيلُهُ وأمِينُهُ عَلَى وحْيِهِ، إمَامُ المُتَّقِينَ، وخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، بلَّغَ رِسالَةَ ربِّهِ، وأدَّى الأمانَةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وتركَهَا عَلَى مَحَجَّةٍ بَيْضاءَ، لَيْلُهَا كنَهارِهَا، لا يَزِيغُ عَنْهَا إلَّا هَالِكٌ، فصَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ عليْهِ، وعَلَى آلِهِ، وأصْحابِهِ، والتَّابِعِينَ لهُمْ بإحْسانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

إخْوَتَنَا حُجَّاجَ بَيْتِ اللهِ الحَرامِ! فإنَّ مِنْ عَادَتِنَا أنْ نَبْدَأَ لِقاءَنَا هَذَا بالكلامِ بِمَا يَسَّرَ اللهُ تَعالَى عَلَى مَا سَمِعْنَاهُ فِي قِراءَةِ إمامِنَا، وفِي اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ لَمْ نتكَلَّمْ عَلَى ما قرَأَهُ الإمامُ.

قَرَأَ قَوْلَ اللهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٧-١٠٨] يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مُخْبِرًا عِبادَهُ أنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ كانَتْ لَهُمْ جنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلًا، ويُؤَكِّدُ هَذَا الخَبَرَ بـ(إنَّ) الدَّالَّةِ عَلَى التَّوْكِيدِ، أنتَ تقولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، وتقولُ: إنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فالمُؤَكَّدُ هُوَ الثَّاني: إنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

هُنَا يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف:١٠٨] اشْتَرَطَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِمَنْ كانَتْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلًا لهُ شَرْطَيْنِ:

الأَوَّلُ: الإيمانُ.

الثَّاني: العَمَلُ الصَّالِحُ.

الإيمانُ وحْدَهُ لَا يَكْفِي، لَا بُدَّ مِنْ إيمانٍ وعَمَلٍ صالِحٍ، والعَمَلُ وحْدَهُ لَا يكْفِي، لَا بُدَّ مِنْ أنْ يَكُونَ العَمَلُ عَمَلًا صالحًا، فبماذَا يَكُونُ الإيمانُ؟ اسْتَمِعِ الجَوَابَ مِنْ أعْلَمِ النَّاسِ بشَرِيعَةِ اللهِ، وهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ حِينَ أجابَ أشْرَفَ رَسُولِ مَلَكِيٍّ -أشْرَفُ رَسُولٍ بَشَرِيٍّ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وأشْرَفُ رَسُولٍ مَلَكِيٍّ هُوَ جِبْرِيلُ- جاءَ جِبْرِيلُ إلَى النَّبِيِّ ﷺ وهُوَ جالِسٌ معَ أصحابِهِ، فسَأَلَهُ عَنِ الإِسْلامِ والإيمانِ والإحْسانِ والسَّاعَةِ وأشْرَاطِهَا، سألَهُ عَلَى الإيمانِ وهُوَ الَّذِي نَحْنُ نَتكَلَّمُ عَلَيْهِ الآنَ، قالَ: أخبِرْنِي عَنِ الإيمانِ؟ وجِبْرِيلُ يَعْلَمُ ذلكَ، لكنَّهُ أرادَ أنْ يُجِيبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ عَلَى جَوابِهِ بحَضْرَةِ أصْحابِهِ؛ ليَكُونَ ذَلِكَ تَعْلِيمًا لهمْ، قالَ: «**الإيمانُ أنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ والقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ**»[1] هَذِهِ سِتَّةٌ.

إذَنْ: أرْكانُ الإيمانِ سِتَّةٌ:

الإيمانُ بِاللهِ، والإيمانُ بِاللهِ يَتَضَمَّنُ أرْبَعةَ أُمُورٍ:

الأمْرُ الأوَّلُ: الإيمانُ بوُجُودِهِ، أنْ تُؤْمِنَ بأنَّ اللهَ تَعالَى مَوْجُودٌ، ولا تَقُلْ كما يقولُ الشُّيُوعِيُّونَ والمُلْحِدُونَ: إنَّهُ لَيْسَ بمَوْجُودٍ، تُؤْمِنُ بأنَّ اللهَ مَوْجُودٌ، وأنَّهُ جَلَّوَعَلَا بائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، لَيْسَ حالًّا فِي خَلْقِهِ ولا أحَدَ مِنْ خَلْقِهِ حَالٌّ فِيه، بلْ هُوَ عَزَّوَجَلَّ بائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، هَذَا واحِدٌ.

والأدِلَّةُ عَلَى وُجودِ اللهِ تَعالَى كَثِيرَةٌ، ولَيْسَ هَذَا موْضِعَ بَسْطِهَا؛ لأنَّنا نَخْشَى أنْ يَطُولَ بِنَا الوَقْتُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثَّاني: الإيمانُ برُبُوبِيَّتِهِ؛ بأَنَّهُ واحِدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ لَا شَرِيكَ لهُ، مَنْ رَبُّ العالَمِينَ؟ مَنِ الَّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ؟ مَنِ الَّذِي يَرْزُقُ؟ مَنِ الَّذِي يُفْقِرُ؟ مَنِ الَّذِي يُعِزُّ؟ مَنِ الَّذِي يُذِلُّ؟ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَا ربَّ غَيْرُهُ، ولَا إِلَهَ سِوَاهُ.

تُؤْمِنُ بوَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، هُوَ رَبُّ السَّماواتِ والأَرْضِ، ورَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ والبَلْدَةُ هِيَ مَكَّةُ، ولَمَّا كانَ الذِّهْنُ قَدْ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ رَبُّ البَلْدَةِ وحْدَهَا، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النَّمْل:٩١] حتَّى لَا تَتَوَهَّمَ أَنَّهُ ربُّ البَلْدَةِ وحْدَهَا؛ لأَنَّ لهُ كُلَّ شَيْءٍ عَزَّوَجَلَّ.

الثالِثُ: الإيمانُ بأُلُوهِيَّتِهِ، أيْ: بتَفَرُّدِهِ بالأُلُوهِيَّةِ الحقِّ، كلُّنَا نَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِذَنْ لَا تُوجَدُ أُلُوهِيَّةٌ حَقٌّ إِلَّا للهِ وحْدَهُ، وهذِهِ الكَلِمَةُ العَظِيمَةُ أَرْسَلَ اللهُ بها جَمِيعَ الرُّسُلِ، اسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] واسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] هَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، انْفِرَادُهُ بالأُلُوهِيَّةِ.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: مَا مَعْنَى الأُلُوهِيَّةِ؟

قُلْنَا: مَعْنَى الأُلُوهِيَّةِ أنْ يَتَأَلَّهَ إليْهِ العَبْدُ، أيْ أنْ يَعْبُدُهُ عَزَّوَجَلَّ محَبَّةً وتعْظِيمًا، فنحنُ نَعْبُدُ اللهَ تَعالَى جَلَّوَعَلَا، ونسأَلُ اللهَ تَعالَى أنْ يَمْلأَ قُلوبَنَا مِنْ ذَلِكَ، نَعْبُدُهُ محَبَّةً وتَعْظِيمًا، فبِمَحَبَّتِهِ نَفْعَلُ الطَّاعاتِ، وبتَعْظِيمِهِ نَجْتَنِبُ المَنْهِيَّاتِ؛ لأَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ هُوَ المَحْبُوبُ فَوْقَ كُلِّ محبَّةٍ، وإذَا كانَ رَسُولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُجِبُّ أنْ نُقَدِّمَ محبَّتَهُ عَلَى

كُلِّ أَحَدٍ مِنَ المَخْلُوقِينَ، فإنَّما أحْبَبْنَا رَسُولَ اللهِ؛ لأنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وإلَّا لكانَ واحِدًا مِنْ قُرَيْشٍ، لكنْ لكَوْنِهِ رَسُولَ اللهِ أَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وكانَ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُقَدِّمَ مَحبَّتَهُ عَلَى النَّفْسِ والوَلَدِ والوَالِدِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ **«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»**، فَقَالَ لهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَاللهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، قَالَ: **«وَمِنْ نَفْسِكَ يَا عُمَرُ؟»** قَالَ: وَاللهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى مِنْ نَفْسِي، قَالَ: **«الآنَ يَا عُمَرُ»**[1] فالأُلُوهِيَّةُ معْنَاهَا التَّأَلُّهُ للهِ بالعِبادةِ مَحبَّةً وتَعْظِيمًا.

ويُوجَدُ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ القَمَرَ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ النُّجُومَ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ البقَرَ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الحَجَرَ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ البَشَرَ، النَّصارَى عَبَدُوا بَشَرًا، عَبَدُوا عِيسَى، وزَعَمُوا أَنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ البَشَرَ مِمَّنْ دُونَ الرُّسُلِ، ونَاسٌ عَبَدُوا مَنْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَوْلياءُ، فصَارُوا يَأْتُونَ إِلَى قُبُورِهِمْ يَقُولونَ: يَا سَيِّدِي، يَا فُلانُ أَنَا شابٌّ أُرِيدُ الزَّواجَ زَوِّجْنِي، يقولُ لصاحِبِ القَبْرِ، مِسْكِينٌ صاحِبُ القَبْرِ هَذَا، لَا يُمْكِنُ أَنْ يُزَوِّجَ ابْنَهُ، فكَيْفَ يُزَوِّجُكَ أَنْتَ؟! فصاحِبُ القَبْرِ مَيِّتٌ هامِدٌ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يتَحَرَّكَ، وأنتَ اليَوْمَ أَقْدَرُ منهُ، هُوَ بالأَمْسِ لَا يَمْلِكُ لكَ نَفْعًا ولا ضَرًّا قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، فكَيْفَ إِذَا ماتَ؟!

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، رقم (٦٦٣٢)، وأحمد (٤/ ٢٣٣).

وأخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم (١٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ، رقم (٤٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دون ذكر خبر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذَنْ: لَا تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بأحَدٍ مِنَ المخْلُوقِينَ، يقولُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لعَبْدِ اللهِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**»(١) فلَوْ أنَّ أحَدًا عبَدَ رَسُولَ اللهِ مُحَمَّدًا ﷺ يكونُ عَلَى باطِلٍ، والرَّسُولُ ﷺ لَا يَرْضَى بذَلِكَ، ولوْ كانَ حيًّا لقَاتَلَ هَذَا الرَّجُلَ، واسْتَحَلَّ دَمَهُ إذَا أشْرَكَ بِهِ، ولوْ جاءَ عندَ قَبْرِهِ وقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! اكْشِفِ الضُّرَّ عنِّي، يَكُونُ مُشْرِكًا، حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ ومَأْواهُ النَّارُ.

والرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَمْلِكُ لكَ نَفْعًا ولا ضَرًّا، أَقُولُ ذَلِكَ عَنْ دليلٍ، والدَّلِيلُ هُوَ: قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ آمِرًا نَبِيَّهُ أَنْ يُعْلِنَ للمَلَأِ جميعًا: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن:٢١] لَا أَضُرُّكُمْ ولا أسْتَطِيعُ أَنْ أُرْشِدَكُمْ، لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، زِدْ عَلَى ذَلِكَ ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الجن:٢٢] يَعْنِي لوْ أرادَنِي اللهُ بسُوءٍ فلا أحَدَ يَمْنَعُنِي، زِدْ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢٢] يَعْنِي لوْ أنَّ أحدًا أرادَنِي بسُوءٍ فلنْ أَجِدَ مَنْ أَلْجَأُ إليْهِ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، هَذَا وهُوَ رَسُولُ اللهِ، فما بَالُكَ بمَنْ لَيْسَ برَسُولٍ، مِمَّنْ دُونَهُ بألْفِ مَرْتبَةٍ؟! بلْ مَا بَالُكَ بمَنْ هُوَ مُهَرِّجٌ مُدَجِّلٌ يدَّعِي لنفسِهِ الوِلايَةَ، وهُوَ عَدُوٌّ للهِ، أيَمْلِكُ لنفسِهِ أوْ لغَيْرِهِ نَفْعًا وضَرًّا؟! أبدًا.

فلو تَسْأَلُ هَذَا المُهَرِّجَ المُدَجِّلَ الَّذِي غرَّ النَّاسَ بقَوْلِهِ: إنَّهُ وَلِيٌّ ولَيْسَ بوَلِيٍّ، لوْ رَأَيْتَهُ فِي قَبْرِهِ لوَجَدْتَهُ يُعَذَّبُ؛ لأنَّ كُلَّ مَنِ ادَّعَى الوِلايَةَ وهُوَ عَدُوٌّ للهِ فهُوَ كاذِبٌ، وهلِ النَّبِيُّ ﷺ يَمْلِكُ لنفسِهِ نَفْعًا ولا ضَرًّا؟

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الجَوابُ: لَا؛ لقَوْلِ اللهِ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِى نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف:١٨٨] هَذَا مُحَمَّدٌ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الرابع: الإيمانُ بأسمائِهِ وصفاتِهِ، بمَعْنَى أنْ تُؤْمِنَ بكُلِّ اسْمٍ سمَّى اللهُ بِهِ نفسَهُ فِي كِتابِهِ، أوْ عَلَى لِسانِ رسُولِهِ ﷺ، تُؤْمِنُ بِهِ عَلَى أنَّهُ حقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، عَلَى أنَّهُ مُتَضمِّنٌ للمعانِي الَّتِي دلَّ علَيْهَا اللَّفْظُ.

وكذَلِكَ صِفاتُهُ تُؤْمِنُ بها عَلَى الوجْـهِ الَّذِي جاءَتْ به، وهِيَ مِنَ المَعْلُومِ أنَّها جَاءَتْ لإِثْبَاتِ هَذِهِ الصِّفاتِ لِرَبِّ الأرْضِ والسَّماواتِ.

وفي آخِرِ سُورَةِ الحَشْرِ ذَكَرَ سِتَّةَ عَشَرَ اسْمًا ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر:٢٢] الله ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢] هَذِهِ ثَلاثَةٌ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٣-٢٤].

وأسماءُ اللهِ تَعالَى كَثِيرَةٌ، مِنْهَا تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ اسْمًا، قَالَ عَنْهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[1] فيَجِبُ عَلَيْنَا أنْ نُؤْمِنَ بِأسماءِ اللهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا (٧٣٩٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٦٧٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مثلًا: الحَكِيمُ مِنْ أسماءِ اللهِ، ومعناهُ الَّذِي أحْكَمَ كُلَّ شَيْءٍ شَرَعَهُ، وأتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صَنَعَهُ، صُنْعَ اللهِ الَّذِي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، أحْكَمَ كُلَّ شَيْءٍ شَرَعَهُ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠] فكُلُّ مَا شرَعَهُ اللهُ فهُوَ حقٌّ، مَبْنِيٌّ عَلَى الحِكْمَةِ، لكنَّ الحِكْمَةَ قَدْ تكونُ مَعْلُومَةً لنا وقدْ تكُونُ غَيْرَ مَعْلُومَةٍ لنا لقُصُورِنَا.

فيَجِبُ عَلَيْكَ أيُّهَا المُسْلِمُ أنْ تُؤْمِنَ بأنَّ كُلَّ شَيْءٍ شَرَعَهُ اللهُ فهُوَ حقٌّ ولِحِكْمَةٍ، لكنْ مِنَ الحِكْمَةِ مَا يكونُ مَعْلُومًا لنَا ومِنَ الحِكْمَةِ مَا يَكُونُ غَيْرَ مَعْلُومٍ، جاءَتِ امْرأةٌ إلَى أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَقَالَتْ لهَا: مَا بالُ الحائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ ولا تَقْضِي الصَّلاةَ؟ إذَا حاضَتِ المرأةُ ترَكَتِ الصَّلاةَ وتَرَكَتِ الصِّيامَ، لكنْ يَجِبُ علَيْهَا أنْ تَقْضِيَ الصِّيامَ، ولا يَجِبُ أنْ تَقْضِيَ الصَّلاةَ؟

انْظُرْ إلَى جوابِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالتْ: كانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ فنُؤْمَرُ بقَضَاءِ الصَّوْمِ، ولا نُؤْمَرُ بقَضَاءِ الصَّلاةِ[1]، وكفَى بذَلِكَ حِكْمَةً، فمادَامَ هَذَا حُكْمَ اللهِ فإنَّهُ لَا شكَّ مَبْنِيٌّ عَلَى الحِكْمَةِ، ألَيْسَ اللهُ بأحْكَمِ الحَاكِمِينَ؟! ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

فكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مُبْتَلًى، كُلَّما جاءَ شَيْءٌ مَشْرُوعٌ، قالَ: مَا الحِكْمَةُ؟ لماذَا؟ وجَوابُنَا عَلَى ذَلِكَ أنْ نقولَ: حُكْمُ اللهِ حِكْمَةٌ بأنْ نُؤْمِنَ بأنَّ اللهَ حَكِيمٌ، وأنَّهُ لنْ يَشْرَعَ شَيْئًا إلَّا وهُوَ مُطابِقٌ تَمامًا للحِكْمَةِ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦] يَعْنِي مَا كانَ لمُؤْمِنٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

ولا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ ورَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَخْتَارُوا سِوَى مَا قَضَى اللهُ ورَسُولُهُ أبدًا، مَنْ يَخْتَارُ غَيْرَ مَا قَضَى اللهُ ورَسُولُهُ فلَيْسَ بمُؤْمِنٍ، مَنْ يَخْتَارُ شَيْئًا خِلافَ مَا قَضَى اللهُ ورَسُولُهُ فلَيْسَ بمُؤْمِنٍ.

المُؤْمِنُ إِذَا قَضَى اللهُ ورَسُولُهُ أَمْرًا قَالَ: هَذَا هُوَ الحَقُّ، وعَلَى العَيْنِ والرَّأْسِ، وسَمِعْنَا وأَطَعْنَا، وإِذَا كانَ خَبَرًا قَالَ: آمَنَّا وصدَّقْنَا.

إِذَنِ: الحَكِيمُ معْناهَا: الَّذِي أَحْكَمَ كُلَّ شَيْءٍ شَرَعَهُ، وأَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صَنَعَهُ.

والسَّماوَاتُ والأَرْضُ مِنْ مَصْنُوعاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، مُتْقَنَةٌ تَمامًا، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أَيْ: مِنْ خَلَلٍ ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ يَعْنِي مرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، الجَوابُ: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [المُلك:٤] أَيْ: يَعْجِزُ أَنْ يرَى خَلَلًا فِي خَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكذَلِكَ فِي شَرْعِ اللهِ، كُلُّ شَرْعِ اللهِ مُتْقَنٌ؛ ولهَذَا أَخْطَأَ قَوْمٌ وضَلُّوا وسَفِهَتْ عُقُولُهُمْ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ القَوانِينَ خَيْرٌ مِنْ حُكْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قاتَلَ اللهُ عَدُوَّ اللهِ، كَيْفَ تَكُونُ القَوانِينُ الَّتِي وضَعَهَا بَشَرٌ خَيْرًا مِنْ حُكْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟! فالقَوانِينُ واضِعُهَا بَشَرٌ، والبَشَرُ مَحْدُودٌ بمَنْ حَوْلَهُ، ولَيْسَ شامِلًا لِمَا كانَ فِي عَصْرِهِ ومَا يَكُونُ بَعْدَ عَصْرِهِ، ولَيْسَ صالِحًا لكُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ.

إِذَنْ: كَيْفَ نُقَدِّمُ هَذِهِ القَوانِينَ الَّتِي عَفَا علَيْهَا الدَّهْرُ عَلَى شَرِيعَةِ اللهِ؟! هَذَا سَفَهٌ؛ ولهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البَقَرة:١٣٠] أَيْ: وضَعَهَا فِي السَّفَهِ.

وعَلَى هَذَا نَقُولُ: إنَّ اللهَ تَعالَى حَكِيمٌ، أَحْكَمَ كُلَّ شَيْءٍ شَرَعَهُ، وأَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صَنَعَهُ، نَحْنُ هُنَا فِي انْتِظارِ الحَجِّ، نَخْرُجُ إلَى مِنًى، ثُمَّ إلَى عَرَفاتٍ، ثُمَّ إلَى مُزْدَلِفَةَ، ثُمَّ إلَى مِنًى ثانِيَةً، وقَدْ يُلْقِي الشَّيْطانُ فِي قُلُوبِ بَعْضِ النَّاسِ لِماذَا هَذَا التَّعَبُ؟ نَقُولُ: هَذَا حُكْمُ اللهِ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

إذَنْ: أَسْماءُ اللهِ تَعالَى الإيمانُ بِهَا مِنَ الإيمانِ باللهِ، وهُنَا سُؤالٌ: هلْ أَسْماءُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَسْماءٌ مُجَرَّدَةٌ لا تَحْمِلُ مَعْنًى، أَوْ هِيَ تَحْمِلُ مَعْنًى؟

الجَوابُ: تَحْمِلُ معْنًى.

وهلْ أَسْماءُ البَشَرِ عَلَمٌ مُجَرَّدٌ أَوْ يَحْمِلُ معْنًى؟

الجَوابُ: عَلَمٌ مُجَرَّدٌ.

مثلًا: اسْمُ (خَالِدٌ) يَعْنِي أَنَّهُ باقٍ أبدًا، وهُوَ لَيْسَ باقِيًا أبدًا.

إذَنْ: أَسْماءُ البَشَرِ مُجَرَّدُ أَعْلامٍ فقطْ، لكنْ أَسْماءُ اللهِ وأَسْماءُ رَسُولِ اللهِ وأَسْماءُ كِتابِ اللهِ كُلُّهَا أَعْلامٌ وأَوْصافٌ، فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لأَوْصافٍ عَظِيمَةٍ.

الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اسْمُهُ أَحْمَدُ واسْمُهُ مُحَمَّدٌ، واسْمُهُ العاقِبُ، واسْمُهُ الحاشِرُ، والماحِي[1]، وغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَسْمائِهِ، كُلُّ اسْمٍ مِنْهَا يَحْمِلُ معْنًى.

كذَلِكَ القُرْآنُ اسْمُهُ القُرْآنُ، وكَلامُ اللهِ، والفُرْقانُ، والتِّبْيانُ، وأَسْماءٌ كَثِيرَةٌ؛ لأَنَّهَا أَسْماءُ تَحْمِلُ معْنًى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، رقم (٣٥٣٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ، رقم (٢٣٥٤)، من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أمَّا أعْلامُ البَشَرِ غَيْرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والأَنْبياءِ فَهِيَ مُجَرَّدُ عَلَمٍ، لكنْ أسْماءُ اللهِ عَلَمٌ يَحْمِلُ مَعْنًى، ورُبَّما يَحْمِلُ مَعانِيَ كَثِيرَةً.

فمَثَلًا: مِنْ أَسْماءِ اللهِ الخَالِقُ، وهُوَ يَحْمِلُ مَعْنَى صِفَةِ الخَلْقِ، فهُوَ خالِقٌ؛ لأَنَّهُ يَخْلُقُ، ويَحْمِلُ أيْضًا مَعْنَى العِلْمِ، فإنَّهُ لَا يُمْكِنُ أنْ يَخْلُقَ بلا عِلْمٍ.

إذَنْ: يَحْمِلُ مَعْنَى العِلْمِ، ويَحْمِلُ أيْضًا مَعْنَى القُدْرَةِ؛ لأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أنْ يَخْلُقَ إلَّا وهُوَ قادِرٌ.

فانْظُرْ هَذَا الاسْمَ الآنَ تَضَمَّنَ مَعانِيَ مُتَعَدِّدَةً غَيْرَ مَا دلَّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ، فكُلُّ خالِقٍ -الخالِقُ هُوَ اللهُ- لَا بُدَّ أنْ يَكُونَ عالِمًا، ولا بُدَّ أيْضًا أنْ يَكُونَ قادِرًا، ولولا قُدْرَتُهُ مَا خلَقَ، ولوْلا عِلْمُهُ مَا خلَقَ.

والأسْماءُ مِنْهَا مَا ثَبَتَ بالقُرْآنِ، ومِنْهَا مَا ثَبَتَ بالسُّنَّةِ، ومنْهَا مَا ثَبَتَ بالقُرْآنِ والسُّنَّةِ.

مِنَ الأسْماءِ الَّتِي جاءَتْ بِهَا السُّنَّةُ ولَمْ تَكُنْ فِي القُرْآنِ الشَّافِي، الشَّافِي مِنْ أسْماءِ اللهِ، الدَّلِيلُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: **«وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ»**[1].

ومِمَّا جاءتْ بِهِ السُّنَّةُ ولَيْسَ فِي القُرْآنِ الرَّبُّ، فمَهْمَا بحَثْتُمْ لنْ تَجِدُوهَا فِي القُرْآنِ، لكنْ جاءَتْ بِهَا السُّنَّةُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ القُرْآنَ رَاكِعًا**

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب دعاء العائد للمريض، رقم (٥٦٧٥)، ومسلم: كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض، رقم (٢١٩١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أَوْ سَاجِدًا، أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِيهِ فِي الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّهُ قَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»[1].

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الحَدِيثِ: «فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ».

وقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلفَمِّ، مَرْضَاةٌ للرَّبِّ»[2] هَذَا الَّذِي جاءتْ بِهِ السُّنَّةُ، لكنْ فِي القُرْآنِ لَا تَجِدُ الرَّبَّ.

واسْمُ الشَّافِي مَوْجُودٌ فِي القُرْآنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشُّعَراءِ:٨٠] وكذَلِكَ فِي السُّنَّةِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي».

وقدْ ذكَرْنَا أنَّ مِنْ أَسْماءِ اللهِ مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ ولَمْ تَأْتِ بِهِ السُّنَّةِ، ولكنِّي قُلْتُ ذَلِكَ تَتْمِيمًا للتَّقْسِيمِ، وإلَّا فالواقِعُ أنَّ مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ فقدْ جاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يَقْرَأُ القُرْآنَ، ويُؤْمِنُ بِمَا فِيهِ، لَا شكَّ فِي هَذَا.

ولا يَتِمُّ الإيمانُ باللهِ حتَّى تُؤْمِنَ بِصِفَاتِ اللهِ، وأسْأَلُكُمْ يا حُجَّاجَ بَيْتِ اللهِ -ولا سيَّما طُلَّابَ العِلْمِ مِنْكُمْ-: هلْ نَحْنُ نَضَعُ الصِّفاتِ للهِ عَلَى مَا نُرِيدُ، أوِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هُوَ الَّذِي يَصِفُ نَفْسَهُ بما شاءَ؟

الجَوابُ: اللهُ هُوَ الَّذِي يَصِفُ نَفْسَهُ بِمَا شاءَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٧)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب الترغيب في السواك، رقم (٥)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. والبخاري: كتاب الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم، (٣/ ٣١) معلقًا.

إِذَنْ: فواجِبُنَا نَحْوَ صِفاتِ اللهِ الَّتِي وصَفَ بِهَا نَفْسَهُ أَنْ نَقُولَ: سَمِعْنَا وآمَنَّا وصَدَّقْنَا، لَا نَحْكُمُ عَلَى اللهِ بعُقولِنَا أبدًا، نَحْنُ أَحْقَرُ وأَذَلُّ مِنْ أَنْ نَحْكُمَ عَلَى ربِّ العَالَمِينَ بعُقُولِنَا، فإِذَا وَصَفَ اللهُ نفسَهُ بأَنَّ يَدَيْهِ مَبْسُوطَتَانِ؛ رَدًّا عَلَى اليَهُودِ الَّذِينَ وصَفُوا اللهَ تَعالَى بالغُلُولِ -قَاتَلَهُمُ اللهُ ولَعَنَهُمْ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ- قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤] يَعْنِي: محْبُوسَةٌ عَنِ الإنْفاقِ، لَا تُنْفِقُ ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة:٦٤] ولهَذَا تجِدُونَ أَبْخَلَ النَّاسِ هُمُ اليَهُودَ، واللهِ لَا يَبْذُلُونَ دِرْهَمًا إِلَّا وهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَحْصُلُوا عَلَى دِينارٍ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة:٦٤] لعَنَهمُ اللهُ واللاعِنُونَ أيضًا، نَحْنُ نَلْعَنُهُمْ بمَا قالُوا ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤] ولا أَحَدَ يَحْسِبُ عَلَى اللهِ، ولا أَحَدَ يُلْزِمُ اللهَ بالإنْفاقِ، هم يَقُولونَ: لمِا لَا يُعْطِينَا اللهُ؟ إِذَنْ: هُوَ بَخِيلٌ، يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ، نقولُ: غُلِّتْ أَيْدِيكُمْ، ولُعِنْتُمْ بِمَا قُلْتُمْ، بلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ؛ ولهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ -واسْتَمِعْ إِلَى هَذَا الحَدِيثِ- قالَ: «**يَدُ اللهِ مَلْأَى**» إِذَنْ: هُوَ غَنِيٌّ لَا يَحْتَاجُ إِلَى أحَدٍ «**يَدُ اللهِ مَلْأَى سَحَّاءُ**» والسَّحَّاءُ لُغَةً: كَثِيرَةُ العَطاءِ، «**لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ**» يَعْنِي: لَا يُنقِصُهَا نَفَقَةٌ «**أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**»[1] يَعْنِي أَخْبِرُونِي عَنْ قَدْرِهَا، مَا قَدْرُ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ؟ لَا يُمْكِنُ الإحَاطَةُ به، فإِنَّهُ لم يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ. أَيْ: لَمْ يُنْقِصْ مَا فِي يَمِينِهِ.

فلَوْ أَنَّ إِنْسانًا قالَ: اللهُ لَيْسَ لهُ يَدٌ، بلِ المُرادُ باليَدِ القُوَّةُ، أوِ المُرادُ باليَدِ النِّعْمَةُ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب سورة هود باب قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، رقم (٤٦٨٤)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة، رقم (٩٩٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أوِ المُرادُ باليَدِ القُدْرَةُ، فماذَا تَقُولُونَ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ بَعْدَ أنْ أثْبَتَ اللهُ لِنَفْسِهِ يَدًا بلْ يَدَيْنِ؟!

الجَوابُ: هَذَا تَفْسِيرٌ باطِلٌ، هلْ أنْتَ أعْلَمُ باللهِ مِنَ اللهِ؟! لا واللهِ ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠] فلَا يُمْكِنُ أنْ تَحْكُمَ أنتَ بعَقْلِكَ عَلَى رَبِّكَ، فلوْ قالُوا: لَيْسَ للهِ يَدٌ لكَذَبُوا وكَفَرُوا، لكنْ يَقُولُونَ: للهِ يدٌ لكنِ المُرادُ بِهَا القُوَّةُ، أوِ المرادُ بِهَا النِّعْمَةُ، أوِ المُرادُ بِهَا القُدْرَةُ، أمَّا يَدٌ حَقِيقَةً فلَا، اللهُ أكْبَرُ، لِماذَا لَا تُثْبِتُونَ للهِ يَدًا تَلِيقُ بجَلالِهِ وعَظَمَتِهِ، ولا يُمْكِنُ أنْ تَكُونَ مِثْلَ أيْدِي المَخْلُوقِينَ؟!!

والدَّلِيلُ عَلَى أنَّها لَيسَتْ مِثْلَ أيْدِي المَخْلُوقِينَ قَوْلُ اللهِ تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورَى:١١] لَا فِي ذاتِهِ ولا فِي صِفاتِهِ، واللهِ لَيُسْأَلَنَّ المَرْءُ يَوْمَ القِيامَةِ ماذَا أجابَ المُرسَلِينَ؟ لِماذَا حَرَّفْتَ كَلامَ اللهِ عَنْ مَواضِعِهِ؟ أثْبِتْ للهِ يَدًا، وقُلْ: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورَى:١١] ولَيْسَ عَلَيْكَ شَيْءٌ، فلَمْ يَرِدْ نَصٌّ واحِدٌ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وهُوَ أعْلَمُ الخَلْقِ بكَلامِ ربِّهِ- أوْ نَصٌّ عَنْ خُلفائِهِ الرَّاشِدِينَ -وهُمْ أعْلَمُ النَّاسِ بمُرادِ اللهِ ومُرادِ رَسُولِهِ- يقولُ: المُرادُ باليَدِ القُوَّةُ أوِ القُدْرَةِ؟

وابْحَثُوا إلَى يَوْمِ القِيامَةِ لَنْ تَجِدُوا لذَلِكَ سَبِيلًا، كُلُّهُمْ آمَنُوا بِما دَلَّ عَلَيْهِ كَلامُ اللهِ وكَلامُ رَسُولِهِ، ولكنَّهُمْ قالُوا: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ.

فلو سأَلَكَ سائِلٌ: كَيْفَ يَدُ اللهِ؟ لأمْكَنَ أنْ نُجِيبَ بِمَا أجابَ بِهِ مالِكٌ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (٦٦٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٨٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والدارمي في الرد على الجهمية رقم (١٠٤).

عَنِ الاسْتِوَاءِ، ونقولُ: اليَدُ مَعْلُومَةٌ، والكَيْفُ مجْهُولٌ، والإيمانُ بِهَا واجِبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهَا بِدْعَةٌ؛ لأَنَّنَا قُلْنَا: إنَّ كلامَ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِيزَانٌ لجَمِيعِ الصِّفاتِ.

إذَنْ: إذَا سَأَلَنَا سائِلٌ كَيْفَ يَدُ اللهِ؟ نقولُ: أَنْتَ مُبْتَدِعٌ، لَا تَسْأَلْ هَذَا السُّؤَالَ؛ لأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أنْ نُحِيطَ بذَلِكَ عِلْمًا إطْلاقًا، فالسُّؤَال عَنْهُ بِدْعَةٌ.

وعَلَى كُلِّ حالٍ المقامُ مَقامٌ يَحْتَاجُ إِلَى طُولٍ، لكِنْ ذَكَرْنَا مِثالًا واحدًا مِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بأنَّ اللهَ تَعالَى لهُ يدٌ حَقِيقَةً، بلْ يَدانِ اثْنَتَانِ، كما قَالَ عَزَّوَجَلَّ مُخاطِبًا إبْلِيسَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] والأَمْثِلَةُ عَلَى هَذَا لَا نَتَعَرَّضُ لهَا؛ لأنَّ الوَقْتَ ضَيِّقٌ.

تعرَّضْنَا فِيما سبَقَ إِلَى مسْأَلَةٍ أُخْرَى مِنْ صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهِيَ اسْتِوَاءُ اللهِ عَلَى عَرْشِهِ، وقُلْنَا: إنَّ مَعْنَى (اسْتَوَى اللهُ عَلَى العَرْشِ) أيْ: عَلَا عليْهِ، لكنْ لَا نَعْلَمُ كَيْفَ علَا، فعَظَمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أوْسَعُ مِنْ عُقُولِنَا ومَعْلُومَاتِنَا، اسْتَوى عَلَيْهِ عَلَا عَلَيْهِ عَلَى وجْهٍ يَلِيقُ بجَلالِهِ وعَظَمَتِهِ، ولَيْسَ لنَا أنْ نُكَيِّفَهُ ولا أنْ نُمَثِّلَهُ.

فإذَا قَالَ قائِلٌ: هلْ يَلْزَمُ مِنِ اسْتِوَاءِ اللهِ عَلَى العَرْشِ أنْ يَكُونَ عالِيًا فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ؟

قُلْنَا: العَرْشُ أعْلَى المَخْلُوقَاتِ، لَيْسَ هُناكَ شَيْءٌ مِنَ المَخْلُوقَاتِ فِيمَا نَعْلَمُ أعْلَى مِنَ العَرْشِ، وإذَا كانَ اللهُ مُسْتَوِيًا عَلَى العَرْشِ لَزِمَ أنْ يَكُونَ عالِيًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

إذَنْ: فيَجِبُ أنْ نُؤْمِنَ بعُلُوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وأَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، فِرْعَوْنُ مُقِرٌّ بأنَّ اللهَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، فِرْعَوْنُ قَالَ لوَزِيرِهِ هَامانَ: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافِر:٣٦-٣٧]

لأنَّ مُوسَى قَالَ لهُ: إنَّ اللهَ فَوْقَ، قالَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ [غافر:٣٧] وفِرْعَوْنُ كاذِبٌ، يقولُ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ تَمْوِيهًا عَلَى جَماعَتِهِ؛ لأنَّ جَماعَتَهُ عُقُولُهُمْ ضَعِيفَةٌ، اسْتَخَفَّ قَوْمَـهُ فأَطاعُوهُ، قالَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ [غافر:٣٧] وهُوَ يَكْذِبُ، فهُوَ لَا يَظُنُّ مُوسَى كاذبًا، بلْ يَظُنُّهُ صادِقًا، وقدْ قَالَ لهُ مُوسَى مُتَحَدِّيًا إيَّاهُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢] يقولُ مُوسَى لِفِرْعَـوْنَ: إنَّكَ تَعْلَمُ أنَّ الَّذِي أَنْزَلَ ذَلِكَ هُوَ ربُّ السَّماواتِ والأرْضِ، وقالَ تَعالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النَّمل:١٤].

على كُلِّ حالٍ: إنَّ اللهَ تَعالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، ولَا يَحْتاجُ أنْ نَأْتِيَ بدَلِيلٍ، ادْعُوا ربَّكُمْ وارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ، فعِنْدَمَا نَدْعُوا ونقولُ: يَا اللهُ نَرْفَعُ أَيْدِيَنَا إلى السَّماءِ، نَدْعُوا اللهَ، إذَنِ: اللهُ فِي السَّماءِ.

وهكَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ للجارِيَةِ: «**أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّماءِ، قَالَ: أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[1] وهَؤُلاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: يَا اللهُ! لَا نحْتَاجُ أنْ نُعَلِّمَهُمْ، تَجِدُ عَجُوزًا لَا تَعْرِفُ، ولَا تَقْرَأُ القُرْآنَ، إذَا قالتْ: يَا اللهُ إنَّمَا تَرْفَعَ يَدَيْهَا إلَى السَّماءِ؛ ولهَذَا كانَ أبو المَعالِي الجُوَيْنِيُّ -عفَا اللهُ عنَّا وعنْهُ- يُؤَوِّلُ فِي الاسْتِوَاءِ، يُحَرِّفُ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ، ويَسْأَلُ اللهَ أنْ يَعْفُوَ عنهُ! لكنْ لعَلَّهُ رَجَعَ وتَابَ، كانَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الاسْتِوَاءِ، فَقَالَ لهُ أبو العَلَاءِ الهَمْدَانِيُّ: يَا أُسْتَاذُ! دعْنَا مِنْ ذِكْرِ العَرْشِ، دَعْنَا مِنَ الاسْتِوَاءِ؛ لأنَّ الاسْتِوَاءَ دَلِيلُهُ سَمْعِيٌّ فقطْ لَيْسَ عَقْلِيًّا، لكنْ مَا تَقُولُ للرَّجُـلِ يَدْعُو؟! مَا قَالَ عارِفٌ قطُّ يَا اللهُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِلَّا وَجَدَ مِنْ قَلْبِهِ ضَرُورَةً بطَلَبِ العُلُوِّ، قالَ: أَخْبِرْنَا عَنْ هَذِهِ الضَّرُورَةِ -وهذِهِ لَا تَحْتَاجُ دَلِيلًا!- فضَرَبَ أبو المَعالِي عَلَى رَأْسِهِ، حيَّرَنِي الهَمْدَانِيُّ! [(١)] يَعْنِي: عَجِزْتُ أَنْ أُجِيبَهُ، لَيْسَ لِي جَوَابٌ عَلَى هَذَا، وهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ بالفِطَرِ.

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ فِي أَعْظَمِ مَجْمَعٍ، وأَوْسَعِ مَجْمَعٍ، يَوْمَ عَرَفَةَ، خَطَبَ النَّاسَ خُطْبَةً بَلِيغَةً عَظِيمَةً، شَرَحَهَا الشَّيْخُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حُمَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ شَرْحًا جيِّدًا، لَمَّا خَاطَبَهُمْ قالَ: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» قَالَ الصَّحَابَةُ: نَعَمْ، قالَ: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» قالُوا: نَعَمْ، قالَ: «**أَلَا هلْ بَلَّغْتُ؟**» قالُوا: نَعَمْ، قالَ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، يَرْفَعُ أُصْبُعَهُ للسَّماءِ**» يَنْكُتُهَا للنَّاسِ [(٢)]، أيِ: اشْهَدْ عَلَى النَّاسِ أَنَّهُمْ أَقَرُّوا بأَنِّي بلَّغْتُ الرِّسالةَ، ونحنُ نَشْهَدُ بِاللهِ، ونُشْهِدُ اللهَ، وَمَلائِكَةَ اللهِ، وجَمِيعَ خَلْقِ اللهِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ بلَّغَ البَلاغَ المُبِينَ.

وأَنَّهُ كَمَا قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ وما طائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّماءِ إِلَّا ذَكَرَ لنَا مِنْهُ عِلْمًا [(٣)]. حتَّى الطُّيُورُ فِي السَّماءِ عَلَّمْنَا عَنْهَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وهُنَا قِصَّةٌ معَ فَحْلٍ مِنْ فُحُولِ العُلَماءِ كانَ فِي مَطْعَمٍ فِي إِحْدَى دُوَلِ أُورُوبَّا، والمَطْعَمُ فِي الدُّوَلِ الأُورُوبِّيَّةِ يَجْمَعُ بَيْنَ المُسْلِمِ والكافِرِ والنَّصْرَانِيِّ واليَهُودِيِّ وغَيْرِهِمْ، وكانَ جالِسًا وقدْ عُلِمَ أَنَّهُ مِنْ عُلَماءِ المُسْلِمينَ، فجاءَ رَجُلٌ نصْرَانِيٌّ يُرِيدُ أَنْ يَلْعَبَ عَلَى هَذَا العالِمِ المُسْلِمِ، فجَلَسَ إليْهِ وقالَ لهُ: أظُنُّ أَنَّ الكِتابَ الَّذِي نَزَلَ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣).

عَلَى نَبِيِّكُمْ فِيهِ أَنَّهُ تِبْيَانٌ لكُلِّ شَيْءٍ -كما قَالَ تَعالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّحل:٨٩]- والآنَ بَيْنَ يَدَيْنَا (سَنْدَوِشْت)، فأَيْنَ فِي كِتابِكُمْ كَيْفِيةُ صناعتِه؟ انْظُرْ هَذَا الرَّجُلَ، جَعَلَ القُرْآنَ العَزِيزَ كِتابَ مَطْبَخٍ، قاتَلَهُ اللهُ!.

قالَ: هَذَا مَوْجُودٌ فِي كِتابِنَا، قَالَ لهُ: سُبْحَانَ اللهِ أَيْنَ؟ فنادَى صاحِبَ المَطْبَخِ، وقالَ: كَيْفَ صَنَعْتَ هَذَا؟ قالَ: فَعَلْتُ كذَا، وفَعَلْتُ كذَا، وجَعَلَ يَصِفُ كَيْفَ صَنَعَهُ.

قالَ: هكَذَا جَاءَ فِي القُرْآنِ، إنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النَّحل:٤٣].

إذَنِ: القُرْآنُ دلَّنَا كَيْفَ نَصْنَعُ هَذَا، أَنْ نَسْأَلَ العالِمَ بهِ، كُلُّ ذِكْرٍ وكُلُّ عِلْمٍ بحَسَبِهِ.

فالقُرْآنُ تِبْيَانٌ لكُلِّ شَيْءٍ، إمَّا بالنَّصِّ أَوْ بالإيماءِ أَوْ بالإشارَةِ أَوْ بالتَّوْجِيهِ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّحل:٨٩] فهَذَا الرَّجُلُ عَرَفَ كَيْفَ يُخاطِبُ هَذَا النَّصْرَانِيَّ، الَّذِي أرادَ أَنْ يُلَبِّسَ، وأَنْ يَقُولَ: إنَّ القُرْآنَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الكَذِبِ؛ لأَنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّحل:٨٩] ونحنُ لَا نَعْرِفُ كَيْفَ يُصْنَعُ هَذَا الطَّعامُ، لكنِ اللهُ أَرْشَدَنَا بقَوْلِهِ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النَّحل:٤٣] فهذِهِ قاعِدَةٌ يَتَبَيَّنُ بِهَا كُلُّ شَيْءٍ.

إذَنْ: نَعُودُ إِلَى مَا ابْتَدَأْنَا أَنَّهُ لَا يَتِمُّ الإيمانُ بِاللهِ إِلَّا بأُمُورٍ أَرْبَعَةٍ:

الأَوَّلُ: أَنْ تُؤْمِنَ بأَنَّ اللهَ مَوْجُودٌ، وأَنَّهُ فِي السَّماءِ فَوْقَ عَرْشِهِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨] والآياتُ فِي هَذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ، ولا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِهَا؛ لِئَلَّا يَطُولَ بنَا الوَقْتُ.

الثَّانِي: الإيمانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ، بأَنَّهُ وحْدَهُ رَبُّ العَالَمِينَ.

الثالِثُ: الإيمانُ بأُلُوهِيَّتِهِ، بأَنَّهُ وحْدَهُ الإِلَهُ الحَقُّ، وما سِواهُ فهُوَ باطِلٌ، كُلُّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ فعِبادَتُهُ باطِلَةٌ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

الرابِعُ: الإيمانُ بأسْمائِهِ وصِفاتِهِ، وهُنا اخْتَلَفَ أَهْلُ القِبْلَةِ -وأعْنِي بأهْلِ القِبْلَةِ مَنْ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الإِسْلامِ- اخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الرابِعَةِ اخْتِلافًا عَظِيمًا مَا بَيْنَ مُمَثِّلٍ ومُعَطِّلٍ ومُسْتَقِيمٍ، والأحَقُّ بالحَقِّ هُوَ المُسْتَقِيمُ، الَّذِي يُؤْمِنُ بما أَثْبَتَهُ اللهُ لنَفْسِهِ مِنَ الأسْماءِ والصِّفاتِ مِنْ غَيْرِ تَمْثِيلٍ ولا تَكْيِيفٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لجِبْرِيلَ: «**الإيمانُ أَنْ تُؤْمِنُ باللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ**»[1].

قَالَ العُلَماءُ: إن المَلائِكَةَ عالَمٌ غَيْبِيٌّ مَغِيبٌ عنَّا، وثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ نُورٍ[2]، وأَنَّهُمْ صُمْدٌ، لَا يَأْكُلُونَ ولا يَشْرَبُونَ، وإنَّما غِذاؤُهُمُ التَّسْبِيحُ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠] ولهمْ وَظَائِفُ مُتَعَدِّدَةٌ، ونذْكُرُ ثَلاثَةً منهُمْ كانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ يَذْكُرُهُمْ فِي اسْتِفْتَاحِ صَلاةِ اللَّيْلِ جِبْرِيلَ ومِيكَائِيلَ وإِسْرَافِيلَ[3].

جِبْرِيلُ: مُوَكَّلٌ بالوَحْيِ، يأْتِي بالوَحْيِ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَى الرُّسُلِ والأنْبِياءِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب في أحاديث متفرقة، رقم (٢٩٩٦)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

مِيكَائِيلُ: مُوَكَّلٌ بالقَطْرِ والنَّباتِ، والقَطْرُ أي: الأمطارُ، فلا تَسْقُطُ نُقْطَةُ مَطَرٍ إلَّا وهِيَ مَكْتُوبَةٌ عَنِ اللهِ، ومَعْلُومَةٌ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا يُحْصِي ذرَّاتِ المَطرِ إلَّا اللهُ.

إِسْرَافِيلُ: مُوَكَّلٌ بالنَّفْخِ فِي الصُّورِ، يَوْمَ القِيامَةِ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُّمَر:٦٨].

مَا أَعْظَمَ قُدْرَةَ اللهِ! يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فيُصْعَقُ النَّاسُ كُلُّهُمْ إلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فإذَا هم قِيامٌ يَنْظُرُونَ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ [يس:٥١] أيْ مِنَ القُبُورِ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١] يُسْرِعُونَ. أَسْأَلُ اللهَ تَعالَى أنْ يُخْرِجَنا وإيَّاكُمْ مِنْ قُبُورِنَا عَلَى نُورٍ وضِياءٍ، آمينَ.

يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فيَخْرُجُ النَّاسُ، وهَذَا الإخْرَاجُ لَا يَحْتَاجُ إلَى عَناءٍ ومَشَقَّةٍ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازعات:١٣-١٤] عَلَى وجْهِ الأرْضِ، زَجْرَةٌ واحِدَةٌ يُزْجَرُ مَنْ فِي القُبُورِ، اخْرُجُوا فيَخْرُجُونَ، آيَةٌ أُخْرَى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:٥٤-٥٣] صَيْحَةٌ واحِدَةٌ فإذَا النَّاسُ كُلُّهُمْ جَمِيعٌ مُحْضَرُونَ إلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ أحَدٌ، ومَنْ يُحْصِيهِمْ إلَّا الَّذِي خَلَقَهُمْ عَزَّوَجَلَّ.

وانْظُرْ إلَى قَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القَمَر:٤٩] كُلُّ شَيْءٍ مَخْلُوقٌ بقَدَرٍ ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ [القَمَر:٥٠] لَيْسَ هُناكَ تَكْرارٌ، كُنْ فيَكُونُ ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ

إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القَمَر:٥٠] ولا يُتَصَوَّرُ شَيْءٌ أَسْرَعُ مِنْ لَمْحِ البَصَرِ، فهَذَا أمْرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: لِماذا خَصَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ؟

قُلْنَا: لأنَّ كُلَّ واحدٍ مِنْهُمْ مُوَكَّلٌ عَلَى مَا فِيهِ الحَيَاةِ، فجِبْرِيلُ مُوَكَّلٌ عَلَى الوَحْيِ الَّذِي فِيهِ حَياةُ القُلُوبِ؛ ولهَذَا سَمَّى اللهُ القُرْآنَ رُوحًا ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا**﴾ [الشُّورَى:٥٢] يَعْنِي فِي حَياةِ القُلُوبِ، ومِيكائِيلُ مُوَكَّلٌ بالقَطْرِ والنَّباتِ وفِيهِ حَياةُ الأَرْضِ، وإسْرافِيلُ مُوَكَّلٌ بالنَّفْخِ فِي الصُّورِ وفِيهِ حَياةُ النَّاسِ ليَوْمِ المِيعَادِ.

يقولُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي صَلاةِ اللَّيْلِ، يَفْتَتِحُهَا فيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(١).

فالرَّسُولُ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّذِي يَهْدِي إِلَى الصِّراطِ المُسْتَقِيمِ، يَقُولُ لرَبِّهِ: اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، فما بالُك بغَيرِه ممَّن هُو دُونَه، تَجِدُهُ يُفْتِي النَّاسَ، ولا يَهْتَمُّ، ولا يَبْحَثُ، ولا يُناقِشُ، كأنَّما يُنْزَلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ، والنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ، ويَقُولُ: «**اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**» فَما أَجْدَرَ المُفْتِينَ أنْ يَقُولُوا مِثْلَ ذَلِكَ عِنْدَمَا يُسْتَفْتَوْنَ؛ حتَّى لَا يَزِلُّوا فَيَضِلُّوا ويُضِلُّوا.

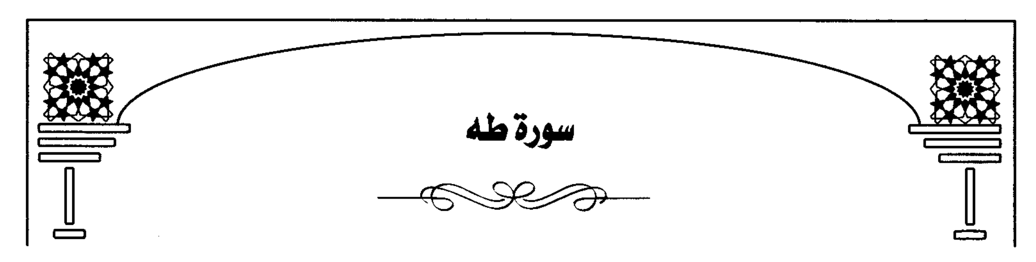
---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وهُناكَ مَلائِكَةٌ آخَرُونَ مُوَكَّلُونَ أيْضًا، فمَلَكُ المَوْتِ مُوَكَّلٌ بقَبْضِ الأرْوَاحِ، واشْتُهِرَ فِي بعضِ الإسْرَائِيلِيَّاتِ أنَّ مَلَكَ المَوْتِ اسْمُهُ عزْرَائِيلُ، ولَيْسَ هَذَا بصَحِيحٍ، بلْ سَمِّهِ بِمَا سَمَّاهُ اللهُ بِهِ ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى﴾ [السَّجْدَةِ:١١] ولَمْ يَقُلْ عزْرَائِيلَ، لكنْ جِبْرِيلُ مَذْكُورٌ ومِيكَائِيلُ مَذْكُورٌ ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨]. فنَقُولُ عَنْ هَذَا المَلَكِ: إنَّهُ مَلَكُ المَوْتِ، كما قَالَ اللهُ تَعالَى عَنْهُ.

وهُناكَ مَلائِكَةٌ آخَرُونَ مِنهُمْ: مَلائِكَةٌ مُوَكَّلُونَ بنَا، يَتَعَاقَبُونَ، مَلائِكَةٌ تَنْزِلُ فِي اللَّيْلِ، ومَلائِكَةٌ تَنْزِلُ فِي النَّهارِ، مِنْهُمْ مَلائِكَةٌ مُوَكَّلُونَ بكِتابَةِ أعْمالِنَا ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧-١٨] ﴿رَقِيبٌ﴾: مُراقِبٌ تمامًا ﴿عَتِيدٌ﴾: حاضِرٌ لَا يَغِيبُ، فما بالُكَ بمَنْ يُكْتَبُ عَلَيْهِ كُلُّ قَوْلٍ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ فَاحْذَرْ يا أخِي أنْ تَقُولَ قَوْلًا يُغْضِبُ اللهَ.





سورة طه

الدرس الأول:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ محُمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال تعالى: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:١-٥].

البسملَةُ آيةٌ من كِتابِ الله لا شَكَّ في هذا، نَزَلَتْ عَلَى الرسولِ ﷺ كما نَزَلَتْ بقِيَّةُ الآياتِ، وليستْ آيَةً مَعَ كلِّ سورَةٍ، حتَّى الفاتِحَةُ ليستِ البَسْمَلَةُ مِنْها، ولهذا لو اقتَصَرَ الإنسانُ في الصلاةِ على ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] إلى آخِرِ السورَةِ لكفَاه ذَلِكَ، ويكون قَدْ أَتَى بالرُّكْنِ، فالبسمَلَةُ ليستْ آيَةً لا مِنَ الفاتِحَةِ ولا مِن غَيرِها، وإنما هي آيةٌ مستَقِلَّةٌ مع كُلِّ سورَةٍ.

أما مَعْنَاهَا فالمَعْنَى: أبْتَدِئُ بكُلِّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ في كلِّ ما هو مُبتَدأٌ فيهِ. ومنه مثلًا إذا أرادَ أن يَقْرَأَ فإنَّه يُقَدِّرُ الفِعْلَ الذي يتعَلَّقُ به الجارُّ والمجرورُ: باسمِ اللهِ

أَقْرَأُ، وإذا كان يريدُ أن يتَوَضَّأَ فيكونُ التَّقْدِيرُ: باسمِ الله أَتَوَضَّأُ، وإذا كان يريد أن يأْكُلَ فيكونُ التقدير: بِاسْمِ اللهِ آكُلُ، وإذا كان يريدُ أن يَشْرَبَ فيكونُ التَّقْديرُ: باسمِ اللهِ أَشْرَبُ.

ولهذا قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَذْبَحْ، فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ»[1]، فقَدِّرِ المتَعَلَّقَ بفِعْلٍ يناسِبُ ما يريدُ الإنسانُ أن يَفعَلَهُ.

أما (الله) فهو عَلَمٌ على الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، ولا يُسَمَّى بِهِ غيرُهُ، ومعناه: المعبودُ حَقًّا؛ إذ لا مَعبودَ حَقًّا إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

ومعنى (الرحمن): ذُو الرَّحْمَةِ الواسِعَةِ.

ومعنى (الرحيم): ذو الرَّحْمَةِ الواصِلَةِ، يعني أنه بِرَحْمَتِهِ يرْحَمُ من يشَاءُ من عِبادِهِ.

أما قولُه تعالى: ﴿طه﴾ فمِنَ المعلومِ أنَّ الطاء والهاء حَرفانِ هِجَائيَّانِ، فهَلْ لهُمَا مَعْنًى؟

نقول: إذا نَظَرْنَا إلى قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]، وإلى قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢]، وإلى قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، وإلى قـولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد:٣٧] تبَيَّنَ لنا أن هَذِه الحُروفَ الهجائِيَّةَ ليس لها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد، وإذا سئل الإمام عن شيء وهو يخطب، رقم (٩٨٥)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم (١٩٦٠).

مَعْنًى في ذَاتِها؛ لأن هذِهِ الحروفَ الهجائيَّةَ ليس لها مَعْنًى في اللُّغَةِ العربية، والقُرآنُ نَزَلَ بلُغَةِ العرَبِ، والعرب إذا قالتْ: أَلِفٌ، باءٌ، تاءٌ، ثاءٌ فليس لها معنًى، لكنَّها حروفٌ يتكوَّنُ مِنْها كلامُ الناسِ.

فكأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ تحدَّى هؤلاء المكذِّبينَ بالقرآنِ وقال: إن هذَا القرآنَ الذي تُكَذِّبُونَ به لم يأتِ بجديدٍ من كَلامِكُم، بل هو مِنْ كَلامِكُم، ولهذا لا تكادُ تجدُ سورَةً مبدوءةً بهذه الحروفِ الهجائيَّةِ إلا وقَدْ ذُكِرَ بعدهَا القرآنُ، ففي البقرة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢].

وفي سورة آلِ عمرانَ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:١-٣].

وفي الأعرافِ: ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:١-٢].

وفي سورة يونسَ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس:١].

وفي سورة هود: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود:١].

وفي سورة يُوسُف: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف:١].

وفي سورةِ الرعد: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الرعد:١]، وهكذا بَقِيَّةُ السُّورِ.

وبهذا يكون ابتداءُ السُّوَرِ بهذه الحروفِ الهجائِيَّةِ له مَغْزًى عظيم، وهو أن القُرآنَ الذي أعْجزَكُم أيها العَرَبُ لم يأتِ بجَدِيدٍ مِنَ الحُروفِ التي كُنْتُمْ تَتخاطَبُونَ بها.

وهذا الذي ذَكَرْتُه من أن هذِه الحُروفَ لها مَغْزًى هو ما ذَكَرَهُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيَةَ[١] وغيرُه مِنْ أهلِ العِلْمِ.

إذن لو سُئِلْتَ: ما مَعْنى طـه؟ قلتَ: ليسَ لها مَعْنًى في اللُّغَةِ العرَبِيَّةِ بل هِيَ حروفٌ هِجَائيةٌ لِيُسْتَدَلَّ بها على أن العَرَبَ عاجِزُونَ عن الإتيانِ بمِثْلِ القُرآنِ.

وأمَّا مَن قالَ: إن ﴿طه﴾ مِنْ أسماءِ النَّبِيِّ محمَّدٍ ﷺ؛ فَليسَ عندَه دَليلٌ، فقد قالَ بما لا يَعْلَمُ، والنَّبِيُّ ﷺ لم يَرِدْ مِنْ أسمائِهِ (طه).

فإن قال: أليسَ اللهُ يقولُ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١-٢] أي: يا طه؟

قلنا: إذنِ اسمُه أيضًا (يس)؛ لأن الله قالَ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:١-٣]!

واسمُه (ن)؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:١-٢]!

وقلِ: اسْمُه (المص)؛ لأن اللهَ قال: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١-٢]! فلا يُمكِنُ لأحدٍ أن يقولَ بذلِكَ.

وإني أقولُ لكُمْ: أسماءُ النَّبِيِّ ﷺ كلُّها مشْتَقَّةٌ من معَانٍ عظيمة: فـ(محمد) من الحَمْدِ، و(أحمد) من الحَمْدِ، و(الحاشِرُ) من الحَشْرِ، و(العاقِبُ) من العقبِ؛ أي أنَّه معقبٌ للأنبياءِ، فهُو آخِرُهم، وهَلُمَّ جَرًّا.

---

(١) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٧/ ٤٢٠).

فكلُّ أسماءِ الرسولِ مُشتَقَّةٌ من مَعانٍ عظيمَةٍ جليلَةٍ، وكذلك أسماء القرآنِ، وكذلك أسماءُ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ كلُّهَا مشتَقَّةٌ من معان عظيمَةٍ جلِيلَةٍ، فلا تجدُ فيها اسمًا جامِدًا، أما أسماءُ الناس فلا تَدُلُّ على المعنى الذي اشتُقَّتْ مِنه، فتسمِّي ابنَكَ خالدًا وهو ليس خالدًا؛ لأنه سيموت، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤]، وتسميه محمدًا، وربما يكونُ مِنْ أذَمِّ الناسِ خُلُقًا، وتُسَمِّي عبدَ اللهِ وربما يكون مِنْ أفسَقِ عبادِ اللهِ.

لكنَّ هذه الثلاثةَ: الرب عَزَّوَجَلَّ، والثاني: القُرآنُ، والثالث: النَّبِـيُّ محمَّدٌ ﷺ؛ أسماؤها دالَّةٌ على مَعانٍ عظيمةٍ.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ القرآن هُو هـذَا الذي بَيْن أَيْدِينا، نسألُ اللهَ أنْ يجعَلَنِي وإياكُمْ ممن يتْلُونَه حقَّ تلاوتِهِ، هذا القرآنُ العظيمُ كما وصَفه اللهُ؛ قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج:٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧]، فقد وصَفَهُ اللهُ بأوصافٍ عظِيمَةٍ.

قوله: ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ أي: لأجلِ الشَّقاءِ، سواءٌ جعَلْتَ اللامَ للتَّعْلِيلِ، أو جَعَلْتَهَا للعاقِبَةِ، فهي للنفي، فلم يُنْزِلْهُ اللهُ ليَشْقَى، ولم يُنْزِلْهُ فتكونُ عاقِبَتُهُ الشقاءَ أبدًا، بل أنْزَلَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ للهُدى والبَيانِ والسعادَةِ في الدنيا والآخِرَةِ، وعاقِبَتُهُ السعادَةُ في الدُّنْيا والآخرَةِ.

ولَـمَّا كانتِ الأمَّةُ الإسلاميَّةُ متَمَسِّكَةً بالقرآنِ صارَ لها العُلُوُّ والظهورُ على جَميعِ الأُمَمِ، ولما تأَخَّرتْ تأخَّرَ نَصْرُها.

إذن لأيِّ شيءٍ أنزلَهُ اللهُ؟

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾، (إِلَّا) هنا بمَعْنى (لكن)، يعني: لكِنْ أنْزَلْنَاهُ إليكَ ﴿تَذْكِرَةً﴾ أي: اتِّعَاظًا وعِبْرَةً لمن يَخْشَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿تَنزِيلًا﴾ يعْنِي أنَّه نَزَلَ تَنْزِيلًا على فَتَراتٍ مُعَيَّنَةٍ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ الجواب: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعني أنزلناه كذلك متفرقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان:٣٢].

فكلُّ آيةٍ تَنْزِلُ يحصُلُ بها التَّثْبِيتُ، ولو نَزَلَ القرآنُ جملَةً واحِدَةً لكان التَّثْبِيتُ أوَّلَ مَرَّةٍ، لكن ينْزِلُ بالتدرُّجِ.

وقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].
ولهذا قال: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾.

تأمَّلْ مَعِي قليلًا؛ فالغالِبُ أن (السماوات) تُقَدَّمُ على (الأرض)، لكن هُنَا قدَّمَ (الأرض) من أجلِ مراعَاةِ الفَواصِلِ، وهذه فائدَةٌ لفْظِيَّةٌ، ومن أجل أن القرآنَ نَزَلَ على أهلِ الأرْضِ؛ فبدَأَ بالأرضِ التي أهْلُهَا نَزَل القُرآنُ من أجْلِهِمْ.

قوله: ﴿الْعُلَى﴾ أي: العالِيَة الرفِيعَة، فهي عالِيَةٌ في المكانِ وعالِيَةٌ في المَعْنَى؛ لأن خَلْقَ السماواتِ أشدُّ مِنْ خلْقِ الأرضِ؛ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي: بِقُوَّةٍ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ [الذاريات:٤٧-٤٨].

إذن السماواتُ العُلَى مكانًا ومَعْنًى.

قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يعني: هو الرَّحْمنُ الذي أنْزَلَ هذَا القرآنَ، وفي هذا إشارَةٌ إلى أن اللهَ أنْزَلَ هذا القرآنَ رحمَةً بالعالمينَ، وهو كذلِكَ، فاللهُ تعالى بإنزالِهِ القُرآنَ رَحِمَنَا أعظَمَ رحْمَةٍ، نسألُ اللهَ أن يجْعَلَنا وإياكُمْ ممَّنِ اهتَدَى بِهِ.

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ العَرْشُ هو المخْلُوقُ العظِيمُ الَّذِي وسِعَ السماواتِ والكُرْسِيَّ والأَرَضِينَ وكلَّ شيءٍ؛ لأنه إذا كانَ الكُرْسِيُّ، وهو كما صَحَّ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه موضِعُ القَدَمَيْنِ[1]؛ قدمَي الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، وأقدامه تعالى لا تُشْبِهُ أقدامَ المخْلُوقِينَ، فالعَرْشُ أعظَمُ وأعظَمُ؛ ولهذا جاء في الحديثِ: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَةِ**»[2].

اللهُ أكبرُ! سَعَةٌ ما يتَصَوَّرُهَا الإنسانُ، اجعَلْ حلْقَةَ مِغْفَرٍ -وهي صغيرة جدًّا- في أرضٍ فَلاةٍ واسِعَةٍ، فماذا تشْمَلُ مِنَ الأرضِ؟ لا شيءَ، هذا بالنسبة للكُرْسِيِّ، وإن فَضْلَ العرشِ على الكرْسِيِّ كفضْلِ الفَلاةِ على هذه الحَلَقَةِ، اللهُ أكبر! سبحانَ الخلَّاق العَلِيم!

فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ أي: على هذَا المخْلُوقِ العَظِيمِ، و﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ يعْنِي: عَلَا عليهِ.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٠، رقم ٣١١٦)، وعبد الرزاق في التفسير (٣/ ٢٥٠، رقم ٣٠٣٠)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨)، وابن أبي شيبة في العرش وما روي فيه (ص:٩٠).
(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٧، رقم ٣٦١).

وهنا سؤال: هل يجبُ علينَا أو يجوزُ لنَا أن نسألَ: مِمَّ خُلِقَ العَرْشُ؟ ومن أيِّ شيءٍ هُو؛ من ذَهَبٍ، أو من فِضَّةٍ، أو من لُؤْلُؤٍ، أو مِن زَبَرْجَدٍ؟

الجواب: لا، ليس علينَا ذلك، ولا يجوزُ أن نسألَ؛ لسَبَبَيْنِ:

السبب الأول: أن مَن هُمْ خَيْرٌ منَّا وأشدُّ حرصًا مِنَّا على العِلْمِ، وهم الصحابَةُ لم يسألُوا النَّبِيَّ ﷺ عن ذلك، وهُمْ واللهِ خيرٌ مِنَّا، وأشدُّ منا حِرْصًا على العِلْمِ، ومع ذلك ما قَالُوا: يا رسولَ اللهِ ما هذَا العَرْشُ؟ أو من أي شيءٍ هُوَ؟

السبب الثاني: أن هذا مِنْ أمورِ الغَيْبِ، وأدَبُ المؤمِنِ في أمورِ الغَيْبِ أن يؤمِنَ بها بِلا سُؤالٍ عَنِ الكَيْفِيَّةِ؛ لأن هذِهِ أمورٌ غَيْبِيَّةٌ، ولو كان لنا خيرٌ في بَيانِ كَيْفِيَّتِهَا لبيَّنَهُ اللهُ لنا؛ فإن السؤالَ عن ذلِكَ مِنَ التَّنَطُّعِ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**»[١].

وهناك سؤال ثانٍ: هل لنَا أن نَسألَ عن مَعْنَى الاستواءِ؟

الجواب: نَعَمْ لنَا ذلِكَ، ويجبُ علينَا أن نسألَ عن مَعْناه، فمَعْنى اسْتَوَى على العرْشِ أي: عَلَا عليهِ، هذا مقتَضَى اللسانِ العَرَبِيِّ المبينِ، أما مَنْ في أَلْسِنَتِهِمْ لُكنَةٌ، ولا يعرِفُونَ اللُّغَةَ العربِيَّةَ، فإنهم يحرِّفُونَ الكلِمَ عن مواضِعِه ويقولون: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بمَعْنَى (استَوْلَى عليه)، وهؤلاء تجَرَّؤوا على النُّصوصِ من وَجْهينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنهم صَرفُوهَا عن المرادِ بِهَا.

والوجهُ الثاني: أنهم أَثْبَتُوا لها مَعْنًى فاسِدًا لا يستَقِيمُ أبدًا، كما سنُبَيِّنُهُ إن شاءَ الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).

إذن علينَا أن نسألَ حتَّى لا نَضِلَّ بما نَسْمَعُ مِنَ الضُّلَّالِ.

لكن هل لنَا أن نسألَ: كيف استَوَى؟

الجواب: لا يجوز أن تقولَ: لأيِّ عالمٍ من العلماءِ: كيفَ استَوَى؛ فهذا حرامٌ لسَبَبَيْنِ:

السببُ الأوَّلُ: أن الصحابَةَ لم يَسْألُوا عن ذلِكَ، والصحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أشدُّ مِنَّا حِرْصًا على العِلْمِ وأشدُّ مِنَّا رغبَةً فيما يُعْرَفُ عنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. ثم لديهم مَن هو أعْلَمُ الخلْقِ باللهِ، وهو الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

السببُ الثاني: أنَّ كَيْفِيَّةَ الاستواءِ مِنْ أمورِ الغَيْبِ التي يجِبُ على المسلِمِ المؤمِنِ باللهِ واليومِ الآخِرِ أن يُسَلِّمَ لهَا، وألا يسألَ عَنْ كيفِيَّتِهَا.

واستمِعْ إلى قولِ الإمامِ مالكِ بنِ أنسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ إمامِ دارِ الهِجْرَةِ كان جالسًا في الحَلْقَةِ في المسجدِ النَّبَوِيِّ، فسألَهُ رجلٌ فقالَ: يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ فأطْرَقَ برأسِهِ -يَعْنِي: نَزَّلَ رأسَهُ- وجَعَلَ يتَصَبَّبُ عرَقًا، وعَلاهُ العَرَقُ من شِدَّةِ السُّؤالِ، ومن خَجَلِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يسألَ السائلُ عن كَيفِيَّةِ صِفَةٍ من صِفاتِ اللهِ، ثم رفَعَ رأسَهُ وقال كَلِماتِهِ الشَّهيرَةَ التي لو كُتِبَتْ بماءِ الذهَبِ والبلاتِين لكانَ رَخِيصًا عليها، قالَ لَهُ: «الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مجهولٍ» يعني كُلٌّ يعرِفُهُ؛ استوَى على كذا يعْنِي: عَلَا عليهِ، وما أحَدٌ يُشْكِلُ عليهِ هذا.

«والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ» لا نَعْقِلُهُ؛ أي: لا نُدْرِكُهُ بعُقُولنَا، ولم تَرِدِ السُّنَّةُ بِهِ.

«والإيمانُ به وَاجِبٌ»؛ لأن اللهَ أثْبَتَهُ لنفسِهِ.

«والسُّؤالُ عنْهُ بِدعَةٌ» يعني أنكَ إذَا سألْتَ عنْ كَيْفِيَّةِ الاستواءِ فإن سؤالَكَ بِدْعَةٌ؛ لأنه لم يسألْ عنه مَنْ هُمْ خيرٌ مِنَّا -وهم الصحابة- مَن هو أعْلَمُ مِنَّا، وهو النَّبِيُّ ﷺ، فما سألُوا عنْه حتَّى جئتَ أنتَ تسألُ عن هَذَا.

ثم قال لَهُ: «ومَا أُرَاكَ إلَّا مُبْتَدِعًا»، وهذه مِنْ فراسَةِ المؤمِنِ، يعنِي ما أَظُنُّكَ إلا رَجُلًا مبتَدِعًا تريدُ أن تُضِلَّ الناسَ، ثُمَّ أَمَرَ به فأُخْرِجَ من المسجدِ[1].

فلم يُطْرَدْ مِنَ الحَلْقَةِ، بل أُخْرِجَ مِنَ المسجِدِ، وهكذا يجبُ أن يكونَ الإنسانُ المؤمِنُ حازِمًا قَوِيًّا لا يتلاعَبُ به المبتَدِعُونَ، وللشِّدَّةِ مَوْضِعٌ ولِلِّينِ مَوضِعٌ آخَرُ، قالَ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] كانوا أشِدَّاء على الكفَّارِ؛ لأن الكافِرَ لا يَنْفَعُ معه إلا الشِّدَّةُ، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم:٩] فللشِّدَّةِ مكانٌ، ولِلِّينِ مكانٌ.

هذا الجوابُ الذي أجابَ بِهِ مالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخَذَ به مَنْ بعْدَهُ مِنْ علماءِ السُّنَّةِ، وصارُوا يقُولونَ عن كلِّ صفَةٍ من صفاتِ اللهِ إذَا سأَلَ سائلٌ عن كَيْفِيَّتِها مثلَ هذا القَوْلِ، فلو قال قائلٌ: إن اللهَ يَنْزِلُ إلى السماءِ الدُّنيا حينَ يَبْقَى ثلثُ الليلِ الآخِرُ فيقولُ: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»[2]، كيفَ يَنْزِلُ؟

(١) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٥١٥)، عن الإمام مالك بإسناد جوَّده الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٠٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

قلنا له كما قال مالكٌ: النُّزولُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقُولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنْه بِدْعَةٌ.

فابنوا عقِيدَتكُم على هذا، ولا تَلْتَفِتُوا إلى علماءِ الكلامِ الذين بَنَوْا عَقِيدَتَهم على عِلْمِ الكلامِ، فتجِدُ الواحدَ مِنْهم يريدُ أن يُقَرِّرَ ما يُريدُ تَقْريرَهُ في صفحاتٍ متَعَدِّدَةٍ، فما تُمْسِكُ شيئًا؛ لأنه غيرُ مَبْنِيٍّ على الكتابِ والسُّنَّةِ، إنما هي أوهامٌ وتَخَييلات.

إذن عَقِيدَتُكَ أيها المؤمِنُ التي تَلْقَى اللهَ بها يومَ القيامَةِ في استِواءِ اللهِ على عرْشِهِ أن تقول: يعْنِي علا عَلَى عرْشِهِ، عَلَا عليهِ عُلُوًّا يَلِيقُ بجَلالِهِ عَزَّوَجَلَّ لا نُكَيِّفُهُ، ولا نُحَرِّفُهُ، وإنما نُجْرِيهِ على ما أجمَعَ عليه الصحابَةُ، وقد أجْمَعَ الصحابَةُ على أن ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بمعنى: عَلَا عليهِ؛ لأن الصحابَةَ يَقْرَؤونَ القرآنَ، ولم يأتِ حَرْفٌ واحدٌ عن واحِدٍ منهم أنه قال: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمَعْنى (استَولى) وحينئذٍ يكونونَ مُجْمِعينَ على ما دَلَّتْ عليه هذِهِ الكَلِمَةُ بمقتَضَى اللُّغَةِ العربيةِ التي بها نَزَلَ القرآنُ.

وإذا جَعَلْنَا ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى (استَوْلى) لَزِمَ من ذلِك محظوراتٌ:

المحظورُ الأوَّلُ: أنه صَرْفٌ لكلامِ اللهِ عمَّا أرادَ اللهُ، وهذه جِنَايَةٌ عظِيمَةٌ على النُّصوصِ.

المحظورُ الثَّانِي: إثباتُ مَعْنًى فاسِدٍ لا يتَنَاسبُ مع اللَّفْظِ.

المحظورُ الثالثُ: مخالَفَةُ إجماعِ الصحابَةِ، ولو قالَ قائل: ومخالَفَةُ السنَّةِ أيضًا؛ صَحَّ؛ لأن النبيَّ ﷺ كان يقْرَأُ القرآنَ، ولم يأتِ عَنْهُ حرْفٌ واحد بتَفْسِيرِ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بـ(استَولى).

إذن فالقرآنُ والسُّنَّةُ وإجماعُ الصحابةِ عَلَى أنَّ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: عَلَا عليهِ.

وهنا سؤالٌ: لو قالَ قائلٌ: إذا كانَ اللهُ استوَى على العَرْشِ أي: عَلا عليهِ صارَ اللهُ في مكانٍ، وهو ما فَوْقَ العَرْشِ، وهذا لا يَلِيقُ باللهِ.

والجواب: في قِصَّةِ مُعاويةَ بنِ الحَكَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان له أَمَةٌ جارِيَةٌ، فغَضِبَ عليها يومًا مِنَ الدَّهْرِ فصَكَّها، وأرادَ أن يُدَاوِيَ هذا بإعتَاقِهَا، فأتى بها النبيَّ ﷺ، والجوارِي في الغَالِبِ يَكُنَّ جاهِلاتٍ ما عنْدَهُنَّ عِلْمٌ، فقال لها أعْلَمُ الخَلْقِ باللهِ، وأنْصَحُ الخَلْقِ للأُمَّةِ، وأفصحُ الخلْقِ في كلامِهِ، وأعلَمُ الخلْقِ بما يقولُ، قال لها محمَّدٌ رسولُ اللهِ: «**أَيْنَ اللهُ؟**» و(أين) يُسْتَفْهَمُ بها عن المكانِ، قالتِ الجارِيَةُ: فِي السَّماءِ. وهي ما دَرَسَتْ، ولا تَعَلَّمَتْ، لكن الذي هداهَا إلى هذَا القولِ فِطْرَتُها.

ولهذا لو سَلِمَتِ الفِطْرَةُ من أقوالِ المحَرِّفِينَ لاستَقَامَ الناسُ على ما تَقْتَضِيهِ النصوصُ الشَّرْعِيَّةُ، لكن قامت البِدْعَةُ منذ انْقَضَى عصرُ الصحابَةِ وحصلَ ما حَصَلَ مِنَ التَّحْرِيفاتِ.

فلدينا استفهامٌ من أعْلَمِ الخَلْقِ باللهِ، وأفصَحِ الخَلْقِ، وأنصحِ الخَلْقِ، وأعلمهُم بمَدْلُولاتِ الألفاظِ، قالَ لها: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قالت: فِي السَّماءِ؛ لأن جميعَ الآلهة التي تُعْبَدُ مِنْ دونِ اللهِ وهي باطِلَةٌ كلُّهَا في الأرضِ فقالتْ: اللهُ في السَّماءِ.

وليس معنى كونِهِ جَلَّوَعَلَا في مكانٍ أن المكانَ يُحِيطُ بِهِ، بل هُوَ فوقَ كلِّ شيءٍ، وما فوقَ المخلوقاتِ عَدَمٌ، ليس فيهِ إلا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ، يعْنِي ما هناكَ جدرانٌ أو جِبالٌ أو أنهارٌ تحيطُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهو فوقَ كلِّ شيءٍ، ولا يحيطُ به شيءٌ، وهذا مقتَضَى

النصوص، وهو معنًى معقولٌ، ولا يمكِنُ أن يَدَّعِيَ مدَّعٍ أن هذا لا يَلِيقُ باللهِ، والذي سأل «أَيْنَ اللهُ؟» هو الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والذي قال: في السماءِ هذه الجارِيَةُ، وأقرَّهَا الرسولُ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وقال لسيِّدِهَا: «**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[1].

إذن أرْجُو أن يكونَ تقَرَّرَ في قُلُوبكم أن اللهَ تعالى قدِ استَوَى على العرْشِ بمعنى: عَلَا عَلَى العَرْشِ.

فإذا قال قائل: في كم موضع ذُكر الاستواءُ على العرشِ في القُرآنِ؟

نقول: في سَبْعَةِ مواضِعَ:

الموضع الأول: في سورَةِ الأعْرافِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف:٥٤].

الموضع الثاني: في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس:٣].

الموضع الثالث: في سورة الرعدِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد:٢].

الموضع الرابع: في سورة طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

الموضع الخامس: في سورة الفُرقان: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

الموضع السادس: في سورة السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة:٤].

الموضع السابع: في سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤].

وسبحانَ اللهِ كيفَ نتَجَاسَرُ على سَبْعِ آياتٍ مِنْ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ونُفَسِّرُها بما يخالِفُ ظاهِرَهَا، فلو ذَكَرَ في موضِعٍ واحِدٍ (استولى) لحمَلْنَا الباقِيَ عليهِ، لكنه لم يَذْكُرْ.

ولا أدْرِي كيفَ يواجِهُ الإنسانُ الذي فَسَّرَ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بـ(استَوْلى) ربَّه! إنه لا عُذْرَ له؛ لأن القرآنَ نَزَلَ بلسانٍ عَرَبِيٍّ، والكلِمَةُ كُرِّرَتْ سبْعَ مرَّاتٍ في القرآنِ حتى ترْسَخَ في قُلوبِ العبادِ، وحتى لا يتَغَيَّرَ معناها، فكيف نَقولُ: (استولى)؟!

فإذا فَسَّرْنَا ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بـ(استَوْلى) جازَ أن نقولَ: استوى عَلَى الأرْضِ، واستَوَى على الجبَلِ، واستَوَى على كلِّ شيءٍ، لأنه مستَوْلٍ على كلِّ شيءٍ، وهل يمكن لمؤمِنٍ أن يقولَ: إن الله استَوَى على الأرْضِ! لا يمِكُن أبدًا بأيِّ حالٍ من الأحوالِ، فأنتَ إذا قُلْتَ: استَوَى واستَوْلى مترَادِفَان؛ لَزِمَ أن تقولَ: استَوى على الأرض كما تَقُولُ: استَوَى على العرش، وإلا لبَطَلَ تفْسيرُه.

وقد قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤] و(ثم) تفيدُ التَّرْتيبَ والتَّعْقِيبَ، فعلى مُقتضى كلامِهم أنه بعد أن خَلَقَ السماواتِ والأرضِ حَصَلَتِ المعْرَكَةُ واستَوْلَى اللهُ على العَرْشِ!

فـ(استولى) تعنـي أنه لا بد أن يكون هناكَ مَعْرَكَةٌ قَبْلها؛ كما نقولُ: استَوْلى المسلِمُونَ على أموالِ الكفَّارِ، ولا يمكن لأحدٍ أن يقولَ هَذَا.

إذن فبَطَلَ تفسيرُ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بـ(استولى) مِن حيث اللَّفْـظُ العَرَبِيُّ، ومن حيثُ المعنَى، حيثُ يتَضَمَّنُ معْنًى فاسِدًا لا يَلِيقُ باللهِ.

ولقد جَرَى حديثٌ في مكانٍ أنا حاضِرُهُ فقال بعضُ الحاضِرين: إنَّ فلانًا قالَ: إن الله استَوَى على العَرْشِ يَعْنِي استَوْلى عليه، فقال رَجُلٌ عامِّيٌّ لا يقْرَأُ القرآن فيما أعْرِفُ، قال كلمة كأنها قُنْبلة، قال: قاتَلَهُ اللهُ، إذن مَن مَلَكَ العَرْشَ قَبْلَ ذلك! وهو عامِّيٌّ عرَفَ أن هذا مَعْنى فاسِدٌ لا يمكِنُ أن يقولَهُ قائلٌ.

إذن ابنُوا عقِيدَتَكُم على أن اللهَ اسْتَوى على العَرْشِ أي: عَلَا عليهِ عُلُوًّا يَلِيـقُ بجلالِهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا يجوزُ لنَا أن نُكَيِّفَهُ، ولا أن نَتَصَوَّرَ كيْفِيَّتَهُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى فوق ما يَتَصَوَّرُهُ العَقْلُ.

واقرأْ قولَ اللهِ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. وإن أفتَاكَ الناسُ وأفْتَوْكَ بخلافِ ما دلَّ عليهِ القُرآنُ والسُّنَّةُ فلا تَقْبَلْ، ولا تكن إمَّعَةً تقولُ كما يقولُ الناسُ، فالعامِّـيُّ يعرِفُ معْنى استَـوَى على الشيءِ بمَعنى عَلَا عليه.

واقرأْ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٢-١٣] يعْنِي عَلَوتُمْ عليهِ، فكلُّ الناسِ يعرِفُ معنى (استَوَى على ظَهْرِه)، لكن لو قلت: جَعَلَ لكُم مِنَ الفُلْكِ والأنعام ما تَركبون لتَسْتَوْلُوا على ظهورِهِ؛ لكان المعنى فاسِدًا.

فعلى كلِّ حالٍ، الأمر واضِحٌ ولله الحمد واسألوا اللهَ دَائمًا، قولوا: اللَّهُمَّ أَرِنَا الحقَّ حَقًّا وارْزُقْنَا اتِّباعَهُ، وأَرِنَا الباطِلَ باطِلًا وارْزُقْنَا اجتِنَابَهُ، ولا تجعلْه ملْتَبسًا علينَا فنَضِلَّ، وادْعُوا الله دائمًا أن يُثَبِّتَكُم على الحَقِّ أحياءً وأمواتًا، فإن اللهَ يقـولُ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

فالعَرْشُ أعْلَى المخْلُوقاتِ، وإذا كان الله مُسْتَوِيًا عليه لَزِمَ أن يكونَ اللهُ فوقَ كلِّ شيءٍ، وهو كذلك، ولهذا مِنْ عقيدَةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإني أظنُّ أن كلَّ إنسانٍ يسجُدُ لله ويقول: سبحانَ رَبِّيَ الأعْلَى؛ لا يتَّجِهُ قلبُهُ إلا إلى العُلُوِّ، وكل إنسانٍ يدْعُو اللهَ عَزَّوَجَلَّ ويبتَهِلُ إليه يرفَعُ يدَيهِ إلى العُلُوِّ؛ لأنه يعلم أن الذي دعَاهُ فوقَ خلْقِهِ عَزَّوَجَلَّ، بل إن أوَّلَ ما ينْصَرِفُ في قلْبِ العامِّيِّ في معنَى عُلُوِّ الله أنه عُلُوُّ ذاتٍ، أي أن الله نَفْسَهُ فوقَ كلِّ شيءٍ.

وطالِبُ العِلْمِ يقولُ: أنا أُومِنُ أن اللهَ فوقَ كلِّ شيءٍ، ولكنِّي أقول: إنَّ عُلُوَّ الله نوعانِ؛ علوُّ ذاتٍ، وعُلُوُّ صِفَةٍ.

أما عُلُوُّ الذاتِ فَقَدْ تضافَرَتِ الأدِلَّةُ على ثُبوتِهِ.

وأما عُلُوُّ الصفَةِ، فكذلكَ تضافَرَتِ الأدلَّةُ على ثُبوتِهِ، واقرأْ قولَ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل:٦٠].

قال العلماءُ: مَعْنـى المَثَلِ: الصِّفَةُ أوِ الوَصْفُ. واستَشْهَدُوا لهذَا بقَولِهِ تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ أي: وصْفُها أو صِفَتُها ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ... ﴾ إلخ [محمد:١٥].

إذن للهِ المثَلُ الأعْلَى، يعْنِي الوصفَ الأعْلَى، وهذا عُلُوُّ الصِّفَةِ، فكلُّ كمالٍ فللهِ تعالى أعْلاهُ، فالعِلْمُ للهِ أعلاهُ، والسمعُ للهِ أعْلاهُ، والبصَرُ، والقُدرَةُ، وهَلُمَّ جَرًّا.

أما عُلُوَّ الذاتِ بمعنَى أن اللهَ نَفْسَهُ فوقَ كلِّ شيءٍ، فهذا أيضًا تضافَرَتْ عليه الأدِلَّةُ تَضَافُرًا لم يتَّفِقْ لغيرِهِ، ففي القرآنِ الكريمِ آياتٌ كثيرةٌ تَدُلُّ على العُلُوِّ مِنْ وجوهٍ متنَوِّعَةٍ، فَفِي سورَةِ طه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه:٢]، فكلمة ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ﴾ تَدُلُّ على عُلُوِّ اللهِ؛ لأن القرآنَ كلامُ اللهِ، فإذا كانَ نازِلًا لَزِمَ أن يكونَ المتكلِّمُ به عاليًا لا شَكَّ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كذلِكَ يَدُلُّ على عُلُوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكذلِكَ ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى:١]، وقولُهُ: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج:٤] أي: تَصْعَدُ يدُلُّ على عُلُوِّ اللهِ، وقولُهُ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠] يدُلُّ على عُلُوِّ اللهِ، والآياتُ في هذا كَثيرَةٌ، أكثرُ من أن تُحْصَى وعلى وُجوهٍ متنَوِّعَةٍ.

أما في السُّنَّةِ فقَدِ اتَّفقَتِ السُّنَّةُ القولِيَّةُ والفِعْلِيَّةُ والإقرارِيَّةُ على عُلُوِّ اللهِ:

أما القولِيَّةُ فَقَدْ قالَ النَّبِيُّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ**»[1]، وكان وكان هو بنفسه يقول: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**»[2].

أما الفِعْلِيَّةُ، فاستَمِعْ إليهَا، واحكُمْ بما تريدُ بعدَ أن تَعْرِفَ: فأكبر مجمَعٍ حصَلَ للرسولِ ﷺ مع أُمَّتِهِ هو اجتماعُهُ بِهِمْ في عرَفَةَ في حجَّةِ الوداعِ، خطَبَهُمْ خطبةً عظيمَةً

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، رقم (٢١٨٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

بليغَةً في يوم عرفـةَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**» مِـرَارًا، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»[1].

نعم، والله إنه بَلَّغَ البلاغَ المبينَ، وإنه ما ماتَ إلا وقد تَرَكَ أُمَّتَهُ على محَجَّةٍ بيضاءَ ليلها كنَهارِهَا، ونقول كما قال أبو ذَرٍّ: «لَقَدْ تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَذْكَرَنَا مِنْهُ عِلْمًا»[2]، صلواتُ الله وسلامُهُ عليهِ.

فاللهم اجْزِه عنَّا خيرًا، اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه، اللَّهُمَّ احْشُرْنَا تحتَ لوائِهِ، إنك على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

قال لأصحابه: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» قالوا: نَعَمْ ثلاثَ مرَّاتٍ ثم قال: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»، وهو يُشِيرُ إلى السماءِ، ثم يُشِيرُ إلى الأرضِ، يعْنِي: على الناسِ أَنَّهُم أَقَرُّوا بأَنِّي بلَّغْتُ، فهَلْ يمكنُ أن نَقُولَ: إن الله ليسَ في السَّماءِ وهو أَعْلَمُ الخلْقِ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويشيرُ إلى السماءِ؟! لا يمكِنُ، إذن هَذَا إثباتٌ لعُلُوِّ اللهِ بالفِعْلِ.

ودخل رجلٌ يومَ الجمُعَةِ والنَّبِـيُّ ﷺ يخطُبُ، فقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَتِ المَوَاشِي، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا. إذن المطَرُ قليلٌ؛ فقد هلَكَتِ المواشِي لأنها ليسَ لهَا مَرْعى، وانقْطَعَتِ السُّبُلُ، فالإبل صارَتْ عِجَافًا، لا تستطيعُ الحَمْلَ. قال: فادْعُ الله يُغِيثُنَا. فرَفَعَ الرسـولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يديه إلى السماء وقال: «**اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا**»، ثلاث مـرات، قال أنسٌ وهُو رَاوِي الحـدِيثِ:

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٠، رقم ٢٠٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣، رقم ٢١٣٦١).

وَلَا وَاللهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلَا قَزَعَةً -والقَزَعَةُ: القطْعَةُ الصغيرَةُ من السحابِ، والسحابُ: المنتشِرُ في السماءِ- وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ، وَلَا دَارٍ. وسَلْعٌ هذا جَبَلٌ في المدينةِ يأتِي السحابُ مِنْ جِهَتِهِ.

يقولُ أنسٌ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ. والترس هو الصاجُ يَتَتَرَّسُ به المقاتِلُ عن السهامِ. قال: فانْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ، والنبيُّ ﷺ لم يَنْزِلْ من خُطْبَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلا والمطرُ يتحادَرُ من لِحْيَتِهِ[1].

إذن كيفَ تكونُ سُرْعَةُ هذه السحابَةِ! والمعروفُ أنَّ الرسولَ كان يُقَلِّلُ الخطبَةَ، وقد قال: «**إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ**»[2]، إِذَنْ كانتْ سُرْعَةُ هذه السحابَةِ عالِيَةً، وانتشارُهَا بسُرْعَةٍ؛ لأن خالقَهَا أمرَهَا بذلك، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فرعدت وبَرَقَتْ وأَمْطَرَتْ قبلَ أن يَنْزِلَ الرسول ﷺ من المنْبَرِ، وبَقِيَ المطرُ على المدينة وما حولها لمدَّةِ أسبوعٍ كامِلٍ ما رأَوُا الشمسَ، والسماءُ تُمْطِرُ لَيْلًا ونهارًا، وابنُ آدمَ ضَعِيفٌ، إنْ كثُرَ المطرُ عليهِ قال: اللهم قَلِّلْ. وإن نَقَصَ قال: اللهم أَغِثْنَا.

وفي الجُمْعَةِ الأُخْرَى جاءَ الرَّجُلُ أو غيرُهُ والرسول يخطُبُ، وقال: يَا رسولَ اللهِ، غَرِقَ المالُ وتهَدَّمَ البناءُ. يعني من كَثْرَةِ المطَرِ، فالمواشِي قد يجْتَرِفُها السيلُ ويَمْشِي بِهَا فتَهْلِكُ، والمزَارِعُ يُغْرِقُها الماءُ.

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٩).

قال: غَرِقَ المالُ، وتهَدَّمَ البناءُ، فادْعُ اللهَ يُمْسِكُها عنَّا. ونظَرُ الرجل بالنِّسْبَةِ لنظر الرسولِ قاصِرٌ، فالرجُلُ قال: ادْعُ اللهَ يُمْسِكُها عنا. لكِنَّ النبي ﷺ ما دَعَا اللهَ أن يُمْسِكَهَا، وإنما دَعَا الله بدعاءٍ يحصُلُ به النَّفع، وينتَفِي الضَّرَرُ، فقال: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالظِّرَابِ، وَبُطُونِ الأَوْدِيَةِ، وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**»، صلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عليه، فدعا بِمَا فيه النَّفْعُ وانتفَاءُ الضَّرَرِ.

قال الراوي أنسٌ: فكان إذا أشارَ إلى ناحِيَةٍ: «**حَوَالَيْنَا**» تميَّزَ السحابُ. لكن ليس الرسول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ هو الذي فرَّقَهُ، بل اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والرسولُ مجابُ الدَّعْوَةِ، وخرَجَ أهلُ المدينَةِ يمْشُونَ في الشَّمْسِ[1]، وما حولَ المدينَةِ يُمْطِرُ، حتى إن الوادِيَ المعروفَ بالمدِينَةِ الذي يُسَمَّى قناةَ جَعَلَ يسيلُ لمدَّةِ شهْرٍ كاملٍ، اللهُ أكبرُ!

الشاهد مِنْ هذا الحديثِ هو إثباتُ عُلُوِّ اللهِ بالفِعْلِ؛ لأنه رفَعَ يديهِ إلى اللهِ ودَعَا.

أما الإقرارُ فسؤالُ الجارِيَةِ: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قالتْ: في السماء، فأقَرَّهَا، ما قال: أعوذ بالله، هذا كُفْرٌ. بل قال: هذا إيمانٌ، قالَ: «**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**».

إذن القُرآنُ والسُّنَّةُ دَلَّا على عُلُوِّ الله بنَفْسِهِ جَلَّوَعَلَا فوقَ كلِّ شيءٍ.

بقي لنَا إجماعُ الصحابَةِ، فقَدْ أجمَعَ الصحابَةُ وأئمةُ المسلِمينَ مِنْ بَعْدِهم على أن اللهَ عالٍ بنَفْسِهِ. وطريقُ إثباتِ إجْمَاعِهِمْ هو أنهم يتْلُونَ كتابَ اللهِ ويَقْرَؤونَ سُنَّةَ

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

رسولِ اللهِ ﷺ ولم يَرِدْ عن واحِدٍ منْهُم إنكارُ عُلُوِّ اللهِ. وكونهم يتْلُونَ القُرآنَ صبَاحًا ومساء ويقْرَؤونَ السُّنَّةَ، ولم يَرِدْ عن واحِد مِنْهُم حرْفٌ واحدٌ بإنكار عُلُوِّ اللهِ هو دليلٌ على إجماعِهِمْ على هذا.

وإجماعُ الأئمَّةِ من بَعْدِهِمْ مشهورٌ معْلُومٌ، واقرأ إن شِئْتَ (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطِّلة والجهميَّة) الذي أَلَّفَهُ ابنُ القيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-. فالأمرُ -والحمدُ للهِ- واضِحٌ.

إذن عندنَا الدَّلِيلُ من القرآنِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الصحابَةِ وأئمة السلفِ.

بقِي عنْدَنَا الدَّليلُ الرابعُ، وهو الفِطْرَةُ: فلو أتيتَ عَجُوزًا لم تحضُرْ دَرْسًا من الدُّروسِ ولم تَقْرأْ شَيْئًا من القُرآنِ والسُّنَّةِ فقلت لها: أينَ اللهُ؟ قالت: اللهُ في السماءِ، وهي عجوز، فأيُّ إنسانٍ على الفطرة لم تَجْتَلْهُ الشياطينُ يمينًا وشِمالًا لا بُدَّ أن يؤمِنَ بعُلُوِّ اللهِ بذاتِهِ، وهذا دَليلُ الفِطْرَةِ.

فمن المعلوم أن الفِطْرَةَ السلِيمَةَ قد جُبِلَتْ على الاعتِرَافِ بعُلُوِّ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ويَظْهَرُ هذا الأمرُ عنْدَما يجِـدُ الإنسانُ نَفسَهُ مضْطَرًّا إلى أن يَقْصِدَ جِهَةَ العُلُوِّ ولو بالقَلْبِ حينَ الدُّعاءِ، وهذا الأمرُ لا يستطيعُ الإنسانُ دَفْعَهُ عن نَفْسِهِ، فضلًا عن أن يَرُدَّ على قائلِهِ ويُنْكِرَ هذا الأمرَ عليهِ.

ومن أجل ذلِكَ لم يجِدِ الجُوينِيُّ -إمام الحرمين- جوابًا حينَ سألَهُ الهَمَذانِيُّ محتجًّا عليه، فَقَدْ ذَكَرَ محمَّدُ بنُ طاهِرٍ المَقْدِسِيُّ أن الشيخَ أبا جَعْفَرٍ الهَمَذانِيّ حضَرَ مجلِسَ الاستاذِ أبِي المعَالي الجُوَيْنِي المعروفِ بإمامِ الحرَمَيْنِ، وهو يتكلَّمُ في نفي صِفَةِ العُلُوِّ ويقـولُ: كان اللهُ ولا عَـرْشَ، وهو الآن على ما كانَ. لأن النبـي ﷺ قال:

«أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ»[١].

فقال الشيخُ أبو جَعْفَرٍ: يا أستاذُ، دَعْنَا مِنْ ذِكْرِ العَرْشِ -يعني لأن ذلك إنما جاءَ في السَّمْعِ- أَخْبِرْنَا عن هذه الضَّرُورَةِ التي نَجِدُها في قُلُوبِنَا، فإنه ما قالَ عارفٌ قطُّ: يا الله، إلا وَجَدَ مِنْ قلْبِهِ ضَرورَةً تَطْلُبُ العُلُوَّ، لا يلتَفِتُ يمنَةً ولَا يَسْرَةً، فكيف تدفَعُ هذه الضَّرُورَةِ عن قُلوبِنَا؟

قال: فلطَمَ أبو المَعَالي على رأسِهِ، وقالَ: حَيَّرَنِي الهمَذَانيُّ، حَيَّرَنِي الهمَذَانيُّ[٢].

لأنه أفحَمَهُ بالفِطْرَةِ، فالفطرةُ تدُلُّ على عُلُوِّ اللهِ، قال: حيَّرَنِي ما أستطيعُ أن أُجِيبَ، لأنه لا يمكنُ أن يجِيبَ أحدٌ بما يخالِفُ الفِطْرَةَ، فالفِطْرَةُ تُنْكِرُ عليهِ.

بقي العَقْلُ: لو قيل: هَلِ العُلُوُّ صِفَةُ كمالٍ أو صِفَةُ نَقْصٍ؟ فنقول: صِفَةُ كمالٍ، أي العالي أكْمَلُ، وإذا كان الله يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] أي: الوَصْفُ الأكمَلُ والأعْلَى، لَزِمَ أن يكون عُلُوُّ اللهِ نفْسِهِ ثابتًا بمُقْتَضى العَقْلِ السليمِ.

فتضافَرَتِ الأدِلَّةُ الخمسة -الكتابُ، والسُّنَّةُ، وإجماعُ الصحابَة والأئمةِ مِنْ بعْدِهم، والفِطْرَةُ، والعَقْلُ، بنَوْعِهَا لا بأفْرَادِهَا، فأفرادُهَا لا تُحْصَى- على عُلُوِّ الله.

على كلِّ حالٍ أنَا أحمَدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن ألْهَمَنَا الصَّوابَ في هذا، وأسألُ اللهَ تعالى أن يَهْدِيَ بِهِ أُمَمًا حتى لا يَضِلُّوا.

وهناكَ ناسٌ يقولونَ: اللهُ نَفْسُه في كلِّ مكانٍ، أعوذُ باللهِ! يعْنِي في السُّوقِ، في المسجِدِ، في السَّطْحِ، في الدَّورِ الثاني، في البَدْرُومِ... وما أرَدْتُ أن أذْكُرَ أشياءَ خَبِيثَة.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣).
(٢) انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٤٤)، ومختصر العلو للذهبي (ص:٢٧٦).

هناك ناسٌ يقولونَ لكَ: لا يجـوزُ أن تعتَقِدَ أن اللهَ فـوقَ العَالَمِ، ولا تحْـتَهُ، ولا يَمِينَهُ، ولا شِمالَهُ، ولا متَّصِلٌ، ولا منْفَصِلٌ، ولا مُباينٌ، ولا محايِث.

فباللهِ عليكَ، أيُّ وَصْفٍ للعَدَمِ أبلغُ من هذَا الوَصْفِ؟ لا يُوجَدُ، فمعناه أنه معدومٌ، إذا كانَ لا فَوْقَ، ولا تحتَ، ولا يمينًا، ولا شِمالًا، ولا متَّصِلًا، ولا منْفَصِلًا، ولا مُبَايِنًا، ولا محايِثًا، فأين يذهَبُ؟

وقد تناظَرَ ابنُ الهيصم وابنُ فُورَكَ عندَ السلطانِ محمودِ بْنِ سبكتكين في مسألَةِ العُلُوِّ، فرأَى قُوَّةَ كلامِ ابنِ الهيصمِ، فرجَّحَ ذلِكَ، ويقالُ: إنه قال لابنِ فُوركَ: فلو أَرَدْتَ أن تَصِفَ المعْدُومَ كيـفَ كنتَ تَصِفُه بأكثرَ مِنْ هذا. وقال: فَرِّقْ لي بينَ هذا الرَّبِّ الذي تَصِفُه وبينَ المعْدُومِ. وإن ابنَ فُورك كَتَبَ إلى أَبِي إسحاقَ الإسْفَرَايينِيِّ يطلُبُ الجواب عن ذلكَ فلَمْ يكُنِ الجَوابُ إلا أنه لو كانَ فَوقَ العَرْشِ لَلَزِمَ أن يكونَ جِسْمًا[1].

وواللهِ لن تَثْبُتَ قَدَمُ إنسانٍ إذا خَلا بِهِ الله يومَ القيامَةِ إلا بما دَلَّ عليه كِتَابُهُ، وسنَّةُ رسولِهِ، وقولُ خيرِ الأمَّةِ وهُمُ الصحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأئمَّةُ الهُدَى من بَعْدِهِمْ.

أسألُ اللهَ تعالى أن يتوَفَّانَا وإياكُمْ على العَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ، وعلى المَنهَجِ السليمِ، وألا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بعد إذ هَدَانَا، وأن يَهَبَ لنَا مِنْه رَحْمَةً، إنه هو الوهابُ، والحمدُ لله رَبِّ العالمِينَ، وصَلَّى الله وسَلَّمَ على نَبِيِّنَا محمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعينَ.



(١) انظر درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٥٣)، والصواعق المرسلة (٤/ ١٢٨٧).

الدرس الثاني:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتَّقِينَ، ولا عُدوانَ إلَّا على الظالمينَ، وأشهد أن لا إِلَهَ إلَّا اللهُ وحده لا شريكَ له، إله الأوَّلينَ والآخِرين، وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله، سيد المرسلينَ، وإمام المتَّقينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:١-٥].

قوله تَعَالَى: ﴿طه﴾ هل هي عَلَم على شخصٍ أو هي حرفانِ هِجائيَّان؟

الجواب: الثَّاني هو المُتعَيِّنُ، وأما مَن زَعَمَ أنَّه اسمٌ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فزَعْمُهُ خطأٌ، فليس من أسماءِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ طه، وطه حرفانِ هجائيانِ، وليس لهما مَعنًى في حدِّ ذاتهما، لكن لابتداءِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالحروفِ بعضَ السورِ حِكمةٌ عظيمةٌ، وهي أن هذا القُرآن الَّذِي أَعجزكم مَعْشَرَ قريشٍ أُمَراءَ البيانِ والفصاحةِ، إنَّما كان من الحروفِ الَّتي تركِّبون منها كلامَكم.

ولهذا لا تكاد تجدُ سُورَةً تُبتدَأ بهذه الحروفِ الهجائية إلا ذُكِرَ بعدها القُرآنُ، أو ما كان من خصائصِ القُرآن؛ كعِلم الغيبِ. وهذا هو القولُ الراجِحُ في الحروفِ الهجائيةِ الَّتي ابتُدِئَتْ بها بعضُ السورِ.

قوله: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ أي: لِيَلْحَقَكَ الشقاءُ والتعبُ والعَناء، ولكن أنزلناهُ ﴿تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ أي: يتذكَّر به مَن يخشى الله عَزَّوَجَلَّ. ومعنى التذكُّر: الاتِّعاظ، يعني يَتَّعِظ به مَن يخشى اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ وهو الله عَزَّوَجَلَّ، هو الَّذِي خلقَ الأرضَ والسَّماواتِ العُلى. وقد جرتِ الطريقُ في القُرآنِ أن اللهَ يبدأُ بالسَّماء قبل الأرضِ؛ لأن السَّماء أعظمُ من الأرضِ، لكن هنا بدأَ بالأرضِ قبل السَّماءِ: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾؛ لأن تأخيرَ السَّماواتِ هنا جُبِرَ بقولِه: ﴿ٱلۡعُلَى﴾ فصار تأخيرها بالترتيبِ اللفظي مجبورًا بالوصفِ وهو العُلَى، ومن أجل مراعاةِ فواصلِ الآياتِ في هذه السورةِ؛ كما أن موسى وهارون عند ذِكرهما فإنه يُقَدَّمُ ذِكر موسى، لكن في هذه السورةِ قُدِّمَ ذِكر هارونَ في قولِه: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، وكلُّ هذا مِن أجلِ مراعاةِ فواصلِ الآياتِ.

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ لما ذَكَرَ علوَّ السَّماواتِ ذكر ما هو أعلى من السَّماواتِ، وهو العرشُ، فإن العرشَ هو سَقف المخلوقاتِ كلها، ولا شيءَ فوق العرشِ من المخلوقاتِ فيما نَعلَم، والله تَعَالَى استوى عليه؛ أي: علا على العرشِ عَزَّوَجَلَّ، علا عليه عُلُوًّا يَليقُ بجلالِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لا يُكَيَّفُ ولا يُمَثَّل، فلا يجوز لأحدٍ أن يقول: كيفيَّة علوِّ اللهِ على العرشِ كذا وكذا، ولا يجوز لأحدٍ أن يقول: كيفية استواءِ اللهِ على العرشِ كاستواء الإنسانِ على الكرسيِّ، فكلُّ هذا باطِلٌ وكل هذا حرامٌ؛ لقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

إذن لا يُمكِن أن نقولَ: إن استـواء اللهِ على العرشِ كاستـواءِ الإنسانِ على الكرسيِّ؛ لأن اللهَ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. فكلُّ صفةٍ من صفاتِ اللهِ لا يجوزُ أن تمثِّلها بصفاتِ المخلوقِ؛ لأن اللهَ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

ولا يجوز أيضًا أن تَتَصَوَّرَ كيفيَّة مُعَيَّنة استوى اللهُ عليها، ثمَّ تقول: إن كيفيةَ استـوائِه على العرشِ كذا وكذا؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

وأقبحُ من هذا أن يقول قائلٌ: إن معنى قولِ اللهِ: استـوى على العرش أي: استولى عليه وملكه وقَهَرَه وغَلَبَه، فإن هذا -والله العظيم- من تحريفِ الكلِم عن مواضعِه، ولا يقول به مَن يعرِف اللغةَ العربيةَ، ولا مَن يعرف لغةَ القُرآن الكريمِ، إنَّما يقولُه مَن حصلَ في قلبِهِ شيءٌ منَ الزَّلَل، فصار يحرِّف الكلِمَ عن مواضعِهِ، وهؤلاء الَّذِينَ يقولونَ: استـوى بمعنى استولى حرَّفوا النصوص من وجهينِ، واستطالوا عليها من وجهينِ:

الوجه الأول: أنَّهم نَفَوْا ما يُراد بها، **والوجه الثَّاني:** أنَّهم أثبتوا معانيَ لا تُراد بهذه الآية، سُبْحَانَ الله! هل يجرؤ أحد أن يقولَ على الله تَعَالَى في صفاته ما لا يَقتضيه ظاهر كلامه!

والله لا أحدَ يَجرُؤ على هذا، نسأل الله ألا يُزِيغَ قلوبنا بعد إذ هَدانا، ونسأله أن يُرِيَنَا الحقَّ حقًّا ويَرزُقنا اتباعَه، ويُرِيَنا الباطلَ باطلًا ويرزقنا اجتنابَه.

كيف يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ونقول: استولى، فلِمَنِ العرشُ قبلَ ذلك حتَّى يستوليَ اللهُ عليه؟! أأحدٌ ملك العرشَ حتَّى استولى الله عليه؟! يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، و(ثم) هنا للترتيبِ، فإذا قلنا: استوى بمعنى استولى صار يَقتضي أن العرش حين خلق السَّماوات والأرض كان لغيرِ اللهِ، ثمَّ استولى اللهُ عليه، فمَن يَجْرُؤُ على هذا! ولكن: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]. نسأل الله أن يُنِيرَ قلوبنا وقلوبَ إخواننا.

ونحن نعلمُ أن منهم مَن يريد الحقَّ، ولكن التقليد الأعمى أعماهُ عن الحقِّ، وقال: أنا أقول: استوى بمعنى استولى لأن فلانًا قاله، ولأن فلانًا قاله، وسُبْحَانَ الله! هل أنتَ ستُحاسَب يوم القِيَامَـة على فَهم فلانٍ أو على ما فهمتَ أنت! فكلٌّ يعلمُ أن الإنسان يحـاسَب يومَ القِيَامَـةِ على ما فَهِمَ هو بنفسِه، وكل أحـد يعلم أنَّه لا أحدَ يجب اتباعهُ من المخلوقينَ إلا واحد، وهو رسول اللهِ ﷺ، وإلا فكلُّ إنسانٍ يُؤخَذ من قولِه ويُترَكُ إلا نبي اللهِ ﷺ. وهو قول مالِكِ بنِ أنسٍ رحمه الله تعالى[1].

أيها الإخوة، أنا لا أقولُ هذا الكلام تَحـمُّسًا، ولكني أقولُه نُصحًا لله عَزَّوَجَلَّ ولكتابِه، ولرسولِه، ونصحًا لإخواننا الذين انجَرفوا بالتقليدِ حتى فسَّروا كلامَ اللهِ بخلافِ ظاهرِه.

---

(١) انظر المقاصد الحسنة للسخاوي (١/ ٥١٣، رقم ٨١٥).

إذن نُؤمِن بأن الله تعالى استوى على العرشِ استواءً حقيقيًّا يَليق بجلالِه عَزَّوَجَلَّ وأن الاستواءَ فيما تَقتضيه اللغةُ العربيةُ، وفيما تقتضيه لغةُ القرآنِ الكريمِ بمعنى العُلُوِّ على الشيءِ.

واقرؤُوا إن شِئتم: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ والمعنى: تركبون عليها وتستقِرُّون عليها ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٢-١٣].

واقرءُوا إن شئتم: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨]، استويت بمعنى علوتَ عليه راكبًا عليه أنت ومَن مَعَكَ.

واللغة العربيةُ تَقتضي أن استوى إذا تعدَّت بـ(على) فمعناها العُلُوُّ لا غير، ومن ثَمَّ يحسُن بنا أن نقولَ: (استوى) في اللغة العربيةِ تَرِدُ على أربعةِ أوجهٍ:

الوجه الأول: أن تتعدَّى بـ(على) فتكون بمعنى العلوِّ، وأمثلتها: أوَّل مثالٍ نمثِّل به: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، ومنه: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، ومنه: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾، فإذا تعدَّت بـ(على) فهي بمعنى العلوِّ.

الوجه الثاني: وتارَةً تأتي مُعَدَّاةً بـ(إلى)، ويراد بها القصدُ التامُّ، ومنه قولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١] على أحد القولينِ في الآيةِ الكريمةِ، أن استوى هنا بمعنى: قَصَدَ قصدًا تامًّا وأراد إرادةً تامَّةً.

الوجه الثالث: وتارة لا تتعدى بشيءٍ فتأتي منفردةً، فتكون بمعنى الكمالِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤]، أي كمل. فـ(استوى) إذا لم تتعدَّ بالحرفِ فهي بمعنى كمُل، ويقول الطَّبَّاخ: «استوى الطعام» يعني: كمُل نُضجُه.

الوجه الرابع: وتارة تأتي مقرونةً بالواوِ، فتكون بمعنى التساوِي، تقول: استوى الليلُ والنهارُ في الطولِ، يعني: تساوى. ومنه عند الناس (خطُّ الاستواء)؛ لأنه يَقسِم الكُرَةَ الأرضيةَ قسمينِ متساويينِ.

ولا تأتي (استوى) في اللغة العربيةِ إلا على هذه الوجوهِ، وليس في واحدٍ منها أن تكون بمعنى (استولى)، وإنما هذا معنى مُحدَث بعيد عن اللغةِ العربيةِ، وبعيد عن لغةِ القرآنِ الكريمِ، ويَلزَم منه لوازمُ باطلةٌ، وليس هذا مَوضِع ذِكرها، ولكنها -والحمد لله- مَعروفة.

وإني أقول من بابِ النصيحةِ: مَن أراد العقيدةَ الخالصةَ السالمةَ الصافيةَ فعليه بقراءةِ كتبِ عالمينِ من علماءِ المسلمينَ، وهما: شيخ الإسلام ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتلميذه ابن القيِّم، فقد حَقَّقا في التوحيدِ والعقيدةِ ما لم يُحقِّقْه عالم غيرُهما فيما نَعلَم.

ومن باب النصيحةِ أَنصحُ إخواني في جميعِ أقطار الدنيا أن يَعتَنُوا بكتبِ هذينِ الشيخينِ في بابِ أصولِ الدينِ في التوحيدِ والعقيدةِ، أسبغَ اللهُ عليهما رحمتَه، وتَغمَّدَهما بالرحمةِ، وجَمَعَنا بهم في جناتِ النعيمِ، مع الذين أنعمَ اللهُ عليهم منَ النبيينَ والصدِّيقين والشهداءِ والصالحينَ.

هذا ما أنصحُ به لإخواني، وأنا أتحـمَّل أن ما قلتُه إنما هو نصيحة لهم، ولقدِ استفدتُ من كُتُبهما كثيرًا، وطالعتُ ما شاء اللهُ أن أُطالِعَه من الكتبِ الأخرى في علمِ الكلامِ وغيره، فوجدتُ الفرقَ العظيمَ، وأن هذينِ الشيخينِ إنما يَعتمدانِ فيما يقولانِه على كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وأقوال الصحابة وأئمة المسلمينَ، أما الكتـب الأخرى فغالبها فلسفةٌ ومنطِـق وأشياءُ، فتَسْمَع جَعْجَعَةً ولا ترى طِحْنًا[1]، ولا تكاد تجد فيها حُكمًا يقال فيه: لقولِه تعالى، أو لقولِ الرسولِ الرسولِ ﷺ، وإنما هي تعاليلُ عَلِيلةٌ بمرضٍ لا يُرجَى بُرْؤُه، وبعضها ميتٌ للغايةِ.

فأسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يهديَ إخواننا المسلمينَ للعقيدةِ السليمةِ، والتوحيد الخالِص، والاتباع السليمِ من كل بدعةٍ، إنه على كل شيءٍ قَدير، وبالإجابةِ جَدير.

والحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) الجعجعة: صوت الرحى، والطِّحن: الدقيق.

الدرس الثالث:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومن يضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه؛ محمدُ بنُ عبدِ اللهِ ابنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمٍ الهاشمي القرشي، أرسلَهُ اللهُ تعالى على حينِ فترةٍ منَ الرسلِ، وانقطاعٍ منَ السبلِ، أرسلَهُ والناسُ أحوجُ إلى رسالتِه مِن حاجتِهم إلى الطعامِ والشرابِ والهواءِ، فبلغَ الرسالةَ، وأدى الأمانةَ، ونصحَ الأمةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، وتركَ أمتَه على بيضاءَ نقيةٍ، لا يزيغُ عنهَا إلا هالكٌ.

وخلَفَهُ في أمتِه خلفاؤُه الراشدونَ؛ أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وكانَ أحقَّهمْ بالخلافةِ أبو بكرٍ الصديقُ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ.

قالَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ رَحِمَهُ اللهُ: مَن طعنَ في خلافةِ أحدٍ مِن هؤلاءِ فهوَ أضلُّ مِن حمارِ أهلِهِ[1].

ولا شيءَ أبلدُ منَ الحمارِ، ولذلكَ يُضربُ بِهِ المثلُ في عدمِ التحملِ وعدمِ الذكاءِ؛ كما قالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥].

فمَن طعنَ في خلافةِ أبي بكرٍ فهوَ أضلُّ منْ حمارِ أهلِه، ومنْ طعنَ في خلافةِ عمرَ مِن بعدِ أبي بكرٍ فهوَ أضلُّ مِن حمارِ أهلِه، ومنْ طعنَ في خلافةِ عثمانَ مِن بعدِ عمرَ فهوَ أضلُّ من حمارِ أهلِه، ومنْ طعنَ في خلافةِ عليٍّ من بعدِ عثمانَ فهوَ أضلُّ

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٣٨).

منْ حمارِ أهلِه، ومَن طعنَ في خلافَةِ أحدٍ مِن هؤلاءِ فقدْ أَذْرَى بالمهاجرينَ والأنصارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

خلَفَهُ في أمتِه هؤلاءِ الخلفاءُ الراشدونُ، وكذلكَ الصحابةُ المهديونَ، وأدَّوا هذهِ الرسالةَ العظيمةَ إلى مَن بعدَهم بيضاءَ نقيةً، سالمةً من كلِّ الشوائبِ، ولكن لما اتسعتِ الرقعةُ الإسلاميةُ ودخلَ في دينِ اللهِ مَن دخلَ مِن أصنافِ بني آدمَ؛ حدثتِ الأهواءُ، وصارَ التفرقُ، وصارَ التمزقُ في الأمةِ الإسلاميةِ، وصارتِ الأمةُ إلى ما ترونَ اليومَ؛ أمةً إسلاميةً في الجنسيةِ فقطْ والهُويةِ، أما في الحقيقةِ فقليلٌ ما هُم.

ولكننَا لن نيأَسَ مِن رَوحِ اللهِ، إننا نرجُو مِن ربِّنا عَزَّوَجَلَّ أن يُعيدَ للأمةِ الإسلاميةِ مجدَها واتفاقَها على تحكيمِ كتابِ اللهِ، وسنةِ رسولِه ﷺ، والولاء التام للخلفاءِ الراشدينَ، وللصحابةِ مِن بعدِهم، ولأئمةِ المسلمينَ مِن بعدِهم، وما ذلكَ على اللهِ بعزيزٍ، فصلواتُ اللهِ وسلامُه على نبيِّه محمدٍ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أما بعدُ:**

فيقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه:١-٨].

ابتدأَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ سورةَ طه بحرفينِ منَ الحروفِ الهجائيةِ؛ وهما الطاءُ والهاءُ، فقالَ: ﴿طه﴾ وهذانِ الحرفانِ هجائيانِ، فهلْ لهذهِ الكلمةِ مِن معنًى في ذاتِها؟

الجوابُ: لا؛ لأن القرآنَ نزلَ باللسانِ العربيِّ المبينِ، والحروفُ الهجائيةُ في حدِّ

ذاتِها ليسَ لها معنًى في اللغةِ العربيةِ، ولهذا قالَ مجاهدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هذهِ الحروفَ ليسَ لها معنًى في حدِّ ذاتِها[1]، ولكن لها مغزًى، وهوَ أن هذَا القرآنَ العربيَّ الذِي أعجزَ أمراءَ البلاغـةِ، وفصحاءَ البيانِ، لم يأتِ بجديدٍ مِنَ الحـروفِ، فقد أتى بالحروفِ التي يُركبونَ منها كلامَهم، فكلامُ العربِ مركبٌ مِنَ الحروفِ الهجائيةِ، وهذا القرآنُ الكريمُ لم يأتِ بحرفٍ لم يَعرفْـهُ العربُ، ومعَ ذلكَ أعجزَ العربَ، وعجزُوا أن يَأتوا بمثلِه.

ويدلُّ لهذا المغزَى أنكَ لا تكادُ تجدُ سورةً مفتتحةً بحروفِ الهجاءِ إلا وبعدَها ذِكرُ القرآنِ:

ففِي أولِ سورةِ البقرةِ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢]. فذكرَ الكتابَ بعدَ قولِه: ﴿الٓمٓ﴾، وهذه حروف هجائية.

وفي أولِ سورةِ آل عمرانَ: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران:١-٣].

وفي أول سورةِ الأعرافِ: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١-٢].

وفي أولِ سورةِ يونسَ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١].

وفي أول سورةِ هودٍ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

---

(١) أخرج الطبري في التفسير (١/ ٢٠٨) عن مجاهد أنه قال: فواتح السور كلها ق و ص و حم و طسم و الر وغير ذلك، هجاء موضوع.

وفي أول سورةِ يوسفَ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:١-٢]... وهَلُمَّ جرًّا.

إذن هذهِ الحروفُ الهجائيةُ التي تُبتدأُ بها بعضُ السورِ ليسَ لها معنًى في حدِّ ذاتِها، لكن لها مغزًى عظيمٌ.

يقولُ جَلَّوَعَلَا: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ الخطاب في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ للرسولِ ﷺ محمد، ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ أي لتكونَ شقيًّا، ولكنْ لتكونَ سعيدًا.

توهمَ بعضُ الناسِ أن (طه) مِن أسماءِ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأنهُ قالَ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، قالوا: هذا يدلُّ على أن (طه) مِن أسماءِ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكنْ هذا غيرُ صحيحٍ؛ لأننا لو قلنَا بهذهِ القاعدةِ لكانَ (الر) اسمًا من أسماءِ الرسولِ؛ لأن اللهَ قالَ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١]، ولأن أسماءَ الرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، وأسماءَ القرآنِ، وأسماءَ مُنزلِ القرآنِ كلها تشتملُ على معنًى، ولا يُمكنُ أن يُوجدَ فيها اسمٌ جامدٌ إطلاقًا.

فمثلًا (محمدٌ) ما هوَ مجردُ علَمٍ، ولكنهُ اسمٌ دالٌّ على وصفٍ؛ أنهُ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ محمدٌ عندَ الأولينَ والآخرينَ؛ كما قالَ تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩].

و(أحمدُ) كذلكَ اسمُ تفضيلٍ منَ الحمدِ، فهوَ أحمدُ الناسِ للهِ، وهوَ أحمدُ الخلقِ منَ الخلقِ.

إذنْ أسماءُ الرسولِ لا بدَّ أن تكونَ مشتقةً، وكلمةُ (طه) ليستْ مشتقةً، فلا يصلحُ أن تكونَ اسمًا مِن أسماءِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قولُه تَعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ هذا الاستثناءُ منقطعٌ، وللاستثناءِ المنقطعِ علامتانِ:

العلامةُ الأولى: أن يكونَ المستثنَى ليسَ مِن جنسِ المستثنَى منهُ، ومعلومٌ أن التذكرةَ ليستْ مِن جنسِ الشقاءِ، إذنْ فالاستثناءُ منقطعٌ.

العلامةُ الثانيةُ: أن يحلَّ محلَّ أداةِ الاستثناءِ كلمةُ (لكنْ)، فنقولُ: «مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى لكن تذكرة» ويستقيمُ الكلامُ. فهذهِ علامةُ الاستثناءِ المنقطعِ، يعني: لكنْ أنزلنَا عليكَ هذا القرآنَ تذكرةً، لكنْ لمنْ يخشَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ، أما مَن قلبُه قاسٍ فإنهُ لن يتذكرَ بالقرآنِ، ولن ينتفعَ بِهِ؛ إذ إن القرآنَ إنما ينتفعُ بهِ ويتذكرُ بِهِ أصحابُ العقولِ والخشيةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

قولُه: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ يعني نزَّلناهُ تنزيلًا ممنْ خلقَ الأرضَ والسماواتِ العُلى، وهوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وقدِ استدلَّ علماءُ السلفِ على أن القرآنَ كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ بقولِه: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾؛ فبينَ اللهُ تعالى أن هذَا القرآنَ الكريمَ تنزيلٌ منهُ جَلَّوَعَلَا، ومعلومٌ أن القرآنَ كلامٌ، والكلامُ وصفُ المتكلمِ، وليسَ شيئًا منفصلًا بائنًا مخلوقًا، بل هوَ وصفُ المتكلمِ، وإذا كانَ الكلامُ وصفَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لزِمَ أن يكونَ غيرَ مخلوقٍ؛ لأن كلَّ صفةٍ مِن صفاتِ اللهِ لا يصحُّ أن تكونَ مخلوقةً.

وقدْ صرحَ علماءُ السنةِ؛ كالإمامِ أحمدَ وسفيانَ بنِ عيينةَ وغيرِهما بكفرِ مَن قالَ: إن القرآنَ مخلوقٌ؛ لأنهُ إذا جعلَ القرآنَ مخلوقًا، وهُو صفةٌ مِن صفاتِ اللهِ، لزِمَ على قياسِ قولِهِ أن تكونَ جميعُ صفاتِ اللهِ مخلوقةً، وهذا شيءٌ باطلٌ، فالقرآنُ كلامُ اللهِ مُنزلٌ مِن عندِهِ، وليسَ مخلوقًا مِن مخلوقَاتِهِ.

واعلمْ أن القولَ بأن القرآنَ مخلوقٌ يُبطلُ الأمرَ والنهيَ والرسالةَ كلَّهَا؛ لأنكَ إذا جعلتَهُ مخلوقًا صارَ صوتًا يُسمعُ كما يُسمعُ صوتُ الرعدِ، ولو جعلتَه مخلوقًا كانَ أشكالًا يُشكلُ بها الورقُ والألواحُ، وليسَ لها معنًى، يعني كأنكَ تقولُ مثلًا: خلقَ اللهُ صورةَ ص، أو صورةَ واو، أو صورةَ راء، خلقَها اللهُ خلقًا، فهيَ حروفٌ مخلوقةٌ ما تدلُّ على معنًى ولا على أمرٍ.

ولهذا صرحَ علماءُ السلفِ وأهلُ السنةِ بأن القولَ بأن القرآنَ مخلوقٌ يُبطلُ الأمرَ والنهيَ، وهذا حقٌّ، فالقرآنُ مُنزلٌ غيرُ مخلوقٍ.

قد يقولُ قائلٌ: ألا يلزمُ مِن إنزالِ الشيءِ أن يكونَ مخلوقًا؛ لأن اللهَ قالَ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام:٩٩]؟

نقولُ: هناكَ فرقٌ بينَ الكلامِ الذي هوَ صفةٌ لا يقومُ إلا بموصوفٍ، وبينَ الماءِ الذي هوَ ذاتٌ مستقلةٌ، فماءُ المطرِ عينٌ قائمةٌ بنفسِها، وليسَ صفةً في موصوفٍ.

ثانيًا: الماءُ الذي ينزلُ منَ السماءِ نشاهدُه جسمًا منفصلًا بائنًا منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهوَ مخلوقٌ، وعلى هذَا فإذا أضافَ الإنزالَ إلى شيءٍ مخلوقٍ فهوَ مخلوقٌ، وإذا أضافَهُ إلى صفةٍ منَ الصفاتِ فهوَ غيرُ مخلوقٍ.

قولُه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، (الرحمنُ) اسمٌ منْ أسماءِ اللهِ، كالرحيمِ اسمٌ منْ أسماءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لكنْ إذا اجتمعَ الرحمنُ والرحيمُ في سياقٍ واحدٍ فُسرَ الرحمنُ باعتبارِ الوصفِ، والرحيمُ باعتبارِ الفعلِ، يعني أنهُ ذو رحمةٍ واسعةٍ يُوصلُها إلى مَن يشاءُ مِن عبادِه، وأما إذا انفردَ أحدُهما عنِ الآخرِ فإنهُ يتضمنُ هذا المنفردَ لمعناهُ ولمعنى قرينِه، بمعنَى أن (الرحمن) إذا جاءتْ وحدَها صارتْ بمعنى الرحمنِ ذي الرحمةِ الواسعةِ والرحمةِ الواصلةِ، وكذلكَ الرحيمُ.

والعرشُ مخلوقٌ عظيمٌ، لا يعلمُ قدرَهُ وسعتَهُ إلا اللهُ، وفي الحديثِ: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ**»، فالسماواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ بالنسبةِ للكرسيِّ كحلقةٍ أُلقيتْ في فلاةٍ منَ الأرضِ، والفلاةُ: الصحراءُ الواسعةُ، والحلقةُ: حلقةُ الدرعِ الصغيرةُ، فإذا أُلقي حلقةُ درعٍ في أرضٍ فلاةٍ واسعةٍ فإن نسبتَها تكونُ صفرًا لا شيءَ، فهذهِ السماواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ بالنسبةِ للكرسيِّ كحلقةٍ ألقيتْ في فلاةٍ منَ الأرضِ؛ لأن اللهَ يقولُ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، «**وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَةِ**»[1].

إذنْ لا يتصورُ الإنسانُ عظمةَ هذا العرشِ العظيمِ، ولهذا وصفَهُ اللهُ بالعِظمِ.

وهذا العرشُ استوَى عليهِ الرحمنُ عَزَّوَجَلَّ بمعنى علَا عليهِ، وهذا العلوُّ هوَ ليسَ العلوَّ العامَّ على جميعِ المخلوقاتِ، بل هوَ علوٌّ خاصٌّ بالعرشِ؛ ولا نعلمُ كيفيتَه؛ لأن اللهَ أخبرَنا عنهُ ولم يخبرْنا عنْ كيفيتِه، وحسبنَا أن نقولَ: آمنَّا وصدَّقنَا، ولا نسألُ عن سِوى ذلكَ.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٦، رقم ٣٦١).

ولا يصحُّ أن تُمثلَه باستواءِ الإنسانِ على الكرسيِّ؛ لأن اللهَ يقولُ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]، فإذا آمنتَ بهذهِ الصفةِ، وهيَ العلوُّ على العرشِ، على وجهٍ ليسَ بهِ مماثلةٌ للمخلوقينَ، ولا يتطرقُ إليهِ التكييفُ، فأيُّ نقصٍ يثبتُ للهِ عَزَّوَجَلَّ بإثباتِهِ لهُ؟

الجوابُ: لا نَقصَ، بل هوَ كمالٌ، فكيفَ يقالُ: إن إثباتَهُ نقصٌ، وإنهُ يجبُ أن يَؤولَ استوى إلى مَعنى استولَى، فهذا تحريفٌ للكلمِ عنْ مواضِعِه، وهذا فردٌ منْ أفرادِ قولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»[1]. ومِن سننِ مَن كانَ قبلَنا التحريفُ، فاليهودُ قيلَ لهمُ: ادخُلوا البابَ سُجَّدًا؛ باب القريةِ التي أُمروا أن يُقاتلوا فيهَا وقُولوا: حِطَّةٌ، فقالُوا: حِنطةٌ بدلَ أن يَقولوا: حِطَّةٌ، يعني: احْطُطْ عنَّا ذُنُوبَنا واغفرْ لنَا، فقالُوا حِنطةٌ؛ أي: نريدُ طعامًا؛ لأن اليهودَ معروفونَ بحبِّ المالِ وأكلِ السحتِ وأخذِ الرِّبَا، فحرفُوا وزَادُوا النونَ في كلمةِ حِطَّة وقالُوا: حِنطةٌ.

فتفسيرُ (اسْتوى) بـ(استولى) على المعنَى الذي فُسرتْ بهِ كالنونِ في (حطة) التي ذهبَ إليهَا مَن ذهبَ منَ اليهودِ، فاتبعنَا بهذا سننَ مَن كانَ قبلَنَا.

وهكذَا كلُّ تحريفٍ يوجدُ في القرآنِ أوِ السنةِ، أو في العقائدِ، أو في الأعمالِ، أو في الأخلاقِ، فإن هذا التحريفَ سنةٌ مِن سننِ مَن قَبلَنَا.

إذنْ عقيدَتُك أيها الأخُ المسلمُ في قولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ التي يجبُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، رقم (٧٣٢٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩).

أن تُواجِهَ اللهَ بها أن تقولَ: استَوى أي علَا على عرشِه علوًّا يليقُ بجلالِه، لا يماثِلُ علوَّ المخلوقِ واستواءَ المخلوقِ على المخلوقِ، ولا يتطرقُ إليهِ التكييفُ.

وانظرْ إلى جوابِ الإمامِ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أحدِ الأئمةِ الأربعةِ، سألَهُ سائلٌ فقالَ: يا أبا عبدِ اللهِ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيفَ استَوى؟ أتدرونَ كيفَ مرتْ هذِه الكلمةُ على الإمامِ مالكٍ! أطرقَ برأسِه حياءً وخجلًا منْ هذا السؤالِ العظيمِ، وجعلَ يتصببُ عرقًا؛ لأن هذا السؤالَ ليسَ بالأمرِ الهينِ.. أنتَ يا رجلُ، أنتَ يا إنسانُ، أنت يا بَشرُ، تسألُ عن كيفيةِ صفاتِ اللهِ! وتسألُ عن كيفيةِ صفةٍ منْ صفاتِ اللهِ! فمنْ أنتَ! وما عِلمُك! وإلى أيِّ شيءٍ بلغَ علمُك حتى تسألَ عن كيفيةِ صفةٍ منْ صفاتِ اللهِ! ألم تعلمْ أيها البشرُ أنكَ عاجزٌ عن معرفةِ كيفيةِ نفسِكَ، فالروحُ التي بينَ جنبيكَ لا تدري كيفيتَها إلا حسبَ ما جاءَ بالكتابِ والسنةِ.

ولو قالَ لكَ قائلٌ: رُوحُك التي في بَدنِك ما كيفيتُها فإنكَ تقولُ: اللهُ أعلمُ، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء:٨٥].

والحقيقةُ هذا أمرٌ عجيبٌ، فالإنسانُ يكونُ معكَ ويحدِّثُكَ ويتكلَّمُ معكَ، وإذا ماتَ فإذا هُو جثةٌ وما تَدري ماذَا حدثَ، وما الذِي فارقَ هذا الجسمَ حتى صارَ جثةً، وكيفَ فارقَهُ، ولا نعلمُ منَ الروحِ وصفاتِها إلا ما جاءَ بالكتابِ والسنةِ، ثم قالَ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، وهذه الجملةُ توبيخٌ للذي سألَ عنِ الروحِ؛ كأنَّ اللهَ قالَ عَزَّوَجَلَّ: ما بقيَ عليكَ منَ العلمِ إلا أن تعلمَ الروحَ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. فأنتَ يا أيها الإنسانُ لم تؤتَ منَ العلمِ إلا قليلًا.

المهمُّ الإمامُ مالكٌ لكونِه يَقدرُ اللهَ حقَّ قدرِه، بقدرِ استطاعتِه، ولمعرفتِه عظمةَ

اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لما سُئلَ هذا السؤالَ لم يَمرَّ عليهِ هكذَا، ولكنهُ تأثرَ بهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم أنطقَهُ اللهُ تعالى بكلامٍ لو وُزنَ بالذهبِ زنةَ الجبالِ بهِ ما أوفَاهُ حقَّهُ، قالَ: «يَا هَذَا، الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ بهِ واجبٌ، والسؤالُ عنهُ بدعةٌ»[1].

رضيَ اللهُ عنْ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ» وضدُّ «غيرُ مجهولٍ» أي: معلومٌ، فالاستواءُ باللغةِ العربيةِ معلومٌ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، يعني لا يُمكنُ أن نسألَ عنْ كيفيةِ صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقدْ أخبرَنَا اللهُ أنه استوَى ولم يخبرْنَا كيفَ استوَى، فحينئذٍ يجبُ الكفُّ.

ولهذا قالَ: «الإيمانُ بهِ واجبٌ»؛ لأن اللهَ تعالى أخبرَ به عنْ نفسِه، فوجبَ الإيمانُ بهِ، «والسؤالُ عنهُ» عن كيفيتِهِ «بدعةٌ» أي مبتدعٌ. والسؤالُ عنهُ بدعةٌ لأن الصحابةَ لم يَسألُوا عنهُ الرسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهلْ أنتَ أيها السائلُ أحرصُ على معرفةِ صفاتِ اللهِ منَ الصحابةِ؟! وهلِ المسؤولُ أعلمُ باللهِ منَ الرسولِ ﷺ؟!

الجوابُ: لا، إذنْ سببُ السؤالِ موجودٌ في عهدِ الصحابةِ أكثر مِن وجودِه في عصرِ مَن بعدَهُم؛ لأن السائلَ أحرصُ والمسؤولَ أعلمُ، ومعَ ذلكَ ما سألَ أحدٌ منَ الصحابةِ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ عنْ كيفيةِ الاستواءِ.

أما عدمُ سؤالِهم عنْ معناهُ فلأن هذا معروفٌ باللغةِ العربيةِ، ولا يختلفُ فيهِ اثنانِ، ولا ينتطحُ فيهِ عَنزانِ؛ أن الاستواءَ على الشيءِ بمعنى العلوِّ عليهِ، ولهذا لم يأتِ حرفٌ واحدٌ عنِ الصحابةِ يفسرُ الاستواءَ بغيرِ معناهُ اللغويِّ، وهوَ العلوُّ على العرشِ كما يليقُ بجلالِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥).

قولُه: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾. لما ذكر أنهُ استوَى على عرشِهِ، وهوَ دليلٌ على كمالِ سلطانِهِ وعظمتِهِ؛ قالَ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾، وهذهِ الجملةُ فيها اختصاصٌ، يعني فيها حصرٌ، وطريقُه تقديمُ الخبرِ، فتقديمُ الخبرِ يدلُّ على الحصرِ؛ لأن القاعدةَ البلاغيةَ أن تقديمَ ما حقُّهُ التأخيرُ يفيدُ الحصرَ، فكلُّ شيءٍ حقُّه التأخيرُ إذا قُدمَ كانَ دليلًا على الحصرِ.

إذنْ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني لا لغيرِه.

قالَ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾، فكلُّ شيءٍ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ شيءٍ مملوكٌ للهِ، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المالكُ لكلِّ شيءٍ، المدبرُ لكلِّ شيءٍ، لا مالكَ سواهُ، ولا مدبرَ سواهُ، ولا خالقَ سواهُ.

قولُه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ فكلُّ قولٍ مِن أمـرٍ بالمعروفِ أو نهيٍ عنْ منكرٍ، أو قولِ حقٍّ، أو قولِ باطلٍ، فإن اللهَ تعالى يعلَمُه، وعرفنَا أن اللهَ تعالى يَعلَمُه لأنهُ قالَ: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾، ومَن علمَ السرَّ فإنهُ يعلمُ الجهرَ لا شكَّ.

إذنْ وإن تجهرْ بالقولِ فإنهُ يعلمُ الجهرَ كما أنهُ يعلمُ السرَّ، ﴿وَأَخْفَى﴾ منَ السرِّ، فيعلمُ عَزَّوَجَلَّ ما هو أَخفَى منَ السرِّ؛ والذي أخفَى منَ السرِّ هوَ ما يُحدِّثُ بهِ الإنسانُ نفسَه، ولهذا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في سورةِ ق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

ولما أنزلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٨٤] جاءَ الصحابةُ إلى رسولِ اللهِ وجَثَوا

على الرُّكبِ يقولونَ: أَيْ رَسُولَ اللهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا. فقال لهمُ النبيُّ ﷺ: «**قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**». فقالوا: سمعنَا وأطعنَا. فلما استسلَمُوا لأمرِ اللهِ أنزلَ اللهُ الآيةَ بعدَها: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦][(١)].

وحديثُ النفسِ ليسَ في وُسعِ الإنسانِ، ولهذا قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**»[(٢)] والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

إذنِ اللهُ يعلمُ السرَّ وأخفَى، وهوَ ما يُحدثُ بِهِ الإنسانُ نفسَه، لكنهُ عَزَّوَجَلَّ لفضلِهِ وإحسانِهِ وكرمِهِ تجاوزَ عما حدَّثَ بِهِ الإنسانُ نفسَه إذا لم يعملْ أو يتكلمْ.

قولُه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. أخي المسلمُ، أنتَ تقولُ في كلِّ صلاةٍ، وعندَ كلِّ وضوءٍ، وفي كل مناسبةٍ، وربما في كلِّ وقتٍ: لا إلهَ إلا اللهُ، فما معنى هذهِ الكلمةِ العظيمةِ؟

نقولُ: معناها: لا معبودَ حقٌّ إلا اللهُ. وتتضمنُ هذهِ الكلمةُ الإقرارَ بالربوبيةِ؛ لأنهُ لا يمكنُ أن يُعبدَ إلا مَن كانَ ربًّا، ولهذا كانَ الإقرارُ بالألوهيةِ متضمنًا للإقرارِ بالربوبيةِ، والإقرارُ بالربوبيةِ مستلزمًا للإقرارِ بالألوهيةِ، يعنـي مَن أقرَّ بأن اللهَ هوَ الربُّ لزِمَه أن يَعبدَه وحدَهُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٤].

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره.. رقم (٥٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

واعلمْ أن بعضَ المتأخرينَ أخطأَ خطأً كبيرًا، حيثُ كان يظنُّ أن توحيدَ الألوهيةِ يعني توحيدَ الربوبيةِ، وأن الرسلَ إنما جاؤُوا مِن أجلِ تحقيقِ الربوبيةِ، وهذا لا شكَّ أنهُ غلطٌ؛ لأن توحيدَ الربوبيةِ كانَ المشركونَ قد أَقرُّوا بهِ:

قالَ تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف:٨٧].

وقالَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان:٢٥].

وقالَ: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٩].

فهم مقُرونَ بهِ، ومعَ ذلكَ استباحَ النبيُّ ﷺ دماءَهُم وأموالَهم ونساءَهم؛ لأنهم لم يُقروا بتوحيدِ الألوهيةِ، وهذا هوَ الذي أنكرَهُ المشركونَ، أما توحيدُ الربوبيةِ فقدْ أقرُّوا بهِ.

فمَنْ زعمَ أن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنما قاتلَ المشركينَ لإنكارِهم توحيدَ الربوبيةِ فقدْ ضلَّ ضلالًا مبينًا، وجانبَ الحقَّ، وإنما قاتَلَهُم لإنكارِهِمْ توحيدَ الألوهيةِ، حيثُ قَالُوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥]. اللهُ أكبرُ! صاحبُ الباطلِ يكابرُ، ﴿إِنَّ هَٰذَا ﴾ أي جعلَهُ الآلهةُ إلهًا واحدًا ﴿لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾، وباللهِ عليكمْ ما هوَ العُجابُ: أن يجعلَ الإنسانُ الآلهةَ متعددةً، أم يجعلُ الآلهةَ واحدًا، أيهُا العُجابُ؟

نقولُ: الأولُ؛ أن يجعلَ الآلهةَ متعددةً، فهذا هوَ العجابُ. فهوَ خالقٌ واحدٌ، يُحيي ويُميتُ، ويرزقُ ويمنعُ، ويقبضُ ويبسطُ، فإذا جعلَ الإلهَ واحدًا فهذَا ليسَ

عجبًا، إنما العجبُ هوَ أن تؤمنَ بأنهُ الربُّ الخالقُ المنفردُ بذلكَ، وبالتدبيرِ وبالملكِ؛ ثم تقولُ: إنهُ ليسَ واحدًا في الألوهيةِ، بلْ يُعبدُ غيرُهُ، فهذا هوَ العجيبُ.

إذنِ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كلمةٌ عظيمةٌ تستلزمُ قيامَ الإنسانِ بعبوديةِ اللهِ وحدَه، وألا يَعبدَ سِواهُ، لا ملَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مُرسَلًا، ولا دُنيا مُؤْثَرَةً، ولا ولدًا ولا أهلًا، فلا تعبدْ إلا اللهَ.

وقلنَا: لا تعبدْ ملَكًا، مثلَ جبريلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ، ولا تعبدْ نبيًّا، مثلَ محمدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهوَ أشرفُ الأنبياءِ والمرسلينَ، ومَن دونَهُ مِن بابِ أولى، فلا يستحقُّ العبادةَ إلا الخالقَ عَزَّوَجَلَّ.

وقولُنا: ولا دُنيا مؤثرة يعني أن هناكَ مَن يعبدُ الدنيَا، قالَ النبيُّ ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ**» فجعلَهُ عابدًا للدينارِ، والدينارُ هوَ النقدُ منَ الذهبِ، «**وَالدِّرْهَمِ**» والدرهمُ هوَ نقدٌ منَ الفضةِ «**وَالقَطِيفَةِ وَالخَمِيصَةِ**»، فجعلَ النبيُّ ﷺ هؤلاءِ عبيدًا لهذهِ الأشياءِ؛ لأنها قدِ استولتْ على قلوبِهم، فهؤلاءِ الدينارُ والدرهمُ والخميصةُ والقطيفةُ عندَهُم أعظمُ مِن همِّهم بعبادةِ اللهِ، والعياذُ باللهِ، فينامُ على التفكيرِ في هذا ويستيقظُ عليهِ، ويقومُ ويقعدُ عليهِ، فهذهِ عبادةٌ. ولهذا كانَ «**إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**»[1] أي سخِطَ.

إذنْ لا تعبدْ إلا اللهَ، والذينَ يَعبدونَ الأولياءَ؛ بأن يَذهبَ إلى وليٍّ منْ أولياءِ اللهِ فيعبده؛ فيذهبُ إلى قبرِه ويدعُوه أن يكشفَ ضرَّهُ، وأن يجلبَ لهُ النفعَ، هذا شِركٌ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال، رقم (٦٤٣٥). والخميصة والقطيفة نوعان من الثياب.

أكبرُ يَخرجُ بِهِ الإنسانُ منَ الملةِ، حتى لو صامَ، ولو صَلى، ولو تصدقَ، ولو حجَّ، ولو اعتمرَ، وهوَ يعبدُ القبورَ، فإنهُ مشركٌ شركًا أكبرَ، قدْ حرَّمَ اللهُ عليهِ الجنةَ، ومأواهُ النارُ وما للظالمينَ مِن أنصارٍ، وعملُه هذا لا يُقبلُ، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة:٥٤].

فإذا قالَ: هذا وليٌّ مِنْ أولياءِ اللهِ، وهوَ يعبدُه مِن أجلِ أن يَسترضيَهُ ليكونَ شافعًا لهُ عندَ اللهِ، أيكونُ كافرًا أو لَا؟

الجوابُ: هوَ مشركٌ، واستمعْ إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فهم يعبدونَ هذهِ الأشياءَ لِتُقربَهم إلى اللهِ، ومعَ ذلكَ كانوا مشركينَ.

قولُه: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الضميرُ في (لَه) يعودُ على اللهِ، والأسماءُ الحسنى أي التي هيَ أكملُ الأسماءِ، وأتمُّ الأسماءِ، وأحسنُ الأسماءِ؛ أسماءُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. وفي وصفِها بالحسنى دليلٌ على أنهُ ليسَ في أسماءِ اللهِ ما لا يتضمنُ كمالًا، فكلُّ أسماءِ اللهِ متضمنةٌ للكمالِ، وقدْ تتضمنُ معنًى واحدًا، وقدْ تتضمنُ أكثرَ مِن معنًى.

فإذا قلنَا: مِن أسماءِ اللهِ الخالقُ، فإنهُ يتضمنُ الخلقَ لا شكَّ ويتضمنُ العلمَ، وتَضمنَ العلمَ لأنهُ لا خَلقَ بدونِ علمٍ، وتضمنَ القدرةَ أيضًا؛ لأنه لا خَلقَ إلا بقدرةٍ.

والدَّليلُ على أن كلمةَ الخالقِ تضمنتْ هذا؛ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

قالَ: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾ واللامُ هنا للتعليلِ، وهوَ لم يذكرْ إلا الخَلقَ، لكنهُ يعلمُ أن الخالقَ لا بد أن يكونَ عليمًا قديرًا، ولهذا قالَ: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

إذنْ أسماءُ اللهِ كلُّها متضمنةٌ لأكملِ المعاني، قد تَتَضَمَّنُ معنًى واحدًا وقدْ تَتَضَمَّنُ معنيينِ أو ثلاثةً، أو أكثرَ، حسبَ ما يفتحُ اللهُ بِهِ على العبدِ منْ الاِستنباطِ الذي يستنبطُه منْ معنى الاسمِ.

وهنا أسئلةٌ على أسماءِ اللهِ: أولًا: هلْ في أسماءِ اللهِ ما لا يَدُلُّ على معنًى؟

الجوابُ: ليسَ في أسماءِ اللهِ ما لا يدلُّ على معنًى، ونأخذُ هذا مِن قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ لأن الجامدَ الذي لا يدلُّ على معنًى ليسَ داخلًا في الحسنَى.

أسماءُ اللهِ غيرُ محصورةٍ بعددٍ معينٍ:

وهلْ أسماءُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ محصورةٌ بعددٍ معينٍ؟

الجوابُ: لا، ليستْ محصورةً، فأسماءُ اللهِ كثيرةٌ، ولا يمكنُ أن يحيطَ بها البشرُ، والدَّليلُ قولُه ﷺ في حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ في دعاءِ الغمِّ والكربِ: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ**»(١). ومَا استأثرَ اللهُ بِهِ في علمِ الغيبِ لا يَعلمُه إلا هوَ، إذنْ ليستْ محصورةً.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١).

إحصاءُ أسماءِ اللهِ تعالى:

فأما قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[1] فالمعنى أن مِن أسماءِ اللهِ تسعةً وتسعينَ اسمًا مَن أحصاها دخلَ الجنةَ، وليسَ المرادُ بإحصائِها أن تكتبَها وتَسرُدَها لفظًا، بل إحصاؤُها أولًا: الإحاطةُ بها لفظًا، وثانيًا: فهمُ معناهَا، وثالثًا: التعبدُ للهِ بمقتضاها، فهذهِ ثلاثةُ أشياء:

إحصاؤُها لفظًا بمعنَى أن أتتبعَ القرآنَ والسنةَ وأستخرجَ منهُما تسعةً وتسعينَ اسمًا، هذا واحدٌ، ثانيًا: أن تفهمَ معناهَا وما دلتْ عليهِ، والثالثُ: أن تتعبدَ للهِ بمقتضاهَا، فمثلًا إذا عَلمتَ أن مِن أسماءِ اللهِ السميعَ، فإنكَ تؤمنُ بأن مِن أسماءِ اللهِ السميعَ، وتؤمنُ أيضًا بأن لهُ سمعًا، وهذا إثباتُ المعنى، وتتعبدُ للهِ بمقتضَى هذا؛ وذلكَ بألا تُسمعَ اللهَ قولًا لا يَرضاهُ. ولهذَا لو كَمُلَ إيمانُنا بالسميعِ ما سمعَ الربُّ منا شيئًا يُغضبُه؛ لأننا نعرفُ أنهُ يسمعُ عَزَّوَجَلَّ.

وكذلكَ العليمُ من أسماءِ اللهِ، فأُثبت أنهُ عليمٌ وأثبت أنهُ ذو علمٍ، بقيَ علينا الثالثُ وهوَ أن أتعبدَ اللهَ بمقتضَى هذا العلمِ، فأستحِي من اللهِ أن يعلمَ مِني شيئًا لا يَرضاهُ.

وهذا -أعني التعبدَ للهِ بمقتضَى الأسماءِ- اعلمْ أنهُ لا يتفطنُ لهُ إلا العاقلُ اللبيبُ، فأكثرُ الناسِ يفهمونَ ألفاظَ أسماءِ اللهِ الحسنى، وربما يَفهمونَ المعنَى أيضًا،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب إن لله مئةَ اسْمٍ إلا واحدا، رقم (٧٣٩٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، رقم (٢٦٧٧).

لكنْ لا يتعبدونَ للهِ بمقتضَاهَا، فلا تجدهُ يقشعرُّ جلدُه إذا همَّ أن يقولَ قولًا منكرًا يَخشى أن اللهَ يسمعُه، ولا تجـدهُ يقشعِرُّ جلدُه إذا أرادَ أن يفـعلَ شيئًا لا يرضاهُ اللهُ ويخشى أن يراهُ اللهُ، إلا القليل.

على كلِّ حالٍ أسماءُ اللهِ تعالى نقولُ: غيرُ محصورةٍ بعددٍ، وأجبنَا عن قولِه ﷺ: «**إنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**».

أسماءُ اللهِ توقيفيةٌ:

وهلْ أسماءُ اللهِ توقيفيةٌ، بمعنى أنهُ لا يحِلُّ لنا أن نسميَ اللهَ إلا بما سمَّى بهِ نفسَه في كتابِه، أو على لسانِ رسولِه، أو هيَ غيرُ توقيفيةٍ؛ بمعنى أن نسمِّيَ اللهَ بما شئنَا؟

الجوابُ: الأولُ؛ أنها توقيفيةٌ، وليسَ لنا أن نسميَ اللهَ بما لم يسمِّ بهِ نفسَه؛ لأن اللهَ قالَ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

وقالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف:٣٣].

فحرَّمَ علينَا أن نقولَ عليهِ ما لا نعلمُ، ومِن ذلكَ أن نسميَهُ بغيرِ ما سَمى به نفسَه، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يُسميَ اللهَ بما لم يُسمِّ بهِ نفسَه؛ لأن أسماءَ اللهِ توقيفيةٌ، أي: موقوفةٌ على ثبوتِ الشرعِ.

وكما أن هذا مقتضَى الأدلةِ السمعيةِ التي ذكرنَاها فهوَ أيضًا مقتضَى العقلِ، فجنايةٌ منكَ أن تُسميَ اللهَ بما لم يُسمِّ بهِ نفسَه؛ لأنكَ لو سميتَ شخصًا بغيرِ ما سماهُ أبوهُ وأمُّه كان هذا جنايةً عليهِ، ولا شكَّ أنه جنايةٌ، حتى ربما يخاصمُك، ولهذا إذا

أخطأَ إنسانٌ ونَاداكَ بغيرِ اسمِك وقالَ مثلًا: يا عبدَ اللهِ واسمُكَ محمدٌ، فإنكَ تقولُ: أنا اسمِي محمدٌ، معَ أنهُ قالَ لكَ: يا عبدَ اللهِ، وعبدُ اللهِ أفضلُ من محمدٍ، فالتسمِّي بعبدِ اللهِ أفضلُ منَ التسمِّي بمحمدٍ، ومعَ ذلكَ إذا قالَ لكَ: يا عبدَ اللهِ وأنتَ اسمُك محمدٌ تصححُ كلامَه، فتقولُ: أنا اسمي محمدٌ، وهذا يدلُّ على أن مَن سمَّى اللهَ بغيرِ ما سَمى اللهُ بهِ نفسَه فقدْ جنَى واعتدَى، وقالَ ما ليسَ لهُ بهِ علمٌ.

نسألُ اللهَ لنَا ولكمُ السلامةَ. والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِهِ.



الدرس الرابع:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد جاء في سورة طه ما جَرَى لموسَى ﷺ مع فِرعونَ وجُنودِهِ من المحاوَرَاتِ والمجادَلاتِ، ولكن كانَتِ العاقِبَةُ لموسَى ﷺ؛ فإنَّ فرعونَ ردَّ دعوةَ مُوسَى وزَعَمَ أنه ساحِرٌ، واتَّفَقَ معه على مَوعِدٍ عَيَّنَهُ موسَى ﷺ واثِقًا بِرَبِّه مؤمِنًا به، قالَ له مُوسَى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٩].

ويومُ الزينَةِ قالَ العلماءُ: إنه يومُ عيدٍ لآلِ فِرْعونَ يتَزَيَّنُونَ به ويجتَمِعُونَ فيه، فعَيَّنَ موسَى ذلكَ اليومَ وعيَّنَ الزمَنَ من ذلِكَ اليوم، وهو أن يكونَ ضُحَى ذلك اليوم؛ لأنه في استقبالِ النهارِ، وفي أوَّلِ النهارِ، ثم إنَّه أيضًا أشارَ إلى أنه يُحْشَرُ الناسُ -أي: يُجْمَعُونَ- في ذلك المكان، وهو مكانٌ مسْتَوٍ بيِّنٌ ظاهِرٌ؛ لأن موسَى ﷺ قد وَثِقَ بربِّهِ.

قال تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه:٥٩-٦٠]، هنا قال: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾، ولم يَقُلْ: جمعَ جنودَهُ؛ لأن المعْنى: كأن جُنودَهُ كلَّهم كانُوا كَيدًا يكيدُ بهم لموسَى ﷺ، ولكنَّ هَذَا الكيدَ العَظِيمَ والسَّحَرَةَ المجتَمِعينَ كلهم كانوا أمامَ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ غيرَ مُجْدِينَ لفِرعونَ شَيْئًا.

اجتمع الناس فقالَ لهُم مُوسى ﷺ كَلِمَةً واحِدَةً: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه:٦١]، يا لها من كَلِمَةٍ عظِيمَةٍ، كَلِمَةِ حقٍّ خَرَجَتْ من قَلْبٍ ناصِحٍ مؤمِنٍ باللهِ عَزَّوَجَلَّ واثِقٍ بنَصْرِهِ.

قوله: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أي: الويل -وهو العَذَابُ والعاقِبَةُ السيئةُ- لكُمْ إن بَقِيتُمْ على ما أنتُمْ عليهِ.

قوله: ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾، أي: يُهْلِكَكُم ويُتْلِفَكُم، ومنه سُمِّيَ السحتُ سُحْتًا؛ لأنه يُهْلِكُ المالَ ويُتلِفُهُ، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾، هكذا قالَ موسَى ﷺ هذِهِ الكلِمَة العظِيمَةَ، التي كانَتْ بمنزلَةِ القُنْبلةِ التي فرَّقَتْهم وشَتَّتَتْ شَمْلَهم.

فكانتِ النتيجَةُ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ [طه:٦٢]، الفاءُ هنَا دالَّةٌ على أمْرينِ: السَّبَبِيَّةِ والتَّعْقِيبِ بدونِ تَراخٍ ولا مُهْلَةٍ، فبمُجَرَّدِ ما قالَ لهم هذا القولَ وقَعَ النِّزاعُ بينهم؛ تنازَعُوا أمرَهُم بينَهُم، وهكذا كَلِمَةُ الحَقِّ إذا خَرَجَتْ من قَلْبٍ ناصحٍ لا بُدَّ أن تُؤَثِّر تأثِيرهَا البالِغَ في قُلوبِ من وُجِّهَتْ إليهم، فلا بُدَّ أن تُؤَثِّر إما حَالًا إنِ اقتَضَتْ حكمَةُ الله ذلِكَ، وإمَّا مآلًا، إنِ اقتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ تعالى تأخيرَ التأثِيرِ إلى أجلٍ مُسَمًّى.

واعلمْ أَيُّها الداعِي إلى اللهِ أن كَلِمَتَكَ بالحَقِّ لا بُدَّ أن يكونَ لها تأثِيرُهَا، ولكن قد يكونُ التأثِـيرُ فَوْرِيًّا، وقد يكونُ التأثِـيرُ مترَاخِيًا، واعلمْ أيضًا أن نَصْرَ اللهِ لك لا يستَلْزِمُ أن يكون نَصْرًا لكَ في حَياتِكَ، فقد يكونُ نَصْرُ الله لك بعدَ مَماتِكَ؛ لأن المقصودَ مِنْ نصرِ الدَّاعي، هو نَصْرُ دَعْوَتِهِ، فإذا انتَصَرَتْ دَعوتُهُ ولو بعدَ موتِه ولو

بعد حينٍ فإن ذلك نَصْرُهُ، فلا تَظُنَّ أيها الداعِي إلى اللهِ أَنَّك إذا أَخْفَقْتَ في الدَّعْوَةِ في أَوَّلِ مرَّةٍ أن ذلِكَ الإخفاقَ سيكونُ حَلِيفَكَ في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ مكانٍ، ولكن لا بُدَّ أن يَنْصُرَ اللهُ تعالى مقالَةَ الحَقِّ في أيِّ زمانٍ وفي أي مكانٍ، كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١].

إن الدَّاعِيَةَ إلى اللهِ حينَ يَرَى أنه لم يَنْجَحْ في أَوَّلِ أمرِهِ تَقَاعَسَ وتَرَدَّدَ ورجَعَ إلى الوراءِ، فهذا الإخْفاقُ بسببِ عَدَمِ الصَّبْرِ، والواجِبُ على الدَّاعِي إلى اللهِ أن يَغْفِرَ، وأن يُثَابِرَ، وأن يحتَسِبَ الأجْرَ إلى اللهِ، وأن يعلَمَ عِلْمَ اليَقِينِ أن دَعْوَتَهُ للحقِّ منصورةٌ ولو بعدَ حينٍ.

قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نُونِيَّتِهِ[1]:

وَالحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُمْتَحَنٌ فَلَا ... تَعْجَبْ فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ

لا بُدَّ أَيُّها الداعِي مِنِ امتحانٍ، ولا بُدَّ مِنْ صبرٍ ومثابَرَةٍ، قالَ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

ثم نَنتَقِلُ بعدَ ذلِكَ إلى حالِ السَّحَرَةِ الذين جمَعَهُم فِرعونُ ليَكِيدَ بِهِمْ مُوسَى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

لما أَلْقَى السَّحَرَةُ ما أَلْقَوْا مِنَ الحبالِ والعِصِيِّ التي ملأَتِ المكانَ وأَوْجَسَ موسَى ﷺ في نَفْسِهِ خِيفَةً، أي: خافَ من هذهِ الحبالِ والعِصِيِّ؛ لأنها لها منْظَرًا رَهِيبًا

(١) نونية ابن القيم (ص:١٧).

يُخَيَّلُ له من سِحْرِهِمْ أنها تسْعَى إليه لتلتَهِمَهُ ومن مَعَهُ، فأوجس في نفسه خيفَةً موسَى، فقالَ الله تعالى لَهُ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٨]، أنتَ الأعْلَى عَلَى هؤلاءِ مع ما صَنَعُوا مِنَ السِّحْرِ العظيمِ، لأنهم ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩].

حينئذ أمَرَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ موسَى ﷺ أن يلقيَ ما في يَمِينِه، وهي عِصاهُ، وفي عَصَا موسى ﷺ آياتٌ ثلاث عَلِمنَاها، دون أن نَعْلَمَ إن كانَ اللهُ تعالى قد جعَلَ فيها آياتٍ أُخْرَى أَوْ لا؛ أما الآيَةُ الأُولَى فهِي هذِهِ، وأما الآيَةُ الثانِيَةُ: فإنه كانَ يَضْرِبُ بها الحَجَرَ فيتَفَجَّرُ عُيونًا، وأما الآية الثالثة: فإنه ضَرَبَ بها البَحْرَ فانْفَلَقَ فكانَ كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيمِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩]:

فألقى موسَى عصاهُ، والعصَا كما تعرفونَ ليست بذلِكَ الشيءِ الطويلِ، وليست بذلك الشيء الضخمِ، ألْقاها مُوسَى ﷺ فإذا هي تَلْقَفُ ما صَنَعُوا، تَلْقَفُ ما يأْفِكُونَ، وما يكذِبُونَ به ويُمَوِّهُونَ به مِنَ السِّحْرِ على أعْيُنِ الناسِ، فلقَفَتْ كلَّ هذه الحبالِ وكلَّ هذه العِصِيِّ حتى لم يبْقَ منها حبْلٌ ولا عَصًا، ولا يعرِفُ الصنعَةَ إلا صانِعُها، حينئذٍ عرَفَ السحَرَةُ أن ما جاء به مُوسَى ليسَ مِنْ قبيلِ السِّحْرِ، ولكنه مِنْ قبيلِ القُدْرَةِ الإلهيَّةِ؛ قدرةِ ربِّ العالمينَ، رَبِّ موسَى وهارون، ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه:٧٠] سَجَدُوا للهِ عَزَّوَجَلَّ لمن هذه عَظَمَتُهُ وهذه قُدرتُهُ على يدِ رسولِهِ موسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أُلْقِيَ السحَرَةُ سُجَّدًا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾، وفي هذه الآية الكريمَةِ قدَّمَ اللهُ تعالى ذِكْـرَ هارونَ على ذِكْرِ موسَى، وفي آية أخرَى يُقَدِّمُ ذِكْـرَ موسَى على هارون، أما تقديمُ ذِكْـرِ مُوسَى على هَارونَ فإنه في محَـلِّهِ؛ لأن موسَى أفضَلُ مِنْ هارونَ، وأما تَقْدِيمُ هارونَ هنا على ذِكْرِ مُوسَى فلِمُناسبَةِ رؤوسِ الآياتِ؛ لأن هذِه السورَةَ كلها تُخْتَمُ آياتُها غالبًا بالألفِ المقصورَةِ، فقَدَّمَ ذِكْرَ هارونَ على ذِكْرِ موسَى.

ونَسْتَفِيدُ مِنْ ذلِكَ فائدَةً كَبيرَةً، وهي أن مَا يَحْكِيهِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عمَّنْ سَبقُوا مِنَ القَصَصِ ومَا قالُوا فإنَّما يَحْكيهِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على سَبِيلِ الترجَمَةِ، أي أن كلامَ مَن سَبَقَ يُتَرْجَمُ إلى اللُّغَةِ العرَبِيَّةِ، ولهذا تجِدُ ما يَحْكيهِ اللهُ تعالى عمَّنْ سلَفَ مِن الأقوالِ يختَلِفُ بينَ سورَةٍ وأخْرَى، مما يَدُلُّ على أن اللهَ تعالى ينْقُلُ كلامَ هؤلاءِ على سَبِيلِ التَّرجَمَةِ لأقوالهِمْ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتكَلَّمُ به كيفَ يشاءُ.

قالَ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾، حينئذ ثارَ جُنونُ فِرْعونَ فقال: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [طه:٧١] وقَدْ أرْهَبَ قومَـهُ بحيثُ لا يستَطِيعُ أحدٌ أن يَتَصَرَّفَ بأمرٍ إلا بعدَ إِذْنِ فِرعونَ، ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، هذه الجُمْلَةُ الخبرِيَّةُ من أكْذَبِ الجمل على وجْه الأرْضِ، يقول فِرعونُ للسَّحْرَةِ الذينَ علَّمَهُم السِّحْر، وأكْرَههم عليهِ، وجَلَبَهُم إلى هذا المكان، يقولُ لهم: إن مُوسَى هو كَبيرُكم الذي عَلَّمَكُم السِّحْرُ، وهو كاذِبٌ في ذلِكَ، وهو يعْلَمُ من نَفْسِهِ أنه كاذِبٌ في ذلِك؛ إذ لا رابِطَةَ بينَ موسَى وبينَ هؤلاءِ السَّحَرَةِ، وليس ما جاءَ به مُوسَى من قَبِيلِ السِّحْرِ، ولو كان ما جَاءَ به موسَى من قبيلِ السِّحْر ما كان لِيُؤَثِّرَ في سِحْرِ هؤلاءِ السَّحَرَةِ الذين هم في السِّحْرِ مَهَرَةٌ، ولكنها قُوَّةُ ربِّ العالمين تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

إلا أن فِرعونَ من عادَتِهِ أن يُمَوِّهَ على قومِهِ فيدَّعِيَ أن الحقائقَ كَذِبٌ، وانظُروا إلى تَمويهِهِ في مَحِلٍّ آخر، حيثُ قالَ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦-٣٧]، مَوَّهَ على قومِهِ بهذه الصورَةِ التي لا حَقِيقَةَ لها، فإن فرعون يَعْلَمُ أنَّ ربَّ العالَمِينَ في السماءِ، وأن موسَى ﷺ صادِقٌ فيما جاءَ بِهِ، ولهذا لم يُنْكِرْ عَلَى موسى حينَ قالَ له موسَى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢]، بل سَكَتَ، ولو كان يتمَكَّنُ من الإنكارِ لأنكَرَ على مُوسَى في هذا المقَامِ.

فالسَّحَرَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ آمنُوا باللهِ ربِّ العالمِينَ؛ ربِّ هارونَ ومُوسَى، قال فرعونُ: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾، أي: يَقْطَعُ اليدَ اليُمْني والرِّجلَ اليُسْرى، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: عَلَى جُذوعِ النَّخْلِ؛ إذْلالًا لكُم، وإرْغامًا لغَيرِكُم حتَّى لا يَجْرؤ أحدٌ على ما جَرُؤْتُمْ عليهِ.

وتأمَّلْ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ حكايَةً عن قولِ فِرعونَ، ولم يَقُلْ: عَلَى جذوعِ النَّخْلِ؛ لئلا يُظَنَّ أنه يُصَلِّبُهُم على رُءوسِ الجُذوعِ، ولكنه يريدُ أن يُصْلِّبَهُم على نَفْسِ الجُذوعِ، على أُصولِها، صَلْبًا قَوِيًّا شَدِيدًا بحيثُ يكونونَ كالداخِلِينَ فيها؛ لأنَّ (في) للظرفية كما هو معروفٌ.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾، فكانَ جواب السَّحَرَةِ: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه:٧٢]، أي: لَنْ نُقدِّمَك

يا فِرعونُ على ما جَاءَنَا مِنَ البَيِّناتِ، أي: مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ على صِدْقِ ما جاءَ به مُوسَى.

وقولُه: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ يَحْتَمِلُ أن تكونَ الواوُ حرْفَ قَسَمٍ، فيكونُ السَّحَرَةُ قد أقْسَمُوا باللهِ الذي فطَرَهُم، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الواوُ للعَطْفِ، وأن يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ مَعْطُوفًا على (ما) في قولِه: ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يَعْنِي: ولَنْ نُؤثِرَكَ على ما فطَرَنَا، وهُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وأيًّا كان، فالمعنيانِ متَلازِمانِ، ولكنِ انظُرْ إلى التَّحدِّي من هؤلاءِ السَّحَرَةِ لفرعونَ، حيثُ قالوا لَهُ: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، أي: اصنَعْ ما أنتَ صانِعٌ، فإنك إذا فعَلْتَ ما تفْعَلُ فـ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾، يعْنِي: غايَة ما يكونُ من تَعْذيبِك أن نَموتَ، وإذا مِتْنَا فإنما نَقْضِي الحياةَ الدُّنْيا، أما الآخِرَةُ فسَتَبْقَى لنَا، ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:٧٣] وبذلك نَعْرِفُ أن هؤلاءِ السَّحَرَةَ كانوا بأَوَّلِ النهارِ كفَّارًا سَحَرَةً، وكانوا في آخِرِ النهارِ مُؤمنين بَرَرَةً، وذلِكَ فَضْلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ.

وفي هذا دليلٌ أيضًا على أن إيمانَ الإنسانِ عن اقْتِناعٍ هو الإيمانُ الحقِيقِيُّ الذي يَثْبُتُ به القَلْبُ وتَرْسَخُ به النَّفْسُ، ويَرْسَخُ هو في النَّفْسِ، ولا يُمكِنُ أن يتَزَعْزَعَ مَهْما كانَتِ العواصِفُ، أما الإيمانُ على سبيلِ التَّهديدِ فإنَّه وإن خَضَعَ الإنسانُ المهَدَّدُ ظاهِرًا فإنه لم يَثْبُتْ باطِنًا، وبهذا أدْعُو إخواني الذين يَدْعُونَ إلى اللهِ أن تكونَ وسيلَةُ دَعْوتِهِمْ إلى اللهِ هِيَ الإقْنَاعَ، أي: إقْناعَ المدْعُوِّينَ حتى يأْتُوا الأمْرَ عن يَقينٍ وعن محبَّةٍ وعن اعترافٍ بالحَقِّ؛ لأن كَونَنَا نسلُكُ في سَبِيلِ الدعوةِ سبيلَ السُّلْطَةِ والسَّيْطَرَةِ

والتسَلُّطِ هذا لا يُغْنِي، وإن كان قَدْ ينْفَعُ ظاهرًا، لكِنَّ النتيجَةَ تكونُ عَكْسِيَّةً فيما بعدُ، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





سورة الأنبياء

الدرس الأول:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وأُصلِّي وأسلمُ على نبيِّنا محمدٍ، خاتمِ النبيينَ، وإمامِ المتقينَ، أرسلَهُ اللهُ تعالى بالهدَى ودينِ الحقِّ، فبلغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأمةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ بنفسِه ومالِه وجاهِهِ، حتى أتاهُ اليقينُ، فما توفاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلا وقدْ أنزلَ عليهِ قولَه تَعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. فالحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، لا نُحصي ثناءً عليهِ، هوَ كما أَثنى على نفسِهِ.

وصلى اللهُ وسلمَ على نبينَا محمدٍ، وعلى آلِه وأصحابِهِ ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

وأسألُ اللهَ تعالى بمَنِّهِ وكرمِهِ الذي أوجدَنَا في هذهِ الحياةِ الدنيا أن يجعلَنا منْ أتباعِهِم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

سُمِّيَتِ هذه السُّورَةُ بهذا الاسْمِ لاهتِمامِهَا بقَصَصِ الأَنْبياءِ الكِرَامِ، وما آتاهُمُ اللهُ تعالى من الفَضْلِ والإِنْعَامِ.

يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء:٥١-٥٢].

إبراهيمُ هوَ إبراهيمُ خليلُ الرحمنِ عَزَّوَجَلَّ، اتخذَ اللهُ تعالى إبراهيمَ خليلًا، واتخذَ محمدَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطلبِ الهاشميَّ القرشيَّ خليلًا؛ كما ثبتَ ذلكَ عنهُ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ حيثُ قالَ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**»(١).

والخليلُ أقوى محبَّةً منَ الحبيبِ، ولهذا لا نعلمُ أن أحدًا منَ البشرِ اتخذَهُ اللهُ خليلًا إلا اثنينِ فقطْ، هما إبراهيمُ ومحمدٌ عليهما الصلاةُ والسلامُ.

ومنْ قالَ: إن إبراهيمَ خليلُ اللهِ، ومحمدًا حبيبُ اللهِ، فإنهُ انتقصَ مِن مرتبةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ؛ لأنهُ يجبُ أن نقولَ: إبراهيمُ خليلُ اللهِ، ومحمدٌ خليلُ اللهِ، أما إذا قلنَا: إبراهيمُ خليلُ اللهِ، ومحمدٌ حبيبُ اللهِ؛ فهذا تَنقُّصٌ في حقِّ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ؛ لأن محبةَ اللهِ لا تختصُّ بالرسولِ ﷺ، بل عامةٌ لجميعِ الرسلِ ولجميعِ المؤمنينَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

والآياتُ في هذا كثيرةٌ، فالمحبةُ عامةٌ شاملةٌ، لكن الخُلةُ خاصةً، فلا نعلمُ أن أحدًا اتخذَهُ اللهُ خليلًا إلا إبراهيمَ ومحمدًا عليهما الصلاةُ والسلامُ.

قالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لقومِه: ﴿مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء:٥٢]، أي ملزِمونَ أنفسَكم، حابسونَ أنفسَكم لها، تعبدونَها من دونِ اللهِ، وهو

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم (٥٣٢).

يعلمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنها آلهةٌ منكرةٌ، وأنها آلهةٌ باطلةٌ؛ كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

فكلُّ ما يُعبدُ، وكلُّ من يَعبدُ مِن دونِ اللهِ فهوَ باطلٌ، وكلُّ عابدٍ لغيرِ اللهِ وكلّ معبودٍ سوى اللهِ فإنهُ كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، فالعابدُ والمعبودُ كلاهُما حصَبُ جهنمَ، وحصبُ بمعنى محصوبٍ، أي يُحصبونَ في نارِ جهنمَ، وهم فيها خالدونَ.

وانتبهْ إلى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فهذا عامٌّ لكل معبودٍ منْ دونِ اللهِ، فكلُّ معبودٍ من دونِ اللهِ فهوَ حصبُ جهنمَ، إلا ما استثناهُ اللهُ تعالى في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٢].

إذنِ الملائكةُ التي تُعبدُ مِن دونِ اللهِ لا تكونُ حصبَ جهنمَ، وكذلكَ الأنبياءُ الذينَ يُعبدونَ من دونِ اللهِ لا يكونونَ حصبَ جهنمَ؛ فعيسَى بنُ مريمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عبدَهُ النصارى الضالونَ منْ دونِ اللهِ، ولن يكونَ في نارِ جهنمَ؛ لأنهُ قدْ سبقتْ لهُ منَ اللهِ الحسنى، وأولياءُ اللهِ المتقونَ المشهودُ لهم بالتقوى المعلومونَ بالصلاحِ هؤلاءِ وإن عُبدوا مِن دونِ اللهِ فإنهم لنْ يكونُوا في جهنمَ؛ لأن اللهَ تعالى يقولُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

يقول إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ وحجتُهم: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾، ليس هناك حُجَّة، وإلَّا فهيَ لا تنفعُ ولا تضرُّ،

ولا تمنعُ ولا تدفعُ، فليسَ لها منَ الأمرِ شيءٌ، حتى إنَّ إبراهيمَ لما ناظرَ أباهُ قالَ لهُ: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢].

فهمْ لا حجةَ لهمْ فيما يَعبدونَ مِن دونِ اللهِ، وكلُّ مَن عبدَ شيئًا سوَى اللهِ فلا حجةَ لهُ، لكنِ انظرْ إلى التقليدِ الأعمَى: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ﴾ وهلْ ما وُجدَ عليهِ الآباءُ حجَّةٌ؟ لا، وإنْ وافقَ الحقَّ فهو حجةٌ، وإن خالفَ الحقَّ فليسَ بحجةٍ وهوَ مردودٌ على فاعلِه.

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ﴾ إذنْ لم يحتجُّوا بشيءٍ، ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الضلالُ بمعنَى الضياعِ والتِّيهِ، والمبينُ بمعنى البيِّن، ووجُه كونِهم في ضلالٍ مبينٍ أنهمْ عَبدُوا ما لا يَملِكُ لهمْ نفعًا ولا ضرًّا، ولا حياةَ ولا نشورًا.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:٥٥] يعنِي لما سفَّهْتَنا وسفهتَ آباءَنَا أجئتَنا بالحقِّ أم أنتَ منَ اللاعبينَ؟ والجوابُ: بلْ جاءهُم بالحقِّ، ولهذا ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٦]. هذا هوَ الربُّ حقيقةً الذي يستحقُّ أن يُعبدَ عَزَّوَجَلَّ الذي خلقَ السماواتِ والأرضَ وفطرهُنَّ، ابتدأَ خلقَهنَّ على غيرِ مثالٍ سبقَ، ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ أي أشهدُ بأن هذا هوَ ربُّكم الحقُّ.

قالَ تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٥٧]، يعني: لَأفعلُ فيها كيدًا يَضطرُّكُم إلى التصديقِ أنها باطلةٌ، وجملةُ (تاللهِ لأكيدنَّ) هيَ جملةُ قسمٍ، فالتاءُ من حروفِ القسمِ، وحروفُ القسمِ ثلاثةٌ: واللهِ، وتاللهِ، وباللهِ.

أَقسمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يَكيدَ الأصنامَ بأن يفعلَ فيها كيدًا يتبينُ بهِ بطلانُ كونِها آلهةً ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أدبرُوا ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ أي جعلَ هذهِ الأصنامَ ﴿جُذَٰذًا﴾ فُتاتًا، كَسَّرَهَا ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي كبيرًا لهذهِ الأصنامِ، فإنهُ أبقَاهُ ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٥٨].

فرَجَعُوا ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥٩] يستفهِمُونَ، ﴿قَالُوا۟﴾ أي قالَ بعضُهم لبعضٍ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء:٦٠]، أيْ سمِعنَا فتًى يعيبُ هذهِ الأصنامَ، يَذكُرُهُم يعني يذكرهُم بسوءٍ ويعيبُهم، فلعلَّهُ هوَ الذي كسرَها، ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ وهذهِ الجملةُ تقتضِي السخريةَ بهِ، وتصغيرَ شأنِه؛ لأنهمْ حاقدونَ عليهِ.

﴿قَالُوا۟﴾ أي قالَ بعضُهم لبعضٍ ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ يعني ائتُوا بهِ في مجمعٍ منَ الناسِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء:٦١] يعني يشهدونَ ما يقعُ بينهُم وبينَهُ مِن مناظرةٍ.

قولُه: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء:٦٢] هذَا الاستفهامُ يَحتملُ أن يكونَ إنكارًا، ويحتملُ أن يكونَ استعلامًا. ويكونُ إنكارًا إذا كانُوا قدِ اعتقدُوا أنهُ هوَ الفاعلُ، فهمْ بهذا الاستفهامِ ينكرونَ عليهِ، ويكونُ استعلامًا إذا كانُوا لا يعتقدونَ أنهُ الفاعلُ، فيسألونَهُ سؤالَ استعلامٍ واستخبارٍ.

قولُه: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣] وكبيرُهُم هوَ الصنمُ الكبيرُ الذي أبقاهُ إبراهيمُ ولم يكسِرْهُ، وأرادَ بذلكَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يلمزَهُم، وأن المعبودَ الأكبرَ لا يَرضَى أن أحدًا يشاركُهُ في الألوهيةِ والعبادةِ، والمعبودُ الأكبرُ عندَ هؤلاءِ

صنمٌ، وفي الحقِّ هوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فكأنَّ هذا لمزٌ لهمْ، يقولُ: إن اللهَ عَزَّوَجَلَّ هوَ المعبودُ الأكبرُ ولا يَرضى أن يشاركَهُ أحدٌ في عبادتِه، كما أن كبيرَ أصنامِكم هذه لا يَرضى أن يشاركَهُ أحدٌ، فهوَ الذي كسرَ الأصنامَ الصغارَ، فصارَ في هذا الفعلِ إقامةُ حجةٍ على هؤلاءِ.

قولُه: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٣] وتعلمونَ أن الميمَ هذهِ تعودُ للأصنامِ، والأصنامُ لا تَعقلُ، والمعروفُ أن الضميرَ إذا عادَ لما لا يَعقلُ فإنهُ لا يعودُ بواوِ الجمعِ؛ إذ إنَّ واوَ الجمعِ إنما تكونُ لمَن يعقلُ، لكنْ هذهِ الأصنامُ نزلتْ منزلةَ العاقلِ تَنزلًا لعابدِيها الذينَ يَعتقدونَ أنها تَنفعُهم.

قولُه: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني تَراجَعُوا فيما بينهُم ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء:٦٤] يعني أنتمُ الذينَ ظلمتُم أنفسَكم أن تعبدوا غيرَ اللهِ، ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ يعني انتكسُوا، فبعدَ أن توجهُوا توجهًا يسيرًا إلى الحقِّ نُكِسُوا على رءوسِهم قائلينَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٥] يعني علمتَ أن هذهِ الأصنامَ لا تنطقُ، فكيفَ تقولُ: اسألُوهم بعدَها؟

قولُه: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا استفهامُ إنكارٍ ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء:٦٦] لا ينفعكُم: يجلبُ لكمْ النفعَ، ولا يضركُم: يدفعُ عنكمُ الضررَ، أو المعنى: ولا يَضركُم إن أغضبتُموه ولم تعبدُوه، ولا ينفعكُم إن عبدتُموهُ.

قولُه: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أفٌّ هنا بمعنَى التضجرِ، يعني أتضجرُ منكمْ ومما تعبدونَ منْ دونِ اللهِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:٦٧] وهذا إشارةٌ

إلى أن مَن عَبدَ من دُون اللهِ فإنهُ ليسَ بعاقلٍ، فكلُّ إنسانٍ يَعبدُ غيرَ اللهِ فإنهُ غيرُ عاقلٍ، وقد يكونُ ذكيًّا لكنهُ غيرُ عاقلٍ؛ لأن هناكَ فرقًا بينَ العقلِ وبينَ الذكاءِ، فالعاقلُ هوَ الرشيدُ في تصرفِهِ، والذكيُّ هوَ السريعُ في فهمِ الأمورِ، فهؤلاءِ غيرُ عقلاءَ، ولهذا قالَ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قوله: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ أي إبراهيمَ، ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ أي انتصارًا لهذهِ الآلهةِ التي تُعبدُ من دونِ اللهِ ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨]، فعزمُوا على إحراقِه، وجمعُوا حطبًا عظيمًا، وأوقدوا نارًا عظيمةً، وقذفُوا إبراهيمَ فيهَا.

قالَ المؤرخونَ: إنهمْ لم يَقذفُوه بأيديهمْ، ولكنْ قذفُوه بالمنجنيقِ، والمنجنيقُ هوَ مدفعُ السابقينَ، شيءٌ يُستعملُ في قذفِ الأشياءِ الثقيلةِ، فوضعُوه في المنجنيقِ وقذفوهُ مِن بُعدٍ؛ لأنهم لا يستطيعونَ أن يَقربوا النارَ لعظمتِها.

فقذفُوه في النارِ، فقالَ حينَ قذفُوه: حسبنَا اللهُ ونعمَ الوكيلُ. حسبنَا بمعنى كافينَا، قالَ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]»[1].

فقالَ الربُّ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، (يا نارُ) هذهِ مناجاةٌ، وكلمةُ (نار) نكرةٌ في معنَى المعرفةِ، ولهذا بُنيتْ على الضمِّ؛ لأنها نكرةٌ مقصودةٌ، فمعنى (يا نارُ) النارُ التي أُلقيَ فيها إبراهيمُ، وليستْ جميعَ النيرانِ، وإنما هيَ النارُ التي أُلقيَ فيها إبراهيمُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، رقم (٤٥٦٣).

وبهِ نعرفُ بطلانَ قولِ مَن قالَ مِنَ الناسِ: إن المرادَ نارُ الدنيَا كُلِّهَا، وإنَّ النيرانَ في ذلكِ اليومِ صارتْ باردةً، فهذا غلطُ نحوٍ، والقائلُ بهِ لا يعرفُ اللغةَ العربيةَ؛ لأن اللغةَ العربيةَ تجعلُ المنادَى إذا كانَ نكرةً مقصودةً بمنزلةِ العلمِ الذي يعيِّنُ مُسماهُ.

قالَ اللهُ ربُّ العالمينَ، الذي خلقَهَا وأوجدَهَا، وهوَ ربُّها المتصرفُ فيها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فكانتْ بردًا وسلامًا على إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قالَ أهلُ العلمِ: إن اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قالَ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ ولوْ لم يقلْ: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لكانتْ بردًا مُهلكًا؛ لأنهُ إذا قالَ: كوني بردًا على إبراهيمَ كانتْ بردًا عظيمًا حتى يَهلكَ منَ البردِ، لكنْ قالَ: ﴿وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، فالبردُ بالنسبةِ للنارِ ضدّ الحرارةِ، والسلامُ بالنسبةِ للنارِ ضد الإحراقِ، فالنارُ حارةٌ محرقةٌ، والإحراقُ غيرُ سلامٍ، فأمرَهَا اللهُ أن تكونَ على ضدِّ ما هيَ عليهِ؛ أن تكونَ بردًا في مقابلةِ الحرارةِ، وسلامًا في مقابلةِ الإحراقِ.

وبهذا نعلمُ أن لهذهِ الطبيعةِ ربًّا مدبرًا عَزَّوَجَلَّ وأنهُ قادرٌ على أن يقلبَ طبائعَ الأشياءِ إلى أضدادِها، ونعلمُ كذلكَ أن الأسبابَ إنما هيَ أسبابٌ بتقديرِ اللهِ، وليستْ أسبابًا فاعلةً بذاتها، وهذهِ عقيدةٌ، فاللهُ تعالى قادرٌ على أن يحولَ الطبيعةَ إلى ضدِّها، وقادرٌ على أن يُبطلَ الأسبابَ، فالأسبابُ الموجِبةُ للشيءِ اللهُ قادرٌ على أن يجعلَها غيرَ موجِبةٍ.

وفي هذهِ الآيةِ الكريمةِ دليلٌ على أن الأسبابَ قدْ لا تُجدي شيئًا إذا لم يُردِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن تُجدِي، وإلا فالأصلُ أن الأسبابَ مؤثرةٌ في مسَبباتِها، يعني الأصلُ أن ما جعلَهُ اللهُ سببًا لشيءٍ فلا بدَّ أن يوثرَ فيهِ، لكنِ اللهُ قادرٌ على أن يجعلَ هذا السببَ المؤثرَ غيرَ مؤثرٍ.

تأثيرُ الأسبابِ:

واعلمْ أن الناسَ انقسَمُوا في الأسبابِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

القسمُ الأولُ: قسمٌ أنكرُوا تأثيرَ الأسبابِ في مسبباتِها، وقالُوا: السببُ ما لهُ تأثيرٌ أبدًا؛ لأنكَ لو أثبتَّ للسببِ تأثيرًا في مسَببِه لأثبتَّ معَ اللهِ خالقًا وشريكًا في الخلقِ.

القسمُ الثاني: نقولُ: لو رميتَ بحجرٍ على زجاجةٍ وانكسَرَتْ، فما الذي كسَرَها؟

الجوابُ: الحجرُ لا شكَّ، ولو نفختَ عليها ريشةً حتى اصطدمتْ بهذهِ الزجاجةِ فإنها لا تكسِرُها.

إذنْ لما اصطدمَ الحجرُ بالزجاجةِ كسرَهَا، ولكنْ مَن الذِي أودعَ فيهِ هذهِ القوةَ المؤديةَ إلى الكسرِ، ومَنِ الذي أودعَ في الزجاجِ القابليةَ للانكسارِ؟

الجوابُ: اللهُ، إذنِ الأسبابُ مؤثرةٌ في مسبباتِها بإرادةِ اللهِ، وبخلقِ اللهِ؛ لأن منْ حكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يكونَ للأشياءِ أسبابٌ مؤثرةٌ في مسبباتِها.

فعقيدَتُنا نحنُ معشرَ أهلِ السنةِ والجماعةِ والسلفِ الصالحِ؛ أن الأسبابَ مؤثرةٌ في مسبَّباتِها تأثيرًا مباشرًا، ولكنْ هذا التأثيرُ المباشرُ بإرادةِ اللهِ، وبالقوةِ التي أودعَها اللهُ تعالى في هذهِ الأسبابِ.

فلو أوقدتَ نارًا وألقيتَ فيها أوراقًا فالنتيجةُ أن الأوراقَ تحترقُ، والذي أحرقَهَا هيَ النارُ بما أودعَ اللهُ فيها منَ القوةِ الخارقةِ، وبما أودعَ اللهُ في القرطاسِ منَ القبولِ للاحتراقِ، ولذلكَ لو وضعتَ في النارِ شيئًا لا يَقبلُ الاحتراقَ ما يحترقُ.

ويُذكرُ أن شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ناظرَهُ رجلٌ منْ شيوخِ البطائحيةِ، وهمْ فرقةٌ ضالةٌ، وشيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أكبرِ المجاهدينَ فكريًّا في الإسلامِ، بل وبدنيًّا وعسكريًّا، ناظـرَهُ هذا الرجلُ البطائحيُّ وغلبَهُ شيخُ الإسلامِ، فدعَا هذا الرجلُ البطائحيُّ إلى أن تُوقدَ نارٌ ويُدخلَ فيها شيخُ الإسلامِ والبطائحيُّ، ومَنْ خرجَ منها فهوَ الذي معهُ الحقُّ؛ لأن كونَ اللهِ ينجيهِ منهَا يدلُّ على أنهُ هوَ صاحبُ الحقِّ.

فهذا البطائحيُّ المبـطلُ دعا إلى أمرٍ يُصدقُ بهِ العامـةُ، قالَ: إنهُ توقدُ النارُ العظيمةُ وأدخلُ أنا وأنتَ، فمَن خرجَ منها سالمًا فهوَ المحقُّ.

وشيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعلمُ أن الحقَّ معهُ -أي معَ شيخِ الإسلامِ- قالَ: ليس عندي مانعٌ، أوقِدِ النارَ وندخلُ أنا وأنتَ فيها، فمَن خرجَ سالمًا فهوَ معَهُ الحـقُّ، ولكنْ بشرطِ أنْ نغتسلَ أنا وأنتَ قبلَ أن ندخلَ النارَ وننظفَ أجسادَنا ثم ندخل النارَ؛ لأن شيخَ الإسلامِ عرَفَ أن هذا الرجلَ منَ البطائحيةِ قدِ اطَّلَى بطلاءٍ يمنعُ منْ الِاحـتراقِ بالنارِ، ومعلومٌ أنهُ إذا دخلَ وفيهِ الطلاءُ الذي يمنعُ منَ الاحـتراقِ لا يحترقُ، فانهزمَ الرجلُ وأبى أن يفعلَ[1].

وأنا قَصدي بهذا أن الأسبابَ إنما تكونُ مؤثرةً حيثُ كان المحلُّ قابلًا، فإذَا كانَ السببُ مؤثرًا والمحل قابلًا حصلَ موجبُ هذا السببِ، فالأسبابُ لها تأثيرٌ في المسبباتِ مباشرٌ، لكن هذا التأثيرَ بمقتضى طبيعتِها ليسَ مُستقلًّا عنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا النارُ محرقةٌ، ولا شكَّ أن أجسامَ بني آدمَ لو دخلتْ في النارِ لاحترقتْ، ولكن إبراهيمَ لم يحترقْ؛ لأن اللهَ قالَ للنارِ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٩].

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٤٧).

إذنْ نقولُ: إن منَ الناسِ مَن يقولُ: لا أثرَ للأسبابِ في مسبباتِها أبدًا، فالسببُ لا يؤثرُ في المسببِ إطلاقًا، وأنتَ لو رميتَ بالحجرِ بأشدِّ ما عندَكَ مِن قوةٍ وانكسرَ الحجرُ فليسَ هذا منَ الحجرِ، فإذا قلنَا: كيفَ انكسرتِ الزجاجةُ؟ قالوا: انكسرتِ الزجاجةُ عندَ إصابةِ الحجرِ، لا بالحجرِ، فما يحصلُ بالسببِ يحصلُ عندَ السببِ، لا بالسببِ، قالوا: ملاقاةُ الحجرِ للزجاجةِ يحصلُ عندَه الكسرُ، وأما الحجرُ فما كسَرَ الزجاجةَ.

ولوْ ألقيتَ ورقةً في النارِ واحترقتِ الورقةُ، فإنهم يقولونَ: النارُ ما أحرقتْهَا، بلِ احترقتِ الورقةُ عندَ ملاقاتِها النارَ، وليسَ بالنارِ.

وهذا كلامٌ غيرُ معقولٍ، فلو أنكَ أخذتَ الحجرَ ووضعتَهُ على الزجاجةِ وضعًا رفيقًا فما تنكسرُ الزجاجةُ.

فهذا لا شكَّ أنهُ قولٌ لا يرضاهُ أيُّ إنسانٍ عاقلٍ؛ أن الأسبابَ لا تؤثرُ في مسبباتِها وإنما تتأثرُ المسبباتُ بالأسبابِ عندَ السببِ لا بالسببِ.

القسم الثالثُ: قولُ الطبائعيينَ الذينَ يقولونَ: إن الأسبابَ مؤثرةٌ بذاتِها استقلالًا، وإن الانفعالَ لا بدَّ أن يكونَ عندَ الفعلِ بكلِّ حالٍ، وهذا على كلِّ حالٍ قولُ مَن لا يؤمنُ باللهِ، أو مَن تأثرَ بمَن لا يؤمنُ باللهِ.

فالقولُ الوسطُ الآنَ أن الأسبابَ مؤثرةٌ بمسبباتِها تأثيرًا مباشرًا، ولكنها بإرادةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهوَ الذي خلقَ في الأسبابِ ما يوجبُ أن تكونَ فاعلةً، وخلقَ في المسبباتِ ما يوجبُ أن تكونَ قابلةً.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ والكيدُ الذي أرادُوا هوَ إلقاؤُهُ في النارِ حتى يحترقَ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٧٠]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات:٩٨]. وهم والله الأخسرون الأسفلونَ، وكلُّ من عارَضَ الحقَّ فهوَ الخاسرُ، بلِ الأخسرُ، وهوَ الذليلُ، وهو السافلُ، بلِ الأسفلُ.

ولكنْ يا إخواني الباطلُ لهُ صولةٌ، فربما يُدارُ الباطلُ على الحقِّ امتحانًا واختبارًا، ولكنِ العاقبةُ للحقِّ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨] كلماتٌ عظيمةٌ كبيرةٌ، والقذفُ هوَ الرميُ بشدةٍ، ومعنى يدمغُه: يضربُ رأسَه ويمضي إلى أمِّ الدماغِ.

والفاءُ في (فإذا هوَ زاهقٌ) تدلُّ على الترتيبِ والتعقيبِ، و(إذا) للمفاجأةِ، تدلُّ على أنه بمجردِ ما وصلَ الحقُّ إلى الباطلِ أهلكه؛ فإذا هوَ زاهقٌ ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨].

ولكننا بَشرٌ، والبشرُ أصلُه ووصفُه العجلةُ؛ ونأخذُ هذا مِن قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:١١]، فهذا وصفُ الإنسانِ، وهذا أصلُ الإنسانِ، يحبُّ العجلةَ، وهذا هوَ الواقعُ، حتى لو كانَ الإنسانُ على خيرٍ فإن أصلَهُ من عَجلٍ ووُصفَ بالعجلةِ، وإلا فإنَّ الله تعالى يقولُ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨] فاصبرْ، فما دمتَ على حقٍّ فإن الحقَّ منصورٌ، يقولُ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونيةِ؛ القصيدةِ المشهورةِ في العقيدةِ[1]:

---

(١) الكافية الشافية (ص:١٧).

وَالحَـقُّ مَنْصُـورٌ وَمُمْـتَحَنٌ فَـلَا تَعْجَـبْ فَهَـذِي سُـنَّةُ الـرَّحْمَنِ

فلا بدَّ منِ امتحانٍ، فإذا صبرتَ ظفرتَ، وإنِ انخذلتَ فاتَكَ النصرُ وأدارَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بحكمتِه الباطلَ على الحقِّ.

في عهدِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في غزوةِ أحدٍ لما حصلَ منْ بعضِ الصحابةِ المخالفةُ أُديرَ الكفارُ على المسلمينَ، وحصلتِ المخالفةُ منَ الرماةِ، وهم خمسونَ رجلًا أقامهمُ النبيُّ ﷺ على ثغرٍ وقالَ: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**»(١)، فلما رأى هؤلاءِ الرماةُ المشركينَ قدِ انكشفُوا وانهزمُوا، وصارَ المسلمونَ يجمعونَ الغنائمَ؛ ظنوا أن المسألةَ قدِ انتهتْ، فنزلَ منهمْ مَن نزلَ ليشاركَ الناسَ في جمعِ الغنائمِ، وذكَّرهُم أميرُهم بقولِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ**» لكنهمْ أبَوْا ونزلُوا، ففطِنَ لذلكَ فرسانُ قريشٍ، ومنهمْ خالدُ بنُ الوليدِ فارسُ الإسلامِ، كانَ ذلكَ الوقت فارسَ قريشٍ، ومنهمْ عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ بطلٌ مِن أبطالِ المسلمينَ فيما بعدُ، وغيرُهم أيضًا منَ الخيَّالةِ، فطافوا مِن وراءِ الجبلِ ودخلُوا على المسلمينَ من ورائِهم، واختلطُوا بالمسلمينَ، وقُتلَ منَ المسلمينَ سبعونَ استُشهدوا في سبيلِ اللهِ.

وفي ذلكَ يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ**﴾ تسليةً منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٤٠] الله أكبرُ!

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه، رقم (٣٠٣٩).

الأمورُ بيدِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يداوِلُها بينَ الناسِ، مرةً لهذا ومرةً لهذا حتى يحكمَ اللهُ أمرَه وينتصرَ الحقُّ انتصارًا ممحصًا على الباطلِ.

وقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ تهنوا: بمعنى تضعفوا، في ابتغاءِ القومِ: أي في طلبِهم ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء:١٠٤] وهذه واللهِ تسليةٌ وتقويةٌ، فلا يظنَّ المسلمونَ إذا أصيبُوا بالجراحِ منَ الأعداءِ أن الأعداءَ لم يُصابوا، فالأعداءُ أُصيبوا، وربما يكونُ أكثرَ مِن إصابةِ المسلمينَ، لكنِ استمعْ ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ والفرقُ ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤]، هذا الفرقُ العظيمُ، ولهذا أجابَ المسلمونَ مَن قامَ ينتصرُ لقريشٍ في أحدٍ يقولُ: يومٌ بيومِ بدرٍ والحربُ سِجالٌ. يعني أنتمْ أيها المسلمونَ في بدرٍ أثختنُمونا قتلًا، ونحنُ في أحدٍ نُثخنُكم قتلًا، فهذا يومٌ بيومِ بدرٍ والحربُ سجالٌ؛ مرةً لهذا ومرةً لهذا؛ فأجيبَ: لا سَواءَ، قتلانا في الجنةِ وقتلاكُم في النارِ[1]. حقًّا، يومٌ بيومِ بدرٍ من جهةِ الأنفسِ، لكنْ فرقٌ عظيمٌ، قتلى الكفارِ في النارِ وقتلى المسلمينَ في الجنةِ.

الخلاصةُ: أنني أُرشدُ إخواني دعاةَ الحقِّ أن يَدعوا إلى اللهِ على بصيرةٍ، وألا ينتظرُوا أن يكونَ النصرُ يدًا بيدٍ، بلْ قد يتأخرُ، وقد يَبتلي اللهُ هذا الداعيَ هل يصبرُ أو لا يصبرُ. وكثيرٌ منَ الإخوةِ الدعاةِ يريدونَ أن يَنتصروا بينَ عشيةٍ وضُحاها، وهذا ليسَ منَ الحكمةِ.

ولينظُروا إلى أكبرِ داعيةٍ إلى اللهِ، وأقوى دعوةٍ إلى اللهِ: محمد رسولِ الله ﷺ كم

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٨٨).

مكثَ في مكةَ يدعو الناسَ؛ ثلاثَ عشْرةَ سنةً يدعو الناسَ، والإسلامُ أيضًا لم يَكمُلْ بعدُ، فلم يُفرضْ منَ الإسلامِ إلا التوحيدُ والصلاةُ، وباقٍ مِن أركانِه الزكاةُ والصيامُ والحجُّ، ومعَ ذلكَ لم يتقبلْ معظمُ قريشٍ هذهِ الدعوةَ، وكانتِ النهايةُ أنِ اجتمعوا ماكرينَ بالرسولِ؛ كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي يحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ يُزهقوا روحَك، ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ يعني من مكةَ، ثلاثةُ خياراتٍ، ولكنهمْ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، أذِنَ اللهُ لنبيِهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أن يَخرجَ من مكةَ -أحبِّ البلادِ إليهِ- إلى المدينةِ؛ ليقيمَ دولةَ الإسلامِ هناكَ، فخرجَ، وكانَ ﷺ يأذنُ لأصحابِه أن يهاجِرُوا إلى المدينةِ.

وكانَ أبو بكرٍ الصديقُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يستأذنُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أن يهاجرَ، ولكنِ النبيُّ ﷺ يمنعُه ويطلبُ منهُ الانتظارَ، وذلكَ فيما اتخذَ اللهُ تعالى لأبي بكرٍ منَ الكرامةِ، فلما أُذِنَ للرسولِ ﷺ بالهجرةِ أخبرَ رسولُ اللهِ ﷺ أبا بكرٍ بأن اللهَ أذنَ لهُ بالهجرةِ، وإنما أخبرَ أبا بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لأن أبا بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أحبُّ الناسِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ مِن كلِّ أحدٍ منَ المخلوقينَ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ الصحبةَ. قالَ: «**الصُّحْبَةَ**»(١). واللهِ هذا هوَ الفخرُ، لا فخر المالِ ولا الحسبِ ولا النسبِ، فهذا الفخرُ؛ أن يختارَ اللهُ لهذا الرجلِ الصالحِ الصديقِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يكونَ صاحبَ رسولِ اللهِ ﷺ في هجرتِه. وكمالُ ذلكَ معروفٌ في كتبِ التاريخِ.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتِهِ تتمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبينَا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع... رقم (٤٠٩٣).

الدرس الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٩].

نتناولُ قِصَّةَ إبراهِيمَ الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهو أَبُو الأَنْبياءِ، وهُوَ خَلِيلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَقَدِ اتَّخَذَهُ الله تعالى خليلًا، واتخذ نبينا محمدًا صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ خليلًا(١).

لَقَدْ أنكرَ إبراهِيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما كَانَ عليهِ أَبُوهُ وقومُهُ مِنْ عبادَةِ الأصنامِ. وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ دليلٌ على أن الَّذِي يَعبُدُ مَا لَا يَنْفَعُهُ ولا يضُرُّهُ ليس بعاقِلٍ؛ لأن العاقِلَ هو الَّذِي يُبْعدُهُ عقْلُهُ عن الشيءِ الضارِّ، ويدُلُّه على الشيءِ النافِعِ، فمَنْ عبدَ ما لَا يَنْفَعُهُ ولا يضُرُّهُ، فإنَّه لا عَقْلَ لَهُ.

وبهذا نَعْلَمُ أن عابِدِي القُبورِ، وعابِدِي الأولياءِ، والذِينَ يَطُوفُونَ بِقُبورِهِمْ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٥٣٢).

ويسألونَهُمْ قضاءَ حوائجِهِمْ، ويسألُونَهُم كَشْفَ ضُرِّهِمْ، لا شَكَّ أن هؤلاءِ ليسُوا بعُقلاءَ، وأنهم ظالمونَ غيرَ مُهْتدِينَ، وأن الهُدْى كُلَّ الهُدَى في عبادَةِ اللهِ وحدَهُ.

ثم لنتأَمَّلْ هـذَا الكلامَ القَـوِيَّ من إبراهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، ثم إنهُمْ يتواعَدُونَهُ بما قالُوهُ من أن يُحَـرِّقُوه بالنارِ: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:٦٨]، فجَمَعُوا حطَبًا عَظِيمًا، وأضْرَمُوا فيه نارًا عظِيمَةً، وألْقَوْا إبراهِيمَ الخَلِيلَ فيهِ.

ويُقال: إنَّهُم لم يتَمَكَّنُوا مِنَ القُرْبِ مِنَ النارِ لشِدَّةِ حرَارَتِهَا، ولكنهم وَضَعُوه فِي المَنْجَنِيقِ، ثم رَمَـوْهُ رَمْيًا في النارِ، فكانَ مِنْ ربِّ النارِ وخالِقِهَا -جلَّ ذِكْـرُه- أن جَعلَها بَرْدًا وسَـلامًا، قالَ اللهُ تعالـى: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٩]، فالنار المُحْرِقَةُ المُهلكَةُ الحَارَّةُ أمَرَهَا رَبُّهَا وخالِقُها وقالَ لها: كُونِي بَرْدًا وسَلَامًا، بَرْدًا ضِد الحرارَةِ، وسَلامًا ضِد الإحْرَاقِ والإهْلاكِ، فكانَتْ بَردًا وسلامًا عليه، بَردًا لم يُهلِكْهُ، وسَلامًا لم يَحْرِقْهُ.

قالَ أهْلُ العِلْمِ: لو قالَ اللهُ لهذِهِ النارِ كُونِي بَرْدًا ولم يَقُلْ سَلَامًا، لأهْلَكَتْهُ مِنْ بَرْدِهَا، ولكنَّ اللهَ تعالى ضَمِنَ ذلِكَ بقولِهِ: ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء:٦٩]، وبهذا يُعْرَفُ قُدْرَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنه علَى كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، وأن الأمـورَ بيدِهِ، وأن الأمـور ليسَ لها طبائعُ ذَاتِيَّة لا تَتَغَيَّرَ ولا تَتبدَّلَ، وإنما الذي أَوْدَعَ فيها تِلْكَ الطبائعَ هو خَالِقُها عَزَّوَجَلَّ، وأنه قادِرٌ على تَغْيِيرِ هذِه الطبائعِ.

ومن ذلِكَ ما حَدَثَ في قِصَّةِ موسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حينَ انْفَلَقَ البَحْرُ، وصارَ كلُّ فِرْقٍ كالطَّودِ العَظِيمِ.

ومن ذلك أيضًا ما ذُكِرَ عن سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما أتى الفُرْسَ، وفتح بلادَهَا بلَدًا بَلَدًا حتى وصَلَ إلى نهرِ دِجْلَةَ، ولكِنَّ الفُرسَ كَسَّروا الجُسُورَ، وأحْرَقُوا السُّفُنَ، وعبَرُوا النَّهْرَ، وتحَصنُّوا في عاصمتِهِمُ المَدائن، فلَمَّا أدركَ المسلمونَ أنه لا طاقَةَ لهُمْ بعبورِ النَّهْرِ، دَعَا سَعْدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سَلمانَ الفَارِسِيَّ، وقال له: أعطِنَا مَنْ تَخْطِيطِكَ للحَرْبِ؛ لأن سَلْمان هو الَّذِي أشَارَ عَلَى الرَّسولِ ﷺ بِحَفْرِ الخَنْدَقِ؛ ولأن سَلمانَ الفارِسِيَّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان عَالمًا وقَدِيرًا.

فَقَالَ لهُ سَلمانُ: يا سَعْدُ، دَعْنِي أنظُر في الجُندِ، فإن كانُوا أهْلًا لأن يَنْصُرَهُم اللهُ فإنَّ الذي فَلَقَ البحْرَ لموسَى، والذي جعَلَ النارَ بَرْدًا وسَلامًا على إبراهِيمَ، قادرٌ على أن يُيَسِّرَ لنَا عبورَ هذا النَّهرِ، ولكن دَعْنِي أنظر في حالِ الجُنْدِ.

فَذهَبَ سَلمانُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وجعَل ينظُرُ في جُندِ سَعْدِ بن أبي وَقَّاصٍ، حزْبِ الرحمَنِ، وجندِ القُرآنِ، فوجَدَ أنهُمْ يقُومونَ الليلَ يتعَبَّدُونَ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وفي النهارِ في شؤونِ الحَرْبِ، وما يَصلُح للحَرْبِ، فهم غُزَاةٌ في النهارِ، عُبَّادٌ في الليلِ، وجعَلَ يفتِّشُ فيهِمْ ثلاثَةَ أيامٍ، ثُمَّ رجَعَ إلى سَعْدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقالَ: إنِّي وجَدْتُهُم على أتَم ما يكونُ من عبادَةِ اللهِ وطاعَتِهِ، واتخاذِ القُوَّةِ، واتخاذِ العُدَّة، فَسِرْ بهِمْ على برَكَةِ اللهِ[1].

فقَالَ سعْدٌ لجُنْدِهِ: إني عَابرٌ هذَا النَّهْرَ، وإنِّي مُكَبِّرٌ ثلاثًا، فإذَا كَبَّرْتُ الثالثَةَ فاعْبُرُوا النَّهْرَ، فوقَفَ سعدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وكان مُجابَ الدَّعْوَةِ، وقَفَ عندَ النَّهْرِ وهو يقْفِزُ بزَبَدِهِ، ويجْرِي جَرْيًا عظِيمًا، فدَعَا اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ثم كَبَّرَ ثلاثًا، وتتابَعَ القومُ بخَيلِهِمْ وإبِلِهِمْ وعَبَرُوا على الماءِ وهو يجْرِي بقُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، حتى ذَكَرَ

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٩).

المؤرِّخُونَ أن الخَيلَ إذا ثَبَتَتْ أنشأ الله لها رَبْوَةً فوَقَفَتْ عليها حتَّى تَسْتَرِيحَ في هذا النهْرِ، وفي هذا دليلٌ عَلى قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأن الله ينْصُرُ من ينْصُرُه، وهو عَلَى كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ(١).

وقَدْ ذَكَر العُلماءُ أنَّ النَّارَ في ذلِكَ اليومِ -عندما أرادوا إحراقَ إبراهيمَ- في جَميعِ أقطَارِ الدُّنْيا كانَـتْ بارِدَةً لا تَغْلِي بِهَا القُدورُ، ولا يُخبزُ فيهَا الخُبْزُ، فكانَتْ بارِدَةً، وهذا قولٌ باطلٌ لا دَلِيلَ عليه، بلِ الدَّلِيلُ على خلافِهِ؛ لأن اللهَ تعالى يقولُ: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا﴾، ونارٌ نَكِرَةٌ مَقْصُودَةٌ، والنكِـرَةُ المقصودَةُ في حكْمِ العَلَمِ، فدَلَّ هذا على أن اللهَ إنما خاطبَ النَّارَ المُعينَّةَ التي أُلْقِيَّ فيها إبراهِيمُ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لا جميعَ النارِ، أما النَّارُ سِوَى هذه فإنها بَقِيَتْ عَلَى طَبِيعَتِهَا.

وإنَّما ذَكَرْنَا هذَا ليكونَ عِبْرَةً لنَا، حتى نكونَ آخِذِينَ بِما عليهِ الرُّسُلُ -عليهم الصلاة والسلام- من تَوفِيـقِ اللهِ، والدَّعْـوَةِ إليهِ، وأن نكونَ أقْـوياءَ في دِينِهِ، وأن نكونَ صُرَحاءَ، فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٢-٣].

فالإنسانُ كُلَّما قَوِيَ دِينُهُ، وكلما كان صُلْبًا في دِينِهِ فإنه يُبْتَلى على قدْرِ دِينِهِ، وعلى قدْرِ صلابَتِهِ في دِينِهِ، ولهذا انظُرُوا إلى أئمَّةِ أهلِ العِلْمِ من هذه الأُمَّةِ كيفَ ابْتُلُوا، وكيفَ عُذِّبُوا في دِينِ الله وهُمْ صابِرُونَ على ذلِكَ، يعتَقِدُونَ أنهم في جِهَادٍ مع أعداءِ اللهِ، وأنهـم ما دَامُوا على الحَقِّ فهم منْصُورونَ، ولكن يجِبُ أن نعلَمَ أن الإنسانَ

(١) المصدر السابق، الموضع السابق.

الذي يَدْعُو إلى اللهِ لا يَدْعُو إلى نَفْسِهِ، وإنما يدْعُو إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأن أَكْبَرَ هَمِّهِ أن يُنصَرَ دِينُ اللهِ دونَ النَّظَرِ إلى شخصِيَّتِهِ وذاتِهِ، وهكذا دَعْوَةُ الرُّسُلِ عليهم الصلاة والسلام، قالَ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

أما مَنْ أصابَهُ شيءٌ في سبيلِ الدَّعْـوَةِ إلى اللهِ؛ فَلَمْ يقْدِرْ، وعَثَرَ في دَعـوتِهِ، وتوَقَّفَ عنها، فَهُو في الحَقِيقَةِ إنَّما يدْعُو لنَفْسِهِ، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١]، ولكِنْ يجِبُ علينَا أن نَدْعُو إلى سَبيلِ اللهِ بالحِكْمَةِ، لا بالعُنْفِ ولا بالشِّدَّةِ، ولا بعَينِ العَورِ التِي لا تَرى الحَقَّ إلا مِنْ جانِبٍ واحِدٍ، فيجِبُ علينا أن نتَفكَّرَ وأن نتأمَّلَ، وأن نُنزِّلَ الأمورَ مَنازِلَها، وأن نَدْعُوَ الناسَ على حَسبِ ما يَليقُ بحَالِهِمْ، وعلى حَسَبِ ما يكونُ أَدْعى لقَبولِهِ، فليسَ العَالم كالجاهِلِ، وليسَ وَلِيُّ الأمْرِ كغيرِهِ، لِكُلٍّ مَنزِلَةٌ، والإنسانُ الحكيمُ هو الذي يُنزِلُ الناسَ منازِلَهُمْ.

يُذْكَرُ عَنِ الإمامِ أحمدَ رَحِمَهُٱللَّهُ أنه كانَ جَالسًا مَعَ صاحِبٍ له، فجاءَتْهُم امرأةٌ فقالَتْ: يا أبا عبدِ اللهِ، إن السُّلطان يَمُرُّ علينَا بأضْوائِهِ وأنوارِهِ، وإنَّه إذا مَرَّ بأضْوائِهِ وأنوارِهِ تزدَادُ حِياكَتُنَا، ويزدَادُ غَزلُنا، فهل يحِلُّ لنا ما يكونُ بهذِهِ الزيادَةِ؟

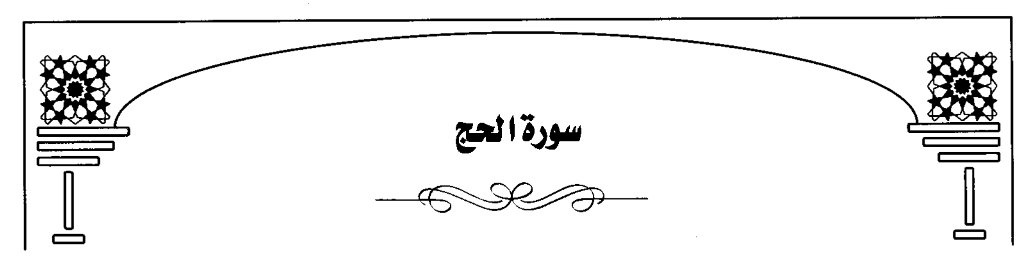
فقال الإمامُ أحمدُ: نَعَمْ، يَحِلُّ لكُمْ ما يكونُ بهذِهِ الزيادَةِ؛ لأنكم لم تَقْصِدُوا أنوارَ السُّلْطانِ لتتَقَوَّوْا بها. وكان السلاطِينُ في ذلك الوقتِ يأخُذُونَ أموالَ الناسِ بالباطِلِ، ويتَمَتَّعُون بها إلا مَنْ رَحِمَ اللهُ.

فقال لها رَحِمَهُٱللَّهُ: لا بأسَ عليكِ في هَذَا.

فلما وَلَّتِ المرأة قالَ الإمامُ لصاحِبه: مَنْ هذِهِ المرأةُ التي تَسأَلُ هذا السؤالَ الدَّقِيقَ؟ فقال: إنها أختُ إبراهِيمَ بنِ أدْهَمَ، وكان ابنُ أدهَمَ مَعْرُوفًا بالزُّهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فدَعَاهَا الإمامُ أحمَدُ وقالَ لها: لا تَفْعَلِي؛ فإنَّ الزُّهدَ خَرَجَ مِنْ بيتِكُمْ.

وبهذا عُرِفَ أن الإنسانَ قد يُفتِي بما يلِيقُ بحالِهِ، كما أنه يُدْعَى على حَسَبِ مَا يَلِيقُ بحالِهِ.





سورة الحج

الدرس الأول:

بِسْمِ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى إِمَامِ المُتَّقِينَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٣٩- ٤١].

والآذِنُ فِي الآياتِ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لَكِنَّه لم يُذْكَرْ للعِلْمِ به؛ كما فِي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، فَالخَالِقُ هُوَ اللهُ، لَكِنْ حُذِفَ للعلمِ به.

وَمَعْنَى الآيةِ أَنَّ اللهَ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ ظُلْـمًا أَنْ يُقاتِلوا دِفاعًا عن دِينِـهم وأنفسِهم؛ لأنهم مظلومون، والظلمُ يجِبُ أَنْ يُزَالَ، وللمظلومِ أَنْ يَدْفَعَ الظلومَ بِقَدْرِ مَا يستطيعُ، ويجوزُ للمظلومِ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى ظالِمِه بمثلِ مَا ظَلَمَهُ به، والدَّليلُ عَلَى هَذَا قولُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ لمعاذِ بْنِ جَبَلٍ حين بَعَثَه إِلَى اليمنِ: «**وَاتَّقِ**

دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[١].

فالمظلومُ ولو كَانَ كافـرًا إِذَا دَعَا اللهَ اسْتَجَابَ له، لَا لِقَدْرِه عِنْدَ اللهِ، وَلَكِنْ لِأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يُحِبُّ الظَّالمين، وَهُوَ عَدْلٌ عَزَّوَجَلَّ يَقْضِي بَيْنَ عِبَادِهِ بالعدلِ فِي الدُّنْيَا والآخرةِ، فاتَّقِ دعوةَ المظلومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حجابٌ.

وَمِنْ هُنَا أُحَذِّرُ إخوانَنَا الَّذِينَ عَلَيْهِمْ حقوقٌ للعمالِ أَنْ يَهْضِمُوا حقوقَهم أو أَنْ يُماطِلُوا فِيهَا، كأَنْ يَتَّفِقُوا مَعَهُمْ فِي بلادِهِمْ عَلَى عقدٍ معينٍ ثُمَّ إِذَا جَاؤُوا أَخْلَفُوا العقدَ، واللهُ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:١]، ويقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٤].

فللعاملِ المظلومِ حَقٌّ فِي أَن يَدْعُوَ عَلَيْهِمْ بما يَسْتَحِقُّونَ، وَاسْمَعْ إِلَى قَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الحديثِ القُدُسِيِّ: «**ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ**»[٢]، ومعنى «**أَعْطَى بي**»: يَعْنِي أعطى العهدَ بي، فَقَالَ: أُعَاهِدُكَ باللهِ. ثُمَّ غَدَرَ بِالعَهْدِ، فَهَذَا يخاصِمُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: «**ورَجُلٌ باع حُرًّا فأَكَلَ ثَمَنَهُ**» أي: اسْتَوْلَى عَلَيْهِ وَبَاعَهُ وَأَكَلَ ثَمَنَهُ، ومن ذَلِكَ مَا نَسْمَعُهُ عَنْ بَعْضِ الناسِ فِي بعضِ البلادِ، وَهُوَ أَنْ يبيعَ الرجلُ ابْنَهُ أو ابْنَتَهُ ثُمَّ يأكل ثَمَنَهُ، فَهَذَا يكونُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ خَصْمَهُ يومَ القيامةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٢٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب إثم مَن منع أجر الأجير، رقم (٢٢٧٠).

والثالثُ، وَهُوَ الشاهدُ: «**وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ حَقَّهُ**». وَمَعْنَى اسْتَأْجَرَ أجيرًا: أَتَى إِلَى عاملٍ وقال له: يا فلانُ أَصْلِحْ لي هَذَا. فَأَصْلَحَهُ لَهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ، فَهَذَا خَصْمُهُ يومَ القيامةِ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ومَن كَانَ اللهُ خَصْمَه يَوْمَ القيامةِ فَهُوَ المغلوبُ بِلَا شَكٍّ، فَاحْذَرْ أَنْ تستأجرَ أجيرًا وتَسْتوفِيَ مِنْهُ ثُمَّ لَا تُعْطِيه حَقَّهُ.

ومن ذَلِكَ أَنْ يَبِيعَ شخصٌ لآخَرَ سلعةً بثمنٍ ثُمَّ يُماطِلُ المشتري، فَهَذَا ظَالِمٌ؛ لقولِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ**»[1]، فَهَذَا المماطِلُ الَّذِي الَّذِي يستطيعُ الوفاءَ لن يستفيدَ مِن مَطْلِهِ شَيْئًا إِلَّا الظلمَ وكسبَ الآثامِ؛ لِأَنَّهُ سوف يُوَفِّي الحقَّ إن عَاجِلًا أو آجِلًا، فَلَا فائدةَ فِي المماطلةِ، والمماطلةُ تُلْحِقُ الضررَ بالاقتصادِ؛ لِأَنَّ الأغنياءَ إِذَا باعوا شَيْئًا وماطَلَ فِيهِ المشترونَ ضَعُفَتْ هممُهُمْ في إيرَادِ السلعِ؛ لِأَنَّ أموالَهم تكونُ قَدْ ذَهَبَتْ بِذَلِكَ.

ونعودُ للآيةِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. لمَ قال: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ بفتحِ الهمزةِ، وقال هنا: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ بِكَسْرِها؟

نقولُ: فُتِحَتِ الهمزةُ الأولى لأنها حَلَّت مَحَلَّ مَصْدَرٍ، وَقَدْ قَالَ ابنُ مالكٍ فِي أَلْفِيَّتِهِ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحوالات، باب الحوالة، وهل يرجع في الحوالة؟ رقم (٢١٦٦)، ومسلم: ومسلم: كتاب المُسَاقَاة، باب تحريم مطل الغني، وصحة الحوالة، واستحباب قبولها إذا أحيل على مَلِيٍّ، رقم (١٥٦٤).

وَهَمْــزَ إِنَّ افْــتَحْ لِسَــدِّ مَصْــدَرِ مَسَــدَّهَا وَفِي سِــوَى ذَاكَ اكْسِـــرِ[1]

أَمَّا الثانيةُ فَهِيَ معطوفةٌ عَلَى مَا سَبَـقَ، لَكِنْ وَجَبَ كَسْرُهَا لوقـوعِ اللامِ فِي خَبرِهَا، وذلك في قولِه: ﴿لَقَـدِيرٌ﴾، وَإِذَا وَقَعَتِ اللامُ فِي خَبرِ (إِنَّ) أو اسْمِهَا وَجَبَ كَسْرُهَا.

فالقاعدةُ إذن: يَجِبُ فَتْحُ همزةِ (إِنَّ) إِذَا حَلَّت مَحَلَّ المصدرِ، وَيَجِبُ كسرُها فِي مواضعَ؛ منها: أَنْ تقـترنَ اللامُ بخبرِها أو اسمِها أو معمولِها، أي معمـولِ الاسمِ أو الخبرِ.

وقولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَـدِيرٌ﴾ أي: مهما كَانَتِ الأمورُ فاللهُ تَعالَى عَلَى نَصْرِهم قديرٌ، كما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ [محمد:٤] أي: بكلمـةٍ واحدةٍ، وَهِيَ أَن يزلزلَ بهم الأرضَ فيكونوا فِي جوفِها، أو أَن يدمرَ أسلحتَهم بأيِّ وسيلةٍ، فتنزلَ عَلَى ثَكَنَاتِهِمْ وعَلَى الترساناتِ شُهُبٌ مِنَ السماءِ فتحرقَها، أليس ذَلِكَ مُمْكِنًا؟! بلى، وَلَكِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٍ﴾ [محمد:٤].

قولُه تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ أي: بظلمٍ ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، فهل قولهم: رَبُّنَا اللهُ يُحِقُّ لَهُمْ أَن يُخْرِجُوهُمْ مِن ديارِهِمْ؟! وَهَذِهِ الآيَةُ مِن بابِ تأكيدِ المدحِ بما يُشْبِهُ الذمَّ، ويجوزُ أَن نقولَ: هِيَ مِن بابِ تأكيدِ المدحِ بالنسبةِ للمُخْرَجِينَ، وبالنسبةِ للمُخْرِجِينَ هِيَ مِن بابِ تأكيدِ الذمِّ بما يشبهُ المدحَ.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ﴾ استثناءٌ منقطعٌ.

---

(١) شرح ابن عقيل (١/ ٣٥٠).

عَلَى أيِّ حالٍ هَؤُلَاءِ أُخْرِجُوا مِن ديارِهم لقولِهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، فحين وَحَّدوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَخْرَجَهم الملحدون.

وَهَذِهِ الآيةُ تُمَثِّل مَا يحدثُ لإخوانِنَا فِي الشيشانِ مِن قِبَلِ الروسِ، فالروسُ الملاحدةُ الَّذِينَ لَا يعترفون بربٍّ قَاتَلُوهُمْ وَأَخْرَجُوهُمْ مِن ديارِهِمْ لأنهم رَأَوْا أَنَّهُمْ رَكِيزَةٌ للإسلامِ الخالصِ، فخافوا منهم. وَأَهْلُ الكفرِ يخافون مِن الْمُسْلِمِينَ حَقًّا، لَا رَسْمًا واسْمًا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»[1]، فَمَن كَانَ مِن أَهْلِ الإسلامِ وحِزْبِهِ فَلَا بُدَّ أَن يُرْعَبَ مِنْهُ عَدُوُّه، شريطةَ أَن يكونَ إسلامُه خَالِصًا.

ولقد علمنا أَنَّ الدولَ الغربيةَ قالت حينما تمزق الاتحادُ السوفيتيُّ: لقد اسْتَرَحْنَا مِنَ الدُّبِّ الأحمرِ والشيوعيين وَلَمْ يَبْقَ أَمَامَنَا سُوَى الإسلامِ. لأنهم يعلمون عِلْمَ اليقينِ أَنَّ الإسلامَ لو رَجَعَ كما كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وخلفائِه لَأَزَالَهُمْ عن عُرُوشِهِمْ، ولَأَعْطَوا الجزيةَ عن يَدٍ وهم صَاغِرُونَ، فهم يعلمون هَذَا، ونحن نؤمنُ بِذَلِكَ.

فهؤلاء الروسُ الملاحدةُ لَمَّا رَأَوْا هَذِهِ البذرةَ الصالحةَ تَسْرِي فِي الجمهورياتِ الأُخْرَى لم يُطِيقوا الصبرَ عَلَى هَذَا، فقاموا عَلَيْهِمْ بغزوٍ مكثفٍ، مَعَ أَنَّ الاتحادَ السوفيتيَّ -حسبما نسمعُ- مُدَمَّرٌ اقتصاديًّا، فهم يَموتون مِن الجوعِ، لَكِنْ كأَنَّ قائلَهم يقولُ: لِنَمُتْ جُوعًا للقضاءِ عَلَى الإسلامِ؛ لِأَنَّ دولةَ الشيشانِ -كَمَا سَمِعْنَا مِنْ أفواه مَسْؤولِيهم خِلَالَ أوقاتِ الحجِّ وَكَمَا سَمِعْنَا مِنَ الأخبارِ- حريصةٌ جِدًّا عَلَى تطبيقِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١).

الشريعةِ الإسلاميةِ، لكنَّ أُمَّةً استولى عَلَيْهَا الشيوعيون الحمرُ المُلْحِدونَ ثَلاثَ مئةِ سنةٍ أو أكثرَ لَا يُمْكِن أَن تَنْقَلِبَ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وضحاها إِلَى إسلامٍ خالصٍ، فَلَا بُدَّ مِن تَدَرُّجٍ، إِلَّا أَنَّ هَؤُلَاءِ الملحدين لَمَّا رَأَوْا الناسَ مُقْبِلِينَ عَلَى الإسلامِ، دينِ الفطرةِ، خَافُوا منه، فَسَطَوْا هَذِهِ السطوةَ الَّتِي نَرْجُو اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي هَذَا المقامِ الشريفِ أَن تكونَ نَكْسةً عَلَيْهِمْ، ونَسْأَلُ اللهَ أَن يُبْدِلَهُمْ بعدَ القوةِ ضَعْفًا، وَبَعْدَ العِزِّ ذُلًّا، وَبَعْدَ الاجتماعِ تَفَرُّقًا، وَبَعْدَ الأُلْفَةِ عَداوةً وبَغْضاءَ، وَبَعْدَ الاستكبارِ اندحارًا، إنه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ، وما ذَلِكَ عَلَى اللهِ بعزيزٍ.

فعَلَيْنَا أَن نُكْثِرَ مِنَ الدعاءِ للهِ عَزَّوَجَلَّ أَن يُثَبِّتَ أقدامَ إخوانِنَا فِي الشيشانِ، وَأَنْ يُصَبِّرَهم ويَنْصُرَهم، وأَنْ يُدَمِّرَ الروسَ ومَن شَايَعَهم، وأُوصِيكُمْ بِكَثْرَةِ الدعاءِ فِي هَذَا الشهرِ المباركِ، وَفِي هَذَا المكانِ المباركِ، وَفِي هَذِهِ الليلةِ ليلةِ الجمعةِ وغَيْرِها أَن تُكْثِروا مِنَ الدعاءِ عَلَى الروسِ ومَن شَايَعَهُم؛ لِأَنَّ الكفرَ مِلَّةٌ واحدةٌ ضِدَّ الإسلامِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة:١١٣] يَعْنِي عَلَى شَيْءٍ مِن الدِّينِ.

فكُلُّ طائفةٍ ضِدَّ الأُخْرَى وتَسْلُبُ الإيمانَ والإسلامَ عَنِ الأُخْرَى، لكن كِلْتَا الطائفتين يَدٌ واحدةٌ مُقابِلَ المُسْلِمِينَ، وَاسْمَعْ قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١] أي أولياءُ بَعْضٍ ضِدَّ المُسْلِمِينَ.

إِذَنْ هَذِهِ الآيةُ، وَهِيَ قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ تنطبقُ اليومَ عَلَى إخوانِنَا فِي الشيشانِ، نَرْجُو مِنَ اللهِ أَنْ يُعَجِّلَ لَهُمْ بِالنَّصْرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، جملةُ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾، مُؤَكَّدةٌ بِمُؤَكِّدَاتٍ؛ باللامِ، وَهَذِهِ اللامُ يُسَمِّيها النَّحْويون لامَ القَسَمِ، يَعْنِي أنها مُوَطِّئَةٌ للقَسَمِ، والتقديرُ: واللهِ لَيَنْصُرنَّ اللهُ، ومُؤَكَّدَةٌ أيضًا بنونِ التوكيدِ، والشرطِ.

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧].

والجملةُ الشرطيةُ تستلزمُ إِذَا تَخَلَّفَ الشرطُ أَنْ يَتخَلَّفَ المشروطُ، يَعْنِي: إِنْ لَمْ تَنْصُرُوا اللهَ فَلَنْ يَنْصُرْكُمْ، ويكونُ نصرُ اللهِ بما جاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾.

وَقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، أي: قَوِيٌّ لَا يَضْعُفُ وَلَا يَذِلُّ سُبْحَانَهُ، وَلَا يمكنُ أَن يُصادِمَ قُوَّتَهُ شَيْءٌ مِن القُوَى، ولما قالت عادٌ وَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي الأرضِ: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥] قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وتَأَمَّلِ التعبيرَ القرآنيَّ، فلم يَقُلْ عَزَّوَجَلَّ: إِنَّ اللهَ أَشَدُّ منهم قوةً، ولَكِنْ قَالَ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]؛ لِأَنَّهُ مِن المعروفِ أَنَّهُمْ إِذَا كانوا مَخْلُوقِينَ للهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يكونَ الخالقُ أَقْوَى. وَقَدْ عذَّبَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِأَلْطَفِ الأشياءِ، وَهِيَ الريحُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: غَالِبٌ، يقولُ الشاعرُ[1]:

أَيْنَ المَفَرُّ وَالإِلَهُ الطَّالِبُ ... وَالأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الغَالِبُ

(١) هو نُفَيْل بن حَبِيب، انظر الروض الأنف للسهيلي (١/ ١٥٤).

ولما قَالَ المنافقون: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، يَعْنُونَ بِالأَعَزِّ أَنْفُسَهُمْ، وَبِالأَذَلِّ الرَّسُولَ ﷺ والمُؤْمِنِينَ، كَانَ جوابُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨]، لم يَقُلْ جَلَّوَعَلَا: واللهُ أَعَزُّ منهم والرَّسُولُ والمُؤْمِنُونَ؛ وذلك لِأَنَّ اسمَ التفضيلِ يَقْتَضِي اشتراكَ المفَضِّلِ والمفَضَّلِ عَلَيْهِ فِي الصِّفَةِ، فكأنه عَزَّوَجَلَّ قال: إِنَّهُ لَا عِزَّةَ لِلْمُنَافِقِينَ، بَلِ العزةُ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

إِذَنْ قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ يُطَمْئِنُ المؤمنَ، فَما دَامَ يؤمنُ بأَنَّ اللهَ قويٌّ عَزيزٌ فَإِنَّهُ سيثقُ بأَنَّ اللهَ يَنْصُرُه، شَرِيطَةَ أَنْ يكونَ مِنَ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

فَهَذِهِ أربعُ صفاتٍ يَجِبُ توافُرُها فيمن يَنْصُرُه اللهُ، وَهَذِهِ الصفاتُ الأربعُ يَجِبُ أَن تكونَ مسبوقةً بصفةٍ تَنْبَنِي عَلَيْهَا، وَهِيَ التوحيدُ، كما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور:٥٥].

لِأَنَّهُ مَن لم يُوَحِّدِ اللهَ فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ منه، حَتَّى ولو صَلَّى وصَامَ وزَكَّى وتَصَدَّق، فمن ذَهَبَ إِلَى قبرٍ مِن القبورِ الَّتِي يُدَّعَى أَنَّ صَاحِبَها مِن أولياءِ اللهِ وقَالَ: يا سَيِّدِي إِنِّي فَقِيرٌ، اجْلِبْ لِي مالًا، يا سَيِّدِي لي مَعَ زَوْجَتِي عَشْرُ سِنِينَ مَا جِئْنَا بِوَلَدٍ فَاجْلِبْ لِي ولدًا. وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يشهدُ أَن لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَأَنْ محمدًا رسولُ اللهِ، ويقيمُ الصلاةَ ويتهجدُ فِي الليلِ ويتصدقُ بالمالِ ويصومُ ويحُجُّ، فإِنَّه لَا يُقْبَلُ مِنْهُ ذلك.

ونسمعُ أَنَّهُ يوجدُ فِي بعضِ البلادِ مَن يَعْكُفُونَ عَلَى القبورِ ويأتونَ إِلَى أصحابِها فيسألونهم، فهؤلاء مهما عَمِلُوا مِن الأعمالِ الصالحةِ فَهُم غَيْرُ مقبولٍ منهم، بل مردودٌ عَلَيْهِمْ، وَلَا ينفعُهم؛ لأَنَّهُمْ مشركون.

إِذَنْ: لَا بُدَّ مِن التوحيدِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَعْنِي أَتَوْا بها مستقيمةً حسبَ صَلَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ؛ لِأَنَّهُ لَا هَدْيَ أكملُ وَلَا أقومُ مِن هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ، فيجبُ أَن يَأْتُوا بها عَلَى الصفةِ الَّتِي صَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ بها.

وَلِهَذَا يجبُ عَلَيْنَا أَن نعلمَ كيف كَانَتْ صَلاةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ حَتَّى نصليَ كَمَا صَلَّى، لَا أَن نُصَلِّيَ كما يُصَلِّي عامةُ الناسِ.

فلَا بُدَّ أَنْ نَقرَأَ مِن السُّنَّةِ مَا يتعلقُ بصفةِ صلاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ حَتَّى نعبدَ اللهَ عَلَى شريعةِ اللهِ، فمن لم يُصَلِّ الفجرَ إِلَّا إِذَا قام للعملِ، لم يُقِمِ الصلاةَ؛ لِأَنَّهُ تَعَمَّدَ أَنْ يصليَ بعد الوقتِ، وكُلُّ إنسانٍ يتعمدُ أَن يصليَ بَعْدَ الوقتِ بِدُونِ عُذْرٍ شَرْعِيٍّ فلن يقبلَ اللهُ منه، وأي إنسانٍ يُخْرِجُ عبادةً مُؤَقَّتَةً عَنْ وَقْتِها المحددِ شَرْعًا بلا عُذْرٍ فَعِبَادَتُه مردودةٌ مهما قَوَّمها.

فإن قَالَ قائلٌ: مَا دليلُك عَلَى هذا؟ وكيف تَرُدُّ عبادةَ عِبَادِ اللهِ؟

قلتُ: دليلي عَلَى هَذَا قولُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1]. فكلمةُ عَمَل نكرةٌ فِي سياقِ الشرطِ، فتُفِيدُ العمومَ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إِذَا اصطلحوا عَلَى صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

فأيُّ عملٍ تَعْمَلُه عَلَى خلافِ مَا جَاءَ عن الرَّسُولِ فَإِنَّهُ مردودٌ.

فلو قال سائلٌ: كنت لَا أصومُ رمضانَ حينما كنتُ فِي زَمَنِ المراهقةِ، وَقَدْ بلغتُ، فماذا أفعلُ؟ أَأَقْضِيهِ اليومَ أم لَا؟

فجوابُنَا: لَا تَقْضِهِ؛ لأنك لو قَضَيْتَه مَا قُبِلَ منك، فيكونُ قضاؤُكَ له عذابًا لَكَ، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء:١٤٧]، فعليه أَن يُحْسِنَ التوبةَ ويُكثرَ مِن العملِ الصالحِ وَكَفَى.

وآخَرُ يسألُ فَيَقُولُ: إنَّه بَعْدَ أَنْ بَلَغَ كَانَ لَا يُصَلِّي، ويتركُ الصلاةَ عَمْدًا بلا عُذْرٍ، وَهُوَ لَا يَدْرِي كم صلاة تَرَكَ؟ فماذا يصنعُ؟

فجوابُنَا: لَا يَصْنَعُ شَيْئًا إِلَّا التوبةَ، فلَا يَلْزَمُهُ أَن يقضيَ الصلواتِ الماضيةَ؛ لِأَنَّهُ لو قضاها فَهِيَ مردودةٌ عليه، نقولُ هَذَا لِأَنَّ معنا كلامَ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**».

إِذَنْ نقولُ لِهَذَا: أَكْثِرْ مِنَ الأعمالِ الصالحةِ والتوبةِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا شَيْءَ عليك، وَهَذِهِ قاعدةٌ فِي كُلِّ عبادةٍ مُوَقَّتَةٍ: إِذَا أَخْرَجَها الإنسانُ عن وَقْتِها المحددِ شَرْعًا بلا عُذْرٍ فَهِيَ غَيْرُ مقبولةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أَعْطُوهَا لِمُسْتَحِقِّيهَا، والزكاةُ نصيبٌ قليلٌ مِن أموالٍ مُعَيَّنَةٍ يجبُ عَلَى الإنسانِ أَن يُخْرِجَهُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحكمتِه وَعِلْمِهِ جَعَلَ أَهْلَ الزكاةِ أَصْنَافًا، وَهُوَ الَّذِي عينهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ

وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٦٠].

إِذَنِ المستحقون للزكاةِ ثمانيةُ أصنافٍ، وهَذِهِ الأصنافُ هِيَ الَّتِي يجبُ أَن تُؤَدَّى الزكاةُ إليها، فَلَا يجوزُ أَن نَتعَدَّاها وَلَا أَنْ نَصْرِفَ الزكاةَ فِي غَيْرِهَا.

فلو أَرَادَ الإنسانُ أَنْ يصرفَ زكاتَهُ فِي بناءِ المساجدِ فلَا يجوزُ، ولو أَرَادَ أَنْ يصرفَهَا فِي إصلاحِ الطرقِ فلَا يجوزُ، ولو أَرَادَ أَنْ يصرفَها فِي شراءِ الكتبِ لطلابِ العلمِ فلَا يجوزُ، إِلَّا لطالبٍ فقيرٍ محتاجٍ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يُعْطِيَه مِن الزكاةِ ليشتريَ كتابًا يحتاجُ إليه؛ لِأَنَّ احتياجَ طالبِ العلمِ إِلَى الكتبِ كاحتياجِه إِلَى اللباسِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦٠]، أي فَرَضَ اللهُ عَلَيْنَا أَن نُؤَدِّيَ الزكاةَ لهؤلاء فَقَطْ، وَهَذِهِ الفريضةُ مَبْنِيةٌ عَلَى علمٍ وحِكْمةٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠]، والمَقَامُ مَقَامُ تَشْرِيعٍ، فكَانَ الاسمُ المناسبُ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

وقَالَ اللهُ تَعَالَى فِي المحَارِبِينَ الَّذِينَ يَسْعَوْن فِي الأرضِ فسادًا ويحاربونَ اللهَ ورسولَه: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣-٣٤] وَإِذَا عَلِمْنَا هَذَا لَزِمَ مِنْهُ أَنْ مَنْ تَابَ منهم قَبْلَ أَنْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يُسَامَحُ، ليس عَلَيْهِ شَيْءٌ.

وَقَرَأَ رَجُلٌ قولَ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨] وقال فِي آخرها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. فَسَمِعَه أَعْرَابِيٌّ، لَكِنَّهُ ذَكِيٌّ، فَقَالَ لَهُ: اقْرَأِ الآيةَ. فقَرَأَهَا كما قَرَأَهَا أَوَّلَ مرةٍ، فقال له: اقْرَأْهَا الثالثةَ، فَقَالَ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فَقَالَ له: الآنَ أَصَبْتَ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عَزَّ وحَكَمَ فقَطَعَ، ولو غَفَرَ وَرَحِمَ، مَا قَطَعَ[1].

فانظرْ إِلَى فَهْمِ الأعرابيِّ، فأحيانًا يكونُ الأعرابيُّ أَفْهَمَ مِنَ المدنيِّ.

وسَمِعَ أعرابيٌّ رَجُلًا يَقْرَأُ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢]، فعَرَفَ أَن هُناكَ بَعْثًا، أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿زُرْتُمُ﴾. فَقَالَ: إن الزائرَ غَيْرُ مُقِيمٍ.

وَهَذَا الاستنباطُ صحيحٌ؛ لأننا نَمْكُثُ فِي القبورِ مَا شاءِ اللهُ ثُمَّ بعد ذَلِكَ البعثُ، وَلِهَذَا لَا يَصِحُّ أَن يقالَ -كما نَسْمَعُ مِن بَعْضِ الناسِ- فِي الرجلِ إِذَا ماتَ: إنه انْتَقَلَ إِلَى مَثْوَاهُ الأخيرِ. فَهَذَا غَلَطٌ، ولو اعتقدَ قائلُ هَذَا الكلامِ مَعْنَاهُ لكانَ كافرًا بالبعثِ؛ لأننا إِذَا جَعَلْنَا القبورَ هِيَ المَثْوَى الأخيرَ فَمَعْنَاهُ أَنَّنَا نَنْفِي البعثَ؛ لِأَنَّ المَثْوَى الأخيرَ إِمَّا أَنْ يكونَ فِي الجنةِ أو النارِ، أما القبورُ فالمسألةُ مُؤَقَّتَةٌ. فَاجْتَنِبُوا هَذِهِ الكلمةَ كلمةَ: مَثْوَاهُ الأخير، وَنَبِّهُوا غَيْرَكُم، فَبَعْضُ الناسِ يَتَلَقَّى الكلماتِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهَا.

كذلك قولُ بعضِهم: اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَسْأَلُكَ رَدَّ القضاءِ، ولَكِنْ أَسْأَلُكَ اللُّطْفَ

---

(١) الدر المصون، للسمين الحلبي (٣/ ٨٧).

فيه. فَهَذَا الدعاءُ تشْعُرُ أَنَّ فِيهِ نَوْعًا مِن التحدِّي، يَعْنِي كأنه يقولُ: يا رَبِّ لا يُهِمُّنِي لَكِن خَفِّفْ مَا وَقَعَ بي، مَعَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ القضاءَ إِلَّا الدعاءُ، فَكَمْ مِنْ أسبابٍ انْعَقَدَتْ وَبالدُّعَاءِ ارْتَفَعَتْ، فَلَا يَصِحُّ أَن يقالَ هَذَا، بل قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العافيةَ، اللَّهُمَّ اشْفِنِي مِنَ المرضِ، اللَّهُمَّ هَيِّئْ لي كذا وكذا، أما قولُكَ: إِنِّي لَا أَسْأَلُكَ رَدَّ القضاءِ ولَكِنْ أَسْأَلُكَ اللُّطْفَ فيه، فَلَا يستقيمُ هَذَا إطلاقًا.

عَلَى كلِّ حالٍ، هُنَاكَ كلماتٌ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَأَمَّلَها ثُمَّ نُنبِّه غَيْرَنَا إليها حَتَّى لَا يَقَعُوا فِي الشركِ اللفظي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ مِن أوجبِ الواجباتِ، ومِنْ خَصَائِصِ هَذِهِ الأمةِ أنها تأمُرُ بالمعروفِ وَتَنْهَى عن المنكرِ، كما قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي حقها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠].

وَلِهَذَا فُضِّلَتْ هَذِهِ الأمةُ -والحمدُ للهِ- عَلَى سائرِ الأممِ بأنها تأمُرُ بالمعروفِ وَتَنْهَى عن المنكرِ، عَلَى خِلَافِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ بنو إسرائيلَ، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

وهنا مسائلُ، وَهِيَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَنَا أَن نعرفَ مَا هُوَ المعروفُ وما هُوَ المنكرُ؟ فالمعروفُ: هُوَ كلُّ مَا أَمَرَ اللهُ به ورسولُهُ، كالصلاةِ والصدقةِ والصيامِ والحجِّ وبرِّ الوالِدَيْنِ وصِلَةِ الأرحامِ وإطعامِ الجائعِ وكسوةِ العاري، فكُلُّ مَا أَمَرَ اللهُ به ورسولُه

فَإِنَّهُ معروفٌ، وَهَذِهِ قاعدةٌ لَا تَنْخَرِقُ. والمنكرُ عَكْسُ هَذَا، ونقولُ فِي تعريفِه: كُلُّ مَا نَهَى اللهُ ورسولُه عنه فَإِنَّهُ منكرٌ وغَيْرُ مقبولٍ، وَلَا يجوزُ إقرارُهُ، كالشركِ وقَتْلِ النفسِ بِغَيْرِ حقٍّ واللواطِ والغِشِّ والكَذِبِ... وهَكَذَا، فكُلُّ مَا نَهَى اللهُ عنه فَإِنَّهُ منكرٌ.

والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ واجبٌ عَلَيْنَا؛ لقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

قَالَ بعضُ أَهْلِ العلمِ: إِنَّهُ فَرْضُ عَيْنٍ، والصَّحيحُ أَنَّهُ فرضُ كفايةٍ، فَإِذَا رَأَيْنَا مَنْ أَمَرَ بالمعروفِ ونَهَى عن المنكرِ عَلَى الوجهِ التامِّ لَمْ يَجِبْ عَلَيْنَا أَنْ نَأْمُرَ بالمعروفِ ونَنْهَى عن المنكرِ؛ لِأَنَّهُ تحصيلُ حاصلٍ، فلو أَنَّ رَجُلَيْنِ رَأَيَا شَخْصًا عَلَى منكرٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا له: اتْرُكْ هَذَا. وَنَهَاهُ، فَلَا يحتاجُ الثاني أَن يَنْهَى؛ لِأَنَّهُ حَصَلَتِ الكفايةُ بالأولِ، لَكِنْ لو فَرَضْنَا أَنَّ المُخاطَبَ الَّذِي قام بالمنكرِ لم يَنْتَهِ عنه بَعْدَ نَهْيِ الأولِ له، وهَانَ المنكرُ فِي قَلْبِه، فحِينَئِذٍ يجبُ عَلَى الثاني أَنْ يَنْهَاهُ عَنِ المنكرِ، وَهَذَا مَعْنَى قولِنَا: فَرْضُ كفايةٍ، أي إِذَا قَامَ به مَن يَكْفِي سَقَطَ عَنِ الآخَرِينَ.

وَهُنَاكَ شروطٌ لوجوبِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ:

الشَّرْطُ الأولُ: أَنْ يكونَ عَالِمًا بالمعروفِ، أي: عَالِمًا بأَنَّ هَذَا مِمَّا أَمَرَ اللهُ به، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عالمًا لم يَجُزْ أَنْ يأمُرَ به؛ لِأَنَّهُ جاهلٌ، فَقَدْ يَأْمُرُ بِشَيْءٍ ليس مأمورًا به، وَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا مِن ذَوِي الغيرةِ العوامِّ، فتجدُ العَامِّيَّ يَأْمُرُ بِشَيْءٍ غَيْرِ مأمورٍ به، بل رُبَّمَا يكونُ مَنْهِيًّا عنه، وذلك لِأَنَّهُ لا يَعْلَمُ. فَلَا يجوزُ أَنْ تَأْمُرَ بِشَيْءٍ إِلَّا وَأَنْتَ تَعْلَمُ أو يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّكَ بمُقْتَضَى الأدلةِ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِهِ وَرَسُولُهُ، فَلَا تَأْمُرْ بِشَيْءٍ لَا تَعْلَمُهُ فتَضِلَّ وتُضِلَّ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: العلمُ بِأَنَّ هَذَا منكرٌ فِي حَقِّ الفاعلِ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ قد يكونُ مُنْكَرًا فِي حَقِّ شَخْصٍ ومباحًا فِي حَقِّ آخرَ، أَرَأَيْتُمْ أَكْلَ الميتةِ، حَرَامٌ هُوَ، لَكِنْ إِذَا كَانَ هُنَاكَ شَخْصٌ مضطرٌّ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِن أَكْلِ الميتةِ وإلا مَاتَ، كان أَكْلُ الميتةِ لَهُ حلالًا.

إِذَنْ، إِذَا رَأَيْنَا شخصًا يأكُلُ ميتةً فإننا لَا نُنْكِرُ عَلَيْهِ حَتَّى نَعْرِفَ أَن ذَلِكَ مُنْكَرٌ فِي حقِّه، فنقولُ له: لِمَ تَأْكُلُ الميتةَ؟ فإن قَالَ: لَيْسَ عندي مَا آكُلُهُ، وَأَنَا إِنْ لَمْ آكُلْهَا مِتُّ. فحِينَئِذٍ لَا نَنْهَاهُ، لِأَنَّ المُنْكَرَ فِي حقِّه صَارَ حَلَالًا.

وانْظُرْ إِلَى أَحْكَمِ الخلقِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ كيف كَانَ يستعملُ هَذَا، دَخَلَ رجلٌ يومَ الجمعةِ والنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ يخطُبُ الناسَ فَجَلَسَ، فقال لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَصَلَّيْتَ**»؟ قَالَ: لَا. قَالَ: «**قُمْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ**»[1]. دَخَلَ فَجَلَسَ وتَرَكَ تَحِيَّةَ المسجدِ، فَلَمْ يَقُلْ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**قُمْ فَصَلِّ**» حَتَّى سَأَلَهُ، وَلَمْ يَأْمُرْهُ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ بصلاةِ ركعتين حَتَّى عَلِمَ أَنَّهُ لم يُصَلِّ.

إِذَنْ لَا تَتَعَجَّلْ، فلو رأيتَ رَجُلًا فِي المسجدِ الحرام فِي رابعةِ النهارِ -أي فِي الضُّحَى- فِي رمضانَ يشربُ ماءً فلَا تُنْكِرْ عليه؛ لِأَنَّ الَّذِينَ في الحرمِ كَثِيرٌ منهم مسافرون، والمسافر يجوزُ أَنْ يُفْطِرَ، إِذَنْ لَا تنكرْ حَتَّى تسألَ وتقولَ: لِمَ تَشْرَبُ فِي رمضانَ؟! فلو قَالَ: إِنِّي مسافرٌ. صار الشربُ فِي حقِّه حَلَالًا.

والأمثلةُ عَلَى هَذَا كثيرةٌ، ومِن هُنا نعرفُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي للإنسانِ أَنْ يتعجلَ فِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب إذا رأى الإمام رجلا جاء وهو يخطب، أمره أن يصلي ركعتين، رقم (٩٣٠)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب التحية والإمام يخطب، رقم (٨٧٥).

إنكارِ المنكرِ حَتَّى يعرفَ أَن هَذَا المخاطبَ قَدْ فَعَلَ مُنْكَرًا؛ لِأَنَّ التَّسَرُّعَ فِي الأمورِ غَيْرُ مَحْمُودٍ.

إِذَنْ، لِلنَّهْيِ عن المنكرِ شرطان: الأولُ: أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ هَذَا منكرٌ، والثاني: أَن يُعْلَمَ أَنَّهُ منكرٌ فِي حَقِّ المُخاطَبِ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ قد يكونُ مُنْكَرًا عَلَى عُمومِ الناسِ وغيرَ مُنْكَرٍ عَلَى هَذَا الفاعلِ لسببٍ أَبَاحَ لَهُ ذَلِكَ.

لَكِنْ إِذَا كَانَ الشَّيْءُ مما اخْتُلِفَ فيه، فَيَرَى بَعْضُ العلماءِ أَنَّهُ منكرٌ، ويَرَى آخَرُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بمنكرٍ، فيلزمُكَ أَنْ تَسْتَفْصِلَ؛ لِأَنَّ فاعلَ هَذَا قد يَكُونُ يَرَى أَنَّهُ مُبَاحٌ، وَإِذَا رَأَى أَنَّهُ مباحٌ فَهُوَ عَلَى مَا رَأَى، إِذَا كَانَ مِن أَهْلِ الاجتهادِ أو مُقَلِّدًا لِمَنْ يَرَى أَنَّهُ أَهْلٌ للتقليدِ.

لَكِنْ مَثَلًا لو رَأَيْتَ رَجُلًا يُصَلِّي مَعَ الجماعةِ خَلْفَ الصفِّ والصفُّ غَيْرُ تَامٍّ، فهنا تُنْكِرُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الأصلَ الإنكارُ، لَكِنْ قد يكونُ ممن يَرَى أَنَّ صَلَاتَه خَلْفَ الصفِّ -ولو كَانَ الصفُّ المتقدمُ لَيْسَ بتامٍّ- صحيحةٌ، فمذهبُ الأئمةِ الثلاثةِ مالكٍ والشافعيِّ وأبي حنيفةَ أَنَّ صَلَاةَ المنفردِ خَلْفَ الصفِّ ولو لِغَيْرِ عُذْرٍ صحيحةٌ، لكنه تَرَكَ الأفضلَ، وَهَذَا القولُ رِوَايَةٌ عن الإمامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فهنا ثلاثةُ أئمةٍ ونِصْفٌ قالوا بِصِحَّتِهِ؛ لِأَنَّ الإمامَ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ عنه فِي ذَلِكَ روايتان، إحداهما عَدَمُ الصحةِ، والثانية الصحةُ، وهَذِهِ المسألةُ تَقَعُ كَثِيرًا، واخْتَلَفَ العلماء فيها عَلَى ثلاثةِ أقوالٍ:

القولُ الأولُ: أَنَّ مَن صَلَّى خَلْفَ الصفِّ مُنْفرِدًا فصلاتُه صحيحةٌ، لَكِن فَاتَهُ الأكملُ، وَهَذَا مذهبُ الأئمةِ الثلاثةِ والروايةُ عن أحمدَ.

القولُ الثَّانِي: أَنَّ صَلَاتَهُ غَيْرُ صَحِيحَةٍ مُطْلَقًا، ويجبُ أَنْ يُعِيدَ.

القولُ الثَّالِثُ: وهو القولُ الوسطُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ شيخِ الإسلامِ ابْنِ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهَذَا العَالِمُ أكثرُ اختياراتِه مُوافِقَةٌ للصوابِ تمامًا، وَلِهَذَا يَنْبَغِي للإنسانِ أَنْ يقرأَ كُتُبَهُ وَأَنْ يَسْتَفِيدَ منها، لأنني لَا أعلمُ أحدًا أَلَّفَ فِي الكُتُبِ لَا فِي عِلْمِ التوحيدِ وَلَا فِي عِلْمِ الفقهِ وَلَا فِي عِلْمِ السلوكِ وَلَا غَيْرِهَا مِثْلَ هَذَا الرجلِ، أَعْنِي شيخَ الإسلامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَدَّسَ رُوحَهُ، وَجَمَعَنَا به فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، فعليك بكتُبِه إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَن تَنْهَلَ مِن النهرِ الصافي العذبِ.

يقولُ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِذَا صَلَى خَلْفَ الصفِّ مُنْفَرِدًا فإن كَانَ لِعُذْرٍ فصلاتُه صحيحةٌ، وإن كَانَ لِغَيْرِ عُذْرٍ فَصَلاتُه غيرُ صحيحةٍ[1].

ومن العذرِ: أَنْ يجِدَ الصفَّ تامًّا، وَهَذَا أَمَامَهُ خِيَارَاتٌ، إما أَنْ ينصرفَ وَيُصَلِّيَ وَحْدَه، وإما أَنْ يَجْذِبَ واحدًا مِن الصفِّ لِيُؤَخِّرَه فيُصَلِّيَ معه، وإما أَنْ يَتَقَدَّمَ ويُصَلِّيَ مَعَ الإمامِ، وإما أَنْ يُصَلِّيَ مُنْفرِدًا مَعَ الجماعةِ.

والخيارُ الأخيرُ هُوَ الأفضلُ؛ لأننا لو قُلْنَا: انصرفْ وصلِّ وَحْدَك، فمَعْنَاهُ أَنْ تَفُوتَه الجماعةُ، ولو قُلْنَا: اجْذِبْ واحدًا مِن الصفِّ، فيَعْنِي هَذَا أَنَّهُ جَنَى عَلَى أَخِيهِ، فَأَخَّرَه مِن المكانِ الفاضلِ إِلَى المكانِ المفضولِ، ويكونُ بِفِعْلِهِ هَذَا قَدْ شَوَّشَ عَلَيْهِ فِي الصلاةِ، ثُمَّ إِنَّهُ بِفِعْلِهِ هَذَا يكونُ قَدْ فَتَحَ فُرْجَةً فِي الصفِّ وَقَطَعَهُ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللهُ»**[2].

---

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٢/ ٣٢٧).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، رقم (٦٦٦)، والنسائي: كتاب الإمامة، باب من وصل صفا، رقم (٨١٩).

إِذَنْ غَيْرُ صحيحٍ أَنْ يجذبَ شَخْصًا مِن الصفِّ، والخيارُ الثالثُ وَهُوَ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الإمامِ هَذَا أيضًا غَيْرُ صحيحٍ؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَقَدَّم إِلَى الإمامِ وبَيْنَه وَبَيْنَ الإمامِ صفوفٌ لَزِمَ مِن هَذَا أَنْ يَتَخَطَّى الصفوفَ، ويَتَخَطَّى الرقابَ، وَهَذَا مَنْهِيٌّ عنه، وفيه أيضًا التَّشْويشُ، وفيه أَنَّهُ إِذَا كَانَ بجوارِ الإمامِ صارت الجماعةُ كأنها بِإِمَامَيْنِ، وَإِذَا جَاءَ آخَرُ وَلَمْ يجدْ مكانًا فأين يَذْهَبُ؟ إِذَا ذَهَبَ مَعَ الإمامِ صَارُوا ثلاثةً، وهَكَذَا مَعَ كُلِّ مَن يَأْتِي حَتَّى يكونَ الإمامُ صَفًّا كَامِلًا، وَهَذَا خِلَافُ السُّنَّةِ.

إِذَنْ الخيارُ الرابعُ هُوَ الأفضلُ، وَهُوَ أَن يَقِفَ وَحْدَه ويُتَابِعَ الإمامَ، وَهَذَا يحصُلُ لَهُ فَائِدَةُ الجماعةِ، والانفرادُ إنما كَانَ لعُذْرٍ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦]، وَلَعَلَّه لَا يُصَلِّي ركعةً واحدةً إِلَّا وَقَدْ جَاءَ آخَرُ.

إِذَنْ لَا بُدَّ فِي النَّهْيِ عن المنكرِ أَنْ يكونَ المنكرُ مُنْكَرًا فِي حَقِّ الفاعلِ المخاطَبِ، إذ قَدْ يكونُ هَذَا الشَّيْءُ غَيْرَ منكرٍ عِنْدَه، أو لِأَنَّهُ معذورٌ فِي فِعْلِهِ.

وَهُنَاكَ عبارةٌ يَتَدَاوَلُها الفقهاءُ وهي: لَا إِنْكَارَ فِي مَسَائِلِ الاجتهادِ. ومرادُهم أَن المسائلَ الَّتِي يَسُوغُ فيها الاجتهادُ لَا يُنْكِرُ فيها أحدُ المجتهدينَ عَلَى الآخرِ؛ لِأَنَّهُ لو أَنْكَرَ عَلَيْهِ اجتهادَه لَقَالَ الثَّانِي: أَنَا أُنْكِرُ عَلَيْكَ أيضًا، فالمسألةُ اجتهاديةٌ، فَإِذَا أنكرتَ عليَّ فَأَنَا أُنْكِرُ عَلَيْكَ؛ لِأَنَّكَ أَنْتَ لَسْتَ بمعصومٍ، وأنا لَسْتُ بمعصومٍ، ومَن أَرَادَ أَن يَحْمِلَ الناسَ عَلَى قولِه فَقَدْ حاولَ أَن يَنالَ مَرْتبةَ الرسالةِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يجبُ حَمْلُ الناسِ عَلَى قولِه هو الرَّسُولُ ﷺ.

إِذَنْ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَحْمِلَ الناسَ عَلَى قولِك فِي المسائلِ الاجتهاديةِ، فمَثَلًا لو أَنَّ شَخْصَيْنِ جلَسَا عَلَى مائدةٍ وفيها لحمُ بَعِيرٍ، فَأَكَلَا مِن اللحمِ، فتَوَضَّأَ أحدُهما وصَلَّى،

والثَّانِي صَلَّى بِلَا وُضُوءٍ، فقَالَ الَّذِي تَوَضَّأَ للذي لم يتوضأ: لِمَ لَمْ تَتَوَضَّأْ؟! وأَنْكَرَ عَلَيْهِ، فيقولُ: أَنَا لَا أَرَى وجوبَ الوضوءِ مِن أَكْلِ لَحْمِ الإبلِ، فَلَا يَحِقُّ لَهُ حينئذٍ أَنْ يُجْبِرَه عَلَى الوضوءِ، فما دَامَ اجتهادُه أَدَّاهُ إِلَى عَدَمِ وُجُوبِ الوضوءِ فَلَا يُلْزَمُ به، ولَكِنِ القولُ الراجحُ فِي هَذِهِ المسألةِ أَنَّ لَحْمَ الإبلِ نَاقِضٌ للوضوءِ، وَأَنَّ مَن أَكَلَ لَحْمَ إِبِلٍ نِيئًا أو مَطْبوخًا قليلًا أو كثيرًا، أبيضَ أو أحمرَ، لَزِمَه الوضوءُ، فإِنْ صَلَّى فَصَلَاتُهُ مردودةٌ؛ لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**تَوَضَّؤُوا مِنْ لُحُومِ الإِبِلِ**»(١).

وسُئِلَ هَلْ يَتَوَضَّأُ الإنسانُ مِن لَحْمِ الغنمِ، فقَالَ: «**إِنْ شِئْتَ فَتَوَضَّأْ، وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَوَضَّأْ**»(٢).

فكونُه يُحِيلُ الوضوءَ إِلَى مشيئةِ الإنسانِ إِذَا أَكَلَ مِنْ لَحْمِ الغنمِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِذَا أَكَلَ مِن لحمِ الإبلِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَتوضَّأَ.

الشَّرْطُ الثالثُ: أَلَّا يَزُولَ المنكرُ إِلَى مَا هُوَ أَنْكَرُ منه، فَإِنْ زَالَ المنكرُ إِلَى مَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ، ولَزِمَ مِن ذَلِكَ أَن يَنْتَقِلَ الْمُنْكَرُ عَلَيْهِ إِلَى مُنْكَرٍ أَعْظَمَ؛ صَارَ النهيُ عن المنكرِ هُوَ المنكرَ، فَلَا يَحِلُّ لك أَنْ تَنْهَى عن منكرٍ تعرفُ أَن الْمَنْهِيَّ يَرْتَكِبُ مَا هُوَ أعظمُ منه.

مثالُ ذَلِكَ: رَأَى رجلٌ شَخْصًا يَشْرَبُ السجائرَ -وشُرْبُ السجائرِ منكرٌ فِي رمضانَ وغَيْرِ رمضانَ- فيجبُ عَلَيْهِ حينئذٍ أَنْ ينكرَ عليه؛ لِأَنَّ شُرْبَها منكرٌ، لَكِنْ قد يَرَى الَّذِي يشربُ السجائرَ إِبَاحَتَها لِأَنَّ بَعْضَ العلماءِ يَرَوْنَ أنها مباحةٌ، وإن كَانَ هَذَا القولُ ضَعِيفًا لكنه قِيلَ، فَإِذَا نَهَيْنَاهُ وتَرَتَّبَ عَلَى نَهْيِهِ منكرٌ أكبرُ مثلُ أَن يذهبَ

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب مَا جاء فِي الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٤٩٧).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٣٦٠).

ويشربَ الخمرَ، فَلَا نَنْهاهُ، لأننا إِذَا نَهَيْنَاهُ فَقَدْ أَمَرْنَاهُ أَنْ يَشْرَبَ الخمرَ، وَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والذي يدعون مِن دونِ اللهِ هِيَ الأصنامُ ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨]؛ لِأَنَّ الكافرَ إِذَا سَبَبْتَ إلهه سَبَّ إلهَكَ، فأيهما أعظمُ؛ أَن يُسَبَّ الربُّ عَزَّوَجَلَّ أو أَن نَتْرُكَ سَبَّ آلهةِ المشركين؟! لَا شَكَّ أَنَّ الأولَ أعظمُ، وَلِهَذَا لَا نسبُّ آلهةَ المشركينَ إِذَا عَلِمْنا أَنَّهُمْ إِذَا سببنا آلهتهم سبوا إلهَنَا.

وَإِذَا كَانَ الإنسانُ سَبَبًا لسبِّ غيرِه كَانَ هُوَ السابَّ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ**». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «**يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ**»[1].

فالمهمُّ إِذَنْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ النهيُ عن المنكرِ يستلزمُ أَنْ ينتقلَ المَنْهِيُّ إِلَى منكرٍ أعظمَ، فَإِنَّهُ لَا يجوزُ النهيُ عن المنكرِ.

وَفِي هَذِهِ المسألةِ ينقسمُ المقامُ إِلَى أربعةِ أقسامٍ:

الأول: إِذَا نَهَيْنا عن المنكرِ وزَالَ المنكرُ فالنهيُ واجبٌ.

الثاني: إِذَا نَهَيْنَا عَنِ المنكرِ وانْتَقَلَ إِلَى أَنْكَرَ مِنْهُ فَحَرَامٌ النهيُ هنا.

الثالث: إِذَا نَهَيْنَا عن المنكرِ انتقلَ إِلَى مثلِه، فهنا احتمالٌ، قد يقالُ: انْهَ عن المنكرِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا نهيت عن المنكرِ وانتقل إِلَى مثلِه فربما يَتَغَيَّرُ فِكْرُه بسببِ الانتقالِ، وَقَدْ يقالُ: اتركْه فليس فِي نهيِهِ فائدةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب: لَا يسب الرجل والديه، رقم (٥٦٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٩٠).

الرابع: أَن يَبْقَى عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَلَا ينتهي عن المنكرِ، فيجِبُ حَتَّى لو لَمْ يَكُنْ مِن ذَلِكَ إِلَّا بيانُ أَنَّهُ منكرٌ.

فإن قَالَ قائلٌ: إِذَا كَانَ كثيرٌ مِن الناسِ واقعًا فِي هَذَا الأمرِ فهل أستوقفُ كُلَّ واحدٍ وأقولُ يا فلانُ اتَّقِ اللهَ لَا تفعلْ هَذَا؟ أو لَا يجبُ لما فِيهِ مِن المَشَقَّةِ؟

مثالُ ذَلِكَ: حلقُ اللحيةِ، وحلقُ اللحيةِ حرامٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ: وَفِّرُوا اللِّحَى، وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ**»[1]. فهل نستوقفُ كُلَّ حليقٍ ونقولُ له: له: يا فلانُ هَذَا حرامٌ لَا يجوزُ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ جَدَلِيًّا، فسيقولُ: أين الدَّليلُ؟ فَإِذَا جئتَ بالدَّليلِ قال: هَذَا الدَّليلُ يحتملُ الكراهةَ، وإن كَانَ أمرًا قال: يَحْتَمِلُ الوجوبَ أو الاستحبابَ، ثُمَّ يأتي بالقاعدةِ المعروفةِ لِيُطَبِّقَهَا فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا وهي: إِذَا وُجِدَ الاحتمالُ بَطَلَ الاستدلالُ، وَقَدْ يكونُ هَذَا الرجلُ الحليقُ أُصوليًّا فَقِيهًا، وَهُوَ مِن أجهلِ عبادِ اللهِ، فهل يجبُ عَلَيَّ نهيُه؟

نقول: لَا يجـبُ؛ لما فِي ذَلِكَ مِن المشقةِ، وحَلْقُ اللحيةِ فِي مجـتمَعِنا السعوديِّ معلومٌ أَنَّهُ حرامٌ والحمدُ للهِ، فالذي يَفْعَلُه متهاونٌ وَلَيْسَ جَاهِلًا.

كَذَلِكَ أيضًا نجدُ كثيرًا مِن الناسِ فِي السوقِ يشربونَ الدخانَ، فهل نستوقفُ كُلَّ واحدٍ، ونقولُ: هَذَا حرامٌ؟ فَإِذَا قلتَ لَهُ ذَلِكَ، فسيقولُ لك: أين الدَّليلُ؟ ائْتِ بدليلٍ مِنَ القرآنِ والسنةِ يقولُ: إن السيجارةَ حرامٌ وأنا أنقادُ لِذَلِكَ. فهُنَاكَ أناسٌ جَدَلِيُّونَ، ورُبَّمَا يقولُ لكَ: لقد اختلفَ العلماءُ فِيهِ عَلَى خمسةِ أقوالٍ، حَتَّى إِنَّ بعضَهُم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب تقليم الأظافر، رقم (٥٨٩٢)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٥٩).

قالَ: يجبُ أَن تُشربَ السيجارةُ. فماذا تقولُ لهذا الجدلي؟! وربَّما يقولُ لكَ: أَنَا لَا يمكنُ أَنْ أُصَلِّيَ حَتَّى أَشْرَبَ سيجارةً فَأَصْحُو. نَسْأَلُ اللهَ السلامةَ.

عَلَى كُلِّ حالٍ، لَا يجبُ عَلَى الإنسانِ فِي مثلِ هَذِهِ الأمورِ الظاهرةِ أَن يستوقفَ كُلَّ أحدٍ ويقولَ له: هَذَا حرامٌ، لَكِنْ إِذَا كَانَ فِي مجلسٍ خاصٍّ مَعَ هَذَا الرجلِ فَلْيَتَكَلَّمْ معه.

هذه أقسامُ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، ولعله فَاتَنَا شَيْءٌ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦].

وأرجو مِن كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يقومَ بِهَذَا الأمرِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ فِي الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ:

أَوَّلًا: تحقيقًا لِأَنْ يكونَ فاعلُ ذَلِكَ مِن هَذِهِ الأمةِ، وَهَذَا واللهِ فَخْرٌ أَنْ تَنْتَسِبَ إِلَى أمةِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ.

وثَانِيًا: أَنَّهُ سَبِيلُ الأنبياءِ والمرسلين؛ فإنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ إِذَا رَأَى منكرًا أَنْكَرَهُ، كَمَا فَعَلَ حينما رَأَى فِي إِصْبَعِ رَجُلٍ خَاتَمًا مِن ذَهَبٍ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وغَيَّره بيدِه، بِأَنِ انْتَزَعَهُ مِن إِصْبَعِهِ ورَمَى بِهِ[1].

وَثَالِثًا: أَنَّهُ قُرْبَةٌ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فكلما أَمَرْتَ بمعروفٍ أو نَهَيْتَ عن منكرٍ زِدْتَ مِن اللهِ تَعَالَى قُرْبًا، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يجعلَنَا وإياكم مِن أوليائِه الصَّالِحِينَ.

رَابِعًا: أَنَّ فِيهِ وحدةَ الأمةِ الإسلاميةِ؛ لِأَنَّ الأمةَ الإسلاميةَ إِذَا كَانَتْ عَلَى دِينٍ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب طرح خاتم الذهب، رقم (٢٠٩٠).

واحدٍ فِعْلًا للمأمورِ وتَرْكًا للمحظورِ، فَقَدِ اتَّفقتْ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ [آل عمران:١٠٤-١٠٥]، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ تَرْكَ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ سببٌ للفُرْقَةِ، وفيه منافعُ كثيرةٌ، فَعَلَيْكَ أَيُّهَا المسلمُ بالأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، ولَكِنْ عَلَيْكَ بالرفقِ والحكمةِ، وَلَا تُنْكِرْ بعنفٍ؛ لِأَنَّكَ إِذَا أَنْكَرْتَ بعنفٍ فرُبَّمَا لَا يُقْبَلُ منك، ورُبَّمَا يكونُ المقابلُ لك أَشَدَّ منك عُنْفًا، فَعَلَيْكَ بالرفقِ مَا اسْتَطَعْتَ.

واعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ، وَإِنَّه يُعْطِي بِالرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ**»(١).

وجَرِّبْ تَجِدْ، وَلَا تَحْمِلْكَ الغَيْرَةُ عَلَى الشِّدَّةِ، فالشِّدَّةُ فِي الغالبِ لَا يَنْجَحُ صَاحِبُها، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يكونَ ذَا أَمْرٍ وسلطانٍ وَيَرَى أَنَّ الشِّدَّةَ لها موضعٌ أكثرُ تَأْثِيرًا فَهَذَا إليه، لَكِنْ عَامَّةُ الناسِ لَا تُشَدِّدْ عليهم، فإن كنت تريدُ أَنْ يُقْبَلَ منك فَلَا تُشَدِّدْ.

وعليك أيضا بالحكمةِ والتدرجِ، فلو أَرَدْتَ أَنْ تَنْهَى عن شُرْبِ الدخانِ فلك أَن تقولَ: يا فلانُ، إِذَا كنتَ لَا تستطيعُ أَنْ تَتْرُكَهُ مَرَّةً وَاحِدَةً فقَلِّلِ الجرعةَ؛ لِأَنَّ بَعْضَ الناسِ لَا يستطيعُ أَنْ يتركَ المنكرَ فِي الحالِ، فتَدَرَّجْ فِي ذَلِكَ، كالرجلِ يُدَاوِي الجريحَ؛ فإِذَا كَانَ مِن المصلحةِ أَنْ يَتَدَرَّجَ فِي إزالةِ الأَذَى الَّذِي فِي الجرحِ فَلْيَفْعَلْ.

وعليك بسبيلِ الحكمةِ؛ فإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣).

أَرَأَيْتَ لو وَقَفْتَ عَلَى أُنَاسٍ مُبْتَدِعَةٍ إما بالأقوالِ أو بالأفعالِ أو بالعقيدةِ، فهل تَصِفُهُمْ فِي الحالِ أَنَّهُمْ مبتدعةٌ وأَنَّهُمْ ضَالُّونَ وأَنَّهُمْ فَسَقَةٌ، لأَنَّهُمْ يقولون كذا وكذا؟! هَذَا لَا يُمْكِنُ، لَكِنْ قُلْ لهم: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، وَاجْلِسْ مَعَهُمْ، ثُمَّ تقولُ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ يفعلُ كذا وكذا، وَكَانَ الصحابةُ يفعلون كذا، وَتُبَيِّنُ الحَقَّ، وَإِذَا بَانَ الحقُّ فإنَّ الفِطَرَ السليمةَ تَقْبَلُه بِدُونِ دَعْوَةٍ، فبَيِّنِ الحقَّ، أَمَّا أَنْ تُنْكِرَ عَلَى الناسِ ابتداءً وتريدُ أَنْ يَتَّبِعُوكَ، فَهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، فعليك بالحكمةِ فإنَّ اللهَ يقولُ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤١]، عواقبُ الأمورِ بِيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والأمورُ تُخْلَفُ؛ قَدْ يَظُنُّ الإنسانُ النصرَ وَلَا يَكُونُ، وَقَدْ يَسْتَبْعِدُ النصرَ فَيَكُونُ؛ لِأَنَّ عَاقِبَةَ الأمورِ للهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يُشَارِكُهُ فيها أَحَدٌ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.



الدرس الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال تَعَالَى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

هذا قَسَمٌ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقَسَمُه لَيْسَ ظاهِرًا، ولكنهُ مُقدَّر دَلَّ علَيْهِ اللَّام فِي قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾، ثُمَّ أُكِّدَ هَذَا القَسَمُ بِنونِ التَّوكيدِ أيضًا، فتكونُ جملةُ ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ مُؤَكَّدةً بثلاثةِ مُؤكداتٍ، وهيَ: القَسَمُ، واللامُ، ونونُ التوكيدِ.

ومنَ المعلومِ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ، ولوْ شاءَ اللهُ لانْتَصَرَ منْ أعدائِهِ، ولكنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَنَا بِبعْضٍ، فمَعْنَى قَولِهِ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ نَصْرُ دينِهِ، فنحميه منَ الأعداءِ الَّذِينَ يُريدونَ صَدَّ عِبادِ اللهِ عنْ دينِ اللهِ.

والصَدُّ عنْ سبيلِ اللهِ أنواعُهُ كثيرةٌ، مِنْها: الأفكارُ السيِّئَةُ، والأخلاقُ السيِّئَةُ، والمالُ، وغيرُ ذلكَ، وأعداؤُنا يعرفونَ كيفَ يَصُدوننا عنْ دينِنا، ولكنَّهم -بِحول اللهِ- لنْ يَنجحوا فِي القضاءِ عَلَى هَذِهِ الأمةِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ يَخْذُلُهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**»[1]، لكنْ مَعَ ذلكَ هُمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ**»، رقم (٧٣١١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا، رقم (١٥٦).

يُحاولونَ أَنْ يَخذلوا هَذِهِ الأمـةَ، ولكنَّهم مَخْذولونَ بِمعونةِ اللهِ. ولنْ نُجَاهِدَ أعداءَنَا بأعظمَ من تَمسكنا بِدِينِنَا.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، قَوِيٌّ ضدُّه ضعيفٌ، وعزيزٌ ضدُّه ذَليلٌ، فَما منْ قُوةٍ إِلَّا وهي تَحت قُوةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، فَافتَخروا بقوَّتهِمْ، وأَنْكروا أَنْ يَكونَ أحدٌ أشدَّ مِنْهم قُوةً، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥]، لَمْ يَقلِ اللهُ: إِنَّ اللهَ هُوَ أَشَدُّ، بَلْ قَالَ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾؛ لِيَتبينَ ضَعْفهم؛ لِأَنَّ المخلوقَ لَا بُدَّ أَنْ يَكونَ أَضْعفَ منَ الخالقِ.

فَأَهلكهمُ اللهُ بِريحٍ لَطِيفةٍ لا تُرى، وَإِنَّما يُسْمع صوتُها فقطْ، فتَبيَّن بِهَذا أنه لَا قُوَّةَ تُضاهِي قوةَ اللهِ، وَلَا تُقارب قوةَ اللهِ، قَالَ تعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٦].

وَقَالَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، بَعدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، حَتَّـى يَطمئنَّ العبدُ الَّذِي نَصرَ اللهَ إِلى أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى سَينصره حَتَّـى يَكونَ عدوُّه ضعيفًا أمامهُ.

قَولُهُ: ﴿عَزِيزٌ﴾ العزيزُ بِمَعنـى الغالبِ، الَّذِي لَا يَغْلبه شَيءٌ، كَما قَالَ الشاعرُ الجاهليُّ[1]:

أَيْــنَ المَفَــرُّ وَالإِلَــهُ الطَّالِــبُ ... وَالأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الغَالِـبُ

(١) هو نُفَيْل بن حَبِيب، انظر الروض الأنف للسهيلي (١/ ١٥٤).

أي: لَيس هُناك مَفَر وَاللهُ هُوَ الطالبُ.

فَإذا كَانَ الله قويًّا، وإذَا كَانَ عزيزًا، فإنَّ الإِنْسَانَ سَيثِقُ تَمام الثقةِ منْ نَصْرِ اللهِ تَعَالَى إذَا نَصَرَ اللهَ، هَذَا منطوقُ الآيةِ، ومَفْهومُ الآية، ولَيخذلَنَّ اللهُ منْ يَخْذلُ دِينهُ.

والكلامُ لهُ دِلَالتانِ: دِلالةُ مَنْطوقٍ، ودِلَالةُ مفهومٍ.

فإذَا قُلْتَ: أكرمِ المجتهدَ منَ الطلبَةِ، فَالمنطوقُ إِكرامُ المجتهِدِ، وَالمفهومُ لَا تُكرمْ غيرَ المجتَهِدِ.

إِذَنْ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ هَذَا المنطوقُ. ولَيَخذلنَّ الله مَنْ يخذلُ دينهُ؛ هَذَا المفهومُ.

قال تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يَعْنِي: ثَبَّتْناهم فِيهَا، واستولَوا عَلَيْها، ولَم يَحْملهم الاستيلاءُ والانتصَارُ عَلَى الأشَرِ والبَطَرِ، وَإِنَّما يَحْملهم هَذَا التَّمكينُ عَلَى:

أَوَّلًا: إقامةُ الصَّلَاةِ.

ثَانِيًا: إِيتاءُ الزَّكَاةِ.

ثَالثًا: الأمرُ بالمعروفِ.

رَابِعًا: النَّهي عنِ المنكرِ.

لَمَّا فتحَ النَّبيُّ ﷺ مَكَّةَ، دخلَ مُقَنَّعَ الرأسِ، متذلِّلًا للهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذِي أعزَّه حَتَّى

فتَحَ مَكَّة بَعْد أَنْ هَاجَرَ منها خوفًا عَلَى نفسهِ، فرجعَ منتصرًا ظاهرًا ظافرًا غالبًا، ولكنه دخل خَاضِعًا للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَولُهُ: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أيْ: أَتَوْا بِهَا مُسْتقيمةً. ونحنُ نعلمُ أنَّ الصَّلَاةَ لَهَا شُروطٌ، ولهَا أَرْكانٌ، وَلَها وَاجباتٌ، وَلَها مُستحباتٌ، فإِقَامتها الكَاملةُ أنْ يَأْتِيَ الإِنْسَانُ بِشُرُوطها، وَأَرْكانها، وَوَاجِباتها، ومُسْتَحبَّاتها.

شُرُوطُ الصَّلَاةِ:

الشَّرْطُ الأَوَّلُ: الطهارةُ؛ لِقَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

فَلَا بُدَّ منَ الطَّهارةِ منَ الحدثِ الأكبرِ وَالأَصغرِ، فَمَنْ صَلَّى بِغَيرِ وُضُوءٍ، فَصلاتهُ باطلةٌ، سَوَاءٌ كَانَ ناسِيًا أَوْ ذَاكرًا، لكنْ إن كَانَ ناسيًا فَصَلَاتُهُ الَّتِي صلَّاها بغَيْر وُضوءٍ معفوٌّ عنهَا، ولَا يُؤاخَذُ عَلَى ذلكَ، وأَمَّا إنْ صَلَّى بِغَيْر وُضوءٍ ذاكرًا، فقدْ فعَلَ ذنبًا عظيمًا، حَتَّى إنَّ بعضَ الأئمةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَالوا: إِنَّه يَكْفُرُ كُفْرًا مخرجًا عنِ الملةِ؛ لِأَنَّهُ مُسْتهزئٌ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا مَذْهب أَبِي حَنِيفةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، لكنَّ جمهورَ العُلَماءِ يَقُولونَ: إِنَّهُ لَا يَكْفُر، لكنَّه قَد فعلَ ذنبًا عَظيمًا، أَمَّا إذَا كَانَ ناسيًا فلَا إِثمَ علَيْه، لكنْ يَجب أَنْ يَتوضأَ ويُعيدَ الصَّلَاةَ.

الشَّرطُ الثَّانِي: استقبالُ القبلةِ، ودَليلهُ قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة:١٤٤]، الرَّسُولُ ﷺ كَانَ أولَ ما قدِمَ المَدِينَةَ يُصَلِّي إِلَى بيتِ المَقْدسِ فِي فِلَسْطين سِتَّةَ عشَرَ شهرًا، أَيْ: سَنة وأَرْبعة أَشْهر، وكَانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُحبُّ أَنْ يُصَلِّيَ إِلَى الكعبةِ؛ لِأَنَّهَا قِبْلَةُ الأنبياءِ؛ كَما ذَكر ذَلك شَيخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي كِتابهِ (الرَّدُّ عَلَى المنطقيِّينَ)، وكانَ ﷺ يحب أَنْ يَأمرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالتوجُّهِ إِلى الكعبةِ، فيقلِّب بصرَهُ إِلى السَّماءِ لعلَّ جبريلَ يَنزِل بِالأمرِ بِالتَّوجه إِلى الكَعبةِ، فأَنْزلَ اللهُ ذَلك: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، شَطْرُهُ أَيْ: جِهتهُ، ثُمَّ قَالَ للأمةِ جميعًا: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، فِي أي مكانٍ.

فاستقبالُ القبلةِ لَا تَصحُّ الصَّلَاةُ بِدونهِ، فإِنْ كَانَ الإِنْسَانُ مُتعمِّدًا أَنْ يَتجهَ إِلى غَيرِ القبلةِ، فَهو آثمٌ، عَاصٍ للهِ، مُستحقٌّ لِعقوبةِ اللهِ، وإِنْ كَانَ جاهِلًا نَنظرُ: إِنْ كَانَ مجتهدًا فِي طلبِ القِبلةِ فِي مكانٍ لهُ فِيهِ الاجتهادُ، فلَا شَيْءَ عَلَيْه، مِثَالُ ذَلِك: أَنْ يَكونَ الإِنْسَانُ فِي البَرِّ، ولَيْسَ حَوله مَسَاجِدُ يَسْتَدِلُّ بِمَحَاريبها عَلَى القبلةِ، فاجتهدَ فاتَّجه إِلى جهةٍ يَظُنها القبلةَ، ثُمَّ تَبينَ أَنَّه إِلَى غيرِ القبلةِ، فلَا يَجبُ علَيْه شيءٌ؛ لِأَنَّ اللهَ قالَ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وهَذِهِ استطاعتُهُ؛ ولَا إِثمَ علَيْه؛ لِقَولهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥] فأَي جِهةٍ تَتولونَ إِلَيْها وأَنْتم مَعذُورُون: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

فَإِذا قَالَ قائلٌ: هلْ يُسْتَثْنَى منْ شَرْطِ استقبالِ القبلةِ أَحَد؟

قُلْنَا: نَعم، يُسْتَثْنَى منْ شرطِ استقبالِ القبلةِ:

أَوَّلًا: العاجزُ، كإِنْسَانٍ مريضٍ وجههُ إِلَى غيرِ القبلةِ، ولَيْس عندَهُ مَن يُوَجِهُهُ إلى القبلةِ، فيُصَلِّي إلى الجِهَةِ الَّتِي يَقدر علَيها؛ لِقَوله تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

الثَّانِي: الخائفُ، كَرجلٍ لحقهُ العدوُّ ودَخل وَقْتُ الصَّلَاةِ، والعدوُّ يُلَاحقه، إنْ وَقَف واتَّجه إِلَى القبلةِ أَدْرَكه العدوُّ، وإنْ صَلَّى إِلَى جهةِ هَرَبِهِ سَلِمَ منَ العدوِّ، فَهَذَا الرَّجل الخائـفُ يَتجهُ فِي صلاتِهِ حَيث كَانَ وجهُهُ، والدَّلِيلُ قـولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة:٢٣٩]، رِجالًا أي: عَلَى أرجلكُمْ، أَو ركبانًا أَيِ: اتَّجهوا حَيْثُما كُنْتم.

الثَّالِثُ: النافلةُ فِي السَّفرِ، فإِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا كَانَ مُسافرًا، وأرادَ أنْ يَتَنَفَّل لصلاةِ الضُّحَى، أَوِ التهجدِ فِي اللَّيْلِ، أَوِ الوترِ، فَإِنَّهُ يُصَلِّي حَيثُ كَانَ وجهُهُ، فإِنِ انطلقَ منْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ، واتجاهُ سيرِهِ يَضْطره إِلى أَنْ تَكونَ الكعبةُ خلفَ ظَهرِهِ، فيُصَلِّي نفلًا إِلَى جهةِ المَدِينَةِ، فَقدْ ثَبَتَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّه كَانَ يُصَلِّي عَلَى راحلتِهِ حيثُ كَانَ وجهه يُوتر علَيْها[1]، غيرَ أَنَّه لا يُصَلِّي عليْهَا المكتوبةَ.

والحِكْمَةُ فِي التفريقِ بيْنَ الفريضةِ والنَّافلة، أنَّ الفريضةَ أَوْكَدُ منَ النافلَةِ، وأنَّ النافلةَ وُسِّعَ فِيها ليُفْسَحَ المجالُ أمامَ المسافرِ فِي إكثارِ النَّوافلِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ لِلمسافرِ: لَا تَتنفَّل عَلَى راحلتِكَ، ولكنِ انزلْ فِي الأرضِ، وصَلِّ إِلَى القبلةِ، فَهَذَا سَيُعيقه فِي السَّفر.

فَإِنْ قِيلَ: هَل يُسْمَحُ للسَّائق أنْ يُصَلِّيَ النافلةَ حيثُ كَانَ وجهُهُ؟

قُلْنَا: لَا يُسْمَح لَه بِذلك؛ لِدَليلينِ؛ أحدهُمَا عامٌّ والآخرُ خَاصٌّ:

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب الوتر، باب في الوتر في السفر، رقم (١٠٠٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر حيث توجهت، رقم (٧٠٠).

أمَّا العامُّ فقولُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب:٤]، وأمَّا الخاصُّ فهوَ قولُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا هُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ**»(١).

فَالمشغولُ بِقِيادةِ السيارةِ أشدُّ انْشغَالًا منَ المشغولِ قَلبُه بِالطَّعامِ إذَا حَضَرَ، لِذَلك لَا نَرى أنَّ السائقَ يَتَنفل وهوَ يَسُوق السَّيارةَ؛ لِلخطرِ العَظِيم.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: مَا الفرقُ بينَ المجتهدِ الَّذِي اجتَهَد وأَخْطأَ القبلَةَ، وبينَ مَا ذُكرَ منَ المستَثْنَياتِ الثلاثِ؟

قُلْنَا: المُجْتَهدُ يَعْتقد أَنَّهُ غَيرُ مُخَالفٍ لِلْقبلة، وَأَمَّا مَا ذُكر منَ المسْتَثنياتِ الثلاثِ فَإِنَّ المُصَلِّي يَعْتقد أَنَّهُ مُخَالف لِلقِبْلة، لَكِن مُخَالفتهُ لِأَسْباب شَرْعيَّة.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: دُخولُ الوقتِ.

منْ شُرُوط صحَّةِ الصَّلَاةِ دُخولُ الوقتِ، فَلَوْ صَلَّى قبلَ الوقتِ فلَا صَلَاة لهُ، إنْ كَانَ متعمدًا فعلَيْهِ الإثمُ، وليْس لَهُ أَجرٌ، وإنْ كَانَ غيرَ مُتَعَمِّد فَصَلَّى قَبْلَ الوقتِ ظانًّا أنَّ الوقتَ قَدْ دخلَ، فَتبَيَّن أنَّ الوقتَ لم يَدْخُل، فصلَاتُهُ نفلٌ، ولهُ فِيها أجرٌ، واللهُ تَعَالَى لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أحسنَ عملًا، وهوَ فِي اعتقادِهِ أنَّه مُحسنٌ عمَلًا، ولكنْ عليه إعَادَة الصَّلَاةِ.

وهَذَا مَثَلُهُ كَرجل صَلَّى فِي آخِرِ النَّهَارِ، والسَّمَاءُ فِيها غيمٌ، فَظن أنَّ الشَّمْس قد غَرَبت، فَصَلَّى المَغْرِبَ، وبعدَ أنْ صَلَّى طلعتِ الشَّمْسُ، فالصَّلَاةُ غيرُ صحيحَةٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال وكراهة الصلاة مع مدافعة الأخبثين، رقم (٥٦٠).

فَإِنْ قِيلَ: هلْ هُناكَ فَرْقٌ بينَ قَولنَا: منْ شُروطِ الصَّلَاةِ دُخولُ الوقتِ، أو: من شرُوطِ الصَّلَاةِ الوقتُ.

الجَوَابُ: إِذَا قُلْنَا: منْ شُروطِ الصَّلَاةِ الوقتُ، فمَعْناه أنَّ الصَّلَاةَ لَا تَصحُّ إلَّا بالوقتِ، وأنَّه لَو خَرجَ الوقتُ نسيانًا أوْ لنومٍ فلَا يَصحُّ أنْ يُصَلِّيَ.

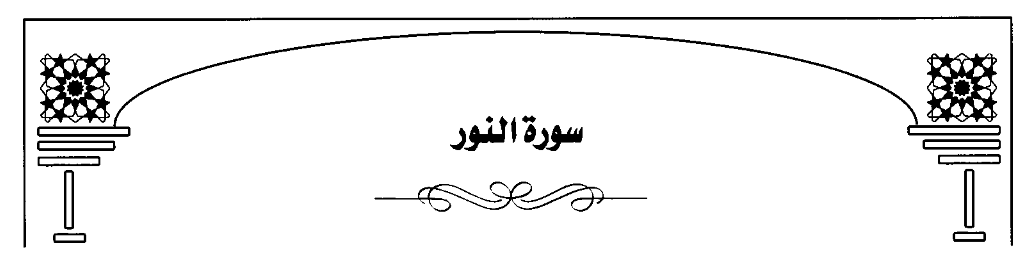
أمَّا إِذَا قُلْنَا: إنَّ منْ شُروطِ الصَّلَاةِ دُخولُ الوقتِ، صارَ منْ صَلَّى قبلَ الوقتِ لا تَصح صَلاته، أمَّا بعدَ الوقتِ فَتَصح.

وهنَا يَرِدُ سؤالٌ: مَا هِيَ الصَّلَاةُ الوحيدةُ الَّتِي مِنْ شَرْطها الوقتُ؟

الجَوَابُ: صلاةُ الجُمُعَةِ منْ شَرْطِهَا الوقتُ؛ ولِذَلك لَو خَرَجَ الوقتُ دُون أنْ يُصَلِّي النَّاسُ الجُمُعَةَ، فإنَّهم لَا يُصَلونها جُمُعَةً، بَلْ يُصَلُّونَها ظُهْرًا؛ لِأَنَّ منْ شَرْطها الوقتُ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





سورة النور

الدرس الأول:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولا عدوانَ إلا على الظالمينَ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، إله الأولينَ والآخرينَ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، سيدُ المرسلينَ، وإمامُ المتقينَ، وخاتمُ النبيينَ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أما بعدُ:**

فقد قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

[النور:١-١٠].

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

أولًا: الإعرابُ: قولُه: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ يجوزُ أن نُعربَ (سورةٌ) مبتدأً وجملة (أنزلنَاهَا) خبر المبتدأِ، أو نُعربَ (سورةٌ) خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: هذهِ سورةٌ، فكلا الوجهينِ جائزٌ.

والتنكيرُ في (سورةٌ) للتعظيمِ، يعني أنها سورةٌ عظيمةٌ فيها آياتٌ عظيمةٌ.

وقولُه تَعالى: ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ لأنها منَ القرآنِ، والقرآنُ كلُّه مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهوَ كلامُ اللهِ تكلمَ بهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لفظًا ومعنًى، وألقاهُ إلى جبريلَ، فنزلَ بهِ جبريلُ على قلبِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ.

وقدْ أضافَهُ اللهُ تعالى إلى نفسِه فقالَ: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية:٢٩].

وقالَ تَعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:٩٢].

وأضافَهُ مرةً إلى جبريلَ ومرةً إلى محمدٍ ﷺ؛ أما إضافتُه إلى جبريلَ ففِي قولِه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١]، فالمرادُ بالرسولِ الكريمِ هنا جبريلُ؛ لقولِه: ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١]، والمرادُ بالرسولِ هنا محمدٌ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ.

فأنزلَ اللهُ هذهِ السورةَ مِن جملةِ ما أنزلَ مِن كتابِه عَزَّوَجَلَّ.

قولُه: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي فرضنَا العملَ بها، وأوجبنَاهُ على عبادِنَا.

قولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي ظاهراتٍ واضحاتٍ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

بدأَ أولًا بالزنَا فقالَ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾. والزنا هوَ فعلُ الفاحشةِ في قبلٍ أو دبرٍ إذا كانَ بينَ ذكرٍ وأُنثى، وإن كانَ بينَ ذكرٍ وذكرٍ سميَ لواطًا.

شروطُ ثبوتِ حدِّ الزنَا:

قالَ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ ولكن هذا العمومَ في قولِه ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ يرادُ بِهِ الخصوصُ، أي يرادُ بِهِ الزانيةُ البالغةُ العاقلةُ العالمةُ بالتحريمِ؛ فهذِهِ ثلاثةُ شروطٍ: بالغةٌ، عاقلةٌ، عالمةٌ بالتحريمِ.

فالبلوغُ ضدهُ الصِّغرُ، والعقلُ ضدهُ الجنونُ، والعلمُ بالتحريمِ ضدهُ الجهلُ بالتحريمِ. والجهلُ بالتحريمِ لا يُتصورُ مِن امرأةٍ عاشتْ بينَ المسلمينَ، لكن يُتصورُ هذا مِن امرأةٍ أسلمتْ جديدًا، وكانتْ في بلادِ الكفرِ تَرى الناسَ يزني بعضُهم ببعضٍ ولا يهتمونَ بِهِ. على كلِّ حالٍ لا بدَّ منَ العلمِ بالتحريمِ.

والزاني كذلكَ لا بدَّ أن يكونَ بالغًا عاقلًا عالمًا بالتحريمِ، فإن لم يَكونُوا كذلكَ فلا حدَّ عليهِمْ؛ لأن شروطَ وجوبِ الحدِّ أن يكونَ الفاعلُ لما يَقتضي الحدَّ بالغًا عاقلًا عالما بالتحريمِ.

فإذا زنَى الصغيرُ بصغيرةٍ فلا يُجلدانِ مِئةَ جلدةٍ، وإذا زنَى مجنونٌ بمجنونةٍ فكذلكَ، وإذا زنَى مجنونٌ بعاقلةٍ وجبَ عليهَا الحدُّ دونَه، وإذا زنَى عاقلٌ بمجنونةٍ وجبَ عليهِ الحدُّ دونَها.

حدُّ الزنَا:

فما حدُّ الزاني والزانيةِ؟

قالَ تَعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ ووجَّهَ الخطابَ للأمةِ، والمرادُ رعاةُ الأمةِ، يعني أولياءَ الأمورِ، لكن لما كانَ الزنا مفسدةً للأمةِ كلِّها جعلَ الخطابَ بعقوبةِ الزانيةِ والزاني موجَّهًا للأمةِ كلِّها.

قولُه: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ يعني لا تَرأَفُوا بهما ولا تَرحمُوهُما في دينِ اللهِ، بل أَقيموا عليهمَا هذا الحدَّ، ولا ترحمُوهما لكنْ من حيثُ الدينُ، أما مِن حيثُ القدرُ فقد يَرحمهُما الإنسانُ، لكن حدودُ اللهِ لا بدَّ أن تَنفذَ.

قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ يعني إن كنتمْ تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ حقَّ الإيمانِ فاجلدُوا كلَّ واحدٍ منهما مِئةَ جلدةٍ ولا ترحمُوهُما.

قولُه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني لا تجلدُوهما سرًّا في مكانٍ محوطٍ لا يَشهدُهم أحدٌ، بل لا بدَّ أن يشهدَهما طائفةٌ منَ المؤمنينَ.

التغريبُ:

وهذهِ الآيةُ فيها ذِكرُ الجَلدِ فقطْ، وهوَ مِئةُ جلدةٍ، وهناكَ شيءٌ زائدٌ على مئةِ جلدةٍ، وهوَ أن يُغرَّبَا عنِ الوطنِ سنةً كاملةً، بمعنى أن يُطردَا عنِ البلدِ لمدةِ سنةٍ كاملةٍ، والحكمةُ منْ هذا التغريبِ أن يَبتعدَا عنْ موضعِ الفتنةِ حتى يَنسيَاها، فمثلًا إذا حصلَ منهما الزنَا في بلدتِهما فنغربُهما إلى بلدةٍ أخرى لمدةِ سنةٍ، ومعلومٌ أنهما يَفترقانِ على هذهِ الحالِ، فهذهِ تذهبُ معَ محرمِها، وهذا يذهبُ إلى نفسِهِ.

الرجمُ:

وهذا الحـدُّ ليسَ ثابتًا في الزانيةِ والزاني، فإذا كانَا محـصنَينِ فحدُّهُما الرجمُ، والمحصنُ هوَ المتزوجُ الذي جامعَ زوجتَه، فهذا إذا زنَى فإنه يُرجَمُ، وكيفيةُ الرجمِ أن يُوقفَ الزاني أمامَ الناسِ، وأن يُجمعَ حصًى صغارٌ ليسَ كبيرًا جدًّا ولا صغيرًا جدًّا، فيتناولُ الناسُ هذهِ الحجارةَ ويرمونَهُ بها إلى أن يموتَ، ولا يجـوزُ لأحدٍ أن يتعمدَ ضربَ شيءٍ يموتانِ بهِ سريعًا، يعني المَقاتلَ؛ لأن هذا يُؤدي إلى قتلِهما وموتِهما سريعًا، والمقصودُ إيلامُهما برمي الحجارةِ قبلَ أن يَموتَا. فهذا هوَ الرجمُ.

والحكمةُ مِن كونِ المحصنِ يُرجَمُ دونَ غـيرِ المحصَنِ أن المحصنَ قد أتمَّ اللهُ عليهِ النعمةَ بالزواجِ، ولكنهُ كفرَ هذهِ النعمةَ، وابتغى سبيلَ الفاحشةِ، فكانَ جزاؤُه أن يرجمَ.

وقدْ يقولُ قائلٌ: لماذا لا نقتلُه بالسيفِ؛ لأن ذلكَ أسرعُ وأريحُ؟

فالجوابُ على ذلكَ أنا نقولُ: نقتلُه بالحجارةِ لأن بدنَهُ قد تلذذَ بهـذهِ اللذةِ الخبيثةِ، فكانَ منَ المناسبِ أن يذوقَ بدنُه ألمَ العقوبةِ. ولذةُ الجماعِ تكونُ في البدنِ كلِّه فناسبَ أن يكونَ موضعُ هذهِ اللذةِ الخبيثةِ المحرمةِ محلًّا للعقوبةِ، فيتألمُ كلُّ بدنِهِ بضربِ الحجارةِ. وهذا مِن حكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقدْ يقولُ قائلٌ: أليسَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قالَ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، ولْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»[1] وهذا لو كُنا قتلنَاهُ بالسيفِ لكنا أَحسَنَّا إليهِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة، رقم (١٩٥٥).

أكثرَ، ولكانَ ذلكَ أريحَ لهُ، فكيفَ نجمعُ بينَ هذا وبينَ الحديثِ الذي سُقناهُ الآنَ؟

فالجوابُ مِن أحدِ وجهينِ: إما أن يقالَ: المرادُ بإحسانِ القِتلةِ أن تكونَ القِتلةُ مطابقةً للشريعةِ، والرجمُ قِتلةٌ مطابقةٌ للشريعةِ، فنكونُ بذلكَ أَحسَنَّا القِتلَةَ.

وإما أنْ يُقالَ: إن الحديثَ «**فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ**» عامٌّ لكنهُ مخصوصٌ بالرجمِ، وكمْ من نصوصٍ في الكتابِ والسنةِ كانتْ عامةً وخُصصتْ بنصوصٍ أُخرى.

عقوبةُ اللواطِ:

بقيَ أن يقالَ: وما عقوبةُ اللُّوطيِّ؟

نقولُ: عقوبةُ اللوطيِّ أن يُقتلَ بكلِّ حالٍ، وإن لم يكنْ مُحصَنًا، فإذا تلوطَ إنسانٌ بآخرَ وجبَ القتلُ. والمرادُ باللوطيِّ هوَ جماعُ الذكرِ الذَّكَرَ والعياذُ باللهِ، فهذا اللوطيُّ يجبُ فيهِ القتلُ بكلِّ حالٍ، سواءٌ كانَ محصنًا أم غيرَ محصنٍ؛ لأن هذا الفاعلَ -والعياذُ باللهِ- أتى فَرْجًا لا يُمكنُ أن يحلَّ لهُ بحالٍ منَ الأحوالِ.

كيفيةُ قتلِ اللوطيِّ:

ولكنْ بماذا يُقتلُ؟

قالَ بعضُ العلماءِ: يقتلُ بالسيفِ؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ، وَالمَفْعُولَ بِهِ**»[1]. ولمْ يبينِ النبيُّ ﷺ آلةَ القتلِ، فيُحملُ على القتلِ المعروفِ المألوفِ، وهوَ القتلُ بالسيفِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، رقم (٤٤٦٢)، والترمذي: أبواب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب مَن عمِل عَمَل قوم لوط، رقم (٢٥٦١).

وقالَ بعضُ العلماءِ: بلْ يُرجمُ بالحجارةِ؛ لأن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ألقى الحجارةَ على قُرى قومِ لوطٍ، فأرسلَ عليهمْ حجارةً مِن سِجيلٍ، فيرجمُ هذا بالحجارةِ حتى يموتَ.

وقالَ آخرونَ: بل يُصعدُ بهِ إلى أعلى مكانٍ في البلدِ ويُرمى منهُ على الأرضِ؛ بناءً على ما قيلَ: إن جبريلَ حملَ قُرى قومِ لوطٍ ثم نكسها على الأرضِ.

فهذهِ ثلاثةُ أقوالٍ.

وقالَ بعضُ العلماءِ: بل يُحرقونَ إحراقًا؛ اقتداءً بأبي بكرٍ الصديقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنهُ أحرقَ اللوطيَّ[1]؛ وذلكَ لعظمِ فاحشتِهم والعياذُ باللهِ.

ولهذا تجدونَ القرآنَ ذكرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيهِ عن لوطٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنهُ قالَ لقومِهِ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف:٨٠]، وفي الزنَا قالَ تَعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء:٣٢]. والمعرَّفُ بـ(أل) أشدُّ قُبحًا.

وعلى كلِّ حالٍ نحنُ نقولُ: إذا قُتلَ اللوطيُّ -الفاعلُ والمفعولُ- فيكفينا هذا، والإمامُ لهُ النظرُ الأوفى فيما يختارُ من صفاتِ القتلِ، والمهمُّ ألا يبقى هذا الجنسُ الشاذُّ في المجتمعِ؛ لأن هذا الجنسَ الشاذَّ إذا بقيَ في المجتمعِ أفسدَ المجتمعَ كلَّه وصارَ الرجالُ بمنزلةِ النساءِ، وما أعظمَ العارَ أن يُشاهدَ الناسُ هذا المفعولَ بهِ بعدَ أن يَعقلَ وبعدَ أن يَكبرَ وكأنهُ امرأةٌ منَ النساءِ والعياذُ باللهِ! فتزولُ الرجولةُ، وتنتكسُ الأمورُ. نسألُ اللهَ السلامةَ!

---

(١) أخرجه الآجري في ذم اللواط (ص:٥٨)، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (ص:١٠٠، رقم ١٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٨١، رقم ٥٠٠٥).

ثم إنهُ قدْ يُبتلى بهذا الداءِ، وإن كانَ كبيرًا، فتجدُه يتتبعُ الناسَ يدعُوهم إلى نفسِه والعياذُ باللهِ، ولهذا كانَ قتلُه هوَ الحكمةَ، وهوَ مُقتضَى الشريعةِ، وهوَ الذي جاءَ بِهِ الحديثُ: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ، وَالمَفْعُولَ بِهِ**» ولا بد، ولكنْ يُشترطُ أن يكونَا بالِغَينِ، فإن كانَا صغيرينِ فإنهما لا يُعاقبانِ بهذِهِ العقوبةِ؛ لأنهُ قَد رُفِـعَ عنهما القلمُ، وأن يكونَا عاقلينِ، فإن كانَا غـيرَ عاقلينِ فإنهما لا يعاقبانِ بهذِهِ العقوبةِ؛ لأن القلمَ مرفوعٌ عنهما، وأن يكونَا عالِمَينِ بالتحريمِ، وهذا الشرطُ كما ذكرتُ لا قيـمةَ لهُ في المجتمعِ الإسلاميِّ؛ لأن المجتمعَ الإسلاميَّ كلَّه يَعرفُ أن اللواطَ مُحرمٌ، وربما يكونُ مِن قومٍ أسلمُوا حديثًا وكانَ هذا الفعلُ فاشيًا عندَهُم، فيعتقدونَ أنهُ حلالٌ.

وهُناكَ شرطٌ رابعٌ، وهوَ أن يكونَ كل من الفاعلِ والمفعولِ بِهِ مختارًا، فإنْ كانَ مُكرهًا فلا عقوبةَ على المُكرَهِ، ولكنْ ما الذي يُدرينَا أنهُ مكرَهٌ أو مختارٌ؟ إذا ادَّعَى أنهُ مُكرَهٌ وكانتِ القرينةُ تدلُّ على ذلكَ لكونِه مثلًا لم يبلغْ سنًّا يستطيعُ أن يدافعَ بها عنْ نفسِهِ فإننا نقبلُهُ، وأما إذا ادَّعى الإكراهَ والقرائنُ تكذِّبُهُ فهذا يرجعُ إلى نظرِ القاضِي.

فهذَا الحكمُ الأولُ مِن أحكامِ هذهِ السورةِ، وهوَ حدُّ الزنَا، وذكرنَا ما دَلتْ عليهِ الآيةُ، ثم استطردنَا إلى الزنا منَ المحصنِ، ثم إلى اللواطِ.

قولُه تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ انتبهُوا لهذهِ الآيةِ فقدْ أَشكلَ معناهَا على كثيرٍ منَ الناسِ، قالَ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ فما معنَى (لا ينكحُ)؟

قالَ بعضُهمْ: لا يطأُ إلا زانيةً، وهذا القولُ يُبقي الآيةَ لا قيمةَ لها؛ لأن معناهَا على هذا القولِ: الزاني لا يَزني إلا بزانيةٍ، وهذا لا وجهَ لهُ، فهذا كقولِ القائلِ[1]:

كَأَنَّنَا وَالمَاءُ مِنْ حَوْلِنَا قَوْمٌ جُلُوسٌ حَوْلَهُمْ مَاءُ

فلا فائدةَ من هذا الكلامِ.

فلا فائدةَ منَ الآيةِ لو كانَ هذا المعنى: الزاني لا يَزني إلا بزانيةٍ، ولكنِ المعنَى ما ذكرَهُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]، قالَ: إن الزانيَ إذا تزوجَ امرأةً فمِنَ المعلومِ أنهُ لا يجوزُ للمرأةِ أن تتزوجَ بزانٍ؛ لقولِه تعالى في آخرِ الآيةِ: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإذا تزوجتْ وهيَ تعلمُ أن نكاحَها بِهِ حرامٌ صارتْ زانيةً؛ لأنها الآنَ استباحتْ ما حرمَ اللهُ، وإن فعلتْ ذلكَ وتزوجتْ زانيًا غيرَ مقتنعةٍ بحكمِ اللهِ صارتْ مشركةً، فهيَ لا تخلُو إما أن تكونَ مقتنعةً بالحكمِ الشرعيِّ ولكنهَا خالفتْهُ عَن عمدٍ، فنَصِفُها بالزنَا، وإما أن تَنكحَ الزانيَ غيرَ مقتنعةٍ بالحكمِ الشرعيِّ وتقولُ كما قالَ أصحابُ الربَا: إنما البيعُ مثلُ الربَا، فهذهِ تكونُ مشركةً؛ لأنها لم ترضَ بالحكمِ الشرعيِّ.

وهذا التحليلُ الذِي ذكرَهُ شيخُ الإسلامِ هوَ الذي لا تحتملُ الآيةُ سواهُ، ولهذا نقولُ: إذا كانَ الرجلُ معروفًا بالزنَا -والعياذُ باللهِ- فإنهُ لا يجوزُ أن يُزوَّجَ، حتى وإن كانَ يُصلي ويصومُ ويتصدقُ ويفعلُ الخيرَ، ونحنُ نعرفُ أنهُ مشهورٌ بالزنَا، فإننا لا نزوجُهُ إلى أن يتوبَ، فإذا عُلمَ أن هذا الرجلَ اعتاد أن يذهبَ إلى بلادِ الكفرِ

---

(١) الكشكول (١/ ٢٦١).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (١٥/ ٣١٨).

والمجونِ والفجورِ مِن أجلِ الزنَا، فهذا لا نُزوِّجُه حتى لو كانَ يصلي ويتصدقُ ويصومُ ويفعلُ الخيرَ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فحرامٌ أن نزوجَ الزانيَ حتى يتوبَ.

كذلكَ أيضًا الزانيةُ لا يَنكحُها إلا زانٍ أو مشركٌ، فالزانيةُ لا يجوزُ أن يتزوجَها أحدٌ حتى تتوبَ، وإن تَزوجَها فإنهُ إما زانٍ أو مشركٌ، ونَصِفُه بالزنَا إذا تزوجَها وهوَ يعلمُ أن ذلكَ حرامٌ ومقتنعٌ بذلكَ، أما إذا تزوجَها وهوَ لم يقتنعْ بالحكمِ الشرعيِّ فإنهُ مشركٌ، ولهذا قالَ عَزَّوَجَلَّ بعدَ ذلكَ: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إذنِ الزانيةُ لا يمكنُ أن تُزوجَ حتى تتوبَ منَ الزنَا. وكيفَ نعلمُ أنها تابتْ؟

قالَ بعضُ العلماءِ -وانتبِهوا لهذا القولِ فسنحللُه ونُدخلُه المعملَ-: توبتُها أن تُراوَدَ عنِ الزنَا فتمتنعَ، يعني أن يأتيَها رجلٌ يطلبُ أن يزنيَ بها وتقولَ: لا، فهذهِ تَوبتُها.

وهذا القولُ لا يصلُحُ؛ لأن هذا الذي يأتي يراوِدُها إن كانَ أمامَ الناسِ فسَتمتنِعُ قطعًا، ولا يمكنُ أن تطيعَ، وإن كان سرًّا فإنهُ يُخشى عليهِ إذا طاوعتْهُ، فكيفَ نأمرُه بأمرٍ يكونُ وسيلةً للزنَا! فهذا لا يصلحُ.

ولهذا نقولُ: توبةُ الزانيةِ منَ الزنَا كغيرِهَا؛ أن نعلمَ أن المرأةَ استقامتْ وأنها تركتْ هذهِ الأمورَ، وابتعدتْ عنهَا، وحينئذٍ يجوزُ تَزوُّجُها.

إذنْ حكمُ تَزوُّجِ الزاني والزانيةِ أنهُ حرامٌ إلى أن يَتوبَا

قولُه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا

نَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

ثم ذكرَ اللهُ تعالى حكمَ القذفِ بالزنَا، يعني أن تصِفَ شخصًا بالزنَا، والحكمُ في ذلكَ قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، القاذفُ إذا قذفَ غيرَه بالزنَا -أي وصفَهُ بِهِ وقالَ: فلانٌ زانٍ، أو فلانةٌ زانيةٌ- فهذا حكمُه ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾، هذا واحدٌ.

والحكمُ الثاني: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾.

والحكمُ الثالثُ: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فيخرجونَ منَ العدالةِ إلى الفسقِ، فحينئذٍ يُحرمُونَ مِن كلِّ عملٍ يُشترطُ فيهِ العدالةُ؛ لأنهم أصبحُوا فسقةً.

قالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فلدينَا الآنَ استثناءٌ، ولدينَا قبلَ الاستثناءِ ثلاثةُ أحكامٍ؛ الأحكامُ التـي سبقت الاستثناءَ ثلاثةٌ: أن يُجلدَ ثمانينَ جلدةً، وأن تُردَّ شهادتُه، وأن تَرتفعَ عدالتُه، إلا الذينَ تابوا، فهلْ هذا الاستثناءُ يعودُ على هذهِ الأحكامِ الثلاثةِ كلِّها، أو على الأخيرِ منهَا، أو على الأَخيرِ والذِي قبلَهُ، أو ماذَا؟

نقولُ: أما عودُهُ على الأخيرِ، وهوَ زوالُ الفسقِ بالتوبةِ، فلا إشكالَ فيهِ، يعني أن القاذفَ إذا تابَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فإنهُ يرتفعُ عنهُ وصفُ الفسقِ، ويعودُ إلى وصفِ العدالةِ.

وأما قبولُ الشهادةِ فهلْ إذا تابَ القاذفُ منَ القذفِ وأكذبَ نفسَهُ وقالَ: إن صاحبي عفيفٌ، وإنهُ ليسَ منَ الزناةِ، هلْ نقولُ: إنهُ بعدَ ذلكَ تُردُّ شهادتُه؟

في هذا خلافٌ بينَ العلماءِ؛ فمنـهمْ مَن قالَ: تُقبلُ شهادتُه، ومنـهمْ من قالَ: لا تُقبلُ، والصَّحيحُ أنها تُقبلُ.

والحكمُ الأولُ وهوَ الجَلدُ، هلْ يَسقطُ الجلدُ بالتوبةِ؟

الجوابُ: لا يسقطُ الجلدُ بالتوبةِ؛ وذلكَ لأن الجلدَ هنا فيهِ شائبةُ حقٍّ لآدميٍّ، وهوَ المقذوفُ، فيُجلدُ على كلِّ حالٍ، وفي جلدِ القاذفِ حمـايةٌ لأعراضِ المسلمينَ من الاتهامِ بالزنَا، فإذا رجعَ القاذفُ بهذا الحكمِ الصارمِ كانَ في ذلكَ تقليلُ القذفِ بالزنَا.

القذفُ باللواطِ:

والقذفُ باللواطِ كالقذفِ بالزنَا، بل أَولى؛ لأنهُ أشدُّ عارًا، فإذا قالَ لشخصٍ ما: إنهُ لوطيٌّ، أو قالَ: إنهُ أبو الغلمانِ، أو ما أشبهَ ذلكَ منَ الكلماتِ التي تدلُّ على هذا؛ كانَ قاذفًا، وثَبتتْ في حقِّه الأحكامُ الثلاثةُ التي ذُكرتْ.

استشهادُ القاذفِ بأربعةِ شهودٍ:

فإن أقامَ القاذفُ أربعةَ شهودٍ يشهدونَ على ما قالَ، فهلْ ترتفعُ عنهُ العقوبةُ؟

الجوابُ: ترتفعُ عنهُ العقوبةُ، ويثبتُ الحكمُ في المقذوفِ؛ إن كانْ محصنًا رُجمَ، وإن كانَ غيرَ محصنٍ جُلدَ مئةَ جلدةٍ، وغُربَ عامًا، وإن كانَ غيرَ بالغٍ ولا عاقلٍ فلهُ حكمُهُ.

فإن قالَ قائلٌ: إذا قذفَ مَن ليسَ مُحصنًا، أي مَن هوَ مُتهمٌ بالزنا، فهلْ عليهِ حدُّ القذفِ؟

فالجوابُ: لا، ليسَ عليهِ حدُّ القذفِ؛ لأن المقذوفَ مُتهمٌ بدونِ قذفِه، فقذفُه لم يؤثرْ شيئًا، ولهذا قيَّدَ اللهُ تعالى ذلكَ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ يعني العفيفاتِ عنِ الزنَا، فإذا كانَ المقذوفُ معروفًا بالزنَا فإن مَن قذَفَهُ لا يُحدُّ هذا الحدَّ، ولكنْ هل يُعزرُ، يعني يُؤدبُ تأديبًا يردَعُهُ؟

الجوابُ: يُعزرُ، أي يُؤدبُ تأديبًا يَردعُهُ؛ لأنه ليسَ لهُ الحقُّ في أن يَتهمَ الناسَ، وإن كانَ ينطقُ بتهمتِهم.

وفي هذا دليلٌ على أن أيَّ إنسانٍ يَتهمُ شخصًا بشيءٍ منَ السوءِ، ثم ينطقُ بهِ، فإنهُ يُعزَّرُ بذلكَ؛ لأن ذلكَ منَ العدوانِ على الغيرِ.

قولُهُ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

ثم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾، وهذا كالمستثنى مما سبقَ، فإذا رَمَى الإنسانُ زوجتَه -والعياذُ باللهِ- وقالَ: إنها زنتْ، فإن الحكمَ يختلفُ، فالذي ذكرنَا الآنَ أن مَن قالَ عنْ شخصٍ: إنهُ زنَى، فإنْ لم يأتِ بأربعةِ شهداءَ فإنهُ يَثبتُ في حقِّه ثلاثةُ أحكامٍ، ويُستثنَى من ذلكَ الرجلُ معَ زوجتِه، فإذا قذفَ الرجلُ زوجتَه اختلفَ الحكمُ.

قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ يعنِي ليسَ عندَهُم مَن يشهدُ لهم ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. ولْنُصورِ المسألةَ: رجلٌ قالَ: إن زوجتَهُ زنتْ والعياذُ باللهِ، فنقولُ: إذا سألنَا الزوجةَ وقالتْ: نعمْ حصلَ منها ذلكَ، ولكنهَا تابتْ، فليسَ عليهِ شيءٌ؛ لأن المرأةَ أقرتْ، ولكنهَا تابتْ، إلا أنهُ يُعزرُ لكونِه قذفَها مما تابتْ منهُ، هذهِ واحدةٌ.

فإذا أنكرتِ الزوجةُ وقالتْ: إنهُ كاذبٌ، قلنَا لهُ: هلْ عندَكَ شهودٌ أربعةٌ؟ فإذا قالَ: عندِي أربعةٌ، وأتى بشهودٍ أربعةٍ يشهدونَ على أن الزوجةَ قدْ زنتْ، سَلمَ الرجلُ وثبتَ حدُّ الزنَا عليهَا.

ولكنْ لاحِظوا أن الشهادةَ بالزنَا لا يَكفي فيها أن يقولَ الشاهدُ: رأيتُ الرجلَ على المرأةِ يُحركُ عجيزتَهُ يرتفعُ وينزلُ، فلا يَكفي هذا، بلْ لا بدَّ أن يقول: رأيتُ ذكرَهُ في فرجِها، وهذهِ شهادةٌ عظيمةٌ، فمنْ يستطيعُ أن يشهدَ بأن ذكرَ الرجلِ في فرجِ المرأةِ! إلا مَن كانَ بينهُما.

على كلِّ حالٍ الشهادةُ هنا لا بدَّ أن تكونَ بهذا اللفظِ: إنهُ رأى ذَكرَ الزاني في فرجِهَا، وإلا فلا تُقبلُ.

فإذا قالَ الزوجُ: ليسَ عندِي شهودٌ، والمرأةُ لم تقرَّ بالزنَا؛ فإنهُ يقالُ للرجلِ: اشهدْ باللهِ أن امرأتَكَ قد زنتْ أربعَ مراتٍ، فيقولُ: أشهدُ باللهِ أن زوجتِي قدْ زنتْ أربعَ مراتٍ، وفي الخامسةِ يقولُ: وأن لعنةَ اللهِ عليهِ إن كانَ منَ الكاذبينَ.

فإذا قالَ هذا صارَ بمنزلةِ الشهودِ، وقلنَا للمرأةِ: الآنَ إما أن تُلاعنِي، يعني تَردِّي شهاداتِ الرجلِ، وإما أن نقيمَ الحدَّ عليكِ، فإذا لاعنتْ وقالتْ: نعمْ أنا أردُّ شهادتَهُ، فتشهدُ أربعَ مراتٍ أنهُ كاذبٌ فيما اتَّهمني بِهِ، أو فيما رماني بِهِ، وتقولُ الخامسةَ: وأن غضبَ اللهِ عليها إن كانَ منَ الصادقينَ.

واستثنيتْ هذهِ الحالُ مِن حكمِ القاذفِ لأنهُ منَ المستبعدِ جدًّا أن يقذفَ الرجلُ زوجتَه بالزنَا؛ لأنهُ إذا قذفَ زوجتَهُ بالزنا فقدِ اعترفَ بتدنيسِ فراشِهِ، وهذا أمرٌ عظيمٌ، ولا أحدَ يُقدِمُ على أن يرميَ زوجتَهُ بالزنَا إلا وهوَ محِقٌّ، ولذلكَ لم يَقمْ عليهِ حدُّ القذفِ، وإنما حُوكِمَ باللِّعَانِ.

فإذا قالَ قائلٌ: لماذا كانَ الدعـاءُ على الزوجِ باللعنةِ، والدعاءُ على الزوجـةِ بالغضبِ؟

قلنَا: لأن الزوجَ أقربُ إلى الصوابِ منهَا، فلهذَا خُففَ الدعاءُ عليهِ باللعنةِ، وهيَ الطردُ والإبعادُ عن رحمةِ اللهِ، وشددَ على المرأةِ بالغضبِ، والغضبُ يستلزمُ اللعنةَ وزيادةً؛ لأن كونَ المرأةِ تُنكر أنها زنتْ فهذا أمرٌ تدفعُ بِهِ السوءَ عن نفسِها، وكونَ الرجلِ يدَّعي أن امرأتَه زنتْ فهذا أمرٌ لا يمكنُ الإقدامُ عليهِ إلا وهوَ صحيحٌ، وإلا وهوَ حقٌّ ثابتٌ. فهذا حكمُ قذفِ الرجلِ زوجتَهُ بالزنا.

فإن قالَ قائلٌ: رجلٌ اتَّهمَ زوجتَهُ بالزنَا، وكانَ الرجلُ أبيضَ، والمرأةُ بيضاءَ، وجاءَ الطفلُ أسودَ كأنهُ الليلُ المظلمُ، فاتهمَهَا بذلكَ، قالَ: لولا أن زَنَى بها رجلٌ أسودُ ما جاءتْ بهذا الأسودِ.

فالجوابُ: أن هذا لا يُبيحُ لهُ أن يقذفَها بالزنا، وهذا حرامٌ عليهِ، فأسامةُ بنُ زيدٍ

وأبوه زيدُ بنُ حارثةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مختلفانِ في اللونِ، فلونُ أسامةَ أسودُ، ولونُ أبيهِ أبيضُ، ومعَ ذلكَ كان إجماعُ المسلمينَ أنهُ ابنُه، ولا إشكالَ في هذَا.

لكنِ الزوجُ في الصورةِ التي ذكرنَا أبيضُ، والزوجةُ بيضاءُ، والولدُ أسودُ، فمنْ أينَ جاءَ هذا؟

نقولُ: هذهِ القصةُ وقعتْ في عهدِ الرسولِ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ؛ فقدْ جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ وقالَ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ**» يعني هذا الرجلُ أبيضُ والزوجةُ بيضاءُ، فكيفَ ذلكَ؟ فأجابَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ بجوابٍ مُقنعٍ لا يحتملُ المعارضةَ، «**هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مَا أَلْوَانُهَا؟ قَالَ: حُمْرٌ. قَالَ: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟**» والأورقُ الذِي لونُهُ بينَ البياضِ والسوادِ، «**قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنَّى ذَلِكَ؟ قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ**» فيمكنُ أن أحدَ أجدادِه أو جداتِه كانَ أورقَ، فقالَ: «**فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ**»[1]. فاطمأنَّ الرجلُ تمامًا؛ لأن الرسولَ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ضربَ لهُ مثلًا محسوسًا يُدركُهُ هوَ وغيرُه.

إذنْ يجبُ على الإنسانِ إذا ولدتْ زوجتُه مَن لا يُشبِهُها في الشَّبهِ أو لا يُشبهُهما في اللونِ؛ يجبُ عليهِ أن يحفظَ لسانَه، وأن يتقيَ اللهَ، وأن يعلمَ أنهُ لو كانتْ زنتْ حقيقةً وهذا الولدُ منَ الزاني؛ لكانَ هذا الولدُ للزوجِ شرعًا؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «**الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ، وَلِلْعَاهِرِ**» أي: الزاني «**الحَجَرُ**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، رقم (٥٣٠٥)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، وغيرها بوضع الحمل، رقم (١٥٠٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب الولد للفراش، حرة كانت أو أمة، رقم (٦٧٤٩)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب الولد للفراش، وتوقي الشبهات، رقم (١٤٥٧).

فلا يكونُ في قلبِهِ قلقٌ ولا شكٌّ ولا تَرددٌ؛ لأننا نقولُ لهُ: إن لم يكنْ لكَ هذا الولدُ قَدَرًا، فهوَ لكَ شرعًا، ولا تتهمْ أهلَكَ.

بعضُ الناسِ يتزوجُ امـرأةً على أنها بكرٌ، ثم يَراها ليسَ لها بكارةٌ، فيـوقعُ الشيطانُ في قلبِه ألفَ وَسواسٍ: أينَ بكارَتُها؟ وكيفَ ذهبتْ؟ ولعلَّها قد زنتْ؟ وهذا لا يجوزُ، فما دمتَ أقدمتَ على المرأةِ على أنها ذاتُ خُلقٍ ودينٍ فلا تَتهِمْهَا بمجردِ أنكَ لم تجِدِ البكارةَ، فالبكارةُ ربما تَعبثُ بها المرأةُ نفسُها وتزولُ، وربما تزولُ البكارةُ مِن قفزةٍ قفزَتْها، وربما تزولُ البكارةُ من عـودٍ سقطتْ عليهِ، وربما تزولُ البكارةُ مِن شخصٍ أكرَهَها وهيَ صغيرةٌ؛ لأنهُ قد يقعُ الإكراهُ بينَ الصغارِ، فأسبابُ إزالةِ البكارةِ لا تنحصرُ في الزنَا، بل لها أسبابٌ أُخرى.

إذنْ -يا أَخي- ما دمتَ رَضِيتَ زوجتَكَ، وأنتَ الآنَ تعرفُ أنها ذاتُ خُلقٍ ودينٍ، فلا يهمنَّكَ ذلكَ الأمرُ، ولا تَتهِمْها من أجلِ هذا الأمرِ، وقلِ: اللهمَّ باركْ لي فيهَا، وباركْ لها في، واستمرَّ عليها، وإياكَ أن يُوسوسَ لكَ الشيطانُ وَساوسَ كثيرةً.

وهذهِ المسألةُ واقعةٌ، ويَسألُ عنها بعضُ الناسِ، ونطمئنُهم ونقولُ: اطمئنُّوا، فما دامتِ المرأةُ مستقيمةً ملتزمةً، واخترتَها أنتَ لنفسِك، ولم ترَ عليهَا بأسًا، فاحمدِ اللهَ. لكنْ بعضُ الناسِ -والعياذُ باللهِ- إذا رأَى هذهِ الحالَ أكرَهَ زوجتَهُ على أن تُقرَّ بما يكرَهُهُ هوَ، وتكرَهُهُ هيَ، وهو في غنًى عن ذلكَ، فتجدهُ يسألُ: لماذا لا توجدُ بكارةٌ، فيكشفُ سترَها الذي سترَهَا اللهُ بهِ، فيكونُ ذلكَ سوءًا عليهَا وعليهِ أيضًا، ولا يحلُّ لهُ أن يُكرهَها لتجيبَه، بل يسكتُ ويحمدُ اللهَ، ولا ينبشُ عن شيءٍ مضَى، لكن يحفظُ زوجتَه، ولا مانعَ أن الإنسانَ يحتاطُ في مثلِ هذهِ الأمورِ.

قولُه تَعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾:

يَعني: لولا فضلُ اللهِ ورحمـتُه علينَا لأعنَتَنَا وشـقَّ علينَا، ولم يَفرِضْ علينَا الحدودَ التي فيها قوامُنا، ولكنَّ اللهَ توابٌ حكيمٌ.

نسألُ اللهَ أن يتوبَ علينَا وعليكُم، وأن يغفرَ لنَا ذنوبَنا وإسرافَنا في أمرِنا، وأن يرزقَنا فهمَ كتابِه، والعملَ بهِ، إنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فقد قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣٠-٣١].

إن اللهَ تعالى يقُولُ لنَبِيِّنا محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ آمرًا لَهُ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، والقُرآنُ كلُّه قد أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ أن يُبَلِّغَه عبادَ اللهِ، ولكن إذا كانَ الأمْرُ مُهمًّا فإنَّ اللهَ تعالى يُصدِّرُهُ بقولِهِ: ﴿قُل﴾ إشارَةً إلى أن هذَا وَحْيٌ خاصٌّ بهذا الموضوعِ، الذي أمَرَ الله نَبِيَّهُ أن يقولَهُ للناسِ.

فكلُّ آيةٍ يُصدِّرُهَا اللهُ تعالى بـ﴿قُل﴾ فذلِكَ معناهُ أن لهذِهِ الآيةِ عِنايةً خاصَّةً، استَحَقَّتْ أن اللهَ تعالى يُوصِي نَبِيَّهُ بها وصيَّةً خاصةً بإبلاغِهَا للناس وقَولها لهُمْ.

قولُهُ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين آمنُوا باللهِ، وآمنُوا بشريعَةِ الله، وآمنُوا برسولِ الله ﷺ ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي: لا يُطْلِقُوا لَهَا العِنانَ، ولا ينْظُرُوا لكُلِّ ما رَاقَ لَهُمْ، ولكِنْ يَغضُّوا منها، ولم يَقُلْ: يغُضُّوا أبصارَهُم؛ لأن بعضَ الأمورِ يجوزُ للإنسانِ أن يتأمَّلَ فيها وينْظُرَ؛ ولكن هناك بعض الأمورِ هي التي عليه أن يَغُضَّ بصَرَهُ عنْها.

قولُهُ: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ عَمَّا حرَّمَ اللهُ عليهِمْ من غيرِ الزَّوجاتِ، وما ملَكَتْ أيمانُهُم، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٥-٦].

قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ بيَّنَ اللهُ تعالى أن ذلِكَ أزْكَى لهم، والزَّكاءُ هو طهارَةُ النَّفْسِ، وطهارَةُ القَلْبِ، وموافَقَةُ الشَّرْعِ، وصلاحُ العَمَلِ، فالزَّكاءُ عليه مدارُ الإسلامِ، كَمَا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠].

قولُهُ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ فلا يُطْلِقْنَ أبصارَهُنَّ بالنظَرِ في كلِّ مَا يَروقُ لهُنَّ، ولكِنْ عليهِنَّ كما على الرِّجَالِ مِنْ غضِّ البَصَرِ.

قولُهُ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، وقَعَ خلافٌ بينَ أهلِ العِلْمِ في المرادِ بالزِّينةِ؟

ذهبَ بعضُ العلماءِ مِنَ السَّلَفِ والخَلفِ إلى أن المرادَ بالزِّينةِ زينَةُ الجِسْمِ، وجمالُ الجِسم، وأن المرادَ بما ظَهَرَ منها هو: الوجْهُ والكفَّانِ؛ لأن الله تعالى نهى المرأةَ أن تُبْدِيَ شيئًا من جِسْمِها إلا ما يظْهَرُ مِنْهُ، وهو الوجْهُ والكَفَّانِ[1].

وذهبَ فريقٌ آخرُ مِنْ علماءِ السَّلف والخَلفِ إلى أنَّ المرادَ بالزِّينَةِ الثِّيابُ، وليسَ

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٧/ ٢٥٨)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٤٥).

زينةَ الجِسْمِ، كما هو المُطَّرِدُ في القُرآنِ، فلا تأتِي الزِّينةُ مضافةً إلى الإنسانِ إلا مُرادًا بها الثِّيابُ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١]، وقال الله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ [الأعراف:٣٢]، ورَأَوا أن المرادَ بالزِّينةِ في هاتَينِ الآيتَينِ هِيَ اللِّبَاسُ.

وهي المرادةُ كذلِكَ في هذِه الآيَةِ: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: لا يُبْدِينَ الزينَةَ مِنْ لِبَاسِهِنَّ إلا ما ظهَرَ منها، أي: ما لَا بُدَّ من ظُهورِهِ أن يظهَرَ، وهو الثيابُ الظاهِرَةُ؛ مثلُ العباءَةِ والجِلبابِ ونَحْوهما، فإن هذَا أمرٌ لا بُدَّ أن يَظْهَرَ؛ ولهذا قالَ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾، ولم يَقُلْ: إلا ما أظْهَرْنَ مِنْهَا، ولو كانَ المرادُ بها ظَهَر ما ذَهَبَ إليه الأوَّلُونَ مِنْ أنَّه الوجْهُ والكفانِ لقالَ: إلا ما أظْهَرْنَ مِنْها.

ومن المعْلُومِ أيضًا أن الوَجْهَ هو زِينةُ المرأةِ وجَمالُها، وهو المقصودُ بالذِّكْرِ، وهو المقصودُ بالسؤالِ، ولذلك عِنْدَمَا يخطِبُ رجُلٌ المرأةَ إنما يسألُ عَنْ وَجْهِهَا، وجمالِ وجْهِهَا، ولا يهمُّهُ ولا يُبَالي بِمَا عَادَاهُ إذا لم يكُنْ جَمِيلًا، كما أنَّه إذا تَبيَّنَ له أن وَجْهَهَا ليسَ بجَمِيلٍ فإنَّه لا يلتَفِتُ إلى ما عَدَاهُ، ويَرْغَبُ عنْها ويطلُبُ سِوَاها، إذن فالزِّينَةُ الحقِيقِيَّةُ في المرأةِ هُو وَجْهُهَا.

أما زِينَةُ الجِسْمِ فليستْ هي المُرادَةَ بهذه الآيَةِ؛ كما ذَهَب إليه المحَقِّقُونَ من أهلِ العِلْمِ[1]، ولكن مع ذلك نَشْكُو إلى اللهِ ما وَقَعَ فيه نِساءُ المسلِمِينَ اليومَ من هذا التَّبَرُّجِ؛ الذي لم يقُلْ به أَحَدٌ من عُلماءِ السَّلَفِ ولا مِنْ علماءِ الخَلَفِ، حيث إن كَثِيرًا من النساءِ اليومَ يُبدِينَ وجُوهَهُنَّ، وأذْرُعَهُنَّ، وأعضَادَهُنَّ.

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٧/ ٢٥٧) وما بعدها، وتفسير ابن كثير (٦/ ٤٥).

وهذا أمرٌ منكَرٌ لم يقُلْ به أحدٌ من أهْلِ العِلْمِ، وليس مُرادًا للهِ عَزَّوَجَلَّ في هذِهِ الآية بأَيِّ وجهٍ مِنَ الوُجوهِ، ولكن هو التَّقْليدُ الأعْمَى، والاستعمارُ الفِكْرِيُّ، والغَزو الَّذِي أحاطَ بالمسلِمينَ من أعدائِهِمْ، حتى غَرَّ ضعفاءَ العُقولِ، ونُقصاءَ الأدْيانِ، فذَهَبُوا يلْهَثُونَ وراءَ هذه الأممِ الكافِرَةِ، يأخُذُونَ أسافِلَ أخْلاقِهم، ويَدَعُون أحاسِنَ أخلاقِهِمْ، التي جاء بها الدِّينُ الإسْلامِيُّ.

فيجبُ على المسلِمينَ المخاطَبُون بهذه الآيةِ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، أن يَتَّقُوا اللهَ تعالى في أهْلِهِمْ، ويتَّقُوا اللهَ تعالى في نِسائِهِمْ، فلا يُقَلِّدُوا أعداءَ الإسلامِ الذين فتَحُوا عليهِمْ أبوابَ الفِتْنَةِ؛ لأنهم عَلِمُوا أنكُمْ إذا مِلْتُم إلى هذِه الفِتْنَةِ، وإذا أشْبَعْتُم رَغَباتِكُم، فإنكم بذلك تَصدُّونَ عن سبيلِ اللهِ، وتَصُدُّونَ عن الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وتَصدُّونَ عن قتالِ أعداءِ اللهِ، وتذهَبُ منكُمُ الغَيرَةُ على دينِ اللهِ، ويكونُ هَمُّكُم كَهَمِّ البهائمِ، ليس للإنسانِ هَمٌّ سَوى فَرجِهِ وبطنِهِ.

فعلينَا أن نمنَعَ نساءنَا مِنَ هذا التَّبَرُّجِ، في بيوتِ اللهِ، ولا سِيَّما في المسجدِ الحرامِ الذي هو أعظَمُ مساجِدَ اللهِ، وهو أوَّلُ بَيْتٍ وضَعَه الله تعالى لعبادتِهِ في الأرْضِ، إن عليكم أيُّها المسلِمُونَ أن تَهْزِمُوا كيْدَ أعدائِكُمْ بكُمْ، وأن تعْرِفُوا أنهم إنما يَفْتَحُونَ عليكَمْ هذِهِ الفِتْنَةَ؛ التي قال فيهَا نَبِيُّكم، وأعلَمُ الخَلْقِ بمصالِحِكُم، وأعلمُ الخَلقِ بما يَفْتِنُكُم عَنْ دينِكُم محمدٌ ﷺ، قالَ فيهَا: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»[1]، هَذِه الفِتْنَة التي سَلَبَت عُقُول كثيرٍ مِنَ الناسِ، الذين ليسَ عِندهُمْ كمالُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، رقم (٤٨٠٨)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، رقم (٢٧٤٠).

مِنَ الإيمانِ، ولا كمالٌ مِنَ العَقْلِ، وإنما يَلْهَثُونَ وراءَ أعدَائِهِمْ لأجْلِ أن يتَقَيَّأَ أعداؤُهم هَذِه الأسافِلَ من الأخلاقِ، فيأتِي هؤلاءِ ويقَعُونَ في قَيءِ أعْدائِهِمْ مِنْ هذه الأسافِلِ، وما يعْلَمُ هؤلاءِ أن أعداءَهُم لا يُرِيدونَ بهِمُ الخَيْرَ.

إن أعداءنَا الذين وقَعُوا في هذه الفِتْنَةِ يحاولُونَ اليومَ الفِرارَ مِنْها، ولكِنْ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٢]، إنه لا يُمْكِنُهم اليومَ أن يتخَلَّصُوا منْها؛ لأن المرأةَ في بلادِهِمْ خرَجَتْ عَنِ القُيودِ، حتى صارَتْ مُحَرَّرَةً من كُلِّ قَيْدٍ إلا مِنْ قُيودِ الشَّيطانِ، ومِنْ قُيودِ الشَّهواتِ.

ولذلك يجِبُ علينا أن نَرْجِعَ عما كانَ عليه هؤلاءِ، وأن نتَقَدَّمَ إلى ما كانَ عليه سَلَفُنَا الصالِحُ، من حِفْظِ المرأةِ وصِيانَتِهَا وكرَامَتِـها، وأن نعْلَمَ أن للمرأةِ شَأْنًا وللرَّجُلِ شأنًا، وأن للرِّجالِ أعْمالًا يختَصُّونَ بها، وللنِّساءِ أعْمالًا يختَصِصْنَ بهَا، ولا يمكِنُ أن تَسْتَوِيَ هذه بتلكَ.

كما أن الصادِقَ الحكيمَ لم يُسَوِّ بينَ الرجُلِ والمرأةِ في الطَّبيعَةِ، ولا في الخِلْقَةِ، وكما أن الشَّرْعَ الحكِيم لم يُسَوِّ بينَ الرجُلِ والمرأةِ في بعضِ الأحكامِ التِي تَقْتَضِي الحِكْمَةُ الاختلافَ بينهما، فإن عَلينَا أن نُراعِيَ ذلِكَ، وعلينا أن نُنَزِّلَ كلَّ إنسانٍ مِنْزِلتَهُ، فإن ذلِكَ هو العدْلُ.

إن العَدْل الذي جاءَ بِهِ الإسلامُ في إعطاءِ المرأةِ حَقَّهَا، وإعطاءَ الرجُلِ حقَّهُ هو العَدْلُ الموافِقُ للعَقْلِ، والموافقُ للنَّقْلِ أيضًا، وإن مَنْ طَلَبَ المساواةَ بينَ الرَّجُلِ والمرأةِ مع ظُهورِ الفَرْقِ بينَهُما، إنه لطالِبُ الصَّيْدِ في الماءِ العَكِرِ، وإنه لطَالِبٌ ما يقتَضِي العقْلُ ومَا يقتَضِي الشرْعُ التَّفْرِيقَ بينهما.

وهو بهذا سَفِيهٌ بلا شَكٍّ؛ لأن الله يقولُ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]، وإن مِلَّةَ إبراهيمَ هي عبادَةُ الله وحْدَهُ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٥] وإن عبادَةَ الله هِيَ تطبيقُ شَرْعِهِ في العباداتِ، وفي العاداتِ، وفي المعَاملاتِ والأخْلاقِ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الثالث:

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ عَلَى نَبِيِّنَا محمدٍ وعَلَى آلِهِ وأصحابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإِحْسَانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ للنبـي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِـهِ وسَلَّمَ: **﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾** [النور:٣٠].

اعْلَمْ أَنَّ اللهَ إِذَا صَدَّرَ الآيَةَ بكلمةِ (قل)، فَهَذَا يَعْنِـي زيادةَ العنايةِ بها؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ مأمورٌ أَنْ يقولَ جميعَ القرآنِ، فَإِذَا خُصَّتْ بَعْضُ الآياتِ بِهَذَا دَلَّ عَلَى العنايةِ بها، وَهُوَ كما يُذْكَـرُ فِي ذِكْرِ الخاصِّ بَعْدَ العامِّ فإنَّ ذِكْرَ الخاصِّ بَعْدَ العامِّ يَقْتَضِي العنايةَ به، فكَأَنَّ هَذِهِ الرسالةَ خاصة مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ للرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أَن يُبَلِّغَ هَذِهِ الآيَةَ.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: **﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾** هَذِهِ رسالةٌ خاصةٌ وإلا فكُلُّ القرآنِ يَجِـبُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يقولَه.

قوله: **﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾** أي: لَا يَمُدُّوا البصرَ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ ولَكِنْ يَغُضُّوا منه، أي: لَا يَمُدُّوها إِلَى كُلِّ شَيْءٍ بل يغضوا منها، فَلَا يَنْظُرِ الإنسانُ إِلَى مَا مَتَّعَ اللهُ به أناسًا من زهرةِ الدنيا؛ كما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: **﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾** [طه:١٣١].

وصَدَقَ رَبُّنَا عَزَّوَجَلَّ؛ كم مِنْ إنسانٍ فُتِنَ لما فتَحَ اللهُ عَلَيْهِ الدنيا، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**وَاللهِ مَا الفقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ**

عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»(١). والواقعُ يَشْهَدُ بذلك، وَلِهَذَا وَجَدْنا أَنَّ الَّذِي تَوَلَّى تكذيبَ الرسلِ أَوَّلًا هم الأشرافُ؛ إما بالحسبِ أو بالنسبِ أو بالمالِ.

وقولُه: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾، (مِن) هَذِهِ تبعيضيةٌ، وعلامةُ (من) التبعيضيةِ أن يَحُل محَلَّها كلمةُ (بعض)، أي: يغضـوا بَعْضَ أبصارِهم؛ لِأَنَّ للإنسانِ أَنْ يمدَّ بصرَه إِلَى مَا أَحَلَّ اللهُ له.

ومما يدخلُ فِي الآيةِ غَضُّ البصرِ عَنِ النظرِ إِلَى النساءِ مِنَ الرجالِ، يَعْنِي يجبُ عَلَى الرجـلِ أَنْ يَغُضَّ بصرَه عما لَا يَحِـلُّ لَهُ النظرُ إليه، وَهِـيَ المرأةُ الأجنبيةُ مِنْهُ الَّتِـي لَيْسَتْ مِنْ محارمِه وَلَا زوجةً له، ولَكِنْ يجـوزُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى المرأةِ للحاجـةِ أو للضرورةِ، الحاجـةُ كَأَنْ يريدَ خِطْبَةَ امـرأةٍ فله أَنْ ينظُرَ إليها، ولَكِـنْ بِلَا خَلْوَةٍ وَلَا شهوةٍ، فإِنْ نَظَرَ إليها أَوَّلَ مَـرَّةٍ ولَكِـن لم يتمكنْ مِنْ شَيْءٍ يَدْعُـوهُ إِلَى الإقدامِ أو الإحجامِ فله أَنْ ينظُرَ مَرَّةً أخرى، ولَكِـنْ بِلَا خَلْوَةٍ وَلَا شهوةٍ، لِأَنَّ المقصـودَ الاستعلامُ فقط.

كذلك يجوزُ النظرُ للضرورةِ؛ كما لو رَأَى شَخْصٌ امرأةً سَقَطَتْ فِي ماءٍ وَهِيَ كاشفةُ الوجهِ والرأسِ وَلَمْ يتمكنْ مِنْ إنقاذِها إِلَّا وَهِيَ عَلَى هَذِهِ الحالِ، فهل نَقُولُ له: قُلْ لها: غَطِّي وَجْهَك حَتَّـى أُنْقِذَكِ؟ لَا نَقُولُ هَـذَا! بل يَسْبَحُ ويُنْقِذُها، فَهَذَا ضرورةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب، رقم (٤٠١٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١).

واعْلَمْ أَنَّهُ قد شَاعَ عندَ بَعْضِ العامةِ أَنَّ الرجلَ إِذَا أَنْقَذَ امرأةً مِنْ هَلَكَةٍ صَارَ مَحْرَمًا لها، يَعْنِي مثلًا لو رَأَيْتَ امرأةً غارقةً وأَنْقَذْتَها مِنَ الغرقِ قالوا: تَكُونُ مَحْرَمًا لها؛ لِأَنَّكَ صِرْتَ مِثْلَ أبيها، وَهَذَا لَا أصلَ له.

إِذَنْ يجوزُ للرجلِ أَنْ ينظُرَ إِلَى المرأةِ للحاجةِ أو الضرورةِ، وَلِهَذَا جاءت كَلِمَةُ (من) حَتَّى يكونَ بَعْضُ النظرِ لَا بأسَ به.

قوله: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠] يَحْفَظُونها عَنِ الزِّنَى؛ عَنْ فعلِ الفاحشةِ وعَنِ اللواطِ، يحفظونها لِأَنَّ الزِّنَى -والعياذُ باللهِ- مِنْ أَسْوَأِ الأخلاقِ وأسفلِها، وَلِهَذَا لو قلتَ لرجلٍ: يا زاني. وَلَمْ تُقِمْ بينةً عَلَى ذَلِكَ وَلَمْ يُقِرَّ المقذوفُ بذلك وَجَبَ عَلَى وَلِيِّ الأمرِ أَنْ يجلدَكَ ثمانين جلدةً، وَبَعْدَ أَنْ كُنْتَ مِنْ أهلِ العدلِ صِرْتَ فاسِقًا وَلَا تُقْبَلُ شَهَادَتُك؛ كما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٤-٥]. لَكِن لو قلتَ لرجلٍ: يا كافرُ. فلَا تجلدُ ثمانين جلدةً؛ لِأَنَّ العارَ الَّذِي يلحقُ بالزِّنَى أعظمُ مِنَ العارِ الَّذِي يلحقُ بالكفرِ، وإِنْ كَانَ الكفرُ فِي الآخرةِ أعظمَ.

إِذَنْ يجب حفظُ الفروجِ عَنِ الزِّنَى وعَنِ اللواطِ، والزِّنَى فاحشةٌ واللواطُ أفحشُ، وَلِهَذَا قَالَ لُوطٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لقومِه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف:٨٠] والفاحشةُ معرفةٌ بـ(أل) الدالةِ عَلَى الحقيقةِ والكمالِ، يَعْنِي أَنَّ أكملَ فاحشةٍ هِيَ اللواطُ، وفِي الزِّنَى قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [النساء:٢٢]، ونكاحُ المحارمِ قَالَ فيه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢] وَلِهَذَا كَانَ أصحُّ أقوالِ العلماءِ أَنَّ مَنْ زَنَى

بِذَاتِ محرمٍ مِنْهُ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ بكلِّ حالٍ، يَعْنِي لَوْ أَنَّ أحدًا زَنَى بأُخْتِه -والعياذُ باللهِ- أو زَنَى بعمَّتِه أو خالتِه أو زَنَى ببنتِه وَجَبَ أَن يقتلَ سواءً كَانَ ثيبًا أم بكرًا، لِأَنَّ هَذِهِ فاحشةٌ ومقتٌ.

عَلَى كُلِّ حالٍ: لَيْسَ هَذَا موضعَ ذِكْرِ هَذِهِ المسألةِ لَكِنِّي أقولُ: يجبُ حِفْظُ الفرجِ عَنِ الزِّنَى واللواطِ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الغضُّ مِنَ البصرِ وحفظُ الفرجِ ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور:٣٠] أي أعظمُ زكاءً، والزكاءُ ضدُّ الشقاءِ، وكُلَّما غَضَّ الإنسانُ بصرَه عَنْ مَحَارِمِ اللهِ سَيَجِدُ لذةً عظيمةً فِي القلبِ وطهرًا وزكاءً.

فإذا قَالَ قائلٌ: تُقَابِلُنِي المرأةُ بغتةً فأنظرُ إِلَى وجهِها فماذا أصنعُ؟

نقولُ: لَهُ النظرةُ الأولى، ولَكِنْ يجبُ أَنْ يصرفَ وَجْهَه، ولَا سِيَّما إِذَا رَأَى مِنْ نَفْسِه تعلقًا بها، فَإِنَّهُ يجبُ أَنْ يصرفَ وجهَه، وَإِذَا خَافَ مِنْ نفسِه أَن تُحاوِلَ إعادةَ النظرِ فليذهبْ مِنْ طريقٍ آخرَ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠] لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ.

قوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النور:٣١] هَذَا أمرٌ بإبلاغِ الجنسِ الآخَرِ وهم النساءُ ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، إِذَنْ تَساوَى الطرفان؛ فالمرأةُ يجبُ أَنْ تَغُضَّ مِنْ بَصَرِها ويجبُ أَنْ تحفظَ فَرْجَها مِنَ الزِّنَى -والعياذُ باللهِ- كالرجلِ تمامًا.

وقولُه: ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ المرأةُ فِي هَذِهِ الجملةِ أوسعُ مِنَ الرجلِ؛ لِأَنَّ

المرأةَ يجوزُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى الرجلِ إِلَّا إِذَا خَافَتِ الفتنةَ، فيجوزُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى الرجلِ كَاشِفًا وَجْهَه إِلَّا إِذَا خَشِيَت الفتنةَ، بِأَنْ صَارَت تَتَلَذَّذُ بالنظرِ إِلَى وجهِ الرجـلِ أو كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بالنظرِ إِلَى وجهِ الرجلِ، فحينئذٍ يحرُمُ عَلَيْهَا، أَمَّا إِذَا كَانَ نَظَرًا عاديًّا أو تتمتَّعُ بأفعالِ الرجلِ لَا بجمالِه مَثَلًا فَهَذَا لَا بأسَ به.

إِذَنْ يجوز للمرأةِ أَنْ تَنظُرَ إِلَى الرجلِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ عَمَلُ المُسْلِمِينَ منذُ بُعِثَ الرَّسُولُ إِلَى يومِنا هَذَا؛ أَنَّ النساءَ يَنْظُرْنَ إِلَى الرجالِ، ولولا ذَلِكَ لقُلْنَا: يَجِبُ عَلَى الرجالِ أَنْ يَسْتُرُوا وُجُوهَهم عَنِ النساءِ؛ لأجلِ أَلَّا تَرَى المرأةُ وجهَه كما أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى المرأةِ أنْ تَسْتُرَ وجهَها لِئَلَّا يَرَى وَجْهَها الرجلُ.

إِذَنْ، بالنسبةِ لقولِه: ﴿**يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ**﴾ النساءُ أوسعُ مِنَ الرجالِ، يَعْنِي قَدْ يُسِّرَ لَهُنَّ مَا لم يُيَسَّرْ للرجـلِ، فيجوزُ للمرأةِ أَنْ تَنْظُرَ للرجـلِ فِي المسجدِ، وفِي الشارعِ، وفِي موعظةٍ أو فِي محـاضرةٍ، وفِي كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا عِنْدَ خَوْفِ الفتنةِ، والفتنةُ إما أَنْ تَتَمَتَّعَ بالنظرِ إِلَى هَذَا الرجلِ وإِمَّا تثورُ شَهْوَتُها بالنظرِ إِلَى هَذَا الرجلِ، ففي هَذَا الحالِ يحرُمُ.

فإن قَالَ قائلٌ: كيفَ تُفَرِّقُ بَيْنَ الرجالِ والنساءِ ولفظُ الآيتين واحدٌ؟

فالجوابُ: أُفَرِّقُ فِي هَذَا لِأَنَّ السُّنَّةَ فَرَّقَتْ بينهما، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ لفاطمةَ بِنْتِ قَيْسٍ: «**اعْتَدِّي عِنْدَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ**»[1]، فَأَبَاحَ لها أَنْ تَنْظُرَ إليه لِأَنَّهُ أَعْمَـى، وَأَمَّا حديثُ زَوْجَتَي النَّبِـيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ دَخَلَ رَجُلٌ أعمى فأمرهما أَنْ تَحْتَجِبَا مِنْهُ فقَالَتَا:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، رقم (١٤٨٠).

يا رسولَ اللهِ إِنَّهُ أَعْمَى، فَقَالَ: «أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا، أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ»[1]، فَهَذَا حديثٌ ضعيفٌ لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّ السُّنَّةَ طَافِحَةٌ بِرَدِّ هَذَا الحديثِ، فالمرأةُ تَأْتِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ تَسْتَفْتِيه وحولَه أصحابُه وَهِيَ تَنْظُرُ إليهم، يَعْنِي لَا يمكنُ أَنْ تَمْشِيَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَهِيَ قَدْ أَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا.

ثُمَّ إِنَّ الحبشةَ قَدِمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، والحبشةُ مَوْطِنُهم أفريقيا، وهم يُحِبُّونَ اللهْوَ واللعبَ، فَقَدِمُوا وفدًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ ومَعَهُمْ حِرَابُهم الَّتِي يقاتلون بها، وجَعَلُوا يَلْعَبُون بالحِرَابِ فِي مسجدِ النَّبِيِّ ﷺ، ونظيرُها مَا يُسَمَّى عندنا اليومَ بالعرضةِ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ فيها طبولٌ ولَكِنْ عندنا العرضةُ بالسيوفِ والبنادقِ، هَؤُلَاءِ جَعَلُوا يَلْعَبُون فِي مسجدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صغيرةَ السنِّ فَأَحَبَّتْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى لَعِبِهم، فأَذِنَ لها النَّبِيُّ ﷺ وجعَلَها تَنْظُرُ إليهم، وَهُوَ قَدْ سَتَرَها عنهم.

تقولُ أُمُّنَا عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ، يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالدَّرَقِ وَالحِرَابِ، فَإِمَّا سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَإِمَّا قَالَ: «تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ؟» فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَأَقَامَنِي وَرَاءَهُ، خَدِّي عَلَى خَدِّهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ»، حَتَّى إِذَا مَلِلْتُ قَالَ: «حَسْبُكِ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاذْهَبِي»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب اللباس، باب في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، رقم (٤١١٢)، والترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء فِي احتجاب النساء من الرجال، رقم (٢٧٧٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب الحراب والدرق يوم العيد، رقم (٩٤٩)، ومسلم: كتاب العيدين، باب الرخصة فِي اللعب الذي لا معصية فيه، رقم (٨٢٩).

تَرَكَها حَتَّى شَبِعَت ومَلَّت، وَفِي هَذِهِ الحالِ كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَى رجالٍ يلعبون، ولو كَانَ نَظَرُ المرأةِ إِلَى الرجالِ حرامًا مَا أَذِنَ لها الرَّسُولُ ﷺ، ولَا سِيَّما وَأَنَّهَا مِنْ زَوْجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّاتِي هُنَّ أَطْهَرُ النساءِ وأَعفُّ النساءِ.

إِذَنْ نَظَرُ المرأةِ إِلَى الرجلِ أَوْسَعُ مِنْ نَظَرِ الرجلِ إِلَى المرأةِ؛ لِأَنَّ تَعَلُّقَ الرجالِ بالنساءِ أَشَدُّ مِنْ تَعَلُّقِ النساءِ بالرجالِ، وَهَذَا شَيْءٌ واضحٌ، وَلِهَذَا فإِنَّ الإنسانَ فِي الجنةِ لَهُ مِنَ الحورِ العِينِ عددٌ كَبِيرٌ، والنساءُ لَيْسَ لَهُنَّ أزواجٌ إِلَّا بَنُو آدَمَ الَّذِينَ فِي الجنةِ.

قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾ أي يُظْهِرْنَ، ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ أي لِبَاسَهُنَّ، ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي مِنَ الزينةِ الملبوسةِ، هَذَا مَعْنَى الآيةِ الَّذي لَا تَحْتَمِلُ غَيْرَه؛ لِأَنَّ الزينةَ منفصلةٌ عَنِ المزَيَّنِ، وَلِهَذَا يقالُ: تَزَيَّنَ الرجلُ بالثيابِ، وَلَا يقالُ: تَزَيَّنَ بوجهه، فالزينةُ منفصلةٌ عَنْ محَلِّها، واقْرأْ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢] فزينةُ اللهِ: اللباسُ، وقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦] فالمالُ والبنونَ زينةٌ، إِذَنْ هِيَ منفصلةٌ.

ولِذَلِكَ فإِنَّ تَفْسِيرَ بَعْضِ المفسرين الزينةَ بالوجهِ والكفينِ يُعْتَبَرُ قولًا ضعيفًا لَا تؤيدُه اللغةُ العربيةُ وَلَا يؤيدُه القرآنُ، فالزينةُ شَيْءٌ منفصلٌ عَنِ المَحَلِّ الَّذِي تَزَيَّنَ بها وَلَا بُدَّ، وَقَدْ مَرَّت عَلَيْنَا الشواهدُ.

ولَكِن يَبْقَى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ مَا الَّذِي ظَهَرَ منها؟ المرأةُ معروفٌ أَنَّها لها لباسانِ، لباسٌ دَاخِلُ الجلبابِ ولباسٌ ظاهرٌ وَهُوَ الجلبابُ، يَعْنِي العباءاتِ مَثَلًا، فالعباءاتُ مِمَّا ظَهَر والقميصُ مما بَطَنَ، وإِنَّما قَالَ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ أي: لَكِنْ مَا ظَهَرَ مِنْهَا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتبيَّنَ، وَلَا يمكنُ أَنْ نَقُولَ بوجوبِ إخفائِه إِلَّا إِذَا قُلْنَا: يجبُ أَلَّا تخرجَ المرأةُ إِلَّا لَيْلًا مَثَلًا، وَلَا قائلَ بِهِ.

إِذَنْ ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ أي مِنَ الزينةِ، والزينةُ هِيَ اللباسُ كَمَا قَرَّرْنَا، والذي يَظْهَرُ مِنَ اللباسِ هُوَ مَا يَظْهَرُ مِنَ المرأةِ عادةً؛ كالجلبابِ والعباءاتِ وما أَشْبَهَها، هَذَا معنى الآيةِ الَّذِي لَا تَحْتَمِلُ غَيْرَه، والذي قَالَ به عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجماعةٌ.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١] الخُمُرُ: غِطَاءُ الرأسِ، فَأَوْجَبَ اللهُ عَلَى المرأةِ أَنْ تَضْرِبَ بالخِمارِ عَلَى الجَيْبِ الَّذِي تَحْتَ العُنُقِ حَتَّى لَا يَبْدُوَ الصدرُ، والغالبُ أَنَّهُ إِذَا ضَرَبَتْ بالخِمارِ عَلَى الجَيْبِ أَنْ تَسْتُرَ الوجهَ؛ لِأَنَّ الخِمارَ يَنْزِلُ مِنَ الرأسِ فَلَا يَسْتُرُ الجَيْبَ إِلَّا إِذَا سَتَرَ الوجهَ، وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الآيةُ مِنْ أَدِلَّةِ مَنْ يقولُ بوجوبِ سَتْرِ الوجهِ.

قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يَعْنِي الزينةَ الباطنةَ؛ لِأَنَّ الظاهرةَ سَبَقَ أَنَّها لَا بُدَّ أَنْ تَظْهَرَ، وَهِيَ لِبَاسُ البيتِ الَّذِي لَا يَظْهَرُ إِذَا خَرَجَتِ المرأةُ إِلَى السوقِ إِلَّا لِمَنْ يَأْتِي فِي بَقِيَّةِ الآيةِ، قَالَ تعالى: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:٣١] سُبْحَانَ اللهِ العظيمِ! إِذَا كَانَ الشَّيْءُ مُهِمًّا تَجِدُ القرآنَ الكريمَ يُفَصِّلُ فِيهِ تَفْصِيلًا ويَعُدُّه عَدًّا: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ الأزواجِ، ﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ لِأَنَّ أبا الزوجِ مِنْ محارمِ زوجةِ ابْنِه، وَجَدُّهُ كَذَلِكَ دَاخِلٌ فِي هَذَا؛ لِأَنَّ الجَدَّ يُسَمَّى أَبًا؛ كما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨] وإبراهيمُ لَيْسَ أَبًا مُبَاشِرًا بل مِنَ الأجدادِ، ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ الأشقاءِ أو لأبٍ أو لأمٍّ، الجميعُ،

(١) تفسير الطبري (١٩/ ١٥٥).

﴿أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ يَعْنِي ذريةَ الإخوانِ، سواء كان ابْنَ صُلْبٍ أو ابْنَ ابْنٍ أو ابْنَ بِنْتٍ وإِنْ نَزَلَ، ﴿أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ مَا ذُكِرَ أَخَوَاتٌ لِأَنَّ الأخواتِ نساءٌ والكلامُ عَلَى الرجالِ، ﴿أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ كذلك بنو الأخواتِ سَوَاء كَانَ ابْنَ أُخْتٍ مِنْ رَحِمِها المباشرِ أو ابْنَ بِنْتِ ابْنِهَا أو ابْنَ بِنْتِها وإِنْ نَزَلَ.

قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ اختلفَ المفسرون هنا مَا المرادُ بقولِه: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾؟

فقيل: المرادُ جميعُ النساءِ، وقيل: المرادُ النساءُ المُسْلِماتُ، فَإِذَا قُلْنَا بالأولِ فالمرأةُ يجوزُ أَنْ تُكْشَفَ للمرأةِ الأُخْرَى، سَوَاءً كَانَتْ مِثْلَها فِي الدِّينِ أو عَلَى خِلَافِها، وعَلَى هَذَا القولِ يجوزُ للمرأةِ أَنْ تَكْشِفَ وجهَها للمرأةِ الكافرةِ، وعَلَى القولِ الثَّانِي لَا يجوزُ للمرأةِ المُسْلِمةِ أَنْ تُكشَفَ للكافرةِ، ولَكِنَّ الصَّحيحَ القولُ الأولُ؛ أَنَّ المرادَ بالنساءِ الجنسُ، أي للمرأةِ أَنْ تَكْشِفَ للمرأةِ ولو كَانَتْ كافرةً.

ولم يُذْكَرِ الخالُ وَلَا العمُّ، قَالَ بَعْضُ العلماءِ: إِنَّهُ لم يُذْكَرِ العمُّ والخالُ لِأَنَّ العمَّ صِلَتُه بالمرأةِ ليست كصلةِ الأخِ وَلَا كصلةِ الابنِ، ولأَنَّ نَسْلَ الأخِ والابنِ مَحْرَمٌ للمرأةِ، فَلَا يمكنُ أَنْ يَتَزَوَّجَها؛ لِأَنَّ نسلَ أخيها تكونُ لَهُ عمةً، ونسلَ ابْنِها تكونُ له جَدَّةً، لَكِنَّ الخالَ أبعدُ رَحِمًا مِنَ العمِّ، والخالُ أَبْعَدُ رَحِمًا مِنَ الأخِ، وابْنُ العمِّ والخالِ يجوزُ أَنْ يتزوجَ مِنْ بِنْتِ عَمَّتِه أو خَالَتِه، وَإِذَا كَانَ يجوزُ أَنْ يتزوجَ مِنْ بِنْتِ عَمَّتِه وَخَالَتِه فإِنَّه مِنَ الممكنِ أَنْ يَصِفَ العَمُّ والخالُ المرأةَ، الَّتِي هُوَ عَمُّها وخَالُها وَصْفًا دَقِيقًا، يقولُ لابْنِه: هَذِهِ المرأةُ فيها كذا وفيها كذا وفيها كذا. فيتعلقُ قَلْبُ الابْنِ بهذه المرأةِ.

ولَكِنْ لَمْ أَطْمَئِنَّ إِلَى هَذَا التعليلِ وأقولُ: اللهُ أَعْلَمُ ولَا نَدْرِي، والعمُّ والخالُ مِنَ المحارمِ، أي: يجوزُ للمرأةِ أَنْ تَكْشِفَ لِعَمِّها وَخَالِها لأَنَّهُمْ مِنْ مَحَارِمِها.

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ [النور:٣١] يَعْنِي امرأة لها رقيقٌ، أي: عَبْدٌ مملوكٌ، فلها أَنْ تُبْدِي زِينتَها لَهُ، لَكِنْ بِشَرْطِ ألا يكونَ هُنَاكَ فتنةٌ، وإنما رَخَّصَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ للسيدةِ أَنْ تُبْدِيَ زِينتَها لِعَبْدِهَا لِمَشَقَّةِ التَّحَرُّزِ منه؛ لِأَنَّ العبدَ فِي البيتِ دائمًا، فَمِنْ ثَمَّ رَفَعَ اللهُ الحرجَ عَنِ السيدةِ فلم يَمْنَعْهَا مِنْ أَنْ تُبْدِيَ زِينتَها الخفيةَ.

قوله: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ [النور:٣١] التَّابِعُ: الخَادِمُ، وَمَعْنَى الإِرْبَةِ الحَاجَةُ، فَهَذَا خادمٌ لَيْسَ لَهُ حاجةٌ فِي النساءِ إطلاقًا، ورُبَّمَا إِذَا حَدَّثْتَه عن النساءِ قَالَ: اسْكُتْ جَزَاكَ اللهُ خيرًا، فما لَهُ رَغْبَةٌ، فهَذَا يجوزُ لِرَبَّةِ البيتِ أَنْ تُبْدِيَ لَهُ الزينةَ الخفيةَ؛ لِمَشَقَّةِ التَّحَرُّزِ منه.

قال: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:٣١] لم يَقُلِ: «الطفلِ الَّذِي»؛ لِأَنَّ المرادَ بالطفلِ هنا الجنسُ، وَهُوَ صالحٌ لِلْوَاحِدِ والجماعةِ، وَمَعْنَى ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لم يَعْرِفُوا مَا يَتَعَلَّقُ بالنِّكَاحِ، طِفْلٌ صغيرٌ لَا يَدْرِي، والآيةُ قَيَّدَتْه بالوصفِ بقطعِ النظرِ عَنْ سِنِّه؛ لِأَنَّ بَعْضَ الأطفالِ يَظْهَرُ عَلَى عوراتِ النساءِ ويعرفُ هَذِهِ الأمورَ وَهُوَ صغيرٌ، فيكونُ مَثَلًا أبوه وعمُّه وأخُوه يَتَحَدَّثُونَ دائمًا فيما يَتَعَلَّقُ بذلك فيعرِفُ، وبعضُ الأطفالِ لَا يعرفُ وَلَا يَدْرِي عَنْ هَذِهِ الأمورِ شيئًا، فالأولُ نَتَحَرَّزُ مِنْهُ مُبَكِّرًا، والثَّانِي لَا نَتَحَرَّزُ مِنْهُ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي شيئًا عَنْ هَذِهِ الأمورِ.

فإذا قَالَ قائلٌ: هل يختلفُ ذَلِكَ باعتبارِ كِبَرِ الجسمِ وصِغَرِ الجسمِ؟

فالجوابُ: لَا يختلفُ، قَدْ يَكُونُ صغيرَ الجسمِ وَمَعَ ذَلِكَ إِذَا رَأَى المرأةَ فَرَّ إليها وتَعَلَّقَ بها، وَقَدْ يَكُونُ كَبِيرَ الجسمِ لَكِنْ لَا يَهْتَمُّ بِهَذِهِ الأمورِ.

إِذَنْ لَا نَتَعَدَّى مَا وَصَـفَ اللهُ به هَذَا الطفلَ فِي قولِه: ﴿لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

ونَعْرِفُ أَنَّهُ يَظْهَرُ عَلَى عوراتِ النساءِ أَوْ لَا يَظْهَرُ بأنه إِذَا جَاءَ لأَبِيه أو أُمِّه فَقَالَ: يا أُمِّي واللهِ رَأَيْتُ امرأةً اليومَ مِنْ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ، لَيْتَها زَوْجَتِي يا أُمِّي. فهَذَا ظَهَرَ عَلَى عوراتِ النساءِ لَا شَكَّ، إِنْ لم يَكُنْ هَذَا ظاهرًا عَلَى عوراتِ النساءِ فمَنِ الَّذِي يَظْهَرُ؟!

يَعْنِـي نَعْرِفُ أَنَّهُ ظَـهَرَ بالقرائنِ أو بكونِه يلاحِـظُ ملاحظةً خَاصَّةً بالنساءِ، أو لكونِه يَتْبَعُ المرأةَ الجميلةَ، فكُلَّمَا رَأَى امرأةً جميلةً مَشَى ورَاءَهَا لجَمَالِها، إِذَنْ ظَهَرَ عَلَى عوراتِ النساءِ.

ثم قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١] الَّذِي يُخْفَى مِنَ الزينةِ: الخَلْخَالُ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي إِذَا ضَرَبَتِ المرأةُ بِرِجْلِهَا عَلَى الأرضِ صَارَ لَهُ صَوْتٌ، فعُلِمَ أَنَّ عَلَيْهَا خَلْخَالًا، وَإِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَى نَهَى أَنْ تَضْرِبَ المرأةُ بِرِجْلِها خَوْفًا مِنْ أَنْ يُعْلَمَ مَا يُخْفَى مِنْ خَلْخَالِها، فَمَا بَالُكَ بامـرأةٍ تَأْتِي وذِرَاعُها مكشوفةٌ مملوءةٌ مِنَ الذهبِ، فأَيُّهُمَا أَوْلَى بالتحريمِ؟ لَا شَكَّ أَنَّهُ الثَّانِي.

وَمَعَ الأسفِ فإِنَّ مِنْ نِسَائِنا مَنْ تَفْعَلُ ذَلِكَ، فتجدُ المرأةَ عَلَيْهَا حُلِيٌّ مِنْ أَنْوَاعٍ متعددةٍ ثُمَّ تَكْشِفُ ذِرَاعَها، سُبْحَانَ اللهِ! أَمَا تَخْشَى اللهَ.

وفي قولِه ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١] دليلٌ عَلَى أَنَّ لِبَاسَ النساءِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ كَانَ يَصِلُ إِلَى الكعبِ، والآنَ -والحمدُ للهِ- يُوجَدُ نِسَاءٌ ملتزماتٌ محتشماتٌ قَدْ مَلَأَ الحياءُ قُلُوبَهُنَّ، وَهُنَاكَ نِسَاءٌ لَا يُهِمُّها، فتأْخُذُ

مَا يُسَمُّونَه بالبردةِ، وَهِيَ مجَلَّةٌ كُلُّهَا أَزْيَاء مِنْ صُنْعِ الكفارِ، وكُلَّمَا أعجبها شَيْءٌ مِنْ هَذَا قَالَتْ لِلْخَيَّاطِ: خِطْ لي عَلَى هَذَا السِّيَاقِ، حَتَّى إنَّ بَعْضَ النساءِ تَلْبَسُ إِلَى الركبةِ فَقَطْ ويَبْقَى الساقُ ظَاهِرًا، أَيْنَ الحياءُ! أَيْنَ الإيمانُ!

والعَجَبُ أَنَّك تَجِدُ طِفْلًا وطِفْلَةً يمشيان مَعَ أُمِّهِا أو أبيهما؛ الطفلُ مَا شَاءَ اللهُ عَلَيْهِ قَمِيص يَصِلُ إِلَى الكَعْبِ، وَهَذِهِ عَلَيْهَا بَنْطَلُون أو عَلَيْهَا ثوبٌ قصيرٌ إِلَى الركبةِ، وَكَانَ الأولى أَنْ يَكُونَ الأمـرُ بالعكسِ، لَكِنِ انْقَلَبَتِ الأمـورُ والمفاهيمُ، نَسْأَلُ اللهَ السلامةَ، ونَسْأَلُه أَنْ يَهْدِيَ إخوانَنا لما فِيهِ الخيرُ.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ خاتِمًا للآيتينِ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]. اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا التوبةَ يا رَبِّ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْنَا، والمعنى: ارْجِعُوا إِلَى طاعـةِ اللهِ ودَعُوا مَعَاصِيَ اللهِ حَتَّى تُفْلِحُوا بحُصُولِ المطلـوبِ والنجاةِ مِنَ المَرْهُوبِ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



تَمَّ المُجَلَّدُ الثَّانِي بِحَمدِ الله تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ

وَيَلِيهِ بِمَشِيئَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ المُجَلَّدُ الثَّالِثُ

وَأَوَّلُهُ دُرُوسُ التَّفْسِيرِ (سُورَةُ الفُرْقَانِ)



فهرس الآيات

الآيـة	الصفحة

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث الصفحة

فهرس الفوائد

الفائدة | الصفحة

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

دروس التفسير

